

رَبِّ الْقَدِيسِ أَبَا مَقْارَ

بِرْتَهْ مُشْبِهِت

الْعَظَاتُ الْخَيْرُونَ



(عن الْأَصْلِ الْسُّرْنَانِي)

مُرْجِعَةٌ

الْأَبُو الْمَرْأَبِ بِرْهَنَةِ الْقَارِئِ
الْأَبُو الْمَرْأَبِ وَرَبِّ الْقَارِئِ



إِتَّافَ بِوَنَانَ لِهَارَنِي

إِشْرَافٌ

نِيَّاقَةُ الْقَدِيسِ الْمَيَّا تُوشِى

أَسْفَفُ وَرَبِّسُ رَبِّ الْقَدِيسِ أَبَا مَقْارَ

دبر القديس أنبا مقار
برتبة شهيد

العملة للقديس أنبا مقار
الفضائل الخمسون
للقديس أنبا مقار الكبير

(عنه الأصل السوزاني)

مراجعة	ترجمة
لأدب الرأي في وجه المقاري	أرسطو بونان المقاري
لأدب الرأي في ديد المقاري	

إشراف
نيلات الله العليا لابنها نيكوسى
أسقف ورئيس دير القديس أنبا مقار

كتاب: العطات الخمسون للقديس أبا مقار الكبير
إعداد: الراهب يونان المقاري
الطبعة الأولى: ٢٠١٦
مطبعة دير القديس أبا مقار — وادي النطرون
ص ب ٢٢٨٠ — القاهرة
الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٦٥٩٠ / ٢٠١٦
رقم الإيداع الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٥٥٤٥-٨٦-٢
ISBN ٩٧٨-٩٧٧-٥٥٤٥-٨٦-٢
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.

مقار الكبير، الأنبا
الأعمال الكاملة للقديس أبا مقار الكبير
ترجمة يونان المقاري؛ مراجعة يوحنا المقاري، ودید المقاري؛
إشراف الأنبا إيفانیوس
القاهرة دار مجلة مرقس ، ٢٠١٦
ص ؛ سم
المحتويات: العطات الخمسون لأنبا مقار الكبير
متدرجة عن الأصل اليوناني
٩٧٨ ٩٧٧ ٥٥٤٥ ٨٦ تدمك ٢
١- أقوال الأنباء
٢- الموعظ
أ- المقاري، يونان (مترجم)
ب- المقاري، يوحنا (مراجعة)
ج- المقاري، ودید (مراجعة مشارك)
د- إيفانیوس، الأنبا (مشرف)
ه- العنوان

يطلب من:
دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا — تليفون ٦١٤ ٢٥٧٧٠
الإسكندرية: ٨ شارع حرين — محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠
أو من مكتبة الدير — وادي النطرون
أو من خلال موقع الدير:
www.stmacariusmonastery.org



قداسة البابا تواضروس الثاني
بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية



نيافة أخبر الجليل الأنبا إبيفانيوس
أسقف ورئيس دير أنبا مقار الكبير

الفهرس

الفهرس	٧
تقديم	١٧
مقدمة	١٩
هذه العطات الخمسون	١٠٨
هذه الترجمة	١١٣
المراجع	١١٧
إهداء	١١٨
العظة الأولى ..	١٢٠
النفس عرش للمسيح	١٢٠
[أ] القدس عرش للمسيح ..	١٢٠
[ب] الروح القدس نور وملح ..	١٢٥
[ج] المسيح بيت القدس عن الخطيئة ..	١٢٨
[د] وللنفس ليس لها شركة الروح القدس ..	١٣٢
العظة الثانية ..	١٣٦
خلع الإنسان العتيق ولبس الجديد	١٣٦
[أ] الإنسان العتيق الفاسد ..	١٣٦
[ب] الله وحده يخلع عن الإنسان العتيق ..	١٣٨
[ج] الإنسان الجديد هو يسوع المسيح فينا ..	١٤٠
العظة الثالثة ..	١٤٢
الحبة الأخوية، ومقانلة الأفكار	١٤٢
[أ] أساس الحبة الأخوية ..	١٤٢
[ب] ضرورة مقانلة الأفكار ..	١٤٥
العظة الرابعة ..	١٤٨
الروح القدس واهب الإفراز ومضرم القلب	١٤٨

١٤٨	[١] الإفراز عن النفس.....
١٥٣	[ب] الروح القدس يهينا الإفراز.....
١٥٦	[ج] تمجد الرب واستعمله لنا.....
١٦١	[د] الامتحان من الكل والالتصاق بالرب.....
١٦٣	[ه] الرب لا يرجي يننظر رجوعنا إليه.....
١٦٥	[و] أطف الله وصراحته.....
١٧٠	[ز] حذار حذار من اليأس.....
١٧٥	العظة الخامسة
١٧٥	شئان بين المسيحيين وأهل العالم
١٧٥	[١] الشيطان يغوي أبناء هذا الهر.....
١٧٨	[ب] ما يغوي المسيحيين عن غيرهم.....
١٨٣	[ج] ميزان القلوب ٢٤٣ (شعيت)
١٨٨	[د] تكسس كل الحجة للرب وحده.....
١٩٢	[ه] المجد مُؤخر في الصبر على الشدائدين.....
١٩٥	[و] المجد مرهون باقتناص الروح القدس.....
٢٠٤	العظة السادسة
٢٠٢	الأساس الحقيقي للصلة
٢٠٢	[١] الصلة التي يقويها الإفراز.....
٢٠٤	[ب] الأساس الحقيقي للصلة:.....
٢٠٦	[ج] سؤالان عن الكراسي والأكاليل.....
٢٠٩	العظة السابعة
٢٠٩	تمييز الأرواح، وماهية النفس
٢٠٩	[١] مجنة الله للإنسان البائس.....
٢١٠	[ب] تواجد الله في كل مكان.....
٢١١	[ج] التمييز بين أمور العمة ومكابد وليس
٢١٣	[د] الفهم، والرؤيا، والإعلان.....
٢١٤	[ه] النفس: صورتها وأعضاؤها.....

٢١٦	العظة الثامنة
٢١٦	درجات الكمال
٢١٦	[أ] القدس عروش للرب
٢١٧	[ب] التعمة تدبر الإنسان كيما نشاء
٢٢٣	العظة التاسعة
٢٢٣	الشاغل بين التعمة والجهاد
٢٢٣	[أ] عمل التعمة عمل طویل الأمد
٢٢٧	[ب] نازح الحب الإلهي هديّة التعمة
٢٢٩	[ج] تكرس القدس للرب والصالحة به
٢٣٤	العظة العاشرة
٢٣٣	اشتياق النفس الجارف نحو الرب
٢٣٣	[أ] عبادة النفس للرب بلا شبع
٢٣٧	[ب] حماد النفس وصبرها على التجارب
٢٣٨	العظة الحادية عشرة
٢٣٨	المسيح ... منقذ النفس وفاديتها
٢٣٨	[أ] الروح القدس الحي يسكن قلوبنا
٢٤١	[ب] المسيح برداً آدم إلى رئاسته
٢٤٣	[ج] لنتقدّ خطام الدنيا ونشخص إلى المصلوب
٢٤٨	[د] الرب ينقذ القدس من براثن الموت
٢٥١	[ه] مناظرة بين الشيطان والإنسان المخاطب
٢٥٢	العظة الثانية عشرة
٢٥٣	الله يختتم خاصته بروحه القدس
٢٥٣	[أ] موت آدم عن الله بعميشه الوصية
٢٥٥	[ب] فلذين أنفسنا على أساس الرب والرسل
٢٥٨	[ج] معرفة آدم قبل التعمي وعده
٢٦١	[د] ليس لنا أن نستحيى فكر الله
٢٦٤	[ه] اقتداء الروح القدس هو شغلنا الشاغل

[و] القدس كيسة الله تُعرف إليه سنتها	٢٦٥
العظة الثالثة عشرة	٢٧١
من يغلب يرث كلَّ شيء	٢٧١
العظة الرابعة عشرة	٢٧٤
استنارة عيون القلب	٢٧٤
[أ] الصلاة على رحمة استنارة عيون القلب	٢٧٤
[ب] المسيحيون يحيون بالروح القدس	٢٧٧
العظة الخامسة عشرة	٢٧٩
حرية إرادة الإنسان وجلال قدره	٢٧٩
[أ] الملك المسيح يُثْلِب القدس البائسة	٢٧٩
[ب] القدس تخدم الرب بروحه	٢٨٣
[ج] فيها ينبع قيمة الأجساد	٢٨٧
[د] لا بد للحق أن يُخْطَل	٢٨٨
[ه] حفظ القلب وذرة الأفكار الحية عنه	٢٨٩
[و] التعميم تغير ناموسها في القلب	٢٩٤
[ز] سلطان الإنسان على ذاته	٢٩٧
[ح] كرامة الإنسان ومسؤوليته إزامها	٣٠٣
[ط] قتيل الإنسان طُوقاً نحو الخير أو الشر	٣٠٨
[ي] تفوُّت الإنسان رويداً رويداً	٣١٢
[ك] منزلة الإنسان الأوربة عند الله	٣١٤
[ل] الشهير على القلب وتفاهته	٣١٨
العظة السادسة عشرة	٣٢٤
ما تزرعه الشخص إياه تحصد	٣٢٤
[أ] حرية اختيار القدس للخير أو الشر	٣٢٤
[ب] تواجد نسمة الله في القدس المخططة	٣٢٦
[ج] افتقاء الرب هو تجارة القدس الزراجمة	٣٣٠
[د] يلزم أن يفارق خوف الله قلوبنا	٣٣٢

٤٤٧	العظة السابعة عشرة
٤٤٧	اطلالة النفس على الحياة الأبدية
٤٤٧	[أ] غربون الحياة الأبدية في هنا الْمُعَرَّ
٤٤٠	[ب] النفس يتنارعها الصلاح والشّر
٤٤٤	[ج] ملوكوت الله بالعمل لا بالكلام
٤٤٧	[د] المسيح، لا غير، هو "الطريق"
٤٥٠	العظة الثامنة عشرة
٤٥٠	الروح القدس ... كنز الصالحات
٤٥٠	[أ] كنز الروح القدس
٤٥٤	[ب] الروح القدس وإن سفينة النفس
٤٥٩	العظة التاسعة عشرة
٤٥٩	التغصّب ... سبيل الامتلاء من الروح
٤٥٩	[أ] ضرورة التغصّب نحو جميع الفضائل
٤٦٥	[ب] شكوى الروح القدس في الثلب
٤٦٨	العظة العشرون
٤٦٨	المسيح ... لباس النفس وطبيتها الوحيد
٤٦٨	[أ] المسيح وروحه القلوس ها لباس النفس
٤٧١	[ب] المسيح هو طيب النفس الوحيد
٤٧٥	العظة الخامسة والعشرون
٤٧٥	الحرب المزدوجة قبلة المسيحيين
٤٧٥	[أ] الإنسان المسيحي عيشه حربين
٤٧٧	[ب] الحرب تكشف ملئ يشع في الجهد
٤٧٨	[ج] سلاح الله الكامل
٤٨٠	العظة الثانية والعشرون
٤٨٠	مصير النفس حال خروجها من الجسد
٤٨١	العظة الثالثة والعشرون
٤٨١	الروح القدس يُعدُّ النفس للحرب

٣٨١	[أ] المولود من الروح يائس المسيح
٣٨٢	[ب] الروح القدس تروض التقى المجموع
٣٨٤	العظة الرابعة والعشرون الروح القدس ... الخميرة المقدسة
٣٨٤	[أ] التجارة البطلى لله [ب] خبرة الروح القدس الشاملة
٣٨٥	[ج] من دون الروح القدس لا تنفع التقى شيئاً
٣٨٧	العظة الخامسة والعشرون قوّة الدّموع والنّار الإلهيّة
٣٩٠	[أ] الإنسان مفرده لا يمكن أن يطلب
٣٩٢	[ب] حالنا البائسة من دون نعمة الله
٣٩٥	[ج] الرب يقبل التّمّاع عوض أشيته
٣٩٨	[د] نار الروح القدس تضرم القلوب
٤٠١	العظة السادسة والعشرون مسيرة الإنسان، ومؤازرة الروح القدس
٤٠١	[أ] سُوق التقى الحالّة وكرامتها
٤٠٢	[ب] الشّيطان ليس مطلق العنوان
٤٠٤	[ج] عدم مبارحة طبيعة التقى الحالّا
٤٠٦	[د] الشّيطان لا يجرّب (لا سباج من الله)
٤٠٨	[ه] بحمد الإنسان وتشكّه بالفرح والمراء
٤١٢	[و] حرب الشّيطان باقية ما يهتّم الحياة
٤١٥	[ز] لا ثغر للإنسان بدون الروح القدس
٤١٩	[ح] كما تأمّل الرب لأجلنا، حريّ بما أن تتأمّل لأجله
٤٢٤	العظة السابعة والعشرون للإنسان أن يضرم الروح أو يحزنه
٤٢٤	[أ] معرفة الإنسان لكرامته وفتح اقضاه
٤٢٩	[ب] التّهمة تهيّ الإنسان شرّ الكربلاء

٤٣١	[ج] حرية الإنسان الكلمة في اختياره لبره
٤٣٦	[د] [مكابية سقوط الإنسان لأنّها كانت قاتمة]
٤٣٨	[ه] فلنحص لفلاً نُسلِّمَ آيتنا يد أعدائنا ^٠
٤٤١	[و] حرية الإرادة حجر المخلّ للإنسان
٤٤٥	العظة الثامنة والعشرون
٤٤٥	ترائي الحبيب للنفس وسكناه فيها
٤٤٥	[أ] [ول] لنفس لا يسكن فيها المسيح
٤٤٧	[ب] الرب يتزامن روحياً للنفس الأمينة
٤٤٩	[ج] أعظم مواليد النساء، ومن هم أعظم منه
٤٥١	العظة التاسعة والعشرون
٤٥١	تدابير نعمة الله من نحوبني البشر
٤٥١	[أ] أولئك الذين تأتهم النعم سريعاً
٤٥٢	[ب] أولئك الذين تتمهل عليهم النعم
٤٥٥	[ج] دينونة الإنسان على قدر معرفته
٤٥٨	العظة الثلاثون
٤٥٨	المسيح يرسم صورته فيها، ويداوي نفووسنا
٤٥٨	[أ] غاية عبّي، الرب أن يلطفنا من روحه
٤٦٠	[ب] فلتلتحق إلى الرب ليرسم صورته فيها
٤٦٣	[ج] المسيح الطيب الحق يفرج أهباً أبواب قلوبنا
٤٦٧	العظة الحادية والثلاثون
٤٦٧	المسيح يجمع شتات أفكار النفس
٤٦٧	[أ] المسيح يجمع إليه أفكار القدس
٤٦٩	[ب] فلنضع رحمنا دواماً على الرب وحده
٤٧٤	العظة الثانية والثلاثون
٤٧٤	مجد الأجساد المقاومة، وتوق الله خلاص الجميع
٤٧٤	[أ] الروح القدس يسريل الأجساد المقاومة
٤٧٧	[ب] ظلل الشياطين، والشياطين عينها

[ج] القدس العادمة شرکة الروح مدعاة للزراء	٤٧٩
[د] اليمة تشيع للضيقات لأجل المنفعة.....	٤٨١
[ه] الله ينشد خلاص الجميع.....	٤٨٣
العظة الثالثة والثلاثون الصلوة دعوةً إلى رب الحضور	٤٨٤
[أ] الصلوة بانتظار قوم الرب	٤٨٤
[ب] حضور الرب وسكناه في القلب	٤٨٦
العظة الرابعة والثلاثون المدينة التي لها الأساسات.	٤٨٨
العظة الخامسة والثلاثون السبت الحقيقي كفً عن الشر	٤٩٢
العظة السادسة والثلاثون تبنيان القديسين ووحدتهم في آن واحد	٤٩٥
العظة السابعة والثلاثون فرصة المغفرة للقريب، وكون النفس كنيسة لله	٤٩٧
[أ] المغفرة هي بكيل التاموس.....	٤٩٧
[ب] الروح القدس يعلن لنا الميراث المنتظر.....	٥٠٢
[ج] القدس المزانة بالفضائل هي كنيسة.....	٥٠٣
العظة الثامنة والثلاثون المسيحي الحق وتدير التعميم له	٥٠٨
[أ] ذرو الفطنة يهدون الحق من الرب	٥٠٨
[ب] الشيطان يئش الشرور للصالحين	٥١٠
العظة التاسعة والثلاثون غاية إرسال الله الكتب المقدسة	٥١٢
العظة الأربعون الصلوة رأس الفضائل ومصرمة التعميم	٥١٣
[أ] الفضائل مروطة ببعضها، وكذا الشرور	٥١٣

٥١٥	[ب] هنوات الترجمات في الملوك، وكنا في حكم
٥١٧	[ج] الصلاة توجّه النساء كما الحطب للثمار.....
العظة الحادية والأربعون	
٥١٩	الثواضع صون للثعمة
٥١٩	[أ] تقليل الخطيبة في النساء.....
٥٢٠	[ب] الكواضع يصونن الثعمة
العظة الثانية والأربعون	
٥٢٢	العدو الرئيسي في الداخل
٥٢٣	[أ] المسيح والروح القدس حصن للناس
٥٢٤	[ب] الانتهاء للإنسان العتيق في الداخل
العظة الثالثة والأربعون	
٥٢٥	حفظ القلب كأشد ما يكون الحفظ
٥٢٥	[أ] المسيحيون يخربون من سراج الأهواء فيه
٥٢٧	[ب] الالتصاق الشائم بالرب يحرق الشياطين
٥٢٨	[ج] وجوب الكفاح والغرس إلى النهاية
٥٣٠	[د] أرواح الشر تلقي مرتع فيها
العظة الرابعة والأربعون	
٥٣٣	الرب يغير النفس ويجددها
٥٣٣	[أ] الرب يغير النفس الوحشية إلى الصلاح
٥٣٥	[ب] الرب هو طيب النفس الحقيقي
٥٣٧	[ج] الروح القدس يطير بالنفس فوق هذا العالم
٥٣٩	[د] المسيح الرحمن الرابع لسفينة النفس
العظة الخامسة والأربعون	
٥٤٢	القرابة الحميمة بين النفس والمسيح
٥٤٢	[أ] ثبات حالة الإنسان الأولى
٥٤٤	[ب] المسيح وحده طيب النفس ودواهها
٥٤٥	[ج] وشائع الثغر بين الله والناس

..... ٥٤٩	العظة السادسة والأربعون
..... ٥٤٩	الشركة الوطنية بين الله والنفس
..... ٥٤٩	[ا] يهدى الله بين أولاد الله وأولاد العالم
..... ٥٥١	[ب] عق الشركة بين الله والنفس
..... ٥٥٥	العظة السابعة والأربعون
..... ٥٥٥	المسيح يقود النفس في موكب نصرته
..... ٥٥٥	[ا] الكاموس رمز وظيل للحقيقة
..... ٥٥٩	[ب] المسيح يمحق النفس من عبودية الشيطان
..... ٥٦٤	[ج] المؤمن يعمق النفس، والرَّبُّ يعثثها
..... ٥٦٧	[د] المسيح يُحول ممارتنا إلى حلوة
..... ٥٦٩	العظة الثامنة والأربعون
..... ٥٦٩	الاتكال الكامل على الله
..... ٥٧٤	العظة التاسعة والأربعون
..... ٥٧٤	الغرابة عن العالم، وحلول الله في الإنسان
..... ٥٧٤	[ا] فرح الروح القدس مقابل فرح العالم
..... ٥٧٦	[ب] الله يدخل الإنسان سكنا له
..... ٥٧٩	العظة الخمسون
..... ٥٧٩	كنز الروح في إماء النفس الخزفي
..... ٥٧٩	[ا] الله يصل بواسطة قيسية
..... ٥٨١	[ب] انسكاب الروح بفتح بمحى المسيح

تقديم

سيبدأ دير القديس العظيم أبا مقار الكبير ببرية شيهيت بنشر الأعمال الكاملة للقديس أبا مقار، وهي تضم مجموعات العظات والصلوات والأقوال والرسائل والسيرية، في أصولها اليونانية والقبطية والسريانية، بالإضافة إلى الأعمال المنسوبة إليه.

نشكر الرَّاهب الَّذِي قام بترجمة هذه العظات عن اللُّغَة اليونانية، كما نشكر الأب الفاضل الرَّاهب يوحنا المقاري والأب الفاضل الرَّاهب وديد المقاري الَّذِين قاما بمراجعة هذه الترجمة.

الرَّبُّ يستخدم هذا العمل لمجد اسمه القدُّوس، ببركة شفاعة أمينا العذراء مريم والقديس العظيم أبا مقار، وببركة صلوت صاحب القدسية البابا تواضروس الثاني، وإلهنا كلُّ مجِدٍ في كنيسته.

الأب إيفانيوس

أسقف ورئيس دير القديس العظيم أبا مقار الكبير

مقدمة

للمترجم

إلى واحدةٍ رَحْبَةٍ ظليلةٍ يدعونا أننا مقار في هذه العظات، لكيما نَتَفَقَّأُ
أشجارها ونختمي بها من قَيَظِ هذا العالم؛ وإلى تَبَعٍ دافِقٍ صافٍ يقودنا،
لكيما نَنْهَلَّ من مائه العذب ونُرْوِي شديداً عطشنا في بِرِّية هذه الحياة.
فجميعنا - أدركنا هذا أم لم ندرِّكه - عطاشٌ إلى الحَبْ - ولا عَطَشَ الإِيَّلَ إلى
جدائل المياه. يستوي في هذا الكبار والصغار، العظاماء والأدنياء، الأغنياء
والفقراء، العلماء والجهلاء. والحبُّ الذي أقصد ليس فقط أن نُحَبَّ بل
بالأكثر جدًا جدًا أن نُحَبَّ. وهذا العطش إلى "المحبوبة" لا تُرْويه أبداً
محبَّاتُ هذا الدَّهْرَ ولا صداقاتُ هذا العالم ولا أواسِرُ هذا الزَّمَانَ. فما
أشبَهَنَا، في سعينا وراءها ومتَسَكَّنا بأهدابها، بقافلةٍ تَضَرَّبُ في الصَّحراء وتَعْذُّ
السَّيَّرَ خلف ما يتَرَاءَى لها من سراب! فلو أَنَّ السَّرَابَ يُرْوِي ظمآنَ العطشانِ
لَكَانَت مثل هذه الرَّوابط تُبَرِّدُ شَيْئاً من غليلنا، لكنَّ لا السَّرَابَ يَبْلُغُ حَلْقَ
الظَّمآنَ ولا عَلَاقَ هَذَا الْعَالَمُ ثُنَدِيَ قلوبَنَا العَطَشَى ولو بقطرة ماء!

فلو تغاضَيْنا عن ذَلِكَ هَذَا الدَّهْرَ وَإِعْنَاهُ في قَصْمٍ غَرَى المحبَّاتُ الوثيقَةُ
والصَّداقاتُ الحَمِيمَةُ، فَلَا رَجُلٌ يَتَرَكُ امرأَتَهُ، وَلَا صَدِيقٌ يَغْدُرُ بِصَدِيقِهِ، وَلَا
أَخٌ يَتَنَكَّرُ لأخِيهِ، وَلَا أَبْنَاءٌ يَعْقُلُونَ وَالَّذِيْهُمْ، وَلَا آبَاءٌ وَأَمَّهَاتٌ تَفَصلُهُمْ مَدْنَ

ولبلدان عن بنיהם وبناتهم! ثم لو تغافلنا عن الأمراض فلا مرض يسخر من قوة الإنسان وعنفوانه، وعن الحوادث فلا حادث يمحو أحلام السّتّين في لحظة، وعن الشّيخوخة فلا هرّم يُودي بالشباب وعُضُونَ تعبت بالجمال وشَيْبٌ يشتعل في الرّأس! لو تغاضينا عن جميع عوادي الدّهر هذه وكأنّها غير موجودة – وهذا لن يحدث حتّى يشيب الغراب! – فشّمة حُصُمٌ هو لنا بالمرصاد، وهو كفيل بأن يلاشي كلّ ما في هذا العالم من محاجّاتٍ ومسرّاتٍ ومباهج فلتلت من بلايا هذا الزّمان وصمدّت أمام نوابه: الموت. فها هو يتّضررنا في نهاية الطريق – ما لم يُوافِنا في بدئه أو متّصفه – كي يستردّ منا كلّ قطرة ماءٍ مالحٍ رَسَقْنَاها، فتنقطع معه أمنّ الصّلات انقطاع خيوط العنكبوت وتضمحلُّ أوّلُّ العلاقات اضمحلال البخار وتتألّل ألمع المودّات أُفُولاً لا ظهورَ بعده. فهل من مخرج لنا من هذا المازق؟

هنا تكمن قيمة الصّفحات الموجودة بين دفّتي هذا الكتاب، فها هو العظيم أئبأ مقار الكبير يشير لنا بإصبعه إلى غدير صافٍ يفيض ماء سلسلياً. ها هو ماءٌ حتّى له القدرة على إرواء عطشنا وإطفاء علّتنا! ها هو ماءٌ حتّى يُشتري مجّاناً بلا ذهبٍ ولا فضةٍ! ها هو ماءٌ حتّى يتحدى الموت ويهزأ به ويطأه بقدميه! ها هو ماءٌ حتّى «يُنبع إلى حياة أبدية»^(١).

(١) يو ٤: ١٤.

أولاً: الغدير الصّافي

ذاق أَنْبَا مقار حُبَّ الْمَسِيحَ فَأُمْيِطَ لِهِ اللِّثَامَ عَنْ حُبِّ الْأَبِ وَعَرَفَ أَنَّ هَذَا لَا يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا بِالرُّوحِ الْقَدِيسِ، فَبَلَغَ مِنْهُ الْعَجَبَ مَبْلَغَهُ وَانْتَهَى بِهِ إِلَى أَقْصَاهُ، فَكَانَ يُرْسِي فِي حَالَةِ دَهْشَنَةِ بَلَا انْقِطَاعٍ، وَكَانَ يَصْرُفُ وَقْتًا مَعَ اللَّهِ أَكْثَرَ جَدًّا مَمَّا مَعَ أَيِّ شَيْءٍ آخِرٍ تَحْتَ السَّمَاءِ^(١). فَرَاحَ يَدْعُونَا وَيَهِيبُ بِنَا نَحْنُ النَّائِهِينَ فِي بَرِّيَّةِ هَذَا الْعَالَمِ وَالرَّاكِضِينَ وَرَاءِ السَّرَابِ، حَتَّى تَهْجُرَ هَذِهِ الْقَافِلَةُ الْبَائِسَةُ الَّتِي تَسْعِي إِلَى حَفْنِهَا بِظِلِّهَا، وَتُؤْمِمَ شَطَرَ هَذَا الْغَدِيرِ الصَّافِي وَالْمَنْهَلِ الْعَذْبِ الَّذِي يَفِيضُ مَاءً رَوَاءً، فَتَنْعَبَ مِنْ ذَلِكَ الْحُبِّ الإلهي عَبَّا، وَتَجْدُ فِيهِ قَلْوَبِنَا الْمَعْطِشَةَ لِلْحُبِّ ضَالَّتْهَا الْمَشْوَدَةُ.

فَفِي تَسْبِيحةِ حُبِّ يُشِيدُهَا أَنْبَا مقار لِلثَّالِوثِ وَيَذِيعُهَا لِأَوْلَادِهِ فِي كُلِّ الْأَجِيَالِ، يُوضِّحُ كِيفَ أَنَّ مَحْبَّةَ الثَّالِوثِ تَحْصُرُنَا حَصْرًا وَشَفَقَتُهُ تَحْبِطُ بِنَا إِحاطَةَ السَّيْوَارِ بِالْمَعْصَمِ، فَلَا يَتَبَقَّى لَنَا إِذَا ذَاكَ سُوْىَ أَنْ تُغَيِّيَ مُخْبِرِينَ بِفَضَائِلِ ذَاكَ الَّذِي دَعَانَا مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى نُورِهِ الْعَجِيبِ^(٢)، فَيَقُولُ: ”لَأَنْ هَكُذا قد سُرَّتْ مُشَيَّةُ الْأَبِ الصَّالِحةُ أَنْ يَخْلُلَ فِي كُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَيَطْلُبُهُ، فَالْمَسِيحُ يَقُولُ: «لَأَنَّ الَّذِي يَجْبُنِي، يَجْبُنُ مِنِّي أَيِّ، وَأَنَا أَحِبُّهُ وَأَظْهِرُ لَهُ ذَائِقِي»،

.Historia Lausiacaca – 17.5 (١)

(٢) انظر: ١ بـ ٢ : ٩.

وأيضاً: «تَأْتِي أَنَا وَأَبِي، وَعِنْدَهُ تَصْنَعُ مَنْزِلًا». فهكذا شاء لطف الآب الذي لا يُحَدّ، وهكذا سُرَّت محبةُ المسيح التي لا تدرك، وهكذا وَعَدَ صلاحُ الرُّوح القدس الذي لا يُلْفَظ به، فالمجد لشفقة الثالوث القدس التي لا يُنْطَق بها»^(١)!

فأن يَعِدَنَا الرُّوح القدس وعداً صادقاً بِأَنَّ الابن والآب - عن رِضَى ومسرةٍ - مزعمان أن يسكننا فيما ويصنعنا فيما منزلًا، فهذا أمر عجيب مذهل يستوجب منا التمجيد والسببيح. ولنستمع إلى القديس في موضع آخر وقد أسره هذا الأمر عينه فراح يمجد قائلاً: «يَا لَشَفَقَةِ اللهِ الَّتِي لَا يُنْطَقُ بِهَا! إِنَّهُ يَهْبِطُ ذَاتَهُ مَجَانًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ لِرِثْوَهُ هُوَ الإِلَهُ فِي أَمْدِ قَصِيرٍ، فَيُسْكِنُ اللَّهَ فِي جَسَدِ الْإِنْسَانِ، وَيَكُونُ الْإِنْسَانُ مُسْكِنًا صَاحِحًا لِلرَّبِّ! فَالرَّسُولُ يَقُولُ: «بَيْتُهُ تَحْنُّنٌ». فَمِنْ أَجْلِ مُحِبَّتِهِ وَشَفَقَتِهِ الَّتِي لَا تُحَدّ وَالَّتِي لَا يُنْطَقُ بِهَا وَالَّتِي لَا تُعْقَلُ، سُرَّ أَنْ يُسْكِنَ فِي صَنْعَةِ يَدِيهِ وَخَلِيقَتِهِ الْعَاقِلَةِ وَصَنْعِيهِ الْكَرِيمُ الْأَثِيرُ، لِكِي نَكُونَ مُسْكِنَهُ الْخَاصِّ»^(٢)! وهكذا بذلك الحبُّ الغَنِيُّ الذي تشتراك فيه الأقانيم الثلاثة تحييا قلوبنا من بعد مواتٍ، ولا يكون لنا

(١) العضة الثامنة عشرة - الفقرة السادسة (العظة ١٨ : ٦).

(٢) العضة ٤٩ : ٤.

عملٌ في الحياة سوى التَّمجيد والتَّسبيح والسُّجود لذاك الَّذِي هكذا أحبَّنا
وعظُّم صنيعه معنا.

ثانيًا: سِفُونِيَّة الحُبِّ الإلهيَّة

وينبع الحُبُّ الإلهيُّ هذا، الَّذِي يقودنا إلَيْهِ أَنْبَاء مقار، ليس هو بالأمر
الهَّمِين، فَإِنَّا بِصَدَدٍ مقطوعةٍ موسيقيةٍ من الحُبِّ الإلهيِّ يشتر� فيها الآب
والابن والرُّوح القدس، وكأنَّ قلوبنا قيثارةٍ يعزف على أوتارها الأقانيمُ الثلاثة،
كلُّ بنغمته وبصمتِه. إِلَّا أَنَّ ثَمَّةَ أَمْرًا يُولِّنَا فرَحًا لا يُنطَقُ به ويَعُثُّ في
نفوسنا بمحنةٍ تُجْلِّ عن الوصف، وهو تنااغمٌ وتوافقٌ وتكاملٌ عملُ الثالوث
فيينا، كما لو كُنَّا أمام سِفُونِيَّةٍ أَيْنَ منها أَعْظَمُ ما وضعه أَفْذَادُ الموسقيين
ونوابعهم؟ هذا من شأنه أن يُعلن لناكم أَنَّا موضع اهتمامِ الثالوث، ويَهَبُّنا
يقينًا لا يُشوِّه شَكًّا أَنَّا بالفعل عَمَلُ اللهِ^(١) وفلاحة الله وبناء الله^(٢)،
ويجعلنا نُحْسِنُ حَقًا كم أَنَّه يشتاق إلينا^(٣) ويتلذَّذ بنا^(٤)، فنحْجُه لِأَنَّهُ أَحَبَّنا
أوَّلًا^(٥).

(١) انظر: أَف٢ : ٢٠.

(٢) انظر: كوك٣ : ٩.

(٣) انظر: نش٧ : ١٠.

(٤) انظر: أَم٨ : ٣١.

(٥) انظر: يو٤ : ٩.

ولا يضُن علينا أنبياء مقار بالحاجة من هذه السِّيمفونية ترقص لها قلوبنا طريراً، فيُسمِّعنا أَوْلَى نعمةٍ تَمَّ عزفها على أوتار قلوبنا من قبل الآب والابن، إذ يقول: ”إنَّ الْمَلِكَ، ابْنَ الْمَلِكَ، قَدْ تَشَوَّرَ مَعَ أَبِيهِ، فَأَرْسَلَ الْكَلْمَةَ“. فما أَعْظَمَ محبَّةَ الله للإِنْسَانِ، حتَّى إنَّ غَيْرَ المائة اختار أنْ يُصْلَبَ من أجلك! فانظُرْ كيفَ أَنَّ «الله أَحَبَّ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِأَجْلِهِ»، «فَكَيْفَ لَا يَهْبِنَا مَعْهُ كُلُّ شَيْءٍ»^(١).

وكما يَصِفُ لنا بذلَ الله لابنه الوحيـد من أجلـنا، كذلك يُؤكـدـ بيـقـينـ شـدـيدـ عـلـى اـنـسـكـابـ الرـوـحـ الـقـدـسـ عـلـيـنـاـ مـنـ لـدـنـ الـآـبـ. فـبـعـدـمـاـ يـتـحدـثـ عـنـ عـمـلـ الرـوـحـ الـقـدـسـ قـدـيـماـ فـيـ الـأـنـبـيـاءـ وـالـأـبـرـارـ، يـسـتـطـرـدـ فـيـقـولـ: ”فـإـنـ كـانـ فـيـ عـهـدـ الـظـلـلـ قـدـ اـنـسـكـبـ الرـوـحـ الـقـدـسـ بـهـذـاـ الـمـقـدـارـ، فـكـمـ بـالـحـرـيـ فـيـ الـعـهـدـ الـجـدـيدـ، عـهـدـ الـصـلـيـبـ وـجـيـءـ الـمـسـيـحـ، حـيـثـ تـحـقـقـ اـنـسـكـابـ الرـوـحـ الـقـدـسـ وـالـسـكـرـ بـهـ. فـإـنـهـ يـقـولـ: «إـنـ كـنـتـمـ وـأـنـتـمـ أـشـرـارـ تـعـرـفـونـ أـنـ تـعـطـلـواـ أـوـلـادـكـمـ عـطـاـيـاـ جـيـدةـ، فـكـمـ بـالـحـرـيـ أـبـوـكـمـ السـمـاـوـيـ يـعـطـيـ الرـوـحـ الـقـدـسـ لـلـذـيـنـ يـسـأـلـونـهـ» - يـعـطـيـهـ بـقـوـةـ وـيـقـيـنـ شـدـيدـ بـحـسـبـ قـوـلـ الرـسـوـلـ^(٢). أـمـاـ حـيـنـماـ

(١) العـةـ ٤٤: ١٥.

(٢) العـةـ ٤: ٥٠.

نُعطى الرُّوح القدس من قِبَل الآب، فِيَّاً الرُّوح القدس يعود ويعُلَّم لنا
أعمق الله^(١).

هذا الحب الإلهي التالوثي العجيب الذي يعمل في النّفس يبلغ ذروة استعلانه لنا في عمل المسيح والرُّوح القدس داخلنا، فتشعر به حاراً ملتهباً وتحتبره مبهجاً مُفْرِحَاً، ويستلم هذان الأقومان الإلهيَّان النّفس المسكينة البائسة فيرفعانها ويرفعانها حتّى تندُو بالحقيقة وبالفعل أيقونة إلهيَّة تنطق بصلاح الله وإحسانه. ويعوزنا الوقت وتضيق بنا الصَّفحات إذا ما تحدَّثنا عن هذا الأمر عند أئبنا مقار، فاليسوع يقود النّفس بالرُّوح القدس^(٢)، ويُلقِي نار روحه في قلوبنا^(٣)، ويُسْكِب علينا عطيَّة الرُّوح القدس^(٤)، بل سنرى لاحقاً كيف أنَّ إعطاء الرُّوح القدس كان غرضاً أساسياً لحيء المسيح وتحسُّده، ونكتفي هنا بإشارة واحدة بدبيعة لأنبنا مقار يقول فيها إنَّ "المسيح «قَدْ دُبَح» ودمَه المرشوش علينا قد أَنْبَتَ لنا أجنهحة الرُّوح القدس لكي نظير في أجواء الالاهوتية بلا عائق"^(٥).

(١) انظر: العلبة .٦ : ٣٧

(٢) انظر: العلبة .٣ : ١

(٣) انظر: العلبة .٩ : ٩

(٤) انظر: العلبة .٦ : ١١

(٥) انظر: العلبة .٢ : ٤٧

أمّا عن الوجه الآخر من العملة، أي عن شهادة الروح القدس للمسيح داخل النفس، فهذا أيضاً أمراً قد أسهب فيه أئبنا مقار، ولكنّه يجمّله بقوله إنَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ رُوحُ الْمَسِيحِ فَلَيْسَ هُوَ لِلْمَسِيحِ، مُسْتَشْهِدًا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْوَارِدَةِ فِي رو ٨:٩^(١). فَالرُّوحُ الْقَدِيسُ يَصُوَّغُ صُورَةَ الْمَسِيحِ عَلَى النَّفْسِ^(٢)، وَيَضْمِنُ حَلْوَلَ الْمَسِيحِ فِي الْقَلْبِ^(٣)، ثُمَّ إِنَّهُ يَتَسَامِي بِالنَّفْسِ وَيُطَهِّرُهَا مِنْ كُلِّ خَطِيئَةٍ وَيَرْزُقُهَا عَرْوَسًا طَاهِرًا لِلْمَسِيحِ^(٤). هَكُذا يَتَلَقَّفُ كُلُّ مِنَ الْأَقْنَوْمَينَ النَّفْسَ فَيَتَعَهَّدُهَا بِالْعِنَاءِ وَيَحْوِطُهَا بِالْحِيَاةِ وَيَعِدُهَا لِلْحِيَاةِ الْأَبْدِيَّةِ.

ثالثاً: المسيح .. والنفس

١) المسيح ربّا وسيداً

في الصفحات الأولى من عطاته يكشف لنا أئبنا مقار عن "الستير المكتوم بالحقيقة منذ الدهور ومنذ الأجيال، سرّ النفس المزمعة أن تقبل ربّها وتغدو عرشاً مجدّ له"^(٥)، فإنَّ الرَّبَّ قد أعدَّ النَّفْسَ لِتَصِيرَ لَهُ عرْشاً

(١) انظر: العطة ٢٠:٤١:٣٧:٦

(٢) انظر: العطة ١١:٢:٦

(٣) انظر: العطة ٣٧:٦:٦

(٤) انظر: العطة ١٩:٩:٩

(٥) انظر: العطات ١:٤٢:٣٣:٢

ومنزلًا. وفيما يتغنى القديس بالنفس التي يكون الرَّبُّ حاضرًا وساكناً فيها إذ تمتليء من كلِّ اتساقٍ وجمالٍ وبهاءٍ^(۱)، نجده يعطي الويل للنفس التي لا تقبل سُرِّيها ساكناً فيها، إذ تُخْتِمُ عليها الذِّلة والبُوار وتقتل دنساً ونفاسة^(۲)، وتصبح مباءةً للشَّرِّ^(۳)، وتسكن فيها الأشباح والشياطين^(۴).

۲) المسيح خُلِّصًا

لا يتنتظر المسيح النَّفس حتى تخرج من ظلمتها وتنهض من كبوتها، بل ما إن تطلبه حتى “يأتي إلى عمق جحيم القلب، ويُشَقِّ الحجارة الثقيلة الجاثمة على النَّفس، ويفتح القبور ويقيم الميت الحقيقي، ويُخرج من غياب السِّجن النَّفس المغلق عليها”^(۵). فهو رئيس الكهنة الذي يُحييها عن سيرة الشَّرِّ^(۶)، وهو السَّبَاح الخبير البارع الذي يتسللها من هَوَّة الظلمة وعمق الموت^(۷)، وهو لِياسُها الروحاني غير الفاسد^(۸)، وهو رُبَّان سفينتها الحاذق الذي يعبر

(۱) انظر: العظة ۳۳: ۳.

(۲) انظر: العظة ۲۸: ۱.

(۳) انظر: العظة ۲۸: ۲.

(۴) انظر: العظة ۳۳: ۳.

(۵) العظة ۱۱: ۱۱.

(۶) انظر: العظة ۱: ۶.

(۷) انظر: العظة ۱۱: ۱۲.

(۸) انظر: العظة ۲۰: ۲.

بها العواصف والرّوابع والأمواج^(١)، وهو القادر على تغييرها مهما بلغت من الضّراوة والعنق والجموح، ”فالّذى غير طبيعة الخمس خبزات إلى كثرة، والّذى أعطى صوتاً لطبيعة الحمار غير النّاطقة، والّذى حَوَّل الرّانية إلى العفة، والّذى هيّأ طبيعة النار المُحرقة لتُنَدِّي على الّذين كانوا في الأتون، والّذى ذلّل لDaniyal طبيعة الأسود، هُو قادر كذلك أن يُغيّر مثل هذه النّفس الخالية الحبرون، من الخطيئة إلى صلاحه“^(٢).

٣) المسيح طبيباً

ولا يستنكف المسيح من النّفس مهما تفاقم شرّها ومهما بلغت في تَدَنيها من دركات الهوان، فقد وافاها طبيباً وهي مبتلة بالبرص في جميع أعضائها ولم يأنف منها بل وضع مراهم على جروحها وداوى قروحها^(٣). وهو لا يزال مستعداً أن ينفع على كلِّ النّفوس البرصاء ويسفيها حالما تدعوه^(٤)، فهو الطّبيب الحقيقي القادر أنْ يشفى كلَّ مرضٍ وكلَّ ضعفٍ للنّفس^(٥).

(١) انظر: العطة ٤٤ : ٧.

(٢) العطة ٤٤ : ٢.

(٣) انظر: العطة ١٥ : ٤٧.

(٤) انظر: العطة ٤٤ : ٤.

(٥) انظر: العطة ٤٤ : ٣.

٤) وحده فقط لا غير!

في مَثَلٍ صارِخٍ يُحْصِرُ أَنْبَا مقارِ الخلاصَ والشِّفاءَ فِي الرَّبِّ يسوعَ وَيَقْصُرُهُ عَلَيْهِ هُوَ وحْدَهُ دُونَ سواهُ، فَقَائِلاً: ”الرَّاعِي الصَّالِحُ يُشْفِي الْخَرْوَفَ الْأَجْرَبَ، أَمَّا الْخَرْوَفُ فَمَا يُسْتَطِعُ أَنْ يُشْفَى خَرْوَفًا“^(١). وَيَعُودُ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ مَرَّاتٌ وَتَكْرَارًا مُؤْكِدًا أَنَّ كُلَّ الْأَنْبِيَاءِ وَالْقَدِيسِينَ مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا حِيَالِ مَرْضِ النَّفْسِ الْعُضَالِ، إِلَى أَنْ جَاءَ الْمَخْلُصُ الطَّبِيبُ الْحَقِيقِيُّ، فَهُوَ وحْدَهُ الَّذِي صَنَعَ فَدَاءَ النَّفْسِ الْعَظِيمِ وَشَفَاءَهَا^(٢)، وَلَيْسَ بِأَحَدٍ آخَرَ يُمْكِنُ لَجْرَحِ النَّفْسِ أَنْ يَنْدَمِلَ^(٣). فَالْقَدِيسُونَ مِنْهُمَا بَلَغُوا مِنَ الْقَدَاسَةِ وَالْمُنْزَلَةِ الْأَثِيرَةِ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّهُمْ إِلَّا خَرَافٌ لَا تُسْتَطِعُ الْبَتَّةُ أَنْ تَشْفِيَ النَّفْسَ أَوْ تُقَوِّمَ إِعْوَاجَجَهَا، إِنَّمَا الشِّفَاءُ فِيهِ هُوَ وحْدَهُ وَبِهِ هُوَ وحْدَهُ وَلَيْسَ سواهُ^(٤).

٥) المسيح عريساً

سبقَ أَنْ ذَكَرْنَا أَنَّ الرُّوحَ الْقَدِيسَ مَنْوَطٌ بِهِ أَنْ يَرْفَعَ النَّفْسَ عَرْوَسًا طَاهِرًا للْمُسِيحِ، فَيَجْدُرُ بِنَا أَوَّلًا أَنْ نَدْتُو وَلَوْ قَلِيلًا مِنْ ذَاكَ الَّذِي يَرْفَعُنَا إِلَى الْمُسِيحِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَعُودُ فَنَتَقَابِلُ مَعَ عَرِيسَنَا الْحَبِيبِ وَجْهًا لِوَجْهٍ.

(١) انظر: العطة : ٤٤ : ٤.

(٢) انظر: العطة : ٢٠ : ٦.

(٣) انظر: العطة : ٢٠ : ٤.

(٤) انظر: العطات : ٢٠ : ٤، ٤٦ : ٣٠، ٤٨ : ٤٤، ٣ : ٤.

رابعاً: الرُّوح القدس .. الأمُّ الرَّؤوم (١)

يكتب القديس العظيم أنسا أنطونيوس لأولاده قائلاً: ”والآن فإنَّ أمَّكم سارة، التي هي الرُّوح، تفرح بكم. هذه التي أكملت حبَّلها وولدت روحًا إلهيًّا فيكم، وتشتهي أن تُكملُكم – كما طلبت منها عنكم – بذلك الرُّوح الناريِّ العظيم“ (٢). ويُرثُ ابنه أنسا مقار هذا الميراث عينه، فيصيغ نعمة الرُّوح القدس بـ ”الأمُّ الرَّؤوم الصالحة“ (٣). فلماذا يا ترى أطلق القديسان هذا اللقب على الرُّوح القدس، ناسبين إليه أسمى وأرقى مشاعرِ حُبٍ وحنانٍ وعطافٍ عرفتها الإنسانية؟

(١) الرُّوح القدس يلُدنا

ما إنْ تلد المرأة حتَّى تُدعى أمًا، أمًا قبل أن تلُدَ فما هي بِأُمٍّ بعد. هكذا يلُدُنا الرُّوح القدس على غرار ما تلُدُ الأمُّ ببنها، ويُصوِّر لنا أنسا مقار هذا الميلاد متندًا به إلى الشَّبه الماديِّ حتَّى يؤكِّده ويُتَبَّه، فيقول إنَّ الرَّبَّ أحبَّ جنس البشر وأراد أن يلَدُهم من زرع لاهوتِه، من ”رحْم“ روح

(١) يحتلُّ الحديث عن الرُّوح القدس في عظات أنسا مقار الخمسين حجًّا كبيرًا جدًّا، ما حدا بمحرِّج العظات إلى الفرنسيَّة أن يُعنونها بـ ”الروح القدس واليسوعي“ Le Saint-Esprit et le Chrétien.

(٢) رسائل ق. أنسا أنطونيوس، رسالة ٨: ١.

(٣) العضة ٤: ٢٨.

اللّاهوت^(١)). بل إِنَّه يجعل من هذه الولادة غرضاً أساسياً لجحىء المسيح وموته، فيقول إِنَّ المسيح قد أتى واحتمل الموت مستهيناً بخزي الصّليب "لَكِي يَلْدَ مِنْ نَفْسِهِ، مِنْ طَبِيعَتِهِ، بَنِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقَدِيسِ، إِذْ قَدْ سُرَّ بِأَنْ يَوْلَدُ مِنْ فَوْقِهِ، مِنْ لَاهُوَتِهِ"^(٢). ويشير أَنَا مقار في أكثر من موضع إلى كرامة هذا الميلاد الفوقيّ من الرُّوح القدس^(٣)، كما يُبَيِّنُ لَنَا أَيْضًا في مواضع أخرى بؤس التّفوس الّتي لم تولد من الرُّوح وشقاوتها^(٤).

إِذن فالرُّوح القدس يُشَبِّهُ "بِأَمِّ" لَنَا بِسَبَبِ ولادتِنا مِنْهُ، بشهادة المعموديَّة المقدَّسة. بَيْدَ أَنَّ عَمَلَهُ مَعَنَا لَا يَتَهَيِّءُ عَنِ الدِّرْدِ، فَإِنَّ كَانَتِ الأُمُومَةُ البَشَرِيَّةُ الْمُخْلُوقَةُ تَرْبَأُ بِنَفْسِهَا أَنْ تَلِدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ثُمَّ تَتَخلَّى عَنْهُمْ، فَهَلْ تَكُونُ صَفَّةُ الأُمُومَةِ عَنِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ دُونَهَا حَبَّاً وَإِخْلَاصًا وَتَفَانِيًّا؟! بَلْ إِنَّهَا لَتَزِيدُ وَتَسْمُو وَتَرْتَفِعُ بِمَا لَا يَقْاسِ. فَكَمَا أَنَّا جَيْئًا لَمْ نُدْرِكْ بِعَقْولِنَا حَدَّثَ وَلَادتِنا الطَّبِيعِيَّةَ مِنْ أَمْهَاتِنَا، لَكَنَّا عَرَفْنَا وَأَدْرَكْنَا حَبَّهُنَّ لَنَا مِنْ رَعَايَتِهِنَّ وَعَنِيَّتِهِنَّ بِنَا عَلَى مَدِي حَيَاتِنَا، هَكَذَا أَيْضًا خَلِيقُ بَنَا بَعْدَ أَنْ فَلَتْ مِنْ إِدْرَاكِنَا حَدَّثُ وَلَادتِنا الْفَوْقَانِيَّةِ - ذَلِكَ الْحَدَّثُ الْجَلَلُ الَّذِي تَفَرَّحُ لَهُ

(١) انظر: العطاء ٣٠ : ٢.

(٢) العطاء ٣٠ : ٢.

(٣) انظر: العطاء ٥ : ٤٤ : ١٨ ، ٤٧ : ٣٠ ، ٤٣ : ٤٩ ، ٤٩ : ٣.

(٤) انظر: العطاء ٤ : ٦٢ : ٢٣ ، ٤١ : ٣.

السماء بكل ملائكتها وقواتها المقدسة^(١) - خلائقُ بنا ألا يقلّت مِنَّا أبداً مقدارُ عنابة الروح القدس الذي يُسبّه بالأئمَّةِ التي ولدتنا من فوق، ورعايته وتعهده إِيَّانا كلَّ أيام حياتنا. فقد آن لنا جميعاً أن ندرك ونعرف ونتيقَّن أنَّه كما آنَّ لنا أمماً طبيعية تُحبُّنا وتشفق علينا، كذلك أيضاً لنا في الروح القدس مشاعر حبٍ وشفقةٍ أين منها حبٌ وشفقةٌ أعظم الأمهات؟ فالروح القدس يلذّنا ثانيةً من فوق، ثمَّ يتعهّدنا بالرعاية والعنابة ويقودنا في مسيرتنا إلى النهاية، وهما بعض مظاهر هذه الرعاية.

٢) الروح القدس يهذّبنا

كمثُل ما ثُرِيَ الأُمُّ أولادها هكذا يُرثِّبنا الروح القدس ويُهذّبنا، فهو لنا بمثابة نهارٍ مقدسٍ يُوقظنا من نوم الجهالة العميق^(٢)، وهو سفينةٌ سريعةٌ خفيفةٌ تَعْبر بنا بحر الخطيبةِ المرّ ولجنةَ القوّات الشّريرة الصّعبة^(٣)، وهو عطيةٌ فائقةٌ لطبيعتنا تطرد من ذواتنا شرّ الأهواء^(٤). وهذا كُلُّه يصنّعه معنا راثينا لضعفنا وأخذنا إِيَّانا بالرفق واللين، فيُلْجم نفوسنا الجامحة ويرُؤُضها شيئاً

(١) انظر: العضة ٣٠ : ٣.

(٢) انظر: العضة ٢٤ : ٥.

(٣) انظر: العضة ٤٤ : ٦.

(٤) انظر: العضة ٤ : ٨.

فشيئاً فتَّفَنَ الخطىءَ فِينَا قَلِيلًا قَلِيلًا وَتَضَمَّنَ (١). وبامتزاج النَّفْسِ بِرُوحِ
الْمَسِيحِ تَحْوِلُ مِنْ مَرَارَهَا إِلَى حَلاوةِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ وَعَذْوَبَتِهِ (٢).

٣) الرُّوحُ الْقَدِيسُ يَعْمَلُ فِينَا

وَهُكُنَا يَيْدُ الرُّوحِ الْقَدِيسِ يَعْمَلُ فِي النَّفْسِ فِيهَا نُورَةُ الإِلهِيِّ،
وَ”تَصْبِحُ كُلُّهَا نُورًا وَكُلُّهَا وَجْهًا وَكُلُّهَا عَيْنًا، وَلَا يَكُونُ فِيهَا أَيُّ جَزْءٍ لَيْسَ
مَمْلُوِّئًا مِنْ أَعْيُنِ النُّورِ الرُّوحَانِيَّةِ“ (٣). أَيْ إِنَّ النَّفْسَ تَقْتَنِي الإِفْرَازُ، الَّذِي هُوَ
أَهْمُّ مَا يَلْزَمُهَا اقْتِنَاؤُهُ فِي مَسِيرَتِهَا بِحسبِ تَعْلِيمِ أَنْبَابِ أَنْطَوْنِيوسِ (٤) وَأَنْبَابِ
مَقَارِ (٥)، وَيَصِيرُ لَهَا نُورُ الرُّوحِ الْقَدِيسِ نِبْرَاسًا يَضِيءُ قَلْبَهَا (٦). وَكَمَا يَنْبِرُ
الرُّوحُ الْقَدِيسُ النَّفْسُ، كَذَلِكَ يَحْفَظُهَا أَيْضًا، فَهُوَ لَهَا مِلْحٌ لَا غَنِيَّ عَنْهُ وَلَا
فَسَدَّتْ وَأَنْتَتْ، ”فَكُلُّ نَفْسٍ لَا تُمْلَحُ بِالرُّوحِ الْقَدِيسِ وَلَا شَرِكَةُ لَهَا مَعَ الْمَلْحِ“
السَّمَاءُوِيُّ الَّذِي هُوَ قُوَّةُ اللهِ، تَفَسَّدُ وَتَمْتَلِئُ مِنَ الرَّائِحةِ شَدِيدَةِ النَّفَّانِ الَّتِي
لِلْأَفْكَارِ الشَّرِّيرَةِ“ (٧).

(١) انظر: العطة ٢٣ : ٢.

(٢) انظر: العطة ٤٧ : ١٥.

(٣) العطة ١ : ٢.

(٤) انظر: بستان الرُّهْبَانَ - قول ٣٢ .

(٥) انظر: العطة ٤ : ١.

(٦) انظر: العطة ١ : ٤.

(٧) انظر: العطات ١ : ٤٥؛ ٢٤ : ٤..

وإذ يضيء الروح القدس سبيل النفس ويحفظها من الفساد، يشرع يجمع بقوته أفكارها المشتتة في هذا الدهر^(١)، ويأخذها ويرتفع بها إلى الأعلى بجناحيه الجبارين حتى إلى محبة الرَّبِّ^(٢)، وإلى المسكن الذي من السماء غير المصنوع يَد^(٣). ”فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ لَمْ يَصْنُعْ لَهُ أَجْنَاحًا جَسَدِيَّةً مِثْلَ الطَّيْورِ، لِأَنَّهُ قَدْ سَبَقَ وَأَعْدَّ لَهُ أَجْنَاحَةً لِلرُّوحِ الْقَدِيسِ“^(٤)، ”فَكَمَا أَنَّ جَنَاحَيِ الطَّائِرِ هُما بِمَثَابَةِ قَدْمَيْنِ لَهُ، هَكُذا النُّورُ السَّمَاوَيُّ الَّذِي لِلرُّوحِ الْقَدِيسِ يَرْفَعُ أَجْنَاحَةً أَفْكَارَ النُّفُوسِ الْمُسْتَحْجَةَ“^(٥). فَحَتَّى لَوْ انْغَمَرَتِ النَّفْسُ بِمِيَاهِ الشَّرِّ، فَلَهَا رِجَاءً وَطِيدًا مَكِينًا فِي رُوحِ الرَّبِّ أَنْ يَأْتِيَهَا وَيُنْبِتَ لَهَا أَجْنَاحَةً فَتُحَلِّقَ فِي أَعْلَى السَّمَاوَاتِ^(٦). ”فَلِتَتَضَرَّعَ إِذَا إِلَى اللَّهِ، لَكِي يَهَبَنَا أَجْنَاحَةً حَمَامَةً - أَجْنَاحَةً لِلرُّوحِ الْقَدِيسِ، حَتَّى نَطِيرَ إِلَيْهِ وَنَسْتَرِيحَ“^(٧).

فبالفعل وبالحق إنَّه هو الكَنز السَّمَاوَيُّ الَّذِي إذا ما وجده أحدٌ واقتنه في نفسه ”يُنْتَمِ به كُلُّ بَرِّ الْوَصَايَا وَكُلُّ عَمَلِ الْفَضَائِلِ بِلَا لَوْمٍ وَبِنَقاوةٍ وَبِلَا

(١) انظر: العظات ٢٤: ٤٩ .٣

(٢) انظر: العظة ٢٤: ٢.

(٣) انظر: العظة ٤٩: ٣.

(٤) العظة ٥: ١١.

(٥) العظة ١: ٩.

(٦) انظر: العظة ٤٤: ٥.

(٧) العظة ٢: ٣.

تغصُّب“^(١). أمَّا بِدُونِه فَكُلُّ تعبِ الإِنْسَان يَضِيَعُ سُدًّى، وَكُلُّ سعيه يَذْهَبُ هَذْرًا، وَكُلُّ جهاده يُحْسَبُ هباءً مُنثُورًا. ”فَالنَّفْسُ الْعَارِيَةُ وَالْمُقْفَرَةُ مِنْ شَرِّكَةِ الرُّوحِ الْقَدْسِ لَا تُسْتَطِعُ - حَتَّى وَلَوْ أَرَادَتْ - أَنْ تُصْنَعَ أَيًّا مِنْ ثَمَارِ رُوحِ الْبَرِّ“^(٢)، ”لَأَنَّ كُلَّ مَا تَظَنُّ النَّفْسُ أَنَّهَا تَعْمَلُهُ مِنْ ذَاتِهَا وَتَخْتَمُ بِهِ وَتُؤْلِيهِ عِنَايَتَهَا، إِنْ هِيَ عَوَّلَتْ عَلَى قَوْمَهَا الْذَّائِيَّةِ فَحُسْبٌ وَتَوَهَّمَتْ أَنَّهَا تُسْتَطِعُ النَّجَاحَ الْكَامِلَ مِنْ ذَاتِهَا بِدُونِ أَنْ تُتَمَّمَ مَعِينَتَهَا فِي الْعَمَلِ مَعَ الرُّوحِ الْقَدْسِ، فَإِنَّهَا تَضَلُّ كَثِيرًا. لَأَنَّ النَّفْسَ الَّتِي تُحْسَبُ أَنَّهَا مِنْ ذَاتِهَا وَبِذَاتِهَا فَقَطُّ، بَعْزِيلٌ عَنِ الرُّوحِ الْقَدْسِ، تَبْلُغُ الصَّهَارَةَ الْكَامِلَةَ، مِثْلُ هَذِهِ النَّفْسِ لَا تَنْفَعُ لِلْمَوَاضِعِ السَّمَوَاءِيَّةِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْمَلَكُوتِ“^(٣).

غَيْرُ أَنَّ الدَّرَبَ لَيْسَ مفروشًا بالورود، فَإِنَّ أَنْبَا مَقَارَ يُخْبِرُنَا وَلَا يُخْفِي عَلَيْنَا أَنَّهُ ”حِيثُ يَكُونُ الرُّوحُ الْقَدْسُ، هُنَاكَ يَلْازِمُهُ الاضطِهَادُ وَالْقَتَالُ مُلَارَمَةُ الظِّلِّ“^(٤)، فَهَلْ يَتَرَكُنَا الرُّوحُ الْقَدْسُ فِي قَتَالِنَا وَحْرُوبِنَا؟

(١) العَظَةُ ١٨: ٢. انظر أيضًا: العَظَةُ ١٨: ١، ٣.

(٢) العَظَةُ ١٨: ٢.

(٣) العَظَةُ ٢٤: ٥. انظر أيضًا: العَظَاتُ ٢٤: ٣، ٢٦: ١٩.

(٤) العَظَةُ ١٥: ١٢.

٤) الرُّوح القدس يُحارِب معنا

حاشا للرُّوح القدس أن يتخلّى عَنَّا في حربينا واضطهادتنا وشدائدنا، فهو "الرُّوح القدس المعرِّي"، وقد دُعِي "معزِّيًا" لأنَّه يعرِّي المتضائقين ويُفَرِّجُهم^(١). لكنَّ عمله لا يقتصر على مجرَّد التَّعزية، فهو سلاحٌ بَتَارٌ في أيدينا نُصَارِع به أرواح الشَّرِّ ونطْفِئ سهام الشَّرِّير الملتَهبة^(٢)، وبدونه لا يمكننا أن تثبت ضدَّ مكاييد إبليس^(٣). وهو حصنٌ حصينٌ للنَّفس يَحُول دون تسلُّل الأعداء إليها^(٤). وهو نَارٌ سَحاوِيَّةٌ مُحرقةٌ تحرق الأرواح الشَّرِّيرة^(٥)، "فَكَمَا أَنَّ العِيدانَ الْمُلْقَأَةَ فِي النَّارِ لَا يَمْكُنُهَا أَنْ تَصْمُدْ قَبْلَهَا قَوَّةُ النَّارِ لَكَنَّهَا تَحْرُقُ فِي الْحَالِ تَمَامًا، هَكُذا أَيْضًا الشَّيَاطِينُ إِذَا مَا ابْتَغَتْ أَنْ تُحَارِبَ إِنْسَانًا قدْ غَدَا أَهْلًا لِلرُّوحِ الْقَدِيسِ تُحَرَّقُ وَتُلْتَهُمْ بِقَوَّةِ النَّارِ الإلهيَّةِ"^(٦). ولا ننسَ أيضًا جناحيه الإلهيَّين المُشار إليهما سالِفًا، والرافعين والرافعين النفَسَ إلى السَّمَاءِ، فهمَا كفِيلانٌ بأنْ يَعْثَا فِينَا الثِّقَةُ والظُّمَانِيَّةُ، "فَكَمْثُلُ الطَّائِرِ إِذَا مَا طَارَ فِي الْعُلُوِّ يَكُونُ بِلَا هِمَّ لِكُونِهِ لَا يَخْشِي شَيْئًا، لَا

(١) العظة ١٧:١.

(٢) انظر: العظة ٢٣:٢.

(٣) انظر: العظة ٢٥:٢.

(٤) انظر: العظة ٤٢:١.

(٥) انظر: العظة ٣٠:٦.

(٦) العظة ٤٣:٣.

صيادين ولا وحوشاً شريرة، لأنَّ الَّذِي في الموضع المرتفع يهزا بكلِّ الأشياء؛ هكذا أيضًا النَّفْس الَّتِي قد اتَّخَذَتْ لَهَا أجنحة الرُّوح القدس مُحَلَّقةً في أعلى السَّمَاءِ، فلأَنَّهَا تكون أعلى من الجميع، تهزا بكلِّ الأشياء“^(١).

وأخيرًا يَرْسُمُ لنا أَنْبَا مقار صُورَةً رائعةً تُنْطَقُ نُطْقًا بِتَمَكُّنِ أواصر الشَّرِّكةَ بين الرُّوح القدس والنَّفْسِ، وذلِكَ حِينَ يُبَيِّنُ فَرَحَ الرُّوح القدس بالنَّفْسِ الظَّافِرَةَ بِأَعْدَائِهَا وَكَائِنَهُ هو الغالب فِيْغَيِّرُ بِفِيمْهَا وَيُهَلِّلُ بِلِسَانِهَا“ وَيُشَدُّ نَشِيدًا جديداً لله بالدُّفَّ أَيْ بِالجَسَدِ، وبأَوتارِ القيثار الرُّوحِيَّةِ أَيْ بِأَوتارِ النَّفْسِ، ويرسل إلى فوق تسابيح للمسيح المُحْيِي. فَكَمَا أَنَّهُ بِوَاسِطَةِ المَزْمَارِ تُصْدِرُ النَّسَمَةُ صوتًا عَنْدَ مَرْوِرَاهَا فِيهِ، هكذا بِوَاسِطَةِ الْقَدِيسِينَ وَلَابْسِي الرُّوحِ يَكُونُ الرُّوحُ الْقَدَسُ مُسَيِّحًا وَمُرْتَلًا وَمُصَلِّيَّا لله فِي القلب النَّقِيِّ“^(٢).

٥) الرُّوحُ الْقَدَسُ يَقِيمُنَا

لا ينتهي عمل الرُّوح القدس معنا بانتهاء حياتنا على الأرض، فهو عتيّد أن يقيم أجسادنا في اليوم الأخير^(٣)، وليس يقيمهما فحسب بل يكسوها ويسربلها فینقذنا من خزي العُرُوي ولا يوجد عراؤ في ذلك اليوم^(٤). ولكن

(١) العَظَةُ .٦ : ٣٠

(٢) العَظَةُ .٤٧ : ٤٧

(٣) انظر: العَظَةُ .١ : ١١

(٤) انظر: العَظَةُ .٢ : ٣٢

فلننتبه أَلَّه يلزمـنا أَوْلًا أَن نقتـنـي ثوبـ الرُّوحـ القدـسـ منـذـ الـآنـ،ـ هـنـاـ عـلـىـ الـأـرـضـ^(١)ـ،ـ لـكـيـمـاـ نـحـظـىـ هـنـاكـ فـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ بـذـلـكـ السـتـرـ الإـلهـيـ^(٢)ـ.ـ وـالـرـوـحـ الـقـدـسـ،ـ بـتـعـهـدـهـ إـيـانـاـ عـنـدـ الـبـوقـ الـأـخـيـرـ،ـ لـاـ يـكـفـيـ بـأـنـ يـقـيـمـنـاـ وـيـنـقـذـنـاـ مـنـ الـمـوـتـ وـلـاـ بـأـنـ يـسـرـبـلـنـاـ بـالـجـمـدـ وـيـنـقـذـنـاـ مـنـ الـخـزـيـ،ـ بـلـ إـنـهـ عـتـيدـ أـيـضـاـ أـنـ يـخـتـمـنـاـ بـخـتـمـهـ فـيـنـجـيـنـاـ مـنـ الـدـيـنـوـنـةـ الـمـزـعـمـةـ وـيـوـجـدـ لـنـاـ دـالـلـةـ عـنـدـ الـمـسـيـحـ،ـ ”فـإـنـ الـمـسـيـحـ مـزـمـعـ أـنـ يـنـزـلـ مـنـ السـمـاـواتـ،ـ بـحـسـبـ الـكـتـبـ الـمـقـدـسـةـ،ـ وـيـقـيـمـ كـلـ بـنـيـ آـدـمـ الـذـينـ رـقـدـواـ مـنـذـ الـدـهـرـ،ـ وـيـوـقـفـ الـكـلـ فيـ قـسـمـيـنـ.ـ أـمـاـ أـوـلـكـ الـذـينـ لـهـ سـمـتـهـ الـخـاصـةـ أـيـ خـتـمـ الرـوـحـ الـقـدـسـ،ـ فـسـوـفـ يـدـعـوـهـمـ كـخـاصـتـهـ وـيـوـقـفـهـمـ عـنـ بـيـنـهـ،ـ فـيـقـولـ:ـ ”خـرـافـيـ الـخـاصـةـ تـسـمـعـ صـوـتـيـ“ـ،ـ وـأـيـضـاـ:ـ ”أـنـاـ أـعـرـفـ خـاصـتـيـ،ـ وـأـعـرـفـ مـنـ خـاصـتـيـ“ـ^(٣)ـ.ـ عـلـىـ أـنـنـاـ كـذـلـكـ يـنـبـغـيـ لـنـاـ أـوـلـاـ أـنـ نـقـتـنـيـ مـنـذـ الـآنــ هـذـاـ الـخـتـمـ الإـلهـيـ وـنـخـنـ بـعـدـ فـيـ الـجـسـدـ،ـ فـنـظـفـرـ مـنـذـ الـآنــ بـمـذـاقـةـ الـمـلـكـوتـ،ـ وـهـذـاـ هـوـ الـعـرـيبـونـ^(٤)ـ.ـ فـحـينـمـاـ نـقـتـنـيـ الرـوـحـ الـقـدـسـ الـآنــ دـاـخـلـ قـلـوبـنـاـ،ـ فـإـنـهـ يـعـلـنـ لـنـاـ مـاـ أـعـدـهـ اللـهـ لـنـاـ لـأـنـهـ ”يـفـحـصـ كـلـ شـيـءـ حـتـىـ“ـ

(١) انظر: العطة ٢٠ : ١.

(٢) انظر: العطة ٥ : ٧، ٨، ٩.

(٣) العطة ٥ : ١٢. انظر أيضـاـ: العطة ١٢ : ١٣.

(٤) انظر: العطـاتـ ٥ : ٤٦، ١٧.

أعمق الله»^(١). فالمسيحيون ينظرون - كما في مراة - إلى الخيرات الأبدية بسبب شركة الروح القدس ومؤازرته^(٢).

٦) الروح القدس حياتنا

بات واضحًا لنا الآن أن اقتناء الروح القدس ليس من نوافل الأمور التي يمكننا أن نُغْضَّ الطُّرف عنها ونحيي بدوها، بل إنه الحياة عينها، فإما أن نقتنه فنجي، وإما أن لا نكتثر له فينشِّب الموت أظفاره فينا ولو حسِّبنا في عِدَاد العائشين. وهذا يكشفه لنا أنبأ مقار بكلٍّ وضوح وجلاء، فلا يكفي بأن يقول إن الروح القدس يصبح للمسيحيين وسَطَا يتَسَمُون فيه الحياة^(٣)، ولا يقنع بقوله إنه حياة النَّفْس كما أن النَّفْس هي حياة الجسد^(٤)، لكنه يحصر فيه حياتنا مُبِينًا مَغْبَةً فقدانا له ومحذِّرًا من عاقبة عدم اقتنانها إِيَّاه، فيقول إننا ما لم نقتنه نموت موت الجسد إذا امتنع عن الطعام والشراب^(٥) وموت السمك إذا خرج من الماء^(٦).

(١) انظر: العطة ٣٧: ٦.

(٢) انظر: العطة ٥: ٤. انظر أيضًا: العطة ١٧: ٢، ٤.

(٣) انظر: العطة ١٤: ٥.

(٤) انظر: العطة ٣٠: ٥.

(٥) انظر: العطة ١: ١١.

(٦) انظر: العطة ١٤: ٥. انظر أيضًا: العطات ١٥: ٣٠، ٤٢، ٣: ٥.

(٧) من لنا به؟

والآن، وقد عرَفنا حياتنا وموتنا، حريري بنا أن نعرف كيف نحصل على هذه الحياة. فنحن المخلوقين، نحن التُّراب والرَّماد، نحن العدم واللَّاشيء، بصَدَّقَ قبول أقوام إلهي سرمديٍّ خالدٍ في داخلنا، فأين نحن منه؟ ومن لنا بعمور المؤة المائة التي لا تُسْتَر الفاصلة بين الخالق والمخلوق؟ فلا قبل لنا بمثل هذا الأمر ولا طاقة لنا عليه! فهل من شفيع، وهل من وسيط؟! هيلويا! لقد اضطُلَّ الابن الوحيد بهذا الأمر! ومن سواه كان حقيقاً بهذا الأمر وجديراً بالقيام بهذه العجيبة التي دونها جميع العجائب؟ فلا إخراج الشَّياطين ولا إشباع الجموع ولا شفاء الأمراض ولا إقامة الموتى ولا دخول جهنَّم من ثقب إبرة، بأمرٍ تُذَكَّر إزاء سُكَّنِ الرُّوح القدس في قلوبنا واقنائنا إيماناً!

وقد أبدع أبا مقار إيماناً بإبداع في وصف هذه العجيبة الإلهية بل وجعلها غايةً أساسيةً لمحىء الابن، فقد أتى المسيح "لكي يَهَبَ للنَّفْسِ مِنْذَ الْآنِ الْحَيَاةَ أَيْ رُوحَهُ" (١)، ولا ليَهَبَها إيماناً فحسب بل ليَمزُجَها به مزجاً، "فَإِنَّ رِبَّنَا لِأَجْلِ هَذَا قَدْ أَتَى، لَكِي يَغْيِرَ الطَّبِيعَةَ وَيُحَوِّلَهَا وَيُجَدِّدَهَا وَيَخْلُقَ ثَانِيَةً هَذِهِ النَّفْسَ الَّتِي طَوَّحَتْ بِهَا الْأَهْوَاءُ بِسَبَبِ الْمُخَالَفَةِ، مازِجاً إِيمَانَهَا بِرُوحِهِ الْخَاصِّ

(١) العضة ٤٤: ٦. انظر أيضاً: العضة ٩.

- روح الألوهه“^(١). وفي تشبيهين هما غاية في الجمال والرّوعة يُشَبِّهُنا أبا مقار بأزقاق يُسْكِب فيها المسيح روحه، فيقول إنَّ ”مُحَمَّلَ القَوْلِ إِنَّهُ قَدْ أَتَى لِي جَعَلَ مِنَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَزْقَاقًا جَدِيدًا لِكِي يَضْعُفَ فِيهَا الْخَمْرُ الْجَدِيدَةُ الَّتِي هِيَ رُوحُه“^(٢)؛ ويشبهنا أيضًا بأرض قد جاءها الرَّبُّ خصيصاً ليغرس فيها فردوس روحه القدس، ”فَالْمَسِيحُ، الْمَلِكُ السَّمَائِيُّ وَالْفَلَاحُ الْحَقِيقِيُّ، حِينَ جَاءَ إِلَى الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي أَجْدَبَتْ جَرَاءَ الشَّرِّ، لَابْسَا الْجَسَدَ وَحَامِلًا الصَّلَبَ أَدَاءً، فَلَحَّ النَّفْسُ الْمَجِدِيَّةُ وَنَزَعَ مِنْهَا شَوْكُ الْأَرْوَاحِ الشَّرِّيرَةِ وَحَسَكَهَا، وَاقْتُلَعَ زَوَانُ الْخَطِيئَةِ، وَأَحْرَقَ كُلَّ عَشْبٍ خَطَايَاهَا بِنَارٍ، وَبَعْدَ أَنْ فَلَحَّهَا بِخَشْبَةِ الصَّلَبِ، غَرَسَ فِيهَا فِرْدَوْسَ الرُّوحِ الْقَدِيسِ ذَا الْجَمَالِ الْكَاملِ، الْحَامِلِ لِلَّهِ سَيِّدِهَا كُلَّ ثُرَّةٍ خَلُوَةٍ وَمُشْتَهَا“^(٣).

وبذلك يُلْتَحَ علينا أبا مقار أنْ نأتي إلى الرَّبِّ يسوع ليُسْكِب روحه خمراً جديداً في أزقاق نفوتنا، ويُغرسه فردوساً مثمناً في ثربة أرواحنا، ويلقيه ناراً مُلْهِيَّةً في أرض قلوبنا. ألا ”فَلِتَمَثَّلْ بِمِرْيمٍ! لِتَمَثَّلْ بِتِلْكَ الَّتِي لَمْ تَشْخَصْ إِلَى آخَرَ إِلَّا فَقْطَ إِلَى ذَاكَ الْقَائِلِ: «جِئْتُ لِأَلْقَيَ نَارًا عَلَى الْأَرْضِ، وَكُنْتُ أُرِيدُ

(١) العضة ٤٤: ١. انظر أيضًا: العضة ٣٢: ٦.

(٢) العضة ٤٤: ١.

(٣) العضة ٢٨: ٣.

لَوْ أَنَّهَا اضْطَرَّمْتُ»! فنار الرُّوح القدس هي الَّتِي تُضْرِمُ الْقُلُوبَ^(١). ولكن هل مِنَ الابن الوحيد فقط يتوجّب علينا أن نطلب الرُّوح القدس؟ أمّا يسوعُ لَنَا أن نطلبَه من ذاكَ الَّذِي منه يتبَقّى؟

بمحيِّءِ الابن الوحيد والِّخَادِه طبِيعَتَنا كاملاً خلا الخطيبة وحدَها، افتتح لنا الباب المُفْضِي إلى الآب على مصراعيه، وتَرَقَ الحجاب الَّذِي يفصلنا عنه وهُنْتَكَ السِّتْرُ وانفصَمتْ عُرَاهُ، فما عاد يجْزُنا عنه حاجِزاً، وما عدنا - في المسيح يسوع - أعداءً ولا بعيدين ولا غرباء، لأنَّا «جَيْئِنا أَبْنَاءَ اللَّهِ بِالإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ»^(٢). فيا لِلْقُدُومِ ويا لِلجرأةِ ويا لِلنِّفَةِ الَّتِي صارت لنا، في المسيح يسوع، من نَحْوِ الآبِ! فما زالت عسانا نطلب - نحن الأبناء الأَخْصَاءُ - من أبيينا السَّمَوَاتِ؟ أنْطَلِبْ مَأْكَلًا ومشريًّا وملبسًا، تلك الأمور "الَّتِي سَبَقَ وَأَمَرَ أَنْ لا تُعْرِهَا اهتماماً بالكُلِّيَّةِ بل تَنَكَّلُ عليه بشقة"^(٣)؟! أنْطَلِبْ تلك "الأمور العابرَةُ والأرضيَّةُ الَّتِي يُعْطِيَها حَتَّى لِلأشَرَارِ والوحوشِ والطَّيورِ"^(٤)؟! أنْطَلِبْ "جمالِ وَهَمَاءِ الْمُلُوكِ وَالرُّؤُسَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ وَأَجْحَادِهِمْ وَكَرَامَاتِهِمْ وَغَنَاهِمْ"^(٥)؟! لَيْسَ لَنَا أَنْ نَطَلِبْ مِنْهُ سُوَى

(١) العظة ٢٥: ٩.

(٢) غل ٣: ٢٦.

(٣) العظة ٤٨: ١.

(٤) العظة ٤٨: ٣.

(٥) العظة ٥: ٦.

روحه، ونطلبه بلا انقطاع. فها أنت مقار يستنهض عزائمنا قائلاً: ”فلنطلب إذاً قبل كل شيء أن نقتني في ذاتنا وسمَّ الرَّبِّ وخَتمَه“^(١)، ”ولا يكون لنا أي اهتمام أرضيٍّ، بل ليلاً ونهاراً نقف على الباب متربين الوقت الذي فيه يفتح الرَّبُّ قلوبنا الموصدة ويُسْكِب علينا عطية الروح القدس“^(٢).

وفي النهاية يتبقى لنا مصدر ثالث آخر لنيل الروح القدس، ورغم كونه من المنطق بمكانٍ، إلا أننا قلماً نلجم إليه وقلماً نقع بابه، وهو الروح القدس ذاته! فلنطلب منه هو أن يلذنا ثانيةً من فوق فنعدُّ أولادَ الله بالحقيقة والقوَّة^(٣)، ويُلْجِمَنَا ويُرَوِّضَنَا فنخلص من طبيعتنا الوحشية الجموح^(٤)، وينعم علينا بشركته فنستنير^(٥)، ويمْلأنَا بملحه فننزل رائحتنا التَّيَّنة^(٦)، ويُهُبَّ علينا فتتشعَّش نفوسُنا^(٧)، ويَهْبَّنا أحجحته فنجُو من

(١) العظة ١٢ : ١٣ .

(٢) العظة ١١ : ٦ . بخصوص طلبنا للروح القدس من الله، انظر على سبيل المثال: العظات ١ : ٥، ٩ : ٢٨ ، ٣ : ٢١٨ ، ٩ : ١٩ ، ١١ : ٢٠ ، ٤٨ : ٣٠ ، ٤١ : ٣٧ ، ٤٦ : ٧ .

(٣) انظر: العظة ٥ : ٤ .

(٤) انظر: العظة ٢٣ : ٢ .

(٥) انظر: العظة ١ : ٢ .

(٦) انظر: العظة ١ : ٥ .

(٧) انظر: العظة ٢ : ٤ .

الفخاخ ونُحْكِي في الأعلى^(١)، ويُضَرِّمَنَا بناره فنشتعل بجُبَّتِ المسيح ونخرج بعشقه^(٢)، ويُسْرِبُلَنَا بثوبه فلا يوجد عراة^(٣)، ويُسْمَنَا بختمه فنُحسَب من الخاصة ونُنقَد من الهالاك^(٤)، ويُعْدَدَنَا بزِيَّته فندخل مع العريس إلى الخدر السماوي^(٥).

فخليقٌ بنا جدًا، بعد كلٍّ هذه الأمجاد وكلٍّ هذه الموعيد وكلٍّ هذا الميراث، أن نتساءل كيف "لا نزال نحن هيكلًا للأوثان وإناءً لأرواح الشرّ، ولم نصِرْ بعد هيكلًا للروح القدس، بل لا يزال روح العبودية هو الحال فينا لا روح التَّبَّيِّن"^(٦)؟ هنا يأتي دور المفتاح الذي تفتح دونه أبواب المستحيل، والجبار الذي تداعى أمامه كلُّ الحواجز والموانع والأسوار، وـ"كلمة السُّرِّ" التي تهُنُّ لها أعتاب السماء: الإيمان.

٨) الإيمان بِقَبُولِنَا الرُّوحُ القدس

على مدى هذه العظات، وفي كلِّ المرَّات تقرِّيًّا التي يدعونا فيها أئبنا مقار لطلب الرُّوح القدس - وهو ما لا يقع تحت حصر - نجده يقرِّن هذا

(١) انظر: العظات ٢: ٥؛ ٣: ٤١١؛ ٣٠: ٤٦؛ ٤٤: ٥.

(٢) انظر: العظات ٤: ٥؛ ٤١٥: ٦.

(٣) انظر: العظة ٥: ٨، ٩.

(٤) انظر: العظات ٥: ١٢؛ ٤١٢: ٣٠؛ ٤١٣: ١٢.

(٥) انظر: العظة ٤: ٦.

(٦) انظر: العظة ٢٥: ٤.

الطلب بالإيمان. بل في بعض الأحيان نجده يقنعنا بالإيمان ويحضّنا عليه ويسأله لنا، فتارةً يستعين بمنطق الرَّبِّ نفسه حين قال: ”إِنْ كُنْتُمْ أَشْرَارًا تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أُولَادَكُمْ عَطَايَا حَيْدَةً، فَكُمْ بِالْحُرْيِيْ أَبُوكُمْ السَّمَاوِيْي يُعْطِي الرُّوحَ الْقَدْسَ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ“ – يعطيه بقوّةٍ وبيقينٍ شديد بحسب قول الرَّسُول^(۱)؛ وتارةً أخرى يتساءل مستنكراً: ”إِنْ كَانَ الرَّبُّ هَكُذا يُشْفِقُ عَلَى الْأَجْسَادِ الَّتِي تَنْحَلُّ وَتَمُوتُ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ شَيْئاً كَانَ يَصْنَعُهُ لَهُ بِشَوْقٍ وَلَطْفٍ؛ فَكُمْ بِالْأَحْرَى جَدًّا النَّفْسُ الَّتِي لَا تَمُوتُ وَلَا تَنْحَلُّ وَلَا تَفْسَدُ، وَالَّتِي تَتَوَقُّ إِلَى نَيْلِ نِعْمَةِ الرُّوحِ الْقَدْسِ مِنْهُ، أَلَا يَبْهُبُهَا – بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ وَبِأَوْفَرِ رَغْبَةٍ – التَّجَاهَةُ وَالشِّفَاءُ“^(۲)! لذلك في طلبنا الرُّوحَ الْقَدْسَ نحن في أَمْسِيَّ الحاجة إلى الإيمان، فهو الحُلْمُ الَّذِي به تُخْتَم صلواتنا فتُسْمَعُ وَتُسْتَجَابُ، وبدونه تذهبُ جميع صلواتنا صرخةً في وادٍ أو نفخةً في رَمَادٍ.

ولهذا يناشدنا أَنْبَاء مقار أن نطرح الشَّكَّ جانباً في طلبنا الرُّوحَ الْقَدْس ونستعيض عنه لا بالإيمان فقط بل باليقين: ”فَلَنُصَلِّ إِذَا نَحْنُ أَيْضًا في يقينٍ وَتَبَصُّرٍ لِكَي نُشْتَرَكَ في الرُّوحِ الْقَدْسِ، لَا يَخَافُونَا الشَّكُّ فِي أَنَّ نِعْمَةَ اللهِ تُسْرُ أَيْضًا بالخطأِ التَّائِبِينَ. لَأَنَّ مَا يَوْهَبُ عَلَى سَبِيلِ نِعْمَةٍ لَا يَقْاسِ بَعْدُ

(۱) العضة ۴: ۵. انظر أيضًا: العطاءات ۴: ۲۰، ۲۶: ۸.

(۲) العضة ۴: ۲۶. انظر أيضًا: العطة ۲۰: ۸.

ولا يقارن بسالف الضعف، «وَإِلَّا فَلَيُسْتَأْتِي التِّعْمَةُ بَعْدُ نِعْمَةً». لكن، ونحن مؤمنون بالله القادر على كل شيء، فلتتقدّم ببساطة وسلامة قلب إلى ذاك الذي يكُنْ علينا بشركة الروح القدس بالإيمان لا بما يتناسب وأعمالنا الطبيعية، لأنّه يقول: «لَا يَأْعُمَال النَّاسُوْس أَخْدُمُ الرُّوحَ بَلْ بِخَبَرِ الإِيمَانِ»^(١). وبنهانا أننا مقار أشدّ النهي عن أن نقول - في تواضع ليس في محلّه يُعوِّزه الإفراز - «إِنَّه لَهُ كُرْسِلٌ قَدْ أُعْطِيَ الرُّوحُ أَمَّا لَنَا فَلَا سَبِيلٌ لِنَيْلِهِ»^(٢)، فهذا قول مشجوب مرفوض يُبْطِل الإيمان ويُغلق في وجهنا منافذ الامتناء بالروح القدس. وننهي أننا مقار هذا يُذَكِّرُنَا بنَهْيِ آخر صيُّون له قد قاله أنسا أنطونيوس أيضاً لأولاده، خائفاً عليهم لثلاً ينخدعوا بذلك الذِّئْبِ المُقْبِلِ عليهم في ثياب الْحَمْلَانَ، فيقول أنسا أنطونيوس لأولاده عن قَبُولِ الرُّوحِ القدِّسِ: «لَا تُفَكِّرُوا فِي قُلُوبِكُمْ وَتَكُونُوا ذُوِي قُلُوبٍ، وَلَا تَقُولُوا: مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَقْبِلَ هَذِهِ؟ لَا يَا أَوْلَادِي! لَا تَدْعُوا هَذِهِ الْأَفْكَارَ تَأْتِي عَلَى قُلُوبِكُمْ، بَلْ اطْلُبُوا بِاسْتِقَامَةِ قُلُوبِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقْبِلُونَهُ»^(٣). ثم يُستطرد أنسا

(١) العضة .٧ : ٣٧

(٢) العضة .٦ : ٣٧

(٣) رسائل ق. أنسا أنطونيوس، الرسالة ٨ : ١.

أنطونيوس ويقول: ”إِذَا قَبْلَتْمُوهُ، فَإِنَّهُ يَكْشِفُ لَكُمُ الْأَسْرَارَ الْعُلوَيَّةَ وَأَشْيَاءَ أُخْرَى لَا أَسْتَطِعُ أَنْ أُغَيِّرَ عَنْهَا فِي قِرْطَاسٍ بِقَلْمَنْ وِمَدَادٍ“^(١).

٩) الرُّوحُ الْقَدْسُ يُشَعِّلُنَا بِالْحُبِّ

هكذا أيضًا يعترف أبا مقار، مثل أبيه أبا أنطونيوس، أنَّ ما يعمله الرُّوحُ الْقَدْسُ في قلوبنا لا يمكن التعبير عنه، فتكثر جدًا في عظاته كلمات على شاكلة ”لا يُنْطَقُ بِهِ“، ”لا يُوصَفُ“، ”لا يُلْفَظُ بِهِ“، ”يُفُوقُ التَّعْبِيرَ“، ”يُفُوقُ الْوَصْفَ“، إلى آخره من مثل هذه الكلمات التي تُخْفِي في طيَّاتها أكثر جدًا ممَّا تعلن. ومن للإنسان، مهما بلغ من الحكمة والمقدرة، بأنَّ يُغَيِّرَ عن الحب؟! إذن فكما أنَّ ”المسيح «قَدْ ذَبَحَ»“ ودنه المرشوش علينا قد أَنْبَتَ لنا أجنهة الرُّوحُ الْقَدْسُ“^(٢)، هكذا الرُّوحُ الْقَدْسُ يعود فيرثنا للمسيح عروساً طاهرة^(٣)؛ وكما أنَّ المسيح يُلْقِي نارَ روحِهِ في قلوبنا^(٤)، هكذا الرُّوحُ الْقَدْسُ بدوره يُشَعِّلُ قلوبنا بحبِّ المسيح. هذا هو ”مِسْكُ الختام“ لخديشنا عن الرُّوحُ الْقَدْسُ، فإذا نُحِسِّنُ الآنَ بنسمِ الحبِّ العليل يُعشِّنُ نفوسنا، ونستنشق أريحَة العاطر يُعْيِّقُ أرواحنا، فلنَرَ كيفَ يتغَيَّرُ

(١) رسائل ق. أبا أنطونيوس، الرِّسالَةُ ٨: ٢.

(٢) انظر: العَزَّةُ ٤٧: ٢.

(٣) انظر: العَزَّةُ ١٩: ٩.

(٤) انظر: العَزَّةُ ٩: ٩.

أنبا مقار بهذا الحب الإلهي الجليل، قدس أقدس سيرة النفس وجنتها المغلقة!

خامسًا: الحب الإلهي

١) الروح القدس يحرج النفس بالحب

جرح عميق غائر يحرج به الروح القدس النفس، فتنزف دمها الفاسد وتحلّص من قيّحها المُنْتَنٍ وتتقبّل في ذاتها دمًا جديداً كلَّ الحَدَّة يُسرِّي في أعضائها ويتعلّق ثناياها ويملا شغاف قلبها. ذلكم هو الحب الإلهي! هذه هي البداية! هذه هي الشّارة الأولى! هذا هو أول العيّث! وهيهات للقلب أن يتحقق بحب يسوع من دون الروح القدس. أمّا متى جرحت النفس بالحب، فأول ما يصنعه فيها هذا المحرج هو إلّا "تتحلّ من كلِّ محنة عالميّة وتتحرّر من كلِّ رُبُط الشّرّ" (١).

٢) العالم برُمّته يستحيل عويدًا صغيرًا!

ليس فقط إلّا تتحلّ من كلِّ المحنّات العالميّة، بل إلّا تزدرى بجميع الأشياء وتستهين بها "وتبدو لها جميع الأشياء زائدة لا ضرورة لها، لأنّها علّبت من الشّوق السّماوي وأنّحدرت بالله ب مجرح هذا الشّوق" (٢). "فإنّ

(١) العظة ٤ : ١٣.

(٢) العظة ٤ : ١٥.

محبّي المسيح الذين أرادوه قد تركوا نعيم الدُّنيا ولذاتها، وصارت منزلة العالم عندهم كمنزلة العُويند الصَّغير، فلم يتَّلَّموا على فَقْدِ شيءٍ منه”^(١).

ومع ازدياد اشتعال النَّار الإلهيَّة داخلها وبلغ حرج الحِبِّ منها كُلَّ مُبلَّغٍ، لا تستهين فقط بأمور هذا الدَّهر بل تَعَافُها وتُبغضُها، ”فَكما أَنَّ الإِنْسَانَ الْمُشْتَعِلَ بِالْحُمَّى الْمُمْسُوكَ بِهَا، إِذَا مَا قَدَّمَتْ لَهُ طَعَامًا أَوْ شَرَابًا، وَإِنَّ الْأَطِيبَ مَذَاقًا، فَإِنَّهُ يَعَافُهُ وَيُلْقِيهُ عَنْهُ كَوْنَهُ مُشْتَعِلًا بِالْحُمَّى وَمُصَابًا بِهَا بِشَدَّةٍ؛ هَكُذا أَيْضًا بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ أُولَئِكَ الْمُشْتَعِلُونَ بِالشَّوْقِ السَّمَاوِيِّ الْمَقْدِسِ الْجَلِيلِ الَّذِي لِلرُّوحِ الْقَدِيسِ، وَالْمُجْرُوحَةِ نُفُوسِهِمْ بِعِشْقِ مَحْبَّةِ اللَّهِ، وَالْمُصَابُونَ بِشَدَّةٍ مِّنَ النَّارِ الإلهيَّةِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي جَاءَ الْمَسِيحُ لِيُلْقِيَهَا عَلَى الْأَرْضِ وَيَرِيدُ اضْطِرَامَهَا عاجِلًا، وَالْمُتَقَدِّمُونَ غَايَةَ الْإِتِّقادِ بِالشَّوْقِ السَّمَاوِيِّ الَّذِي لِلْمَسِيحِ، فَإِنَّهُمْ يَحْسِبُونَ كُلَّ أَمْورِ هَذَا الدَّهرِ الْمُعْتَبَرَةِ فَاخِرَةً وَثَمِينَةَ أَكْثَرًا مِّنْ ذُولَةِ وَبَغْيَضَةِ، لِأَجْلِ نَارِ مَحْبَّةِ الْمَسِيحِ الَّتِي تَحْصُرُهُمْ وَتُشَعِّلُهُمْ وَتُؤْخِجُهُمْ بِانْعَطَافٍ نَحْوَ اللَّهِ - تَلْكَ الْحَبَّةِ الَّتِي لَا يَمْكُنُ لِأَيِّ شَيْءٍ سَوَاءً فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ تَحْتِ الْأَرْضِ أَنْ يُفْصِلَ مُثْلَ هُؤُلَاءِ عَنْهَا، كَمَا شَهَدَ بُولُسُ الرَّسُولُ قَائِلًا: «مَنْ سَيَفْصِلُنَا عَنْ مَحْبَّةِ الْمَسِيحِ ... إِلَّهٌ»^(٢).

(١) بستان الرُّهبان - قول ٥١.

(٢) العظة ٩: ٩.

وهكذا يتَّضح أنَّ الرُّوح القدس - وكأنَّه أُمٌّ عَطْوَفٌ شَفَوقٌ للنَّفْس - لا يُفرِغُ النَّفْسَ من محبَّةِ العالم وما فيه إلَّا ليملأُها بحِبِّ الرَّبِّ وعشقِه، فهو لا يتركها وحيدةً ثُعاني الوحشةَ والعزلة. وهكذا تَرَكَ النَّفْسُ أمجادَ العالم وكراماته عن رضىٍ ومسرةٍ، بملءِ حِبِّتها وبكمالِ إرادتها، من أجلِ حِبِّها للرَّبِّ يسوع. ”فَأُولَئِكَ الَّذِينَ قَطَرَ عَلَيْهِمْ نَدَى رُوحُ الْحَيَاةِ الَّذِي لِلْأَهْوَاتِ وَجَرَحَ قُلُوبَهُمْ بِعُشْقٍ إِلَهِيٍّ نَحْوَ الْمَسِيحِ، الْمَلَكِ السَّمَاوِيِّ، قَدْ أَصْحَوْا مَقْيَدِينَ بِذَلِكَ الْجَمَالِ وَالْجَهْدِ الَّذِي لَا يُطْمَقُ بِهِ وَالْخُسْنُ الَّذِي لَا يَقْسُدُ وَالْغَيْرُ الَّذِي يَفْوَقُ الْعُقْلَ الَّذِي لِلْمَسِيحِ، الْمَلَكِ الْحَقِيقِيِّ الْأَبْدِيِّ، ذَاكُ الَّذِي باشتهائِهِ وَالاشتياقِ إِلَيْهِ أَصْبَحُوا مَأْسُورِينَ، وَبِكُلِّ كِيَانِهِمْ نَزَعُوا إِلَيْهِ، مُسْتَحْرِقِينَ شَوْقًا إِلَى تَنَيُّلِ تَلْكَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي لَا يُطْمَقُ بِهَا الَّتِي يَنْتَظِرُونَهَا بِالرُّوحِ الْقَدِيسِ كَمَا في مَرَأَةِ، وَالَّتِي لِأَجْلِهَا يَزْدَرُونَ بِكُلِّ جَمَالٍ وَبِهِاءِ الْمَلْوَكِ وَالرُّؤْسَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ وَبِكُلِّ أَمْجَادِهِمْ وَكَرَامَاتِهِمْ وَغَنَامِهِمْ، ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ جَرِحُوا بِالْجَمَالِ الإِلهِيِّ وَقَطَرَتْ عَلَى نُفُوسِهِمْ حِيَاةُ الْخَلُودِ السَّمَاوِيِّ. وَهَذَا فِإِنَّهُمْ يَتَوَقَّونَ إِلَى تَلْكَ الْحَبَّةِ الَّتِي لِلْمَلَكِ السَّمَاوِيِّ، وَيَضْعُونَهُ فَقَطْ نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ فِي شَوْقٍ كَثِيرٍ، وَمِنْ أَجْلِهِ يَكْلُلُونَ ذَوَاهِمْ مِنْ كُلِّ مُحَبَّةٍ عَالَمِيَّةِ وَيَنْفَكُّونَ مِنْ كُلِّ رِبَاطٍ أَرْضِيٍّ، حَتَّى يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَقْتَنُوا ذَلِكَ الشَّوْقَ وَحْدَهُ فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى الدَّوَامِ، وَلَا يَمْرِجُوا مَعَهُ أَيَّ شَوْقٍ آخَرٍ“^(١). ”بَلْ حَتَّى

.٦ : العَظَةُ ٥

الإخوة المحبوبون لهذه النَّفْس جدًا، إنْ هم أعاقوها عن تلك المحبة، فإنَّها تتحول عنهم، ذلك لأنَّ حياتها وراحتها في شرِّكتها السُّرِّيَّة الَّتِي لا يُعبَّر عنها مع الملك السَّماوي“^(١).

٣) التَّفَكُّر في الحبيب والشُّخوص إليه

وبعد أن تزدري النَّفْس بالعالم، حبًّا في المسيح، وتعاف شهواته وملذاته، وتزهد في أمجاده وكراماته، لا تملِك بعد ذلك سوى أنْ تُفَكِّر في حبيها وتلهج في اسمه القدُّوس، ”فتقتني ذِكْرُ الله في كُلِّ حين، ليس فقط حين تدخل موضع الصَّلاة، بل حين تمشي وحين تتحدث وحين تأكل تقتني ذِكْر الله وحَبَّه وغَرامه. لأنَّه يقول: «خَيْثُ يَكُونُ عَقْلُكَ، هُنَاكَ يَكُونُ كَنزُكَ أَيْضًا»^(٢). ولكي يُصَوِّر لنا أَنَّبَا مقار كيف يجب أن تكون مداومتنا في التَّفَكُّر في الحبيب، يقول: ”الَّذِي يَقْتَفي صَلِيبَ المَسِيحَ بِالْحَقِّ، مُنْكِرًا كُلَّ شيء، حتَّى نَفْسَه أَيْضًا، يلزم أَنْ يَقْتَبِي عَقْلًا مُسَمَّرًا في حِبِّ المَسِيح“^(٣).

وحيث نُسَمِّر عقولنا في حِبِّ المَسِيح نظرة، لكنَّ ليس بعيوننا هذه بل بعيون قلوبنا، ”فَإِنَّه يَنْبغي لِكُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ ثُمَّةَ عَيْوَنًا أَكْثَرَ إِيمَانًا مِنْ هَذِهِ الْأَعْيُنِ، فَأَعْيُنُ النَّفْسِ الْمُسْتَحْقَقَةِ الْأَمِينَةِ تَنْظَرُ وَتَدْرِكُ الْحَبِيبَ

.١٥ : ٤ العَظَة

.٣ : ٤٣ العَظَة

.١ : ٤٥ العَظَة

ال حقيقي، الحق الأعلى والمشتهى جداً، الذي هو رب“^(١) . وكما أن للنفس أن تغتر في المسيح فلا تريم عنه، كذلك فإن ”لها استطاعة أن تنظر إلى الله في كل حين، فتوجد لها دالة عند سبدها“^(٢) . ”وحين تنظر النفس الحسن المشتهى الوحيد الذي لا ينطلي به، تنجرح بالعشق الإلهي وهكذا تقتني حباً لا يحتج ولا ينضب نحو رب مشتهاها“^(٣) . إذن فانجراحت النفس بحبِّ ربِّ يسوع يدفعها إلى أن تنظر إليه كلَّ حين، ثمَّ بنظرها إليه يزداد جُرحها عملاً والتهاياً، فيستبدل بها الشوق أيضاً لأنَّ تنظره، وهكذا دوأليك. فينبوع الحب الإلهي لا يتضمن ولا يغيب، لكنه على العكس، كما سنرى فيما بعد، يزداد ويغيب.

على أنَّ أنسا مقار - من فرط ولعه وهياقنه بمحبب نفسه - لا يقنع بمجرد ”النظر“ إليه، بل يدعونا إلى ”الشخص“ إليه و ”التحقيق“ فيه، فيقول، وقد أخذ منه الانشغال كلَّ مأخذ: ”إنَّ النفس تشخيص بوجهه مكشوف إلى العريس السماوي، وجهها لوجه، في نور روحاني لا ينطلي به، منتزةً به بكلِّ يقين، متتشبهةً بموته، ومنتظرةً كلَّ حين، في تَوْقٍ شديد، أن

(١) العضة ٢٨ : ٥.

(٢) بستان الرهبان - قول ٢٠٨.

(٣) العضة ٢٨ : ٥.

تموت لأجله“^(١). وليس بدون ثُمِّ يَكْتُنَا أَنْبَا مَقَارَ عَلَى التَّفَرُّسِ فِي الرَّبِّ، بَلْ هَا هُوَ يَقْدِمُ لَنَا ثَرَّةً لَا أَشْهِي وَلَا أَحْلَى، إِذَا يَقُومُ حَبِيبُ نَفْوسِنَا ذَاهِهِ - وَهُوَ الْمَصَوِّرُ الصَّالِحُ وَالرَّسَامُ الَّذِي لَا يُبَارِى - ”وَيُصَوِّرُنَا وَيَرْتَهِنَا عَلَى صُورَتِهِ، مِنْ رُوحِهِ وَمِنْ جُوهرِهِ وَمِنْ نُورِهِ الَّذِي لَا يُنْطَقُ بِهِ“^(٢). فَهَلْ مِنْ خُلُمٍ يَدَعُبُ خِيَالَنَا أَجْمَلُ مِنْ هَذَا، وَهَلْ مِنْ أَمْنِيَّةٍ تَحُولُ بِخَاطِرِنَا أَعْذَبُ مِنْ هَذَا، وَهَلْ مِنْ أَمْلِ يَدُورُ فِي خَلْدِنَا أَحْلَى مِنْ هَذَا؟!^(٣)

٤) الشَّوْقُ بِلَا شِيْعَ

كَيْفَ يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ الْحُبُّ جُرْحًا؟ إِنَّ الْحَبِّينَ الَّذِينَ حَبَّرُوا الْحُبُّ وَعَمِّلُوا بِمَدَاقِهِ وَتَمَلِّوا بِنَشُوْتِهِ لَا حَاجَةَ بَعْدَهُمْ لِأَنْ يَسْأَلُوا هَذَا السُّؤَالَ، فَهُمْ يَخْتَبِرُونَ هَذَا الْحُبُّ الْمُبِيرُ وَهَذَا الْجَرْحُ الْلَّذِيْدُ! إِنَّهُ ”سِرُّ“ الْحُبُّ الَّذِي لَا يَكْتُنُهُ إِلَّا مِنْ اخْتِرِهِ. وَلَنَا فِي ”شَوَّلَمِيَّث“، عَذْرَاءُ النَّشِيدِ، مَثَالُ جَلِيلٍ، تَلَكُ الَّتِي بَرَّحَ بِهَا الْحُبُّ فَصَرَخَتْ تَبَيَّثُ شَكَّاكَاهَا: «إِنِّي مَرِيضَةٌ (سَبْعِينَيَّةٌ مَجْمُرُوَحَةٌ حُبًّا»^(٢). لَكَنَّنَا رَبِّيَا نَجَدُ فِي ”الشَّوْقِ“ بَعْضًا مِنْ الإِجَابَةِ عَلَى هَذَا السُّؤَالَ، فَحَتَّى عَلَى مَسْتَوِيِّ الْمَجَةِ الطَّبَيِّعِيَّةِ، كَمَحَّةِ الْأَمْ لِأَوْلَادِهَا وَالْأَبِ لِبَنِيهِ، نَجَدْ أَنَّهُ كَلَّمَا ازْدَادَتِ الْمَجَةُ ازْدَادَ جَدًّا الْأَلْمُ لِلْفِرَاقِ وَتَضَاعَفَ

(١) العَظَةُ ٤: ١٠.

(٢) انْظُرْ: العَظَةُ ٤: ٣٠.

(٣) نَشٌّ ٥: ٢.

الشّوق للقاء، ويكتفي جدًا أن يتأخّر الابن أو الابنة عن موعد رجوعهما بضع دقائق حتّى يتأكّل الوالدّين الهم والقلق وتعبر بقلبيهما الوساوس والشكوك. فإنّ يكن الأمر هكذا على مستوى الحبّة الطبيعية المخلوقة – وما هي إلّا صورة باهتة خافتة ضعيفة للأخرى الخالقة – فماذا عساه يكون الأمر على مستوى الحب الإلهي؟!

إذن فحباً ليسوع المسيح – وبلا مراء حبه لنا نحن أيضًا – قوامه التّوق الشّديد والشّوق الجارف والختن الملتهب، وفي هذا سرُّ جُرح الحب الإلهي – أو بعضُ منه – وفي هذا أيضًا سرُّ العزاء والفرح واللذّة والرّاححة الممتنعة على الوصف! إنما يليق بنا قبل أن نغرس للشّوق الذي يتولّ النفس جراء حبّها للرّبّ، أن نستجلي ولو جزئًا صغيرًا من سيل شوّقه العارم إليها، ونستشعر ولو شعلة بسيطة من أتون تّوقيه المضطرب لها، ونشتّم ولو القليل الصّئيل من شدا حنينه العاطر إليها، وما نحن ببالغين من هذا إلّا قطرة من بحرٍ غزيرٍ زاخر. فإنّ الرّب يغلب من حبه لنا ولا يستطيع عليه صبراً ولا يملك لشوّقه ردًا ولا دفعًا، فيقوم ويمضي إلينا قارعًا على الدّوام “أبواب قلوبنا لكيّما نفتح له، وحين يدخل يستريح في نفوسنا ويصنع عندنا منزلًا”^(١). إلّا أنّ الشّوق إلينا يشتّد به وينتهي إلى أقصاه فينقلب جوًّا

(١) العظة ٣٠ : ٩

وعطشاً وعُرِيًّا! فيلبيث يقرع دون انقطاع طالباً الطَّعام والشراب واللباس، مَنْ؟ من خليقته التُّراب والرَّماد^(١)! نعم هكذا صنع الحبُّ - وما بَرِحَ - بأعظم من أَحَبَّ!

أَمَّا إذا أتينا إلى شَوْقَنا نحن له، فلنعلم أَوْلًا تمام العلم ولُنْعِ كُلَّ الْوَعْيِ أَنَّ شَوْقَنا له مهما اشتَدَّ فلن يبلغ بحالٍ من الأحوال ما يبلغه شَوْقُه هو لنا، وجوئنا وعطشنا إليه مهما بَرَّحَا بنا فلن يبلغا شيئاً مَمَّا يبلغه جوعُه هو وعطشه إلينا، وحَبَّنا وعشقنا له مهما اشتعلَا وتأجَّجا في قلوبنا فلن يُحْسِبَا إلَّا رَمَاداً خامداً إِزَاء لظى حِيَّه لنا. فلنضع هذا دائمًا ثُصْبَ أعيننا ولنغرسه في صميم كِياننا حتَّى لا نشغل في وقتٍ من الأوقات بالصُّورة دون الأصل وبالظِّلِّ دون الحقيقة.

أَمَّا عن النَّفْسِ فِإِنَّمَا تُغلبُ من الشَّوْقِ السَّمَاوِيِّ وتُتحدَّ بالله يُخْرِجُ هذا الشَّوْق^(٢). ولا يقف الأمر عند حدِّ انتِلاب النَّفْس لهذا الشَّوْقِ، بل إنَّما تصبح أُسِيرَةً هذا الاشتَهاء والاشعياق، فتَفْرَغُ بِكُلِّ كِيانها إلى المسيح، مُتَحَرِّقةً شَوْقاً إِلَيْهِ^(٣). مثل هذه النَّفْسِ "الَّتِي تُحِبُّ الله وتشتاق أن تلبِسَ المسيح بالتمام، لا حاجةً بها إلى تذكيرِ كثيرٍ من الآخرين، لا ولا تحتمل أنْ

.Ibid. (١)

(٢) انظر: العضة ٤ : ١٥

(٣) انظر: العضة ٥ : ٦

توجد محرومةً، ولو قليلاً، من شَوْقها السَّماويِّ ومن عشقها للرَّبِّ، بل تكون بكلِّ كيَانٍ مُسَمَّرةً على صليب المسيح. ولكونها محرومةً بالشَّوق السَّماويِّ، فإنَّها تقتني استنارةَ الرُّوح القدس في تُوقٍ شديدٍ بلا شَيْعٍ^(١). ومتي تقدَّمت وارتَقَت أضحت "أَكْثَر جُوعًا وعطشًا للاشتراك في النِّعمة والثُّمُودِ فيها، وكُلَّما اغتنَت روحيَا أصبحت بالأُخْرى مسْكِينَةً عند ذاكها، إذ تقتني شَوْفًا روحانيَا نحو العريس السَّماويِّ بلا شَيْعٍ، كما هو مكتوب: «الَّذِينَ يَأْكُلُونِي يَجُوعُونَ أَيْضًا إِلَيَّ، وَالَّذِينَ يَشْرُبُونِي يَعْطَشُونَ أَيْضًا»^(٢). حتى وإنْ كانت تعمل عشرةَ آلاف من أعمال البرِّ، فإنَّها عند ذاكها كائنةً ما عملت شيئاً بالمرة، وذلك من أجل شَوْقها الَّذِي لا يَشَعُ نحو الرَّبِّ، ومن أجل محبتها الَّتِي بلا قياس وبلا شَيْعٍ نحو الرَّبِّ. بل إنَّها طوال اليوم، بالإيمان والمحبة والدَّأب على الصَّلاة، يتَمَلَّكُها الجوعُ والعطشُ، بلا شَيْعٍ، لأسرار النِّعمة ولا قناعةٍ كُلِّ فضيلة؛ وتكون محرومةً بالعشق السَّماويِّ الَّذِي للروح القدس^(٣). ويُجمِل أئبنا مقار الأمر بقوله إنَّ "المسيحية أَكْلٌ هي وشَرُبٌ، وكُلَّما أَكَلَ أحدٌ منها، ازداد عقلُه اشتياقاً أكثر فأكثر، مدفوعاً

(١) العظة ١٠ : ١.

(٢) Ibid.

(٣) العظة ٤ : ١٠.

بفروط حلاوتها، فلا يحصره مدّى يبلغه ولا يروي غليله حدّ يدركه، بل يتطلب بلا شبع وياكل“^(١).

وهكذا يواكب الشوق إلى الحبيب أكله وشربُ وحلاؤه ولذة وراحة وفرح وسلام^(٢). ”فقط ليجاهدَنَ الإنسانُ كي يصير حبيباً له، ومرضياً عنده، وحينئذ سوف يختبر بالحق ويحسن بل ويرى الخيرات السماوية، وللذة التي لا توصف، وغنى الالهوت غير المحدود. ويصير روح الرَّب نفمه راحةً وتحليلاً ولذةً وحياةً أبدية للنفس المستحقة“^(٣). إذن فالروح القدس لا يوقف عمله في النفس أبداً، فبعدما يُشعل فيها الشرارة الأولى للحب الإلهي، لا يفتأ يُذكيها ويزيدها اضطراماً حتى يصل بالنفس إلى سُكُر روحانيٍ وثمَل بالحبِ أين منه السُّكُر بخمر هذا العالم^(٤). فالنفس ”إذا ما حلَ فيها الروح القدس المعزِّي وسكنَ فيها فإِنَّها تصير نقيةً كالملاح متلائمة ببياض الفضيلة، فتنسى الأرضيات وتشتاق إلى السماويات، وتوجد في كلِ وقتٍ سكرانةً

(١) العضة ١٧ : ٣.

(٢) انظر: العضة ٤ : ١١ ، ١٢.

(٣) العضة ٤ : ١٢.

(٤) نظراً لتقدير عظام أئمَّة مقار الخمسين بهذا الرُّثْم الروحي في الحديث عن الحب الإلهي، والذي يبلغ حدَ التملِّك الروحاني، فقد أطلقت إحدى التُّرجمات الإنجلiziَّة على هذه العظام العنوان التالي: ”سُكاري بالله“ Intoxicated With God.

باليهيات شغوفةً بالعلويات^(١). وهكذا ليس أقل من ثمانى مرئاتٍ في عظامه يربط أنبا مقار بين الحبِّ الإلهي وهذا التَّمَلُ الروحاني^(٢).

٥) المِسْرُ العظيم!

وهكذا تبلغ علاقة الحبِّ بين النَّفس والرَّبِّ ذُروَّها، فَيُرِيقَانْ عريساً وعروساً. أو لِتُقْلَنْ - إذا ما رُفِعَا تَوْجِيَّنِي التِّيقَّةَ - إنَّ العلاقة ترتقي سُلْمَ الحبِّ وتتصعد درجاته مُيَمِّمَةً شطر الْأَخْتَادِ المنشود، ذلك الْأَخْتَادُ الذي على صُورته وشَبَهِه قد رَسَمَ اللَّهُ علاقة الرَّجُل بالمرأة في هذا الدَّهْرِ الفاني الرَّازِيل، كَأَيْقُونَةٍ وَقَبْيَةٍ غَيْرِ دائِمَةٍ تزول بِزِوالِ هذا الدَّهْرِ العابر وتتلاشى بِانقضائه، إذ ليس من زواجٍ في الدَّهْرِ الآتي^(٣). أَمَّا عن أَعْظَمِ وأَسْمَى مَا يمكن أن تُقدِّمه لنا هذه العلاقة المقدَّسة بين العريس والعروس في هذا الدَّهْرِ، فليس هو ولادة الأُولاد - وإنَّما كان للعواقر من رسالة - إِنَّما هو أَنْ تشير لنا بالإصبع إلى ما هو أَسْمَى وأَكْمَل، إلى الأَصْلِ الَّذِي على غِرارِه قد وُضِعَتْ وَالى التِّهَايَةِ الَّتِي إِلَيْها سُوفَ تَنُولُ - إلى العرس الْأَبْدِيِّ الَّذِي قد رُسِّمَ مِنْذِ الأَزْلِ بين الرَّبِّ العريس الْحَقِّ والنَّفسِ العروس المختارة، وَالَّذِي وضعه أنبا مقار قصداً أَخِيرًا وغايةً نَهَايَةً من خلقة الله للنفس، حين

(١) بستان الرُّعبان - قول ٢٠٥.

(٢) انظر: العظات ٨: ٢، ٤٤: ١٥، ٣٦: ٤٤٠، ١٨٤٤٠، ٢٧٤٧: ٩، ١٦، ٤٠: ٥٠، ٤٦، ٤٤: ٤.

(٣) انظر: مت ٢٢: ٣٠؛ مر ١٢: ٤٢٥؛ لو ٢٠: ٣٥.

قال: ”فُصَارَى الْقَوْلُ إِنَّهُ خَلَقَ النَّفْسَ حَتَّى تَغْدُو عَرُوْسًا وَشَرِيكَةً لَهُ، كَيْ يَمْتَزِجَ هُوَ بِهَا، وَتَصِيرُ هِيَ مَعَهُ «رُؤْحًا وَاحِدًا» كَمَا يَقُولُ: «مَنِ التَّصَقَ بِالرَّئِبِ فَهُوَ رُؤْحٌ وَاحِدٌ»“^(١).

فحينما تحدث بولس الرسول عن هذه العلاقة المقدسة بين الرجل والمرأة، ونعت هذا البَيْرَ بـ ”العظيم“ عاد واستدرك سريعاً وقال: ”وَلَكِنِّي أَقُولُ مِنْ تَحْوِي الْمَسِيحَ وَالْكَنِيسَةِ“^(٢)، وبكل جدّي روحي التقط أنيا مقار هذه الآية مستبدلاً الكنيسة بالنفس، و قائلاً: ””وَلَكِنِّي أَقُولُ مِنْ تَحْوِي الْمَسِيحَ وَالنَّفْسِ الَّتِي بِلَا عَيْبٍ“^(٣). ولا عجب، فقد أبان في أكثر من موضع أنَّ النفس هي كنيسة الله^(٤). فإنْ كنَّا نُشَيِّه علاقه الرَّئِبِ بالنَّفْس بعلاقة العريس بالعروس، فلا يغيب عن بانا أنَّ الأولى هي الأصل المرسوم في قلب الله والعيid أن يدوم إلى الأبد، أمَّا الثانية فما هي إلَّا صورة مؤقتة عابرة قد رسمها لنا الله بصلاحه لتهب علينا منها نقحاتٍ من مِسْنَكِ ”البيِّرِ العظيم“.

كنَّا قد ألمَحْنا سابقاً إلى ”المسيح عريساً“، وأرجحنا الحديث عنه إلى أن تفرَّغَ من الحديث عن الروح القدس، وهذا هي النفس الآن تقابل وجهها

(١) العطة: ٤٦: ٦.

(٢) أَفَ: ٥: ٣٢.

(٣) العطة: ٥: ٣٨.

(٤) انظر: العطات ١٢: ٤١٥: ٣٧: ٨.

لوجه مع خطيبها المحبوب، فكيف يصفُ يا ثُرَى أنبا مقار لقاء النَّفْس مع عريسها وأليفها وحبيبها وبمحجة قلبها؟ مع أخيها وصديقها ورفيقها^(١)، مع رجائها ومشتهاها ومحظٍ آمالها^(٢)، مع مجئها ومؤاها وستها وبيتها^(٣)، مع قائدتها وزَيَّان سفينتها^(٤)، مع منقذها ومحلّصها وطبيتها^(٥)، مع عزائها وفرحها وراحتها^(٦)، مع غناها وعزّها وفخرها^(٧)، مع مأكلها ومشرها ولباسها^(٨)، مع خلاصها وحياتها^{(٩)؟}

فإنَّ الحبَّ المتبادل بين النَّفْس والرَّبِّ يأخذ في التَّصاعد والتَّسامي والتَّرقِي بصورة عجيبة، والتَّدَاخُل بين الحبيبين ينمو ويزيد، ”فيما يكون جسدها مُلْفَّى في الأرض، تعيش بفكّرها بكلّيَّته وتمامه في أورشليم السَّمَاءِ، صاعدةً «إلى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ» وملتصقةً بالرَّبِّ تخدمه هناك. وهو كذلك، فيما يكون جالسًا في عرش العظمة في الأعلى في المدينة السَّماوية،

(١) انظر: العطة ٢٧:١.

(٢) انظر مثلاً: العطة ١٠:٤.

(٣) انظر: العظ ٣:٢٣.

(٤) انظر: العطة ٤٤:٧.

(٥) انظر على سبيل المثال: العطات ٣:٤٤، ١٢:١١، ٤:٤٤.

(٦) انظر: العطات ٤:١١، ٢:٣٥، ١٢:٣٥.

(٧) انظر: العطة ٥:٦.

(٨) انظر: العطة ١٧:٣، ٢:٢٠.

(٩) انظر: العطات ٣:٤، ١٠:١٧.

يكون بكلّيّته عندها بل في جسدها^(١). إذن فهي تكون عنده وهو يكون عندها، ”فقد وَضَعَ صورَهَا فوْقُ“ في أورشليم، مدينة القديسين السماوية، وَوَضَعَ في جسدها صُورَتَهَا الخاصة - صورة نور لا هوته غير الموصوف^(٢)! فهذا يُشير بِيَّنٌ وعلامة لا تكذب على قرب انبلاج الفجر وبزوغ شمس العرس الساطعة. فإذا كان ”في الأمور المنظورة كُلُّ ما هو للعرس هو للعروس“^(٣)، فها ”هي قد ورثته في السماوات، وهو قد ورثها على الأرض! فقد أصبح الربُّ ميراثَ النَّفْسِ، والنَّفْسُ ميراثُ الربِّ“^(٤)! فها هو إذا الطريق مُهَيَّاً والسبيل مُعَبَّدٌ وكلُّ شيءٍ معدٌ للعرس المنتظر! فهل يجتمع الشَّتَّيان ويتلاقى النَّقيضان؟!

هَلْلُويا! قد فعلها الربُ الصالح العظيم ومنَّ على النَّفْس الشَّقِيقَةِ البائسة بمذاكِةِ الملوكَ الحقيقةِ منذ الآن^(٥)، ولم يَضِعْ عليها وهي بعد في أرض المنفى بعربون الحياة الأبدية^(٦)، فاستنشقتَ عَبِيرَ حرَيَّةَ مجد أولاد الله وهي لا تزال تَرْسُفُ في أصفاد الجسد^(٧). وغدت، وهي فقيرةٌ مُلْقَةٌ لا تَمْلِكُ شَرْوِي

(١) العنة ٤٦: ٣، ٤.

(٢) العنة ٤٦: ٤.

(٣) العنة ١٦: ١٣.

(٤) العنة ٤٦: ٤.

(٥) انظر: العنة ١٧: ٢.

(٦) انظر: العنة ٥: ٤.

(٧) انظر: العنة ١٧: ٢.

نَقِيرٍ، عروسًا لملك الملوك وسيدةً على كل خيرات الرَّبِّ! نعم، "لَكَائِنًا رجلٌ غَنِيٌّ جدًّا، مَلِكٌ مَجْدٌ، قد سُرَّ بامرأة مسكنيةٌ لا تملك شيئاً سوى جسدها فقط، وبات مفتوناً بها ورام أن يأْتِي بها عروسًا له فتسكن معه، وإذا بتلك المسكنة المُعوزةُ التي لا تملك شيئاً، تغدو سيدةً على كلِّ ما لِزُوْجها؛ هكذا أيضًا النَّفْسُ الْقَى خطبَها المَسِيحُ، العَرِيسُ السَّمَاوِيُّ، عروسًا له كي يُعِمَّ عليها بالشَّرِكَةِ السِّرِّيَّةِ الإلهيَّةِ معه، فتذوقت الغَنَى السَّمَاوِيِّ. مثل هذه النَّفْسُ تُقام سيدةً على كلِّ خيرات الرَّبِّ، بل وتقتنى لنفسها الجسد المجيد عينه الَّذِي للاهوتيَّةِ" (١).

لا لم يستكشف الرَّبُّ من حالة النَّفْس الدَّليلةِ ولم يأنف منها، بل "مع هذه النَّفْس أراد أن تكون له شرِكة، وإياها خطبَ لنفسه عروسًا للملك، وإياها يُطَهِّرُ من الدَّنَسِ ويعَيِّنُ لها ويُجْلُوها من سُوادها وقباحتها، ويُجْئيها من مَواهِمِها ويشفيها من كُسْرِها، ويَهْبُئُها سلامًا مصالحًا إياها من بعد العداوة. فرغم كونها مخلوقةً، فقد حُطِّبت عروسًا لابن الملك، والله بقدرته الخاصة يقبلها إليه ويعُيَّرُها قليلاً قليلاً، إلى أن تصير عروسًا بلا عيب قَمِيَّةً به.

(١) انظر: العظة ١٥ : ٢ ، ١.

فحديث إله عريش كاملٌ فهو يأخذها عروسًا كاملةً إلى شركة العرس المقدسة المستيكية فائقة النقاوة، وحينذاك تملك معه إلى الآباد التي لا نهاية لها^(١).

ولا يبني أنبا مقار يذكر المرأة تلو الأخرى هذا العرس الجيد المدعورة إليه النفس لكي تلتتصق بالرَّبِّ وتتحدى به وتمتزج به وتكون لها شركة سرية معه^(٢). وهو يحيث النفس كأشد ما يكون الحث أن تفتن هذه الفرصة وتتمتع بهذا العرس الجاهي، فيقول: "إله لأمر مشتهي أن تكرس النفس ذاتها بكل كيافها للرَّبِّ وتلتتصق به وحده، فتحسب أهلا لأن تصير مع الرَّبِّ روحًا واحدًا ومزيجاً واحداً، كقول الرَّسول: «وَأَمَّا مَنْ التَّصَقَ بِالرَّبِّ فَهُوَ رُوحٌ وَاحِدٌ»"^(٣). ثم إنه يشحد هتانا بكلماته النارية حين يقول إن "النفس التي تحب الله وتحب المسيح تكون مجروحة بالعشق السماوي الذي للروح القدس، ومدفععة في ذاتها كلَّ حين - بشوق ناريٍّ، بفعل النعمة - إلى العريس السماوي، وتؤاكله لأن تؤهل للشركة معه بالتمام، تلك الشركة السرية التي لا يعبر عنها"^(٤).

(١) انظر: العطة ٤٧: ١٧.

(٢) انظر على سبيل المثال لا الحصر: العطات ٦: ٤، ٧، ٤١٥: ٨، ٤١٥: ١٢٤١، ٤٢: ٢٧، ٤٢: ٣٨؛ ٩: ٣٢.

(٣) انظر: العطة ٩: ١٢.

(٤) انظر: العطة ١٠: ٤.

وأخيراً، وختام لهذه المأثرة العظيمة الجليلة الفاخرة التي أسبغها ربُّنا على النفس المسكينة البائسة، بخطبته إياها، لا يجد أنبياء مقار تعليلاً لهذا الذي أغدقه ربُّنا علينا سوى محبتِه وشفقته! فاسمعه يخاطب كلَّ واحدٍ منَّا قائلاً: ”تأملْ وَمَيِّزْ وافهمْ كيف ذلك، وانصتْ! هو إله، وهي ليست إلهًا؛ هو ربُّ، وهي عبدة؛ هو خالق، وهي خلقة؛ هو صانع، وهي مصنوعة؛ فليس من شيءٍ مشتركٍ بين طبيعته وطبيعتها. لكنْ من أجل محبتِه وشفقته التي لا تُحَدُّ والتي لا يُنطِقُ بها والتي لا تُعقلُ، سُرُّ أنْ يسكن في صنعة يديه وخليقته العاقلة وصنعيه الكريم الأثير، لكي تكون مسكنَه الخاصَّ وعروسه الخاصة الكريمة النفقة“^(١)! ”فالمجد لمن أنقذ النفس، وجعلها له عرشاً خاصاً وبيتاً وهيكلًا وعروساً نقيةً، وقادها إلى ملوكوت الحياة الأبديَّة وهي بعدُ في هذا العالم“^(٢)!

سادساً: كرامة النفس ومنزلتها

١) المفتاح السيري للتواضع الحقيقى!

حقاً المجد لمن جعل النفس له عروساً نقيةً! المجد لمن كرم النفس هكذا! فهل من كراماتٍ بعد هذه؟ لكنْ وَرْبُّنا، كيف لا نَعْي بعد كلِّ هذا كرامتنا

(١) انظر: العطة ٤٩: ٤.

(٢) انظر: العطة ٤٧: ١٤.

الّتي أجزلها الله لنا؟! كيف لا ندرك الغيّ العظيم الذي جاد به الله علينا؟! كيف لا نقدر مكرمه معنا حقاً قدرها؟! هذا ليس من التواضع في شيء، لكنه من جحود الفضل وإنكار الجميل بمكان! فلننظر كيف يوسع أنبا مقار توبیخاً شديداً عنيناً قارساً مثل هذا الإنسان الساهي عن معروف الله معه والغافل عن مائة السيد عليه، قائلاً له: ”وأنت أَفَمَا تعي وتفهم سُوءِ منزلتك؟! لذلك وبعد إيرثي سقوطك المرتّلُ اللابسُ الروح قائلاً: «إنسانٌ في كرامّةٍ ولم يفهم، فقد ماثلَ البهائمَ التي لا عقلَ لها وشَابَهَا»“^(١).

وعلى عكس ما كنّا نتوقع وبخلاف ما كنّا ننتظر، يعني لنا أنبا مقار من معرفتنا كم أجزل الرّبُّ لنا من نعمٍ، ومن إدراكنا كم أفض الصالح علينا من إحسان، يعني لنا ثمرة شهية مبتغاً لطالما التمسناها باشتياق وطلبناها بأذين: التواضع الحقيقى. فهو يقول: ”إنَّ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَعْرُفَ كَرَامَةَ نَفْسِهِ، يَسْتَطِعُ أَنْ يَعْرُفَ قَوْةَ الْلَّهُوَيَّةِ وَأَسْرَارَهَا، وَمَنْ هُنَّ يَتَّضَعُ بِالْأَكْثَرِ، لَأَنَّهُ إِذَا قَوَّهَ اللَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ سُقْطَتَهِ“^(٢). فلننظر ولنعجب من هذا! فالتوّاضع الذي طالما تذرّعنا به وتمسّكتنا بأهدابه لكي ننكر نعمة الله التي أسيغها علينا بغنى وفيض في المسيح يسوع، هذا التواضع عينه، وفي أبهى صوره وأنصعها، يجعل أنبا مقار المفتاح السيري له هو اعترافنا بفضل الله

.١٣ : العظة (١)

.١ : العظة (٢)

علينا ومعرفتنا للكرامة الّتي نلناها في المسيح يسوع، فِمْفَاتِحُ التَّوَاضُعِ
الْحَقِيقِيِّ - يقول القديس - في معرفتنا لكرامتنا الّتي صارت لنا في
المسيح. ولا عَجَبٌ، أليس هذا هو الطَّرِيقُ الّتي سلَكَهُ العَذْرَاءُ مَرِيمُ فَخُرِّ
الْقَدِيسِينَ وَآيَةُ التَّوَاضُعِ حِينَما تَعَنَّتْ قَائِلَةً إِنَّ الْقَدُوسَ صَنَعَ بَهَا عَظَامَهُ،
وَهِيَ لَمْ تَزُلْ فِي عَيْنِي نَفْسَهَا أَمْتَهُ التَّوَاضُعَةُ الّتِي نَظَرَ الرَّبُّ إِلَى مَذَنَّهَا^(۱)؟
فَلَنْفَتْحَ عَيْنُونَ قَلْوَبَنَا إِذَا وَلَنْنَظُرْ عِظَمَ مَنْزَلَتْنَا عِنْدَ اللَّهِ، لَكِي لَا تَنْطِبِقَ
عَلَيْنَا مَرِثَةُ الْمَرِثَلِ السَّابِقِ ذَكْرُهَا، وَلَكِي نَقْتِنَّ مِنْ هَذَا تَوَاضُعًا حَقِيقِيًّا لَا
غَشَّ فِيهِ.

٢) شَرِكَةُ الرَّبِّ مَعَ النَّفْسِ

فَكَوْنُ النَّفْسِ عَرْوَسًا لِلرَّبِّ، هَذَا مَدْعَةٌ لَأَنْ نَعْرِفَ مَقْدَارَ الْكَرَامَةِ الّتِي
أُعْطَيْتَ لَهَا، وَإِلَى هَذَا يَدْعُونَا أَبْنَا مَقَارٌ قَائِلًا: ”أَلَا فَاعْلَمُ، أَيُّهَا الإِنْسَانُ،
شَرْفُ جَنْسِكَ وَكَرَامَتِكَ، كَيْفَ أَنْتَ مُكَرَّمٌ وَأَخْ لِلْمَسِيحِ وَصَدِيقٌ لِلْمَلَكِ
وَعَرْوَسٌ لِلْخَاتَنِ السَّمَاوِيِّ“^(۲). ”فَاللَّهُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ، وَأَجْنَاسَ الْأَحْيَاءِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَلَكِنْ لَمْ يَجِدِ اللَّهُ رَاحَةَ فِي
أَيِّ مِنْهَا. فَكُلُّ الْخَلِيقَةِ تَحْتَ سُلْطَانِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُثْبِتْ عَرْشَهُ فِيهَا وَلَا

(۱) انظر: لو ۱: ۴۸، ۴۹.

(۲) العَظَةُ ۱: ۲۷.

ارتبط معها بشركة، إنما فقط بالإنسان وحده قد سرّ، صانعاً شركَةً معه وواجداً فيه راحته. أوترى هنا قرابة الله من نحو الإنسان، والإنسان من نحو الله؟ فالرَّبُّ لم يُسْتَأْرِي شَيْئاً إلَّا بالإنسان وحده^(١). وهكذا بخطبة الرَّبِّ للنَّفْسِ واتّمامه إياها على كُلِّ ما هو له^(٢)، يكون لها إرثٌ عظيم مَدْخُرٌ في السَّمَاوَاتِ، وهذا أيضاً قد التقى أبا مقار وجعل منه بُوقاً يعلن به عِظَمَ منزلة النَّفْسِ.

٣) الإرث الحميد المعدّ لها

”فَإِنَّ الْمَوَاعِيدَ الْمَوْضُوعَةَ لِلْمُسِيحِيِّينَ هِيَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُوصَفُ، حَتَّى إِنَّ كُلَّ مَجْدِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَبَاهِئَاهُمَا وَبَاقِي نُظُمِ الْخَلِيقَةِ، بَلْ وَكُلَّ تَنْوُعِ الْأَمْرِ الْمَنْظُورَةِ وَجَاهَاهَا وَغَنَاهَا وَلَذَّاهَا، كُلَّ هَذَا لَا يُقَارِنُ بِإِيمَانِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَغَنَاهَا!“^(٣). ولهذا يدعونا القديس إلى الفرح والابتهاج بنصيحتنا وإرشانا الذي لا يمكن لأحدٍ أن يستجلِّيه^(٤)، ثمَّ يَتَسَمَّ أبا مقار الذُّرُوةَ من جبل ميراثنا ويقول إنَّ ”مِيراثَ الْمُسِيحِيِّينَ وَنَصِيبِهِمْ هُوَ اللَّهُ نَفْسُهُ، لَأَنَّهُ

(١) العظة ٤٥: ٥. انظر أيضاً: العظة ١٥: ٢٢.

(٢) انظر: العظة ١٦: ١٣.

(٣) العظة ٤: ٤: ١٧.

(٤) انظر: العظة ٣٤: ٣.

يقول: «الرَّبُّ هُوَ نَصِيبُ مِيراثِي وَكَاسِي». فالمجد إلى الدهور لمن يعطي ذاته ويخرج طبيعته القدوسة بأنفس المسيحيين، آمين»^(١).

٤) مجىء الرَّبِّ بنفسه إليها

ثم يقدِّم لنا أئبنا مقار برهاناً جلِّياً وإثباتاً قاطعاً لا يرقى إليه الشُّكُّ على مكانة الإنسان الأثيرة لدى الله، وذلك حين انبرى الله بنفسه وجاء خلاص النفس. ويُهْبِط أئبنا مقار بالإنسان، بكلِّ إنسان، أنْ «تَبَصَّرَ في مرتبتك، كَوْنَ اللَّهِ قَدْ تَحْرَكَ مَعَ جَيْشِهِ الْخَاصِّ، أَغْنِيَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَرْوَاحَ الْقَدِيسَةَ، وَجَاءَ بِنَفْسِهِ لِلْدِفاعِ عَنْكَ، لِكِيمَا يَفْدِيكَ مِنَ الْمَوْتِ»^(٢). «فَلَا تَنْظُرْ أَيُّهَا الْحَبِيبُ، بِبِسَاطَةٍ إِلَى الْجُوهرِ الْعُقْلَى لِلنَّفْسِ، فَالنَّفْسُ الْخَالِدةُ إِنَّمَا هِيَ إِنَاءٌ كَرِيمٌ. فَاعْتِرِّ كُمْ هِيَ عَظَمَةُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ لَمْ يُسْرِّ بَعْدَمِهِ، بَلْ بَكَ وَحْدَكَ قَدْ سُرَّ! فَافْطُنْ إِلَى كَرَامَتِكَ وَشَرْفِكَ، لِأَنَّ الرَّبَّ - لَيْسَ بِمَلَائِكَةٍ بَلْ بِنَفْسِهِ - قَدْ جَاءَ لِلْمَحَاكَمَةِ عَنْكَ، حَتَّى يَدْعُوكَ أَنْتَ الصَّالِّ الْمُشْخَنُ بِالْجَرَاحِ، وَيَرِدُ إِلَيْكَ جُبْلَةُ آدَمَ الطَّاهِرِ الْأُولَى»^(٣).

ثم يتقدِّم أئبنا مقار خطوةً أخرى ليُصِّفَ ما تجسَّمهِ كُلُّ من الآب والابن من أهواٍ لا تُسْبِرُ، بِيَتَةٍ عَلَى مَا تَبْلُغُهُ النَّفْسُ عَنْدَهَا مِنْ قِيمَةٍ، فَيُنْهِضُ

(١) العظة ٣٤: ٣.

(٢) العظة ١٥: ٣٠.

(٣) العظة ٢٦: ١.

الإنسان الغافل أَنِ انتِهِ وانفُضْ عنك غبار الغفلة ”وانظر متنبك كم أَنَّك ثمين! فإنَّ الله جعلك فوق الملائكة، وذلك حين جاء هو نفسه بذاته على الأرض من أجل أن يشفع فيك ويفديك. فلقد جاء الله مع ملائكته لخلاصك، فإنَّ الملك، ابن الملك، قد تشاور مع أبيه، فأُرسِل الكلمة، وإذاً ليس جسداً وأخفى لاهوته - لكي يُخلص المثيل بالمشيل - وَضَعَ نفسه على الصليب. فما أعظمَ محبَّة الله للإنسان، حتى إنَّ غير المائت اختار أنْ يُصلب من أجلك! فانظر كيف أنَّ «الله أَحَبَّ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِأَجْلِهِ»، «فَكَيْفَ لَا يَهْبِطُ مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ»“^(١).

٥) خلقتها على صورة الله

غَيْرَ أَنَّ أَنْبا مقار يَعْزُو كرامةَ النَّفْسِ لأَمْرٍ آخرَ قديمٍ قَدَمَ وجودها، وهو خلقتها على صُورَةِ الله وشَبَهِهِ. فيقول إِنَّ ”قيمة النَّفْسِ تفوق كُلَّ المخلوقات، لأنَّ الإنسان وحده هو الَّذِي خَلَقَ عَلَى صُورَةِ الله وشَبَهِهِ. فها هي ذي السَّماءِ كم أَنَّها فائقة العظمة، والأرض كذلك، والخلائق الَّتي فيهما ثمينة، وعظيمة هي الكائنات الَّتي فيهما؛ أمَّا الإنسان فيفضلُ قيمة على جميع الكائنات، لأنَّ به وحده قد سُرَّ الرَّبُّ“^(٢). ولا يكتفي أَنْبا مقار

(١) العطة ١٥ : ٤٣ ، ٤٤.

(٢) العطة ١٥ : ٤٣.

بأن يرفع قيمة النَّفْس فوق المخلوقات المنظورة فحسب بل فوق الملائكة أنفسهم، قائلاً إنَّ "الإِنْسَان أَرْفَعُ كَرَمَةً مِنَ الْمُخْلوقَات طَرِّيْرَى، ليس فقط المخلوقات المنظورة لكنَّ غَيْرَ المنظورة، أَعْنِي الأَرْوَاحُ الْخَادِمَة، لَأَنَّهُ لَمْ يَقْلُ عَنْ مِيَخَائِيل وَغَبْرِيَّال رَئِيسِيِّ الْمَلَائِكَة: «لَنَصْنَعَ عَلَى صُورَتِنَا وَشَبَهِنَا»، بل عن الجُوَهِرِ الْعَقْلِيِّ لِلإِنْسَان، أَيِّ النَّفْسُ الَّتِي لَا تَمُوت" (١).

فِإِنْ كَانَ أَمْرُ النَّفْسِ إِيَّانِ خَلَقْتَهَا هُوَ هَكَذَا عَظِيمًا سَامِيًّا، فَمَا الَّذِي حَدَثَ فَوْزَنَّهَا الْهُمُومُ وَجَرَّ عَلَيْهَا التَّوْبَالُ وَالْأَحْزَان؟

سابعاً: السقوط

"إِنْ كُنْتَ تَرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ الْأَمْرَ الَّذِي بِسَبِيلِهِ - رَغْمَ كُونَنَا حُلِيقَنَا فِي كَرَمَةِ وَأَقْمَنَا فِي الْفَرْدَوْسِ - قَدْ شَابَهُنَا أَخِيرًا الْبَهَائِمُ الَّتِي لَا فَهْمَ لَهَا وَحَاجَيْنَاها، إِذْ سَقَطْنَا مِنَ الْجَدِ فَائِقَ النَّقَاوَة؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ بِسَبِيلِ الْمُعْصِيَةِ قَدْ أَمْسَيْنَا عَبِيدًا لِأَهْوَاءِ الْجَسَدِ، وَأَوْصَدْنَا دُونَ ذَوَاتِنَا «كُوْرَةُ الْأَحْيَاءِ» الطُّوبَاوِيَّة" (٢). هَكَذَا يُجَيِّبُنَا أَنْبا مقار عن سُؤالِنا. فِإِنَّهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتِي سَقَطَ فِيهَا رَأْسُ جَنْسِنَا الْأَوَّلِ - وَمَا أَهْوَلَهَا لَحْظَةً - هَوَتِ النَّفْسُ الْكَرِيمَةُ إِلَى أَدْنَى درَكَاتِ الْهُوَانِ. "فَانسَدَلَ عَلَى الإِنْسَانِ بِرْقُ الظُّلْمَةِ وَمَا عَادَ يَرَى أَبَاهُ الْحَقِيقِيَّ

(١) العظة ١٦: ٢٢. انظر أيضًا: العظة ١٣: ١٣.

(٢) العظة ٢٥: ٣.

السمائي، ولا أمه الصالحة الرؤوم، أي نعمة الروح القدس، ولا أخاه الحلو المُشتَهِي، أي الرب، ولا أصدقاء المخلصين له، أي الملائكة القدِيسين^(١). فإن "العقل لمَا كان نقياً كان ينظر سيده إذ كان حقيقاً بذلك، أمّا الآن فقد تسرّب بالخزي بسبب السقوط وانطمَسَتْ أعينُ قلبه، حتّى بات لا يرى ذلك المجد الذي كان يراه أبواناً آدم قبل المعصية"^(٢). وهكذا شوّه الإنسان بمعصيته صورة الله وأضاعها^(٣).

١) الدُّرُكُ الَّذِي اخْدَرَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ

قد باع الإنسان البائس نفسه ورهنها للشّيطان^(٤)، فما كَذَبَ الشّيطانُ خيراً بل اهتبَل هذه الفرصة الثمينة، وسيَّرَ الإنسانَ وكساً نفسه بالخطيئة^(٥)، "فطُوقَتِ النَّفْسُ وَأَحْيَطَتْ وَسَيَّجَ حَوْلَهَا وَكُتِّلَتْ بِسَلاسلِ الظُّلْمَةِ مِنْ قَبْلِ أَرْوَاحِ الشَّرِّ"^(٦). ولم تكتفِ الحيّة بسيِّي النفس وتكميلها وتطويقها، بل "انسلَتْ إِلَى الدَّاخِلِ وَصَارَتْ سَيِّدَةَ الْبَيْتِ"^(٧)، وهكذا

(١) العضة ٢٨: ٤.

(٢) العضة ٤٥: ١.

(٣) انظر: العظات ١١: ١٢٤٥: ١.

(٤) انظر: العضة ١: ٧.

(٥) انظر: العضة ٢: ١.

(٦) العضة ٢١: ٢.

(٧) العضة ١٥: ٣٥.

”امتلأت مدارك النفس بالوحش الرّابضة في الطرق وقَبَعَت فيها زحافات الأرواح الشّريرة“^(١). وتفاقم الحطّب واستفحَل الداء حتى شابَهَت النّفسُ العدوُّ وماثلَته، ”فَجَرَعَتْ سُمَّ الأفعى وشَابَهَتْ طبِيعَتَها المَرَّة“^(٢) ”وأمَسَتْ جَمْوَحاً غَيْرَ مَرْوَضَة، تَهَمَّ في بِيَادِهِ الْعَالَمَ مَعَ الْوَحْشِينَ، أي أرواح الشّرّ، خادِمَةً لِلخطيئة“^(٣).

٢) موت النّفس الرّهيب

وهكذا سَدَّدَ العدوُّ سَهْمَهُ المسموم نحو الإنسان فأصاب منه مقتلاً، ”ومات الإنسان، بالمعصية، موت النّفس الرّهيب، وقَبِيلَ لعنةً فوق لعنة، وطلَعَ شوكٌ وحسَكٌ في أرض قلبه، ونَزَعَ عنه الأعداء مجده بعوایتهم وألسونه الخزي، وقتلوا نفسه وشتّتوا أفكاره وأحدروا عقله من العلاء“^(٤)، ”وهوت النّفسُ في وحشةٍ فاسية، وتُرِكتْ أرملةً ووحيدةً، وأصبحتْ أضحوكةً لكُلِّ القوّاتِ المضادة“^(٥)، ”منزعجةً بلا توقُّف بأفكار الرُّعب والخوف وكلِّ اضطراب“^(٦).

(١) العظة .١ : ٢٨

(٢) العظة .١٥ : ٤٧

(٣) العظة .٢ : ٢٣

(٤) العظة .٦ : ٤٧

(٥) العظة .٥ : ٤٥

(٦) العظة .٢ : ٥

٣) الإنسان العتيق الفاسد

وأطلَّ الإنسانُ العتيق^(١) برأسه البشع وظهر بوجهه الدَّمِيم القبيح وأناخ على النَّفْس بـكُلِّهِ. فتقبَّلت في ذاكها خمرة شرِّ الأهواء ونَكَت الأهواء واستشرَّت^(٢)، ”وَجَهَّمَتْ عَلَى النَّفْس جَبَالٌ ثَقَالٌ“ وامتزجت بها أفكار الشَّرِّ“^(٣)، ”وَاحْكَمَتْ الْخَطِيئَةُ قَبْضَتَهَا عَلَيْهَا، وَنَفَّذَتْ إِلَى الدَّاخِلِ“ وأمسَكَت بـعِرَاعِي النَّفْس حَتَّى أعمقَ مَخَادِعِها، وصارت عادةً وَمِيلًا تنمو مع كلِّ واحدٍ من الطُّفُولِيَّةِ وترَبُّو معه وتعلِّمُه الشُّرُور“^(٤).

لَدَغَتْ الْحَيَّةُ الْإِنْسَانَ الْبَائِسَ وَحَاقَ فِيهِ سُمُّهَا، فخالفَ الْوَصِيَّةَ وَانْخَطَّ إِلَى هَذِهِ الْوَهْدَةِ السُّفْلَى. خَرَجَ مِنْ أَمَامِ وَجْهِ اللَّهِ مُجْلَلاً بِالْعَارِ مَهِيسَ الْجَنَاحِ، وَقَدْ ”أَضَاعَ الْمُقْنَى التَّقِيَّ الَّذِي لَطَبِيعَتِهِ، الَّذِي كَانَ عَلَى صُورَةِ اللَّهِ وَشَبَهِهِ؛ أَضَاعَ الصُّورَةَ عِيَّنَاهَا الْمَذَّرُ لَهُ فِيهَا - حَسْبُ الْوَعْدِ - كُلُّ الْمِيرَاثِ السَّمَاءُوِيِّ“^(٥). شَوَّهَهُ بِرَصْنِ الْخَطِيئَةِ وَمَسَخَهُ جَرْبُ الْإِثْمِ وَأَنْخَنَتْهُ جَرَاحَ لَا تَنْدَمِلُ^(٦)، ”فِي كَاهِ الْخَالِقِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُلِّ الْقُوَّاتِ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،

(١) انظر: العطة ٢: ٢.

(٢) انظر: العطاءات ٤: ٤٨، ٤: ٢٤.

(٣) العطة ١٥: ٢٥.

(٤) العطة ٤١: ١.

(٥) انظر: تك ١: ٢٦.

(٦) انظر: العطة ٣٠: ٤٦، ٣٠: ٤٤، ٤٨: ٢٠.

وناحت كلُّ الخلائق على موته وسقطته^(١). وكأيٍ بالله لِمَّا رأه هكذا ”ضالًا ومكلومًا وميتًا“^(٢)، يخاطبه قائلًا: ”من أية خيرات سقطت وأية شرور اخترت؟ من أيٍ مجده تعزّت وبأيٍ خزيٍ تسربلت؟ ما بالك مُظلماً هكذا؟ ما بالك دميمًا؟ ما بالك مُنْتَنِيَا؟ من أيٍ نورٍ هربت وأية ظلمةٍ عَشِيشَتْكَ“^(٣)؟ وهكذا انطفأ سراج النفس وغابت شمسها وانتفى ريعها، فباتت حياؤها ليلاً متصلًا وظلمةً دائمةً وزوابع وأنواعً وعواصف لا تُكُفَّ.

ثامناً: الخلاص

تصرَّفتُ أجيالٌ إثرَ أجيالٍ وتقضَّت سنون تتبعها سنون، والنفس قابعة في أسرها، راسفةٌ في أغلالها، غائصةٌ في أوحالمها، وقد قاحت جروحها وأنشَّت وناءٍ بها أثقلها ورَزَحت تحت وطأةِ أمراضها، وباتت مرعى خصبًا للأرواح الشَّرِّيرة تَرْتَعُ فيها كييفما أرادت وتعيَّث فيها فسادًا وتعبث بها ما شاء لها العبث. وما استطاع أحدٌ، ”لَا من الأبرار ولا من الأنبياء ولا من

(١) العضة .٧ : ٣٠

(٢) العضة .١ : ٢٦

Ibid. (٣)

رؤساء الآباء أن يَشْفِيَهَا^(١)، كما يقول إشعيا: «لَيْسَ جُرْحٌ وَلَا كَدْمَةٌ وَلَا ضَرْبَةٌ مُلْتَهِيَّةٌ لَهَا مَرْهُمٌ لِيُوضَعَ وَلَا زَيْنٌ وَلَا ضِمَادَاتٌ»^(٢).

١) انبلاج الفجر

وأخيراً «خَنَّتْ أَحْشَاءُ الرَّبِّ إِلَيْهَا»^(٣)، لا بل «انْقَلَبَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ وَاضْطَرَمَتْ مَرَاجِعُهُ جَمِيعًا»^(٤)، وأبى عليه حُبُّه أن يترك النّفس في موتها. وكما تفتتح الأكمام عن الزّهر عند حلول الربيع فتنشر رائحته في الرياض ويُعمَّ أريجُه البساتين؛ هكذا في ملء الرّمان حلّ ربيع النّفس وتفتحت أكمام الحب الإلهي عن التّجسّد، ففاح طيبُ يسوع في كلِّ مكان وعيقَ شذاه كلِّ الأرض. قد جادَت زهرةُ الحب الإلهي على اموأة قدِيسةٍ بِرْ حِيقَ الرُّوح القدس فاستحال في بطنهما عسلاً وشهداً يُرى ويُلْمَسُ ويُؤْكَلُ، فاشتارتُه البشرية ونعمت بلذِيذ طعمه وتحوَّلت من موارتها إلى حلاوة الروح القدس^(٥). قد ناعَت غَيْمَةُ الحب الإلهي بحملها فأنزلَتْه مطراً مدراراً يروي الأرض العطشى وبيَشَّر بانتهاء الجدب والقطط وقدوم الخصب والنماء والخير العميم. قد أخرج الله يمينه أخيراً

(١) العظة ٢٠ : ٥. انظر أيضًا: العظة ٣٠ : ٨.

(٢) العظة ٣٠ : ٨.

(٣) إبر ٢٠ : ٣١.

(٤) انظر: هو ١١ : ٨.

(٥) انظر: العظة ٤٧ : ١٥.

من حضنه وأرسلها من العلاء فانتشرت النّفس من وهدتها ومحقت
أعداءها مُحَقًا. قد اخسر ليل البشرية المدْهُم الطُّويل عن فجرِ وضاءٍ
منير وبزغت شمسُ الْبَرِّ والشِّفاء في جناحيها.

٢) المسيح يشفى ويُحرِّر ويعطي روحه القدس

جاء المسيح "إلى الإنسان الذي يرث به الألم، فداوه وجعله شريكاً له
في مائته الملكية"^(١). جاء الملك إلى الفقير المبتلي بالبرص في جميع
أعضائه، فلم يأنف منه، بل غسل جراحاته وطَبَّبَها وداوى قرونه وأدخله
إلى الخدر السماوي^(٢). جاء الطَّيِّب ومنح الشِّفاء للخراف الضالِّ
الأجرب، الذي هو الإنسان، ورده من جحَّب الخطيئة وبَرَصها^(٣).

جاء الرَّبُّ وطرد الرياسات والسلطانين خارجاً واستردَّ بيته وهيكله،
الذي هو الإنسان^(٤). أخذ الرَّبُّ جسده من مريم وأصعده على الصَّليب
وعلَّقه وصلبه على الخشبة - هذا الجسد المائت قد غلبَ الحياة التي تعيش
وتترحَّف في القلب وقتلها. في الجسد المائت قد وُجدَت الحياة! هنا الفداء!
هنا التُّور! هنا الرَّبُّ يتقدَّم نحو الموت ويُجاججه ويأمره بأنْ يُخرج النُّفوس من

(١) العظة ١٥ : ٣٠.

(٢) انظر: العظة ١٥ : ٤٧.

(٣) انظر: العظة ٤٤ : ٣.

(٤) انظر: العظة ١ : ٧.

الجحيم ومن الموت ويردها إليه^(١). قد جاء الرَّبُّ، الفلاح الحقيقيُّ، إلى البشرية التي أجدبَت جراء الشَّرِّ، لابسًا الجسد وحاملاً الصَّليب أداةً، وقلعَ النفس المحبِّبة، ونزع منها شوك الأرواح الشَّرِّيرة وحسْكها^(٢). جاء لكي يعتق المستعبدين للشَّرِّ الواقعين بين برائته والرَّازحين تحت وطأته^(٣).

”جاء الرَّبُّ و وهب السَّبت الحقيقى للنفس و عتقَها من الأعباء الباهضة الباطلة، أعباء الأفكار النَّجسَة، ورفع عنها النَّير المُرَّ، نير أعمالها الأثيمَة، وأراحها بعد أن أُعْيَت في أفكار النَّجاسة“^(٤). ”سُرَّ الرَّبُّ أن يتَّلَمْ من أجل الجميع ويشتريهم بدمه الخاص وبيتَ خَيْرٍ صلاح سماویَّة في التُّفُوس“^(٥).

على أنَّ تاج عطايا الرَّبِّ المتجلَّب للنفس حبيبته هو روحه القدس. ”فيَّبعد أن فَلَحَها بخشبة الصَّليب، غرس فيها فردَّوسَ الرُّوح القدس ذا الجمال الكامل، الحامل لله سِيدِها كُلَّ ثُمَرٍ مُحلُوة ومشتهاة“^(٦). قد جاء

(١) انظر: العظة ١١:٩، ١٠.

(٢) انظر: العظة ٢٨:٣.

(٣) انظر: العظة ٢٦:٢٢.

(٤) العظة ٣٥:٢.

(٥) العظة ٢٤:٣.

(٦) العظة ٢٨:٣. وقد أوردنا مسبقاً بعض أقوال القديس بحذا الشَّأن في معرض حديثنا عن الروح القدس وكيفية الحصول عليه.

الرَّبُّ وأقام الإنسان وأحياه وطَهَّرَه من كُلِّ سوادٍ وأناره بنوره الخاصّ وألبسه ثيابه هو - ثياب الْلَّا هُوت السَّمَاوِيَّةِ^(١).

٣) ميزان خلاص النَّفْس

الآن وبعد كُلِّ هذا الصَّنْع العظيم الذي لا يمكن لنا أبداً أن نَسْبِرَ غُرْبَه، إذ قد أقام الرَّبُّ النَّفْسَ من موتها وأنقذها من أعدائها وفكّها من قيودها وعفّها من عبوديتها وشفاها من جروحها وأمراضها. وليس هذا فقط، بل بعد أن أغدق عليها من عطاياه بغيٌّ فوهبها ذاته وسكب عليها روحه القُدُّوس، روح التَّبَّيْنِ لله الآب، وغدا لها «بِرًا وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً»^(٢)، وجاد عليها بعربيون الحياة الأبدية وهي بعد على الأرض. أقول إنَّه بعد كُلِّ هذا يُرِينَا أَنْبِياء مقاراً أمراً عجيباً جداً جداً! أمراً يكاد لا يُصَدِّقُ! يُرِينَا ميزان خلاص النَّفْس وقد وُضع في إحدى كِفَّيْه كُلُّ مأساة النَّفْس الَّتِي ذكرناها من موتٍ وعبودية وشقاء وبؤس وحزن .. إلخ، ووُضع في الكِفَّة الأخرى كُلُّ خلاص الرَّبِّ العظيم المجيد السَّالِفُ الْذِكْرُ، ولَشَدَّ ما أدهشَنَا أَنَّ كِفَّةَ الخلاص لا تَرْجِحُ بعد!! نعم إنَّها لا تَرْجِحُ! ينقصها ريشة أَخفَّ من أن توزَّن حتَّى تَرْجَحَ الكِفَّة. فما إنْ يوضع القديس هذه الريشة في كِفَّةِ الخلاص

(١) انظر: العظة ٣٤ : ٢.

(٢) آكوه ١ : ٣٠.

حتى ترجح رجحانًا شديداً وكأن شيئاً لا يوجد في الكفة الأخرى، وما إن يرفع القديس هذه الريشة العجيبة حتى تعود الكفة فتعلو! فليت شعري ماذا تكون هذه الريشة التي لا توزن حتى يؤثر وجودها أو عدمه في كفة خلاص الرَّبِّ؟! إنَّا .. “إرادة” النفس.

تاسعاً: حرية الإرادة

١) وجوب اختيار النفس لدرتها

عَجَباً لهذه الريشة التي ينتظرها جبل شامخ شاهق حتى يميل!! عَجَباً لقطرة الماء الواحدة هذه التي يأبى بحر زاخر جياش أن يفيض إلا بها!! فما أشبهها بعصا موسى التي كان ينتظرها الرَّبُّ حتى يشق طریقاً في بحر وحى يُبع ماء من صخرة!! فلنستمع للأئمَّة مقار وهو يبيّن لنا إلى أين تبلغ خطورة إرادة الإنسان: ”إرادة الإنسان أشبَّه بخدمةٍ لا غنى عنها، فإذا لم تتوفر الإرادة، ولا الله نفسه يصنع شيئاً - مع أنه قادر - بسبب حرية الإرادة. لذلك فتتميم عمل الله مرهون بإرادة الإنسان“^(١). أونَرَى إلى أية درجة يبلغ شأن إرادة الإنسان؟ فإن لها من الأهمية ما يُعيق عمل الله ويُحجزه، حتى يصل الأمر بالأئمَّة مقار إلى أن يتساءل: ”ماذا عساه يعمل الله لإنسان قد سلم نفسه بمحض إرادته للعالم وانخدع بمسراته وضلَّ في

(١) العطة ٣٧ : ١٠ .

متاهاته الماوية“^(١)؟ إذن ”فكُلُّ طبيعة آدم هي متبنِّلة نحو الخير ونحو الشر، فلها إمكانية قبول الشر، لكنَّ لها – إنْ شاءَ – أن لا تقرفه“^(٢). وهذه الحرية في الاختيار لا تفارق الإنسان أبداً مهما تردد في مهابي الشرور أو مهما بلغ ذُرى الكمال، ”فذاك الذي هو في عمق الشر وعبد للخطيئة له أن يتحول إلى الصلاح، وكذا المربوط بالروح القدس والذي قد ملأ بالسموانيات له القدرة أن يتحول إلى الشر“^(٣). ”فالقوَّة المعادية تُغري دون أن تلزم“^(٤)، والنعمة مهما كثُرت وفاضت ما كانت ليتحول بين الإنسان وبين فعله لما يريد^(٥). وما هذا إلَّا لأنَّ الإنسان قد جُبل على صورة الله وشَبهَه، فكما أنَّ الله إرادة حرَّة وما يريده يفعله، كذلك الإنسان أيضًا^(٦).

٢) دليلان على حرية إرادة النفس

ولكي يقطع علينا أئبنا مقار خط الرجعة فلا نعود نتعلَّل بأية علَّة أخرى بخلاف إرادتنا ومشيئتنا، يُقدِّم لنا برهانين قاطعين يحصران المسؤولية في

(١) العنة ٤:٥.

(٢) العنة ٢٦:٥.

(٣) العنة ١٥:٣٦.

(٤) العنة ٢٧:١٠.

(٥) انظر: العنة ٢٧:١٠.

(٦) انظر: العنة ١٥:٢٣.

أيدينا نحن فقط، ويُلْقِيَان علينا دون سوانا تَبَعَةً أَعْمَالنا، وَهُما: الْوَصِيَّةُ،
وَالْمَحَاذَاةُ. فَلَوْ لَمْ تَكُنْ لَنَا إِرَادَةٌ حَرَّةٌ مَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَعْطَانَا نَامُوسًا وَوَصَايَا،
”فَالنَّامُوسُ قَدْ أُعْطِيَ لِمَنْ يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَصَدَّى أَيًّا مِنَ الْقَسْمَيْنِ، فَلَا نَامُوسٌ
يُوضَعُ لِطَبِيعَةِ مُسَيَّرٍ“^(١)، إِذْنٌ فَمُجَرَّدٌ إِعْطَاءٌ وَصِيَّةٌ لِلإِنْسَانِ – وَهَذَا أَمْرٌ
قَدِيمٌ قَدْمَ خَلْقَتِهِ – يُؤَكِّدُ حَرَّيْتَهُ. وَالْأَمْرُ الثَّانِي هُوَ الْمَحَاذَاةُ الْعَتِيدَةُ لِلأَخِيَّارِ
وَالْأَشْرَارِ، فِيَانْ كَانَ الإِنْسَانُ مُسَيَّرًا ”فَلَا كِرَامَةٌ تَنْتَظِرُهُ وَلَا قِصَاصٌ.
فَالْكِرَامَةُ وَالْمَجْدُ إِنَّمَا هُما مُعَدَّانِ لِمَنْ يَجْعَلُ وِجْهَهُ صَوْبَ الصَّالِحِ، وَأَيْضًا
جَهَنَّمُ وَالْقِصَاصُ مُعَدَّانِ لِلْطَّبِيعَةِ الْمُتَغَيِّرَةِ الَّتِي لَهَا الْقُدْرَةُ أَنْ تَفَرَّ مِنَ الشَّرِّ
وَثُبَيْمَ الْجَانِبِ الْيَمِينِ الصَّالِحِ“^(٢). مِنْ هَنَا يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ اخْتِيَارَ الإِنْسَانِ
لِدُرِيَّهِ، إِنَّ خَيْرًا وَإِنْ شَرًّا، هُوَ أَمْرٌ مَنْوَطٌ بِهِ، وَبِهِ وَحْدَهُ. فَمَصِيرُ الإِنْسَانِ
الْأَبْدِيِّ لَا يَحْدِدُهُ إِلَّا الإِنْسَانُ نَفْسُهُ. فِيَانْ اللَّهُ «يُرِيدُ أَنْ جَمِيعَ النَّاسِ
يَخْلُصُونَ وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ»^(٣)، وَقَدْ قَدْمَ هُوَ الْخَلاصُ «لِلْجَمِيعِ»^(٤).
”فِيَانْ يَشَا أَحَدٌ، يَغْدُ ابْنًا لِلَّهِ أَوْ ابْنًا لِلْهَلَاكِ مِنْ قَبْلِ إِرَادَتِهِ الْحَرَةُ الَّتِي أَبْدَا
تَلَازِمَهُ“^(٥).

(١) العَطَةُ ٢٧ : ٢١.

(٢) العَطَةُ ٢٧ : ٢١.

(٣) ٢ : ٤.

(٤) اَنْظُرْ : أَعْ ١٧ : ٣١.

(٥) العَطَةُ ٢٧ : ١١.

عاشرًا: الرُّجُوع

لكتَّنا «لَسْتَنَا مِنَ الْأَرْتَادِ لِلْهَلَاكِ بَلْ مِنَ الْإِيمَانِ لِاقْتِنَاءِ النَّفْسِ»^(١). وهذا هو الأنبا مقار يضع أمامنا، نحن المبتدئين، ثلاثة تحفَّزات تحثُّنا بل تدفعنا دفعًا للانطلاق والانتقال والتَّغَيُّر «من سيرتنا الشَّيَّرِيَّة الحاضرة إلى سيرة أخرى صالحة، ومن طبيعتنا الدَّلِيلية الحاضرة إلى طبيعة أخرى إلهيَّة»^(٢). أوَّلها: حنين الرَّبِّ لرجوع النفس، وثانيها: قدرته الفائقة على تغييرها مهما كانت حالتها، وثالثها: بساطة ما يطلبها منها بصُورَة عجيبة جدًّا.

١) حنين الرَّبِّ لرجوع النفس

أمَّا عن موقف الله من النفس الخاطئة بل الغائصة في حمأة الخطيئة ووحلاها، ففي سطور قليلة وبكلماتٍ جَدِّد موجزة يَرْسُمُه لنا الأنبا مقار موقفًا طافحًا بالحب فائضًا بالصلاح زاخرًا بالشفقة، فيقول إنَّ الرَّبَّ «يتحمل ويتحمل» و «يطيل أناقه» عليها، و «ينتظر بل يتربَّق» رجوعها، وأبدأ «لا يستحي» منها، بل هو «يتحنَّن» عليها و «يخلصها»^(٣). في هذه «الأفعال» السَّبعة يختزل الأنبا مقار موقف الله منَّا نحن الخطأة، فهو يتحمل

(١) عب ١٠: ٣٩.

(٢) العطة ٤٤: ٥.

(٣) انظر: العطة ٤: ١٧. انظر أيضًا: العطة ٤: ٢٤.

ويطيل أنانه وينتظر ولا يستحي ويتحنّن ويخلّص. فها هو ذا الله تؤّاق إلى رُجوعنا، مُتَلَهِّفٌ إلى عودتنا، فهل من عذرٍ يبقى لنا؟!

٢) قدرة الرَّبِّ الفائقة على تغيير النفس

وبعد ذلك يُبرِّز القديس قدرة الرَّبِّ الفائقة على تغييرنا أيًّا كانت حالتنا، فيدعونا أن نتذَكَّر ”كيف أنَّ الأعمى شُفِيَّ، ونافذة الدُّمَّ نالت البرءَ، وطبيعة الأسود رُوِّضَتْ، وطبيعة النار تلاشتْ، وعَيْنُ الماء المُرَّة حَلَّيتْ“^(١). ويذكر تغيير بولس الرَّسُول وبتحديده كمثَلٍ صارخ ينطق بقدرة الرَّبِّ على أن يُغَيِّر ”النُّفوسَ الَّتِي جُدِلَتْ بالشَّرِّ ونَكَصَتْ إلى الوحشية، وينقلها في لحظةٍ من الزَّمان إلى صلاحه وسلامه“^(٢). وبعد كلِّ هذا، هل من عذرٍ يبقى لنا؟!

٣) ما يطلبه الرَّبُّ من النفس

بعد أن عَرَفْنَا الرَّحْمَةَ الغنِيَّةَ الَّتِي تَتَلَقَّفُنَا والقدرة المائِلَةُ الَّتِي تنتظِرُنَا، حان لنا أن نعرف ما هو المطلوب مناً. ما هي ”ريشتنا“ الَّتِي بها مُيل الجبل الشَّامِخ، وما هي ”قطرتنا“ الَّتِي بها تُفِيضُ البحَرُ العظيم، وما هي ”عصانا“ الَّتِي بها نشقُّ في البحر طرِيقًا؟ ألا فلنسمع ما يخبرنا به أنبأ مقار

(١) العطة ٣١ : ١.

(٢) العطة ٤٤ : ٨.

عن هذا: "إذا ما تنهَّدت النَّفْس وصرخت إلى الله، يُرسِلُ إلَيْها "موسى" الرُّوحانِيُّ الَّذِي يفتديها من العبوديَّة، وحينئذٍ تناول تباشير الفداء" (١). إذًا هو تَنَهَّدَ نَفْسٌ وصراخُ قلبٍ، هذا هو كُلُّ ما يطلبه الله مِنَّا؟ لا بل أقلَّ! فلنُورُّ هذا المثلَ العجيب دون تعليق: "إِنَّ الطَّفْلَ وَإِنْ كَانَ لَا يَقْوِيُ عَلَى فَعْلِ شَيْءٍ أَوْ يَقْدِرُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى أَمْهَهُ عَلَى قَدْمَيْهِ، فَرَغْمُ هَذَا فَإِنَّهُ يَتَمَرَّغُ وَيَصْرُخُ وَيَبْكِي طَالِبًا أَمَّهَ، وَفِي هَذَا تَحْتَنَّ الْأُمُّ وَتَفْرَحُ لِأَنَّ صَغِيرَهَا يَطْلُبُهَا فِي وَجْهٍ وَصَرَاخٍ. وَمَعَ أَنَّ الطَّفْلَ لَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَأْتِي إِلَيْهَا، فَإِنَّ الْأُمَّ لِأَجْلِ الْحَاجَةِ فِي الْطَّلَبِ تَذَهَّبُ بِنَفْسِهَا إِلَيْهِ - مَأْسُورَةً بِحُجَّهَا لِطَفْلَهَا - وَتَرْفَعُهُ وَتَحْتَضِنُهُ وَتُطْعِمُهُ فِي عَطْفٍ شَدِيدٍ؛ هَذَا أَيْضًا يَصْنَعُهُ اللَّهُ مُحِبُّ الْبَشَرِ لِلنَّفْسِ" (٢). لَا بل إِنَّهُ يَصْنَعُ مَعَهَا أَعْجَبَ مِنْ هَذَا! إِنَّهُ حَتَّى لَا يَتَظَرُّ مِنْ طَفْلَتِهِ الْمُحِبَّةِ أَنْ تَصْرُخَ أَوْ تَتَمَرَّغَ، يَكْفِيهَا فَقْطَ أَنْ تَرْثُوَ إِلَيْهِ! (٣). أَلَا مَا أَعْجَبُ حَبَّ الرَّبِّ لِلنَّفْسِ! أَيْنَ مِنْهُ حَبُّ الْأُمَّ لِرَضِيعَهَا ابْنَ بَطْنَهَا، فَحَتَّى هَذِهِ تَنْسِي رَضِيعَهَا ابْنَ بَطْنَهَا، أَمَّا هُوَ فَلَا! (٤) فَهَلْ مِنْ عَذْلٍ يَبْقَى لَنَا؟!

(١) العظة .٧ : ٤٧

(٢) العظة .٣ : ٤٦

(٣) انظر: العظة .٤ : ٣١

(٤) انظر: إش .١٥ : ٤٩

حادي عشر: النِّعْمَة

١) النِّعْمَة رفيقة الطَّرِيق

ما إنْ ظَهَرَتِ النَّفْسُ أَقْلَى بادِرَةً مِنَ الانْحِيَازِ لِلرَّأْيِ عَلَى حِسَابِ مَسْرَائِهَا المَادِيَّةِ وَمَلَاهِيهَا الْأَرْضِيَّةِ حَتَّى تَرَعِي النِّعْمَةَ إِلَيْهَا وَتَرَاقِفُهَا. وَمَذْذَكُورُهُ لَا يَفْتَرُقُانِ بَلْ تَصْبِحُانِ كُلَّتَاهُما شَرِيكَيِّ مَسِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَدَرِيبٍ وَاحِدَ، تَقْلُعُ فِيهِ النَّفْسُ أَرْضَاهَا بِكُلِّ قَوْمَها فِيمَا تَعْهَدَهَا النِّعْمَةُ بِغَيْوَثِهَا مِنْ فَوْقِ (١). وَهَذَا تَعْمَلَانِ مَعًا فِي تَوَافُقٍ وَتَنَاغُمٍ وَانْسِجَامٍ، فَالنَّفْسُ بَعْيَرَتُهَا وَحَمِيتُهَا وَاجْتَهَادَهَا تُشَجِّعُ النِّعْمَةَ أَنْ تَفْتَقِدُهَا (٢)، وَالنِّعْمَةُ بِدُورِهَا تُلْهِبُ النَّفْسَ وَتَأْسِرُهَا إِلَى مُحِبَّةِ اللَّهِ (٣).

عَلَى أَنَّ عَمَلَ النِّعْمَةِ فِي النَّفْسِ عَمَلٌ خَفِيٌّ سَرِيٌّ طَوِيلُ الْأَمْدِ "يَتَمُّ فِي أَنَّاَةٍ كَثِيرَةٍ وَحِكْمَةٍ وَصَبَرٍ كَثِيرٍ، عَلَى مَدِي زَمَانٍ وَأَمْدٍ طَوِيلٍ" (٤)، "فَكَمَا أَنَّ الْتَّحْلِلَةَ تَصْنَعُ أَقْرَاصَ الْعَسْلِ فِي الْخَفَاءِ فِي الْخَلِيلَةِ، هَذَا أَيْضًا النِّعْمَةُ تُنْشَئُ فِي الْخَفَاءِ دَاخِلَ الْقُلُوبِ مُحِبَّتَهَا الْخَاصَّةُ بِهَا، وَتُحَوِّلُ الْقُلُوبَ مِنَ الْمَرَأَةِ

(١) انظر: العَلَةُ ٢٦: ١٠.

(٢) انظر: العَلَةُ ٢٧: ٩.

(٣) انظر: العَلَةُ ٧: ٣.

(٤) العَلَةُ ٩: ١.

إلى الحلاوة ومن القساوة إلى اللُّيونة^(١)). والنِّعمة، في تعهُّدها بالنَّفس، ثُدِّرها ”بطرقٍ شَتَّى بحسب مشيَّتها لِلْمُمْنَفَعَةِ“؛ فتارةً تشتعل نارُها بشدةً وتتوقدُ، وطُورًا تكون وكأنَّها أكثرُ هدوءًا وأكثُر دِعَةً^(٢). وتنمو النَّفس قليلاً قليلاً وتعان شيئاً فشيئاً، ”إلى أن تُطْوَق بِكِيلَيْتها بِالنِّعْمَةِ السَّمَاوِيَّةِ، وتملك النِّعْمَةَ أخِيرًا في إماءِ النَّفْسِ“^(٣).

٤) صَوْنُ النِّعْمَةِ الْإِتَّصَاعِ

تدوم النِّعمة هكذا مع النَّفس ما دامت النَّفس حافظةً لِلتِّصَاعِدِها ومسكتها، وناسبةً كُلَّ صلاحٍ فيها - كما هو في الحقيقة - إلى النِّعمة^(٤). أمَّا إنْ حدثَ واعتَدَتِ النَّفسُ بذاتها وتصَلَّفت وانتفَحَت فإنَّ النِّعمة تُنَزَّعُ منها وتحرَّمُ النَّفسُ من رفيقتها في الطَّريق^(٥). فما من عدَّةٍ أكثرَ ضرراً للإنسان من الكُبرِياءِ، وما من خَصْمٍ أشدَّ إيذاءً للنَّفس من التَّصَلُّفِ. وكما كان الكُبرِياءُ والتَّصَلُّفُ عِلْتاً سقوطنا الأوَّل، هكذا هما أيضًا نذيرًا هلاكنا الأَبْدِي^(٦). لكنَّ ذَأْبَ الإنسان - ولِشَدِيدِ الأَسْفِ - أن يتصلَّفَ

(١) العظة ١٦ : ٧.

(٢) العظة ٨ : ٢.

(٣) العظة ٤١ : ٢.

(٤) انظر: العظات ١٥ : ٤١ ، ٢٧ : ٣.

(٥) انظر: العظة ١٥ : ٢٧ ، ٢٧ : ٦.

(٦) انظر: العظة ٢٧ : ٥.

إذا ما نال أقلَّ القليل، وهكذا يصير عُرضةً للهلاك وقابَ قوسين أو أدنى من الضياع. وهذا ما سيحدثُ بالرُّبٰت لأنَّ يدخله في منعطفٍ جديدٍ، دُرْءًا للكبراء والتَّصلُّف وصَوْنًا وحفظًا للنِّعمة. فما ثُرى ما هي هذه الشِّعاب الجديدة التي الرَّبُّ مزمع أن يدخل النَّفَس فيها؟

٣) مُنْعَطَّفٌ جَدِيدٌ في طَرِيقِ النَّفَسِ!

إنَّما شِعابَ الضَّيقاتِ وَمُنْعَجَاتِ التَّجَارِبِ، ”فَلَأَنَّ الرَّبَّ يَعْلَمُ ضَعْفَ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ سَرَعًا مَا يَتَشَامِخُ، مِنْ أَجْلِ هَذَا يَتَوَارِي وَيُفْسِحُ لِكِي يَتَمَرَّنُ إِلَيْهِ وَيَكَبِّدُ الضَّوَائِقَ“. لأنك إنْ كنْتَ في حالِ نَيْلِكِ القليل لا يحتملك أحدٌ بل تصلُّفُ، فكيف بك إنْ كانَ أَحَدٌ يُعْطِيكَ أَنْ تُشَبِّعَ دَفْعَةً وَاحِدَةً؟ فإذا ذاك لن يكون في طُوقِ أحدٍ احتمالُكَ! لكنَّ لِعْلَمَ اللَّهُ بِضَعْفِكَ يَدِيرُ لكَ الضَّيقاتِ لِكَيْمَا تَصِيرَ مَتَوَاضِعًا وَأشَدَّ اجْتِهادًا في طَلَبِ اللَّهِ“^(١).

وهكذا يخلُّي بين النَّفَسِ والَّتَّجَارِبِ بشَيْئٍ أَنْواعَهَا وَضَرُوبُهَا وَمُخْتَلَفُ صُنُوفُهَا وأَشْكَالُهَا، وتتواجه مع الشَّدَائِدِ والضَّيقاتِ والأحزانِ والآلامِ، وتجاهِهُ الحروبُ والقتالاتُ والصِّيراعاتُ، فماذا عساها فاعلةً؟ ها هي أحلامُ صباها وأمانِيُّ طفولتها بعيشةٍ رَغِيدَةٍ هائِنةٍ مع الحبيبِ لا يُشُوبُها كَذَرٌ تتلاشى! ها هي آمالها التي كانت تداعب خيالها بأَفْرَاحٍ وأَعْيادٍ لا يُخالطُها حَزْنٌ تُبَخِّرُ!

(١) العَظَةُ ٢٧: ٨

ها هو الواقع يستلها من نومها ويدهب بلذة أحلامها الوردية! فهل تصرير وتجلل وتحتمل؟ هل تثبت وتتصمد؟ هل توطد العزم وتشير عن ساعد الجلد وتنطلق بالقوّة وتقلّد سلاحها؟ هل تلتتصق بجسدها وتتمسك بكلماتها؟ أم إن التجارب ستُفْتَن في عضدها وتُقْلِع عزمهَا وتُنْسِط هنّها، فينفرد صبرها وتُلقي عنها سلاحها وتسليم لأعدائها؟ هنا حجر المحك، فهل تكمل النفس إلى النهاية فتبليغ غايتها وتدرك مرماها وتصل إلى بعثتها، أم تختبئ في وعدها وتنكص على أعقابها ويكتب بها الجواب دون الشوط؟

ثاني عشر: الآلام والضيقات والحروب

(١) لا مفر منها!

لعمري إنَّ من يُمْتَنِي خواصَه براحةٍ وسعادةٍ وهناءً في هذا الدَّهر هُوَ «إله هذا الدَّهر»^(١)، وإنَّه «لَكَذَابٌ وَابُو الْكَذَابِ»^(٢). فحيَّ لأهل هذا العالم الخداع ولبني هذا الدَّهر المُخَاتِل لا تُعطى السَّعادَة والرَّاحَة، فذاك الَّذِي يُمْتَنِيهم بالهناء ويرغبهم في الملذَّات هو هو الَّذِي «يُزَعِّزُهُمْ وَيُقْلِّلُهُمْ وَيُغْرِيَهُمْ»^(٣)، وهذه الشَّهُوات عينُها الَّتِي يُغريهم بها في سبيل لها لعائِمَّة وتحلّب لها أفواهُهم، هي هي بعينها سبب قلقهم وانزعاجهم وعلَّة

(١) كوك ٤: ٤.

(٢) بو ٨: ٤٤.

(٣) العظة ٥: ١.

اضطراهم وزعزعتهم^(١). إذن فإنْ كان لا يحيص من الآلام والأحزان للجميع في هذا الدهر، فلا نكونَ من المخدوعين المُضلّلين المُعرَّضِين «الذين يخسّبونَ تَنَعُّمَ يَوْمَ لَدَّهُ»^(٢)، فيشترون أحزانهم بفرحتهم ويتاعون اضطراهم بسلامهم ويقايضون آلامهم براحتهم، وأخيراً يُدْسُّ لهم بائع المللّات سُرَّ الموت في عسله الشهي^٣! بل بالأحرى لنكونَ تابعين لذاك المنزه عن الكذب الذي سبق وأنبأنا، بكل صدق، بما يتظرنا.

لا لم تُوعَدَ النَّفْسُ - كما كانت تظنُّ في غُوارتها - بحياةٍ مع الحبيب هنيئةٌ سهلةٌ رخيصةٌ في هذا العالم. لا ولم يخرج من فم الحبيب وَعْدٌ لها بمحبوحةٍ من العيش معه في هذا الدهر. بل على العكس "لقد رَسَّمَ الطريق «الذِي يُؤْدِي إِلَى الْحَيَاةِ» بأنْ يلارمه شدَّةُ وضيقٍ وامتحانٌ كثيرٌ وبخارٌ مُرَّةً جدًا"^(٤). لا بل إنَّ نيل الملكوت بدون آلامٍ لهُ "ضربٌ من الحال"^(٥)، فلا يمكن لأحدٍ "بدون الآلام والطريق الوعرة الضيقَةِ الضاغطةِ أن يدخل إلى مدينة القديسين"^(٦).

(١) انظر: العظة ٥:٢.

(٢) بط ٢:١٣.

(٣) العظة ٤٧:١٣.

(٤) انظر: العظة ٥:٦.

(٥) العظة ٤٢:١٢. انظر أيضًا: العظة ٤٢:٥.

(٢) لماذا؟

”لماذا؟“ هكذا تصرخ النفس التي لا ترى لآلامها أسباباً ولا لظلماتها عللاً، وهكذا تستغيث النفس التي يشتدُّ عليها القتال ويختنقُّ عليها وطيسُ الحرب. فلنعرف ولو ترزاً يسيراً ممَّا يجib به أنسا مقار على هذا السؤال، لكي نقدِّم على احتمال الآلام والمظالم بمحليه، وعلى مواجهة القتال والحرروB بشبات. فإلى جانب ما ذكره سالفاً من أنَّ الرَّبَّ يُسلِّمنا للضيق صوْنَا لنا من الكبriاء وحفظاً للنعمـة، فإنَّه امتحاناً لإرادتنا وحررـتنا يفسح الرَّبُّ للضـائق^(١)، ”حتى يكونوا ظاهرين أولئك الذين آتـوا إلى الرَّبَّ بالحق وحـتى الموت، وأحبـوه وحـده من كـلِّ نـيـتهم ومن كـلِّ قـدرـهم، ولم يكن لـديـهم أيـ شيء آخرـ مـشتـهـي إلى جوار مـحبـتهم له“^(٢).

٣) ثلاثة مسوغات لختيم الآلام

لكن رـيـما يقول واحدـ: ”إـنـي أحـبـه وأـقـتـني الرـوح الـقـدـس“^(٣)، فـما حاجـتي بـعـد إـلى التجـارـب والأـحزـان؟ ورـغم أنَّ الـقـدـيس لم يـكـفـ على مـدى عـظـاته من أن يـنـدـد بكلـيـة مـن يـرـتـئـي في ذاتـه الـكـمال^(٤)، إـلا أنـه يـعود ويـقـيلـ لنا

(١) انظر: العـظـة ٢٧: ٩.

(٢) العـظـة ٥: ٦.

(٣) العـظـة ١٥: ١٥.

(٤) انظر على سبيل المثال فقط: العـظـات ٣: ٣، ٤: ٤٥، ٨: ٤٨، ٢٦: ٤٥، ٢٥: ٣٨، ٤: ٤.

ثلاثة مسوغات للام قوية جداً ومفحمة، الواحدة تلو الأخرى، لا نستطيع منها فكاكاً ولا نجد منها مهرباً. أولها: تألم جميع القديسين السابقين، ويُورِد القديس أمثلةً من الكتب المقدسة كأبيوب وإبراهيم، ويتعجب كيف أنتا "حينما نقرأ كيف أنَّ هذا الصديق أو ذاك قد أرضى الله، وكيف صار خليلاً لله أو كليماً له، بل وكيف صار جميع الآباء أحبابَ الله وورثةً له؛ فنحن نطويهم ونبتغى الحصول على هباتٍ وكراماتٍ كتلك التي حازوها، ونتوَق باشتهاءِ أن ننال تلك الموهب الجيدة، ونحن متغافلون عن أنعابهم وجهاداتهم وشدائدتهم وألامهم". في بينما نرحب باشتياق لأن ننال كراماتهم وأمجادهم التي أعطيت لهم من الله، لا نقْبَل أتعابهم وألامهم وجهاداتهم^(١)! ويعود القديس مرأة أخرى ولا يستثنى من الآلام والضيق باراً أو قديساً، قائلاً "إنَّ جميع الأبرار قد اجتازوا الطريق الضيقة الضاغطة، مضطهدِين ومذلَّين ومعيَّرين وعائشين في جلودِ معازٍ في مغارٍ وفي شقوق الأرض. وبالمثل يقول الرسول أيضًا: «إلى هذه الساعةِ الحاضرة تجُوعُ وتعطشُ ونَعْرَى وتعيَّرُ وليس لنا إقامة»، فمنهم الذين قُطعت رؤوسُهم، وأخرون قد صُلِّبوا، وأخرون قد ضُيِّق عليهم بصنوفٍ شَتَّى»^(٢). فإنْ كان جميع القديسين والأبرار قد ذاقوا كأس الآلام بل شربوها حتى

(١) العضة ٥: ٦.

(٢) العضة ٤: ١٢. انظر أيضًا: العضة ٢٦: ٢٥.

الشّمالة فكيف نُبِح لأنفسنا أن نرفض الآلام، وأيَّة ذريعةٌ تنتذرُ بها لنُنَزِّه
أنفسنا عن الضّيقات؟

أمّا ثانٍ مُستوٰغٌ للألم عند أنسا مقار فهو: عظمة المواعيد المذَخَّرة لنا
وديمومتها إلى الأبد، والتي إزاءها لا تُحسَب كُلُّ آلام هذا الزَّمان إلَّا أمراً
زهيداً، “فِإِنْ كَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْذَ أَنْ خُلِقَ آدَمَ إِلَى انْقِضَاءِ الْعَالَمِ يَحْارِبُ
قُبَّالَةَ الشَّيْطَانِ وَيَصِيرُ عَلَى الضّيقاتِ، فَلَا يَكُونُ قَدْ صَنَعَ شَيْئاً عَظِيمًا إِزَاءِ
الْمَجَدِ الْعَتِيدِ أَنْ يَرُثِّهِ، لَأَنَّهُ سَوْفَ يَمْلِكُ مَعَ الْمَسِيحِ إِلَى الدُّهُورِ الَّتِي لَا
نَخَاتِهَا هُنَّا”^(١). فَإِنَّ هَذَا الْعَالَمَ الزَّائِلَ وَهَذَا الدَّهُورُ الْعَابِرُ لِأَصْفَرْ وَأَحْقَرْ مِنْ
أَنْ يَأْبِهَ لَهُمَا الرَّبُّ وَيَجْعَلَ مِنْهُمَا مَحْطَّا لِآمَالِ حَبِيبِهِ الْأَثِيرَةِ وَمَوْضِعًا
لِرَاحِتَهَا وَمَبْعَثًا لِفَرَحِهَا وَهَنَائِهَا. وَإِنَّ حَبَّهُ لَهَا لِأَعْظَمِ وَأَرْفَعِ وَأَسْمَى مِنْ أَنْ
يَكْتُرَثْ لِبِرَهِ زَهِيدَةٍ بَيْنَ مَهِيدٍ وَلَحِيدٍ، وَيَجْعَلَ مِنْهَا مَوْضِعًا يَتَوَجَّ فيَهُ عَرْوَسَهُ
أَسِرَّةَ قَلِيلٍ بِإِكْلِيلِ الْكَرَامَةِ وَالْفَخَارِ. لَكَنَّهُ ذَخَرَ لَهَا كُلُّ الْأَمْجَادِ وَالْأَفْرَاحِ
هُنَاكَ فِي السَّمَاءِ، بَلْ إِنَّهُ جَعَلَ ”الْحَصُولَ الْكَاملَ عَلَى الْخَيْرَاتِ السَّمَاءُوَيَّةِ
مَكْنُونًا فِي الشَّدَائِدِ وَالآلَامِ وَالصَّبَرِ وَالإِيمَانِ“^(٢). وَبِهَذَا تَصِيرُ الْأَتَعَابُ فِي
هَذَا الدَّهُورِ خُلُوةً مُشتَهَىًّا فِي سَبِيلِ هَذِهِ الْأَمْجَادِ الْمُتَنَظَّرَةِ، حَتَّى إِنَّ كُلَّ عَنَاءٍ
يَكُونُ مَمْلُوءًا رَاحَةً، وَكُلَّ ضَيْقٍ يَكُونُ مُفْعَمًا فَرَحًا، بَلْ وَإِنَاءِ الْجَسَدِ وَالنَّفْسِ

(١) العَظَةُ : ٣ : ١٥.

(٢) العَظَةُ : ٦ : ٥.

كليهما كلَّ ساعةٍ مدى العمر كُلِّه لا يُحسب شيئاً إزاء هذه الخيرات^(١). وفي النهاية تقلب الآية ويكون مشارُ عَجَبِ الْقَدِيس هو إباء الإنسان للتجارب والأحزان لا قبوله لها: "أتروم أن تملك مع المسيح إلى الدُّهور التي لا نهاية لها، وتأتي أن تقبل - باشتئاه وحثي الموت - جهادات الزَّمان اليسير الذي لهذا الدَّهور وأتعابه وتجاربه"^(٢)؟

أما عن ثالثِ مُسَوِّغِ لِلآلام يسوقه لنا أَنْبَا مقار، فهو هائلٌ رهيبٌ وجليلٌ مهيبٌ، أسطعُ من أن تُحْدِق فيه عينٌ وأعمقُ من أن يُسْبِر أغواره عقلٌ وأفصحُ من أن يُعَرِّ عنده لسان. فمهما سبرناه فما نبلغ سوى الشَّاطئ ومهما خَبَرْنَاه فما ندرك سوى الظَّاهر. فاللسان يتتصق بالحنك عَيْيَا والعقل يعود أدراجه كليلاً، ويُضْحِي الصَّمَتُ أَلْيَقَ به من الحديث والكلام، والخشوعُ أجدرَ به من الجسارة والإقدام. قد بلغ الْقَدِيسُ به الدُّرُوة واعتلى القمةَ فما ترك لنا ثقبَ إبرةٍ لننفذَ منه ونعتفي من ألم أو نشتكي من تجربة. نعم قد سدَّ أَنْبَا مقار علينا كُلَّ منافذ الهرب وأغلق أمامنا كُلَّ أبواب الفرار وأبطل كُلَّ منطقٍ وسَخَّفَ كُلَّ حُجَّةٍ وأُوهَى كُلَّ عذرٍ، فبات كُلُّ اعتفاءٍ من ألم وكُلُّ تذمُّرٍ على ظلمٍ وكُلُّ تَشَكُّ من تجربة لِإنسانٍ مسيحيٍ أدعى للشُّجُبِ والاستهجان منه للشفقة والرِّثاء! كيف

(١) انظر: العضة ٤٩ : ٤.

(٢) العضة ٥ : ٦.

لا يكون هذا، وقد أتى على ذكر آلام الرب نفسه.

فها هو القديس ينادي بما قد عرفناه وألفناه ولكن لمن نعه بعد كما يجب: ”إن سيد الأنبياء والرسل نفسه، وكأنه قد تناهى مجده الإلهي، كم عان صائراً مثلاً لنا! فلقد حمل – إمعاناً في الاستهزاء به – إكليلاً من شوك على رأسه، واحتمل البصاق واللطم ثم الصليب!!“^(١). ثم يتساءل مستنكراً: كيف يمكن للعروس ألا تشتراك في آلام عريتها^(٢). ويعود فيتولاً العجب وتستولي عليه الدهشة حين يرى الإنسان البائس – وقد تغافل عمّا كابده إلهه من أحوال وأوجاع – لا يكتفي بأن يتبرأ من الآلام ويتعرض من الهوان بل يزيد على ذلك فيتكبر وينتفخ حاسباً نفسه أشرف من أن يذلل وأكرم من أن يهان!! فيخاطبه والحزن يعتصر نفسه قائلاً: ”إن الرب نفسه، الذي هو الطريق والإله، لم جاء – لا لأجل نفسه، بل لأجلك أنت – أنظر إلى آية مذلة بلغ، «آخذنا صورة عبد»، وهو الإله ابن الإله، والملك ابن الملك، المعطي بنفسه أدوية شافية والواهب البرة للمجرورين، وأما من الخارج فكان يبدو كواحدٍ من المجرورين. إنه من أجلنا ظهر هكذا لا من أجل ذاته. تأمهل في الساعة التي فيها طفقوا يصرخون: «إصلئه! إصلئه!»، وكان الجمع محتشدًا، كيف كان مذلولاً أكثر من الكل! فإن

(١) العظة ١٢ : ٤.

(٢) انظر: العظات ١٢ : ٩ : ٣٢ ٤١ : ٢٧ ٤٥.

الرَّبُّ في ساعة الصَّلِيبِ، كَإِنْسَانٍ مُشْرِفٍ عَلَى الْمَوْتِ، تجَرَّعَ مِنَ الْفَرِيسِيَّينَ غُصَّصَ الْهُوَانَ. فَحِينَ بَصَقُوا عَلَى وَجْهِهِ وَوَضَعُوا عَلَيْهِ إِكْلِيلَ شُوكٍ وَلَطْمَوْهُ، أَيَّةً مَذَلَّةً لَمْ يَجِزْهَا؟! لَأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «ظَهَرِيَ قَدْ بَذَلْتُ لِلْسَّيِّاطِ، وَوَجْهِيَ لَمْ أَرَدَ عَنْ خَرْبِ الْبَصَاقِ، وَخَدَّيَ عَنْ اللَّطْمِ». فَإِنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ نَزَلَ إِلَى مَثَلِ هَذَا الدَّرْكَ مِنَ الْإِهَانَاتِ وَالآلَامِ وَالْمَذَلَّةِ، أَفَأَنْتَ - يَا مِنْ بَطْبِيعَتِكَ طِينٌ وَذُو طَبِيعَةِ مائِتَةٍ - مَهْمَا تَذَلَّلَتْ بِكُلِّ نَوْعٍ، سَتَعْمَلُ شَيْئاً يَضَارُّ عَمَلَهُ سَيِّدُكَ؟! فَإِنَّ إِلَهَهُ، مِنْ أَجْلِكَ، قَدْ وَاضَعَ ذَاتَهِ، أَفَأَنْتَ مِنْ أَجْلِ ذَاتِكَ لَا تَتَذَلَّلُ بَلْ تَرْتَفَعُ وَتَسْتَفْخُ؟! هُوَ أَتَى لِيَحْمِلَ ضَيْقَاتِكَ وَأَثْقَالِكَ وَيُعْطِيكَ رَاحْتَهُ، أَفْلَا تَشَاءُ أَنْ تَتَحَمَّلَ الْأَتْعَابَ وَتَتَأَلَّمَ؟!(١)

٤) كَيْفَ لَا تَقْبِلُ الْآلَامَ؟!

وَيَخْنَأُ أَنَاسًا لَا تَلِينُ قَلْوَبُهُمْ وَلَا تَرُقُّ مَشَاعِرَهُمْ! وَيَخْنَأُ خَلِيقَةً تَسْتَكْفِفُ ذُوقَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مَمَّا جَرَعَهُ خَالقُهَا مِنْ غُصَّصٍ مِنْ أَجْلِهَا؟! أَجْبَلَتْ قَلْوَبَنَا مِنْ صَخْرٍ أَمْ قُدَّتْ مِنْ جُلْمُودٍ؟! أَيُّ قَلْبٍ نَحْمَلُهُ بَيْنَ ضَلَوعَنَا وَأَيُّ فَؤَادٍ نَخْفِيهِ فِي حَنَابَا صَدُورَنَا؟! كَيْفَ لَا تَجْرِحَنَا هَذِهِ الْكَلْمَاتُ وَتَنْفَذَ فِيَنا سَهَافُهَا؟! كَيْفَ نَجْسِرُ بَعْدَ هَذَا أَنْ تَنْشَأَ فِي الْأَمْجَادِ وَنَلْهَثُ وَرَاءَ

(١) العَظَةُ: ٢٥، ٢٦.

الكرامات؟! كيف نحقر شديد الحرث على حُسن صِيتنا وجلال منزلتنا؟! بل كيف نجزئ أن نرفض الألم ونجافي الأحزان؟ كيف لا نبغي المذلة ونتميّل الهوان؟ أيكون على سَيِّد الأسياد أن يُشَتَّم ويُجلد وعلى العبيد الأرقاء أن يلبسوا التِّيجان ويرفلوا في حُلُلِ المجد؟! أيُوجِب العريض على نفسه المذلة والهوان ويُلْفِه الحزن والكآبة، ثم تُرْخى عروسه العُنَان لنفسها فتلهم وتمَّرح وتُطرب وتُفرح؟! أيقف هو قبالة خُالة النّاس ويجعل من ذاته هُزَاءً ومن وجهه مِبْصَقَةً، وتقف هي قبالة مرآتها تتزيّن بخلْپِها وتتجمل بمساحيقها؟! ألا فلتتركي عنك مرآتك وزينتك أيّتها العروس المحبوبة وتُمضِي لشارِكِي عريستِك في آلامه، فهناك تنظر فيه هو كما في مرآة وهناك تأسرين قلبه بزينة آلامك وخلبي أحزانك.

(٥) الاستعداد للحرب

بعد أن حَفَرَ أنبا مقار وعَمَّقَ وأرسى أساس “آلام الرَّبّ” كدِعامة لاحتمالنا التجارب وكقاعدة لخُوضِنا غِمار الحرب، انبرى يُشَجِّعنا في حروبنا ويُبَثِّثُ فيها روحِ الجهاد، وقد حقَّ أن يُقال عنه “إِنَّ كُلَّ الرُّهْبَان كانوا يَحْبُّونه ويُخافونه كما يُخافون الله، لِأَنَّهُ كَانَ بَيْنَهُمْ كَقَائِدِ الْجَيْشِ الَّذِي يُقَوِّي وَيُعَزِّي جَنُودَه”^(١). فها هو بالفعل يقول لنا قَوْلَةُ قائدِ جيشه

(١) المخطوطة العربية س ١٨ - مكتبة دير أنبا مقار.

لجنوده: ”ينبغي لرجال الله أن يُعدُّوا ذوّاهم للجهاد والصراع؛ فكمثل شابٍ كريم المختبر يتحمّل القتال وما يقع عليه من الضربات ويدفعها عنه، هكذا يتحمّل المسيحيين أن يتحمّلوا الضيقات التي من الخارج وكذا الحروب التي من الدّاخلي، حتى بحثا وإنْ يُضربوا يغلبوا بالصّبر“^(١).

وكائدٍ جيشٍ محنّكٍ أيضًا يسبق ويُخصّصنا ويُطْمئنَّا بأنَّ حربنا إنما هي حربٌ متكافئة، ”فإِبْلِيس لَهُ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْخَنْجُوحِ بِالنَّفْسِ وَإِغْوَائِهَا إِلَى مُشَيْئَتِهِ الْخَاصَّةِ، مَا لِنَفْسٍ أَيْضًا مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى مُقاومَتِهِ وَعَدْمِ إِطَاعَتِهِ فِي شَيْءٍ“^(٢). ويعاتب القديس عثاً رقيًّا أولئك الذين يتخلّون بقوّة إبليس وبسطوة الخطيئة و يجعلون من هذا الأمر مطيةً لاستمرارهم في الإثم وذرعيةً لاستسلامهم للأفكار الشّريرة، قائلًا بكلٍّ بلاغةٍ وإيجازٍ إنّا لو سلّمنا بهذا لجعلنا الله ظالماً إذ يدين الإنسان^(٣). فالله يضبط بنفسه درجة شدة التجربة بما يتناسب وقامة الإنسان، على غرار ما يفعل الفحّاريُّ بآنيته والإنسان بآنيته^(٤). بل قبل التعرُّض للتّجربة أصلًا الله هو الذي يسمح بها، فليس للشّيطان من البداية أن يُشنّ حربًا دون سماح من الله^(٥). كما

(١) العظة ١٥:١٢.

(٢) العظة ٢٧:٢٢.

(٣) انظر: العظة ٣:٦.

(٤) انظر: العظة ٢٦:٣.

(٥) انظر: العظة ٢٦:٣، ٧.

أنَّ الشَّيْطَانَ مِهْمَا اشْتَدَّ فِي حَرْبِهِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقْسِرَ إِنْسَانًا، فَهُوَ يُغْرِي دُونَ أَنْ يُلْزِمَ^(١). لَكِنْ يَعُودُ الْقَدِيسُ وَيُكَذِّبُنَا بِأَنَّ حَرْبَنَا لَا تَنْتَهِي إِلَّا بِخُروجِنَا مِنَ الْجَسَدِ، ”فَالشَّيْطَانُ لَا يَهُدُّ أَنَّ الْحَرْبَ قُطًّا، فَطَلَّا إِنْسَانٌ حَيٌّ فِي هَذَا الدَّهْرِ وَلَا بَسَّا لِلْجَسَدِ إِنَّ رَحْيَ الْحَرْبِ لَا تَفْتَأِ تَدُورُ“^(٢).

٦) معمعة الحرب

إِذْنَ هَا هِيَ النَّفْسُ قَدْ جَاءَتِ الْطُّفُولَةُ وَالصِّبَابُ وَشَبَّتِ عَنِ الطُّوقِ وَكَبَرَتِ فِي الإِيمَانِ^(٣)، فَرَفَعَ اللَّهُ الْحِجَابَ الَّذِي يَحْجِرُهَا عَنِ الضَّيْقَاتِ وَالْتَّجَارِبِ، وَدُعِيَتِ لِلِاصْطِفَافِ لِلْحَرْبِ وَالْقَتَالِ. وَيَرِسِمُ لَنَا أَئبْنَا مَقَارُ صُورَةً لَهَا وَهِيَ فِي مَعْتَكِ القَتَالِ، يُوَجِّهُ الْعُدُوَّ هَجُومَهُ إِلَيْهَا وَيَباغِثُهَا بِسَهَامِهِ الْمُلْتَهِبَةِ، أَيِّ بِأَفْكَارِهِ الْخَبِيثَةِ، فَمَاذَا عَسَاهَا فَاعِلَّةً؟ أَمَامَهَا خِيَارَانُ اثْنَانِ: إِمَّا أَنْ تَقاومَ وَتَقَاتِلَ، فَلَا تُذْعِنْ لِلأَفْكَارِ وَلَا تُطِيعُهَا وَلَا تَوَافَقُهَا وَلَا تُشَرِّبُهَا، وَفِي هَذَا نُصْرَكُهَا وَغَلَبَتُهَا وَإِكْلِيلُهَا^(٤)؛ وَإِمَّا أَنْ تَسْتَطِيَهَا وَتَهَادِنُهَا وَتَتَوَافَقُ مَعَهَا فَتَبْصُرُ مُوَالِيَّةً لِأَعْدَائِهَا مُسَاعِدَةً لَهُمْ^(٥)!

(١) انظر: العظة ٢٧: ١٠.

(٢) العظة ٢٦: ١٤، ٢٣.

(٣) انظر: العظة ٩: ٤.

(٤) انظر مثلاً: العظات ٢: ١٥ ٤٣؛ ١٥ ٤٢٨؛ ٢٦ ٤٥٠؛ ١٥ ٤٢٨؛ ٢٧ ٤١٢؛ ٢: ٢.

(٥) انظر مثلاً: العظات ٢٧: ٤٢؛ ٤٥ ٤٢: ٦.

على أنَّ أَنْبَا مقار يقدِّمُ للنَّفْسِ خِيَارًا ثالثًا تأخذُهُ هي بِزِمامِ المُبَادِرَةِ فَيُكَوِّنُ بِهِ ثَابَةً ثُرِّيسٍ تُنكِسُّ عَلَيْهِ كُلُّ سَهَامِ الْعُدُوِّ الْمُحَمَّدَةَ فَيُرْتَدُّ عَنْهَا حَائِبًا مدحورًا، وَهُوَ أَنْ تَسْبِقُ هِيَ وَتَجْمَعُ ذَهَنَهَا وَأَفْكَارَهَا فِي حَبِيبَهَا وَحْدَهَا^(١)، بَلْ وَتَجْتَذِبُ فَكْرَهَا إِلَيْهِ اجْتِذَابًا وَتَغْصِبُهُ غَصْبًا إِنْ كَانَ لَا يُشَاءُ^(٢). وَهَكُذا تَلُوذُ بِالْمَلْكِ مِنَ الْعَبْدِ وَتَخْتَمِي بِالْخَالِقِ مِنَ الْمُخْلُوقِ، وَإِذْ ذَاكَ يَكُونُ انتصَارُهَا مُضْمِنًا مُؤْكِدًا. ”فَهِينَ يَنْجُحُ إِنْسَانٌ فِي أَنْ يَشْقَّ طَرِيقَهُ عَبْرَ جَمِيعِ الرُّبُّوكَاتِ وَالْمَكَانَاتِ وَيَغْدُو صَدِيقًا لِلْمَلْكِ، فَأَيُّ ضَرَرٍ يَمْكُنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُلْحِقَهُ بِهِ؟“^(٣). فَهُنَا، وَهَذَا الْخِيَارُ الثَّالِثُ الْجَبَّارُ، يُنْهِنَا أَنْبَا مقار إِلَى قَلْعَةِ حَصِينَةٍ أَمْنَعَ مِنَ أَنْ يَنْفَدُ إِلَيْهَا الْعُدُوِّ وَأَقْوَى مِنَ أَنْ تَخْتَرِقَهَا سَهَامُهُ الْمَسْمُومَةِ.

٧) حصن النفس الخصين

فلنُصْحِّحَ أسماعنا إلى القديس وهو يستنهض عزيمتنا ويُلْقِي بُجُودَة الإيمان
ملتهبةً في قلوبنا حين يقول إنَّ "المسيحيين ولعن كانوا يُجَرِّبون من الخارج

(١) انظر: العذلة ٣١: ١، ٢.

(٢) انظر: العطاءات: ٩، ١١، ٣١، ٤١. ويفيد أننا مقارن عظة كاملة (العظة التاسعة عشرة) للحديث عن مبدأ "التعصب"، ليس فقط في جمع الفكر بل في جميع الوصايا والفضائل. ويضيق بنا المقام هنا في هذه المقدمة إذا أردنا أن نتكلّم عن هذا المبدأ الأساسي جدًا عند القديس، والذي يرفع من قيمته جدًا حتى يجعل منه واسطة لها من المقدرة ما يجتذب الروح القدس إلى النفس (انظر العطاءات: ١٥، ٤٣٥، ٤٥٦).

(انظر العطاءات: ١٥؛ ٣٥؛ ١٩: ٢).

(٣) العظة ٢٦: ١٤ .

لَكُنْهُم مِّن الدَّاخِل مُلْوَّذُون مِن الْأَلَهُوتَيَّةِ وَلَا يَضُرُّهُم شَيْءٌ^(١). فَمَنْ بَلَغَ يَقِينَ الإِيمَانِ وَتَكَامَ التِّقَةُ، فَإِنَّهُ لَيْسُ فَقْطَ يُؤْمِنُ وَيُشَقِّ بِالنُّصْرَةِ، بَلْ وَلَا يُعِيرُ أَمْرَ الْحَرْبِ اهْتِمَاماً، ”فَالْمُسِيحِيُّونَ وَإِنْ كَانَ الْعَدُوُّ يُثِيرُ عَلَيْهِمْ حُرْبًا، إِلَّا أَهْمَّ قَدْ أَقَامُوا فِي الْأَلَهُوتَيَّةِ وَلِبِسُوا «قُوَّةً مِّنَ الْأَعَالِيِّ» وَرَاحَةً، فَلَا يُعِيرُونَ أَمْرَ الْحَرْبِ اهْتِمَاماً. فَإِنَّهُمْ يَلْبِسُونَ الرُّوحَ الْقَدِيسَ وَيُمْكِنُونَ فِي رَاحَةٍ؛ فَحَتَّى وَإِنْ ثَارَتْ عَلَيْهِمْ حَرَبٌ فَالشَّيْطَانُ يَقْرَعُ مِنَ الْخَارِجِ (فَقْطَ) أَمَّا مِن الدَّاخِلِ فَهُمْ مُحَصَّنُونَ بِقُوَّةِ الرَّبِّ وَلَا يَأْبَهُونَ بِالشَّيْطَانِ“^(٢). بَلْ حَتَّى وَإِنْ بَلَغَتْ الشَّيَاطِينُ قُوَّةً جَبَالٍ مِّنْ حَدِيدٍ! فَإِنَّهَا تُحْرِقُ أَمَامَ الْمَسِيحِ وَالرُّوحِ الْقَدِيسِ وَتُنْهِلُ الْخَلَالَ الشَّمْعَ أَمَامَ النَّارِ^(٣)!

٨) كنزا النّفس في الحروب والشدائد

بِمِثْلِ هَذَا الإِيمَانِ وَبِمِثْلِ هَذِهِ التِّقَةِ تَمْتَلِكُ النَّفْسُ فِي جَمِيعِ مَا يَصِيبُهَا مِنْ آلَمٍ وَبِتَحَارِبَ وَضِيقَاتٍ وَإِخْنٍ، تَمْتَلِكُ كَنْزَيْنِ غَالِيَيْنِ جَدًا، لَا يُقْدَرُانَ بِشَمْنَ، أَوْهُمَا يُفْضِيُ إِلَى الْآخِرِ. وَهَا بِاقِيَانُ مَعْهَا مَا بَقِيَتْ هِيَ عَلَى إِيمَانِهَا وَثُقْتَهَا فِي حَبِّيَاهَا. أَوْهُمَا كَنْزُ الرَّجَاءِ وَالْفَرَحِ، وَهُوَ كَنْزٌ غَالِيٌّ جَدًا عَلَى قَلْبِ أَنْبَا مقار لِأَنَّهُ قَدْ اسْتَلَمَهُ مِنْ أَيْمَهُ الْعَظِيمِ أَنْبَا أَنْطَوْنِيوسَ، ذَاكُ الَّذِي قَالَ: ”إِذَا

(١) العَظَةُ ٢٦: ١٥.

(٢) العَظَةُ ٢٦: ١٤، ١٥.

(٣) انْظُرْ: العَظَةُ ٤٣: ٣.

أرDNA احتقار العدو، فلتأمل دواماً في ما للرَّبِّ، ولتفرح النَّفس كُلَّ حِينٍ في الرَّجاء^(١). فها نحن نسمع صَدَى قول الأب في قول ابنه: "يلزم أن يكون للإنسان رجاءً الملحوظ المتضرر وفرحةً وانتظاره مع انتظار الفداء العتيد، قائلًا: "إنْ لَمْ أُفْدَ الْيَوْمَ، فغدًا سُوفَ أُفْدَى"^(٢).

وَكَنْزُ الْفَرَحِ وَالرَّجاءِ هَذَا يَلِدُ بِدُورِهِ الْكَنْزُ الْآخِرِ النَّفِيسِ - كَنْزُ الصَّبَرِ، "فَمَا لَمْ يَقْتِنِ الْإِنْسَانُ أَمَامَ نَاظِرِيهِ الْفَرَحَ وَالرَّجاءَ قائلًا: "إِنِّي عَتِيدُ أَنْ أَنْالِي الْفَدَاءَ وَالْحَيَاةَ" ، لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَحَمَّلَ الضَّيَقاتَ أَوَّلَ الْأَنْتَقَالِ وَلَا أَنْ يَتَقَبَّلَ الطَّرِيقَ الضَّيَقَةَ، لِأَنَّ الرَّجاءَ وَالْفَرَحَ الْمُلَازِمَيْنَ لَهُ يُشَجِّعَاهُ عَلَى مُكَابِدَةِ الْأَنْتَابِ وَتَحْمِيلِ الضَّيَقاتِ"^(٣). أَمَّا عَنِ الصَّبَرِ فَلِيُسَّ هوَ فَقْطُ طَرِيقًا لِلنُّصْرَةِ وَلَا سِلَاحًا لِلْعَلْبَةِ، بَلْ إِنَّهُ الْفَلَبَةُ نَفْسُهَا^(٤)! فَهُوَ شِيمَةُ النَّفْسِ الْحَكِيمَةِ، وَبِهِ يَخْرُزُ الشَّيْطَانُ وَيَعْضُ بَنَانَ الدَّمِ، "فَالنَّفْسُ الْحَكِيمَةُ فَلَا تَفْقَدُ رَجَاءَهَا وَسَطِ الْمُلَمَّاتِ وَالضَّيْقِ بَلْ تَتَمَسَّكُ بِمَا هِيَ مُمْسَكَةً بِهِ، وَأَئِيْ ما يَجْلِبُهُ عَلَيْهَا الشَّيْطَانُ عَبْرَ رِبَوَاتِ الْتَّجَارِبِ تَصْبِرُ عَلَيْهِ قائلةً: "حَتَّى وَإِنْ

(١) سيرة ق. أنطونيوس - ٤١.

(٢) العطة ٢٦: ١١.

(٣) Ibid.

(٤) انظر: العطة ١٥: ١٢؛ بستان الرُّهْبَانَ - قول رقم ٢٠٠.

كنت أموت فإني لا أتركه". وهكذا يخزى الشيطان من الذين يصبرون على الضيقات والتجارب ويندم لأنّه ما ظفر بشيء^(١).

٩) هل تحارب النفس أم تسلّم لأعدائها

فها قد وُهِبَ للنفس مثلُ هذه الأسلحة العظيمة، وأليست مثلُ هذه القوّة الإلهيّة، وأُسْبِغَت عليها مثلُ هذه التّعمة الغزيرة الفائضة لكي تغلب بها وتنتصر. وأنبا مقار يربأ بنا جيّعاً، نحن جيش الله وجنوده، الذين حصّننا بحصن مسيحه وروحه القدُّوس^(٢) وسلّحنا بكمال سلامه، أن نتخلّى عن حصننا ونُلْقِي عَنَا سلاحنا وتسلّم لأعدائنا في هوانٍ ومذلة، فثوسم بيمِسِّي الحزني ونُوصَم بوصمة العار! فها هو الله نفسه وملائكته يشاهدون حربنا ويتابعون صراعنا^(٣)، فهل نكون مبعثاً لفرجهم وسرورهم أم نكون مجَّابةً لحزنهم وبكائهم ونحيّهم^(٤)? هل يرثينا الله مِراثَه الحزينة لآدم^(٥)، أم يفرح بنا فرح العريس بعروسه^(٦)? هل عند خروجنا من الجسد وتركنا هذا العالم تستقبلنا الملائكة والخوارس العلوية

(١) العظة .٨: ٢٦.

(٢) انظر: العظة .٤٢: ١، ٢.

(٣) انظر: العظة .٥: ٣٨.

(٤) انظر: العظات .٢٥: ٣٠، ٤٢: ٣٠، ٤٣: ١، ٤٤: ١١، ٤٥: ١١، ٤٦: ٣٠، ٤٧: ٣٢، ٤٨: ١١.

(٥) انظر: العظة .٣٠: ٧.

(٦) انظر: العظة .٨: ١.

بوجوهٍ مستبشرة وأذرعٍ ممدودة كما يُستقبل الطِّفل حال خروجه من بطن أمه^(١)، أم ننتقل من ظلمةٍ تلْفَنَا الآن إلى ظلمةٍ أخرى أشدّ وطأةً وإلى الْهلاك^(٢)؟ فتتعميم عمل الله - كما ذكرنا سالفاً - هو مرهونٌ بإرادة النفس^(٣)، وتلك "الرِّيشة" التي ثرَّجَ كفة الميزان ما بِرْحَتْ في يدها، "فمع لُبِسِها القوَّةُ الكامنةُ واقتئانِها الأسلحةُ السَّماويةُ، لها - إِنْ شَاءَ - أنْ تتنَعَّمَ مع الشَّيْطَانِ وثَمَادِهِ وَلَا تُخَارِيهِ"^(٤)، ومع قَبُولِها أسلحةُ المُسِيحِ، لها أن ترتخي وَتُسْلِمَ لأعدائِها^(٥).

١٠) خطأ الغلبة!!

أخيراً ثمة خطأ داهمٌ يتهدّد النفس إذا ما وهبها الرَّبُّ الغلبة على أعدائها، وهو أن تتوهم أنها بجهادها غلبت وبقوتها انتصرت وببرتها ستحظى بالمكافأة وترث الحياة. هذه هي الطامة الكبرى! هذه هي الضلالـة العظمى! هذه هي الجهالة التي ما بعدها جهالة! فإنَّ "كلَّ الفضل يظلُّ لنعمة الله"^(٦)، وهذا هو أثباً مقار وهو على فراش الموت يقُرُّ

(١) انظر: العطة ٤٣: ٥.

(٢) انظر: العطة ٤٣: ١٥.

(٣) انظر: العطة ٣٧: ١٠.

(٤) العطة ٢٧: ١١.

(٥) انظر: العطة ٤٣: ١٥.

(٦) العطة ٥: ٥.

في ختام هذه الحياة الحافلة بالشعب والجهاد أنَّ الغَلَبةَ الَّتِي نالها على العدوِ كانت بالقوَةِ والنِّعْمَةِ اللَّتَيْنِ نالهما من الله وَأَنَّهُ لا يَذَكُرُ قُطُّ أَنَّهُ عَمِلَ شَيْئاً بِقُوَّتِهِ^(١). أمَّا مِثْلُ هَذَا الإِنْسَانِ الَّذِي ”يَعْوِلُ عَلَى بَرِّهِ فَقَطْ، دُونَ أَنْ يَنْتَظِرَ بَرَّهُ اللَّهِ الَّذِي هُوَ الرَّبُّ“ الَّذِي صَارَ لَنَا بِرِّاً وَفَدَاءً^(٢)، فِي باطِلٍ وَعَبِيْتاً يَتَعَبُّ، لَأَنَّ كُلَّ ظِنْهِ بَرِّهِ سُوفَ يُسْتَعْلَنُ فِي الْيَوْمِ الْآخِيرِ ”كُحْرَقَةٌ طَامِثٌ“، كَمَا يَقُولُ إِشْعَيَاءُ النَّبِيُّ: »قَدْ صَارَ كُلُّ بَرِّنَا مِثْلَ حَرْقَةٍ طَامِثٍ«^(٣). فَمَنْ مَنَّ يَرْضَى أَنْ يُقْدِمَ لِللهِ مَثْلَ هَذَا الشَّمْنَ لِقَاءَ خَلاصِهِ؟!

”فَكَمَا أَنَّهُ بَدْوَنَ الْكَرْمَةِ يَجْفُفُ الْغَصْنُ، هَكَذَا أَيْضًا الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَبْرِرَ بَدْوَنَ الْمَسِيحِ. وَكَمْثُلَ الْلِّصْنِ وَالسَّارِقِ الَّذِي »لَا يَدْخُلُ مِنَ الْمَدْخَلِ بَلْ يَطْلُعُ مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ«، هَكَذَا الَّذِي يَبْرِرُ ذَاتَهِ بَدْوَنَ ذَاكَ الَّذِي يَبْرِرُ فَمَا مِنْ بَرِّ لَنَا إِلَّا وَيَشُوبُهُ إِثْمٌ، وَمَا مِنْ طَهَارَةٍ لَنَا إِلَّا وَيُخَالِطُهَا دَنَسٌ، وَمَا مِنْ صَلَاحٍ لَنَا إِلَّا وَيَمَازِجُهُ شَرٌّ. وَهَذَا فِإِنَّ أَئبْنا مقار يَصِفُ ذَاكَ الَّذِي يَكْفِي بِنَفْسِهِ وَيَسْتَعْنِي بَرِّهِ أَنَّهُ ”لَيْسَ بِمُسِيْحِيٍّ، لَكَنَّهُ إِنَاءٌ لِلْضَّلَالِ وَالشَّيْطَانِ“^(٤). وَيَكْشِفُ لَنَا أَنَّ الْحَيَّةَ نَفْسَهَا الَّتِي صَرَعَتْ آدَمَ آنذاكَ، هِيَ الَّتِي تَنْسَلُ دَاخِلَ

(١) المخطوطه العريّة س ١٨ - مكتبة ذيর أئبنا مقار.

(٢) العظة ٢٠ : ٣

(٣) العظة ٣١ : ٤ ..

(٤) انظر: العظة ١٥ : ٣٧

القلب وتوسوسُ للإنسان قائلةً: ”كاملٌ أنت وهذا حسبيك! قد استغنىت ولست بحاجةٍ لشيء، فطوباك“^(١)!

فإنْ صَدَقَ الإِنْسَانُ الْمُسْكِنَ مَا تُوْسِعُ بِهِ الْحَيَّةَ فِي قَلْبِهِ، فَقَدْ دَلَّ أَنَّهُ سَادِئٌ عَدِيمُ الْمَعْرِفَةِ^(٢)، قَدْ نَسِيَ ”أَنَّ مَا عِنْدَهُ لَيْسَ مِنْهُ، وَأَنَّ آخَرَ هُوَ الَّذِي أَسْبَغَهُ عَلَيْهِ وَمَتَى أَرَادَ نَزْعَهُ مِنْهُ“^(٣). فَالَّذِي يَعْتَدُ بِإِرْ خَاصٍ لَهُ، مَا عَرَفَ بَعْدَ أَنَّ طَبِيعَةَ الْبَشَرِ ”إِذَا مَا لَيَّثَ بِمَفْرَدِهَا، وَلَمْ تَنَلْ حُلْطَةَ الطَّبِيعَةِ السَّمَاوِيَّةِ وَشَرِيكَتَهَا، فَإِنَّمَا لَا تُقْوِمُ شَيْئًا بِلَ تَقْبَعُ عَرِيَانَةً وَمُشَوَّهَةً فِي طَبِيعَتِهَا فِي ذَنَبٍ كَثِيرٍ“^(٤). إِذَنْ فَقَدْ يَجُوزُ لِلْعَوْسَاجِ أَنْ يَفْتَخِرَ بِشَمْرِهِ وَلِلْبَلْقَعِ بِخَضْرَتِهِ وَلِلْحَنْظَلِ بِحَلَاؤَتِهِ، وَقَدْ يَجُوزُ لِلْلَّذِيبِ أَنْ يَفْتَخِرَ بِوَدَاعَتِهِ وَلِلْحَيَّةِ بِيَسَاطَتِهَا وَلِلْغَرَابِ بِجَمِيلِ صَوْتِهِ، قَبْلَ أَنْ يَسْوَغَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَفْتَخِرَ بِإِرْ خَاصٍ لَهُ!

أَمَّا لَوْ عَلِقَتِ النَّفْسُ بِفَخِّ الْكَبْرِيَاءِ وَوَقَعَتِ فِي مِصِيدِتِهِ، فَهَذَا نَذِيرٌ بِالْحَاطِرِ الشَّدِيدِ وَإِيذَانٌ بِالسُّقُوطِ الْمَرْقُعِ - السُّقُوطُ فِي أَغْوَارِ الْخَطِيَّةِ وَأَدْنِي درَكَاتِهِ^(٥). لَكِنْ لَوْ احْتَفَظَتِ النَّفْسُ بِاِتِّضَاعِهَا وَتَشَبَّهَتْ بِمَسْكِنَتِهَا بَقِيَّتْ فِي حِرْزٍ حَرِيزٍ

(١) العَظَةُ ٢٧: ٦.

(٢) انظر: العَظَةُ ١٧: ٢٥.

(٣) العَظَةُ ٤١: ٣.

(٤) العَظَةُ ٣٢: ٦.

(٥) انظر: العَظَةُ ١٧: ١٤. ويورد أَنْبَا مقار - ضَمِنْ مَا يَوْرِدُ فِي هَذَا الْمَوْضِعَ - أَرْبَعَةُ أَمْثَالٌ حَقِيقِيَّةٌ لِأَنَّاسٍ عَرَفُوهُمْ قَدْ أَوْرَدُوهُمْ كَبِيرَاً وَهُمْ مَوَارِدُ الْمَلَكِ (انظر: العَظَةُ ٢٧: ١٤ - ١٦).

من السُّقوط، ”فالمتواضع لا يسقط أبداً، لأنَّه مِن أين يسقط مَن هو كائنٌ تحت الكل“^(١)؟ فِيَا لِيَتَنَا نَتَمَسَّكُ بِالْتَّوَاضِعِ طَوْقًا لِلْتَّجَاهِ وَحَصْنًا لِلْيَنَالِ.

عَوْدَةٌ عَلَى بَدْءِ

كما بدأنا الحديث بذلك النَّبَع الصَّافِي الَّذِي يُورِدُنَا إِلَيْهِ أَبْنَا مَقَارَ - تَبَعَ الْحَبِّ الإِلهِيِّ، كَذَلِكَ نَخْتَمُ بِهِ كَلَامَنَا. وَلَا عَجَبٌ، فَالْحَبِّ الإِلهِيُّ بَيْنَ النَّفْسِ وَخَالِقَهَا هُوَ سَدَاءُ هَذِهِ الْعَظَاتِ وَخَلْمَتُهَا، وَهُوَ أَلْفُهَا وَبِأَوْهَا. فَكَمَا أَنَّ أَبْنَا مَقَارَ فِي مُسْتَهَلِّ عَظَاتِهِ وَفِي صَفَحَاتِهِ الْأُولَى يُزِيِّحُ لَنَا السِّتَّارَ عَنْ هَذَا الْحَبِّ، حِينَ يَكْشِفُ ”سِرَّ النَّفْسِ الْمَرْمُوعَةِ أَنْ تَقْبَلَ رِبَّهَا وَتَغْدُو عَرْشَ مَجِدِهِ“^(٢)؛ كَذَلِكَ أَيْضًا فِي خَاتَمَةِ عَظَاتِهِ وَآخِرِ صَفَحَاتِهِ يَنْاشِدُنَا مَنَاشِدَةَ الْأَبِّ الْأَوْلَادِهِ قَائِلًا: ”يَنْبَغِي لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا أَنْ يَفْتَشَ، هَلْ لَيْسَ أَرْجُونَ الرُّوحَ الْقَدِيسَ، هَلْ رَأَى الْمَلِكُ وَنَعِمَ بِالرَّاحَةِ مُقْتَرِبًا مِنْهُ غَايَةَ الاقْتِرَابِ، أَمْ إِنَّهُ لَا يَزَالْ يَتَمَسَّى فِي الدِّيَارِ الْخَارِجِيَّةِ الْبَعِيْدَةِ“^(٣). فَلَنْسْتَجِبْ إِذَا لِنَدَاءِ أَبِينَا وَلَنْعَلْ بِنَصِيْحَتِهِ، فَنَقْرَبَ غَايَةَ الاقْتِرَابِ مِنَ الْمَلِكِ وَنَنْعَمَ بِمَحْضِرِهِ وَتَكْتَحِلْ عَيْوَنُ قَلْوَبِنَا بِمَرَآهُ! ”فَلَنْطَرُخْ عَنَّا كُلُّ الْعَقَبَاتِ، وَلَنْعَرِضَ عَنْ كُلِّ مَحَبَّاتِ الْعَالَمِ، وَلَنْكَرِسْ ذُوَاتِنَا لِذَلِكَ الْخَيْرِ الْأَوْحَدِ بِالسُّؤَالِ وَالشَّوْقِ،

(١) العَظَةُ ١٩ : ٨.

(٢) العَظَةُ ١ : ٢.

(٣) العَظَةُ ٥٠ : ٤.

لنسال محبَّة الرُّوح القدس الفائقة الوصف“^(١)! “لنُعِدْ نفوسنا لكي تأتي إلى الرَّبِّ بِكَامِلِ النِّيَّةِ وَتَكَامِلِ الإِرَادَةِ وَنَصِيرَ تَابِعِينَ لِلْمَسِيحِ، حَتَّى نُتَّمِّمَ مَشِيَّاتِهِ وَنَذَكِّرَ جَمِيعَ وَصَاحِبَاهُ لِعَمَلِهِا لِنَفْصِيلَ ذَوَاتِنَا تَمَامًا عَنْ مُحَبَّةِ الْعَالَمِ، وَلْنُنْعِلِّقَ نفوسنا بِهِ وَحْدَهُ! لِنَقْتِنَ فِي عَقُولِنَا الْانْشَغَافَ بِهِ وَالْإِهْتَمَامَ بِهِ وَطَلْبَهُ هُوَ وَحْدَهُ“^(٢).

وَأَخِيرًا يُشَجِّعُنَا أَنَّبَا مَقَارُ أَمَّا تَشْجِيعٌ عَلَى السَّعْيِ وَالْجَهَادِ قَائِلًا: “لَا نَهْمِلْنَّ يَا أَوْلَادِي وَلَا نَتَبَاطَأَنَّ عَنِ السَّعْيِ الْحَثِيثِ صَوبَ الْحَيَاةِ الْأَبْدِيَّةِ وَعَنِ تَسْلِيمِ ذَوَاتِنَا لِمَرْضَاهُ الرَّبِّ“^(٣)، “فَإِنَّ سَاعَةً وَاحِدَةً فِي ذَلِكَ الْجَهَادِ وَالرَّاحَةِ تُنْسِينَا كُلَّ أَتَعَابِنَا، فَتَيَقَّظُوا بِالرُّوحِ وَامْتَلَئُوا بِالْإِيمَانِ حَتَّى تَمْضِيَوْا إِلَى الرَّبِّ بِدَائِلَةٍ، وَوَجْهُوكُمْ مَكْشُوفَةً، وَأَعْمَالُكُمْ نَيِّرَةٌ، لَتَسْتَحْقُّوْا الدُّخُولَ إِلَى أُورْشَلِيمَ السَّمَائِيَّةِ، وَتَنَالُوا الْإِكْلِيلَ الَّذِي لَا يَبْلِي. وَطَوْبَى مَنْ وَجَدَ ذَلِكَ عِنْدَ ظَهُورِ مُخْلِصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ الَّذِي لَهُ الْجَهَادُ مَعَ أَبِيهِ وَرُوحُ قَدْسِهِ إِلَى أَبْدِ الدُّهُورِ، آمِينَ“^(٤).

(١) العَظَةُ ٤: ١٦.

(٢) العَظَةُ ٩: ١٣.

(٣) العَظَةُ ٤٩: ٥.

(٤) الخطابُ الْأَخِيرُ لِلْأَنْبِيَا مَقَارُ الْكَبِيرِ.

هذه العظات الخمسون

”هذه العظات خَوَّلت صاحبها أنْ يتبوأً مكانةً مرموقةً في تاريخ التَّصَوُّف المَسِيحِي المبكر، وَتَبَيَّنَت مَصْدِرًا لإلهام المتصوّفين في العصر الْحَدِيث“ . هكذا يُقْرِّرُ عالم الآباء الأشهر ”كُواستن“ العظات الخمسين للأئمَا مقار (١) . وَرَغْمَ أَنَّهَا - لِلأسف الشَّدِيد - لم تأخذ مَكَانَتَهَا بعْدَ كَمَا يليقُ بِهَا في موطن صاحبها وبين أولاده، إلَّا أَنَّ الْحَدِيثَ يَطْوِل بِنَا جَدًّا إِذَا مَا تَكَلَّمَنَا عنَّ الأَثَرِ الْبَعِيدِ الَّذِي أَحْدَثَهُ هَذِهِ العظات عَلَى الْكَنِيسَةِ شَرْقًا وَغَرْبًا مِنْذَ كَتَابَتْهَا فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ وَحَتَّى الْآن، لَكَنَّا سَنَكْتُفِي بِلَمْحَةٍ خاطفة سريعة عن هذا الموضوع.

أثرها على الكنيسة الشرقية

منذ القرن الخامس وآثارها تُرى في كُتابات الآباء النُّسَاك مثل ق. مرقس النُّسَاك وبعده مار إسحق السِّتِيرِياني وغيرهما. وببدءاً من القرن العاشر نجد لها صدىً كبيراً في كُتابات آباء الْكَنِيسَةِ الْبِيزِنْطِيَّةِ الْكَبَارِ مثل سمعان الْأَلَاهُوتِيُّ الجديد وبعده غريغوريوس السِّيِّنِياني وغيرغوريوس بالاماں. بل حتَّى الآن تُسَلِّمُ هذه العظات لكلٍّ مبتدئٍ يَطْرُقُ بَابَ الرَّهْبَةِ فِي أَدِيرَةِ جبل آثوس مَعْقِلِ رهبة الْكَنِيسَةِ الْبِيزِنْطِيَّةِ .

Quasten, *Patrology*, Vol. III, p. 162. (١)

أثُرُها عَلَى الْكَنِيْسَةِ الْكَاثُولِيْكِيَّةِ

أُمِّا فِي الْغَرْبِ، فَمِنْذِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ أَيْضًا، وَبَعْدُوْتِهِ مِنْ بَرِّيَّةِ شِيهِيتِ إِلَى أُورُوبَا، نَقَلَ كَاسِيَانُ الْمِيرَاثَ الرُّوحِيَّ لِأَنْبَا مَقَارَ إِلَى هَنَاكُ، وَذَلِكَ بِتَأْسِيسِ رَهْبَيْتِهِ فِي جَنُوبِ فَرْنَسَا وَبِكِتَابِهِ "الْمُؤَسَّسَاتُ الرَّهَبَائِيَّةُ" وَ"الْمُنَاظِرَاتُ"؛ وَمِنْ بَعْدِهِ تَسَلَّمَ ق. بِينْدِيكَتُ هَذَا الْمِيرَاثَ عَيْنِهِ. ثُمَّ إِنَّا نَجَدُ فِي الْعَصُورِ الْوَسْطَى آثَارًا وَاضْحَاءً لَهَذِهِ الْعَظَاتِ فِي كَتَابَاتِ الرَّهَبَانِ الْفَرْنَسِيِّسَكَانِ، وَبِخَلْوَلِ عَصْرِ الْطِبَاعَةِ ازْدَادَتْ هَذِهِ الْعَظَاتِ انتَشَارًا، لَا سِيمَّا حِينَما نَشَرَهَا بِيَكُوسُ مُرْفَقَةً بِتَرْجِمَةِ لَاتِينِيَّةٍ عَامَ ١٥٥٩م، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُوصَى بِقِرَاءَتِهِ فِي رَهْبَنَةِ الْآبَاءِ الْيَسُوعِيِّينَ بَعْدِ كَتَابَاتِ كَاسِيَانِ مُبَاشِرَةً.

أثُرُها عَلَى الْكَنِيْسَةِ الْبِرُوتُسْتَانِيَّةِ

وَقَدْ تَجَلَّتْ قَوَّةُ عَظَاتِ أَنْبَا مَقَارَ تَامَ التَّجَلِّيِّ فِيمَا تَرَكَتْهُ مِنْ أثَرٍ فِي الْمُصْلِحِينَ الْبِرُوتُسْتَانِيِّينَ. فَقَدْ ظَهَرَتْ تَرْجِمَاهُ بِاللُّغَاتِ الْأُورَبَيَّةِ مُبَكِّرًا جَدًّا، فُتُرْجِمَتْ إِلَى الْأَلْمَانِيَّةِ عَامَ ١٦٩٦م وَإِلَى الإِنْجِلِيزِيَّةِ عَامَ ١٧٢١م. وَقَدْ قِيلَ عَنِ الْأَلَاهُوَيِّ الْأَلْمَانِيِّ الْبَارِزِ چُونَ أَرِنْدَتْ (١٥٥٥ - ١٦٢١م) صَاحِبِ الْكِتَابِ الشَّهِيرِ "الْمِسِّيْحِيَّةِ الْحَقَّةِ" أَنَّهُ كَانَ يَحْفَظُهَا جَمِيعَهَا عَنْ ظَهُورِ قَلْبِهِ وَقَدْ ظَهَرَ كَذَلِكَ أثُرُهَا وَاضْحَاهُهَا عَنْدِ چُونَ وِيَسْلِي (١٧٠٣ - ١٧٩١م).

مؤسس حركة الميثودست، خاصةً في ترانيمه، حتى إنَّه قام بنشر اثنين وعشرين عظة منها.

يبين من هذه اللّمحـة شديدة الإيجاز مقدار ما لهذه العظات من تأثير روحيٍ طاغٍ لا تُنصلحٌ حديثه مع توالي الغصور ولا تضعف شدته مع اختلاف المذاهب.

الجدل المعاصر حول صاحب هذه العظات

ونحن إذ نقلّم العظات الخمسين للأبنا مقار الكبير، لا نتجاهل أو نتغافل عن رأي الكثير من العلماء والدارسين في القرن العشرين بشأن عدم صحة نسبة هذه العظات للقديس أنبا مقار. فعلى مدى خمسة عشر قرناً لم يتسرّب الشكُّ في نسبة هذه العظات للأبنا مقار، ولكنْ في مستهلِّ القرن العشرين، وتحديداً في عام ١٩٢٠، بدأ التشكيك في نسبتها إليه من قِبَل راهبٍ بلجيكيٍ يدعى L.villecourt، وتسجَّع بعده على منواله الكثير من العلماء، مستندين في كلِّ هذا على ما بدا لهم من تشابهٍ بين التّهم التي وجّهها بمجمع أفسس لبدعة المُصَليين وبين بعض عبارات في هذه العظات. غير أنَّا بعد إبحارنا في لجة هذه العظات - بنصّها الأصلي - سنين كثيرة، وجدْنَا فيها مواضع عديدة تنفي انتماءها للمُصَليين إذ تنقض صراحةً انحرافاتِهم. ثمَّ مقارنتها بما بين أيدينا من ميراثٍ ثلثيٍ للقديس العظيم في

التّقليد القبطي الصّميم، مثل أقواله في بستان الرّهبان وفي كتاب ”فضائل أئبنا مقار“ المكتوب باللغة القبطية البُخيريَّة، تجمَعَت لدinya مادَّةٌ غزيرَةٌ كفيلةٌ لإثبات وتأكيد صحة نسبيَّة هذه العظات مؤسِّس الرّهبنة في بريَّة شيهيت. على أئبنا قد اكتفينا في هذا الكتاب بالتأذير اليسير منها في بعض الحواشي، ضَنَّاً بالكتاب أن يتحول إلى بحثٍ دراسيٍ يُجْهَّزُ القارئ العادي. ومع ذلك فنحن نرجو بمعونة الرَّبِّ أن نُخْصِّصَ بحثًا منفردًا لهذا الموضوع.

وختاماً نورد هنا شهادةً لهذا الموضوع على فم قدس أبينا الرَّاحل الأب ميَّ المسكين: [كنت أطْرُنْ سابقاً أنَّ كلام العلماء الَّذين حَقَّقوا كتاب ”عظات القديس أئبنا مقار“ كلامٌ صحيح، فيما أدعوا به أنَّ هذه العظات ليست من كتاباته. ولكنَّ بعد الفحص الكثير وقراءة أقوال الآباء واستيعابها، تأكَدتُّ أنَّ هذا الكتاب لا يستطيع أحدٌ أن يكتبه إلَّا أئبنا مقار الكبير. لقد قرأته إلى عشرين مرَّة، ولكنَّ حتَّى آخر مرَّة أجده نفسي وكأنَّني أقرأ لأول مرَّة لِمَا فيه من عمقٍ وأصالَةٍ إنجيليةٍ وقوَّةٍ في التعبير. كتاب عظات أئبنا مقار يُمثِّلُ التَّعمُق الإنجيليَّ الصَّحيح حتَّى إنَّك تجده يستشهد بالإنجيل والتَّوراة مرَّاتٍ كثيرةً في الصفحة الواحدة، ورَبَّما في كلِّ سطر تجد سندًا إنجيليًّا ولا سيَّما من رسائل القديس بولس الرَّسول] (١).

(١) كتاب ”توجيهات وكلمات في الحياة الرَّهبايَّة والكسنة“ أليبيت في وادي الرَّئان في

يُقْرَأُ أن نشير إلى أنَّ هذه العظات الخمسين - مع سبع عظاتٍ أخرى - تُمثِّل المجموعة الثانية من مجموعاتٍ أربع تحوي عظاتٍ منسوبةً للأنبياء مقار، وإنْ لم تدل من الصَّيْبَتِ والشَّهْرَةِ ما نالته هذه العظات الخمسون. وتحوي المجموعة الأولى أربعًا وستين عظة، والمجموعة الثالثة أربعًا وثلاثين عظة، والمجموعة الرابعة (وجميع عظاتها مُدْرَجَةٌ ضمن عظات المجموعة الأولى) ستًا وعشرين عظة. وهذه المجموعات الأربع ليست مفصولةً تمامًا عن بعضها البعض. فهناك عدَّة عظات مكررة في أكثر من مجموعة منها، وإنْ لم تكن العظة بكميلها، فنجد عدَّة مقاطع منها متواجدة في المجموعات الأخرى. غير أنَّ هذه العظات الخمسين الَّتي نقلَّمها للقارئ في هذا الكتاب - مترجمة عن الأصل اليوناني - هي الَّتي اشتهرت عبر التاريخ وكان لها أثْرٌ لا يُجَارِى على الكتابات الروحية في كافَّة الكنائس شرقًا وغربًا.

هذه الترجمة

رُهاء تسع سنواتٍ قد تَقضَّت في ترجمة هذا الكتاب عن أصله اليوناني، لكنَّ علاقتنا به كانت أقدم من ذلك بكثير. فقد تَمَّت قراءته أوَّلاً منْذ سِنِين كثيرة في ترجمَتِيِّه العَرَبِيَّتين عن الإنجليزية (طبعَة يوسف منقريوس عام ١٩٠١ والَّتي قامَت بإعادَة طبعها كنيسة مار جرجس سبورتاج عام ١٩٧٦؛ وطبعَة بَيْت التَّكْرِيس ترجمَة د. نصحي عبد الشَّهِيد). ثُمَّ أعيَدَت قراءته أيضًا في ترجمَة إنجليزية ثُمَّ في أخرى، بل جَرَت محاولةً لترجمَتِه عن الإنجليزية لكنَّها لم تكتمل وذلك لزيادَة رغبتِنا أكثر فأكثر في قراءة هذه العظات بلغتها الأصلية والاطلاع على المفردات اليونانية التي صاغت هذا العمل العظيم. فما استطاعت الترجمات أن تُنْقَع غلينا وترُوي عطشنا. وهكذا كانت قوَّة الكلمات وحرارتها والحياة المُذَخَّرة فيها، ثُمَّ العيوب والمؤاخذات التي تعترى العظيم صاحب هذه العظات، كلُّ هذا كان لا يبرح يدفع ويستحدث للإقدام على خطوة أعمق والولوج إلى العظات بنصِّها اليوناني. وهكذا شرعت في الترجمة عن اليونانية - مستندًا على نعمة الله وعلى بركة آبائي - مستأنسًا بترجمة فرنسيَّة وثلاث ترجمات إنجليزية، على قدر إلمامي المتواضع بهذه اللُّغات.

بعد نعمة الرَّبِّ يسوع، يَدِين هذا الكتاب بالفضل لاثنين من الآباء الشُّيوخ الأفاضل، قد باركا هذا العمل وَحَتَّما على كُلِّ صفحَةٍ بل كُلِّ كَلْمَةٍ فيه، فَأَضْفَيَا عليه مَسْحَةً شُيوخ البرِّيَّةِ ونفخاً في صفحاته من أنفاسهما ولقَحَا كلامَه بخبرتهما. فَالْأَبُ يوحَنَّا المقاريَّ كان هو القوَّةُ الدَّافِعَةُ للترجمة، فطوال كُلِّ هذه السَّنَوات لم يَنِ عن تشجيعي وَحَتَّى على مواصلة هذا العمل رغم شَتَّى المصاعب والعوائق، وبكُلِّ حماسٍ وغَيْرَةٍ دونها غَيْرَةُ الشَّبابِ كان يتَابِعُ ويسأَلُ ثُمَّ يراجع أَوْلًا بِأَوْلَ بِكُلِّ دَقَّةٍ وِإِتقانٍ. فلَكُمْ أَخْضَنِي تَشجِيعَه كُلَّمَا تَقَاعَسْتُ وَتَكَاسَلْتُ، وَلَكُمْ شَدَّدَتْنِي كلامُه كُلَّمَا وَهَنَتْ إِرَادَتِي وَفَتَّ الْحَوْرُ فِي عَصْدِي، وَلَكُمْ شَحَّدَنِي تَحْفِيزُه كُلَّمَا كَلَّ عَزْمِي وَثُبِطَتْ هَيَّتِي. ولولا مُؤازرَتِه وَتَشجِيعِه ما كان لَضُعْفِي أَنْ يَثَابِرَ إِلَى النِّهايةِ وما كان هذا العمل أَنْ يَكْتُمَ.

أمَّا عن الأَبِ وَدِيدِ المقاريَّ، فقد كان الملاَذُ الَّذِي أَلوَذُ بِهِ كُلَّمَا استغلقَ علىَ شَيْءٍ في النَّصِّ اليونانيَّ، وما أَكْثَرَ مَا كان يَحدِثُ هَذَا! وَرَغمَ مَا يَبْيَنُ وَبَيْنَهِ مِنْ بَؤْنٍ شَاسِعٍ في معرفةِ أَسْرَارِ اللُّغَةِ وَامْتِلَاكِ نَاصِيَتِهَا، إِلَّا أَنَّهُ مَا يَرِمُ بِي قَطُّ وَلَا يَرِمُ بِأَسْئَلَتِي رَغمَ سُذْاجَتِهَا في كَثِيرٍ مِنَ الْأَحيَانِ وَخَاصَّةً في بِدايَةِ التَّرْجمَةِ. بل علىَ الْعَكْسِ كَانَ يُجَيِّبُ عَنْهَا جَيِّعَهَا بِكُلِّ سُخَاءٍ وَأَرْيَجَيَّةٍ وبكُلِّ إِجَادَةٍ وِإِحْكَامٍ، حَتَّى إِنَّهُ كَثِيرًا مَا كان يَكْتُبُ صفحَاتٍ في شَرْحِ معنى جملَةٍ

أو حتى كلمة واحدة! ويكتفى معرفة أنَّ الأسئلة التي أرسلتها إليه وإنجاباته عليها قد تم تجميعها في أكثر من مائتين وخمسين ورقة! هذا فضلاً عن مراجعته للعظات كلمةً بعد الانتهاء من كل عضة، وتصحيحه للأخطاء وتصويبه للأغلاط وتعديلها لما يحتاج إلى تعديل، فكان خير ضمرين لصحة الترجمة ودقّتها.

فإنْ كانت هذه العظات تشرف بمؤلفها وتُفخر به، فحرى بهذه الترجمة أن تشرف وتُفخر بمراجعةها، فهي مدينةٌ لهما قبل أيِّ أحدٍ آخر، وإليهما أولاً تُنفَّذُ وتحمدَى.

وإنْ أنسَى لا أنسى آبائي المؤرقين الذين علمنا و كان لهم الفضل علينا، فالشُّكر والامتنان والتقدير للأب أندريل المقاري الذي علمنا - وما برح - الألباء يونانية، والأب أخنوخ المقاري الذي لم يدخل بوقته وجهده في مساعدتنا لا سيما في بداية هذا العمل، والأب إغناطيوس المقاري الذي أخذ بآيدينا في بدء تعلمنا الفرنسية، والأب أبرام المقاري الذي بسطَ لنا قواعد اللغة العربية وعلمنا أصولها، والأب بوليكاريوس المقاري الذي وضع لمساته الفنية الأخيرة على الكتاب، وجميع آبائي وإخوتي في الدّير الذين شجّعوني وأزروني بكلماتهم، والذين كانوا أمامي بحياتهم وسيرثهم تحقيقاً لما

كنت أقرأ وأكتب. كما أتقدّم بالشكر للأستاذ الحبيب فاضل فام على محبّته ووضع بصمّته على غلاف الكتاب بخطّه المتميّز.

الله أدعُو أن يجعل من هذا الكتاب كُوئٌّ ثُطِلٌ منها كلُّ نفسٍ على حِبِّ الله الآب والابن والرُّوح القدس. فإنْ نجحَت الصَّفَحَاتُ الْقَادِمَةُ في أَنْ تُمَدَّ جسراً من الحِبِّ بين النَّفْسِ وَخَالِقَهَا، وَتُعَمِّقَ الْعَلَاقَةُ الشَّخْصِيَّةُ الْخَاصَّةُ جدًا بين النَّفْسِ وَكُلِّيًّا مِنَ الْأَقَانِيمِ الْثَّلَاثَةِ، فَلَا تَكُفُّ عَنْ أَنْ تُنَاجِيَ الْآبَ الَّذِي أَحَبَّهَا وَضَحَّى بِابْنِهِ لِأَجْلِهَا، وَتُنَاجِيَ الْابْنَ الْوَحِيدَ الَّذِي تَيَّمَّهَ حُبُّهَا فَقَاسَى الْأَهْوَالَ لِيظْفَرَ بِهَا عَرْوَسًا لَهُ، وَتُنَاجِيَ الرُّوحَ الْقَدِيسَ الَّذِي يَسْكُنُ فِيهَا وَيُلْقَى بِجَمَرَاتِ الْحِبِّ مُلْتَهِبًا مُضطَرِّمًا فِي قَلْبِهَا - إِنْ نجحَ الكتاب بنعمته الله في هذا، يكون قد أدرك بُعْيَتِه وبلغ غايتها ووصل إلى مجَّنه.

وللآب والابن والروح القدس إلينا الواحد كلُّ المجد والكرامة أولاً وآخرًا،

آمين.

المراجع

النص اليوناني

Hermann Dörries, Erich Klostermann, and Matthias Kroeger, Die 50 Geistlichen Homilien des Makarios; Patristische Texte und Studien 4. Berlin, 1964.

Homiliae Spirituales, Patrologia Graeca (PG) 34: 449 – 822.

الترجمات

Placide Déseille, Les Homélies Spirituelles de Saint Macaire, Spiritualité Orientale, N° 40. Abbaye De Bellefontaine, 1984.

A.J. Mason, Fifty Spiritual Homilies of St. Macarius the Egyptian, London: SPCK, and New York: Macmillan, 1921. Reprinted, Eastern Orthodox Books, 1974.

George A. Maloney, Intoxicated with God, Denville, N.J.: Dimension Books, 1978.

George A. Maloney, S.J., Pseudo-Macarius – The Fifty Spiritual Homilies and the Great Letter, Paulist Press. New York, 1992.

العظات الروحية لأبينا القديس مكاريوس المصري، طبعة يوسف

منقريوس، ١٩٠١.

إلى آبائي وإخوتي رهبان وإخوة دير أبا مقار العامر،

واحداً فواحداً باسمه،

أهدي هذا الكتاب

العظات الروحية

لأبينا القديس مقاريوس المصري

وهي مملوءة نفعاً عظيماً جداً،

عن الكمال الذي ينبغي للمسحيين أن يجدوا في أثره

العظة الأولى النفس عرش المسيح^(١)

[تفصير دمذبي للرؤيا المكتوبة في سفر حزقيال النبي^(٢)]

- [أ] النفس عرش للمسيح
- [ب] الروح القدس نور وملح
- [ج] المسيح يحيى النفس عن الخطية
- [د] ويل لنفس ليس لها شرارة الروح القدس



[أ] النفس عرش للمسيح

١ - بعدهما رأى حزقيال النبي الطوباوي المنظر والرؤيا الإلهية الجيدة، قصّها وكتبها منظراً مفعماً أسراراً لا يُنطق بها. فقد رأى في البقعة مركبة^(٣) شاروبيم، وهي أربعة أحيا روحانية لكلٍ منها أربعة أوجه: أحدها وجه أسد، وآخر وجه نسر، وآخر وجه ثور، وآخر وجه إنسان، ولكلٍ وجه أجنحة وكأنه ليس هناك ظهير أو قفا، ولما كانت ظهورها مملوءةً عيوناً

(١) العنوان الرئيسي لكتاب عظة وكذا العناوين الجانبية، هي من وضع المترجم؛ أمّا ملخص كل عظة الوارد أسفل العنوان الرئيسي، فموجود في الأصل اليوناني.

(٢) انظر: حر ٤ ١٠ .

(٣) هذه الكلمة *αρρυπτα* = مركبة لم ترد في سياق هذه الرؤيا (حر ٤١ حر ١٠)، لكنها وردت في حر ٤٣: ٣، حين كان النبي يسترجع هذه الرؤيا ويصفها بـ”رؤيا المركبة *αρρυπτας τοῦ αρρυπτοῦ*“ . وبينما الذكر أنّ رؤيا حر ١ كانت في السنة الخامسة من النبي، ورؤيا حر ١٠ كانت في السنة السادسة من النبي، أمّا رؤيا حر ٤٣ فكانت في السنة الخامسة والعشرين من النبي.

وكذلك بطونها ملائنة عيوناً، لم يكن فيها موضع ليس ملوءاً عيوناً^(١).

(١) لا غرَّ أن تكون أولى عظات أبا مقار عن "الشاروبيم"، نظرًا للعلاقة القوية الخاصة جداً التي كانت له مع هذه الطففة السماوية التي أرسلها له الرَّبُّ لتكون رفيقًا ومرشدًا له طوال أيام حياته حتى يوم نياحته. فنحن نقرأ في سيرته عدّة مواضع توضح لنا هذه العلاقة العجيبة له مع الشاروبيم:

١ - أول ظهور للشاروبيم للأئب مقار كان قبل ربهته وهو بعد جَّالٌ، وقد سافر إلى وادي النَّطرون مع الأجراء ليحمل نظرونا إلى مصر، وكان الكلُّ نِياماً وهو أيضاً، وإذا به يرى في منامه إنسانًا نورانياً مُتَشَنِّجاً بأسطوانة كالبرق الساطع، وهذه الأسطوانة مكَلَّة بالجواهر (عيون الشاروبيم)، وأخبره الشاروبيم أنَّ الله سيعطيه هذا الجبل ميراثاً له ولأولاده، ينبعُّون فيه للصلادة، ويخرج منه رؤوسٌ ومقديّون. وأوصاه أن يتذكر هذا الكلام حيَّداً ووعده بتكرار ظهوره له مستقبلاً (الزَّهبة القبطية في عصر ق. أبا مقار - الأب مئي المiskin - الطبعة الثالثة ص ٦٢).

٢ - بعد تجربة أبا مقار الشديدة، التي أَهْمَمَ فيها بالخطيئة، وبعد ظهور براءته، وعلمه بأنَّ أهل القرية مزمعون أن يأتوا إليه ويعتذروا له ويكرمه، وقف يصلي طالباً الإرشاد أمام مذبح الكنيسة، وإذا به يشاهد عن يمينه كاروبياً نارياً له ستة أجنحة وكله ملءٌ عيوناً، فشده وقوه، وعَزَّاه، ثم ظهر له ثانيةً وهو يصلي في الليل وقاده إلى الجبل المقدس وأوصاه بالسكنى هناك، ثم في آخر كلامه خاطبه قائلاً: "آتَّا أنا فساًكُون كَلَّا وَقَتْ مَعَكَ كَامِرَ الله" (المراجع السابق ص ٦٧).

٣ - يذكر كتاب "فضائل أبا مقار" فقرة ١، افتقداً عجيبةً من الشاروبيم للأئب مقار، إذ ظهر له ووضع يده على قلبه، كما لو كان يزن قلبه، وقال: وزنت قلبك، وسوف يطلق اسمك، اسم قلبك، على هذا الجبل (مِيزَانُ الْقَلْوب *mizan al-qalob*). ولما قال الشاروبيم هذا، صَلَّى أبا مقار، وقال له: قد صلبت نفسك مع المسيح، فاصلَّى أنت نفسك معه في زينة الفضائل والتحتها العطرة.

(Amélineau, Histoire des Monastères de la Basse-Égypte - p.118)

٤ - ذُكر في نهاية زيارته الأولى للأئب أنطونيوس أنَّه قام ورجع إلى جبله، وجلس في قلاليه صامتاً... وكان الكاروبيم يفتقده دائمًا (المخطوطة العربية س ١٨ - مكتبة دير أبا مقار).

٥ - وحَّيَّ عند نياحته ظهر له الكاروبيم الذي كان معه منذ الابتداء ومعه جمْعٌ كبيرٌ من الرُّوحانِّين، وقال له: أسرع وتعال، فإنَّ هؤلاء كلَّهم ينتظرونك (المراجع السابق).

وكانت هناك بَكَرَاتٌ لِكُلِّ وَجْهٍ، بَكَرَةٌ فِي بَكَرَةٍ، وَكَانَ هُنَاكَ رُوحٌ فِي الْبَكَرَاتِ. وَرَأَى مُثْلَ شَبَهِ إِنْسَانٍ جَالِسًا فَوْقَهُمْ كَمْثُلَ شَبَهِ إِنْسَانٍ تَحْتَ قَدْمِيهِ مُثْلَ صَنْعَةِ الْعَقِيقِ الْأَزْرَقِ. وَكَانَتْ مَرْكَبَةُ الشَّارِوْبِيمِ وَالْأَحْيَاءِ تَحْمِلُ السَّيِّدَ الْجَالِسَ فَوْقَهَا، وَأَيْنَمَا يَرِيدُ الْمَسِيرُ كَانَتْ تَذَهَّبُ بِحَسْبِ نَاحِيَةِ وَجْهِهَا، وَرَأَى تَحْتَ الشَّارِوْبِيمِ مُثْلَ يَدِ إِنْسَانٍ تَسْنِدُ وَتَحْمِلُ.

٢ - وَهَذَا الَّذِي رَأَاهُ النَّبِيُّ كَانَ فِي جُوهرِهِ حَقًّا وَيَقِينًا، وَإِنَّمَا كَانَ يُشَيرُ إِلَى شَيْءٍ أَخْرَى وَيُرِمِّزُ إِلَى أَمْرٍ سَرِّيٍّ وَإِلَهِيٍّ، إِلَى السِّتِّيِّ المُكتَوُمِ بِالْحَقِيقَةِ مِنْذِ الدُّهُورِ وَمِنْذِ الْأَجْيَالِ^(١)، وَالَّذِي أَظْهَرَ فِي الْأَزْمَنَةِ الْأُخْرَى بِظَهُورِ الْمَسِيحِ^(٢). فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ يُرِي سَرَّ النَّفْسِ الْمَزْمُوعَةَ أَنْ تَقْبَلَ رَبَّهَا وَتَغْدُو عَرْشَ مَجِدِهِ. ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ الَّتِي حُسِبَتْ أَهْلًا لِشَرِكَةِ رُوحِ نُورِ الرَّبِّ وَاسْتُغْرِتْ بِبَهَاءِ مَجْدِهِ غَيْرِ الْمَوْصُوفِ، وَالَّتِي أَعْدَهَا هُوَ لِتَصْيِيرِهِ عَرْشًا وَمَنْزِلًا، تَلِكَ النَّفْسُ تَصْبِحُ كُلُّهَا نُورًا وَكُلُّهَا وَجْهًا وَكُلُّهَا عَيْنًا، وَلَا يَكُونُ فِيهَا أَيُّ جُزْءٍ لَيْسَ مَمْلُوِّعًا مِنْ أَعْيُنِ الثُّورِ الْرُّوْحَانِيَّةِ هَذِهِ، أَيُّ لَا يَوْجِدُ فِيهَا أَيُّ جُزْءٍ مَظْلُومٍ، بَلْ لَقَدْ أَضْحَتْ بِكُلِّيَّتِهَا نُورًا وَرُوْحًا، مَمْلُوِّعًا عَيْوَنًا بِالْتَّكَامِ، وَلَيْسَ فِيهَا أَيُّ جُزْءٍ مِنْ وَرَاءِ أَوْ مِنْ خَلْفِ، فَإِنَّمَا تَبْلُغُ أَنْ تَصْيِيرَ بِكُلِّيَّتِهَا وَجْهًا، يَقُودُهَا وَيَجْلِسُ عَلَيْهَا الْبَهَاءُ الْفَائِقُ الْوَصْفُ الَّذِي مَجَدَ نُورَ الْمَسِيحِ.

(١) انظر: كور: ٢٦: ١.

(٢) انظر: بط: ١: ٢٠.

وكما أنَّ الشَّمْس كُلُّها متماثلة، ليس فيها جزءٌ من خلف أو جزءٌ ناقص، لكنَّها كُلُّها مُجْلَّةً تامًا بالنُّور، بل إنَّها بكلِّيتها نور، وبذل تصير كُلُّاً متماثلاً؛ وكما أنَّ النَّار أيضًا، أعني النُّور المُتولِّد منها، يكون كُلُّه متماثلاً، ولا يكون فيه أَوْلُ وآخِرٌ أو أَكْبَرُ وأَصْغَرُ؛ هكذا النَّفْسُ أيضًا التي استُنْتَرَت إلى التَّمام بالبهاء الفائق الوصف الذي يُجَدِّد نور وجه^(١) المسيح^(٢)، والتي اشتَرَكت بالكلِّيَّة مع الرُّوح القدس، ومحِسِّبتُ أهلاً لأنَّ تصير منزلاً لله وعَرْشًا له، فإنَّها تصبح كُلُّها عينًا وكُلُّها نورًا وكُلُّها وجهًا وكُلُّها مجدًا وكُلُّها روحًا. وهكذا يُعِدُّها المسيح ويُسندُها ويقودُها ويرفعُها ويحملُها، وهذا يُهْبِطُها ويزِّتها بجمالي روحانيٍّ. ولأنَّه يقول: «كَانَتْ يَدُ إِنْسَانٍ تَحْتَ الشَّارُوبِيم» (حز ١: ٨، ٨: ١٠، ٢١)، فإنَّ ذاك الَّذِي فيها (أي المسيح) هو الَّذِي يحملُها ويرشدُها في الطريق.

٣ - وأيضاً هذه الأحياء الأربع الحاملة المركبة ترمز إلى الحواس القائدة للنَّفْس. فكما أنَّ النَّسَر يملُك على الطيور، والأَسْد على وحوش البرية، والثُّور على الحيوانات الأليفة، والإنسان على الخلق؛ هكذا أيضًا توجد

(١) كلمة πρόσωπον عُكِنَ ترجمتها وجه (مت ١٧: ٤ لو ٩: ٤ كو ٤: ٦)، أو شخص (كو ٢: ١)، أو انظر: كو ٤: ٦.

للنفس حواسٌ قائدة، أعني الإرادة والضمير والعقل وقوة الحبّة، فبواسطة هذه تقاد مركبة النفس وفيها يستريح الله.

ومن جهةٍ أخرى فإنَّ هذه الأحياء الأربع ترمز إلى كنيسة القديسين السماوية، فكما يقول في ذلك الموضع: إنَّ الأحياء كانت عاليةً جدًا وملوءةً عيونًا، حتَّى إنَّ أحدًا لم يقدر أن يدرك عدد الأعين أو مقدار العلو لأنَّه لم يُعطِ معرفتها لأحد؛ وكذلك النجوم في السماء قد أعطى للجميع أن يرؤوها ويُعجبوا بها، وأمَّا عددها فلا يقدر أحد أن يصل إلى معرفته؛ وأيضاً مزروعات الأرض أعطى للجميع أن يتمتعوا بها ولكنَّ أحدًا لا يقدر أن يعرف عددها؛ هكذا أيضًا بنفس الطريقة بالنسبة لكنيسة القديسين السماوية^(١)، فإنَ الدخول إليها والتَّمتع بها قد أعطى لجميع الذين يريدون الجهاد لأجلها، وأمَّا معرفة العدد وإدراكه فهو لله وحده.

وهكذا فإنَ الرَّاكِب يُحمل ويُرْفع بواسطة المركبة وعرش الأحياء الملوءة عيونًا، أو بالحربي بواسطة كلِّ نفس قد صارت عرشًا وكرسيًا له، وصارت عينًا ونورًا، فيجلس هو عليها ويقودها بزمام الروح القدس، ويرشدتها في الطريق حسبما يرى هو. وكما أنَّ الأحياء الروحانية لم تكن تذهب أينما تريده بل أينما يرى ويشاء ذاك الجالس عليها والقائد لها؛ هكذا أيضًا هنا،

(١) انظر: مز ١٤٩ : ١ سعيينة (س).

فقاءد الطريق هو نفسه الذي يمسك بالزمام ويرشد النفس بروحه، فتسير، لا كما تزيد هي، بل حينما يشاء أن يأخذ النفس إلى السماء فإنه يمسك بزمامها ويقودها بفكرها إلى السماوات بينما يكون جسدها ملقي على الأرض، وحينما يشاء أيضاً فإنه يجعلها تعود إلى جسدها وحواسه، وأيضاً حينما يشاء فإنه يذهب بها إلى أقصى الأرض ويكشف لها إعلانات الأسرار. فيا له قائداً حقيقياً وحيداً للنفس، حسناً وصالحاً! هكذا ستؤهل أجسادنا أيضاً في القيامة لهذا المجد، بينما تسبق النفس وتتمجد به منذ الآن مترفة بالروح القدس.

[ب] الروح القدس نورٌ وملح

٤ - فإن تصير نفوس الأبرار نوراً سماوياً، فهذا هو ما كان يقوله الرَّبُّ نفسه لتلاميذه: «أَنْتُمْ نُورُ الْعَالَمِ» (مت ٥: ١٤)، لأنَّه بعد أن صيرهم نوراً، أمرَ أنْ بواسطتهم يستنير العالم، إذ يقول: «لَا يُوقِدُونَ سِرَاجًا وَيَضَعُونَهُ تَحْتَ الْمِكَابِيلِ، بَلْ عَلَى الْمَنَارَةِ فَيُضْيِئُ لِكُلِّ مَنْ فِي الْبَيْتِ». هكذا فليُضيئ نوركم قُدَّام النَّاسِ» (مت ٥: ١٥، ١٦)، وكأيّ به يقول لهم: «لَا تُخْفِوا العَطِيَّةَ الَّتِي نِلتُمُوهَا مِنِّي، بَلْ أَعْطُوهَا لِكُلِّ مَنْ يَرِيدُهَا». وهو يقول أيضاً: «سِرَاجُ الْجَسَدِ هُوَ الْعَيْنُ، فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ مُبَيِّرَةً فَجَسَدُكَ كُلُّهُ يَكُونُ نَيْراً، وَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ شِرِّيرَةً فَجَسَدُكَ كُلُّهُ يَكُونُ مُظْلِمًا». فإنْ كان الثُّورُ الذي فيك

ظلاماً، فالظلامُ كُمْ يَكُونُ!» (مت ٦: ٢٢، ٢٣ - حسب النصّ). فكما أنّ عيني الجسد هما نورٌ له، فإنّ كانتا صحيحتين فالجسد كله يستنير، وإن حدث واظلمتَا فالجسد كله يصير مظلماً؛ هكذا الرّسُل قد جعلوا عيوناً ونوراً لكلِّ العالم. لذلك فإنَّ الرَّبَّ كان يخاطبهم محدِّراً: «إِنْ كُنْتُمْ - وَأَنْتُمْ نورُ الْجَسَدِ - تَبَيَّنُونَ وَلَا تَرْتَدُونَ، فَهُوَ ذَا كُلِّ جَسَدِ الْعَالَمِ يَسْتَنِيرُ؛ أَمَّا إِنْ عَشَيْتُمُ الظُّلْمَةَ، وَأَنْتُمُ الثُّورُ، فَالظُّلْامُ - الَّذِي هُوَ الْعَالَمُ - كُمْ يَكُونُ!». فلأنَّ الرُّسُل صاروا نوراً، فقد أعطوا النُّورَ للمؤمنين وأضاءوا قلوبهم بالنُّور السَّمَاوِيَّ الَّذِي لِلرُّوحِ الْقَدِيسِ، الَّذِي بِهِ قَدْ حَصَلُوا هُمْ أَيْضًا عَلَىِ الْاسْتِنَارَةِ.

٥ - وكذلك لكون الرُّسُل ملْحَّاً، فإِنَّهُمْ كَانُوا يُصْلِحُونَ وَيُمْلِحُونَ كُلَّ نَفْسٍ مُؤْمِنَةً بِمَلْحِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ، لِأَنَّ الرَّبَّ قَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ مِلْحُ الْأَرْضِ» (مت ٥: ١٣)، فاصدًا بالأرض نفوس البشر، إذ إِنَّهُمْ أَمْدُوا نفوسَ البشر من الدَّاخِلِ بِالملحِ السَّمَاوِيِّ الَّذِي لِلرُّوحِ الْقَدِيسِ، مُصْلِحِينَ إِيَّاهَا وَجَاعِلِينَهَا سَلِلَةً وَغَيْرَ قَابِلَةَ لِلْفَسَادِ عِوْضًا عَنِ رَائِحَتِهَا التَّنَنَّةِ جَدًّا. لِأَنَّهُ كَمَا أَنَّ اللَّحْمَ مَا لَمْ يُمْلَحْ يَقْسِدْ وَيَمْتَلِئْ رَائِحَةً تَنَنَّةً جَدًّا، حَتَّىٰ إِنَّ الْجَمِيعَ يَنْفِرُونَ مِنْ هَذِهِ الرَّائِحةِ الْكَرِيَّةِ حِيثُ يَدِبُّ الدُّودُ فِي هَذَا اللَّحْمِ الْفَاسِدِ وَهُنَاكَ يَسْتَشِرِي وَيَغْتَذِي وَيَخْتَبِي، لَكِنْ عِنْدَمَا يَوْضِعُ الْمَلْحُ فِي أَنَّهُ يَقْتَلُ الدُّودَ الْقَابِعَ هُنَاكَ وَيَقْضِي عَلَيْهِ فَتَزُولُ الرَّائِحةُ التَّنَنَّةُ، إِذْ إِنَّ طَبِيعَةَ الْمَلْحِ ذَاكِهَا قاتِلَةً لِلْدُودِ وَمُزِيلَةً

للرائحة النّتنّة؛ هكذا أيضًا بنفس الطّريقة كلّ نفس لم تُملّح بالرّوح القدس وليس لها شرِكة مع الملّح السّماوي الذي هو قوّة الله، تفسد وتمتلئ من الرّائحة شديدة النّقَن التي للأفكار الشّرِيرة، حتّى إنَّ الله يُشيح بوجهه بعيدًا عن هذه الرّائحة المُمتنّة النّكراء التي لأفكار الظلمة الباطلة والتي للأهواء السّاكنة في مثل هذه النّفس، ثمَّ يَدِبُّ فيها الدُّود الشّرِير البغيض الذي هو أرواح الشّرّ وقوّات الظلمة التي تَدِبُّ فيها وتستشرى وتحتبى وتزحف وتغتذى عليها وتفسدها، كما هو مكتوب: «أَنْتَنَتْ جِرَاحاتي وَفَسَدَتْ» (مز ٣٧: ٥). ولكن حينما تحرّب هذه النّفس إلى الله وتؤمن به وتطلب ملح الحياة أي الرّوح الصّالحة محب البشر، فحينئذ يأتي الملّح السّماوي ويقتل الدُّود البغيض ويزيل الرّائحة النّتنّة الكريهة ويُطهّر النّفس بفعل قوّته. وهكذا بعد ما تصير صحيحة سالمَةً بواسطة الملّح الحقيقي تُعِينَ من جديد لمنفعة سيدها السّماوي وخدمته. فإنَّه لأجل هذا أيضًا قد أمرَ الله في النّاموس، مستخدماً الرّمز، أنَّ كُلَّ ذيحة ملْحَ بملح^(١).

(١) انظر: لا ٢: ٤١٣ مز ٩: ٤٩.

[ج] المسيح يحيي النفس عن الخطية

٦ - لذلك فإنه كان يلزم أولاً أن تُذبح الذبيحة بواسطة الكاهن وقوت، وحيثئذٍ يُملح بعد تقطيعها وهكذا توضع على النار. فإن لم يذبح الكاهن الحروف أولاً وعمته، فلن يُملح ولن يقدم محرقة للسيد؛ هكذا نفوسنا أيضاً التي تأتي إلى المسيح رئيس الكهنة الحقيقي، يلزم أن تُذبح بواسطته وقوت عن فكرها وعن الحياة الشريرة أي الخطية التي كانت تحيا فيها، أي يلزم أن تخُرُج منها حيائنا (العتيقة) أي شر الأهواء. فكما أنه عندما تخُرُج النَّفْسُ من الجسد فإنه يموت ولا يعود يحيا الحياة التي كان يحيا فيها، فلا يسمع بعد شيئاً منها ولا يسلك بعد فيها؛ هكذا أيضاً حينما يذبح المسيح رئيس الكهنة السماوي حيائنا ويميتها عن العالم بنعمة قوته، تموت حيائنا عن سيرة الشَّرِّ التي كانت تحياها، ولا تعود تسمع أو تتكلم أو تسلك في ظلمة الخطية، لأنَّه بواسطة الْعِمَّة يخرج شر الأهواء من حياتنا وكأنَّه نَفْسُها. وهذا هو الرَّسُول يصرخ قائلاً: «قَدْ صُلِبَ الْعَالَمُ لِي وَأَنَا لِلْعَالَمِ» (غل ٦: ١٤)، لأنَّ النَّفْسَ الَّتِي لا تزال حيَّةً في العالم وفي ظلمة الخطية، وما ماتت بعد عن العالم، بل لا تزال محتفظةً في ذاتها بحياة الشَّرِّ، أي بفعل ظلمة أهواء الخطية، ولا تربح منقادةً لها، لا تكون من جسد المسيح ولا من

جسد النور، بل تكون جسداً للظلمة وتثبت من نصيب الظلمة؛ وبالمثل الذين لهم حياة النور أي قوة الروح القدس، فإنهم يكونون من نصيب النور.

٧ - لكن قد يقول لي أحد: "كيف تدعو النفس جسداً للظلمة رغم عدم خلقتها منها؟" افهم بانتباه واستقامة؛ فكما أن الشوب الذي أنت تلبسه قد هيأه آخر وصنعه وأنت تلبسه، وبالمثل أيضاً قد بني آخر بيئاً وصنعه وأنت تسكن فيه؛ بنفس الطريقة أيضاً لما تعدد آدم وصيّة الله وسمع للحية الشّريرة، يبع ورهن نفسه للشّيطان، فليس^(١) الشّرير النفس التي هي الخليقة الحسنة التي صنعها الله على صورته، كما يقول الرّسول أيضاً: «إذ جرَّد^(٢) الرّياضات والسلاطين أشهَرُهُمْ جهاراً، ظافراً بِهِمْ في الصَّلِيبِ» (كو ٢: ١٥). لأنّه من أجل هذا أيضاً كان مجيء الرّبّ، لكي يطردهم خارجاً، ويسترد بيته^(٣) الخاص وهيكله الذي هو الإنسان. ولأجل هذا فما دامت ظلمة الخطيئة لا تزال في النفس، فإنّ هذه النفس تدعى جسداً لظلمة الشرّ، لأنّها هناك تعيش للدّهر الشّرير الذي للظلمة وهناك أيضاً مُسكٍ. كما دعاها أيضاً بولس الرّسول "جسد الخطيئة"، وأيضاً: "جسم

(١) الفعل *ἐνδύομαι* = ليس، وهنا يصف القديس لبس الشّيطان للنفس.

(٢) الفعل *ἀπεκδύομαι* = تحرّر (أخذ من ثيابه)، وهو عكس الفعل السابق ذكره، وقد استشهد القديس بهذه الآية لبيان عمل الرّبّ في تحرير الشّيطان من لباسه الذي لبسه - أي النفس، أي أنّ الرّبّ «يُنْفِضُ أغْنَامَ إِبْرِيزِنَ» (يو ٣: ٨).

(٣) انظر: عب ٣: ٦.

الموت“، حينما قال: «لَكُنْ يُبْطِلَ جَسَدُ الْخَطِيئَةِ» (رو 6: 6)، وأيضاً: «مَنْ يُنْقِدُنِي مِنْ جَسَدٍ هَذَا الْمَوْتُ» (رو 7: 24). هكذا بالمثل النفس التي آمنت بالله، وأنفقت من الخطيئة، وأميّت عن حياة الظلمة، ونالت نور الروح القدس كحياة، فإنّها هناك تحيى وهناك أيضاً تليث إذ تمسك بنور الالاهوتية. فإنّ النفس ليست من طبيعة الالاهوت ولا هي من طبيعة ظلمة الشّرّ، لكنّها خلية عاقلة، بحّيّة، عظيمة، عجيبة، حسنة، على صورة الله ومثاله^(١)، ولكن بسبب التعدي قد دخل إليها شرّ أهواء الظلمة.

٨ - وبالنهاية فإنّ ما متنزع به النفس، تتحدّى معه أيضاً في مشيناتها، فإنّما أن تكون مقتنيّةً بالحقّ نور الله في داخلها وفيه تحيى في كلّ فضيلة، فتكون من خاصّة الثور والراحة؛ أو تكون مقتنيّةً ظلمة الخطيئة، فتلقى الدّينونة. وهكذا فإنّ النفس التي تريد أن تحيى عند الله، في راحة ونور أبدى، ينبغي لها - كما قلنا آنفاً - أن تأتي إلى المسيح رئيس الكهنة الحقيقي، وتُذبح وتموت عن العالم وعن حياتها السّالفة، حياة الظلمة والشّرّ، وتنقل إلى حياة أخرى وإلى سيرة إلهيّة. فكما أنّه حينما يموت إنسان في مدينةٍ ما لا يعود يسمع صوت أولئك الذين فيها ولا كلامهم ولا ضوضاءهم، بل لقد مات مرّةً وإلى الأبد وانتقل إلى موضع آخر حيث ليس

(١) انظر: تك ١: ٢٦.

أصوات أو صرائح من تلك المدينة؛ هكذا النفس أيضًا حينما تُذبح وتموت في مدينة شر الأهواء، التي كانت تقيم فيها وتحيا، فإنها لا تعود تسمع صوت أفكار الظلمة ولا يعود يسمع في داخلها كلام الفكر الباطل وصرافه ولا اضطراب أرواح الظلمة، بل إنها تنتقل إلى مدينة ممتلئة صلاحًا وسلامًا، مدينة نور اللاهوتية، وهناك تحيا وتسمع، وهناك تستوطن وتتكلّم وتفكّر، وهناك تعمل أعمالاً روحانية لائقة بالله.

٩ - فلتضرع إذاً نحن أيضًا أن نُذبح بواسطة قدرته، ونموت عن عالم الشر الذي للظلمة، وأن يقتل روح الخطيئة فينا، ونبس وننال الروح السماوي، ونتنقل من شر الظلمة إلى نور المسيح، ونستريح في الحياة إلى مدى الدهر. فكما أنه حينما تتسابق مركباتنا في ميدان والتي تقدم تعوق الأخرى وتنعها وتوقفها حتى لا تسبقها وتتقدمها إلى الغلبة؛ هكذا أفكار النفس وأفكار الخطيئة، فإنها تتتسابق في الإنسان، فإن حدث وسيق فكر الخطيئة، فإنه يعوق النفس وينعها ويجزها ويوقفها حتى لا تدنو إلى الله فتتغلب على الخطيئة. ولكن حالما يصعد الرَّبُّ نفسه ويمسك بزمام النفس، فإنه أبداً يغلب إذ يكون ماسِكاً بزمام مركبة النفس ومرشدًا لها في الطريق بحكمةٍ نحو المشيَّة السماوية الإلهية كلَّ حين، لأنَّه لا يحارب ضدَّ الشر، بل - إذ له القدرة والسلطان - ينتصر على الدُّوام.

وهكذا فإن الشاروبيم لا يُحملون إلى حيث يريدون هم أن يذهبوا، بل إلى حيث يقودهم الرَّاكِبُ عليهم والمسكُ بزمامهم؛ فحيثما يشاء هو، فهناك يذهبون وهو يحملهم، لأنَّه يقول: «وَكَانَتْ يَدُ إِنْسَانٍ تَحْتَهُمْ» (حز ١٠: ٢١، ٨)؛ كذلك أيضًا النُّفوس المقدسة، فإنَّ قائدها هو روح المسيح، وهو يُمسِك بزمامها ويرشدها في الطريق حيث يشاء، فمتى شاء: في أفكار ساوية، ومتى شاء: في الجسد، فأينما هو يشاء، فإنَّها تخدمه هناك. فكما أنَّ جناحي الطَّائر هما بمثابة قدميَن له، هكذا النُّور السَّماويُّ الذي للروح القدس يرفع أجنحةً أفكار النُّفوس المستحقة، ويرشدها في الطريق وقودها كما يرى هو.

[د] ويل لغافل ليس لها شركة الروح القدس

١٠ - فأنت إذا حين تسمع هذه الأمور، انتبه لذاتك إنْ كنت قد نلتها بالفعل والحق في نفسك، لأنَّها ليست كلماتٍ تقال ببساطة، ولكنَّها عمل الحق الصَّائِر في نفسك. فإنْ لم تكن قد اقتبستها بعد بل أنت مفتقر إلى مثل هذه الخيرات الروحية العظيمة، فينبغي أن يكون لك حزنٌ ونَفَخَ ووجع بلا انقطاع كمثل من لم يزل مائِنًا عن الملكوت؛ وكمثل مجروح اصرَّ دائمًا إلى الرَّبِّ وأطلب بيامان حتى تُؤهَلَ أنت أيضًا لهذه الحياة الحقيقة. فكما أنَّ الله لِمَا صنع هذا الجسد لم يعطيه أَنَّه من طبعه الخاص ومن ذاته يحيا ويغتصب ويشرب ويلبس ويختذل، بل جعل كلَّ تدبير حياته من

خارجه، إذ قد صنع الجسد عرياناً في ذاته، وبدون هذه الأمور التي من خارجه، أي بدون الغذاء والشراب واللِّياس، لا يستطيع أن يحيا، بل إنَّ كان الجسد يلبث وحده بطبيعته فقط ولا يقبل شيئاً من خارجه فإنه يفسد وينحل؛ على نفس المحوال النفس أيضاً، فرغم خلقتها على صورة الله، إلَّا أنها لا تملك التُّور الإلهي، لأنَّه هكذا قد دَبَّرَ الله لها وسُرَّ بأن تناول الحياة الأبدية، لكنْ ليس من طبيعتها المخاصة؛ بل من لاهوته هو ومن روحه ومن نوره الخاص تناول طعاماً وشراباً روحانياً ولباساً سماوياً - الأمور التي هي حياة النفس بالحقيقة.

١١ - فكما أنَّ حياة الجسد - كما سبق وقلنا - لا تكون من ذاته بل من خارجه أي من الأرض، وبدون الأشياء الخارجة عنه لا يستطيع هذا الجسد أن يحيا؛ كذلك النفس أيضاً بدون أن تولدَ منذ الآن لأرض الأحياء تلك^(١)، وتغتنمَ روحاً من هناك، وتنمو وتقدمَ في الرَّبِّ، وتكتسي من الألهوت بثواب البهاء الشَّماويَّ التي تفوق الوصف - بدون ذلك الغذاء لا تستطيع النفس أن تحيا في تمتع وراحة بغير فساد. ذلك لأنَّ الطَّبيعة الإلهية هي خبُزُ الحياة، ذاك القائل: «أَنَا هُوَ خُبُزُ الْحَيَاةِ» (يو ٦: ٣٥)، وأيضاً: «الْمَاءُ الْحَيُّ» (يو ٤: ١٠)، وأيضاً: «الْخَمْرُ الَّتِي تُفْرِخُ قَلْبَ الإِنْسَانِ» (مز

(١) انظر: مز ٢٧: ١٣.

٤٠٤ : ١٥)، وأيضاً: «رَبِّتُ الْبَهْجَة» (مز ٤٥: ٧)، وغذاءُ الرُّوح السَّمَاوِيَّ المُتَعَدِّدُ الأَنْوَاعُ، وثيابُ النُّورِ السَّمَاوِيَّةِ الْأَتِيَّةِ مِنَ اللَّهِ، فَفِي جَمِيع هَذِهِ تَكْمِنُ الْحَيَاةُ الْأَبْدِيَّةُ لِلنَّفْسِ. فَالوَلِيلُ لِلْجَسَدِ إِذَا أَكْتَفَى بِطَبِيعَتِهِ وَهُدُوْهَا لَأَنَّهُ يَفْسُدُ وَيَمُوتُ، وَالوَلِيلُ كَذَلِكَ لِلنَّفْسِ إِنْ هِيَ اكْتَفَتْ بِطَبِيعَتِهَا وَهُدُوْهَا، وَاتَّكَلَتْ عَلَى أَعْمَالِهَا فَقَطُّ، وَلَمْ تَقْتِنْ شَرِكَةَ الرُّوحِ الْقَدِيسِ^(١)، فَسُوفَ تَمُوتُ لَأَنَّهَا لَمْ تُحْسَبْ أَهْلًا لِحَيَاةِ الْأَلَاهُوتِ الْأَبْدِيَّةِ. فَكَمَا أَنَّهُ فِي حَالَةِ الْمَرْضَى حِينَ لَا يَعُودُ الْجَسَدُ قَادِرًا عَلَى تَقْبُلِ الْطَّعَامِ، فَإِنَّهُمْ يَأْسُونُ مِنْهُمْ وَيَكِيمُهُمْ جَمِيعُ أَصْدِقَائِهِمُ الْأَوْفِيَاءُ وَأَقْرَبَاوْهُمْ وَمَحْبُوهُمْ؛ هَكُذا أَيْضًا يَكِيِّيُ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ الْقَدِيسُونَ النُّفُوسَ الَّتِي لَا تَغْتَذِي بِالْطَّعَامِ السَّمَاوِيِّ الَّذِي لِلرُّوحِ الْقَدِيسِ وَالَّتِي لَا تَحْيَا فِي عَدْمِ فَسَادٍ^(٢). مَرْءَةٌ أُخْرَى أَيْضًا أَقُولُ إِنَّ هَذِهِ الْأَمْوَرَ لَيْسَتْ هِيَ كَلِمَاتٍ جَوْفَاءَ تُقَالُ، وَلَكِنَّهَا فِعْلٌ لِحَيَاةِ الرُّوحَانِيَّةِ، وَفِعْلٌ لِالْحَقِّ الصَّائِرِ فِي النَّفْسِ الْمُسْتَحْقَّةِ الْأَمِينَةِ.

١٢ - فَإِنْ كُنْتَ إِذَا قَدْ غَدَوْتَ عَرْشًا لَهُ، وَقَدْ جَلَسْتَ عَلَيْكَ الرَّاكِبُ السَّمَاوِيُّ، وَقَدْ صَارَتْ نَفْسُكَ كُلُّهَا عَيْنًا رُوحَانِيَّةً وَكُلُّهَا نُورًا، وَإِنْ كُنْتَ

(١) انظر: كوك ١٣: ٤١٤ في ٢: ١.

(٢) هَذَا التَّعْلِيمُ بِخَصْوصِ حَزْنِ اللَّهِ وَقَدِيسِيهِ وَبِكَائِهِمْ عَلَى النُّفُوسِ الصَّالِحةِ يُكَرِّرُهُ أَنْبَاءُ مَقَارِبِ الْعَظَةِ ١٥: ٢، كَمَا نَجَدْهُ أَيْضًا فِي رِسَالَتِ قَ. أَنْطَوْنِيوسِ (٥: ٤: ٦)، وَهُوَ يَشْبِهُ الْكَلَامَ عَنْ نَدْمِ اللَّهِ وَتَأْسُفِهِ الَّذِي وَرَدَ فِي الْكِتَابِ الْمَقْدُّسِ.

قد اغتنميت من ذلك الطعام الذي للروح القدس، وإن كنت قد سُقيت من الماء الحي، ولبست ثياب النور الفائق الوصف، وقد ثبت إنسانك الداخلي - عن اختبار ويقين - في جميع هذه الأمور، فها أنت تحيا، ونفسك تستريح منذ الآن مع رب بالحياة الأبدية الحقة، وتكون قد نلت وقيلت هذه الخيرات من عند رب بالحق لكي تحيا الحياة الحقيقية؛ أما إن كنت لا تدرك أيًّا من هذه الأمور في نفسك، فابك ونوح واحزن، لأنك ما نلت بعد الغنى الروحاني الأبدى وما قيلت بعد الحياة الحقيقية. فليكن لك إذا وجع إزاء فدرك هذا، متضررًا إلى رب ليلاً ونهارًا، لأنك قد سقطت في فقر الخطيئة المدعى. فيما ليت الإنسان يكون له وجع من أجل فقره، ويا ليتنا لا نقضى حياتنا بغير اكتراض وكأننا قد شبعنا، لأنَّ الذي له وجع وهو يفتش ويسأل رب بلا انقطاع^(١) يؤهل سريعاً للفداء والغنى السماوي، مثلما قال رب في ختام مثلي عن القاضي الظالم والأرملة: «كم بالآخرِ الله يُنْصِفُ الصَّارِخِينَ إِلَيْهِ لَيْلًا وَنَهَارًا! نَعَمْ أَقُولُ: إِنَّهُ يُنْصِفُهُمْ سَرِيعًا» (لو ١٨: ٧، ٨ - حسب النص). له المجد والسلطان إلى الدهور، آمين^(٢).

(١) انظر: تس ٥: ١٧.

(٢) انظر: بط ٤: ١١.

العظة الثانية

خلع الإنسان العتيق وليس الجديد

[عن مملكة الظلمة، أي مملكة الخطيئة، وأن الله وحده هو قادر أن ينزع منها الخطيئة وينقذنا من عبودية رئيس الشر]

- [أ] الإنسان العتيق الفاسد
- [ب] الله وحده يخلع عنّا الإنسان العتيق
- [ج] الإنسان الجديد هو يسوع المسيح فينا



[أ] الإنسان العتيق الفاسد

١ - إنَّ مملكة الظلمة، أعني رئيس الشر الذي سَبَّى الإنسان منذ البدء^(١)، قد أحاط بالنَّفْس وكساها بسلطان الظلمة، كما حينما يجعلون إنساناً ملِكًا ويُلِبسونه ثياباً ملوكيَّة، حتَّى إنَّه من رأسه إلى إصبع قدميه يتسرِّبل بشياب المُلُكِ؛ هكذا النَّفْس بكلِّ كيائناً قد كساها رئيس الشر بالخطيئة وأفسدها كلَّها وسبها بالثَّمام إلى مملكته، حتَّى إنَّه ما ترَك منها ولا جزءاً واحداً معتوقاً منه: لا الحواس ولا العقل ولا الجسد، بل كساها برداء مملكة الظلمة. فكما أنَّ الجسد لا يتأمَّل جزءاً منه أو عضواً منه بمفرده، بل

(١) انظر: تلك ٣.

يكون الجسد كله بكماله متألماً؛ هكذا النفس أيضاً قد تألمت بكليتها بأهواء الشر والخطيئة، إذ إن الشّرير قد ألبس النفس كلها - التي هي العنصر والعضو الأساسي للإنسان - ألبسها شرّه، أي الخطيئة، فأمسى الجسد هكذا مُستهدفاً للثّالم والفساد.

٢ - لأنّ الرّسول حين يقول: «إِخْلَعُوا إِلَيْنَا الْعَتِيقَ» (أف ٤: ٢٢؛ كو ٣: ٩)، إنّما يقصد إنساناً كاملاً له أعيين عوضاً عن أعين، ورأساً عوضاً عن رأس، وأذنًّا عوضاً عن أذن، وأيادي عوضاً عن أيادي، وأرجلًّا عوضاً عن أرجل. فلقد لوث الشّرير الإنسان بكماله نفساً وجسداً، وكسا الإنسان بإنسانٍ عتيقي ملوثٍ نجسٍ معادٍ لله، غير خاضع لناموس الله^(١)، بل هو الخطيئة بعينها، حتى إنّ الإنسان لا يعود يرى بعدَ كما يشاء هو، بل ينظر نظراً شريراً، ويسمع سمعاً شريراً، وتصير رجلاً سريعاً إلى فعل الشر^(٢)، ويداه مفترقتين للإثم^(٣)، وقلبه مفتكرًا بالشّرور.

(١) انظر: رو ٨: ٧.

(٢) انظر: أم ١: ١٦ رو ٣: ١٥.

(٣) انظر: مز ٢٦: ١٠.

[ب] الله وحده يخلع عنّا الإنسان العتيق

فلنتضرع إذاً نحن أيضاً إلى الله لكي يخلع عنّا الإنسان العتيق، إذ إنّه هو وحده القادر أن يزِّعَ مِنَ الخطىء^(١)، لأنّ أولئك الذين سَبَّوْنا وأمسكُونا في مملكتهم هم أقوى منا، ولكته وعدنا أن ينقذنا من هذه العبوديَّة الشَّرِّيرة. فكما أنَّه حين تشرق الشَّمس ويتفق أن تَهُبَّ معها الرياح، ورغم أنَّ لكلِّ من الشَّمس والرياح طبيعته الخاصة وكينانه الخاص، إلَّا أنَّ أحداً لا يستطيع أن يفصل الرياح عن الشَّمس إلَّا الله وحده، ذاك الذي يُوقِف الرياح فلا تَهُبُّ بعد^(٢)؛ هكذا أيضاً الخطىء التي امتنجت بالنَّفس، رغم أنَّ لكلِّ من الخطىء والنَّفس طبيعته الخاصة.

٣ - إذَا، فهو ضربٌ من المستحيل أنْ تنفصل النَّفس عن الخطىء ما لم يُوقِف الله هذه الريح الشَّرِّيرة المُسَاكنة في النَّفس والجسد وبِنُوكِمها. كما لو أنَّ هناك أحداً يشاهد طائراً محَلِقاً، وواتنه الرَّغبة هو أيضاً أن يطير، فما يستطيع ذلك لأنَّه لا يملك أجنحةً يطير بها؛ هكذا أيضاً حال الإنسان الذي تكون ”الإرادة حاضرةٌ عندَه“^(٣)، لأنَّه يصبح طاهراً وبلا لوم ولا دنس، وأن لا يقتني شرّاً في نفسه بل يكون على الدَّوام مع الله، ولكن لا قدرة له

(١) انظر: أبو ٣: ٥.

(٢) انظر: مر ٤: ٣٩، ٤١.

(٣) انظر: رو ٧: ١٨.

على ذلك. فإنه يروم التّحليل في الأجزاء الإلهيّة وفي حِيَّة الرُّوح القدس، لكنه ما لم يقتنِ أجنحةً فلن يستطيع ذلك. فلنفترض إذًا إلى الله، لكي يهمنا أجنحة حمامه - أجنحة الرُّوح القدس، حتّى نطير إليه ونستريح^(١)، وحتّى ينزع عن أنفسنا وأجسادنا الرِّيح الشّرِّيرة، أي الخطيئة السّاكنة في أعضاء نفوسنا وأجسادنا، ويوقفها، لأنّ له وحده القدرة على ذلك. فإنه قيل: «هُوَ ذَا حَمَلَ اللَّهُ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيئَةَ الْعَالَمِ» (يو ١ : ٢٩)، فهو وحده الذي صنع هذه الرّحمة لأولئك الذين آمنوا به من البشر حتّى يفتديهم من الخطيئة. فإنه لأولئك الذين يتظرون به دائمًا والذين يتربّونه والذين يسألونه بلا انقطاع، يصنع هذا الخلاص الذي لا يعبر عنه.

٤ - فكما يحدث في ليلة قاتمة مظلمة، حينما تهبّ ريح عاصفة فتُحرّك كلّ الأشجار والنباتات وتُنفّذ خلالها وتُمثّلها هنا وهناك؛ هكذا أيضًا الإنسان الساقط تحت سلطان ليل ظلمة الشّيطان والقابع في ليل وظلم، “يهتزّ” بالرياح العاصفة التي للخطيئة، التي تهبّ عليه فتُحرّكه وتُمثّله هنا وهناك وتُنفّذ خلال كلّ طبيعته ونفسه وأفكاره وعقله، فتضطرّب كلّ أعضائه الجسدانية ولا يكون عضوًّا من النّفس أو الجسد معتوًّا من الخطيئة

(١) انظر: مز ٥٥: ٦. وعن أجنحة الرُّوح، انظر: رسائل القديس أنطونيوس، الرّسالة ١٨: ٢، وبستان الرّهبان قول ٢٣٧.

الستاكنة فيها^(١) أو معاقي منها. على ذات المنوال هناك نهار نور، وهناك ريح الروح القدس الإلهية التي تحب فتنعش النفوس الكائنة في خمار التور الإلهي، وتنفذ خلال كل جوهر النفس والأفكار، وتنعش كل أعضاء الجسد وتريحها براحة إلهية لا يعبر عنها؛ هذا هو ما قاله الرسول: «لَسْنَا أَبْنَاءَ لَيْلٍ وَلَا ظُلْمَةً، جَمِيعُكُمْ أَبْنَاءُ نُورٍ وَأَبْنَاءُ نَهَارٍ» (اتس ٥: ٥ - حسب النص).

[ج] الإنسان الجديد هو يسوع المسيح فيما

وكما أتَه بالعَوَايَةِ في ذلك الزَّمان قد لَيْسَ الإِنْسَانُ الْقَدِيمُ (أي آدم) إِنْسَانًا شَرِيرًا كاملاً، فَتَسْرِيلُ بثياب مملكة الظلمة: ثياب تحدِيفٍ وعدم إيمانٍ وعدم حشيشة وغُجُبٍ وكبراءة ومحبة للمال وشهوة وبافي ثياب مملكة الظلمة، تلك الخِرَق النَّجْسَة الدَّنَسَة؛ هكذا أيضًا الآن جيءُ الذِّين قد خلعوا الإِنْسَانَ الْعَتِيقَ الْأَرْضِيَّ الَّذِي من أَسْفَلِ، وَالَّذِين قد خَلَعُ عنهم يسوع ثياب مملكة الظلمة، هؤلاء قد لَيْسوا الإِنْسَانَ الْجَدِيدَ السَّمَاءِويَّ^(٢) الَّذِي هو يسوع المسيح، وصار لهم أعيين عوضًا عن أعينِ وآذانَ عوضًا عن آذانِ ورأسَ عوضًا عن رأسِ، حتَّى يغدو إِنْسَانُهُمْ الْجَدِيدَ نقِيًّا بالكليَّة وحاملاً الصُّورَةَ السَّمَاءِويَّةَ.

(١) انظر: رو ٧: ١٨، ١٧.

(٢) انظر: إِكْو ٤٧: ١٥ - ٤٩.

٥ - فلقد ألبسهم الرَّبُّ ثياب مملكة النُّور الَّذِي لا يُعَبِّرُ عنه: ثياب إيمانٍ ورجاءٍ ومحبةٍ وفرحٍ وسلامٍ وصلاحٍ ولطفٍ^(١) وكلٌّ ما يتبعها من الثياب الإلهية الحية، ثياب نورٍ وحياةٍ وراحٍ لا يُنطَقُ بها، حتٍّى كما أنَّ الله هو محبةٍ وفرحٍ وسلامٍ ولطفٍ وصلاحٍ، هكذا يصير الإنسانُ الجديد أيضًا بالنِّعمَة. وكما أنَّ الخطيئةٍ ومملكة الظلمة كلتيهما مخفيتان في النفس حتٍّى يوم القيمة، حيث يتغطَّى جسدُ الخطأة هو أيضًا بالظلمة المخفية في النفس منذ الآن؛ كذلك أيضًا مملكة النُّور والصُّورة السَّماوية، أي يسوع المسيح، يُنير النفس سرًّا منذ الآن، ويملك داخل نفوس القديسين. ورغم أنَّه مُخفٍ عن أعين الناس، إلَّا أنَّه - أعني المسيح - يُرى بالحقيقة بأعين النفس فقط، وذلك حتٍّى يوم القيمة حيث يتغطَّى الجسد هو أيضًا بنور الرَّبِّ ويتمجَّد به، ذلك النُّور الكائن منذ الآن في نفس الإنسان، حتٍّى يملك الجسد هو أيضًا مع النفس الَّتي منذ الآن قد نالت ملائكة المسيح واستراحت بالنُّور الأبدِي واستنارت به. فالمجد لرأفاته وشفقته، لأنَّه يرحم عبيده وينيرهم وينقذهم من مملكة الظلمة وينعم عليهم بنوره الخاص وملكته الخاص، له المجد والسلطان إلى الدُّهور، آمين.

(١) انظر: غل ٥: ٢٢، ٢٣.

العظة الثالثة

المحبة الأخوية، ومقاتلة الأفكار

[إلي الله ينبني للإخوة أن يسلكوا من نحو بعضهم البعض بإخلاص وبساطة ومحبة وسلام، وكذلك أن يكون لهم قتالاً وحرباً مع أفكارهم الداخلية]

[ب] صورة مقاتلة الأفكار

[أ] أساس المحبة الأخوية



[أ] أساس المحبة الأخوية

١ - يتلزم الإخوة أن يحيوا معاً في محبة شديدة ببعضهم البعض، سواء كانوا يصلون أو يقرأون في الكتب المقدسة أو يعملون أي عمل آخر، وذلك حتى يقتنوا أساس المحبة من نحو بعضهم البعض، وهكذا يمكن أن تتحقق المسرة وسط تلك المشارب، ويمكن للجميع - الذين يصلون والذين يقرأون والذين يعملون - أن ينتفعوا حين يسلكون من نحو بعضهم البعض في بساطة وإخلاص. لأنّه لماذا كتب: «لِتَكُنْ مَشِيئَتُكُوكَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ» (مت ٦: ١٠)؟ حتى كما أنّ الملائكة الذين في السماوات يحيون معاً في اتفاق عظيم وفي محبة وسلام ولا يوجد بينهم أيّ كبراء أو حسد، بل يعيشون معاً في محبة وإخلاص؛ هكذا أيضاً يكون

الإخوة بعضهم مع بعض. فقد يكون هناك ثلاثون أخاً يعيشون معاً تحت تدبير واحد، ولكنّهم لن يستطيعوا أن يثابروا على نفس العمل كلَّ النَّهار وكلَّ الليل؛ فمنهم مَنْ يُكِرِّس ذاته للصَّلاة ملدة سَتْ ساعات ثمَّ يرغب بعد ذلك في القراءة، ومنهم مَنْ يخدم بعَيْرَة، ومنهم كذلك مَنْ يعمل أيَّ عملٍ آخر.

٢ - فينبغي للإخوة إِذَا، أَيًّا كان عملهم، أن يعيشوا في محبَّةٍ وفريجٍ فيما بينهم؛ فذاك الذي يعمل ليُقْلِن عن أخيه الذي يصلِّي: «إِنَّ الْكَنْزَ الَّذِي يقتنيه أخِي إِنَّمَا هُوَ مُشَتَّرٌ، لَذَلِكَ فَهُوَ لِي أَنَا أَيْضًا»؛ والَّذِي يصلِّي ليُقْلِن عن الذي يقرأ: «إِنَّ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ ذَاكُ مِنَ الْقِرَاءَةِ يَؤُولُ لِفَائِدَتِي أَنَا أَيْضًا»؛ وأمَّا الذي يعمل فليُقْلِن: «إِنَّ الْخَدْمَةَ الَّتِي أَعْمَلُهَا إِنَّمَا هِيَ لِنَفْعَةِ الْجَمَاعَةِ».

فإِنَّ «كُلَّ أَعْضَاءِ الْجَسَدِ إِذَا كَانَتْ كَثِيرَةً هِيَ جَسَدٌ وَاحِدٌ»^(١)، وهي تؤازر بعضها بعضاً، ورغم أنَّ كُلَّاً منها يُتَعَمِّم عمله الخاصّ، إِلَّا أَنَّ العين تنظر من أجل الجسد كُلِّه، واليد تعمل من أجل كُلِّ الأعضاء، والقدم أيضاً تسير حاملةً كُلَّ الأعضاء، بل وكُلُّ عضو يتألَّم مع بقية الأعضاء^(٢)؛ هكذا فليكن الإخوة بعضهم مع بعض: فلا يَدِنِ الَّذِي يصلِّي أخاه الَّذِي يعمل، قائلاً: «لَمْ لَا يَصْلِي؟»، ولا يَدِنِ الَّذِي يعمل أخاه الَّذِي يصلِّي، قائلاً: «إِنَّ ذَاك

(١) كوكو ١٢: ١٢.

(٢) انظر: كوكو ١٢: ٢٦.

مستريح بينما أنا أعمل“، وكذلك الذي يخدم لا يدين غيره. بل بالحربي إن عمل أي أحد عملاً فليكن «لِمَجْدِ اللَّهِ»^(١)، فالذي يقرأ يقبل بمحبته وفرح ذاك الذي يصلّي، مفكراً هكذا: “إِنَّهُ مِنْ أَجْلِي يَصْلِي“، والذي يصلّي يفكّر من أجل الذي يعمل هكذا: “إِنَّ مَا يَعْمَلُهُ إِنَّمَا يَعْمَلُهُ لِلْمَفْعَةِ الْمُشْتَرَكَةِ“.

٣ - وهكذا يمكن بهذا الاتّفاق العظيم والسلام والانسجام أن يرتبط الإخوة بعضهم ببعض «بِرِّبَاطِ السَّلَامِ»^(٢)، وأن يعيشوا معًا في نقاوة وبساطة ومسرة الله. إلا أن هناك أمراً يفوق في أهميّته جميع هذه الأمور وهو المواظبة^(٣) على الصّلاة، فَشَمَّةٌ مَطْلُبٌ واحِدٌ وهو أن يقتني كُلُّ أحدِ الْكُنْزَ في نفسه، والحياة – التي هي الرَّبُّ – في عقله، حتّى إذا كان يعمل أو يصلّي أو يقرأ، تكون له تلك القنية التي لا تزول، التي هي الرُّوح القدس.

(١) كو ١٠: ٣١.

(٢) أف ٤: ٣.

(٣) من الفعل προσκαρτερέω يواظب، يثابر، يتأبّب، ونفس هذا الفعل جاء في العهد الجديد مرتبطاً أيضًا بالصلوة في سبعة مواضع، وترجم بـ ”المواظبة“: (أع ١: ١٤؛ ٤٢: ٢؛ ٤٢: ٤٦؛ رو ١٢: ٦؛ ٤١: ٦؛ أف ٤: ١٨؛ كو ٤: ٢)؛ انظر أيضًا: العظة ١٩: ١٩؛ ٤٠: ٤١؛ ٤٤: ٦.

[ب] ضرورة مقالة الأفكار

غير أن البعض يقولون: ”إنَّ الرَّبَّ إِنَّمَا يطالِبُ النَّاسَ بِالثِّمارِ الظَّاهِرَةِ فَقْطًا، وأَمَّا الْأَمْوَارُ الْخَفِيَّةُ فَهُوَ يُؤْمِنُ بِهَا“، لكن ليست الأمور هكذا هي، بل كما يُضْبِطُ الإِنْسَانُ الظَّاهِرَ، كذلك ينبغي أيضًا أن يكون هناك قتالٌ وحربٌ مع الأفكار، لأنَّ الرَّبَّ يطالِبُكَ بِأَنْ تغضِبَ عَلَى ذَاتِكَ وَتُصْنَعَ حِرَبًا ضَدَّ فَكْرِكَ وَلَا تَوَافَقَ أَفْكَارَكَ الشَّرِّيرَةِ أَوْ تُسْرَّ بِهَا.

٤ - وأَمَّا استئصال الخطيئة والشَّرِّ الملازم له فإنَّما يمكن تحقيقه بالقدرة الإلهية وحدها، إذ ليس في مُكْنَةِ الإِنْسَانِ أو استطاعته أن يقتلع الخطيئة بقدرته الخاصة؛ فلَكَ أَنْ تصارِعَهَا وتحارِبَهَا وتتصارِبَكَ وَتُتصارِبَكَ، وأَمَّا استئصالها فهو لِللهِ. وإنَّما كنتَ تستطيع هذا، فمَاذا كانت الحاجة إلى مجيء الرَّبِّ؟! فَكَمَا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ للعينِ أَنْ ترى بدون نور، ولا يمكن الكلام بدون لسان، ولا السَّمْع بدون آذان، ولا المسير بدون أقدام، ولا العمل بدون أيادي، كذلك أيضًا لا يقدر أحدٌ بدون يسوع أن يخلص^(١) أو يدخل ملوكوت السَّمَاوَاتِ^(٢). أمَّا إِنْ كنتَ تقول: ”حيث إنِّي لستُ أَزِي من الخارج أو أَفْسُق ولستُ محبًا للملائكة، فأنا باز“، فإنَّكَ

(١) انظر: مت ١: ٢١؛ أع ٤: ١٢.

(٢) نفس هذا التَّشبيه سيسوقه القديس في عطية تالية (انظر: العضة ١٧: ١٠).

بهذا القول تكون قد ضللتَ، مُتَوَهِّمًا في نفسك أَنَّكَ أَكْمَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ. فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَلَاثَ خَطَايَا فَقَطْ هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي لِلنَّاسِ الْاحْتِرَامُ مِنْهَا، بَلْ هِيَ رِبَوَاتٌ: فَأَيْنَ عَدْمُ الْخَشْيَةِ وَالصَّلْفِ وَعَدْمُ الإِيمَانِ وَالْبَغْضَةِ وَالْحَسْدِ وَالْمُكْرَرِ وَالرِّيَاءِ؟ أَوْمَا يَجُبُ عَلَيْكَ أَنْ تَجَاهِدَ وَتَصَارِعَ ضَدَّ هَذِهِ فِي أَفْكَارِكَ الدَّاخِلِيَّةِ؟ فَكَمَا أَنَّهُ إِنْ كَانَ فِي بَيْتِكَ لَصٌّ، فَإِنَّهُ يُورِثُكَ الضَّيْقَ فَلَا يَهْدِي لَكَ بَالَّ، فَتُشَرِّعُ أَنْتَ أَيْضًا تَصَارِعَهُ وَتَصَارِعَهُ وَيَصَارِعُكَ؛ كَذَلِكَ أَيْضًا يَنْبَغِي لِلنَّفْسِ أَنْ تَصَارِعَ وَتُحَارِبَ وَتُصَارِبَ.

٥ - وَهَكُذا إِنَّ الْبَيْنَةَ إِنَّهُ هِيَ حَارِبَتْ وَصَارَ لَهَا جَهَادٌ وَضِيقٌ، فَمَا تَلَبِّثُ أَنْ تَصِيرَ لَهَا الْيَدُ الْعَلِيَا؛ فَهِيَ تَسْقُطُ ثُمَّ تُقْيِيمُ نَفْسَهَا ثُمَّ تُسْقِطُهَا الْخَطِيئَةُ أَيْضًا، بَلْ وَفِي عَشَرَةِ حَرَوبٍ أَوْ عَشَرِينَ تُغَلِّبُ مِنَ الْخَطِيئَةِ وَتَسْقُطُ، وَلَكِنْ بَعْدِ مَرْوُرِ زَمْنٍ مَا، وَفِي مَعرِكَةٍ وَاحِدَةٍ تُغَلِّبُ النَّفْسُ الْخَطِيئَةُ، فَإِذَا مَا صَبَرَتْ وَلَمْ تَرْتَخِ فِيْهَا قَلِيلًا قَلِيلًا تَبْدِأْ تَنْتَعِشُ وَتَقْتَنِي الْإِفْرَازُ وَتَصِيرُ لَهَا الْغَلَبةُ عَلَى الْخَطِيئَةِ. وَلَكِنْ حَتَّى وَإِنْ بَلَغَتْ هَذَا، فَالْخَطِيئَةُ لَا تَنْفَكُ تَتَمَكَّنُ مِنَ النَّاسِ إِلَى أَنْ يَلْبِغَ إِلَى «رَجُلٍ كَامِلٍ، إِلَى قِيَاسِ قَائِمَةِ الْمَسِيحِ»^(١)، وَيَغْلِبُ الْمَوْتُ بِالْتَّمَامِ، لَأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «آخِرُ عَدُوٍّ يَنْيَطُهُ هُوَ الْمَوْتُ» (١٥: ٢٦)، مِثْلُ هَذِهِ النُّفُوسِ هِيَ الَّتِي تَصِيرُ لَهَا الْيَدُ الْعَلِيَا وَتَظْفَرُ بِالشَّيْطَانِ. وَلَكِنْ إِنْ

.١٤٦ (١) آف٤: ١٣

قال أحد - كما ذكرنا آنفًا - ”إِنِّي لَا أُرْزِقُ وَلَا أُفْسِدُ مَالًا، وَحَسْبِيُّ هَذَا“، فِمِثْلِهِ هَذَا يَكُونُ قَدْ جَاهَدَ ضِدَّ ثَلَاثَةِ صُنُوفٍ فَقَطْ، وَأَمَّا ضِدَّ عَشْرِينَ أُخْرِيَّ تَقْاتِلَ بِهَا الْخَطِيئَةُ النَّفْسُ فَمَا جَاهَدَ بَعْدَ بَلْ إِنَّهُ مَغْلُوبٌ مِّنْهَا، لِذَلِكَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْارِبَ وَيَجْاهِدَ ضِدَّ الْجَمِيعِ. هَذَا وَإِنَّ الْعُقْلَ - كَمَا قَلَّنَا مَرَارًا كَثِيرًا - هُوَ نِدٌّ مَعَادِلٌ وَلَهُ قُوَّةٌ مَسَاوِيَّةٌ لِقُوَّةِ الْخَطِيئَةِ فِي رَفْضِهِ لِإِيمَانِهَا الشَّرِيرَةِ وَمَقَوْمَتِهِ إِيَّاهَا.

٦ - لَأَنَّكَ إِنْ كُنْتَ تَقُولُ: ”إِنَّ الْقُوَّةَ الْمَعَادِيَّةُ هِيَ أَشَدُّ، وَإِنَّ لِلشَّرِّ سُلْطَانًا أَنْ يَمْلِكَ عَلَى الْإِنْسَانِ بِالْتَّمَامِ“، فَإِنَّكَ بِهَا تَجْعَلُ اللَّهَ ظَالِمًا إِذْ يَدِينُ الْبَشَرِيَّةَ الَّتِي خَضَعَتْ لِلشَّيْطَانِ الَّذِي هُوَ أَقْوَى مِنْهَا وَيُخْضِعُهَا لَهُ كُرْهَهَا. فَهَلْ بَعْدَ أَنْ جَعَلْتَ الشَّيْطَانَ أَعْظَمَ وَأَقْوَى مِنَ النَّفْسِ، تَعُودُ وَتُوصِّيَنِي قَائِلًا: ”لَا تُطِعْهُ“؟! كَمِثْلِ شَابٍ يُصَارِعُ وَلَدًا فِي غَلْبَتِهِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُدَانُ هَذَا الْوَلَدُ عَلَى هَزِيْمَتِهِ! هَذَا ظَلَمٌ جَائِرٌ. مِنْ أَجْلِ هَذَا نَحْنُ نَقُولُ: ”إِنَّ الْعُقْلَ هُوَ نِدٌّ مَعَادِلٌ وَمَسَاوِيٌّ“. مِثْلُ هَذِهِ النَّفْسِ حِينَما تَطْلُبُ فِيَّا تَنَالُ مَعْوِنَةً وَمُعَاضِدَةً وَتَؤَهَّلُ لِلْفَدَاءِ، لَأَنَّ الْحَرْبَ وَالْجَهَادَ وَضَعِعاً عَلَى أَسَاسِ تَسَاوِي الْقُوَّةِ. فَلَنْمَحِّدَ الْآبَ وَالابنَ وَالرُّوحَ الْقَدْسَ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ، آمِينٌ.

العظة الرابعة

الروح القدس واهب الإفراز ومُضرِّم القلب

[في أنه يجب على المسيحيين أن يكملوا سعيهم في هذا العالم باتباعه
وتدقيق، حتى ينالوا المديح السماوي من الله والملائكة]

[هـ] الرَّبُّ لا يرجُونا رجوعنا إليه

[وـ] لطف الله وصرامته

[زـ] حذار حذار من اليأس

[أـ] الإفراز عِيْنَ للنفس

[بـ] الرُّوح القدس يهينا الإفراز

[جـ] تمثُّلُ الرَّبِّ واستعلانه لنا

[دـ] الأخلال من الكل والنِّساق بالرَّبِّ



[أـ] الإفراز عِيْنَ للنفس

١ - إنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُكَمِّلُوا حِيَاكُمُ الْمُسِيْحِيَّةَ بِتَدْقِيقِ كَثِيرٍ، يُلْزِمُهُمْ
- قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ - أَنْ يَعْتَنُوا بِكُلِّ قُوَّتِهِمْ بِمَلَكَيِّ الْبَصِيرَةِ^(١) وَالْإِفْرَازِ اللَّتَّيْنِ
لِلْنَّفْسِ. لِأَنَّهُ إِذَا افْتَنَنَا التَّمْيِيزُ الْمُرْهَفُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ^(٢) وَمِيَّزَنَا فِي كُلِّ
حِينٍ الْأَهْوَاءِ الَّتِي قَدْ أَدْخَلَتْ - عَلَى خَلَافِ الطَّبِيعَةِ - إِلَى طَبِيعَتِنَا النَّفِيَّةِ،
أُمْكِنَنَا أَنْ نَدِيرَ أَنفُسَنَا بِلِيَافَةٍ وَبِلَا عَثْرَةٍ. وَهَكُذا حِينَما نَقْتَنِي الإِفْرَازُ بِمَثَابَةِ

(١) انظر: ١ يو: ٥

(٢) انظر: عب: ١٤

عينٍ تُمْيِّزُ بِهَا^(١)، يتسئّلُ لَنَا أَنَّ نُلْبِثُ بِلَا اِتِّحَادٍ بِإِيمَانِهِاتِ الشَّرِّ أَوْ ارْتِبَاطٍ بِهَا، فَنُسْتَحِقُّ بِذَلِكَ الْمَوْهَبَةِ الْإِلهِيَّةِ وَنُصْبِرُ جَدِيرِينَ بِالرَّبِّ. وَلَنُأَخْذُ مَثَلًا مِنَ الْأَمْوَارِ الْمَنْظُورَةِ، لَأَنَّ الْجَسَدَ يُشَابِهُ النَّفْسَ، وَأَمْوَارُ الْجَسَدِ تُشَابِهُ أَمْوَارَ النَّفْسِ، وَالْأَشْيَاءُ الظَّاهِرَةُ تُشَابِهُ الْخَفِيَّةِ.

٢ - فَكَمَا أَنَّ الْجَسَدَ لِهِ الْعَيْنُ مَرْشِدًا، وَحِينَ تَنْتَظِرُ فِي أَنْهَاكَ تَقْوِيدَ الْجَسَدِ كُلَّهُ بِاسْتِقَامَةِ، فَلَتَتَصَوَّرُ مَعِي اِمْرَأًا يَسْلُكُ وَسْطَ أَدْغَالٍ مُّوْحَلَّةٍ مُّلْوَءَةٍ أَشْوَاكًا، قَدْ شَبَّتْ فِيهَا النَّبِرَانُ، وَتُبَيَّنَتْ فِي أَرْضِهَا سَيِّفُ، وَحَوْتُ جُرُفًا تَحْوِي إِلَى مِيَاهٍ عَمِيقَةٍ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ نَشِيطًا مُجْتَهِدًا رَشِيقًا، لَهُ عَيْنَهُ قَائِدًا لَهُ، فَإِنَّهُ يَجْتَازُ مِثْلَ هَذِهِ الْمَوْاْضِعَ الْخَطَرَةِ بِيَقْظَةٍ شَدِيدَةٍ، فَيَضْمُمُ إِلَيْهِ ثُوبَهُ مِنْ كُلِّ جَهَةٍ بِيَدِيهِ وَقَدْمِيهِ لَثَلا يَتَمَرَّقُ مِنَ الْأَدْغَالِ وَالْأَشْوَاكِ، أَوْ يَتَسَخُّ مِنَ الْأَوْحَالِ، أَوْ يَنْقَطِعُ مِنَ السَّيِّفِ. وَلَأَنَّ عَيْنَهُ نُورُ جَسَدِهِ، فِي أَنْهَاكَ تَقْوِيدَ الْجَسَدِ كُلَّهُ حَتَّى لا يَسْقُطُ فِي الْجُرُفِ أَوْ يَغْرِقُ فِي الْمِيَاهِ أَوْ يَلْحِقُهُ ضَرَرٌ مِنْ أَيِّ خَطَرٍ آخَرِ. وَهَكُذا إِذْ يَسْلُكُ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ الْمُتَشَدِّدَ الْحَكِيمَ بِكُلِّ يَقْظَةٍ وَيَجْمِعُ إِلَيْهِ ثُوبَهُ، وَتَقْوِيدُهُ عَيْنُهُ فِي طَرِيقِهِ بِاسْتِقَامَةِ، فَإِنَّهُ يَقْيِي نَفْسَهُ أَيَّ ضَرَرٍ وَكَذَا يَحْفَظُ عَلَى رَدَائِهِ الَّذِي يَلْبِسُهُ دُونَ أَنْ يَحْتَرِقَ أَوْ يَتَمَرَّقَ. أَمَّا إِنْ كَانَ الْمَسَافِرُ الْمُجْتَازُ مِثْلُ هَذِهِ الْمَوْاْضِعِ مُتَرَاخِيًّا كَسُولًا مُسْتَهْرِيًّا أَخْرَقَ مُتَوَانِيًّا، فَإِنَّهُ

(١) شَبَّهَ أَنْطُونِيوسُ أَيْضًا الإفرازَ بِالْعَيْنِ فِي قَوْلِهِ الشَّهِيرِ عَنِ الإفرازِ (بِسْتَانُ الرَّهْبَانِ - قَوْل٢٣).

يترك ثوبه هذا مُتهَدِّلاً هنا وهناك، وهكذا فإنما يتمزق من الأدغال والأشواك، أو يحترق من التيران، أو يتقطع من الشيوف المتشنة في الأرض، أو يتسلخ من الأوحال، لأنَّه لم يجمعه إليه من كلِّ جهةٍ برجولة. وبالإجمال فإنَّ هذا الإنسان يفسد ثوبه الجميل الجديد بأكثر سرعة بسبب إهاله ورخاؤه وكسله، بل وإنْ لم يتبته بنظريه جيداً وسريعاً، فإنه هو نفسه سوف يسقط في هُوَةٍ أو يغرق في المياه.

٣ - هكذا بنفس الطريقة النفس أيضاً، التي تلبس رداء الجسد كمثل ثوب جميل، وتسلك خلال أدغال الحياة وأشواكه، ووسط أوحالٍ ونيرانٍ وجُرُفٍ، أي الشهوات والمسرات وبقية أمور هذا الدَّهر الرَّديع، هذه النفس تقاد هي والجسد معَا باستقامةٍ بواسطة ملائكة الإفراز. لذلك وجب عليها أن تشدَّ وتحرسَ ذاتها وثوبها، أي الجسد، من كلِّ جانب بكلِّ يقظةٍ ورجولةٍ واجتهادٍ وانتباه، لئلا يتمزق بفعل أدغال العالم وأشواكه من هموم وانشغالاتٍ وملاهٍ أرضية، أو يحترق بفعل نار الشَّهوة. فطالما أنها لابسة ثوبها، فإنما تصُرِّف عينها عن نظر الشرور، وكذلك أذنها عن سماع التَّميمة، ولسانها عن التَّكلُّم بالأباطيل، ويديها وقدميها عن اقتراف السَّيِّئات. فإنَّ النفس لها الإرادة أن تَكُبَح أعضاء الجسد وتحوّلها بعيداً

عن النَّظارات الشَّيْرِيرَةِ وعن سَمَاعِ الْأَمْوَارِ الرَّدِيَّةِ الْقَبِيْحَةِ وعن الْكَلَامِ
الَّذِي لَا يَلِيقُ وَعَنِ التَّصْرِيفَاتِ الْعَالَمِيَّةِ الدَّمِيْمَةِ.

٤ - والنَّفْسُ أَيْضًا تَصْرِفُ ذَاهِنًا عَنِ الْجَوْلَانِ، حَارِسَةً قَلْبَهَا حَتَّى لَا
تَطْبِيشَ أَفْكَارُهَا فِي الْعَالَمِ. وَهَكَذَا إِذَا مَا صَارَعَتْ وَاجْتَهَدَتْ وَضَبَطَتْ
أَعْضَاءَ جَسَدِهَا عَنِ الْأَمْوَارِ الشَّيْرِيرَةِ، مِنْ كُلِّ جِهَةٍ بِحُرْصٍ شَدِيدٍ، فَإِنَّهَا
تَحْافَظُ عَلَى الرِّدَاءِ الْخَيْرِيِّ الَّذِي لِلْجَسَدِ بِلَا تَمْزُّقٍ أَوْ احْتِرَاقٍ أَوْ اتِسَاخٍ، وَهِيَ
ذَاهِنًا تُصَانُ بِوَاسِطَةِ مُشَيْعَتِهَا الَّتِي تَعْرِفُ وَتَعْقِلُ وَتَقِيرُ، غَيْرَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَتَمَّ
بِقَدْرَةِ الرَّبِّ. وَهِيَ حِينَ تَسْدُدُ ذَاهِنًا بِكُلِّ قَدْرِهَا وَتَتَحَوَّلُ عَنْ كُلِّ شَهْوَةٍ
عَالَمِيَّةِ، فَإِنَّهَا تَنَالُ هَكَذَا مَعْوِنَةً مِنَ الرَّبِّ لِكِي تُصَانَ بِالْحَقِّ مِنَ الشُّرُورِ
السَّابِقِ ذِكْرُهَا. لِأَنَّ الرَّبِّ حِينَ يَرِي إِنْسَانًا يَبْتَدِئُ بِنُبْلِي عَنِ مَسَرَّاتِ الْحَيَاةِ
وَالْمَلَاهِي وَالْاِهْتِمَامَاتِ الْمَادِيَّةِ وَالرِّبَاطَاتِ الْأَرْضِيَّةِ وَطَبِيعَةِ الْأَفْكَارِ
الْبَاطِلَةِ، فَإِنَّهُ يَهْبِطُ مَعْوِنَتِهِ الْخَاصَّةِ بِالنِّعَمَةِ، وَيَحْفَظُ عَلَى تِلْكَ النَّفْسِ الَّتِي
تَجْتَازُ حَسَنًا هَذَا الْعَالَمِ الْحَاضِرِ الشَّيْرِيرِ - يَحْفَظُ عَلَيْهَا مِنَ السُّقُوطِ.
وَهَكَذَا تَؤَهِّلُ النَّفْسُ لِلْمَدِيْعِ السَّمَاوِيِّ مِنَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ، لِأَنَّهَا صَانَتْ ثُوْبَهَا،
أَيِّ الْجَسَدِ، وَكَذَلِكَ ذَاهِنًا حَسَنًا، مُعْرِضَةً بِكُلِّ قَدْرِهَا عَنْ كُلِّ شَهْوَةٍ عَالَمِيَّةِ،
وَبِمَعْوِنَتِهِ أَكْمَلَتْ سَعْيَهَا حَسَنًا فِي مِيدَانِ هَذَا الْعَالَمِ.

٥ - ولكن إن كان أحدٌ يسلك في هذه الحياة برخاوة وبدون اكتراطٍ ولا حرص، ولا ينأى عن كل شهوات العالم بإرادته الخاصة، وإنْ كان لا يطلب الرَّبَّ وحده بكل شوقة، فإنَّه يُطعن بأشواك هذا العالم وأدغاله وبحرق ثوبه، أي جسده، من نار الشَّهوة ويتلَّوَث من وَحْل المسرّات. وهكذا لا يكون للنفس ثقةٌ في يوم الْدِّيْنُونَة^(١)، لأنَّها لم تستطع أن تحفظ ثوبها بلا دنسٍ بل أفسدَتَه بأباطيل هذا الدَّهْر، ومن أجل هذا فقد وُجِدَت مطروحةً خارج الملائكة. فماذا عَسَاه يَعْمَلُ اللَّهُ لِإِنْسَانٍ قد سَلَمَ نَفْسَه بمحض إرادته للعالم وانخدع بمسرّاته وضلَّ في متاهاته المادِّيَّة؟ فالله يَهْبِط معونته لمن يُعرِّض عن المسيرات المادِّيَّة وعن عاداتِه السَّالِفة، ويجتذب عقلَه بعزمٍ كَلَّا حينَ خَوَّهُ الرَّبَّ، منكراً نَفْسَه وطالباً الرَّبَّ وحده. مثل هذا الإنسان يحفظه الرَّبُّ، كونه يحرس نَفْسَه من كَلَّ جهَةٍ من مصايدِ هذا العالم المادِّي وأحابيله، ويتمم خلاصَه «بِخَوْفٍ وَرِعَدَةٍ»^(٢)، ويسلك بكلِّ انتباٰءٍ إزاء فخاخ هذا الدَّهْر وأشراكه وشهواته، ويطلب معونة الرَّبَّ، وبرحمته يرجو أن يخلص «بِالتِّعْمَة»^(٣).

(١) انظر: ١٧: ٤: ١٧.

(٢) ١٢: ٢.

(٣) أَفَ ٢: ٥. فلنلاحظ جيداً مبدأ الانسجام والتَّوافُق synergy بين الجهاد والتعمة، والذي ييزره القديس على مدى هذه العظة، في بساطة وإقناع.

[ب] الرُّوح القدس يهبنا الإفراز

٦ - فلننظر العذاري الخمس الحكيمات^(١) السَّاهرات المتيقظات الْلَّائِي أحذن في أوعية قلوبي ما هو غريب عن طبيعتهن، أي الرَّئِسُ الَّذِي هو نعمة الرُّوح القدس الَّتِي من فوق، وهكذا فإنَّه ممكِّن من الدُّخول مع العريس إلى الخِدْرِ السَّمَاوِي؛ أمَّا الآخريات الجاهلات القانعات بطبعتهن الخاصة فما تيقظن ولا اجتهدن لتأثيل "رَئِسِ الْبَهْجَةِ"^(٢) في آنيتهن وهن بعد في الجسد، بل نُمْنَى بسبب الإهمال والتَّرَاجِي واللامبالاة والجهالة أو بسبب ظُنُونِ الْبَرِّ في ذواتهن. من أجل هذا فقد خُرِّمَنْ من دخول خِدْرِ الملوكوت، إذ لم يستطعن أن يُرضِّين العريس السَّمَاوِي لآهَمِّ كُنْ مسوکاتٍ برباط العالم ومحبِّ الأرضيات، ولم يعطين حُبَّهُنْ وعشقَهُنْ بالتأمّام للعريس السَّمَاوِي، ولم يتألَّفَ الرَّئِسُ. أمَّا النُّفوس الَّتِي تطلب «تقديس الرُّوح»^(٣)، الَّذِي هو فائق لطبيعتها، فإنَّها تُعلِّقُ كلَّ حِبَّها بالرَّبِّ، وهناك تعيش وهناك تضع أشواقها وهناك تفكِّر، مُعرِّضةً عن كُلِّ الأمور الأخرى. من أجل هذا فإنَّها تُحسب أهلاً لنَيْلِ زيت التَّعمَّة السَّمَاوِية، وهكذا تستطيع

(١) انظر: مت ٢٥: ١ - ٤.

(٢) مز ٤٥: ٧. وهذا نجده أيضاً في القطعة الثانية من قطع الخدمة الأولى لصلة نصف الليل، تعقيباً كذلك على إنجيل العذاري العشر: "أضيبي (يا نفسي) مصباحك بزَيْتِ البَهْجَةِ".

(٣) تس ٢: ١٣؛ ١: ٢. بط ١: ٢.

أن تَعْبُر دون سقوطٍ وقد أرضت العريض الروحاني إلى التمام. على التَّقْيِيس من هذا، النُّفُوس الَّتِي تَقْبَعُ في طبيعتها، فِإِنَّهَا تَزَحَّفُ بِفَكْرِهَا عَلَى الْأَرْضِ، فَفَتَّكِرُ فِي الْأَرْضِيَاتِ وَهَتَّمُ بِمَا عَلَى الْأَرْضِ، وَرَغْمَ هَذَا تَظَنُّ أَنَّهَا مِنْ خَاصَّةِ العَرِيسِ لِكُونِهَا مُتَزَيِّنَةً بِالْفَرَائِصِ الْجَسَدِيَّةِ، بَيْنَمَا هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا لَمْ تُولِّدْ مِنْ فُوقَ، مِنْ الرُّوحِ الْقَدِيسِ، وَلَمْ تَقْبِلْ زَيْتَ الْبَهْجَةِ.

٧ - فِإِنَّ الْحَوَاسِ الْخَمْسَ الْعَقْلِيَّةَ^(١) الَّتِي لِلنَّفُوسِ، إِنْ هِيَ تَقْبَلُتِ الْعِمَّةِ الْفَوْقَانِيَّةِ وَتَقْدِيسِ الرُّوحِ، فِإِنَّهَا تَصْبِحُ بِالْحَقِّ خَمْسَ عَذَارِيِّ حَكَمَيَّاتٍ قَدْ نَلَنِ الْحَكْمَةَ الْعُلُوَّيَّةَ الَّتِي لِلنِّعَمَةِ. أَمَّا إِنْ لَبَّتْ قَانِعَةً بِطَبَيْعَتِهَا فَحَسْبٌ، فِإِنَّهَا تَصْيِيرُ جَاهِلَةً، وَيَبْيَّنُ أَنَّهَا مِنْ خَاصَّةِ الْعَالَمِ، إِذْ لَمْ تَخْلُعْ عَنْهَا «رُوحُ الْعَالَمِ»^(٢). وَرَغْمَ هَذَا، وَبِسَبِيلِ بَعْضِ الْأَقْوَالِ الْحَسَنَةِ الظَّاهِرِيَّةِ وَبَعْضِ الْمَظَاهِرِ الْخَارِجِيَّةِ، تَظَنُّ فِي ذَوَاتِهَا أَنَّهَا عَرَائِسُ الْلَّخْنِ. فَكَمَا أَنَّ النُّفُوسَ الَّتِي تَلْتَصِقُ بِالرَّبِّ^(٣) تَمَامًا وَبِالْكُلِّيَّةِ تَكُونُ هَنَاكَ بِفَكْرِهَا وَهَنَاكَ تَضَعُ أَشْوَاقُهَا وَهَنَاكَ تَعِيشُ وَهَنَاكَ تَتَوَقُّ إِلَى مَحْبَبَةِ الرَّبِّ، فَعَلَى التَّقْيِيسِ مِنْ هَذَا، تَلْكَ النُّفُوسُ الَّتِي تُكَبِّلُ مَحْبَبَةَ الْعَالَمِ وَتَشْتَهِي أَنْ تَكُونَ سِيرَهَا فِي الْأَرْضِ فِإِنَّهَا هَنَاكَ تَعِيشُ وَهَنَاكَ تَفْكِرُ وَهَنَاكَ يَنْشُغِلُ عَقْلُهَا، وَلَهُذَا فَلَا يَمْكُنُهَا طَلْبُ الْاِهْتِمَامِ الصَّالِحِ الَّذِي

(١) λογικαί = رُوحِيَّة، غَيْرِ مَادِيَّةٍ.

(٢) كِو١:٢.

(٣) انظر: كِو١:٦؛ كِو١٧:٧٢ مز٢٨ س.

للرُّوح^(١). فهناك ما هو غريبٌ عن طبيعتنا، أعني النِّعمة السَّماوية، يلزم أن يتَّحد بطبيعتنا ويلتحم بها حتَّى نستطيع أن ندخل مع الرَّبِّ إلى الخِلْدُر السَّماويِّ الَّذِي للملَكوت وننال الخلاص الأبديِّ.

٨ - فإننا تقبَّلنا في ذاتنا - بمعصية الإنسان الأوَّل^(٢) - ما هو غريبٌ عن طبيعتنا، أعني شر الأهواء، والَّذِي بات - من فرط اعتيادنا عليه وميلنا نحوه - بمثابة طبيعةٍ لنا. فهذا ينبغي أن يُطَرَّد ثانيةً بواسطة عطيَّة الرُّوح القدس السَّماوية، الَّتِي هي أيضًا غريبة عن طبيعتنا، وذلك حتَّى نستعيد النِّقاوة الأوَّلَى مَرَّةً أخرى. أمَّا إذا لم تقبل الآن تلك الحِجَّة السَّماوية الَّتِي للرُّوح القدس بالسُّؤال الكثير والتَّصرُّع والإيمان والصلَاة والإعراض عن العالم، وإذا كانت طبيعتنا المُلوَّثة بالشَّر لا تلتتصق بالحِجَّة الَّتِي هي الرَّبُّ، ولا تقدَّس بواسطة تلك الحِجَّة الَّتِي للرُّوح القدس، وإذا لم ثبتت إلى النِّهاية بلا سقوط، سالكين في كُلِّ وصَايَاه بتدقيق، فلن يمكننا تَنَيُّل الملَكوت السَّماويِّ.

(١) انظر: رو ٨:٦.

(٢) انظر: رو ٥:١٩.

[ج] تجسّد الرب واستعمله لنا

٩ - والآن أريد أن أتكلّم، قدر استطاعتي، عن أمرٍ دقيقٍ وعميقٍ، فانصتوا بانتباها! فإنَّ الله غَيْرَ المحدود الذي لا يُدْنِي منه^(١) غَيْرَ المخلوق، من أجل صلاحه الذي لا يُجْحَدُ ولا يُدْرِك، اتَّخَذَ لنفسه جسدًا، وصَغَرَ نفسه^(٢) – إن جاز القول – من مجده غَيْرَ المقترب إليه، وذلك لكي يتَسَنَّى له أن يتَّحد بخلائقه غَيْرَ المنظورة أي أنفس القدِيسين والملائكة^(٣)، حتَّى تستطيع هي بدورها أن تشتَرك في حياة الالاهوت^(٤). فإنَّ كُلَّاً من هذه الخلائق،

(١) انظر: ٦ : ٦.

(٢) أي أخلي نفسه.

(٣) توضيح لأهوي:

طبعاً لا يقصد أبداً مقارنة أنَّ الله أَحَدُ الله بالملائكة بمثل ما تجسّد في طبيعة البشر (انظر: عب: ٢)، ولكن:

أولاً: التَّجَسُّدُ صار له أثْرٌ غَيْرُ مباشر على كُلِّ الخليقة بما فيها الملائكة بصفتهم جزءاً من الخليقة، إذ إِنَّه في التَّجَسُّد قد اتَّخَذَ الخالق بال الخليقة. أُنظر المَقْلُ الذي يسوقه القَرِيبُ أثنا سبعمائة في كتابه "تجسّد الكلمة" (٩ : ٤، ٣)؛ "إذا سَكَنَ مَلِكُ في أحد بيوت مدِينة ما، فإنَّ المدِينة كُلُّها تصير لها كرامة بسبب ذلك؛ وهكذا إذا سَكَنَ الله في أحد أجساد بي البشر، صار لجميع بني البشر كرامة عَظِيمَ بسبب ذلك". ففيكتَنَا تكميل هذا المَقْلُ والمَمْتدَاد به بأنَّ يصير لبقية مدن هذه المقاطعة كرامة غير مباشرة، ذلك لأنَّ المَلِكَ سُكِنَ في إحدى مدن المقاطعة، وهكذا صار للملائكة بسبب التَّجَسُّدِ.

ثانياً: (أف: ١٠)؛ «تَذَبَّرْ مِنْ إِلَّا زَمَنَةً: أَنْ يَجْمِعَ كُلَّ شَيْءٍ (تحت رأس واحد) ανακεφαλαιώσασθαι في التَّسْبِيحِ، مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الْأَرْضِ». «مَا في السَّمَاوَاتِ أي أنَّ الملائكة سوف يكون لهم نصيبٌ ما في ذلك الانجماع الكلّي تحت رأس واحد في المسبح. (عن أحد آباء الديار)

(٤) انظر: بط ١ : ٤.

سواء كانت ملائكة أو نفساً أو شيطاناً، هو جسم بحسب طبيعته الخاصة. وهي، وإن تكن رقيقة في جوهرها وشكلها وصورتها بحسب رقة طبيعتها، فأجسامها رقيقة كذلك. فكما أنَّ هذا الجسد هو كثيفٌ في جوهره، كذلك النَّفس هي رقيقة، وهي تجمع إليها العينَ التي ترى بها والأذنَ التي تسمع بها واللِّسانُ الذي تتكلَّم به وكذلك اليدين؛ وبالإجمال فإنَّ النَّفس تجمع إليها جسمها كله، بما فيه من أعضاء، فيصير متَّحداً بها، وهي تعمل بواسطته كلَّ أعمال الحياة.

١٠ - هكذا أيضًا بنفس الطريقة، الله غير المحدود وغير المدرك، بصلاحه قد صَغَرَ نفسه، وليس أعضاء هذا الجسد، وأنزل نفسه من مجده غير المُدنى منه. وهو، لأجل لطفه ومحبته للبشر، يحييَّد نفسه مُعَيْراً هيئته، ويأخذ إلى النفس المقدسة الأمينة التي أرضته ويَتَّحد بها ويُصَرِّها - كقول بولس الرَّسول - روحًا واحدًا معه^(١)، ويغدو نفسًا للنفس - إن جاز القول - وكيانًا للكيان، لكي تستطيع النفس أن تحيي في اللاهوتية وتتدوَّق الحياة الخالدة وتشترك في المجد غير الفاسد، ذلك إنْ كانت هذه النفس مستريحَةً ومرضيَّةً عند الله. فإنْ كان الله قد خلقَ ممَّا لم يكن^(٢) هذه الخلية المنظورة بهذا التنوع والاختلاف الكثير، وهي قبل أن تخلق لم تكن موجودة، فشاء

(١) انظر: أ. كوكو ٦: ١٧.

(٢) انظر: عب ١١: ٣.

هو وخلق بسهولة ممّا لم يكن موجوداتٍ كثيفةً وصلبةً كالأرض والجبال والأشجار، وهذا أنت ترى كم هي ذات طبيعة صلبة. وبعد ذلك خلق خلائق متوسطة في كثافتها كالمياه والطّيور التي أمرَ أنْ تُخلق منها^(١)، وبعد ذلك خلق أيضاً أشياءً أكثر رقةً كالنّار والرياح، بل وما تبلغ رقتها حدّاً لا يُرى معه بعين الجسد.

١١ - فإنْ كان الإبداع غير المحدود ولا المنطوق به الذي لحكمة الله المتنوّعة^(٢) قد خلق - بحسب مشيئته - ممّا لم يكن أجساماً طبيعيةً أكثر كثافة وأخرى أكثر رقةً وثالثة أكثر رهافة، فكم بالأحرى ذاك الكائن كما يريد وأيّ ما يريد، من أجل لطفه غير الموصوف وصلاحه غير المدرك - كم بالأحرى يستطيع أن يُغَيِّر هيئة ويُصَفِّر نفسه ويُشاكلها بنا، وينجسّم للنّفوس المقدّسة المستحقة الأمينة، على قدر طاقتها، حتّى يصير وهو غير المرئي مرئياً لها، ويصير وهو غير الملموس ملماوساً للنّفس بقدر رقة طبيعتها. وهكذا تذوق هذه النّفوس حلاوته^(٣)، وتتمتّع - في خبرة حقيقة - بلطفي نور راحتته التي لا توصف. فمتي أراد يصير للنّفس ناراً تحرق كلّ هؤُلّى شريرٍ وغريبٍ فيها، إذ إله مكتوب: «إِنَّا نَارٌ أَكِلَّةٌ» (تث ٤: :

(١) انظر: تك ١: ٢٠، ٢١.

(٢) انظر: أف ٣: ١٠.

(٣) انظر: بط ٢: ٣؛ مز ١٩: ١٠.

٤٢؛ عب ١٢ : ٢٩)؛ ومتي أراد يصير لها راحهً تفوق الوصف والتَّعبير فتستريح النَّفس براحة الْأَلَهُوَيَّةِ؛ ومتي أراد يصير لها فرحاً وسلاماً يُدْفَئُها ويُعَانِقُها.

١٢ - فإنْ كان الله يريد أن يجعل نفسه مشابهاً لإحدى خلائقه من أجل ابتهاج خلائقه العاقلة وفرحها، أي أورشليم السَّماوِيَّة، مدينة التُّور وجبل صهيون السَّماوِي - كما هو مكتوب: «بَلْ قَدْ أَتَيْتُمْ إِلَى جَبَلِ صِهِيُونَ، وَإِلَى مَدِينَةِ اللَّهِ الْحَمِيِّ أُورْشَلِيم» (عب ١٢ : ٢٢) - فكُلُّ ما يريد هو مستطاع عنده، إذ إنَّ كُلَّ شيء سهلٌ ومبسورة لديه، فهو يتسلَّك بأي شكلٍ يريد لنفع النُّفوس الأمينة المستحقة له. فقط ليجاهدَنَّ الإنسانُ كي يصير حبيباً له، ومَرْضِيَاً عنده، وحينئذ سوف يختبر بالحقّ ويُحسَّنُ بل ويُرى الخيرات السَّماوِيَّة، واللَّذَّةُ الَّتِي لا توصف، وغَنَّ الْأَلَهُوتُ غَير المحدود، أي بالحقّ «مَا لَمْ تَرَ عَيْنَ، وَلَمْ تَسْمَعْ أَذْنَ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ إِنْسَانٍ»^(١)، ويصير روحُ الرَّبِّ نفْسَهُ راحهً وَهَلْلِيَّاً ولذَّةً وحياةً أبديَّةً للنُّفوس المستحقة. فإنَّ الرَّبَّ يجسِّدُ نفسه ليصير مأكلًا ومشربًا: ”مَأْكَلًا“ كما هو مكتوب في الإنجيل: «مَنْ يَأْكُلُ هَذَا الْحُبْزَ، فَإِنَّهُ يَعْيَا إِلَى الأَبَدِ» (يو ٦ : ٥٨)، وذلك لكي يريح النَّفَسَ براحةٍ لا يُطْقَ بـها

(١) ٢ : ٩ .

ويملاها بالفرح الروحاني، وهو يقول أيضًا: «أَنَا هُوَ حُبْرُ الْحَيَاةِ» (يو ٦: ٣٥)؛ وبالمثل فإنّه يصير "مشربًا" يتبع من بنبوغ سماوي، كما قال هو: «مَنْ يَشْرُبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيْهِ أَنَا، يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوْغَ مَاءً يَنْبُوْغُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ» (يو ٤: ١٤)، وكما قال الرسول: «وَجَعَلَنَا سُقِينَا شَرَابًا وَاحِدًا» (كرو ١٢: ١٣؛ ١٠: ٤).

١٣ - هكذا فإنّ الله قد ظهرَ لـكُلِّ واحدٍ من الآباء القدِيسين كما أراد هو، وبالطريقة التي فيها منفعة لـكُلِّ منهم^(١). فلقد ظهر لإبراهيم بطريقه، وبآخرٍ لإسحق، وبثالثةٍ ليعقوب، وبآخرٍ لنوح، وكذلك لدايال وداد وسلiman وإشعيا، ولـكُلِّ من الأنبياء القدِيسين. وأنا أرى أنَّ موسى على مدى الساعات التي قضاها على الجبل أربعين يومًا صائمًا^(٢)، كان يدخل إلى تلك المائدة الروحانية ويتلذّذ ويتمتع بها. وهكذا فإنّ الله ظهرَ لـكُلِّ واحدٍ من القدِيسين حسبما أراد هو، ليريحهم ويخلصهم ويقودهم إلى معرفته. فإنَّ كُلَّ ما يريد الله هو سهلٌ لديه، وحينما يشاء فإنه يُصغر نفسه ويُحييدها ويُغيّر هيئته ويصير مرئيًّا لأحبابه في مجدٍ نوره الذي لا يُدْنِي منه. وهكذا فإنه بحسب محبّته الكثيرة الفائقة الوصف وقدرته، يصير ظاهراً لأولئك الذين يستحقونه. فإنَّ النَّفْسُ الَّتِي - بشوقها الكبير وانتظارها،

(١) انظر: عب ١: ١.

(٢) انظر: خر ٢٤: ١٨.

وبايامها وحِتها - تُحسَب أهلاً لقبول تلك القوَّة من الأعلى^(١)، أي محبَّة الرُّوح القدس السُّماوية، والَّتي تنال النَّار السُّماوية الَّتي للحياة الحالدة، هذه النَّفس تتحلُّ بالحقُّ من كُلِّ محبَّة عالميَّة، وتتحرَّر من كُلِّ رُبُط الشَّرِّ.

[د] الانحلال من الكلّ والالتصالق بالورث

٤ - فكما أَنَّه حينما يُلقَى حديـد أو رصاص أو ذهب أو فضـة في النَّار، فإـنه ينحلُّ من طبيعته الصُّلبة ويتحولُ إلى الـليـونة، وبدوام تواجده في النَّار ينحلُّ ويـتغير من صـلابـته الطـبيعـية بـفعـل شـدـة حرـارة النـار؛ هـكـذا أـيـضاً بـنفس الطـرـيقـة النـفـس الـتـي قد انـكـرـت العـالـمـ، وصارـت تـحرـقـ شـوـقـاً إـلـى الرـبـ وـحدـه في طـلـبـ كـثـير وـكـدـ وجـهـادـ، واقتـلتـ اـنتـظـارـاً لـهـ لاـ يـنـقـطـعـ في رـجـاءـ وـإـيمـانـ، وـقـيلـتـ تـلـكـ النـارـ السـماـويـةـ الـتـي لـلـأـهـوـتـيـةـ وـالـتـي لـخـبـةـ الرـوـحـ القدسـ، فإـنـاـ حـينـذـاكـ تـنـحلـ بـالـحـقـيقـةـ مـنـ كـلـ مـحـبـةـ عـالـمـيـةـ، وـتـحرـرـ مـنـ كـلـ أـهـوـاءـ الشـرـ، وـتـحـسـبـ كـلـ شـيـءـ خـارـجـاـ عـنـهـاـ، وـتـحـولـ عـنـ عـادـاتـ طـبـيـعـتـهاـ وـعـنـ قـساـوةـ الـخـطـيـئـةـ، وـتـنـظـرـ إـلـىـ كـلـ أـشـيـاءـ أـنـاـ زـائـدـةـ لـاـ ضـرـورةـ لـهـ إـذـاـ مـاـ قـوـرـنـتـ بـالـعـرـيـسـ السـماـويـ الـوـحـيدـ الـذـيـ قـبـلـتـهـ، مـتـنـعـمـةـ بـمحـبـتـهـ المـتـقـدـدةـ الفـائـقةـ الـوـصـفـ^(٢).

(١) انظر: لو. ٤٩ : ٢٤.

(٢) يوجد قولً للأئمـا مقارـ في بـسـتـانـ الرـهـبـانـ يـسـوقـ فـيهـ نـفـسـ هـذـاـ التـشـيـيـهـ: "كمـثـلـ الـحـدـيدـ".

١٥ - بل إِنِّي لَأَقُولُ لَكَ إِنَّهُ حَتَّى الْإِخْوَةِ الْمُحِبُّوْنَ هَذِهِ النَّفْسُ جَدًّا، الْكَائِنُونَ أَمَامَ نَاظِرِيهَا، إِنْ هُمْ أَعَاقُوهَا عَنْ تِلْكَ الْمُحَبَّةِ، فَإِنَّهَا تَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ، ذَلِكَ لَأَنَّ حَيَاتَهَا وَرَاحِتَهَا إِنَّمَا هِمَا فِي شَرِكَتِهَا السِّرِّيَّةِ الَّتِي لَا يَعْبُرُ عَنْهَا مَعَ الْمَلِكِ السَّمَاوِيِّ. لَأَنَّهُ إِنْ كَانَتِ الشَّرِكَةُ وَالْمُحَبَّةُ الْجَسَدِيَّةُ بَيْنَ زَوْجِيْنِ تَفَصِّلُ الْإِنْسَانَ عَنْ أَيِّهِ وَأَمِّهِ وَإِخْوَتِهِ وَتَصْبِحُ سَائِرُ الْأَشْيَاءِ بِالنِّسْبَةِ لِلزَّوْجِيْنِ خَارِجَةً عَنْهُمَا، حَتَّى وَإِنْ اسْتَمَرَّ الْإِنْسَانُ يُحِبُّ الْآخِرِينَ فَإِنَّهُ يُحِبُّهُمْ مِنَ الْخَارِجِ فَقَطْ أَمَّا كُلُّ هُوَاهِ فَإِنَّمَا يُحَصِّصُهُ لِشَرِيكَتِهِ، فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ: «مِنْ أَجْلِ هَذَا يُثْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيُلْتَصِقُ بِإِمْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الْإِنْسَانُ جَسَدًا وَاحِدًا» (تَك٢: ٢٤؛ مَت١٩: ٥؛ أَف٥: ٣١)، فَإِنْ كَانَتِ الْمُحَبَّةُ الْجَسَدِيَّةُ هَكَذَا تَخْلُلُ الْإِنْسَانُ مِنْ كُلِّ مُحَبَّةٍ أُخْرِيٍّ، فَكُمْ بِالْأُخْرِيِّ جَدًّا تِلْكَ النُّفُوسُ الَّتِي تَوَهَّلُ بِالْحَقِّ لِشَرِكَةِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ^(١)، ذَلِكَ الرُّوحُ السَّمَاوِيُّ الْمُحِبُّوْنَ، فَإِنَّهَا تَنْحَلُّ مِنْ كُلِّ مُحَبَّةٍ عَالَمِيَّةِ، وَتَبَدُّلُهَا جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ زَائِدَةً لَا ضَرُورَةَ لَهَا، لَأَنَّهَا غُلِبَتْ مِنَ الشَّوْقِ السَّمَاوِيِّ وَاتَّحَدَتْ بِاللَّهِ بِجُنُحٍ هَذَا

الَّذِي إِذَا طَرَحَهُ فِي التَّارِيْخِ يَصِيرُ أَبِيْضَ وَيَنْتَهِي مِنَ الشَّوَّابِ، كَذَلِكَ النَّفْسُ إِذَا مَا حَلَّ فِيهَا الرُّوحُ الْقَدِيسُ الْمُعَرِّيُّ وَسَكَنَ فِيهَا فَإِنَّهَا تَصِيرُ نَقِيَّةً كَالْمَلِعْ مَتَّلِعَةً بِبَياضِ الْفَضْلِيَّةِ، فَتَنْسَى الْأَرْضِيَّاتِ وَتَشَنَّقُ إِلَى السَّمَاءِيَّاتِ وَتَوَجَّدُ فِي كُلِّ وَقْتٍ سَكَرَانَةً بِالْإِلهِيَّاتِ شَغْوَةً بِالْعَلَوَيَّاتِ. وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ نَقاوِهَا وَطَهَارَهَا، حَتَّى يَظْنَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ قَدْ اتَّقَلَ مِنْ هَذَا الْعَالَمَ إِلَى الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ بِرِبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ ... ”

(بِسْتَانُ الرُّهْبَانِ - قَوْلُ رَقْم٢٠٥).

(١) انْظُرْ: كُو١٣: ١٦٢.

الشَّوْق، فِيَّا هُنَاكَ يَكُونُ اشتِياقُهَا وَهُنَاكَ تَفْكِيرٌ وَهُنَاكَ حَيَا، وَهُنَاكَ تَجْبُوبُ أَفْكَارُهَا وَهُنَاكَ يَمْكُثُ عَقْلُهَا عَلَى الدَّوَامِ، إِذْ قَدْ غَلَبَتْ مِنْ العُشُقِ الْإِلهِيِّ السَّمَاءِ وَمِنْ الشَّوْقِ الرُّوحَانِيِّ.

[ه] الْرَّبُّ لَا يَبْرُحُ يَنْتَظِرُ رَجُوعَنَا إِلَيْهِ

١٦ - وَالآنَ، أَيُّهَا الإِخْرَوَةُ الْأَحَبَاءُ، وَقَدْ وُضَعْتُ أَمَامَنَا مِثْلُ هَذِهِ الْخِيرَاتِ وَوَعَدْنَا الرَّبَّ بِمَوَاعِيدَ هَكُذا عَظِيمَةَ، فَلَنْطُرُخْ عَنَّا كُلَّ الْعَقَبَاتِ، وَلَنُعْرِضَ عَنْ كُلِّ مُحَبَّاتِ الْعَالَمِ، وَلَنُكَرِّسَ ذَوَاتِنَا لِذَلِكَ الْخَيْرِ الْأَوْحَدِ بِالسُّؤَالِ وَالشَّوْقِ، حَتَّى نُسْتَطِعَ أَنْ نَنْتَالَ تَلْكَ الْخَبَّةَ الْفَائِقَةَ الْوَصْفَ الَّتِي لِلرُّوحِ الْقَدْسِ، وَالَّتِي يَحْضُنُنَا الطُّوبَاوِيَّ بِوَلْسِ الرَّسُولِ أَنْ نَجِدَ فِي أَثْرِهَا قَائِلاً: «إِتَّبِعُو الْمَحَبَّةَ» (كِو ١٤ : ١)، وَذَلِكَ حَتَّى يُمْكِنَنَا أَنْ نُؤْهَلَ لِلتَّغْيِيرِ مِنْ قَسَاوْتَنَا بِيَمِينِ الْعَلِيِّ، وَنَأْتَى إِلَى الْوَدَاعَةِ وَالرَّاحَةِ الرُّوحَانِيَّةِ بِمَحْرُومِنِ بَعْشَقِ الرُّوحِ الإِلهِيِّ، لَأَنَّ الرَّبَّ يُحِبُّ الْبَشَرَ حَبَّا جَمِيعاً وَيَتَحَنَّنَ عَلَيْنَا إِلَى أَنْ نَرْجِعَ إِلَيْهِ بِالْكُلِّيَّةِ، رَافِعِينَ ذَوَاتِنَا فَوْقَ كُلِّ الْأَمْورِ الْمُضَادَّةِ. لَأَنَّهُ إِنْ كُنَّا نَحْنُ بِجَهَّاتِنَا وَغَرَّاتِنَا وَمَيْلَاتِنَا نَحْوَ الشَّرِّ نُعْرِضُ عَنِ الْحَيَاةِ وَنُضَعُ عَوَائِقَ كَثِيرَةً لِأَنفُسِنَا، غَيْرَ راغِبِنَا بِالْحَقِّ فِي التَّوْبَةِ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ يَتَحَنَّنَ عَلَيْنَا كَثِيرًا مُطْبِلًا أَنَّاتِهِ، عَسَانَا نَرْجِعُ وَنَعُودُ إِلَيْهِ فَيَسْتَنِيرُ إِنْسَانُنَا الدَّاخِلِيُّ، حَتَّى لَا تَخْزِنَ وَجْهُنَا فِي يَوْمِ الدِّينُونَةِ.

١٧ - وإنْ كانَ الْأَمْرُ يَبْدُو لَنَا شَاقًّا بِسَبَبِ صَعْوَدَةِ مَارْسَةِ الْفَضْيَلَةِ، أَوْ بِالْأَخْرِي بِسَبَبِ مَشْوَرَاتِ الْعَدُوِّ الْمَاكِرَةِ، فَهَا هُوَ الرَّبُّ يَتَحَنَّنُ عَلَيْنَا وَيُطْهِلُ أَنَّاهُ مُنْتَظَرًا رَجُوعَنَا. حَتَّىٰ وَإِنْ أَخْطَأْنَا، فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ وَيَحْتَمِلُ وَيَرْفَقُ تَوْبَتَنَا. فَإِنْ كُنَّا نَحْنُ نَسْقَطُ، فَهُوَ مِنْ جَانِبِهِ لَا يَسْتَحِي مِنْ أَنْ يَقْبَلَنَا إِلَيْهِ مَرْءَةً أُخْرَى، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ: «هَلْ يَسْقُطُ أَحَدٌ وَلَا يَقُومُ، أَوْ يَرْتَدُ وَلَا يَرْجِعُ؟» (إِرْ ٨: ٤). فَقَطْ لِنَصْحُ مَقْتَنِينِ نِيَّةً صَالِحةً، وَلِنَرْجِعَ إِلَيْهِ بِسَرْعَةٍ وَاسْتِقْامَةٍ، طَالِبِينَ الْمَعْوِنَةِ مِنْهُ وَهُوَ مُسْتَعِدٌ أَنْ يَخْلُصَنَا، لِأَنَّهُ يَرْفَقُ الْخِيَازَ إِرَادَتَنَا الْحَارَّ نَحْوَهُ بِأَقْصَى قَدْرَتَنَا، وَكَذَا أَمَانَتَنَا وَشَوْقَنَا النَّابِعَيْنَ مِنْ نِيَّتَنَا الصَّالِحةَ، أَمَّا النَّجَاحُ فَهُوَ الَّذِي يُحْقِقُهُ فِينَا بِكَامِلِهِ. إِذَا فَلَنْجَتْهُ، أَيُّهَا الْأَحَبَّاءِ، كَأَوْلَادِ اللَّهِ^(١)، وَلِنَخْلُغَ عَنِ الْكَلَّ هَوَىٰ وَكَلَّ كَسْلٍ وَرَخَاوةٍ، وَلِنَتَشَجَّعَ وَنَتَاهَبَ لِأَنْ نَتَبَعَهُ، وَلَا نُسْتَوْفَنَّ أَيَّامَنَا يَوْمًا بَعْدِ يَوْمٍ مَسْرُوقِينَ مِنَ الشَّرِّ، لِأَنَّنَا لَا نَعْرِفُ مَتَىٰ يَكُونُ خَرْوَجُنَا مِنَ الْجَسَدِ. فَإِنَّ الْمَوَاعِيدَ الْمُوْضُوَّةَ لِلْمُسِيَّحِيِّينَ هِيَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُوصَفَ، حَتَّىٰ إِنَّ كَلَّ مَجْدِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَبَهَائِهِمَا وَبَاقِي نُظُمِ الْخَلِيقَةِ، بَلْ وَكَلَّ تَنْوِعِ الْأَمْرُورِ الْمَنْظُورَةِ وَجَهَاهَا وَغَنَاهَا وَلَدَّهَا، كَلَّ هَذَا لَا يُقَارِنُ بِإِيمَانِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَغَنِّاهَا!

(١) انظر: يو ٣: ١، يو ١٢: ١.

١٨ - فكيف إذا إزاء مثل هذه الدعوات والمواعيد التي أعطانا ربّ، لا نشاء نحن أن نأتي إليه بالكلية ونكرّس ذواتنا له وننكر كلّ الأشياء حتى نفوسنا أيضًا، بحسب قول الإنجيل^(١)، فنحّه هو وحده ولا شيء آخر معه؟! ولكن رغم كلّ هذا، ورغم كلّ المجد الذي أُعطي لنا، وكلّ تدابير ربّ التي قد صارت منذ عهد الآباء والأنبياء؛ كم من وعد وعديت لنا! وكم من دعواتٍ وجّهت إلينا! وأيّة شفقة أظهرها لنا السَّيِّد منذ البدء! وأخيرًا، وبواسطة مجىئه بنفسه، أظهر لطفه الفائق الوصف من خونا بصلبيه، وذلك حتى ينقلنا ويأوي بنا إلى الحياة. أقول: رغم كلّ هذا، فإنّا ما تركنا بعدًّا مشيئاتنا ومحبّتنا للعالم وميولنا وعاداتنا الشريرة! وهكذا ظهر وهنّ إيماننا أو انعدامه. ومع كلّ ذلك فإنّه يرافق بنا، وبصورة غير منظورة يحرسنا ويختضننا ولا يسلّمنا للشّر إلى النهاية بحسب ما تقتضيه خطایانا ولا يتركنا نهلك بغرور العالم، لكنّ بلطشه العظيم وطول أناه يرثب من فوق عسانا نؤوب إليه.

[و] لطف الله وصرامته

١٩ - لكنّي أخاف لئلا يكمل قول الرّسول علينا، نحن الذين نتعاييش مع أفكارنا المُخْزِية وتقاد ميولنا، حينما يقول: «أَمْ تَسْتَهِينُ بِغَنِيَّ لُطْفِهِ

(١) انظر: لو ١٤: ٢٦.

وإِمْهَالِهِ وَطُولِ أَنَاتِهِ، غَيْرَ عَالِمٌ أَنَّ لُطْفَ اللَّهِ إِنَّمَا يَقْتَادُكُ إِلَى التَّوْبَةِ؟» (رو ٢: ٤). فإن كننا، إزاء طول أنااته هذه ولطفه وإمهاله نزيد خطايا أكثر على خطايانا^(١)، وبإهمالنا واستهانتنا بنتائج لأنفسنا دينونة أعظم، فسوف يكمل علينا بقيّة قول الرسول: «وَلِكُنْكَ مِنْ أَجْلِ قَسَاؤِكَ وَقُلْبِكَ غَيْرُ التَّائِبِ، تَدْخُرُ لِنَفْسِكَ غَضِبًا فِي يَوْمِ الْعَذَابِ وَاسْتِغْلَانٍ دَيْنُونَةِ اللَّهِ الْعَادِلَةِ» (رو ٢: ٥). فإن الله قد أظهر لجنس البشر صلاحًا لا يعبر عنه وطول أناة لا يوصف، فقط لتكن لنا إرادة أن نستفيق، ولنجتهد أن نرجع إليه بالتمام، حتى نستطيع أن نحظى بالخلاص.

٢٠ - فإن كنت تريده أن تعرف طول أناة الله وعظيم لطفه، فلتتعلم هذا من الكتب الموحى بها من الله؛ فانظر إلى شعب إسرائيل الذين منهم الآباء ولهم تعينت المواقع ومنهم المسيح حسب الجسد ولهم العبادة والمعهود^(٢). كم من مرأة أخطأوا! وكم من مرأة حادوا عن جادة الطريق! ورغم هذا فإن الله لم يتركهم إلى الانقضاض، فكان يسلّمهم - لزمان محدود، ولنفعتهم - إلى التأديب، مريداً بذلك أن يليلن قساوة قلوبهم بالشدائد، ثم يعود بعد ذلك ويردهم إليه ويشجّعهم ويرسل إليهم أنبياءه. فكم من المرات كانوا هم فيها يخطئون ويغترون، وهو كان يطيل أنااته عليهم، ولما كانوا يرجعون إليه كان

(١) انظر: إش ٣٠: ١.

(٢) انظر: رو ٩: ٤، ٥.

بفرح يقبلُهم، بل وإنْ هم حادوا مِرَّةً أخرى عن الطَّريق، ما كان ليتخلَّى عنهم، بل كان - بواسطة أنبيائه - يدعوهم للرجوع. وحينما كانوا يضطُّلون دُفَعَاتٍ كثيرةً ثُمَّ يرجعون، كان بسرورٍ يحتملهم ويحبّته للبشر يقبلهم إليه. إلى أنْ وُجدوا أخيراً مقتوفين ذنبَهم الأعظم، وذلك لِمَا وضعوا أيديَّهم على سِيِّدِهم نفسيه، ذاك الَّذِي كانوا يتظارونه^(١) - عبر تقاليد الآباء والأنبياء القدِيسين - فادِيَا ومحْلِصاً وملِكًا ونبيًّا؛ فإنَّه لِمَا أتى لم يقبلوه^(٢)، بل على العكس، بعد أن اشتَكُوا عليه بأشياء كثيرةً مستوجبةً لِلِّازدَراء، عاقبواه أخيراً بصلب الموت. وهكذا بعترتهم العظمى هذه وبزلتهم الَّتي فاقت الحدود، فاضت خطاياهم جدًّا وامتلاً مكيائهما، فتركوا أخيراً إلى النهاية وفارق الرُّوح القدس ذلك الموضع لِمَا انشقَ حجابُ الهيكل^(٣)، وهكذا أسلِمَ هيكُلُهم للأمم فنَقضَ وصار ييابًا، بحسب تصريح الرَّبِّ: «لَا يُنْزَكُ ههُنا حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لَا يُنْفَضُ» (مت ٢٤: ٢). وهكذا أسلِموا للأمم إلى المنتهى، وتشتَّتوا في كلِّ الأرض، ولم يسمح لهم الملوكُ الَّذين سبَّوْهم بالرجوع مِرَّةً أخرى إلى مواضعهم.

(١) انظر: مت ١١: ٤٣ - ١٥: ٧ - ٣: ١٩.

(٢) انظر: يو ١: ١١.

(٣) انظر: مر ١٥: ٣٨.

٢١ - فهكذا الآن أيضًا ما ينفكُ الله، في جوده وصلاحه، يطيل أناه على كلِّ واحدٍ مناً. فرغم أنه يرى كم يعشر كلٌّ منا، إلا أنَّه يسكت متممِّلاً على الإنسان لعلَّه يستفيق ويرجع، فلا يسقط مرأة أخرى. لأنَّه بمحبَّةٍ وفرح عظيمين يقبل إليه من ينأى عن الخطيئة، إذ يقول: «هكذا يكون فرج قدام ملائكة الله بخاطئٍ واحدٍ يتوب» (لو ١٥: ١٠)، وأيضاً: «إنه ليست مشيئة أبي أن يهلك أحد هؤلاء الأصارع» (مت ١٨: ١٤ - حسب النصّ). ولكن إنْ كان أحدٌ - بعد أنْ صار تحت لطف الله وطول أناه العظيمين، هذا الذي لا يجازي على آثام الخطايا واحدةً فواحدة سواءً الخفية أو الظاهرة، بل ينظر ويستكت متظرًا التوبة - أقول: إنْ كان مثلُ هذا الإنسان يُظهر الاستهانة بأنْ يضيق خطايا على خطاياه، ويجمع كسلًا على كسله، ويُكثِّس آثاماً على آثامه، فإنَّه يملأ مكيالَ خطاياه، ويأتي أخيراً إلى إثمٍ لهذا مقداره، حتى إنَّه لا يستطيع أن ينهض منه مرأة أخرى بل ينكسر ويُسلَّم للشَّرِّير إلى المنتهي فيهلك.

٢٢ - وهذا هو ما حدث مع أهل سدوم، فإنهم لمَا أخطأوا مرءاتٍ كثيرةً ولم يتوبوا، عثروا أخيراً هكذا بقصدهم الشَّرِّير نحو الملائكة راغبين في اقتراف الإثم^(١) معهم، وهكذا ما عادت لهم توبةً بعد، بل رُفضوا نحائياً إذ

(١) حرفاً: ” sodomy = المَوَاط (مضاجعة الذكور) ”.

قد أكملوا حدَّ خطاياهم بل وتحطَّوْه، ولذلك فقد احترقوا بنار النِّقمة الإلهيَّة. وهكذا حدث أيضًا في أيام نوح^(١)، فبعد أن عَثَرَ النَّاسُ مَرَّاتٍ كثيرةً ولم يتوبوا، بلغوا إلى اقتراف خطايا هكذا شنيعة، حتَّى إِنَّه في النِّهاية بادت الأرضُ كُلُّها. كذلك أيضًا كان الحال مع المصريين، فرغم أَنَّهم أخطأوا مرارًا كثيرةً وأساءوا إلى شعب الله، إِلَّا أَنَّ الله عاملهم باللطف ولم يوقع عليهم جلداتٍ لكي يُفْنِيَهم بالكُلِّية، بل إِنَّه - من أجل تأدبيهم ورجوعهم وتوبتهم - أوقع عليهم ضرباتٍ جلداته الصَّغيرة تلك، مُطْبِلاً أناته ومنتظرًا توبتهم. ولكنَّهم، لَمَّا أخطأوا أيضًا مرارًا كثيرةً إلى شعب الله ثُمَّ تابوا، ثُمَّ عادوا فندموا على توبتهم) ولبשו في عدم إيمانهم الأوَّل الذي لمارهم الخبيث، وضيقوا على شعب الله مرَّةً أخرى، ثُمَّ لَمَّا أخرج الله الشَّعَبَ من مصر بعجائب شئٍ بواسطة موسى، أخطأوا خطيئةً عظيمةً بـملاحقتهم شعب الله - لَمَّا صنعوا هذا أبادتهم النِّقمة الإلهيَّة وأهلكتهم تمامًا وأغرقتهم في المياه، إذ قد حكمت عليهم بعدم استحقاقهم حتَّى ولا لهذه الحياة المنظورة.

٢٣ - بالمثل أيضًا بنو إسرائيل، كما قيل آنفًا، فرغم أَنَّهم عثروا وأخطأوا مراتٍ كثيرةً، وقتلوا أنبياء الله وارتكبوا شرورًا أخرى كثيرة، إِلَّا أَنَّ الله كان يطيل أناته عليهم ساكتًا ومنتظرًا توبتهم، إلى أن عثروا أخيرًا فانكسرموا ولم

(١) انظر: تك ٧٤٦

يقوموا بعد، وذلك حينما ألقوا أيديهم على جلال السَّيِّد. من أجل هذا تركوا وطُرِحوا إلى النِّهاية^(١)، ونُزِعَت منهم الْبُوءَة والكهنوت والعبادة وأُعْطِيت للأمم الَّتِي آمنت، كما قال الرَّبُّ: «إِنَّ الْمُلَكُوتَ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لِأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ» (مت ٢١: ٤٣ - حسب النَّصْ)، لأنَّه حتَّى ذلك الزَّمان كان الله محتملاً إِيَّاهُمْ ومطيلاً أُنَانَهُمْ عليهم فما هَجَرُوهُمْ بل كأنْ مترفِّقاً بهم، لكنْ لِمَا أَكْمَلُوا حَدَّ خطاياهم بل تجاوزوه بإِلْقائِهِمْ أَيْدِيهِمْ على جلال السَّيِّد، تركوا من قبِيلِ الله إلى النِّهاية.

[ز] حذار حذار من اليأس

٢٤ - لقد تناولنا، أيُّها الأَحَبَاءُ، هذه الأمور بإسهامٍ من شهادات الكتب المقدَّسة، حتَّى نُبَيِّنَ أَنَّهُ يتعيَّنُ علينا أن نرجع عاجلاً ونُخْرِجَ إلى الرَّبِّ، ذاك الَّذِي يترفَّقُ بنا ويُنْتَظِرُ إعراضَنا بالِتَّمام عن كُلِّ شَرٍّ ومِيلٍ خبيثٍ، فإنَّا إذا ما رجعنا إليه، يَقْبَلُنا بِفَرِحٍ عظيمٍ. وذلك حتَّى لا تزداد استهانَتُنا يوماً بعد يومٍ، وتتراكم علينا معاثِرُنا، فتَجْلِبُ على أنفسنا غضبَ الله. فلنُجتهد إذَا أن نتقدَّمَ إِلَيْهِ راجعين بِقُلُوبٍ صادقَةٍ، غيرَ يائسين من خلاصتنا، لأنَّه لأجل إسقاطنا في هذا اليأس تكون مكيدةُ الشَّرِّ الَّتِي تقود الإنسان إلى قطع الرَّجائِعِ والرَّخَاوة والاستهانة والإهمال،

(١) انظر: اتس ٢: ١٦.

بواسطة تذكّار خطایا السالفة، حتّى لا يعود ويتقدّم إلى الرَّبِّ فيnal الخلاص، مع أنَّ للرَّبِّ تعطُّلًا جزئيًّا مُدْخراً لجنس البشر.

٢٥ - فإنْ كان يبدو لنا وكأنَّه عسِيرٌ ومتعدِّلٌ أن نعود من كثرة خطایانا، وكأنَّنا قد صرنا مستعبدِين لها - وهذا كما سبق وقلنا هو إيجاء الشَّرِّ وحائلٍ دون خلاصنا - فلتذكّر إذا ولنعتبرِ الرَّبِّ حال إقامته بيننا بصلاحه، كيف أنَّه جعل العُمَّي يستعيديون بصرهم وشفى المفلوجين وداوى جميع الأمراض، بل وحتَّى الموتى الذين ذَبَّ فيهم الفسادُ والتَّغيير أقامهم^(١)، وجعل الصُّمَّ يسمعون، وأخرج من إنسانٍ واحدٍ حشدًا من الشَّياطين وأعاده إلى عقله بعد أن وصلَ إلى جنونٍ هذا مقداره^(٢). فكم بالأحرى جداً النفس الرَّاجعة إليه والطالبة الرَّحمة من لَدُنِه والملتمسة معونته، ألا يرُدُّها إليه؟ بلَّى، إنَّه يُحضرها إلى سرور النِّعَامِ الأوجاع وإلى ثبات كلِّ فضيلة وإلى تجديد الذهن^(٣)، وينقلُّها إلى الصِّحة واستئناف الذهن وأفكار السَّلام، من بعد العُمَّي والصُّمَّ وموت عدم الإيمان والجهل وعدم الخشية، مُحضرًا إياها إلى تَعَقُّلِ الفضيلة ونقاوة القلب. لأنَّ ذاك الذي خلق الجسد، هو أيضًا الذي خلق النفس، وكما أنَّه - حال إقامته في

(١) انظر: يو .١١

(٢) انظر: مر .٥ : ١

(٣) رو .١٢ : ٢

أرضينا - كان بصلاحه يعطي بلا شُحٍّ أولئك الذين كانوا يتقدّمون إليه ويلتمسون منه المعونة والشفاء، حسبما كانوا يحتاجون، كطبيب صالحٍ أوحد؛ هكذا أيضًا في الأمور الروحية.

٢٦ - لأنَّه إنْ كان هكذا يشفق هو على الأجساد التي تتحلّ وتموت أيضًا، وكلُّ مَنْ كان يسألُه شيئاً كان يصنع له بشوقٍ ولطفٍ؛ فكم بالأحرى جدًا النفس التي لا تموت ولا تتحلّ ولا تفسد، التي ترثِّ تحت مرض الجهالة وشرِّ عدم الإيمان وعدم الخشية وبقيَّة أهواء الخطية، والتي رغم ذلك تأتي إلى الرَّبِّ وتطلب المعونة من لُذْنه وتطلُّع إلى رحمته وتتوق إلى نَيْلِ نعمة الروح القدس منه لأجل فدائها وخلاصها وعتقها من كلِّ شَرٍّ ومن جميع الأهواء، ألا يهُبُّها - بأكثُر سرعةٍ وبأوفر رغبةٍ النجاة والشفاء؟! كما قال هو نفسه: «فَكُمْ بِالْخَرِيِّ الْأَبِ السَّمَوَيِّ يُنْصِفُ الصَّارِخِينَ إِلَيْهِ نَهَارًا وَلَيْلًا»، ويضيف قائلاً: «نَعَمْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يُنْصِفُهُمْ سَرِيعًا» (لو ١٨: ٧، ٨). وفي موضع آخر أيضًا ينصحنا قائلاً: «إِسْأَلُوا ثُعَطُوا؛ أُطْلُبُوا يَجِدُوا؛ إِقْرَعُوا يُفْتَحَ لَكُمْ». لأنَّ كُلَّ مَنْ يَسْأَلُ يَأْخُذُ، ومن يَطْلُبُ يَجِدُ، وَمَنْ يَقْرَعُ يُفْتَحَ لَهُ» (مت ٧: ٧، ٨). ثمَّ في الختام يضيف: «فَكُمْ بِالْخَرِيِّ أَبُوكُمُ السَّمَوَيِّ يَهُبُّ الرُّوحُ الْقُدُّسُ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ»

(لو ١١: ١٣). «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ يُعْطِهِ لِكُونِهِ صَدِيقَةُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَجْلِ لَجَاجِتِهِ يَقُومُ وَيُعْطِيهِ قَدْرَ مَا يَحْتَاجُ» (لو ١١: ٨).

٢٧ - فها هو إذًا، بواسطة جميع هذه الأقوال، يحصلنا أن نطلب منه - بلجاجةٍ وبلا انقطاعٍ ولا كسلٍ - معاضدة النعمة. لأنّه من أجل الخطأ قد أتى^(١)، لكي يرجعهم إليه ويشفى الذين يؤمنون به. فقط، لنبعد ذواتنا عن الميل الشّريرة بكلٍّ ما فينا من قوّة، ولنبغض الأعمال الرّديئة وكذا غوايات هذا العالم، ولنطرد عنا الأفكار الشّريرة الباطلة، وفي كلٍّ حين وبكلٍّ قوتنا نلتصلق به^(٢)، وهو على استعداد أن يهبنا معونته. لأنّه لأجل هذا الغرض يرحم وينجي ويشفي الآلام المستعصية، ويصنع فداءً للّذين يدعونه ويرجعون إليه، ويعرضون بكلٍّ قدرتهم وبارادتهم ونيّتهم عن كلٍّ محبّة عالميّة، ويجذبون فكرهم من الأرض، وبه يتثبتون بالسؤال والاشتياق. مثل هذه النّفس تُحسب أهلاً لمعونته، وتصير لها كلُّ الأشياء زائدةً لا ضرورة لها، ولا تجد راحتها في أيّ شيءٍ من هذا العالم، إنما في راحة لطفه هو، ترجو أن تستريح وتبتهج. وهكذا، بمثل هذا الإيمان، إذا ما نالت النّفس الموهبة السّماوية^(٣)، وتمتّعت - في يقين النّعمة وبواسطتها

(١) انظر: مت ٩: ١٣.

(٢) انظر: ١ كرو ٦: ١٧.

(٣) انظر: عب ٤: ٦.

- بما كانت تتوق إليه، وخدمت أخيراً الروح القدس في تناغمٍ وخصوصٍ، وقدَّمت يوماً بعد يوم في العمل الصالح، وثبتت في طريق البر، ولبَّت إلى النهاية بلا ميلٍ لجانب الشر ولا ارتباطٍ به، ولم تُحزن النعمة في شيءٍ، فإنهَا تُحسب جديرةً بالخلاص الأبدي مع جميع القديسين، أولئك الذين صارت لهم بالفعل شريكةً ورفقةً بتمثيلها بهم وهي بعد في العالم، آمين.

العظة الخامسة

شَانَ بَيْنَ الْمُسْكِيْنِ وَأَهْلِ الْعَالَمِ

[في ذلك البَيْنِ الشَّاسِعِ بَيْنَ الْمُسْكِيْنِ وَبَيْنَ أَهْلِ هَذَا الْعَالَمِ، فَهُوَلَاءُ، إِذْ لَهُمْ رُوحُ الْعَالَمِ، قَدْ بَاتُوا مُكَبَّلِينَ - قَلْبًا وَهَكْرًا - بِالْآخْلَالِ الْأَرْضِيَّةِ، وَأَمَّا أُولَئِنَّكُمْ فَإِنَّهُمْ يَتَوَقَّونَ إِلَى مَحْبَّةِ الْأَبِ السَّمَاءِ، مَقْتَنِيْنَ وَحْدَهُمْ أَمَّا أُعْنِيْنَهُمْ فِي اِشْتِهَاءِ كَثِيرٍ]

- [أ] الشَّيْطَانُ يُغَزِّلُ أَبْنَاءَ هَذَا الدَّهْرِ
- [ب] مَا يُمْتَرِّسُ الْمُسْكِيْنُ عَنِ عِيْرِهِمْ
- [ج] مِيزَانُ الْقُلُوبِ ٢٤٨٣ (شَيْهِيْت)
- [د] تَكْرِيسُ كُلِّ الْحَيَّةِ لِلرَّبِّ وَحْدَهُ
- [ه] الْجَدُّ مُذَخَّرٌ فِي الصَّبَرِ عَلَى الشَّدَادِ
- [و] الْجَدُّ مَرْهُونٌ بِاقْتَنَاءِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ



[١] الشَّيْطَانُ يُغَزِّلُ أَبْنَاءَ هَذَا الدَّهْرِ

١ - إِنَّ لِلْمُسْكِيْنِ عَالَمًا آخَرَ؛ فَنَهَجُ حِيَاَتِهِمْ وَفَكْرُهُمْ وَكَلَامُهُمْ وَسُلُوكُهُمْ يَخْتَلِفُ عَنْ نَهَجِ حِيَاَتِ أَهْلِ الْعَالَمِ وَفَكْرِهِمْ وَكَلَامِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ، فَأُولَئِكُمْ شَيْءٌ وَهُؤُلَاءِ شَيْءٌ آخَرُ، وَشَاسِعٌ هُوَ الْبَيْنُ بَيْنَهُمَا. فَإِنَّ سَاكِنَ الْأَرْضِ وَأَبْنَاءَ هَذَا الدَّهْرِ أَشْبَهُ بِجَنْطَلِيْتٍ مُلْقَاهُ فِي غِرْبَالِ هَذِهِ الْأَرْضِ، إِذْ تُغَزِّلُ نُفُوسُهُمْ بِأَفْكَارِ هَذَا الْعَالَمِ الَّتِي لَا تَهْدِي وَبِاضْطِرَابِ الْأَمْوَالِ الْأَرْضِيَّةِ وَالْمِيلَوْلِ الْمَادِيَّةِ الْمُتَشَابِكَةِ الَّذِي لَا يَكُفُّ. فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُزَعِّزُ كَمَا يَأْمُواجِي كُلَّ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ الْخَاطِئِ وَيُغَرِّبُهُ بِغِرْبَالِ الْأَمْوَالِ الْأَرْضِيَّةِ، وَذَلِكَ مِنْذَ سَقْطَةِ آدَمَ لِمَا خَالَفَ الْوَصِيَّةَ وَصَارَ تَحْتَ سُلْطَانِ رَئِيْسِ الشَّرِّ. وَلِمَا حَظِيَ الشَّيْطَانُ بِمَثِيلٍ

هذا السُّلطان، ما فَيْئَ - بِوَاسْطَةِ الْأَفْكَارِ الْخَدَاعَةِ الْمُضْطَرْبَةِ الَّتِي لَا تَكُفُّ
- يُغْرِي وَيُقْنِلُ جَمِيعَ أَبْنَاءِ هَذَا الدَّهْرِ بِغُرْبَالِ الْأَرْضِ.

٢ - فَكَمَا أَنَّ الْخَنْطَةَ فِي الغُرْبَالِ تَتَصَادِمُ بِوَاسْطَةِ مَنْ يُغْرِيَهَا، وَمُخْتَزِّبًا
تَوْقُّفُ وَتَحْرَكُ هَنَا وَهُنَاكَ فِي الغُرْبَالِ؛ هَكُذَا أَيْضًا يُمْسِكُ رَئِيسُ الشَّرِّ جَمِيعَ
النَّاسِ بِوَاسْطَةِ الْأَمْرَاتِ الْأَرْضِيَّةِ وَيُقْلِفُهُمْ وَيُزَعِّجُهُمْ وَيُزَعِّزُهُمْ بِهَا، وَيُصْنَعُ
اضْطَرَابًا بِوَاسْطَةِ الْأَفْكَارِ الْبَاطِلَةِ وَالشَّهْوَاتِ الْقَبِيْحَةِ وَالرِّيَابَاتِ الْأَرْضِيَّةِ
الْعَالَمِيَّةِ، وَلَا يَكُفُّ عَنْ أَنْ يَسْتَيْرِي كُلَّ جَنْسِ آدَمَ الْخَاطِئِ وَيُزَعِّجَهُ وَيُخَدِّعَهُ،
كَمَا سَبَقَ الرَّبُّ وَحْدَهُ رُسْلَهُ عَنْ هَجُومِ الشَّرِّيرِ الْمَزْعَمِ أَنْ يَصِيرَ ضَدَّهُمْ،
قَائِلًا: «هُوَ ذَا الشَّيْطَانُ طَلَبَكُمْ لِكَيْ يُغْرِيَكُمْ كَالْجِنْطَةِ، وَلَكِي طَلَبَتُ مِنْ
أَبِي لِكَيْ لَا يَفْتَأِرِي إِيمَانَكُمْ» (لو ٢٢: ٣٢ - حَسْبُ النَّصِّ). فَإِنَّ
الْكَلْمَةَ الَّتِي قِيلَتْ لِقَائِينَ مِنْ خَالِقِهِ وَالْحُكْمِ الَّذِي صَدَرَ عَلَيْهِ عَلَيْنَا -
«سَوْفَ تَكُونُ مُتَنَاهِدًا وَمُرْتَعِدًا وَقَلِيقًا فِي الْأَرْضِ» (تَك ٤: ١٢ س - حَسْبُ
النَّصِّ) - هَذَا الْحُكْمُ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا مَثَالٌ وَصُورَةٌ لَا يَحْدُثُ حُكْمِيَّةً لِجَمِيعِ الْخَطَأَةِ.
فَهِينَما سَقَطَ جَنْسُ آدَمَ مِنَ الْوَصِيَّةِ وَأَمْسَى خَاطِئًا، صَارَ لَهُ حُكْمِيَّةً تِلْكَ
الصُّورَةِ، فَوُجِدَ مُنْزَعِجًا بِلَا تَوْقُّفٍ بِأَفْكَارِ الرُّعْبِ وَالخُوفِ وَكُلِّ اضْطَرَابٍ، إِذ
مَا بَرِّ رَئِيسُ هَذَا الْعَالَمِ^(١) - بِوَاسْطَةِ الشَّهْوَاتِ وَاللَّذَّاتِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَمِنْ

(١) انظر: يو ١٢: ١٤، ٣١: ٣٠.

كُلِّ صُنْفٍ - يُرْعِزُ كَمَا بِأَمْوَالِ كُلِّ نَفْسٍ لَمْ تُولَدْ مِنَ اللَّهِ؛ وَكَمِثْلِ حَنْطَةٍ تَحْرِكُ فِي غَرْبَالٍ بِلَا تَوْقُّفٍ يُقْلِقُ أَفْكَارَ النَّاسِ بِطَرْقٍ شَتِّيٍّ، وَبِغَوَائِيَاتِ الْعَالَمِ وَلَذَّاتِ الْجَسَدِ وَالْمَخَافِ وَالاضْطَرَابَاتِ يُرْعِجُهُمْ جَمِيعًا وَيَخْدُعُهُمْ.

٣ - فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ غَوَائِيَاتِ الشَّرِّيرِ وَمَشَيَّثَاتِهِ قَدْ أَظَهَرُهُمُ الرَّبُّ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ صُورَةً شَرِّ قَاهِينَ، إِذْ وَجْهُهُمْ قَاهِلٌ: «أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا شَهَوَاتِ أَبِيكُمْ». ذَاكَ كَانَ قَتَّالًا لِلنَّاسِ مُنْذُ الْبَدْءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ» (يو ٨: ٤٤)، حَتَّى إِنَّ كُلَّ الْجِنْسِ الْأَدْمِيِّ الْخَاطِئِ قَدْ صَارَ لَهُ، حُفَيْفَةً، ذَلِكَ الْقِصَاصُ: ”سَوْفَ تَكُونُونَ مُتَنَاهِدِينَ وَمُرْتَعِدِينَ وَقَلْقِلِينَ فِي غَرْبَالِ الْأَرْضِ بِوَاسِطَةِ ذَاكَ الَّذِي يُغَرِّبُكُمْ، أَيِّ الشَّيْطَانَ“ . فَكَمَا أَنَّهُ مِنْ وَاحِدٍ، أَيِّ آدَمَ، قَدْ امْتَدَّ كُلُّ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ عَلَى الْأَرْضِ، هَكَذَا أَيْضًا قَدْ انْفَرَسَ شُرُّ الْأَهْوَاءِ الْوَاحِدُ فِي كُلِّ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ الْخَاطِئِ، وَقَمِّكَنَ رَئِيسُ الشَّرِّ مِنْ غَرِبَلَةِ الْجَمِيعِ بِوَاسِطَةِ الْأَفْكَارِ الْمَادِيَّةِ الْقَلِيقَةِ الْبَاطِلَةِ الْمُضْطَرِبةِ . فَكَمَا أَنَّ رِيمًا وَاحِدَةً يُمْكِنُهَا أَنْ تُحْرِكَ وَتُهْزِّ كُلَّ الْمَزْرُوعَاتِ وَالْبَيَاتِ، وَكَمَا أَنَّ ظُلْمَةً وَاحِدَةً لِلْلَّيْلَةِ تُخْتِمَ عَلَى كُلِّ الْمَسْكُونَةِ؛ هَكَذَا أَيْضًا رَئِيسُ الشَّرِّ - الَّذِي هُوَ ظُلْمَةٌ عَقْلَيَّةٌ^(١) لِلشَّرِّ وَالْمَوْتِ، وَرِيحَ خَفِيَّةٌ هُوجَاءَ - يُرْعِزُ كَمَا بِأَمْوَالِ كُلِّ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ عَلَى الْأَرْضِ، وَيُسَوِّقُهُ بِوَاسِطَةِ الْأَفْكَارِ الْقَلِيقَةِ، وَيَخْدُعُ قُلُوبَ النَّاسِ بِشَهَوَاتِ

(١) λογικόν = روحيَّة، غير ماديَّة“ .

العالم، ويملاً بظلمة الجهل والعمى والنسيان كلّ نفسي لم تولد من فوق ولم تنتقل باهتمامها وفكراها إلى العالم الآخر، بحسب المكتوب: «فَإِنَّ مَوْطِنَنَا^(١)
نَحْنُ هُوَ فِي السَّمَاوَاتِ» (في ٣: ٢٠).

[ب] ما يميّز المسيحيين عن غيرهم

٤ - ففي هذا يختلف المسيحيون الحقيقيون عن باقي الجنس البشري كله، وفي هذا يكمن الفارق الشاسع بين الفريقين، كما سبق وقلنا، في أنَّ المسيحيين يكونون على الدَّوام، بفكرهم وذهنهم، في الاهتمام السماوي، ناظرين - كما في مرآة - إلى الخيرات الأبدية، وذلك بسبب شركة الروح القدس ومؤازرته، إذ قد ولدوا ثانيةً من الله واستحقّوا أن يصيروا أولاد الله بالحقّ والقوّة، وبلغوا - عبر جهادٍ وأتعابٍ كثيرة لأزمنة طويلة - إلى القيام والرُّسوخ وعدم الاضطراب والرَّاحة، ولم يعودوا بعد يغربلون ويتنزععون بأمواج الأفكار الباطلة المضطربة. وهكذا صاروا أعظم وأفضل من العالم، لأنَّ فكرهم وهمة نفوسهم إنما هما في سلام المسيح^(٢) وفي محبة الروح^(٣)، كما أشار الرَّبُّ أيضًا إلى مثل هؤلاء قائلًا إنَّهم

(١) *πολίτευμα* = مُوطِن، مُوطنة.

(٢) انظر: كو ١٥: ٣ (طبعاً لأقدم المخطوطات: «سلام المسيح» وليس «سلام الله»).

(٣) انظر: رو ١٥: ٣٠.

قد انتقلوا من الموت إلى الحياة^(١). وهكذا فإنَّ تمايزَ المسيحيين ليس هو في الشَّكل ولا المظهر الخارجي، كما يتوهم الكثيرون أنَّ اختلافهم وتمايزهم عن العالم إنما هو في الشَّكل والمظهر، في حين أنَّهم بالفكر والذهن مشابهون للعالم، ولم ما لجأ الجميع النَّاس من اضطراب الأفكار وطُيشها وعدم الإيمان والارتباك والانزعاج والرُّعب. في بينما هم يختلفون بالشكل والمظهر وبعض الأعمال الخارجية عن العالم، إلَّا أنَّهم بالقلب والفكر مُكَبِّلون بالأغلال الأرضية، إذ لم يقتربوا في قلوبهم النِّياخ الَّذِي من الله والسلام الَّذِي من الروح السَّماوي، لأنَّهم لم يطلبوها من الله ولا آمنوا بأنَّهم سيؤْهَلُون لها.

٥ - فإنَّه في هذا: في تجديد الذهن^(٢)، وسلام الأفكار، ومحبة الرَّب والعشق السَّماوي نحوه، يكمن الفارق بين الخلقة الجديدة^(٣) الَّتي للمسيحيين وبين جميع أهل العالم. فإنَّ مجيء الرَّب كان من أجل أن يؤهَل هذه الخيرات الروحية أولئك الَّذِين يؤمنون به بالحق. لأنَّه ولعن كان مجد المسيحيين و Haothem وغناهم السَّماوي لا يُنطق به، إلَّا أنَّه يُنال بالأتعاب والأعراق والامتحانات والجهادات الكثيرة، ولكن يظلُّ كلُّ الفضل لنعمة الله. فإنَّ كانت رؤية المَلِك الأرضي مشتهاةً من جميع النَّاس، حتى إنَّ كُلَّ

(١) انظر: يو ٥: ٢٤.

(٢) انظر: رو ١٢: ٢.

(٣) انظر: كو ٢: ٥؛ ١٧؛ غل ٦: ١٥.

مَنْ يَأْتِي إِلَى مَدِينَةِ الْمَلِكِ يَشْتَهِي وَلَوْ أَنْ يَحْظُى فَقْطًا بِرُؤْيَا بَهَائِهِ أَوْ حُسْنِ لِيَاسِهِ أَوْ مَجْدِ حُلْتَهِ الْمُلُوكِيَّةِ أَوْ لِمَعْانِ لَأَلَّهِ الْمُتَنْوِعَةِ أَوْ جَمَالِ تَاجِهِ أَوْ كَرَامَةِ حَاشِيَتِهِ، إِلَّا أَنَّ الرُّوْحِيَّينَ وَحْدَهُمْ يَزْدَرُونَ هَذِهِ كُلُّهَا، لَا لَهُمْ قَدْ اخْتَبَرُوا مَجْدًا آخَرَ سَمَاوِيًّا غَيْرَ جَسْدَانِيٍّ، وَجَرَحُوا بِجَمَالٍ آخَرَ لَا يَعْبُرُ عَنْهُ، وَاشْتَرَكُوا فِي غِئْرِ آخَرِ، وَتَبَاهُوا بِإِنْسَافِهِمُ الْبَاطِنِ، وَصَارَتْ لَهُمْ شَرِكَةٌ فِي رُوحٍ آخَرِ، فَإِنَّ أَهْلَ هَذَا الْعَالَمِ، إِذْ لَهُمْ رُوحُ الْعَالَمِ، يَكُونُ لَهُمْ اشْتِيَاقٌ جَارِفٌ لَا نُونَ يَحْضُوا فَقْطًا وَلَوْ بِرُؤْيَا الْمَلِكِ الْأَرْضِيِّ بِكُلِّ بَهَاءِهِ وَمَجْدِهِ، لَا لَهُمْ عَلَى قَدْرِ مَا لِذَلِكَ الْمَلِكِ مِنْ نَصِيبٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُنْتَظَرَةِ أَعْظَمُ مَا هُوَ لِجَمِيعِ النَّاسِ، هَكَذَا مَجْرَدُ رُؤْبِتِهِ فَقْطًا هِيَ أَمْرٌ بَحِيدٌ وَأَمْرٌ مُشَتَّهٌ لِدِي الْجَمِيعِ، حَتَّى إِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: ”لَوْ أَنَّ أَحَدًا يُعْطِينِي مِثْلَ ذَلِكَ الْمَجْدِ وَالْبَهَاءِ وَالْجَمَالِ!!“ حَاسِبًا ذَلِكَ الْمَلِكَ الْأَرْضِيَّ مَغْبُوطًا، رَغْمَ كُونِهِ مِثْلَهُ أَرْضِيًّا وَعَرْضَةً لِلَّالَّامِ وَمَائِنَّا، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْبَهَاءِ الزَّائِلِ وَالْمَجْدِ الْمُشَتَّهِ.

٦ - فَإِنْ كَانَ الْأَنْاسُ الْجَسَدَانِيُّونَ يَتَشَهَّدُونَ هَكَذَا مَجْدَ الْمَلِكِ الْأَرْضِيِّ، فَكُمْ بِالْأَحْرَى جَدًّا أُولَئِكَ الَّذِينَ قَدْ قَطَّرُوا عَلَيْهِمْ نَدَى رُوحِ الْحَيَاةِ^(١) الَّذِي لِلَّاهُوتِ وَجَرَحَ قَلْوَبَهُمْ بِعُشْقٍ إِلَيْهِ نَحْوَ الْمَسِيحِ، الْمَلِكِ السَّمَاءِيِّ، فَأَضْحَوْهُ مَقِيدِينَ بِذَلِكَ الْجَمَالِ وَالْمَجْدِ الَّذِي لَا يَنْطَقُ بِهِ وَالْحُسْنُ الَّذِي لَا

(١) انظر: رو ٨: ٢.

يفسد والغنى الذي يفوق العقل الذي لل المسيح، الملك الحقيقي الأبدى، ذاك الذي باشتئاه والاشتياق إليه أصبحوا مأسورين، وبكلِّ كيافهم نَرَعوا إليه، مُتَحَرِّقين شوقاً إلى تَنْيُل تلك الخيرات التي لا يُنطَق بها التي ينظرونها بالروح القدس كما في مرآة، والتي لأجلها يزدرون بكلِّ جمال وجهاء الملوك والرؤساء على هذه الأرض وبكلِّ أمجادِهم وكراماتهم وغناهم، ذلك لأنَّهم جرحو بالجمال الإلهي وقطَّرت على نفوسهم حياة الخلود السماوي. وهذا فإنَّهم يتوقعون إلى تلك المحبة التي للملك السماوي، ويضعونه هو فقط نصب أعينهم في شوقٍ كثير، ومن أجله يخلُّون ذواتهم من كلِّ محبة عالمية وينفكُون من كلِّ رباط أرضي، حتى يستطيعوا أن يقتربوا بذلك الشَّوَّق وحده في قلوبهم على الدَّوَام، ولا يمْرِجُوا معه أيَّ شَوَّق آخر.

ولكنْ قليلون جداً هم الذين أقرنوا بالبداية الصالحة نهايةً صالحة كذلك، وأكملوا الطريق إلى النهاية بلا عشرة، مقتنيين محبةً واحدةً نحو الله وحده، وحالين ذواتهم من كلِّ شيء. فإنَّ كثريين يُحسِّنون وكثيرين يصيرون شركاء النعمنة السماوية بل ويُجْرِحون بالعشق السماوي، ولكن بسبب الصراعات والجهادات والأتعاب ومختلف تحاريب الشَّرِّير لا يشارون بل يتجنحون إلى شهواتٍ عالمية مختلفة ومتنوعة، ذلك لأنَّ لكلِّ واحدٍ منهم رغبةً في محبةٍ

شيءٌ مماً لهذا العالم، وما حرّرَ محبّته بعدُ من كلِّ جهة، وهكذا فإنَّهم يُكفُّون عن مسیرِهم ويُغزِّلُون في لجأةِ العالم، إمّا بسببِ وَهْنِ إرادتهم ورخاؤها، أو جُبْنِهم، أو محبّتهم لشيءٍ أرضيٍّ. فالذين يريدون بالحق أن يكملوا سعيهم إلى النِّهاية في سيرةِ صالحة، يلزمهم ألا يقبلوا بإرادتهم أي عشقٍ آخر أو حبٍ آخر ويمزجوه مع ذلك الحبِّ السَّماوي، حتّى لا يتعوّقوا عن الأمور الروحية ويعودوا أدراجهم إلى الوراء فيخيبوا من غاية الحياة. لأنَّه بقدر ما تكون الموعيد الإلهيَّة هكذا عظيمة، لا يُنطَقُ بها ولا يُعبَّرُ عنها، فإنَّها تحتاج إلى إيمانٍ ورجاءٍ وأتعابٍ وجهاداتٍ عظيمة وامتحانات شديدة. لأنَّ تلك الخيرات التي يرجو نيلها الإنسان التائق إلى ملوكوت السَّماوات ليست بالأمر الهين. أتروم أن تملك مع المسيح إلى الدهور التي لا نهاية لها، وتتأيَّد أن تَقبلَ - باشتھاءٍ وحتّى الموت - جهاداتِ الزَّمان اليسير الذي لهذا الدَّهر وأتعابه وتجاربه؟!

فها هو الرَّبُّ يصرخ قائلًا: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُرِيدُ أَنْ يَأْتِيَ وَزَائِي، فَلْيَنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ، فَرِحًا^(١)، وَيَتَبَعْنِي» (مت ١٦: ٢٤؛ لو ٩: ٢٣)، وأيضاً: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهَ وَأَمْرَأَهُ وَأَوْلَادَهُ وَإِخْوَاهُ وَأَخْوَاتِهِ، حَتّى نَفْسَهُ أَنْصَارًا، فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تَلْمِيذًا» (لو ١٤: ٢٦).

(١) أضاف القديس كلمة "فرحاً" على نص الآية.

فَإِنَّ جُمِلَ النَّاسِ يَرِيدُونَ أَنْ يَنَالُوا الْمُلْكُوتَ وَيَرْغُبُونَ أَنْ يَرِثُوا الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ^(۱) غَيْرَ أَكْمَمْ لَا يَتَنَازَلُونَ عَنْ أَنْ يَحْيَوْا بِحَسْبِ مُشَيْئَاتِهِمُ الْخَاصَّةِ وَيَسْعَوْا وَرَاءَهَا، فَيَتَبَعُونَ بِالْأَحْرَى ذَاكَ الَّذِي يَبْدُلُ الْأَبَاطِيلَ (أَيِ الشَّيْطَانَ)، وَهُمْ يَرْغُبُونَ أَنْ يَرِثُوا الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ دُونَ أَنْ يَنَكِرُوا ذَوَاهُمْ وَهَذَا ضَرْبٌ مِّنَ الْحَالِ. فَإِنَّ كُلَّمَةَ الرَّبِّ صَادِقَةٌ، إِذْ إِنَّ الَّذِينَ يُكَمِّلُونَ سَعْيَهُمْ بِلَا عَشْرَةِ هُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَنَكِرُونَ ذَوَاهُمْ بِالْتَّمَامِ، بِحَسْبِ وصِيَّةِ الرَّبِّ، وَيَعْلَفُونَ كُلَّ شَهْوَاتِ الْعَالَمِ وَأَغْلَالِهِ وَمَلَاهِيهِ وَلَدَائِهِ وَهُمُومِهِ، مُقْتَنِينَ الرَّبِّ وَحْدَهُ نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، تَائِقِينَ لِأَنْ يَحْفَظُوا وَصَaiاَهُ. مِنْ ثُمَّ فَكُلُّ مَنْ يَرْتَدُ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِ عَنِ الْمُلْكُوتِ، لِعَدَمِ رُغْبَتِهِ فِي الْحَقِيقَةِ فِي أَنْ يَشْفَقَ وَيَنْكِرَ نَفْسَهُ، وَلْحِبَّهُ أَشْيَاءَ أَخْرَى إِلَى جَوَارِ تَلْكَ الْمُحَبَّةِ (الْإِلَهِيَّةِ)، فَإِنَّهُ يَتَلَذَّذُ بِمَلَذَاتِ هَذَا الدَّهْرِ وَشَهْوَاتِهِ وَلَا يَكِرِّسُ - بِأَقْصَى مَا يُسْتَطِعُ، عَنْ إِرَادَةٍ وَاختِيارٍ - كُلَّ مُحَبَّهِهِ نَحْوَ الرَّبِّ.

[ج] ميزان القلوب ۲۸۵ (شَيْئَيْت)

فَلَنَأْخُذْ مَثَلًا وَاحِدًا نَفْهُمْ بِهِ مَعِي كُلَّ شَيْءٍ، فَإِنَّهُ يَعْرُضُ أَحْبَانَا أَنَّ إِنْسَانًا يَحْكُمُ وَيُمِيزُ وَيَعْرُفُ أَنَّ مَا يَرِيدُ فِعْلَهُ هُوَ أَمْرٌ لَيْسَ فِي مُحْلِهِ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ يَهْوَاهُ لَا يَرْفَضُهُ وَبِالْتَّالِي فَإِنَّهُ يَنْغُلُبُ مِنْهُ. فَقِيْ بِدَائِيْهِ الْأَمْرِ يَكُونُ هَنَاكَ فِي

(۱) انظر: مر ۱۰: ۱۷.

الدّاخِلُ، فِي قَلْبِهِ، قَتَالُ وَصْرَاعٌ وَمَقَايِيسٌ وَمَفَاضِلٌ وَمَوازِنَةٌ بَيْنَ مُحَبَّةِ اللَّهِ وَمُحَبَّةِ الْعَالَمِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَقدِّمُ وَيَنَاظِرُ نَفْسَهُ، هَلْ يَشْرُعُ فِي مَخَاصِمَةِ أَخِيهِ وَمَشَاحِنَتِهِ، قَائِلًا فِي نَفْسِهِ: ”أَقُولُ أَمْ لَا أَقُولُ؟ أَتَكَلَّمُ أَمْ لَا أَتَكَلَّمُ؟“ . وَرَغْمَ أَنَّهُ يَكُونُ مُتَذَكِّرًا اللَّهُ، إِلَّا أَنَّهُ يَعْكُفُ عَلَى طَلْبِ مَجْدِهِ الْخَاصِّ وَلَا يَنْكِرُ ذَاتَهُ، فَتَرْجِحُ قَلِيلًا مُحَبَّةُ الْعَالَمِ وَتَتَقَلَّلُ كِفْئُهَا فِي مِيزَانِ قَلْبِهِ^(١)، وَلِلْوَقْتِ تَنْدَعُ الْكَلْمَاتُ الشِّيرِيَّةُ إِلَى شَفْتِيهِ، ثُمَّ يَصِيرُ الْعُقْلُ وَكَانَهُ يَشُدُّ قَوْسًا لِيُطْلَقُ سَهَامًا مِنْ دَاخِلِهِ، فَيُرْشِقُ الْإِنْسَانَ قَرِيبَهُ بِوَاسِطَةِ لِسَانِهِ، مَرْسَلًا بِإِرَادَتِهِ سَهَامَ كَلْمَاتِهِ غَيْرِ الْلَّائِقَةِ وَطَالِبًا مَجْدَ ذَاتِهِ . وَبِتَوَالِي الرَّشْقِ بِتِلْكَ الْكَلْمَاتِ غَيْرِ الْلَّائِقَةِ مَرَازِيَّ كَثِيرَةٌ تَمْتَدُّ الْخَطِيَّةَ إِلَى أَعْضَاءِ أَخْرَى لِتُتَبَادِلُ الضَّرَّبَاتِ، وَرَبِّما يَصِلُّ الْأَمْرُ إِلَى الْجَرْوَحِ إِنْ طَالَ الصِّرَاعُ أَعْضَاءَ الْجَسَدِ الْأُخْرَى، بَلْ وَرَبِّما، حِينَ تَكُمُّلُ الرَّغْبَةُ الشِّيرِيَّةُ، يَبْلُغُ الْأَمْرُ حَدَّ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ .

فَانْظُرْ مِنْ أَينَ تَبْدأُ مُحَبَّةُ الْمَجْدِ الْعَالَمِيِّ وَإِلَى أَينَ تَنْتَهِي إِذَا مَا رَجَحَتْ هِيَ كِفَّةُ مِيزَانِ الْقَلْبِ نَحْوَ مُشَيَّةِ الذَّاتِ . فَإِنَّ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَمْ

(١) مِنَ الشَّائِقِ جَدًّا مَعْرِفَةُ أَنَّ هَذَا التَّعْبِيرُ ”*καρδίας τάχυον*“ = مِيزَانُ الْقَلْبِ، وَهُوَ التَّسْمِيَّةُ الَّتِي أَطْلَقَهَا الشَّارِوبيُّمُ عَلَى بَرِّيَّةِ أَنْبَا مَقَارَ بَعْدَمَا قَاسَ قَلْبَهُ فَأَضَحَتْ ثَدْعَى ”بَرِّيَّةُ شَيْهِيْبِيتْ - مِيزَانُ الْقُلُوبِ“، هُوَ خَاصٌّ جَدًّا لِلْأَنْبَاءِ مَقَارٍ، بِحِيثُ أَنَّهُ بِالبِحْثِ فِي مَجْمُوعَةِ TLG بالكامل - وَهِيَ تَحْوِي جَمِيعَ الْكَتَابَاتِ الْيُونَانِيَّةِ بِدَءُمًا مَمَّا كَتَبَهُ الْفَلَاسِفَةُ وَالْعُلَمَاءُ الْإِغْرِيقُ عَدَّةٌ قَرُونَ قَبْلَ الْمُسِيحِ، وَعَبُورًا بَأَيَّادِ الْكَيْسِيَّةِ الَّذِينَ كَتَبُوا بِالْيُونَانِيَّةِ، وَحَتَّى بِدَءُمَّ الْعَصُورِ الْوَسْطَى - لَمْ يَوْجَدْ إِلَّا ثَلَاثَةُ مَوَاضِعُ وَرَدَّ فِيهَا هَذَا التَّعْبِيرُ، وَجَمِيعُهَا لِلْقَدِيسِ أَنْبَا مَقَارَ (انْظُرْ: Amel. Hist. Monast. p.118).

ينكر نفسه وأحب شيئاً ما من العالم، صارت كلُّ تلك التُّرَهَاتِ. وصِدِّيقِي فإنَّ هذا هو الحال بالنسبة لكلِّ خطيئة ولكلِّ عملٍ خبيثٍ حين يُغوي الشَّرُّ إرادةَ العقل ويدفعها صَوْبَ الشَّهُوَاتِ الْعَالَمِيَّةِ وصَوْبَ خداعِ الجسد ولذته. وهكذا يُقْتَرِفُ كُلُّ فعلٍ شَرِيرٍ، إنْ كان زَنَّاً أو سرقةً أو طمعاً أو سُكُراً أو حبباً للفضَّةِ أو مجدًا باطلًا أو غَيْرَةً أو حبًّا للرِّئَاسَةِ أو كُلُّ ما شابه ذلك من الأفعال الشَّرِيرةِ. بل وأحياناً تُوجَدُ أفعالٌ تبدو حَسَنَةً، ولكن إنْ كانت تُعَمَّلُ من أجلِ مَجَدِ النَّاسِ ومَدِحِهِمْ، فإِنَّما - في نظرِ الله - مِثْلُهَا مِثْلُ الظُّلْمِ والسرقةِ وباقِي الْخَطَايَا، لِأَنَّهُ يَقُولُ «إِنَّ اللَّهَ بَئْدَ عِظَامٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَوَحَّدُونَ مَرْضَاهَا النَّاسِ» (مز ٥٢ : ٦). فإنَّ الشَّرِيرَ (أيِّ الشَّيْطَانِ)، كُوْنُهُ مُتَفَقِّنًا في شهُوَاتِ الْعَالَمِ وَمُخَاتِلًا لِهَا، يَتَغَيِّرُ أَنْ يُخْدِمَ وَلَوْ بِوَاسْطَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَبُدو حَسَنَةً. فَمِنْ أَجْلِ مُحَبَّةِ مَا أَرْضِيَّ وَجَسْدِانِيَّةِ يُكَبِّلُ بَهَا الإِنْسَانُ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِ يُغَوِّي مِنَ الشَّرِّ، فَيَصِيرُ لَهُ هَذَا الشَّرُّ عُلَلاً وَوَثَاقًا وَحَمْلًا ثَقِيلًا يُغْرِقُهُ إِلَى أَسْفَلِ يَخْنَقُهُ فِي عَالَمِ الشَّرِّ، وَلَا يَدْعُهُ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَنْطَلِقُ إِلَى اللهِ، إِذْ إِنَّمَا يَهْوَاهُ الإِنْسَانُ مَمَّا هَذَا الْعَالَمُ، هُوَ يُغَيِّلُ عَقْلَهُ وَيَقْوِي عَلَيْهِ وَلَا يَدْعُهُ يَرْفَعُ رَأْسَهُ.

فَفِي هَذِهِ الْمَقَايِسِ وَالْمَوازِنَةِ وَالْمُفَاضَلَةِ مِنْ جَهَةِ الشَّرِّ يُعلَقُ وَيُمَتَّحَنُ كُلُّ الجنس البشري، يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ الْمُسِيحِيُّونَ الْقَاطِنُونَ فِي الْمَدَنِ أَوْ فِي الْجَبَالِ أَوْ فِي الْأَدِيرَةِ أَوْ فِي الْقُرَى أَوْ فِي الْبَرَارِيِّ، فَإِنَّ كَانَ الإِنْسَانُ - مَخْدُوعًا

بمشيئة نفسه - يهوى شيئاً ما، فإنّ محبتَه إذ ذاك تصبح مغلولةً، ولا تكون بكمالها نحو الله. فيوجد إنسانٌ، مثلاً، يحبُّ القنبلة، وآخرٌ يحبُّ الذهب والفضة، وآخرٌ مستعبدٌ لبطنه، وآخرٌ لشهوات الجسد، وآخرٌ - من أجل مجد الناس - يهوى الحكمة العالمية في الكلام، وآخرٌ يحبُّ الرئاسة، وآخرٌ يحبُّ المجد والكرامات البشرية، وآخرٌ يميل إلى الغضب والسبخة إذ يُسلِّم نفسه سريعاً لهذا الوجع فيهواه، وآخرٌ يميل إلى اللقاءات غير اللائقية، وآخرٌ يميل إلى الحسد، وآخرٌ يُنقم نفسه طوال اليوم ويتعذّرها، وآخرٌ يخدع نفسه بالأفكار الباطلة، وآخرٌ يحبُّ أن يكون معلماً للفضيلة لأجل مجد الناس، وآخرٌ يلذّذ نفسه برخاؤه وبلا اكترات، وآخرٌ مكبّلٌ بالاهتمام باللّيأس والقِيَاب، وآخرٌ يُسلِّم نفسه للاهتمامات الأرضية، وآخرٌ يحبُّ الثوم أو المزيل أو الكلام القبيح. فإنَّ منْ أمسِكَ بمحبَّةِ شيءٍ عالميٍّ، صغيراً كان أم كبيراً، فإنه بهذا الشيءِ عينه يُكبسَ ولا يمكنه أن يرفع رأسه. فالهوى الذي لا يحارِب الإنسان قبالتَه بشهامةٍ، يميل إلى حبه، فيمسكه ذلك الهوى ويُقلله ويُصير له عائقاً وقيداً يحول دون انطلاق عقله نحو الله وإرضائه وخدمته له وحده وأهليته لنيلِ الملائكة والحياة الأبدية.

فإنَّ النفس التي وجهتها نحو الله بالحقِّ، تجتذب محبتَها إليه بالتأمّل فترتبط به وحده باختيارها وبكلِّ قوّتها، فإذا ذاك فإنَّها تحظى بمعونة

الْعِمَّة فَتَكُرُ ذَاكَرًا وَلَا تَبْعُدُ مُشَيْنَاتِ عَقْلِهَا - إِذْ إِنَّ الْعُقْلَ يَسْلُكُ مَعْنَا
بِالْمَكْرِ بِسَبِّ الشَّرِّ الْمُخَاتِلِ الْمَلَازِمِ لَنَا - بَلْ تُسْلِمُ ذَاكَرًا بِالْتَّمَامِ لِكُلِّ كَلِمةِ
الرَّبِّ، وَتَنْفَكُ مِنْ كُلِّ رِبَاطٍ خَارِجِيٍّ بِأَقصىِ اسْتِطاعَتِهَا إِرَادَتِهَا، وَتُعْطِي
ذَاكَرًا بِالْكَامِلِ لِلرَّبِّ، وَهَكُذا تَمْكُنُ بِسَهْوَةٍ مِنْ اجْتِيَازِ الْجَهَادَاتِ
وَالْأَنْعَابِ وَالشَّدَائِدِ. لَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِمَّا أَنْ يُعَانِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَحْبُّهَا
وَإِمَّا أَنْ يُثْقَلَ مِنْهَا؛ فَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْبُّ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، فَهَذَا
الشَّيْءُ عَيْنُهُ يَصِيرُ لَهُ ثِقَلًا وَأَغْلَالًا تَجْذِبُهُ إِلَى أَسْفَلِ وَلَا تَدْعُهُ يَنْطَلِقُ إِلَى
فَوْقِ نَحْوِ اللَّهِ؛ أَمَّا إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْبُّ الرَّبَّ وَوَصَايَاهُ، فَمِنْ ذَلِكَ يُعَانِ
وَمِنْ ذَلِكَ يَخْفِي حِمْلَهُ، وَتَغْدو وَصَايَا الرَّبِّ سَهْلَةً بِالنِّسْبَةِ لَهُ، لَأَنَّ مُحِبَّهُ
لِلرَّبِّ تَحْفَظُهُ بِالْتَّمَامِ وَتُرْجِحُ كِفَّتَهُ نَحْوَ الصَّالِحِ، بَلْ وَبِالْأَكْثَرِ يَخْفِي
وَهُوَنِ كُلُّ قَنْدِلٍ وَكُلُّ شَدَّةٍ، وَبِوَاسِطَةِ الْقَدْرَةِ الإِلهِيَّةِ تَصْدُعُ الْعَالَمُ مَعَ مَا
فِيهِ مِنْ قَوَافِلَ الشَّرِّ الَّتِي تَصْطَادُ النَّفَسَ وَتُؤْثِقُهَا فِي قُرْبِ الْعَالَمِ بِفَخَاخِ
شَتَّى الشَّهَوَاتِ. وَهَكُذا فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ النَّفَسِ تَنْحِلُّ مِنْ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ
بِإِيمَانِهَا الْخَاصِّ وَاجْتِهادِهَا الْكَثِيرِ، وَبِوَاسِطَةِ الْمَعْوِنَةِ الْعُلُوِّيَّةِ تَؤَهِّلُ لِلْمَلَكُوتِ
الْأَبْدِيِّ حِيثُ وَضَعَتْ مُحِبَّتِهَا. فَلَأَنَّ النَّفَسَ قَدْ أَحْبَبَتْ هَذَا الْمَلَكُوتَ بِالْحَقِّ،
بِإِرَادَتِهَا الْخَاصَّةِ، وَنَالَتِ الْمَعْوِنَةَ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ، فَإِنَّمَا لَا تَسْقُطُ مِنَ الْحَيَاةِ
الْأَبْدِيَّةِ.

[د] تكريس كل الحجية للزب وحده

ولكي نبرهن من الأمور الظاهرة كيف أنَّ كثيرين يهلكون بمحض مشيئتهم، فيغرقون في البحر أو يمسكون في السُّيِّ؛ فلتفترض معي أنَّ بيئاً اندلعت فيه التّيَّران، فمنْ كان يتغى أن ينجو بنفسه، فحالما يستشعر الحريق يهرب عارياً تاركاً خلفه كلَّ شيءٍ، فلأنَّه أراد أن يقتني نفسه وحدها حَلْصاً؛ لكنْ إنْ كان هناك إنسانٌ آخر يُريد أن يأخذ شيئاً ما من البيت: آنيةً أو ثياباً أو أيَّ شيءٍ آخر، فإنَّه يدخل لكي يحمله، وفيما هو يحمله تكون التّيَّران قد التهمت البيت فتحبسه في الدّاخِل ويحترق. فانظر إذاً أنه بمشيئته الخاصة ومن أجل محبَّةِ ما - إذ قد أحبَّ شيئاً زائلاً بخلاف نفسه - قد هَلَكَ في التّيَّران. وبالمثل أيضاً في البحر، لو أنَّ قوماً قد طُغَت عليهم الأمواج وانكسرت بهم السُّفينة، فمنْ يخلع ثيابه وينزل عارياً في الماء راغباً فقط في أن ينجو بنفسه، فإنه يحمل بواسطه الأمواج ويسبح فوقها كونه غير مُتَّفِّل بشيءٍ، فيتمكنُ من عبور هذا البحر المُرّ وهكذا يقتني نفسه؛ ولكن إنْ كان هناك إنسانٌ آخر يُريد أن ينجو محتفظاً بشيءٍ من ثيابه، ظانًا أنه بمقدوره أن يسبح ويعبر البحر لا بسَا شيئاً من ثيابه التي حملها معه، فإنَّ تلك الثياب بعينها التي أخذها معه تُقلِّله إلى أسفل وترعرقه في جنة البحر، وهكذا فإنَّه من أجل ريح بخسٍ يهلك ولا يقتني نفسه، فها أنت ترى أنَّه

بمشيئته الخاصة قد أسلمه إلى الموت. فلتفترض معي أيضاً أنَّ صوت غرباء قد سمع مُفْقِلاً، فهناك مَن يهرب في الحال دون تأخيرٍ بعجرد سماعه الصوت ويخرج عارياً^(١)؛ ولكن هناك أيضاً مَن يتلگأ في الهروب، إما لأنَّه لا يصدق أنَّ الأعداء قادمون، أو لأنَّه يهوى أشياءً من مقتنياته ويريد أن يحملها معه، فيأتي الأعداء ويعسكونه ويأسرونـه إلى أرض هؤلاء الغرباء حيث يُستعبد قهراً، فها أنت ترى أنَّه بمشيئته وبسبب رخاوته وعدم شجاعته وبسبب محبيـه لشيءٍ ما، قد افتـيد إلى السـيـ. هـكـذا بالـمـثـلـ أـيـضاـ الـذـينـ لـاـ يـتـبعـونـ وـصـاياـ الرـبـ لـاـ يـنـكـرونـ ذـواـهـمـ وـلـاـ يـكـرـسـونـ حـبـهـمـ لـلـرـبـ وـحـدهـ، بلـ هـمـ مـكـبـلـونـ باـخـتـيـارـهـمـ بـرـبـطـ الـأـرـضـ، فـمـقـىـ جـاءـتـ النـارـ الـأـبـدـيـةـ، فـإـنـهـمـ وـقـدـ وـجـدـوـ فـيـ مـحـبـةـ الـعـالـمـ - يـحـتـرـقـونـ، وـيـغـرـقـونـ فـيـ بـحـيـةـ الشـرـ الـمـرـءـةـ، وـيـسـبـونـ مـنـ قـبـلـ الـقـبـائـلـ الـغـرـيـبةـ أـيـ أـرـوـاحـ الشـرـ، وـهـكـذاـ يـهـلـكـونـ.

فـإـنـ كـنـتـ تـرـيدـ أـنـ تـتـأـمـلـ مـنـ الـكـتـبـ الـمـقـدـسـةـ الـمـوـحـيـ بـهـاـ مـنـ اللهـ استـقـامـةـ الـمـحـبـةـ الـكـامـلـةـ نـحـوـ اللهـ، فـانـظـرـ إـلـىـ أـيـثـوبـ كـيـفـ أـنـهـ تـعـرـىـ - إـنـ جـازـ القـوـلـ - مـنـ كـلـيـ مـاـ يـمـلـكـ: مـنـ بـنـيهـ وـأـمـوـالـهـ وـمـوـاـشـيـهـ وـعـبـيـدـهـ وـبـاقـيـ مـاـ يـمـلـكـهـ،

(١) في هذه الأمثلة الثلاثة، يُشير أئـبـاـ مـقـارـ إـلـىـ أـنـ الإـنـسـانـ الـذـيـ يـرـيدـ الـخـلاـصـ عـلـيـهـ أـنـ يـعـرـىـ مـنـ كـلـيـ شـيـءـ. وـنـجـدـ هـذـهـ الإـشـارـةـ عـيـنـهـاـ أـيـضاـ فـيـ قولـ لهـ شـهـيرـ: "كمـثـلـ إـنـسـانـ إـذـاـ دـخـلـ الـحـمـامـ، إـنـ لـمـ يـخـلـعـ عـنـ ثـيـابـهـ لـاـ يـنـعـمـ بـالـاسـتـحـمامـ، كـذـلـكـ الإـنـسـانـ الـذـيـ أـقـدـمـ عـلـىـ الـرـهـبـيـةـ وـلـمـ يـتـعـرـىـ ئـلـاـ مـنـ كـلـيـ اـهـتـمـ الـعـالـمـ وـجـمـعـ شـهـوـاتـهـ وـمـلـدـاهـ، فـلـنـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـصـيرـ رـاهـبـاـ، وـلـنـ يـلـغـ حـدـ الـفـضـيـلـةـ، وـلـنـ يـعـكـهـ كـذـلـكـ أـنـ يـقـفـ قـبـالـةـ جـمـعـ سـهـامـ الـعـدـوـ الـأـنـيـ هـيـ شـهـوـاتـ النـفـسـ" (بـسـتـانـ الرـهـبـانـ - قولـ ٢٠٤).

وكيف أَنَّه هرب متجرِّداً من كُلِّ شيءٍ وخلص نفسه، بل حتى ثوبه نفسه تخلى عنه وألقاه للشَّيْطان^(١)، وما نَبَسَ بكلمةٍ تجديفٍ أمام الرَّبِّ، لا في قلبه ولا بشفتيه، بل على العكس بارك الرَّبَّ قائلاً: «الرَّبُّ أَعْطَى، الرَّبُّ أَخْذَ، كَمَا اسْتَحْسَنَ الرَّبُّ هَكَذَا صَارَ، فَلْيَكُنْ اسْمُ الرَّبِّ مُبَارَّكًا» (أي ١: ٢١ س)^(٢)، فرغم أَنَّه كان يُظْنَى أَنَّ له مقتنياتٍ كثيرةً، إِلَّا أَنَّه لِمَا امْتَحِنَ من الرَّبَّ ظَاهِرٌ أَنَّه لا يُمْلِكْ سُوَى اللَّهِ وحده. كذلك بالمثل أيضاً إِبراهيم، حينما أَمِرَّ من الرَّبَّ أَنْ «اخْرُجْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ» (تك ١٢: ١)، فللحال تعرِّى - إن جاز القول - من كُلِّ شيءٍ: من وطنه وأرضه وأقاربه ووالديه، وتَبَعَ قولَ الرَّبِّ. ثُمَّ بعد ذلك أَتَتْ عليه امتحاناتٌ وبخاربٌ كثيرة: فمن جهةٍ أَخْدَتْ امرأته، ومن جهةٍ أخرى عاش في أرضٍ غريبةٍ وتعَرَّضَ للظُّلْمِ، ولكن خلال هذا كُلِّه تبرهنَ أَنَّه يحبُّ اللَّهَ وحده فوق كُلِّ شيءٍ. بل وأخيراً بعدهما افتني - بموعدِه، وبعد سنتين كثيرة - ابنته الوحيدة الَّذِي طالما اشتاقَ إِليه، وطلَبَ منه أَنْ يُقْدِمْ هذا الابنَ ذبيحةً، قَدَّمه هو بنفسيه بعزمٍ، متجرِّداً من ذاتِه ومتنكِراً إِيَّاهَا بالحقيقة، فبرهنَ بواسطة تقديره لوحيدِه أَنَّه لم يحبَّ أَيَّ شيءٍ آخر بخلافِ اللَّهِ. لِأَنَّ إِنْ كَانَ هَكَذَا بعزمٍ قد

(١) انظر: أي ١: ٢٠.

(٢) وهذه هي الآية عينها التي كان يَهُدُّ فيها القديس بعدهما سُرْقَتْ فلاليته، وكان هو نفسه يساعد الشارق في ترتيب وتحميل الجمل بما سُرَقَ! (Apoph., Mac, 18, 40).

تخلّى عن ذاك، فكم بالأحرى جدًا إنْ أُمِرَ بأن يتخلّى عن باقي ما يملك، أو بأن يوزّعه دفعةً واحدة على الفقراء، فإنه بكل استعداد وعزّم كان سيفعل هذا. أترى استقامة الحبّة الكاملة الطوعيّة نحو الله؟

هكذا أيضًا الذين يريدون أن يصيروا ورثةً مع أولئك^(١)، يتحمّل عليهم أن لا يحبّوا أيّ شيءٍ بخلاف الله، لكي إذا ما امتحنوا، وجدوا لأنفسهم ومزگين وصائين طبعتهم الكاملة نحو الرّبّ. مثل هؤلاء هم القدرة أن يجتازوا الجهاد حتى النهاية، هؤلاء الذين – بإرادتهم – قد أحبو الله وحده على الدّوام، وفكوا ذواهم من كلِّ حبّةٍ عالميّة^(٢). وقليلون جدًا هم الذين يوجدون حاملين مثل هذه الحبّة، ومعرضين عن جميع ملذات العالم وشهواته، وصابرين بطول أناةٍ على هجمات الشّرّير وتجاربه. لكن هل لأنَّ كثيرين من الذين يعبرون الأنهر ينجرفون بالياه، لا يوجد تبعًا لذلك مَنْ يعبر الأنهر الموجلة التي لشهوات العالم المختلفة ولتجارب أرواح الشرّ المتنوعة؟ وهل لأنَّ سُفنًا كثيرةً في البحر تطمو فوقها الأمواج فتفرق، لا

(١) انظر: عب ١١: ٩؛ كو ١: ١٢.

(٢) هذه المعاني وما سبقها في الفقرات السابقة تذكّرنا بالخطاب الأخير لأنّا مقار الذي بدأ بقوله: ”كثيرة هي أمجاد القديسين ... والآن أيّ شيء كان لهم وليس لنا، سوى أهتم تركوا أهوية قلوبهم ... ولم يبعدم عن محبتهم شيءٌ من أمور العالم ... كمثل إبراهيم الذي أحبّ الله جيًّا كاملاً ولم يشقق على ابنه إسحق ...“.” (”الْإِهْبَةُ الْقَبْطِيَّةُ فِي عَصْرٍ قَدِيمٍ“، أثينا مقار، طبعة ١٩٩٥ ص ١١١-١١٢)

يوجد بالتألي بعضاً منها وقد عبر واجتاز فوق الأمواج وبلغ ميناء السَّلام؟ إنما الحاجة ماسَّةٌ كُلَّ حين إلى إيمان عظيم، وطول أناة، وجهاد، وصبر، وأتعاب، وجوع وعطش إلى الصَّلاح، وعزيمة قاطعة، ولجاجة، وإفراز، وفهم.

[ه] المجد مُذَخِّر في الصبر على الشدائـد

فإنَّ سَوادَ النَّاس يبتغون ثَيْلَ الْمَلْكُوت بلا أتعابٍ ولا جهاداتٍ ولا أعراق، وهذا أمر مستحيل. فمثلاً يحدث في العالم أنْ يذهب رجال ليشتغلوا عند إنسان غنيٍّ، في الحصاد^(١) أو في عملٍ آخر لكي يحصلوا على ما يُقيِّمون به أَوْدَهُم، فإنَّه يوجد بينهم أيضًا قومٌ متکاسلون في أنفسهم ومتراخون وبطَّالون لا يجتهدون كما يجب ولا يشتغلون كما يليق. فهولاء، وهم لا يتبعون في بيت ذلك الرجل الغنيّ ولا يجتهدون، يرومون أنْ يحصلوا على أجرٍ مساوٍ لأجر أولئك الذين يشتغلون بنشاطٍ وعزَمٍ ماضٍ وبكلِّ قوَّتهم، كما لو كانوا هم أيضًا قد أَنْجُوا عملهم؛ هكذا بنفس الطريقة حينما نقرأ نحن أيضًا الكتب المقدَّسة ونرى كيف أنَّ هذا الصَّديق أو ذاك قد أرضى الله، وكيف صار خليلاً لله^(٢) أو كليماً له^(٣)، بل وكيف صار جميع

(١) نلاحظ أنَّ أَنْبَا مقار كان يعمل مع أولاده في زمان الحصاد (انظر: بستان الرُّهبان - قول ٣٩، وفضائل أَنْبَا مقار - قول ٣٧ = p.153 - Amélineau, H. des M. de la Basse-Égypte).

(٢) انظر: بع ٢٣: ٢.

(٣) راجع: عد ١٢: ٨.

الآباء أحبابَ الله وورثةٌ له، كم صبروا على الشدائِدِ، وكم تألموا من أجل الله، وكم سلكوا بشهادةٍ وجاهدوا؛ فنحن نطويهم ونتبغي الحصول على هباتٍ وكراماتٍ كتلك التي حازوها، وننوق باشتئاءٍ أن ننال تلك الموهاب المديدة، ونخوض مغامراتٍ كراماتهم وجهاداتهم وشدائدهم وألامهم. في بينما نرغب باشتياق لأن ننال كراماتهم وأمجادهم التي أعطيت لهم من الله، لا نقبل أتعابهم وألامهم وجهاداتهم! ^(١)

ولكثيّر أقول لك إن كلَّ الناس يرغبون في ذلك ويستيقظون إليه، وحبيّ الرّواني والعشارون والظالمون يرغبون أيضًا في أن ينالوا الملائكة بسهولة وبلا أتعابٍ ولا جهاداتٍ! فمن أجل هذا يوجد على طول الطريق تجاربُ وامتحاناتٌ كثيرةٌ وشدائِدُ وجهاداتٌ وأعراق، حتّى يكونوا ظاهرين أولئك الذين آتُوا إلى الرّب بالحقّ وحقّ الموت، وأحبّوه وحدَه من كلِّ نيتهم ومن كلِّ قدرتهم، ولم يكن لديهم أيُّ شيءٍ آخرٍ مُشتَهَى إلى جوار محبتهم له. بسبب هذا أيضًا، فإنَّهم بعديٍ يدخلون إلى ملائكة السَّماوات، لأنَّهم قد أنكروا نفوسهم كقول الرّب، وأحبّوا الرّب وحده أكثر من حياتهم

(١) في خطابه الأخير ييلُور أنساً مقارنًا هذا التعليم بقوله: ”فاستيقظوا يا أحبابي ولا يظنّ الذين يأكلون ويشربون ويرقدون بلا قدر والذين لا يلومون أنفسهم، أنَّهم يتسلون بالذين يتعجبون ويسهرون ويحرضون في كلِّ شيءٍ من أجل الله“.

(”الرهبة القبطية في عصر القديس أنساً مقارن“، طبعة ١٩٩٥، ص ١١٤)

الخاصة. فلأجل هذا سيكافأون عن محبتهم الفائقة بالهبات السماوية الفائقة. فإن المواعيد والمجده والحصول الكامل على الخيرات السماوية إنما هو مكون في الشدائيد والآلام والصبر والإيمان، كاختباء الثمر في البذرة التي تلقى في الأرض؛ أو كمثل الشجرة التي تُحصَب بشيء من السبات والثمار تنمو وسط القاذورات، ولكنها فيما بعد تظهر وقد اكتسبت بالبهاء والمجده والثمر المتکاثر؛ هكذا أولئك، إن لم يجتازوا تلك الأمور المستوجبة الهوان والإفنا، فلن يظروا مُزدانيين بالجمال والمنظر البهي والثمر المتکاثر، كما يقول الرسول: «بِضيقَاتٍ كَثِيرَةٍ نَتَمَكَّنُ مِنْ أَنْ نَدْخُلَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (أع ١٤: ٢٢ - حسب النَّصْ)، وكما يقول الرَّبُّ: «بِصَرِّكُمْ اقْتُنُوا أَنْفُسَكُمْ» (لو ٢١: ١٩)، وأيضاً: «فِي الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ» (يو ٣٣: ١٦).

لذلك فالحاجة ماسة إلى تعب واجتهاد ويقظة وحدرٍ كثير، وإلى حاجة وعزيمةٍ ماضيةٍ في السؤال إلى الرَّبِّ، حتى يمكننا أن نعبر فخاخ الشهوات الأرضية وأشراك اللذات وعواصف العالم، ونفلت من هجمات الأرواح الشريرة، وندرك جيداً بأيَّةٍ يقظةٍ وسهرٍ في الإيمان والحبّة اقتني القديسون في نفوسهم، منذ الآن، الكنز السماوي أي قوّة

الرُّوحُ الْقَدِيسُ الَّذِي هُوَ عَرِيبُونُ الْمَلْكُوتِ^(۱). فَإِنَّ الطُّوبَاوِيَّ بُولِسَ الرَّسُولُ يُحَدِّثُنَا عَنْ هَذَا الْكَنْزِ السَّمَاوِيِّ الَّذِي هُوَ نِعْمَةُ الرُّوحِ الْقَدِيسِ، فَلَئِنْ كَانَ يُبَغِّرُ بِالشَّدَادِ الْتَّقِيلَةِ جَدًّا إِلَّا أَنَّهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ يُرِينَا مَاذَا يُبَغِّرُ لِكُلِّ مَنَّا أَنْ يَطْلُبَ مِنْ وَرَائِهَا وَمَا الَّذِي يَلْزَمُ أَنْ نَقْتِنِيهِ، إِذْ يَقُولُ: «لَاَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ نَقْضَ بَيْتَ حَيْمَتِنَا الْأَرْضِيِّ، فَلَنَا بِنَاءٌ مِنَ اللَّهِ، بَيْتٌ عَيْرٌ مَصْنُوعٌ بِيَدِ، أَبْدِيٍّ، فِي السَّمَاوَاتِ» (۲ كِوۡ ۵ : ۱).

[و] المجد مرهون باقتناه الروح القدس

٧ - فَيُبَغِّرُ لِكُلِّ وَاحِدٍ إِذَا أَنْ يُجَاهِدَ وَيُسْعَى فِي أَثْرِ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ وَيَقْتِنِي الإِيمَانَ حَتَّى يَحْظَى بِذَلِكِ الْبَيْتِ. لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ بِيَسْتَا الْجَسَدِيَّ يُنَقَّضُ فَلَنْ يَكُونَ لَنَا بَيْتٌ أَخْرَى تَأْوِي إِلَيْهِ نَفْوُسُنَا، لِذَلِكَ فَهُوَ يَقُولُ: «وَإِنْ كُنَّا لَا بِسِينَ، فَلَنْ نُوجَدَ عَرَاءً» (۲ كِوۡ ۳ : ۵)، أَيْ عَرَاءً مِنْ شَرِكَةِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ وَالْمَخْلُطَةِ مَعَهُ، تِلْكَ الشَّرِكَةُ الَّتِي فِيهَا وَحْدَهَا يُمْكِنُ لِلنَّفْسِ الْأَمِينَةِ أَنْ تَجْدِدَ رَاحْتَهَا. مِنْ أَجْلِ هَذَا، فَإِنَّ الْمُسِيحِيِّينَ - الَّذِينَ هُمْ مُسِيحِيُّونَ بِالْحَقِّ وَالْفَعْلِ - يَنْقُونَ وَيَفْرُحُونَ بِأَنْ يَنْطَلِقُوا مِنَ الْجَسَدِ^(۲)، لِأَنَّهُمْ حَائِزُونَ عَلَى ذَلِكَ

(۱) انظر: ۲ كِوۡ ۱ : ۲۲، ۵ : ۵، أَف۰ ۱ : ۱۴.

(۲) انظر: ۲ كِوۡ ۵ : ۸.

البيت غير المصنوع بيد، الذي هو قوّة الروح القدس الساكنة فيهم^(١). لذلك وإن كان بيتهم الجسدي سينحل إلا أنّهم لا يخافون، لأنّ لهم البيت السماوي الذي للروح القدس، وهم ذلك المجد الذي لا يفقىء، ذلك المجد الذي سوف يبني البيت الجسدي يوم القيمة ويعيده، كما يقول الرّسول: «الذِّي أَقامَ الْمَسِيحَ مِنْ بَيْنِ الْأَمْوَاتِ سَيُخْرِجُ أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أَيْضًا بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيهَا» (رو ٨: ١١)، وأيضاً: «لِكَيْ تُظَهَّرَ حِيَاةً يَسْوَعُ أَيْضًا فِي جَسَدِنَا الْمَائِتَةِ» (٢ كو ٤: ١١)، وأيضاً: «لِكَيْ يُبَتَّلَعَ الْمَائِتَةُ مِنْ الْحَيَاةِ» (٢ كو ٥: ٤).

٨ - فلنجالدَنَّ إِذَا بِالإِيمَانِ وَالسَّيِّرَةِ الْفَاضِلَةِ، لَكِي نَقْتِي ذَلِكَ التَّوْبَ، حَتَّى إِذَا مَا خَلَعْنَا الْجَسَدَ لَا تُوجَدُ عُرَاةٌ، إِذَا لَا يَكُونُ هُنَاكَ مَا يَمْحَدُ أَجْسَادَنَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. لَأَنَّهُ بِقَدْرِ مَا يُؤْهَلُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِالإِيمَانِ وَالْجَهَادِ لِيَصْبِحَ شَرِيكًا لِلرُّوحِ الْقَدْسِ، سَيَتَمْجَدُ جَسَدُهُ أَيْضًا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَإِنَّ مَا تَكِنْزُهُ النَّفْسُ فِي دَاخِلِهَا مِنْذَ الْآنِ سَوْفَ يُسْتَعْلَنُ حِينَذَاكَ وَيَظْهُرُ خَارِجُ الْجَسَدِ. فَكَمَا أَنَّ الْأَشْجَارَ بَعْدَ أَنْ تَكُونُ قد اجتازَتِ الشِّتَّاءَ،

(١) أَنْ تكون «مسكناً للروح القدس» هو من المعاني الشائعة في العظات الخمسين، وهذا هو ما كان يبحث عنه مقار أولاده عليه، فتجده في خطابه الأخير، كوصيّة أخيرة لهم، يقول: «احبوا إذاً حلاوة الجهاد، لأنّ التّعب والحرّص يأتي بالإنسان إلى التّياح، ويشفي جميع أوجاع قلبه، ويجلب له خيرات السّماء، وفي التّهاية يصير مسكناً للروح القدس». (الخطاب الأخير للأبا مقار)

تَسْخُن بِفَعْلِ قُوَّةٍ غَيْرِ مَنْظُورَةٍ تَأْتِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالرِّياحِ، وَتُخْرِجُ مِنْ باطِنِهَا وَتُبْنِي كَسَاءً مِنَ الْأُوراقِ وَالْأَزْهارِ وَالثَّمَارِ؛ وَكَمَا أَنَّ زَهْرَ الْعُشْبِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَيْضًا يَطْلُعُ مِنْ دَاخِلِ أَعْمَاقِ الْأَرْضِ فَتَغْطِي بِهِ الْأَرْضَ وَتَكْتَسِي، وَتَصِيرُ الْمَرَاعِيَ كَالْزَّنَابِقِ الَّتِي قَالَ عَنْهَا الرَّبُّ إِنَّهُ: «وَلَا سُلَيْمَانٌ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبِسُ كَوَاحِدَةً مِنْهَا» (مت ٦: ٢٩)؛ فَهَذِهِ كُلُّهَا مَثَالَاتٌ وَرَمَوزٌ وَصُورٌ لِلْمُسِيحِيِّينَ فِي الْقِيَامَةِ.

٩ - هَكُذا أَيْضًا بِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ النُّفُوسِ الَّتِي تَحْبُّ اللَّهَ، أَيِّ الْمُسِيحِيِّينَ الْحَقِيقِيِّينَ، إِنَّ الشَّهْرَ الْأَوَّلَ لَهُ شَهْرٌ "كَسانْثِيُّكُس" (١)، الَّذِي يُقَالُ لَهُ "أَبْرِيلٌ" ، وَفِيهِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٢) حِيثُ يَخْرُجُ مَجْدُ الرُّوحِ الْقَدِيسِ مِنْ دَاخِلِ أَجْسَادِ الْقَدِيسِينَ بِفَعْلِ قُوَّةِ شَمْسِ الْبَرِّ (٣)، فَيَكْسُوُهَا وَيُسْرِيُّهَا، ذَلِكَ الْمَجْدُ الَّذِي سَبَقَ وَاقْتَوَهُ مُخْفَى دَاخِلَ نُفُوسِهِمْ. إِنَّ مَا يَقْتِنِيهِ الإِنْسَانُ الْآنُ هُوَ

(١) Ξανθίκος = Xanthicus: وهو أحد اشهر البوتانيّة، وقد ذكر ثلاثة مراتٍ في الكتاب المقدس (Mk ١١: ٣٠، ٣٢، ٣٨)، ويُقابل شهر نيسان (مارس/أبريل). ونيسان هو رأس شهور السنة التقويمية عند اليهود حيث خرجوا فيه من مصر، وهو أيضًا بداية فصل الربيع حيث تتفتح الأرض وتكتسي الأشجار بالأزهار والثمار، كما ستكتسي أجسام الأبرار في القيامة - بحسب آنبا مقار - بمجد الروح القدس.

(٢) حرفياً: "وهو يوم القيمة". وهذه العبارة "يوم القيمة" في هذا السياق تشير إلى يوم قيادة الصّديقين، ولكنها لا تخلو كذلك من إشارة غير مباشرة إلى يوم قيادة الرّبّ (عيد القيمة)، والذي دائمًا يقع في هذا الشهر. والمعنىان متصلان لأنّ قيادة الرّبّ هي الباكرة والأصل لقيادة الصّديقين. (عن أحد آباء الدير)

(٣) انظر: ملا ٤: ٣.

الَّذِي سُوفَ ينْدِفِقُ إِلَى خَارِجِ جَسَدِهِ حِينَذَاكُ، لَذَلِكَ فَإِنَّهُ يَقُولُ: «فَلْيَكُنْ هَذَا الشَّهْرُ رَأْسُ شُهُورِ السَّنَةِ» (خَرِّ ١٢ : ٢)، فَهُوَ يَحْمِلُ الْفَرَحَ لِكُلِّ الْخَلِيقَةِ، فِيهِ تَسْرِيلُ الْأَشْجَارِ الْعَارِيَةِ وَتَفْتَحُ الْأَرْضِ، وَهُوَ يَجْلِبُ الْفَرَحَ لِكُلِّ الْأَحْيَاءِ وَالْبَهْجَةِ لِلْجَمِيعِ. هَذَا هُوَ شَهْرُ "كَسَانِثِيُّكُسْ" رَأْسُ شَهْرِ الْمُسْكِيَّيْنِ، الَّذِي هُوَ زَمَانُ الْقِيَامَةِ، الَّذِي فِيهِ سَتْمَجَدُ أَجْسَادُهُمْ بِنُورٍ لَا يُوَصَّفُ قَدْ سَبَقَ وَسَكَنَ فِيهِمْ مِنْذَ الْآنِ، الَّذِي هُوَ قَوَّةُ الرُّوحِ الْقَدِيسِ، وَالَّذِي سَيَصِيرُ لَهُمْ حِينَذَاكُ ثُوبًا وَمَأْكَلًا وَمَشْرَبًا وَبَحْجَةً وَفَرَحًا وَسَلَامًا وَلِبَاسًا وَحِيَاةً أَبَدِيَّةً، ذَلِكَ لِأَنَّ رُوحَ اللَّهِ^(١)، الَّذِي قَدْ صَارُوا أَهْلًا لِقَبْوِهِ مِنْذَ الْآنِ، هُوَ عِينُهُ سَيُصْبِحُ آنذاكَ بَهَاءً لِمَعَانِيهِمْ وَزِينَتِهِمُ السَّمَاوَةُ.

١٠ - فَكُمْ يَنْبَغِي إِذَا لِكُلِّ مَنَّا أَنْ يُؤْمِنَ وَيَجْاهِدَ وَيَسْعَى فِي كُلِّ سِيرَةٍ فَاضِلَّةٍ، وَيَتَرَقَّبَ فِي رَجَاءٍ وَصِيرٍ كَثِيرٍ أَنْ يَوْهَلَ مِنْذَ الْآنِ لِنَبْلِ الْقَوَّةِ^(٢) مِنَ السَّمَاءِ وَمَجْدِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ، حَتَّى إِذَا مَا اخْلَتْ أَجْسَادُنَا يَكُونُ لَنَا مَا يَغْطِيْنَا وَيُحْيِيْنَا، إِذَا يَقُولُ الرَّسُولُ: «إِنْ كُنَّا لَا يُسْبِّئُنَا، فَلَنْ نَوْجَدَ عُرَاءً» (كُوٰ ٥ : ٣)، وَأَيْضًا: «سَيُحْيِي أَجْسَادَنَا الْمَائِتَةَ بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِينَا» (روٰ ٨ : ١١ - حَسْبَ النَّصِّ). فَإِنَّ الطُّوبَاوِيَّ مُوسَى قَدْ أَرَانَا - بِوَاسِطَةِ مَجْدِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ الَّذِي سَطَعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْ

(١) حِرْقَيَا: "πνεῦμα τῆς θεότητος" = رُوحُ الْلَّاهُوْتِ.

(٢) انْظُرْ: لوٰ ٤٩ : ٢٤.

النَّاسُ التَّفَرُّسُ فِيهِ - أَرَانَا مَثَالًا فِي كِيفِ أَنَّ أَجْسَادَ الْمُسْتَحِقِّينَ سُوفَ تَتَمَجَّدُ فِي قِيَامَةِ الْأَبْرَارِ بِذَلِكَ الْمَجْدِ الَّذِي تَسْتَحِقُّ اقْتِنَاءُهُ مِنْذَ الْآنِ نَفُوسُ الْقَدِيسِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الدَّاخِلِ فِي الْإِنْسَانِ الْبَاطِنِ، لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «وَخُنُّ جَيِّعًا، يَوْجِهٌ مَكْسُوفٍ - أَيْ بِالْإِنْسَانِ الدَّاخِلِيِّ - نَظَرٌ كَمَا فِي مِرْأَةٍ إِلَى مَجْدِ الرَّبِّ، فَتَتَغَيَّرُ إِلَى تِلْكَ الصُّورَةِ عَيْنِهَا مِنْ مَجْدٍ إِلَى مَجْدٍ» (كُو ٣ : ١٨) - حَسْبَ النَّصِّ)، وَبِالْمُثَلِّ أَيْضًا يَقُولُ: «وَكَانَ (مُوسَى) هُنَاكَ أَرْبَعينَ يَوْمًا وَأَرْبَعينَ لَيْلَةً، خَبِرًا لَمْ يَأْكُلْ، وَمَاءً لَمْ يَشْرَبْ» (خَر ٤ : ٢٨). فَإِنَّ طَبِيعَةَ الْجَسَدِ لَا قَدْرَةَ لَهَا أَنْ تَحْيَا أَمْدًا مُثْلِهَا دُونَ خَبِرٍ إِلَّا إِذَا كَانَتْ تَتَناولُ مِنْ قَوْتِ آخَرَ رُوحَانِيٍّ، ذَلِكَ الْقُوَّةُ الَّذِي تَتَناولُهُ مِنْذَ الْآنِ نَفُوسُ الْقَدِيسِينَ، بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مَنْظُورَةٍ، مِنْ لَدُنِ الرُّوحِ الْقَدِسِ.

١١ - وَهَكُذا فَإِنَّ مُوسَى الطُّوبَاوِيَّ قَدْ أَرَانَا، مِنْ وِجْهَتَيْنِ^(١)، أَيْ مَجْدٍ نُورَانِيٍّ وَأَيْ قَوْتِ رُوحَانِيٍّ مِنْ عِنْدِ الرُّوحِ الْقَدِسِ سُوفَ يَصِيرُ لِلْمُسِيحِيِّينَ الْحَقِيقِيِّينَ فِي الْقِيَامَةِ، ذَلِكَ الْمَجْدُ الَّذِي أَهْلَلُوا لَهُ سَرًّا مِنْذَ الْآنِ. مِنْ أَجْلِ ذَلِكِ، فَإِنَّ هَذَا الْمَجْدَ سُوفَ يَظْهُرُ آنِذَاكَ عَلَى أَجْسَادِهِمْ. فَلَأَنَّ هُؤُلَاءِ الْقَدِيسِينَ قَدْ افْتَنُوا ذَلِكَ الْمَجْدَ مِنْذَ الْآنِ فِي دَاخِلِ نَفُوسِهِمْ، فَإِنَّهُ - كَمَا سَبَقَ وَقَلَا - سَيَكُسُو أَجْسَادَهُمُ الْجَرَدَةَ وَيُسَرِّلُهَا ثُمَّ يَخْتَطِفُهَا^(٢) إِلَى السَّمَاءِ،

(١) الوجهة الأولى: المجد التوراني الذي سطع على وجهه، والوجهة الثانية: اشتراكه في طعام روحاني.

(٢) ωρπάτη = يختطف، وهو الفعل الذي استخدمه بولس الرسول في حديثه عن اختطاف

وفي النهاية سوف نستريح، جسداً ونفساً، مع الرَّبِّ في ملكته إلى الأبد. فإنَّ الله لَمَّا خلق آدم لم يصنع له أجنحةً جسديةً مثل الطُّيور، لأنَّه قد سَبَقَ وأعْدَّ له أجنحةً الرُّوح القدس، الَّتِي هو عتيدٌ أن يمنحها له في القيمة فتجعله خفيفاً وتختطفه حيث يريد الرُّوح القدس، تلك الأجنحة الَّتِي عَدَتْ نفوسُ الْقَدِيسين أهلاً لاقتنائها منذ الآن حتَّى تُحْلِقَ بعقلها في السَّمَاوَاتِ. فإنَّ للْمُسِيحِيِّين عالماً آخر، ومائدةً أخرى، ولِيَسَا آخر، ولِدَةً أخرى، وشَرِيكَةً أخرى، واهتمامًا آخر، ومن أجل هذا فِإِنَّمَّا يفوقون كُلَّ بَنِي البَشَرِ^(١). وهم قد صاروا أهلاً لِتَلِيلِ هذه الأمور منذ الآن في داخل نفوسهم، بواسطة الرُّوح القدس. من أجل هذا، ففي القيمة ستغدو أجسادُهم مستحقَّةً لخيرات الرُّوح القدس الأبديَّة ، وستمتزج بذلك المجد الَّذِي سَبَقَتْ نفوسُهُم واختبرته منذ الآن.

١٢ - فينبغي لكلٍّ منَّا إذاً أن يجاهد ويتعب ويعتهد في سائر الفضائل، وأن يؤمن ويسأَل الرَّبِّ أن يكون إنسانُه الباطن شريكاً منذ الآن لذلك المجد، وأن تكون لنفسِه شَرِيكَةً في قداسة الرُّوح القدس تلك، لكي إذا ما

المؤمنين في اليوم الأخير (أتس ٤: ١٧)، وأيضاً في وصف حادثة اخْتِطافه إلى السماء (كرو ١٢: ٤، ٥).

(١) يعود هنا أنساً مقار، في ختام هذه العظة الطويلة، إلى نقطة البدء الَّتِي كان قد استهلَّ بها العظة (انظر الفقرة الأولى).

تطهّرنا من أدران الشّرّ يكون لنا في القيامة ما يستر أجسادنا المحرّدة ويغطّي عورتنا ويجيّنا ويرجحنا في ملکوت السّماوات إلى الأبد. فإنّ المسيح مزمّع أن ينزل من السّماوات، بحسب الكتب المقدّسة، ويفيّم كلّ بني آدم الذين رقدوا منذ الدّهر، ويوقف^(١) الكلّ في قسمين. أمّا أولئك الذين لهم سماته الخاصة أي ختم الرّوح القدس^(٢)، فسوف يدعوهם كخاصّته ويُوقفهم عن يمينه، فيقول: «خِرافيَ الْخَاصَّةَ تَسْمَعُ صَوْتِي» (يو ١٠: ٢٧)، وأيضاً: «أَنَا أَعْرِفُ خَاصَّيِ، وَأَعْرِفُ مِنْ خَاصَّيِ» (يو ١٤: ١). وحينئذٍ تتسرّب أجساد هؤلاء بمجده الإلهي من أجل أعمالهم الصالحة، ويمتلئون بمجده الروح القدس، ذلك المجد الذي سبق واقتضوه منذ الآن في نفوسهم. وهكذا إذ يتمجّدون بالثّور الإلهي، ويختطفون إلى السّماوات «لِمُلْاقَةِ الرَّبِّ فِي الْهُوَاءِ» كما هو مكتوب، «نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ»^(٣)، الذي معه ستملك إلى الدّهور التي لا نهاية لها، آمين.

(١) στήσει، وهو زمن المستقبل لل فعل "στημι" ، هو الفعل الذي استخدمه المسيح، وبنفس التّصريف، في وصف هذا الحدث عليه (انظر: مت ٢٥: ٣٣).

(٢) انظر: كو ٢: ٢٢؛ رو ٧: ٢.

(٣) اتس ٤: ١٢.

العظة السادسة

الأساس الحقيقى للصلوة

[في أنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُرْضِوَ اللَّهَ، يُنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يُصْنَعُوا صَلَاوَاتِهِمْ بِحِكْمَةٍ، فِي سَلامٍ وسَكُونٍ وَوَدَاعَةٍ، حَتَّى لا يُعْثِرُوا الْجَمِيعَ بِاستِخْدَامِهِمُ الصَّرَخَاتِ. الْعَقْلَةُ تَحْوِي أَيْضًا سُؤَالَيْنَ: الْأَوَّلُ مَا إِنْ كَانَ الْكَرْسِيُّ وَالْأَكَابِيلُ هُيَ خَلْقُهُ، وَالثَّانِي عَنْ كَرْسِيِّ إِسْرَائِيلَ الْأَنْثِيْ شَرِّ]ـ

- [أ] الصَّلَاةُ الَّتِي يَغْرُزُهَا الإِفْرَازُ
- [ب] الأَسَاسُ الْحَقِيقِيُّ لِلصَّلَاةِ
- [ج] سُؤَالُانِ عنِ الْكَرْسِيِّ وَالْأَكَابِيلِ



[أ] الصَّلَاةُ الَّتِي يَغْرُزُهَا الإِفْرَازُ

١- إِنَّ الَّذِينَ يَتَقدَّمُونَ إِلَى الرَّبِّ يُنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يُصْنَعُوا صَلَاوَاتِهِمْ فِي سَكُونٍ وَسَلَامٍ وَهَدْوَءٍ كَثِيرٍ، لَا بِصَرَخَاتٍ غَيْرِ لَاقْفَةٍ أَوْ مَضْطَرْبَةٍ، بَلْ شَاهِضُينَ بِوجْعٍ قَلْبٍ وَأَفْكَارٍ مُتَبَهَّهَةٍ نَحْوَ الرَّبِّ. فَكَمَا أَنَّهُ حِينَ يَعْانِي إِنْسَانٌ آلَامًا وَيَحْتَاجُ إِلَى كِيَّ أوْ جَرَاحَةٍ، يَوْجَدُ مَنْ يَحْتَمِلُ الْآلَمَ الْوَاقِعَ عَلَيْهِ بِرْجُولَةً وَصَبَرَ ضَابِطًا لِنَفْسِهِ بِلَا جَلَبَةٍ أَوْ اضْطَرَابٍ، وَيَوْجَدُ كَذَلِكَ آخَرُونَ، رَغْمَ تَعْرُضِهِمْ لِلْآلَمِ ذَاتِهِ عَنْدَ الْكِيَّ أَوْ الْجَرَاحَةِ، يُطْلَقُونَ صَرَخَاتٍ غَيْرِ لَاقْفَةٍ، فَالْوَجْعُ وَاحِدٌ يَكَابِدُهُ الَّذِي يَصْرُخُ وَالَّذِي لَا يَصْرُخُ، الَّذِي يَضْطَرِبُ وَالَّذِي لَا

يضطرب؟ هكذا أيضاً بينما يوجد أناسٌ يعانون شدّة ووجعاً ويتحمّلون ذلك ببراءة جائِش ضابطين ذهنهما إزاء الأفكار بلا اضطراب، يوجد آخرون أيضاً يعانون الشِّدَّة عيْنَها لكنَّهم يجوزونها بعدم احتمال، فيصنعون صلواتهم بضجيجٍ واضطرابٍ مسِّيدين عشرةً للسَّاعتين؛ بل إنَّه يوجد فريق ثالث كذلك لا يقاومون أيَّ وجعٍ لكتَّهم - مدفوعين بحبِّ الظهور والتَّميُّز عن الآخرين - يُطلِّقون صرخاتٍ غَيْر لائقَة، وكأنَّهم بمثل هذا يستطيعون أن يُرضوا الله!!

٢- وأمَّا خادم الله، فلا يُجديه نفعاً أن يكون في مثل هذا التَّشويش، بل أن يكون في كُلِّ وداعٍ وحكمة، كما قال النَّبِيُّ: «إِلَى مَنْ أَنْظَرْ، إِلَى إِلَى الْوَدِيعِ^(١) وَالْهَادِيِّ وَالْمُرْتَعِدِ مِنْ كَلَامِي؟» (إِش ٦٦: ٢ س). ونحن نجد في الظهور الذي صار لكُلِّ من موسى وإيليا، ورغم تلك الخدمة الكثيرة الكائنة بالأبواق والقوَّات قَدَّام هيبة السَّيِّد، أنَّ استعلان الرَّبِّ قد ظَهَرَ وسط كُلِّ هذا يكتنفه سلامٌ وهدوءٌ وراحة، إذ يقول: «وَإِذَا صَوْتٌ نَّسِيمٌ رَّقِيقٌ، وَفِيهِ كَانَ الرَّبُّ» (أَمْل ١٩: ١٢ س)، وهذا يُبيِّن أنَّ راحة الرَّبِّ إنَّما هي في السَّلام والمهدوء. فإنَّه على الأساس الذي يُرسِّيه الإنسان ووفقاً للبداية التي يبدأها، هكذا يلبيث إلى النِّهاية. فإنَّ كان مِن البداية يصنع صلواته بصرخٍ واضطرابٍ فسوف يستمرّ على هذا النَّهج إلى النِّهاية، ولأنَّ الرَّبَّ محبٌ

(١) هكذا وردت في ترجمة *Aquila* للعهد القديم، ف جاءات كلمة τὸν πρᾶον = الوديع بدلاً من الكلمة τὸν ταπεινόν = المتواضع“.

للبشر فقد يحدث أن يَهْبِت مَعْنَاتَهُ لِمُثْلِهِ هَذَا الْإِنْسَانُ أَيْضًا، وَمِنْ أَجْلِ تَشْجِيعِ النِّعْمَةِ هَذَا يَنْسَجُ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ عَلَى هَذَا الْمَنْوَالِ إِلَى النِّهايَةِ، وَلَكِنَّا نَرَى أَنَّ هَذَا إِنَّمَا هُوَ نَصِيبٌ ضَئِيلٍ مِّنَ الْمَعْرِفَةِ^(١)، لَأَنَّهُمْ يُعْثِرُونَ الْآخِرِينَ، وَهُمْ أَنفُسُهُمْ يَصْنَعُونَ صَلَواتِهِمْ فِي اضْطَرَابٍ!

[ب] الأساس الحقيقى للصلة:

- ٣- أَمَّا الأَسَاسُ الْحَقِيقِيُّ لِلصَّلَاةِ فَهُوَ هَذَا: الانتِبَاهُ إِلَى الْأَفْكَارِ، وَتَتْمِيمُ الصَّلَاةِ فِي هَدْوَءٍ كَثِيرٍ وَسَلَامٍ، فَلَا تَكُونُ هُنَاكَ عَشْرَةُ لِلَّذِينَ فِي الْخَارِجِ. مُثْلُ هَذَا الْإِنْسَانُ، إِذَا مَا قَبِيلَ نِعْمَةَ اللَّهِ وَلَبِثَ فِي هَدْوَئِهِ إِلَى النِّهايَةِ فَسُوفَ يَبْيَنُ كَثِيرِينَ بِطَرِيقَةِ أَفْضَلِ، لَأَنَّ «اللَّهُ لَيْسَ إِلَّا تَشْوِيشٌ بَلْ إِلَّا سَلَامٌ»^(٢). فَأَولَئِكَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ إِلَى الصَّرَخَاتِ يُشَبِّهُونَ عُرْفَاءَ الْمَلَاحِينِ^(٣)، لِذَلِكَ لَا يَمْكُنُهُمْ أَنْ يُصْلِلُوا فِي كُلِّ الْمَوَاضِعِ، لَا فِي كُنَائِسٍ وَلَا فِي قُرَى، رَبِّيَ فَقْطَ يَمْكُنُهُمْ ذَلِكَ فِي الْقُفَّارِ لِيُصْلِلُوا بِحِسْبِ مُشَيْتِهِمْ؛ وَأَمَّا

(١) وَرَدَتْ هَذِهِ الْكَلْمَةُ ٥٢٧٦٤٨٩ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ (أعْ ٤: ١٣ كِو١: ١٤، ١٦، ٢٣، ٢٤، ٢٤)، وَتُرْجِمَتْ فِي جَمِيعِهَا بِـ”الْعَامِيَّةِ” أَيُّ الَّذِي يَفْتَرُ إِلَى الْمَعْرِفَةِ.

(٢) كِو١: ٣٣؛ ١٤: ٣٣.

(٣) ”عَرِيفُ الْمَلَاحِينِ“ (فِي زَمَانِ أَنْبَا مَقَارِ) هُوَ ذَلِكُ الْمَسْؤُلُ عَنْ طَاقَمِ الْمَلَاحِينَ وَعَنْ تَشْكِيلِ وَتَرْتِيبِ الْأَشْرُعَةِ وَالصَّوَارِيِّ وَالْحِبَالِ عَلَى ظَهَرِ السَّفَنِيَّةِ، لِذَلِكَ فَهُوَ دَائِمُ الصَّرَاطِ بِصَوْتٍ عَالٍ حَتَّى يَتَسَوَّلَ لِلْجَمِيعِ سَمَاعَهُ.

الذين يصلون في هدوء فإذاً يبنون الجميع في كل موضع. فالامر اللازم إذاً هو أن ينصب جهاز الإنسان بكماله نحو أفكاره، وأن يقطع غابة الأفكار الشّريرة المحيطة به، ويهرع بنفسه نحو الله، ولا يصنع مشينات أفكاره، بل يجمع - من كل صوب - هذه الأفكار الشّاردة، مماً ممضاً للأفكار الطبيعية من الأخرى الشّريرة. فالنفس الرّازحة تحت الخطيبة تكون وكأنّها وسط غابة كبيرة في جبل، أو وسط قصب على نهر، أو وسط أدغالٍ من أشواكٍ وأحاجٍ، فأولئك الذين يتغدون أن يجتازوا مثل تلك الأماكن، يتوجّب عليهم أن يمدّوا أيديهم، وبقوّةٍ ومشقةٍ يدفعون الأدغال التي تحوطهم؛ هكذا أيضًا الحال مع غابة أفكار القوّة المعادية المحدقة بالنّفس، لذلك فالحاجة ماسّة إلى الاجتهاد وانتباه العقل حتى يميّز الإنسانُ الأفكار الغريبة التي من القوّة المعادية.

٤ - فإنه يوجد من يكون واثقًا من قدرته ويتوهّم أنه من ذاته يستأصل الجبال التي تحوطه، بينما يوجد آخر - من قبيل هدوئه وتميّزه - يتدبّر الأمر بعقله فيكمل بلا تعب عمله أفضل من ذاك. هكذا أيضًا في الصّلوات، فهناك قوم يطّلّقون صرخاتٍ غير لائقة وكأنّهم يعلّلون على قوّتهم الجسدية دون أن يعرفوا خداع أفكارهم، ظاينين أنّهم بقوّتهم الذاتية يحققون تمام النّجاح؛ بينما هناك آخرون، لأنّهم يتبعون إلى أفكارهم ويصنّعون جهادهم

بكامله في الدّاخل، يستطيعون من قبّل فهمهم وإفرازهم أن ينجحوا وأن يدّرّزوا عنهم الأفكار التي تقوم ضدّهم، فيسلكون وفقاً لمشيئة الرّبّ. ونحن نجد أنَّ الرّسول يدعو ذاك الذي يبني الآخر بأنَّه ”أعظم“، إذ يقول: «مَنْ يتكلّم بِالْسِّيَّنَةِ يَبْيَنِي نَفْسَهُ، وَمَنْ يَتَبَيَّنَ لِكَنِيسَةٍ ... لِأَنَّ مَنْ يَتَبَيَّنَ أَعْظَمُ مَمْنُ يَتَكَلَّمُ بِالْسِّيَّنَةِ» (أ. كو ١٤: ٤، ٥)، فسييل كلٌّ واحدٌ إذاً أن يُؤثِّر بناء الآخرين فيحسب أهلاً ملوك السّماوات.

[ج] سؤالان عن الكراسي والأكاليل

٥ - سؤال: يزعم البعض أنَّ الكراسي والأكاليل هي خلائق (ماديّة) لا أرواح، فكيف يجب علينا أن نفهم هذا؟

الجواب: إنَّ عقلنا هو كرسيٌّ للإلهوت، وأيضاً للروح القدس هما كرسيٌّ لعقلنا؛ وبالمثل فإنَّ الشّيطان وقواتِ الظلمة ورئيساتها اتخذت أيضاً، منذ مخالفته الوصيّة، من قلب آدم وذنه وجسده كرسيّاً خاصّاً لها تجلس عليه. وهذا هو الذي من أجله جاء الرّبّ، آخذاً جسده من العذراء، إذ لو شاء هو النّزول إلينا بلاهوته مجرّداً، فمن ذا الذي كان سيقوى على احتماله؟ ولكنه بواسطة أداة^(١) الجسد كان يتكلّم مع النّاس. وأخيراً أنزل

(١) $\rho\gamma\alpha\nu o\nu$ = أداة، وهي كلمة استعملها الآباء كثيراً للتّعبير عن بشرىّة المسيح وعن جسده، فنجد مثلاً ق. أنطونيوس الرّسولي قد استخدم هذه الكلمة خمس عشرة مرّة في كتابه الشّهير

الرَّبُّ أرواح الشَّرِّ الَّتِي كانت قد قبعت في الجسد - أنزلها عن كراسيٍ^(۱) الأذهان والأفكار الَّتِي كانت قد استوطنتها، فطَّهَ الرَّبُّ الضَّمَير^(۲) واتَّخذ هو من العقل والأفكار والجسد كرسياً له.

٦- سؤال: فما هو إذاً معنى قوله: «جَلَسُونَ أَنْتُمْ عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ كُرُسِيًّا، وَتَدِينُونَ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ الْاثْنَيْ عَشَرَ؟» (مت ۱۹: ۲۸).

الجواب: هذا نجده قد صار على الأرض حينما صعدَ الرَّبُّ إلى السَّمَاوَاتِ، لأنَّه قد أَرْسَلَ الرُّوحَ الْمُعَرِّيَ على الْاثْنَيْ عَشَرَ رسُولًا، تلك القوَّةُ المقدَّسةُ الَّتِي لَمَّا آتَتْ سُكُنَتَ وَجَلَسَتْ^(۳) على كراسيِّ أَذْهَانِهِمْ. وعندما قال الواقفون إنَّ هؤلاء قد امتلأوا سُلَافَة^(۴)، ابتدأ بطرس حينئذٍ يدينهُمْ قائلًا عن يسوع إِنَّهُ "رَجُلٌ مُقْتَدِرٌ في الْقَوْلِ وَالآيَاتِ وَأَنْتُمْ صَلَبَتُمُوهُ مَعْلِقِينَ إِيَّاهُ عَلَى حَشْبَةٍ"^(۵)، وَهَا هُوَ يَصْنَعُ عَجَابِيَّ وَيَشْقُ حِجَارَةَ الْقُبُورِ وَيُقْيِيمُ الْمَوْتَى، فإِنَّه مكتوب: «وَيَكُونُونَ فِي الْأَيَّامِ الْآخِيرَةِ إِلَيْيَ سَأَسْكُنُ مِنْ

"تَحْسِدُ الْكَلْمَةَ" (وُتُرجمَتْ في التَّرْجِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْقُمْصِ مَرْقُسْ دَاؤِدَ بـ"أَدَاءَة"، أو "آتِيَّة")؛ وفي جميع هذه المَرَّاتِ استُخدِمَتْ للإِشَارةِ إِلَى جَسَدِ الْكَلْمَةِ. وَجَدَهَا أَيْضًا فِي مَوْضِعٍ أُخْرَى عَدِيدَةَ مِنْ كِتَابَاتِهِ، وَكَذَلِكَ عَنْ ف. كِيرِلسِ الْكَبِيرِ (أَكْثَرُ مِنْ تَسْعِينَ مَرَّةً).

(۱) *καθεῖλεν ἀπὸ θρόνων*، انظر: لو ۱: ۵۲: «أَنْزَلَ الْأَعْرَاءَ عَنِ الْكَرَاسِيِّ».

(۲) انظر: عب ۱۴: ۹.

(۳) انظر: أع ۲: ۳، حيثُ الْأَلْسُنَةُ النَّارِيَّةُ «جَلَسَتْ ἐκάθισεν عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ».

(۴) انظر: أع ۲: ۱۳.

(۵) انظر: أع ۲: ۲۲: ۵؛ ۳۰: ۵.

رُوحِي عَلَى كُلِّ جَسَدٍ، فَيَتَبَّأَ بِنُوكُمْ وَبِنَاثُكُمْ» (يو ٢: ٢٨)، ولَمَّا تَعَلَّمَ كثِيرُونَ مِنْ بَطْرَسِ أَتَوْا إِلَى التَّوْبَةِ، فَأَصْبَحَ هُنَاكَ عَالَمٌ جَدِيدٌ مُخْتَارٌ مِنَ الله.

٧- فَهَا أَنْتَ تَرَى كِيفَ لَاحَتْ بِوادِرِ الدِّينُونَةِ، لَأَنَّهُ فِي ذَلِكَ الْحَينِ قَدْ ظَهَرَ عَالَمٌ جَدِيدٌ وَأُعْطِيَ لِلرَّسُولِ سُلْطَانًا لِيَجْلِسُوا هُنَاهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ وَيَدِينُوا، بَلْ إِنَّهُمْ عَتِيدُونَ أَيْضًا أَنْ يَجْلِسُوا وَيَدِينُوا عَنْدَ مَجِيَّءِ الرَّبِّ فِي قِيَامَةِ الْأَمْوَاتِ، وَلَكِنْ هَذَا يَحْدُثُ هُنَاهَا أَيْضًا، لَأَنَّ الرُّوحَ الْقَدْسَ جَالَّ عَلَى كَرَاسِيِّ أَذْهَانِهِمْ. وَكَذَلِكَ الْأَكَالِيلُ الَّتِي سُوفَ يَنْهَا مُسْكِنِيَّوْنَ فِي ذَلِكَ الدَّهْرِ^(١)، مَا هِيَ بِخَلَائِقَ (مَادِيَّة)، وَالزَّاعِمُونَ هَذَا يَخْطُؤُونَ. إِنَّهَا هِيَ تَشِيرُ إِلَى بَعْدِيِّ الرُّوحِ، لَأَنَّهُ مَاذَا يَقُولُ بِولِسُ الرَّسُولُ عَنْ أُورُشَلَيمِ السَّمَائِيَّةِ «الَّتِي هِيَ أُمُّنَا جَمِيعًا»^(٢) وَالَّتِي نَعْرَفُ مِنْ أَجْلِهَا^(٣)؟ أَمَّا عَنِ الْحَلَّةِ الَّتِي سُوفَ يَتَسَرَّبُ بِهَا مُسْكِنِيَّوْنَ^(٤)، فَوَاضِعٌ أَنَّ الرُّوحَ الْقَدْسَ نَفْسَهُ هُوَ الَّذِي سِيكُوسُوهُمْ فِي اسْمِ الْآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقَدْسِ إِلَى الدُّهُورِ، آمِينَ.

(١) انظر: ١ كو ٩: ٤٢٥ في ٤: ٤٨، بع ١: ١٢، ١٤ بط ٥: ٤٤ رؤ ٢: ١٠.

(٢) غل ٤: ٢٦.

(٣) يَتَرَكُ أَنْبَا مَقَارَ لِلقارِئِ أَنْ يَجِيبَ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ، وَيَبْدُو أَنَّ الإِجَابَةَ الَّتِي فِي ذَهْنِهِ هِيَ قَوْلُ إِشْعَيَاءَ لِأُورُشَلَيمِ: «وَئِنْ كُونَنَّ إِكْلِيلَ حَمَالٍ فِي يَدِ الرَّبِّ وَتَاجًا مُلُوكِيًّا فِي كَفَّ إِلَهِكِ» (إِش ٣: ٦٢)، الَّتِي يَنْسِبُهَا لِبُولِسِ الرَّسُولِ، لَأَنَّهُ هَذَا الْأَخِيرُ قَدْ اسْتَشَهَدَ فِي غل ٤: ٢٧ بِدِيَّةِ أَقْوَالِ إِشْعَيَاءَ لِأُورُشَلَيمِ: «لِأَنِّي جَعَلْتُهَا الْعَاقِرَةِ الَّتِي لَمْ تَلِدْ. إِلَّا» (إِش ٥: ١). (عن أحد آباء الْدَّيْرِ).

(٤) انظر: ١ كو ١٥: ٥٣؛ ٢ كو ٥: ٤.

العظة السابعة

تمييز الأرواح، وماهية النفس

[عن نطف المسيح من نحو الإنسان، والعظة تحوي كذلك أسلمة وإجاباتها]

- [أ] محبة الله للإنسان البائس
- [د] الفهم، والرؤيا، والإعلان
- [ب] تواجد الله في كلِّ مكان
- [ه] النفس: صورتها وأعضاؤها
- [ج] التمييز بين أمور العومة ومحابي إبليس



[١] محبة الله للإنسان البائس

١- كأنما إنسان قد واجَّه قصوراً ملوكية فرأى فيها اللوحات والتحف الجميلة وعاين هنا وهناك كنوزاً موضوعة وأشياء أخرى، ثم إنَّه اتَّكأ مع الملك ووضعَت أمامه لحوم وأشربة شهية وغدا متميِّزاً من كُلِّ وجهٍ بهذه المناظر والمباهج؛ لكنْ بعد هذه الأمور أقصيَ من هناك بل وُجِد مسُوقاً إلى مواضع كريهة الرائحة؛ أو كأنما فتاة جميلة الصُّورة وأوفَّ حكمَةً وغَنِّيَّ من الجميع قد اخْتَذَت زوجاً لها رجلاً مُعَوِّزاً حقيراً دميمَا متَّراً بالحرق، فخلعت عنه هذه الثياب القدرة وألبسته حُلَّلاً ملوكية وكللت هامته بالتبيجان وأضحت شريكةً له، فيبتدىء حينئذ ذلك الفقير يرتاع قائلاً: "هل لي أنا الشَّقيِّ الفقير الحقير الذليل ثُعْطَى مثلُ هذه شريكة؟!"؛ هذا هو ما صنعه

الله بالإنسان الشّقي الدليل، فلقد وَهْبَ مذاقَةَ عَالِمٍ آخر وَطَعَامٍ شَهِيٍّ آخر وأَظَهَرَ لَهُ أَجَادَا وَمَحَاسِنَ مَلْوَكِيَّةَ سَمَاوَيَّةَ لَا يُنْطَقُ بِهَا. وَهَكُذا إِذَا مَا فَاضَلَ الإِنْسَانَ بَيْنَ تِلْكَ الْأَمْرَوْنِ الرُّوحَانِيَّةِ وَأَمْرَوْنِ الدَّهْرِ طَرَحَ عَنْهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَسَوَاءً كَانَ يَنْظُرُ مَلَوْكًا أَوْ سَلاطِينَ أَوْ حُكْمَاءَ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَلُكُ يُحْدِقُ بِثَباتٍ إِلَى الْكَنْزِ السَّمَاوَيِّ. وَلَأَنَّ «الله تَحْبَّبَة»^(١)، فَقَدْ تَقْبَلَ الإِنْسَانُ مِنْهُ نَارَ الْمَسِيحِ الإِلَهِيَّةِ السَّمَاوَيَّةِ فَعِمَّ بِالرَّاحَةِ وَفَرَحَ وَأَضْحَى مَرْبُوطًا هَنَاكَ.

[ب] تواجد الله في كل مكان

٢ - سؤال: هل الشّيطان متواجد مع الله سواء في الهواء أو داخل الناس؟

الجواب: هل هذه الشَّمْسُ، وَمَا هِيَ إِلَّا مُخْلوقٌ، حِينَما تَشْرُقُ عَلَى مَوَاطِعِ قَدْرَةٍ، يُضِيرُهَا هَذَا فِي شَيْءٍ؟ فَكُمْ بِالْأَحْرَى الْلَّاهُوتِ لَا يَتَدَنَّسُ وَلَا يَتَنَجَّسُ بِتَوَاجِدِهِ مَعَ الشَّيْطَانِ. وَلَكِنَّ اللَّهَ سَمِعَ بِوُجُودِ الشَّرِّ لِأَجْلِ تَدْرِيبِ بَنِي الْبَشَرِ، غَيْرَ أَنَّ الشَّرِّيرَ إِنَّمَا هُوَ فِي ظُلْمَةٍ وَعَمَّى، لَا يَقْدِرُ أَنْ يَنْظُرَ نَقاوةَ اللَّهِ وَصَفَاءَهُ. أَمَّا إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّمَا مَوْضِعًا خَاصًّا بِالشَّيْطَانِ وَآخَرَ خَاصًّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهُ بِهَذَا يَحْصُرُ اللَّهَ، نَافِئًا لِوُجُودِهِ هَنَاكَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ حَبْثَ

(١) أيو٤: ٨، ١٦.

يسكن الشَّرِّير، فكيف نقول إذ ذاك إنَّ الصَّلاح (أي الله) غَيْرُ محدود ولا محصور، وإنَّ كُلَّ الأشياء هي فيه، وإنَّه لا يتنجس بالشَّرِّ؟ أم لأنَّ السَّماء والشَّمس والجبال هي في الله وبه قائمة^(١)، فقد صارت من أجل هذا هي الله؟! فإنَّ الخلائق قد أقيمت في رتبتها الخاصة، وأمَّا خالقها الحاضر معها فهو الله.

[ج] التَّمييز بين أمور التَّبَعَة وِمَكَائِيدِ إِبْلِيس

٣ - سؤال: حيث إنَّ الخطيئة ثُغَرَ شكلها إلى ملاك نور^(٢) فتصبح مشاهِدَةً للنِّعْمة، فكيف للإنسان أن يدرك مكايِدِ إِبْلِيس، وكيف له أن يقبل أمور التَّبَعَة وِمُنْتَهِيَّها؟

الجواب: إنَّ أمور التَّبَعَة يلازمها الفرح والسلام والمحبة والحق، هذا الحق نفسه يُلزِمُ الإنسان أن يطلب الحق. أمَّا الخطيئة بأنواعها فهي مضطربة ولا يصاحبها أئِمَّةٌ محَبَّة أو فرح من نحو الله. فكما أنَّ نبات "الْهِنْدِباء"^(٣) يشبه

(١) الفعل *συνίστημι* هنا ليس بمعنى "يقف"، لكن بمعنى "يكون، يحتفظ بقائه، يتماسك معًا"، فالمقصود بـ"قائمة" هنا، لا القيام، بل القوام. وقد ورد نفس هذا الفعل بذات المعنى في (كتو ١٧: ١): «...وَفِيهِ يَقُولُ الْكُلُّ»، وأيضاً في (بط ٣: ٥).

(٢) انظر: كتو ١١: ١٤.

(٣) ومعنى اسمه باليونانية: "مُرّ".

الحسن، إلا أنَّ هذا حلو المذاق وذاك مرّ، رغم تشابههما^(١)؛ بل إنَّه في ذات النعمة نفسها يوجد ما يُشبه الحق ويوجد جوهر الحق ذاته كوجود شعاع الشمس وجود قرص الشمس نفسه، فالشعاع يضيء ولكن ليس كما يفعل النور المذخر في قرص الشمس نفسه؛ كذلك لو أنَّ مصباحاً موقداً في بيت، فإنَّ الشعاع الذي يضيء في كلِّ موضع هو بخلاف النور الأكثري إضاءةً ولعلَّ الكائن في المصباح ذاته؛ هكذا أيضاً أمور النعمة، فقد يحدث أن يراها الإنسان من على بُعدٍ كمثل رُؤُى فيفرح بها، ولكنه يغدو رجلاً آخر حين تدخله قوَّةُ الله وتمْسِك بأعضائه وقلبه وتأسر عقله إلى محبة

(١) ورد في بستان الرهبان سؤال موجه لأنبياء مقارن مشابه لهذا السؤال، وكانت إجابته تقاد تكون نفس هذه الإجابة، مستخدماً - كما عدهناه دائمًا - التشبيهات لإظهار المعنى: [شُئل أبا مقار: "ماذا يفعل الإنسان المخدوع بأسباب واجية وبإعلانات شيطانية تشبه الحقيقة"؟]

الجواب: "يحتاج الإنسان لذلك الأمر إلى إفرازٍ كبيرٍ ليميز بين الخير والشرّ، ولا يسلِّم نفسه بسرعة، فإنَّ أعمال النعمة ظاهرة، التي وإن تشَكَّلت بما خططه فلا تقدر على ذلك، لأنَّ الشيطان يعرفُ كيف يتَشَكَّل بشكٍ ملائكي نورٍ ليخدع. ولكن حُقُّه ولو تشَكَّل بأشكالٍ بغيضة، فإنه لا يمكنه أن يفعل أفعالاً جيَّدةً، ولا أن يأتي بعمل صالح، اللهم إلا أن يُسيِّب بذلك الكرياء. أمَّا فعل النعمة فإنَّما هو فرجٌ وسلامٌ ووداعةٌ وغرامٌ بالخيرات السماوية ونیاثٌ روحانيٌّ لوجه الله، وأمَّا فعل المضاد فبحلالة ذلك كلِّه، فهو لا يُسيِّب تدللاً ولا مسراً ولا ثباتاً ولا بغضًا للعلم، ولا يُستَكِّن الملاَّة ولا يهدي الآلام. فإذاً من الفعل تَغلَّم النور الألام في نفسك، هل هو من الله أو من الشيطان، والنفس بما إفرازٍ من إحسان العقل به تعرف الفرق بين الصدق والكذب، كما يميِّز المخلَّك الخمر من الخلٍّ وإن كانوا متشاركيين في اللون، كذلك النفس من الإحسان العقلية تُغَيِّر المنح الروحانية من التخليقات الشيطانية"] (قول ٧٦٥).

الله. فإنهم لماً أمسكوا بطرس ورُجحوا به في السجن وأغلقوا عليه، أتاه ملاكٌ وكسر قيوده وأخرجه، أمّا هو فكان - وكأنه في غيبة - يظن أنّه في رؤيا.

٤ - سؤال: ولكن كيف يسقط أولئك الذين تحت فعل نعمة الله؟

الجواب: إنّ حيّي الأفكار التي في طبيعتها نقية يمكن أن تزلّ وتسقط، إذ يتبدئ الإنسان يستعلي ويحكم (على الآخر) قائلاً: "أنت خاطئ"، ظانًا البر في نفسه. ألا تعلم ما يقوله بولس الرسول: «أعطيت شوكة في الجسد، ملائكة الشيطان ليُلْطِمَنِ لِثَلَاثَةَ أَرْتَفَعَ» (٢١: ١٢)؟ فإنه حيّ الطبيعة الظاهرة يمكن أن ترتفع.

[د] الفهم، والرؤيا، والإعلان

٥ - سؤال: هل يستطيع أحد أن يرى النفس، أي نفسه هو، بواسطة النور؟ إذ إنّ هناك قومًا يُطلّون بالإعلان، زاعمين أنّه بالمعرفة والإحساس فقط تكون الرؤيا.

الجواب: هناك إحساس، وهناك رؤيا، وهناك استنارة. فهذا الذي له الاستنارة هو أعظم من ذاك الذي له الإحساس، فلأنّ عقله قد استثير فإنه يحظى بنصيبٍ أعظم ممّن له مجرد الإحساس، إذ يرى في نفسه يقين الرؤيا.

أمّا الإعلان^(١) فإنه شيء آخر، إذ فيه تُستعلن للنَّفْس أمورٌ عظيمة وأسرارٌ لله.

٦- سؤال: وهل بالإعلان والنُّور الإلهي ينظر أحد النَّفس؟

الجواب: كما أنَّ هاتين العينين تنظران الشَّمس، هكذا أيضًا المستنيرون ينظرون صُورة النَّفْس، لكنَّ قليلاً من المسيحيين يرَوْن مثل هذه الأمور.

[ه] النَّفْس: صورتها وأعضاؤها

٧- سؤال: هل للنَّفْس شكلٌ ما؟

الجواب: إنَّ للنَّفْس صُورةً وشكلاً تشبهان الملائكة؛ فكما أنَّ للملائكة صُورةً وشكلاً، وكما أنَّ للإنسان الخارجي صُورةً كذلك؛ هكذا أيضًا توجد للإنسان الباطن صُورةً مشابهةً للملائكة وشكل مشابه للإنسان الخارجي.

٨- سؤال: هل العقل شيء، والنَّفْس شيء آخر؟

الجواب: كما أنَّ أعضاء الجسد، وإنْ كانت كثيرة، تُدعى إنساناً واحداً^(١)؛ كذلك أيضًا أعضاء النَّفْس هي كثيرة: العقل، والضمير، والمشيئة،

(١) ἀποκάλυψις = إعلان، وقد وردت بالمعنى المقصود هنا في ثمانية مواضع من رسائل بولس الرَّسول: (١: ٣: ٢٤: ٦، ٢٤: ١: ١٢، ١: ٧)، (١: ٢: ٢٤: ١٢: ٢: ٤)، (١: ٢: ٢٤: ١٢: ٣)، وأيضاً في مستهل سفر الرُّؤيا (رؤ: ١)، والتي تسمى بها المفتر ببرمته.

و«الأفكار؛ مُشتَكِيَّةً كائِنَتْ أَمْ مُدَافِعَةً»^(٢)، إلَّا أَنَّ هذه جميعها مربوطةٌ إلى فَكِيرٍ واحدٍ، فهي أعضاءٌ للنَّفْس، والنَّفْس واحدةٌ وهي الإنسان الباطن. وكما أَنَّ الأَعْيُنُ الْخَارِجِيَّةُ تُسْبِقُ فَتَنَظِّرُ مِنْ عَلَى بَعْدِ الْأَشْوَافِ والْحُرُوفِ والْفَخَاخِ، كَذَلِكَ الْعَقْلُ أَيْضًا - إِنْ كَانَ يَقْظًا - يُسْبِقُ فَيُنَظِّرُ مَكَايدَ الْقُوَّةِ الْمَعَادِيَّةِ وَعُدُّهَا^(٤)، وَكَعْيَنِ لِلنَّفْسِ يَبَدُرُ فِيْحَصِّنُهَا. فَنَرِسْلُ إِلَى فَوْقِ الْجَدَلِ لِلْأَبِ وَالْأَبْنِ وَالرُّوحِ الْقَدْسِ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ، آمِينَ.

(١) انظر: رو ١٢ : ٤ : ١٢ كـ رو ٢٠ : ١٢.

(٢) هذه الكلمة أكثر إيقاضاً للمعنى من الكلمة "محتجة" التي وردت في الترجمة الـبيروتية لـكلمة "ἀπολογούμενων". (هذه الكلمة عينها هي التي منها خُلِعَ لقب "المدافعين" "apologists" على بعض آباء الكنيسة في القرن الثاني الميلادي).

(٣) رو ٢ : ١٥.

(٤) لا تنسَ أَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ لِلآبِنِ مقارِنَ "مَكَايدَ" الْعَدُوِّ وَ"عُدَّتِهِ" ، حينما ظهرَ لِهِ الشَّيْطَانُ شَكْلَ الرَّجُلِ ذِي الْأَوْعِيَّةِ، وَالرَّجُلِ ذِي الْفَوَاكِهِ، وَفَصَلَ لَهُ أدْوَاتَ حَرِبَهِ (راجع: فَرْدُوسُ الْآبَاءِ - الْجَزْءُ الْأَوَّلُ - الطَّبْعَةُ الْأُولَى - ٢٠٠٥ - صَفَحةُ ١٧١، ١٧٣).

العظة الثامنة

درجات الكمال

[عن الأمور التي تَعْرِفُ للمسيحيين أثناء الصلاة، وعن درجات الكمال،

أيْ أُفْيَ مَكْنَةً للمسيحيين أن يبلغوا درجة الكمال]

[ب] التَّعْمَة تدِيرُ الإِنْسَانَ كَيْفَمَا شَاءَ

[أ] الْفَسَق عَرْوَشُ الْرَّبِّ



[أ] الْفَسَق عَرْوَشُ الْرَّبِّ

١ - يَتَفَقَّ أَنَّ إِنْسَانًا يَدْخُلُ (لِلصَّلَاةِ) وَيَحْنِي رَكْبَتِيهِ فِيمَتَلِئُ قَلْبُهُ بِالْقُوَّةِ الإِلهِيَّةِ، وَتَفَرَّحُ نَفْسُهُ بِالرَّبِّ كَفْرَحَ عَرْوَسٌ بِعَرِيسِهَا، كَمَا قَالَ إِشْعَيَّا الرَّبِّيُّ: «كَفَرَحَ عَرِيسٌ بِعَرِوْسٍ، هَكَذَا سَيَفْرَحُ بِكِ إِلَهُكِ» (إِش ٦٢ : ٥ س.). فَقَدْ يَحْدُثُ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانٌ مُنْشَغِلًا بِالْيَوْمِ كُلِّهِ، وَلَكِنَّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ يُعْطِي فِيهَا نَفْسَهُ لِلصَّلَاةِ يُخْطَفُ إِنْسَانُهُ الدَّاخِلِيُّ فِي حَلَوَةٍ عَظِيمَةٍ، بِوَاسِطَةِ صَلَاتِهِ تُلْكَ، إِلَى أَعْمَاقِ ذَلِكَ الدَّهْرِ الْآخِرِ الَّتِي لَا يُسَبِّرُ غَوْرُهَا، حَتَّى إِنَّ ذَهْنَهُ يَتَغَرَّبُ بِكَامْلَهُ عَنْ هَهْنَا وَيَكُونُ مَرْفُوعًا وَمُخْطَوْفًا هُنَاكَ، وَحَتَّى إِنَّهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَنْحَلُّ مِنْ أَفْكَارِ الْإِهْتِمَامَاتِ الْأَرْضِيَّةِ وَقَتْلَى أَفْكَارِهِ بِالْأَمْوَرِ الإِلهِيَّةِ وَالسَّمَاوِيَّةِ وَتُسَبِّيَ بِهَا، تُلْكَ الْأَمْوَرُ

الّتي لا نهاية لها والّتي لا يمكن إدراّكها - أمور عجيبة لا سبيل إلى شرحها بفم بشري، حتّى إنّه ليصلّى في مثل تلك السّاعة ويقول: "اللّهم إني نفسي تنطلق مع صلاتي!".

[ب] النّعمة تدبّر الإنسان كيما تشاء

٢ - سؤال: هل في كُلِّ حين يختبر الإنسان مثل تلك الأمور؟

الجواب: إنّ النّعمة حاضرة مع الإنسان بلا انقطاع، وقد تأصلت فيه ولا تفتّأ تعمل فيه منذ حداثته وكأنّها خيرية، حتّى أضحت أشبّه بشيءٍ طبيعيٍ ملائحيٍ بالإنسان كما لو كانا طبيعةً واحدة. ولكنْ رغم ذلك، فإنّها تدبّر الإنسان بطريقٍ شّيئ، بحسب مشيّتها «لِلنّعْمَة»^(١); فتارةً تشتعل نارّها بشدةٍ وتتوقدّ، وطّورًا تكون وكأنّها أكثر هدوءًا وأكثر دعّة؛ وكذلك التّور نفسه، آنًا يكون متوجّهاً بزيادة ومضيئاً، آونةً يخفّت وينبو. ولكن في كُلِّ هذا، ما ينفكُ المصابح ذاته موقدًا على الدّوام ومضيئًا، سواءً حين يتواهّج بنشوة^(٢) محبة الله فيزداد لمعانًا، أو حين يختفي في الدّاخل، بحسب تدبّر النّعمة، فيخبو ضياؤه، مع كونه لا يزال موجودًا.

(١) كوك ١٢ : ٧.

(٢) حرّقًا: " ﻣَوْرَقٌ - بَسْكُرٌ".

٣ - فقد يحدث للبعض أن تتراءى لهم علامات الصليب كنورٍ، ثم تستقر في إنسانهم الداخلي. وأحياناً أخرى يصير الإنسان في صلاته كمن هو خارج عن نفسه^(١)، فيجد نفسه وكأنه واقف أمام مذبح في كنيسة وقد قدّمت إليه ثلاثة خبرات كأنها مختمرة بزينة، وكلّما كان يأكل منها أكثر كانت تنمو وتتضاعف. وأحياناً أخرى كذلك يظهر للإنسان مثل لباسٍ منير لا نظير له على الأرض في هذا العالم، ولا تقدر أيادٍ بشرية أن تصنع مثله، بل هو على غرار ثياب الرَّبِّ التي أحالها وجعلها تلمع مثل البرق^(٢) حين صعد مع يوحنا وبطرس إلى الجبل، وهذا فإنَّ الإنسان الذي يلبسه يأخذ العجب والذهول. وأيضاً في أوقاتٍ أخرى يحدث أنَّ النُّور نفسه الذي يضيء في القلب يُمْيِط اللِّثام عن نور آخر خفيٍّ أشدَّ غوراً وأكثر عمقاً، حتى إنَّ الإنسان بكلّيته - إذ يكون غارقاً في جنة تلك الحلاوة والتأمل - لا يضبط نفسه بعد، بل يصبح كمحنونٍ وأجنبيٍّ عن هذا العالم لأجل الحبة والحلوة الفائقتين، ولأجل الأسرار الخفية، حتى إنَّه في مثل تلك الأوقات، حين يتحررُ الإنسان يرتقي درجات الكمال ويغدو نقىًّا ومعنوياً

(١) "εἰν ἐκστάσει" أي في حالة ذهاش ecstasy؛ ويدرك بالليديوس في كتابه "التأريخ اللوزياكي" عن أبيه مقارأه أنه كان مشهوراً بكونه في حالة ذهاش ecstasy بلا انقطاع، وبأنه كان يصرف وقتاً مع الله أكثر جداً مما مع أبي شيء آخر تحت السماء. (Historia Lausiaca – 17.5).

(٢) فعل ωαστράπτειν ورد مرّة واحدة فقط في كلِّ العهد الجديد، في لو ٩: ٢٩، واستُخدم لوصف ثياب الرَّبِّ في حادثة التَّحْلِي ومعناه "يلمع مثل البرق".

من الخطية. ولكن بعد هذه الأمور تنحسر النعمة وينسدل حجاب القوّة المعادية، ورغم هذا فالنعمـة لا تزال تظهر جزئياً، وأمّا الإنسان فإنه يقف عند درجةٍ من الكمال أقلَّ مما كان عندها من قبل.

٤ - فإنْ قلنا إِنَّه على الإنسان أن يجتاز اثنـي عشرة درجة لكيما يبلغ الكمال، ويحدث في وقتٍ ما أَنَّه يرتقي حتـى يدرك تلك الـدرجة ويبلغ الكمال، فإنه بعد هذا تخفـت النـعمة وبهبط درجةً فـيمسي عند الـدرجة الحادية عشرة. لأنَّ الـذـي يكون غـنيـاً في النـعـمة عـلـى الدـوـام، مرـتقـيـاً درـجـاتـ الكـمال لـلـيلـ خـارـ، يـصـيرـ مـعـتـوقـاً وـنـقـيـاً وـمـسـيـاً فـي كـلـ حـينـ وـمـرـفـوعـاً إـلـى فـوقـ. وـالـآنـ، فـالـإـنـسـانـ الـذـي أـظـهـرـتـ لهـ تـلـكـ الـعـجـائـبـ وـاخـتـبـرـهاـ، إـنـ هـيـ لـازـمـتـهـ كـلـ حـينـ، فـلـنـ يـمـكـنـهـ إـذـ ذـاكـ أـنـ يـدـبـرـ خـدـمـةـ الـكـلـمـةـ أـوـ أـنـ يـنـهـضـ بـأـيـ أـعـبـاءـ، وـلـنـ يـطـيقـ صـبـراـ أـنـ يـسـتـمـعـ لـآـخـرـينـ، بلـ وـلـاـ يـمـكـنـهـ أـيـضاـ أـنـ يـهـتـمـ حتـىـ بـنـفـسـهـ أـوـ بـعـدـهـ، بلـ فـقـطـ يـنـزـوـيـ هـكـذـاـ فـيـ رـكـنـ، مـرـفـوعـاـ فـوـقـ الـأـرـضـ وـثـمـلاـ. لـأـجـلـ هـذـاـ فـإـنـ درـجـةـ الـكـمالـ لـاـ تـعـطـيـ لـلـإـنـسـانـ، وـذـلـكـ حتـىـ يـتـسـيـ لـهـ أـنـ يـلـتـفـتـ إـلـىـ الـاهـتـمـامـ بـأـخـوتـهـ وـإـلـىـ خـدـمـةـ الـكـلـمـةـ. إـلـاـ أـنـ حـائـطـ الـبـيـاجـ المـتوـسطـ قدـ نـقـضـ^(١)ـ، وـالـمـوـتـ قدـ غـلـبـ.

(١) انظر: آف: ٢: ١٤.

٥ - فإنَّ الأمر يُشَبِّه وكأنَّما قَوَّةً ما مُعْتَمَةً قد نُشِرِّتَ أمام مصباح فَحَجَبَتْه قليلاً وكأنَّما غشاوة كثيفة، رغم أنَّ المصباح لا يبرح موقعه ومُضيئاً على الدَّوَام؛ هكذا يحدث مع مصباح النِّعمة وكأنَّ ستاراً قد أُسْدِلَ على نوره. من أجل ذلك فإنَّ مثل هذا الإنسان يُقْرِرُ بِأَنَّه ليس كاملاً بعد ولا حُرَّاً بالتَّمام من الخطية. من ثُمَّ فإنَّه يعترف بِأَنَّ حائط السياج المتوسط - وإنْ نُفِضَّ وَهَدَمَ - لكنَّه ليس بالتَّمام ولا في كُلِّ آن، فبينما يوجد وقتٌ يتوجه فيه ويتعزَّزُ ويجد نياحاً، يوجد وقتٌ آخر كذلك ينحسر فيه ويغتمم، وذلك حسبما تدِيرُ النِّعمة لمنفعة الإنسان. فمن ذَا الَّذِي يَلْعُ في وقتٍ ما تلك القامة الكاملة وذاق ذلك العالم واحتبره؟ فإِنِّي حَتَّى الآن لم أَرْ ولا مُسِيَحِّيَا واحداً كاملاً أو حُرَّاً. لكنَّ وإنْ كان هناك مَنْ هو في راحِةٍ بفعل النِّعمة وقد دخل إلى الأسرار والإعلانات والحلوة العظيمة التي للنِّعمة، إِلَّا أنَّ الخطية لا تزال حَتَّى الآن كائنة فيه. فإنَّ هؤلاء الَّذِين - من أجل النِّعمة الفائقـة والنُّور الَّذِي فيهم - يتوجهون أَكْمَمَ أَحْرَازٍ وَكَامِلَوْن، إِنَّمَا هُم يَزِلُّون بِسَبَبِ عدم خبرتهم، مع كونهم حاصلين على فعل النِّعمة. فإِنِّي حَتَّى الآن ما رأيْتُ ولا واحداً معتوقاً كلياً، فلقد دخلتُ أنا نفسي، جزئياً، وفي أوقات معينة، إلى تلك الْدَّرْجَةِ، وأعلم بالخبرة أَنَّه ليس إِنْسَانٌ كاملاً^(١).

(١) هذا التَّعْلِيمُ لآبَاء مقار نراه مُبْلِوِراً بِكُلِّ جَلَاءٍ ووضوحٍ في قصته مع ذلك الشَّيْخِ الَّذِي تَوَقَّمَ أَنَّه قُتِلَ ثَلَاثَة أَعْدَاء: الرِّقِّي، وحَبَّ المَالِ، وَالسُّبْحَانُ الْبَاطِلُ. فنَهَبَ إِلَيْهِ آبَاء مقار ووضعه وأعلمَه أَنَّ أَوجاعَه لَم

٦ - سؤال: أخبرنا في آية درجة أنت؟

الجواب: الآن، بعد (اختبار) علامة الصليب^(١)، تعلم التعمّة في هكذا: فهي تُشيع سلاماً في كلِّ الأعضاء وفي القلب، حتّى تُبدو النّفس - من فرط الفرح - وكأنَّها طفل بلا شرّ، ولا يعود الإنسان بعدَ حكم على أحد، يونانيَا كان أم يهوديَا، خاطئاً أم ذيويَا، بل عِوضاً عن هذا ينظر الإنسان الدّاخليَّ بعين طاهرة للجميع، ويفرح الإنسان بكلِّ العالم، ويُودُّ لو أنَّه يسجد للجميع ويُحبُّهم، يهوداً كانوا أم يونانيين. وفي أوقاتٍ أخرى، يشق الإنسان بابن الله كأبٍ له وُثوقَ ابن ملكِ يأتيه^(٢)، وتُفتح دُوّنه أبوابٌ فيدخل إلى داخل، إلى «منازلَ كثيرة»^(٣)، وكلَّما يدخل أكثر تُفتح له

تمت بعد بل مازالت حيَّة ولكنَّها مربوطة (انظر: بستان الرّهبان - قول رقم ٤٩).

(١) يُشير القديس هنا، على ما يُدْعى، إلى خبرته التي اجتازها أول حياته، حينما صلبه الشّاروبيم:

[قيل عن أبا مقار إنَّه لما تقدَّم في القضية وقيلَ إليه التعمّة بصيرٌ عظيم، أرسلَ إليه ربُّ الجد كاروبيا يتقدَّم ويرُشهد إلى هذا الجبل، وأنَّه وضع يده على قلبه كمثل ميزان. فقال له أبا مقار: ما هذا؟! فقال له الشّاروبيم: قد وزنت قلبك ... وما قال له الشّاروبيم هذا صلبه، وقال له: قد صبَّت نفسكَ مع المسيح، فاصلب أنت نفسكَ معه في زينة الفضائل ورائعتها العطرة. وسوف يبلغ صيانت أعمالك إلى أربعة أركان الأرض وتخلص أقواماً كثيرين كانوا غارقين في وحل الخطيئة، فيصيرون مجاهدين وجندوا في خدمة المسيح. فصار أبا مقار يصلب جسده ويكتمل باجتهاد كلِّ ما خطابه به الشّاروبيم] (Amel. Hist. Monast. p.118)

(٢) رغم أنَّ المسيح هو ابن الله، وهو «يُكْرِزُ بين إخوة كثيرين» (رو: ٨: ٢٩)، إلا أنَّ أحد ألقابه أيضًا أنه: «أبُ أبيدي» (إش: ٩: ٦)، وكان يخاطب تلاميذه: «يا أولادي...» (يو: ١٣: ٣٣).

(٣) يو: ١٤: ٢.

أبواب جديدة، ويمتد - إنْ جاز القول - من مائة منزل إلى مائة أخرى، ويغتني، وكلما اغتنى أكثر تَظُهُر له عجائبٌ جديدةً أخرى، ويؤمّن كابِنٌ ووارثٌ على أمورٍ لا يمكن لطبيعة بشرية أن تُعَيِّرَ عنها، ولا لفِيم ولسانٌ أن ينطق بها. والحمد لله، آمين.

العظة التاسعة

التناغم بين النعمة والجهاد

[في أنَّ مواعيدَ الله ونبوَاتِه تَكُملُ عَبْرَ امتحاناتٍ وتجاربَ شَتَّى، وأنَّا بِمَلَازِمِنَا لِللهِ وحدهِ
نَخْلُصُ مِنْ تجَارِبِ الشَّرِّ]

[أ] عمل النعمة عمل طويل الأمد

[ب] نَازَ الحُبُّ الْإِلَهِيَّ هَدِيَّةً النعمة

[ج] تكريس النفس للرَّبِّ والتلاصقُ بها



[١] عمل النعمة عمل طويل الأمد

١ - إِنَّ فَعَلَ نعْمَةَ اللهِ الرُّوحِيَّ العَامِلَ فِي النَّفْسِ إِنَّمَا يَتَمُّ في أَنَّا كَثِيرَةٌ
وَحِكْمَةٌ وَتَدْبِيرٌ سَرِّيٌّ (مستيكيٌّ)^(١) (لِلْعُقْلِ)، فِيمَا يَجَاهِدُ الإِنْسَانُ بِصَبْرٍ كَثِيرٍ
عَلَى مَدِي زَمَانٍ وَأَمْدِ طَوْبِيلٍ، وَحِينَذَاكَ يَتَجَلَّ فِيهِ فَعَلَ النِّعْمَةُ كَامِلًا.
وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ يَتَبَرَّهُنَّ، عَبْرَ امْتِحَانَاتٍ كَثِيرَةٍ، أَنَّ نِيَّةَ إِرَادَتِهِ الْحَرَّةَ قَدْ أَرْضَتَ
الرُّوحَ الْقَدْسَ وَأَظْهَرَتْ عَلَى مَدِي الزَّمَانِ تَرْكِيَّةً وَصَبْرًا. وَسَنَرَهُنَّ عَلَى هَذَا
الْمَنْهَجَ بِأَمْثَلَةٍ جَلَّيَّةٍ مِنَ الْكِتَابِ الْمُوحَى بِهَا مِنَ اللهِ.

(١) كلمة μυστικός = مستيكيٌ ليس لها مقابلٌ دقيقٌ في اللغة العربية، فلا يكفي أن تُترجمَ
“سرِّيٌّ”， وهي عادةً تشير إلى خبرة روحية داخلية عميقَة تَؤُولُ إلى الاتِّحاد بالله.

٢ - فهذا الذي أقوله يتفق وما حدث ليوسف، فكم تقضى من الزمان والوقت قبل أن تكمل مشيئه الله المختومة من جهته وتتم أحلامه؛ وبأيابة أتعاب وشدائد وضيقات قد امتحن أولاً. وصبر عليها جميعاً بليل، بل وفي جميعها وجد عبداً لله مُرِّجِي وأميناً، وحينذاك غداً ملِكًا على مصر وأطعم ذويه وتمت نبوة أحلامه وتحقق قصد الله بعد زمان وتدبیر كثير بحسب ما قيل.

٣ - وهكذا بالنسبة لداود أيضاً، فقد مسحه الله ملِكًا على يدي صموئيل النبي^(١)، وبعدما مُسِحَ فَهارِيًا مطارداً من وجه شاول الذي كان يتغى قتله^(٢). فأين مسحة الله؟ وأين موعده الذي بات وكأنه وشيك الحدوث؟ فإنه بعد أن مُسِحَ ضيق عليه بشدة وأقام في القفار مُعوزًا حتى إلى الخbiz، وهرَب إلى الأمم بسبب قصده شاول من نحوه. وهكذا فإن ذلك الذي مسحه الله ليصير ملِكًا قد وجد مكتفياً بضيقات هذا عددها، ولبث يمتحن زماناً طويلاً مُضيقاً عليه وجرباً؛ ولكنَّه كان متأنِّياً في كلِّ هذا، لأنَّه قد آمن بالله مرَّة وبلا رجعة، متيقناً في نفسه قائلاً: ”إنَّ ما صنعه بي الله بمُسْحِه إِيَّاي بواسطة النبيِّ، وما تكلَّم به الله أَنْ يَتَمَّ بي، لا بُدَّ أنْ يتحقَّق لا محالة“ . وأخيراً، وبعد تمهيل طويل تمت مشيئه الله، ومملَك داود بعد تجارب

(١) انظر: أصل ١٦: ١٣ .

(٢) انظر: أصل ١٩: ١١ .

كثيرة، وحينذاك ظهرت كلمة الله، وتبرهن أن المسحة التي صارت بواسطة النبي ثابتة وحقة.

٤ - وبالمثل أيضاً كان الأمر مع موسى، فلقد سبق الله وعرفه وسبق فعيّنه ليكون قائداً ومخلصاً لشعبه، فجعله ابنًا لابنة فرعون^(١)، وترى وسط غنى ملوكٍ ومجده ونعمته، وتهذب بكل حكمة المصريين^(٢)، ولما شبَّ عن الطوق وكير [في الإيمان]^(٣)، بحمد كلِّ تلك الأمجاد وفضل بالأحرى للذلة وعار المسيح - بحسب قول الرسول - عن أن يكون له «مُتعَّنةً وفْتَيَّةً»^(٤). فكم من الزمان لَبِثَ هارباً من مصر وعاش راعياً، وهو ابن ملِكٍ قد نشأ وسطَ رَغْدٍ ورفاهية ملوكية هذا مقدارها؟! وهكذا أخيراً، وبعد أناة كثيرة، وُجدَ مُزَكَّى الله وأميناً، إذ قد صَبَرَ على تحارب كثيرة، فصار مخلصاً وقائداً بل ومملِكاً على شعب إسرائيل، بل وتعيين من الله إلهًا لفرعون^(٥)، فبواسطته ضرب الله مصر، وبواسطته أظهر الله عجائب عظيمة.

(١) انظر: خر ٢: ١٠.

(٢) انظر: أع ٧: ٢٢.

(٣) وردت فقط في PG (PG 34, 533 C).

(٤) عب ١١: ٢٥.

(٥) انظر: خر ٧: ١.

لفرعون، وأخيراً أغرق المصريين في البحر^(١). فانظر إذا بعدكم من الزمان أظهرت مشيئة الله، وبعدكم من الامتحانات والشدائد الكثيرة تم قصده.

٥ - بالمثل أيضاً كان الأمر مع إبراهيم، فلقد وعده الله منذ زمان بعيد أن ينعم عليه بابن^(٢)، لكن لم يعطيه في الحال بل تصرّمت أعوام كثيرة أنت عليه خلاها امتحانات وتجارب، أمّا هو فصَبَرَ متأثراً على كلِّ ما أصابه، وتيقن - بالإيمان - في نفسه قائلاً: "إِنَّ ذَاكَ الَّذِي وَعَدَهُ هُوَ مُنْزَهٌ عَنِ الْكَذْبِ وَسُوفَ يُئْمِنُ كَلْمَتَهُ"^(٣)، وهكذا إذ وُجدَ أميناً نال الموعد.

٦ - كذلك نوع أيضاً، لـما أمره الله - وهو ابن خمسمائة سنة - أن يبني القلْك^(٤)، معلنًا له بأنَّه سوف يجُلب طوفاناً على العالم، لم يأتِ الطوفان إلا وهو ابن سِيَّمائة سنة، فلقد تأثَّرَ مائة عام دون أن يساوره الشُّكُّ هل يا تُرى سيفعل الله ما قاله أم لا؛ ولكنَّه تيقَّن بالإيمان، مرَّةً وبلا رجعة، أنَّ ما قد تكلَّمَ به الله ينبغي حتماً أن يتمَّ. وهكذا إذ وُجدَ مُرَّكِّي في نَيَّته بإيمان وصَبَرَ وأناةً كثيرة، خَلَصَ هو وحده مع بيته لأنَّه قد حفِظَ الوصيَّةَ بنقاوة.

(١) انظر: خر ١٤: ٢٨.

(٢) انظر: تك ١٥: ٤٠: ١٧٤.

(٣) انظر: رو ٤: ٢٠، ٢١.

(٤) انظر: تك ٦: ١٤.

[ب] نازح الحب الإلهي هديّة التّعْمَة

٧ - لقد أورذنا هذه البراهين من الكتب المقدّسة لكي نوضّح أنَّ فعل نعمة الله العامل في الإنسان، وكذا موهبة الروح القدس التي صارت النفَسُ الأمينةُ أهلاً للحصول عليها، إنما يكملان بعد جهادٍ كثير وصبرٍ كثير وطول أناةٍ وبخاربٍ وامتحاناتٍ، إذ تكون النِّيَّةُ الحَرَّةُ قد ترَكَتْ بواسطة جميع الشَّدائِدِ. فإذا لم تُخْزِنِ النَّفَسُ الرُّوحَ القدسَ في شيءٍ^(١)، بل صارت متوافقةً مع التّعْمَةِ بحفظها لجميع الوصايا، فحينئذ تصير أهلاً للتحرُّرِ من الأهواء، وتحظى بعملٍ ثَبَّتَهُ الرُّوحُ القدسُ وبالحكمةِ المُتَحدَّثَةِ بما في سِرِّ^(٢) والغُنْيَ الرُّوحيِّ والفهمِ الَّذِي ليس من هذا العالم، والَّذِي يصير المُسيحيونُ الحقيقيونُ شركاءً فيه، ولأجله يصبحون مغايرين تماماً عن كُلِّ النَّاسِ العقلاءِ والفهماءِ والحكماءِ الَّذِينَ لهم روح العالم^(٣).

٨ - مثلُ هذا الإنسان يَحْكُمُ في كُلِّ البشر، كما هو مكتوب^(٤)، فيعرف من أين يتكلّم كُلُّ واحدٍ وأين يقف وفي أيّةِ القamatِ هو، بينما لا يستطيع أحدٌ من أولئك الَّذِينَ لهم روح العالم أن يعرّفه أو يَحْكُمُ فيه، إنما يعرّفه فقط

(١) انظر: أف ٤: ٣٠.

(٢) انظر: أ. ك. و ٢: ٧.

(٣) انظر: أ. ك. و ٢: ١٢.

(٤) انظر: أ. ك. و ٢: ١٥.

صِنْوُهُ الَّذِي لَهُ نَفْسٌ الرُّوحُ السَّمَاوِيُّ الَّذِي لِلْأَهْوَتُ، كَمَا قَالَ الرَّسُولُ: «قَارِبِينَ الرُّوحِيَّاتِ بِالرُّوحِيَّاتِ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ النَّفْسَانِيَّ لَا يَقْبَلُ الْأَمْوَارَ الَّتِي لِرُوحِ اللَّهِ، لِأَنَّهَا عِنْدَهُ جَهَالَةٌ ... أَمَّا الرُّوحُ الْجَيْحُونِيُّ فَيَحْكُمُ فِي كُلِّ الْأَمْوَارِ، وَهُوَ لَا يُحْكِمُ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ» (أَكْوَابُ ٢: ١٣ - ١٥). مِثْلُ هَذَا الْإِنْسَانِ يَحْسَبُ كُلَّ أَمْوَارَ الْعَالَمِ الْمُعْتَبَرَةِ فَاحِرَّةً - أَيْ غَنَاهُ وَتَغْنِمَهُ وَكُلَّ مُتَعَتَّهُ، بَلْ وَحْشَى مَعْرِفَتِهِ، وَكُلَّ أَمْوَارِ هَذَا الدَّهْرِ - يَحْسَبُهَا كَرِيهَةً بَغِيَّةً.

٩ - لِأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُشْتَغِلَ بِالْحُلْمِيِّ الْمُمْسُوكَ بِهَا، إِذَا مَا قَدَّمَتْ لَهُ طَعَامًا أَوْ شَرَابًا، وَإِنِّي أَطْبِبُ مَذَاقًا، فَإِنَّهُ يَعْافُهُ وَيُلْقِيَهُ عَنْهُ كَوْنِهِ مُشْتَغِلًا بِالْحُلْمِيِّ وَمُصَابًا بِهَا بِشَدَّةٍ؛ هَكُذا أَيْضًا بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ أُولَئِكَ الْمُشْتَغِلُونَ بِالشَّوْقِ السَّمَاوِيِّ الْمَقْدَسِ الْجَلِيلِ الَّذِي لِلرُّوحِ الْقَدِيسِ، وَالْمُجْرُوَةُ نُفُوسُهُمْ بِعِشْقِ مُحَبَّةِ اللَّهِ، وَالْمُصَابُونَ بِشَدَّةٍ مِنَ النَّارِ الإِلَهِيَّةِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي جَاءَ الْمُسِيحُ لِيُلْقِيَهَا عَلَى الْأَرْضِ وَيُرِيدُ اضْطِرَامَهَا عَاجِلًا^(١)، وَالْمُتَقَدِّمُونَ غَايَةَ الْإِتِّقادِ بِالشَّوْقِ السَّمَاوِيِّ الَّذِي لِلْمُسِيحِ، فَإِنَّهُمْ - كَمَا سَبَقَ وَقَلَّا - يَحْسَبُونَ كُلَّ أَمْوَارِ هَذَا الدَّهْرِ الْمُعْتَبَرَةِ فَاحِرَّةً وَثَمِينَةً أَكَّا مَرْذُولَةً وَبَغِيَّةً، لِأَجْلِ نَارِ مُحَبَّةِ الْمُسِيحِ الَّتِي تَحْصُرُهُمْ^(٢) وَتُشَعِّلُهُمْ وَتَؤْخِجُهُمْ بِانْعَطَافٍ نَحْوِ اللَّهِ وَبِالْخَيْرَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي لِلْمُحَبَّةِ - تَلْكَ الْحَبَّةُ الَّتِي لَا يَكُنْ لَأَيِّ

(١) انظر: نو ١٩: ٤٩.

(٢) انظر: أَكْوَابُ ٢: ٥: ١٤.

شيءٌ سَوَاءٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ تَحْتَ الْأَرْضِ أَنْ يُفْصَلَ مِثْلَ هُؤُلَاءِ عَنْهَا، كَمَا شَهِدَ بُولُسُ الرَّسُولُ قَائِلًا: «مَنْ سَيَفْصِلُنَا عَنْ حُبَّةِ الْمَسِيحِ ... إِخْ». (رو ٨: ٣٥).

[ج] تكريس النفس للرُّوت والتتصاقها به

١. ولكنَّ أحدًا لا يمكنه أن يربح نفسه ويقتنيها أو يقتني كذلك حُبَّةَ الرُّوح السَّمَاوِيَّةِ^(١) ما لم يتغَرَّبْ عن جَمِيعِ أمورِ هَذَا الدَّهْرِ، وَيُكَرِّسْ نَفْسَهُ لِطَلَبِ حُبَّةِ الْمَسِيحِ، وَيَصْبِحُ عَقْلُهُ خَارِجًا عَنْ جَمِيعِ الْإِهْتَمَامَاتِ الْمَادِيَّةِ وَالْأَرْتَبَاكَاتِ الْأَرْضِيَّةِ، حَتَّى يَتَسَوَّلَ لَهُ أَنْ يَنْشُفَ بِكَلِيلِهِ بِالْهَدْفِ الْأَوْحَدِ، مُقْوِمًا هَذِهِ الْأَمْوَارِ بِحَفْظِ جَمِيعِ الْوَصَايَا، وَذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ كُلُّ اهْتِمَامٍ نَفْسَهُ وَبِخِثَرَاهُ وَسَعْيُهَا وَشَغْلُهَا الشَّاغِلُ فِي أَنْ تَفْحَصَ عَنِ الْجُوَهْرِ الْعُقْلِيِّ، وَكَمْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهَا أَنْ تَزْدَانَ بِحَفْظِ وَصَايَا الْفَضَائِلِ وَبِزِينَةِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ السَّمَاوِيَّةِ وَبِالشَّرِكَةِ فِي طَهَارَةِ الْمَسِيحِ وَقَدَاستِهِ، حَتَّى إِذَا مَا تَرَكَ الْإِنْسَانُ كُلَّ شَيْءٍ وَقَطَعَ نَفْسَهُ مِنْ جَمِيعِ الْمَعْوِقَاتِ الْمَادِيَّةِ الْأَرْضِيَّةِ وَصَارَ خَارِجًا عَنِ أَيِّهِ حُبَّةِ جَسْدَانِيَّةِ أَوْ أَيِّ تَعلُّقٍ بِوَالَّدَيْنِ أَوْ أَقْرَبَاءِ، لَا يَسْمَحُ لِعَقْلِهِ بِأَنْ يَنْشُفَ أَوْ يَرْتَبِكَ بِأَيِّ شَيْءٍ، سَوَاءً كَانَ رَئَاسَةً أَوْ مَجْدًا أَوْ كَرَامَاتٍ أَوْ صَدَاقَاتِ الْعَالَمِ الْجَسْدَانِيَّةِ أَوْ أَيِّ اهْتِمَامَاتِ أَرْضِيَّةِ أُخْرَى.

. ٣٠ : ١٥ . (١) انظر: رو

بل إنَّ عقله بكلِّيَّته يأخذ على عاتقه الاعتناء والضيق في سبيل طلب الجوهر العقلي للنفس^(١)، ويصبر بكلِّ كيانه في ترقب وانتظار لافتقاد الرُّوح القدس، كما قال الرَّب: «بِصَرْكُمْ افْتَنُوا أَنْفُسَكُمْ» (لو ٢١: ٣٣)، وأيضاً: «أَطْلُبُوا الْمَلَكُوتَ، وَهَذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ» (مت ٦: ٣٣) - حسب النَّصّ.

١١ - فليجاهدُ الإنسان إِذَا وينتبه لنفسه على الدَّوام، سُوَاءً في الصَّلاة أو الطَّاعة أو أيِّ عمل يُعَمَّل بحسب الله، حتَّى يتمكَّن من الهروب من ظلمة القوَّات الشَّرِّيرية. فإنَّ العقل الَّذِي لا يُكَفُّ عن تفتيش ذاته وعن طلب الرَّب، يتمكَّن من اقتناه نفسه ولو كانت قابعةً في موت الأهواء، وذلك لأنَّ يستأسِر ذاته كُلَّ حين بتغصُّبٍ وغَيْرَةٍ نحو الرَّب، وبه وحده يلتتصق، كما قيل: «مُسْتَأْسِرِينَ كُلَّ فِكْرٍ إِلَى طَاغَةِ الْمَسِيحِ» (كو ٤: ٥). حتَّى بمثل هذا الجهاد والاشتياق والسؤال يُحسب العقل أهلاً لأنْ يصير مع الرَّب روحًا واحدًا^(٢)، بينما تستريح موهبة المسيح ونعمته في إماء النَّفَس الَّتِي سبقَت وهيَّأت ذاتها لكِلِّ عمل صالح، ولم تزدر بروح

(١) عبارة *oὐσία νοερᾶ* = الجوهر العقلي الَّتِي وردَت مرتين في هذه الفقرة، نجدُها مرتَان عديدةً في رسائل القديس أنطونيوس، وعلى الخصوص في السَّبع الأولى. وهي تعني: الطَّبيعة الروحية، حيث كلمة “*νοερᾶ*” - مثل ”*λογικόν*“ السَّابق الإشارة إليها - يمكن أن تعنى “الروحي، غير المادي“.

(٢) انظر: ١ كو ٦: ١٧.

الرَّبِّ^(١) بِعِيلِهَا لِمشيئاتِها الْخَاصَّةِ وَمُتَاهَاتِهَا هَذَا الدَّهْرُ أَوْ أَمْجَادُهُ أَوْ رَئَاسَاتِهِ أَوْ أَحْكَامَهَا الْخَاصَّةِ أَوْ مَلَدَّا تَهَا الْجَسْدِيَّةِ وَارْتِبَاطُهَا بِالْأَشْرَارِ وَمَعَاشرِهِمْ.

١٢ - فَإِنَّهُ لِأَمْرٍ مُّشْتَهَىٰ أَنْ تُكَرِّسَ النَّفْسُ ذَاكِرَةً بِكُلِّ كِيَافَةٍ لِلرَّبِّ وَتُلْتَصِقَ بِهِ وَحْدَهُ، وَتَدَاوِمَ عَلَىِ عَمَلِ وَصَابِيَّاهُ بِلَا نِسْيَانٍ، وَتُكَرِّمَ - كَمَا يُلْيقُ - رُوحَ الْمَسِيحِ الَّذِي افْتَقَدَهَا مَرَاةً كَثِيرَةً وَظَلَلَ عَلَيْهَا، فَتُحَسَّبَ أَهْلًا لِأَنْ تُصِيرَ مَعَ الرَّبِّ رُوحًا وَاحِدًا وَمُزِيَّنًا وَاحِدًا، كَقُولِ الرَّسُولِ: «وَأَمَّا مَنِ التَّصَقَ بِالرَّبِّ فَهُوَ رُوحٌ وَاحِدٌ» (١٧: ٦). أَمَّا إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُسَلِّمُ ذَاكِرَةَ لَا هَتَّامَاتٍ أَوْ مَجْدٍ أَوْ رَئَاسَةٍ أَوْ يَعْبَأُ بِكَرَامَاتِ بَشَرَيَّةٍ وَيَبْتَغِي مَثَلُ هَذِهِ الْأَمْورِ، وَإِنْ كَانَتْ نَفْسُهُ تَتَلَوَّثُ بِأَفْكَارٍ أَرْضِيَّةٍ وَمُتَنَزِّجُ بِهَا، أَوْ تُصِيرُ مُكَبَّلَةً بِأَمْرِ هَذَا الدَّهْرِ وَمَمْسُوكَةً فِيهَا، فَحَتَّىٰ وَإِنْ اشْتَاقَتْ مَثَلُ هَذِهِ النَّفْسِ إِلَى أَنْ تَغْبُرْ وَتَمْرُبَ منْ ظُلْمَةِ الْأَهْوَاءِ الَّتِي قَدْ أَمْسَكَتْ فِيهَا بِوَاسِطَةِ قَوَاتِ الشَّرِّ وَتَنَحَّلَّ مِنْهَا، فَمَا تَسْتَطِعُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا لِأَنَّهَا قَدْ أَحْبَبَتْ مُشِيَّةَ الظُّلْمَةِ سَالِكَةً فِيهَا، وَمَا أَبْغَضَتْ أَعْمَالَ الشَّرِّ بِالْتَّمَامِ.

١٣ - فَلِئِنِّي نَفَوسَنَا إِذَا لَكِي نَأَيَّ إِلَى الرَّبِّ بِكَامِلِ الْبَيَّنَةِ وَتَقَامِ الإِرَادَةِ وَنَصِيرٌ تَابِعُنَّ لِلْمَسِيحِ، حَتَّىٰ نُتَمِّمَ مُشِيَّاتِهِ وَنَذَكِرَ جَمِيعَ وَصَابِيَّاهُ

(١) انظر: عب ١٠: ٢٩.

لنعمتها^(١). ولنفصل ذواتنا تماماً عن محبة العالم، ونُعلق نفوستنا به وحده، ولنقتن في عقولنا الانشغال به والاهتمام به وطلبه هو وحده. حتى وإن كان بسبب الجسد^(٢) يقلل انشغالنا بالوصايا وبطاعة الله، فلا ينفصل ذهنتنا عن محبة الرَّبِّ وطلبه والاستياق إليه، لكيما إذا جاهدنا بمثل هذا الفكر وسلكنا بغرض مستقيم في طريق البرِّ وانتبهنا على الدُّوام لذواتنا، ننال موعد روحه^(٣) ونجو بالتعمة من هلاك ظلمة الأهواء التي قد أصابت النفوس، فنجدوا جديرين بالملائكة الأبدية ونؤهل للراحة مع المسيح إلى جميع الدُّهور، مجددين الآب والابن والروح القدس إلى الدُّهور، آمين.

(١) انظر: مز ١٠٣: ١٨.

(٢) المقصود ضعف الجسد أو ضرورياته أو واجباته.

(٣) انظر: غل ٣: ١٤.

العظة العاشرة

اشتياق النفس الجارف نحو الرب

[في أنه بالتواضع والمحمية تُصان موهب النعمة الإلهية وتزداد، بينما تزول بالكبرباء والرخاؤة]

[ج] جهاد النفس وصرها على التجارب

[أ] محبة النفس للرب بلا شبع



[أ] محبة النفس للرب بلا شبع

١ - إنَّ النُّفُوسَ الَّتِي تَحْبُّ الْحَقَّ وَتَحْبُّ اللَّهَ وَتَشْتَاقُ بِعِظَمٍ رِجَاءً وَإِيمَانٍ أَنْ تَلَبِّسَ الْمَسِيحَ بِالْتَّكَامِ، لَا حَاجَةَ بَمَا إِلَى تَذْكِيرٍ كَثِيرٍ مِنَ الْآخْرِينِ، لَا وَلَا تَحْتَمِلُ أَنْ تَوْجَدْ مُحْرُومَةً، وَلَوْ قَلِيلًا، مِنْ شَوْقِهَا السَّمَاوِيَّ وَمِنْ عُشْقِهَا لِلرَّبِّ، بَلْ إِنَّهَا تَكُونُ بِكُلِّ كِيَانِهَا مُسَمَّرَةً عَلَى صَلِيبِ الْمَسِيحِ^(١)، وَتَدْرِكُ فِي ذَاهِنِهَا، يَوْمًا بَعْدِ يَوْمٍ، الْإِحْسَاسَ بِارْتِقَائِهَا الرُّوحِيِّ نَحْوَ الْعَرِيسِ الرُّوحَانِيِّ. فَلَكُونُهَا مُحْرُومَةً بِالشَّوْقِ السَّمَاوِيِّ وَجَانِعَةً لِبَرِّ الْفَضَائِلِ^(٢)، فَإِنَّهَا تَقْتَنِي اسْتِنَارَةَ الرُّوحِ الْقَدِيسِ فِي تُوقِّي شَدِيدِ بلا شَبَعٍ. بَلْ وَحْتَ إِذَا مَا

(١) يُلْتَحِقُ الْأَنْبِيَا مَقَارٌ - مَجْدِدًا - إِلَى خِيرَتِه الشَّخْصِيَّةِ حِينَ صَلَبَهُ الشَّارِوْبِيمُ فِي بَدْءِ حَيَاتِهِ (انظر: حاشية ١ صِفَحة١٢٢ - العَظَةُ ٨).

(٢) انظر: مت ٥:٦.

صارت أهلاً - بواسطة يامانها - لأن تناول معرفة الأسرار الإلهية، أو أضحت شريكةً لبهجة النعمة السماوية، فإنها لا تضع ثقتها في ذاتها حاسبةً أنها قد صارت شيئاً، بل كلّما أهّلت للمواهب الروحية اقتنت الشّوق السماوي بلا شبع وفتشت عليه باجتهاد، وكلّما أدركت في ذاتها تقدّمها الروحية أضحت أكثر جوعاً وعطشاً للاشتراك في النعمة والثّمّة فيها^(١)، وكلّما اغتنمت روحياً أصبحت بالأحرى مسكونة عند ذاتها، إذ تفتني شوقاً روحانياً نحو العريس السماوي بلا شبع، كما هو مكتوب في الأسفار: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَنِي يَجْوَعُونَ أَيْضًا (إليه)، وَالَّذِينَ يَشْرَبُونَنِي يَعْطَشُونَ أَيْضًا» (سي ٢٤ : ٢١ - حسب النّص).

٢- مثل هذه النفوس التي اقتنت حبّاً نارياً للربّ بلا شبع تصبح جديرةً بالحياة الأبدية، وهذا أيضاً فإنها تحسّب أهلاً للتحرّر من الأهواء، وتحظى بالتمام باستنارة الروح القدس الفائق الوصف وبالشّركة الستّرية معه، في ملء النعمة. أمّا كثيل النفوس المائعة الرّخوة، فلنكونها لا تزال في الجسد، فإنها لا تطلب منذ الآن، بالصّبر وطول الأنّة، أن تقبل تقديس القلب، لا جزئياً فقط بل كلياً، ولا ترجو أن تشتراك بالتمام في الروح المعنوي بكلِّ فهمٍ ويقين، ولا تنتظر أن تتحرّر من أهواء الشّرّ بواسطة الروح

(١) ”الثّمّة في النعمة“، نجده في الدّعاء الذي ختم به ق. بطرس الرّسول رسالته الثانية: »...أَمْوَالُ فِي النعمة وفي مَعْرِفَةِ رَبِّنا يَسُوعَ الْمَسِيحِ...« (بط ٣ : ١٨).

القدس؛ ولهذا فحتى وإن كانت تُوَهَّل للنعمَة الإلهيَّة، فلنكونَها مسروقةً من الشَّرِّ، تُسلِّم ذاتَها إلى اللامبالاة والاسترخاء.

٣ - ذلك لأنَّا لِمَا نالت نعمة الرُّوح القدس وافتتحت عزاء النِّعمة في راحَةٍ وشَوقٍ وحلْوةٍ روحانيَّةً ثُمَّ اتكلَّت على هذا، استَغْلَت وتحاونَت، غيرَ منكَسرة القلب ولا متواضعة اللُّبُّ، رغم أنَّا ما بلَغَت بعدُ قامَةَ انعدام الأوجاع بالكمال ولا هي تَرْجَح بكلِّ اجتِهادٍ وأمانَةٍ امتلاءَها بالتمام بالنِّعمة، بل إنَّا اكتَفَت بالنَّزُرِ اليسير من تعزية النِّعمة ورَكَّنت إليه وقنَعَت به، فباتَ تقدِّمُها إلى الكُبراء أكثرَ منه إلى الاتِّضاع. مثلُ هذه النُّفوس تتعرَّى في النِّهاية من أيَّةٍ موهبةٍ أهْلَلت لها، وذلك بسبَب استهانتها وإهمالها وتشانختها الباطل في مُخيَّلتها.

٤ - فإنَّ النَّفْس الَّتِي بالحقَّ تحبُ الله وتحبُّ المسيح، حتَّى وإنَّها تعمل عشرةَآلافٍ من أعمال البرِّ، فإنَّها عند ذاتِها كأنَّها ما عمِلَت شيئاً بالمرأة، وذلك من أجل شَوْقِها الَّذِي لا يُشَبِّع نحوَ الربِّ. وإنَّها تُضْنِي جسدها بأصومٍ وأسهر، تُحَسِّب وكأنَّها ما بدأَت بعدُ في السَّعْي لأجلِ الفضائل. وإنَّ هي صارت أهلاً لأن تناول مواهب الرُّوح القدس المتَّوِّعة أو تحظى باستعلاناتٍ وأسرارٍ سماوية، فكأنَّها ما ظَفَرَت بشيءٍ في ذاتِها حتَّى الآن، من أجلِ محبتِها الَّتِي بلا قياسٍ وبلا شَبَعٍ نحوَ الربِّ.

بل إنها طوال اليوم، بالإيمان والمحبة والدأب على الصلاة، يتملّكها الجوع والعطش، بلا شبع، لأسرار النعمة ولا قناءٍ كل فضيلة؛ وتكون محروحة بالعشق السماوي الذي للروح القدس، ومدفوعة في ذاتها كل حين – بشوق ناري، بفعل النعمة – إلى العريس السماوي، وتؤافقة لأن تؤهل للشركة معه بالتمام، تلك الشركة السرية التي لا يُعبّر عنها، في تقديس الروح^(١). وتشخص النفس بوجه مكشوف^(٢) إلى العريس السماوي، وجهاً لوجه^(٣)، في نور روحاني لا يُنطق به، ممتزجة به بكلٍّ يقين، متشبّهةً بجده^(٤)، ومنتظرة كلَّ حين، في توقٍ شديد، أن تموت لأجل المسيح، ومؤمنةً بيقين أن تعال بالروح القدس الفداء الكامل من الخطيئة ومن ظلمة الأهواء، حتى إذا ما تطهّرت بالروح القدس، وتقدّست نفساً وجسداً، تؤهل لتغدو إناءً طاهراً لتقبّل الدهن^(٥) السماوي، ومنزلًا^(٦)

(١) انظر: تس ٢: ٢.

(٢) انظر: كو ٢: ٣.

(٣) انظر: كو ١٣: ١٢.

(٤) انظر: في ٣: ١٠.

(٥) حرفيًا: μύρον - الميرون، وقد ترجمت هذه الكلمة في العهد الجديد بـ "الطيب"، ونجد لها مثلاً في حوادث سكب الطيب على رأس المسيح له المجد وعلى قدميه (انظر: مت ٢٦: ٧؛ مر ١٤: ٣؛ يو ١٢: ٣٧)، واضعف هنا بلا مزية إنما تشير إلى الروح القدس.

(٦) μυρίν " وهي ذات الكلمة المستخدمة في يو ١٤: ٢٣ «وعندَه تُصنَعَ مُنْزِلاً».

للمسيح الملك الحقيقي، وحينذاك تُعَيَّن مسْتَحِقَّةً للحياة السَّماوية، إذ قد صارت منذ الآن مسْكِنًا طاهرًا للرُّوح القدس^(١).

[ب] جهاد النفس وصبرها على التجارب

٥- غير أنَّ النَّفس لا يمكنها أن تبلغ هذه القامات في الحال ولا من دون امتحانات، بل إنَّها تُحقِّق النُّمُؤَ والارتفاع الروحي عبر أوجاع كثيرة وجهاداتٍ وأزماتٍ واجتها مع اختباراتٍ وتجاربٍ شَتَّى، إلى أن تبلغ قامة انعدام الأوجاع الكاملة، حتى إذا ما صَبَرَت بعزٍّ وشجاعةٍ على كلّ تجربة يجلُّها عليها الشَّرُّ، تُؤَهَّل حينئذٍ للكرامات العظيمة والمواهب الروحية والغَيَّى السَّماويَّ، وهكذا تصير وارثةً للملائكة السَّماويَّ في المسيح يسوع ربنا الذي له الحمد والسلطان إلى الدُّهور، آمين.

(١) انظر: حاشية ١ صفحة ١٩٦ - العطة ٥.

العظة الحادية عشرة

المسيح ... منْقذ النَّفْس وفادِيَهَا

[في أن قوَّة الرُّوح القدس في قلب الإنسان هي كالنَّار، وعَمَّا يَعْوِزُنَا لكي نُعَيِّزُ الأفكار التي تَتَبَعُ من القلب. وعن الحِيَة المائتة التي صَلَّبَها موسَى على قمة الخَشَبَة، والتي أضحت رمزاً للْمَسِيحِ. العَظَة تَحْوي أَيْضاً مَنَاظِرَتَيْنِ: الأولى بين المَسِيح والشَّيْطَان الغَبِيِّثِ، والثَّانِيَةُ بَيْنَ
الخَطَّةَ والشَّيْطَانَ]

- [أ] الرُّوح القدس الحي يسكن قلوبنا
- [د] الرَّبُّ ينقذ النَّفْس من براثن الموت
- [ب] المسيح يرده آدم إلى رئاسته
- [ه] مناظرة بين الشَّيْطَان والإنسان الخاطئ
- [ج] لنُبَدِّل حَطَامَ الدُّنْيَا ونشخص إلى المصلوب



[أ] الرُّوح القدس الحي يسكن قلوبنا

١ - إِنَّ نَارَ الْلَّاهُوتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي يَقْبِلُهَا الْمَسِيحِيُّونَ الْآنَ فِي هَذَا الدَّهْرِ، فِي دَاخِلِهِمْ، فِي قُلُوبِهِمْ، هَذِهِ بَعْينَهَا الَّتِي تَخْدِمُ فِي قُلُوبِهِمْ، سَوْفَ تَنْدِفَقُ إِلَى خَارِجِهِمْ حِينَما تَنْحَلُّ أَجْسَادُهُمْ، فَتَجْمَعُ الْأَعْصَاءُ مَرْءَةً أُخْرَى، مُنْشَئَةً قِيَامَةً فِي الْأَعْصَاءِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ انْحَلَّتْ. فَكَمَا أَنَّ النَّارَ الَّتِي كَانَتْ تَخْدِمُ فِي الْمَذْبُحِ فِي أُورْشَلِيمَ صَارَتْ مَدْفُونَةً فِي جُبْرِّ فِي زَمَانِ السَّيِّ(١)، وَهِي

(1) انظر: مك ٢: ١٨ - ٣٣.

بعينها قد تحدّدت وخدمت كالعادة حين عَمَ السَّلَامُ وعَادَ الْمُسِيْبُونَ؛ كذلك أيضًا الآن أجسادنا الملازمة لنا، والّتي بعد انحلالها تستحيل طيًّا، ستعمل فيها النَّارُ السَّمَاوِيَّةُ وتحدّدها وتقيّمها من بعد فسادٍ. وهكذا فإنَّ النَّارُ السَّائِكَةُ الآن في داخلنا، في قلوبنا، سوف تتدفق إلى خارج منشأةٍ قيامةً لأجسادنا^(١).

٢ - فإنَّ نارَ الأَئُلُونَ أيامَ نبوخذنَصَرٍ لم تكن إلهيَّةً بل مخلوقة^(٢)، أمَّا الفتيةُ التَّلَاثَةُ الَّذِينَ مِنْ أَجْلِ بَرِّهِمَ طُرِحُوا فِي تِلْكَ النَّارِ الْمُنْظَوِرَةِ، فَقَدْ كَانُوا حَائِزِينَ فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى النَّارِ الإِلَهِيَّةِ السَّمَاوِيَّةِ وَالّتِي لَمْ تَبْرُحْ خَادِمَةً دَاخِلَّ أَفْكَارِهِمْ وَفَاعِلَّةً فِيهِمْ، حَتَّى إِنَّمَا هِيَ بَعْنَاهَا ظَهَرَتْ خَارِجَهُمْ وَوَقَفَتْ فِي وَسْطِهِمْ حَائِلًا دُونَ أَنْ تَحْرُقَ النَّارَ الْمُنْظَوِرَةَ الْأَبْرَارَ أَوْ تَضُرُّهُمْ شَيْئًا. بِالْمُشَكِّلِ كَذَلِكَ شَعْبُ إِسْرَائِيلَ، فَعِنْدَمَا عَقَدُوا العَزْمَ بِعَقْلِهِمْ وَفَكْرِهِمْ أَنْ يَنْأُوا عَنِ اللَّهِ الْحَقِيقِيِّ وَيَنْعَطِفُوا نَحْوَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، اضْطُرَّ هَارُونَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ أَنْ يُخْضِرُوْا آنِيَتَهُمُ الدَّهْبِيَّةَ وَخُلَّيَّهُمْ، وَالّتِي لَمَّا طَرَحُوهَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي النَّارِ اسْتَحَالَتْ صَنْمًا، وَكَانَتْ النَّارُ قَدْ حَاكَتْ نَيَّتَهُمْ، وَكَانَ هَذَا أَمْرًا يُتَعَجَّبُ لَهُ^(٣). فَإِنَّمَا

(١) هذه الفقرة نجدها مُبَلَّغَةٌ في رو ٨: ٢١: «وَإِنْ كَانَ رُوحُ الَّذِي أَقَامَ يَسْوَعُ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَائِكًا فِيهِمْ، فَأَلَّذِي أَقَامَ الْمُسِيْحُ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَيْخِيِّي أَجْسَادَكُمُ الْمُائِشَةَ أَيْضًا بِرُوحِهِ السَّائِكِينَ فِيهِمْ».

(٢) انظر: دا ٣: ١٩ - إلح.

(٣) انظر: خر ٢: ٣٢ .

لما رَغَبُوا، في نِيَّتِهِمُ الْخَفِيَّةِ وَفِي أَفْكَارِهِمْ، أَنْ يَعْبُدُوا الْأَوْثَانَ، أَحَالَتِ النَّارُ كَذَلِكَ آنِيَتِهِمُ الَّتِي طَرَحُوهَا فِيهَا صَنْمًا، وَفِي النِّهَايَةِ عَبَدُوا الْوَثْنَ الَّذِي ظَهَرَ لَهُمْ. فَكَمَا أَنَّ الْفَتِيَّةَ الْثَّلَاثَةَ الَّذِينَ أَضْمَرُوا الْبَرَّ فِي فَكْرِهِمْ قَدْ قَبِيلُوا فِي نُفُوسِهِمْ نَارَ اللَّهِ وَسَجَدُوا لِلرَّبِّ بِالْحَقِّ، كَذَلِكَ أَيْضًا النُّفُوسُ الْأَمِينَةُ تَقْبِلُ خَفِيَّةً، الْآنَ فِي هَذَا الدَّهْرِ، تَلَكَ النَّارُ إِلَهِيَّةُ السَّمَاوَيَّةِ وَالَّتِي بَدَوْرِهَا تَصْنُعُ صُورَةً سَمَاوَيَّةً عَلَى طَبِيعَتِهِمُ الْبَشَرِيَّةِ.

٣ - إِذَا، فَكَمَا أَنَّ النَّارَ قَدْ شَكَّلَتِ الْآنِيَةَ الْذَّهَبِيَّةَ وَأَحَالَتِهَا صَنْمًا، هَكُذا أَيْضًا يُحاكِي الرَّبُّ نِيَّاتِ النُّفُوسِ الْأَمِينَةِ الصَّالِحةِ وَيُشَكِّلُ - وَفَقًا لِمُشَيَّاَتِهَا - صُورَةً جَدِيدَةً فِي النَّفُوسِ، سَوْفَ تُسْتَعَلَنَّ عِنْدَ الْقِيَامَةِ خَارِجًا عَنْهَا وَتُمْجَدَ أَجْسَادَهَا مِنَ الدَّاخِلِ وَمِنَ الْخَارِجِ. عَيْرَ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ أَجْسَادَهَا تَفْسِدُ وَتَقْوَى وَتَنْحَلُ طَالِمًا هِيَ فِي هَذَا الدَّهْرِ، هَكُذا أَيْضًا بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ تَفْسِدُ أَفْكَارُ الْبَعْضِ بِوَاسِطَةِ الشَّيْطَانِ، فَتَمْوَى عَنِ الْحَيَاةِ وَتُدْفَنُ فِي الطَّينِ وَالْأَرْضِ وَتَمْلِكُ نُفُوسُهُمْ. فَكَمَا أَنَّ الإِسْرَائِيلِيِّينَ قَدْ أَلْقَوْا آنِيَتِهِمُ الْذَّهَبِيَّةَ فِي النَّارِ فَاسْتَحَالَتْ صَنْمًا، هَكُذا إِلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ الْآنَ أَيْضًا قَدْ سَلَّمَ أَفْكَارَهُ النَّقِيَّةَ الصَّالِحةَ لِلشَّرِّ، فَدُفِنَتْ فِي حَمْأَةِ الْخَطِيَّةِ وَاسْتَحَالَتْ صَنْمًا، وَأَنَّ لِأَحْدِي أَنْ يَجْدِهَا وَيُعِزِّزَهَا وَيُخْرِجَهَا مِنْ نَارِهِ (الَّتِي أَلْقَاهَا فِيهَا)! وَهُنَا تَحْتَاجُ النَّفُوسُ إِلَى مَصْبَاحٍ إِلَهِيٍّ - مَصْبَاحِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ الَّذِي يُرِتَّبُ الْبَيْتَ الْمُظْلَمَ، وَإِلَى شَمْسِ

البِرَّ^(١) السَّاطِعَةُ الَّتِي تُضِيءُ الْقَلْبَ وَتُشْرِقُ فِيهِ، وَإِلَى سَلاَحِ ذَاكَ الْغَالِبِ فِي
الْحَرْبِ^(٢).

٤ - فَإِنَّ الْأَرْمَلَةَ الَّتِي أَضَاعَتْ دِرْهَمَهَا^(٣) أَوْقَدَتْ أَوَّلًا الْمَصْبَاحَ ثُمَّ رَتَبَتْ
بَيْتَهَا، وَهَكُذا إِذْ رُتَبَ الْبَيْتُ وَأَوْقَدَ الْمَصْبَاحَ عُثْرَ عَلَى الدِّرْهَمِ مَدْفُونًا فِي
الزَّبَلِ وَالْوَسْخِ وَالثُّرَابِ؛ هَكُذا أَيْضًا الْآنَ لَا تَقْدِرُ النَّفْسُ مِنْ ذَاكُوْنَا أَنْ
تَعْثَرَ عَلَى أَفْكَارِهَا الْخَاصَّةِ وَتُكَيِّرَهَا، وَلَكِنْ مَتَى أَوْقَدَ الْمَصْبَاحَ الإِلهِيِّ فَإِنَّهُ
يُنَيِّرُ الْبَيْتَ الْمَظْلُومَ، وَحِينَذَاكَ تَبْصُرُ النَّفْسُ أَفْكَارَهَا كَيْفَ أَنَّهَا مَدْفُونَةُ فِي
وَسْخِ الْخَطِيبَةِ وَطِينَهَا؛ فَمَا إِنْ تَشْرُقَ الشَّمْسُ حَتَّى تَبْصُرَ النَّفْسُ آنَذَاكَ
هَلَاكَهَا وَتَشْرُعَ تَدْعُو إِلَيْهَا أَفْكَارَهَا الَّتِي كَانَتْ قَدْ امْتَزَجَتْ بِالزَّبَلِ
وَالْوَسْخِ، إِذْ قَدْ أَضَاعَتِ النَّفْسُ صُورَهَا بِمَخَالِفَتِهَا لِلْوَصِيَّةِ.

[ب] المسيح يَرْدِدُ آدَمَ إِلَى رِئَاستِهِ

٥ - كَأَنَّمَا مَلِكُ لِهِ مَقْتِنَاتٌ وَحَدَّمْ تَحْتَ إِمْرَتِهِ يَقْوِمُونَ عَلَى حَاجَتِهِ، ثُمَّ
حَدَّثَ أَنَّهُ أَمْسِكَ مِنْ أَعْدَائِهِ وَسِيقَ إِلَى السَّيْءِ، فَلَمَّا أَمْسِكَ وَسَيِّءِ، تَبَعَهُ
بِالضَّرُورةِ خَدَّامُهُ وَالقَائِمُونَ عَلَى حَاجَتِهِ؛ هَكُذا آدَمَ أَيْضًا: فَإِنَّهُ حُلِقَ نَقِيًّا

(١) انظر: ملا ٤ : ٢ (بحسب النسخة الباريسية؛ ملا ٣ : ٢٠ في ترجمات أخرى).

(٢) أي المسيح، انظر: رؤ ٥ : ٦؛ ٤٥ : ٢، وأيضاً: خر ١٥ : ٣ س.

(٣) انظر: لو ١٥ : ٨.

بواسطة الله لكي يخدمه، وأعطي هذه المخلوقات ل تقوم على حاجته إذ قد أقيمت سيداً لجميع الخلائق ومملكاً عليها. غير أنه مذذنت منه الكلمة الخبيثة وتحادثت معه، اقبلها إليه أولاً من الخارج بواسطة السمع ثم تقدّت عبّر قليه فملكت كلّ كيانه، وهكذا في النهاية لما أمسك أمسك معه أيضاً الخليقة التي تخدمه وتقوم على حاجته^(١). فإنه بواسطته قد ملك الموت على كلّ نفس وشوه كلّ صورة آدم بسبب تلك المعصية^(٢)، حتى إنّ البشر انعطفوا وجنحوا نحو عبادة الشياطين، وإذا بشار الأرض التي خلقها الله حسناً يقدّمونها للشياطين، ويضعون خبراً وخبرًا وزيناً وحيوانات على مذاجها، وليس هذا فحسب بل لقد ذبحوا بنיהם وبناتهم للشياطين^(٣)!

٦ - من ثم فإن ذلك الذي جبل الجسد والنفس يأتي الآن، يأتي هو نفسه وينقض كل الانقلاب الذي صنعه الشّرير وكذا أعماله التي تكمل في الأفكار، فيجدد الصورة السماوية ويُشكّلها ويجعل النفس جديدةً، لكي يصير آدم مملكاً على الموت مرّة أخرى وسيدًا على الخلائق. فكما أنّ موسى قد دُعي - تحت ظل النّاموس^(٤) - مخلصاً لإسرائيل لأنّه أخرجهم من أرض

(١) انظر: رو ٨: ٢٠ - ٢٢.

(٢) انظر: رو ٥: ١٤.

(٣) انظر: مز ٣٧: ١٠٥ س.

(٤) أي إبان النّاموس الذي له ظل الحرير العتيقة لا حقيقتها (انظر: عب ١: ١).

مصر، هكذا أيضًا الآن المسيح، الفادي الحقيقي^(١)، ينفُذ إلى خبايا النفس ويخرجها من ظلمة مصر ومن النير الشديد التّشَقْل ومن العبودية المرأة. من أجل ذلك فقد أوصانا أن نخرج من العالم ونتحرّد من كلِّ ما هو منظور ولا يكون لنا أيُّ اهتمامٍ أرضيٍّ، بل ليلاً ونهاراً نقف على الباب متربّين الوقت الذي فيه يفتح الرَّبُّ قلوبنا المُوصَدة ويُسْكِب علينا عطية الروح القدس.

[ج] لننْبِئُ حُطَامَ الدُّنيَا ونشخص إلى المصلوب

٧ - لأجل هذا فقد أهاب بنا أن نترك الذهب والفضة والأقارب، ونبيع كلَّ ما نملك ونعطيه للفقراء فنكزه لنا في السَّماوات ونلتمسه هناك، إذ قال: «حيثُ يَكُونُ كُنْزُكَ، هُنَاكَ سَيَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضًا» (مت ٦: ٢١). فإنَّ الرَّبَّ قد عَرَفَ أَنَّه بواسطة هذه الأمور يُقوِي الشَّيْطان على أفكارنا ليُخْدِرَها إلى الاهتمام بالأمور المادِّية الأرضية. لذا، فإذا قد سَبَقَ الله وعُنِي بنفسك، أوصاك بأن تترك كلَّ شيءٍ، لكي تطلب - وإنْ كَرِهَا - الغنى السَّماوي، ويكون قلبك عند الله^(٢). لأنَّه حَقٌّ وإنْ أردتَ أن تَنْكُصَ

(١) المسيح هنا هو الفادي الحقيقي الذي كان يرمي إليه موسى. وبمجرد الذِّكر هنا أنَّ كلمة $\lambdaυτρωτής$ = الفادي هذه لم ترد في العهد الجديد كله سوى مرة واحدة فقط، على لسان ق. إستفانوس في آع ٧: ٣٥، واصفًا بما موسى كفادٍ لإسرائيل، ظللاً ورمزاً لل vadidi الحقيقي - المسيح.

(٢) في الأصل اليوناني هذه الجملة “ $\pi\tauος \tauον \kappaρδιαν$ Θεόν” $\epsilonχης$ على وزن ما نرِدده

على أعقابك نحو المقتنيات، فستجد ذاتك غير مالك لأيٍ من الأمور المنظورة. وهكذا سوأة أردت أو لم تُرِدْ، فسوف تكون مضطراً لأن ترفع عقلك إلى السماء^(١)، هناك حيث كنترت هذه الأشياء وذَهَرَتْ لنفسك، لأنَّه «حيث يَكُونُ كَزْكَ، هُنَاكَ سَيَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضًا»^(٢).

٨ - فلقد أمرَ الله موسى في التاموس بأنْ يصنع حيَّةً نحاسيةً ويرفعها ويصلبها على قمة الخشبة، وكلُّ من كان تلدغه الحيات ويلتفت إلى الحياة النحاسية يَرِءُ^(٣). وكان هذا تدريجياً، لكي يمثل هذه الطريقة يمكن للمكتَلين بالاهتمامات الأرضية وبعبادات الأوثان وبمددات الشيطان وبكلِّ ضروب عدم التقوى - يمكن لهم أن يرفعوا رؤوسهم، ولو جزئياً، إلى ما هو فوق. وهكذا إذ يستريحون مما هو أسفل يلتقطون إلى الأمور السماوية، ومنها يتقدَّمون أيضاً إلى ما هو أعلى، وهكذا شيئاً فشيئاً فشيئاً إذ يتقدَّمون إلى صاحب الجنس الأسماى والأعلى، يدركون أنَّ هناك مَن يفوق كلَّ الخليقة عُلُواً. هكذا قد أوصاك أنت أيضاً بأن تصيرَ فقيراً وتبيعَ كلَّ شيءٍ وتعطيه للقراء، لكي بهذا، حتى وإن رغبتَ في أن تميل لأسفل نحو

في القدس الإلهي: ”هي (قلوبنا) عند الرَّبِّ“ (حرفيًّا: Kύριον π. τ. Χρυσόμενη = نقتتها عند الرَّبِّ).
 (١) حرفيًّا: ”πόνος τὸν οὐρανίον = إلى السماء“، ويمكن أن تشير إلى العالم السماوي، أو الكثر السماوي.

(٢) مت ٦: ٢١.

(٣) انظر: عد ٢١: ٨.

الأرض، لا تستطيع. فافحص قلبك إذاً وابتدئ في أن تجاجج أفكارك قائلاً: "حيث إننا لا نملك شيئاً على الأرض، فلننسع حيثنا نحو السماء حيث نقتني كنزاً وحيث قد باشرنا تجارتنا". حينئذٍ يبتدئ عقلك يرتفع نحو الفلق، ملتمساً الأمور الأكثر سمواً ومتقدماً في هذا.

٩ - ولكن ما عسى أن يكون هذا: أن تُشفِّي الحَيَاةُ المائتةُ المصلوبةُ على قمةِ الخشبة أولئك الذين قد لُدغوا؟! لقد كانت الحَيَاةُ المائتةُ تغلبُ الحَيَاةِ العائشة، حتى إنها صارت رمزاً لجسد الرَّبِّ؛ إذ إنَّ الجسد الذي أخذه من مريم قد أصعده^(١) على الصَّلِيبِ وعلقه وصلبه على الخشبة - هذا الجسد المائت قد غَلَبَ الحَيَاةَ الْتِي تعيش وتزحف في القلب وقتلها، فيما له عَجَباً عظيماً جدًا، كيف أنَّ حَيَاةً مائتةً كانت تقتل أخرى لا تزال تحيا! ولكن على غرار المثال الذي صنع به موسى شيئاً جديداً - إذ قد صنع شيئاً شبيهاً للحَيَاةِ العائشة - هكذا أيضاً قد صنع الرَّبُّ من مريم شيئاً جديداً ولِيسه^(٢)، غير أنه لم يأتِ بجسده من السماء. فالنَّفخة السَّماوية الْتِي كانت قد دخلت في آدم، شَكَّلَها الرَّبُّ ووَحْدَها باللَّاهوت، ولِيس جسداً بشريًا صوره في بطن (العنراء). فكما أنه لم يصدر أمرٌ من قِبَلِ الرَّبِّ بظهور

(١) من الفعل *ἀναφέρω* = يُصعد (ذبيحة)، وقد ورد بهذا المعنى، على سبيل المثال، في: عب ٧:٩؛ ٤٢٧، وترجم "قدم".
 (٢) أي جسده الخاص.

حيّة نحاسية في العالم حتّى زمان موسى، كذلك أيضًا لم يظهر في العالم جسدٌ جديدٌ بلا خطيبة حتّى مجيء الرّبّ. فبمخالفة آدم الأوّل للوصيّة ملَك الموت على ذريته بأسها، وفي مقابل ذلك غلَبَ جسدُ مائتُ الحيّة العائشة.

١٠ - وهذا الأمر العجيب إنما هو عند اليهود عشرة وعند اليونانيين جهالة، لأنّه ماذا يقول الرّسول؟ «وَلَكِنَّنَا نَكْرِزُ بِسُوءِ الْمَسِيحِ وَإِيَّاهُ مَصْلُوبًا، لِلْيَهُودِ عَشْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ جَهَالَةً، وَأَمَّا لَنَا تَحْنُّنُ الْمُخْلَصِينَ فِي الْمَسِيحِ قُوَّةُ اللَّهِ وَحِكْمَةُ اللَّهِ» (قارن: ١ كو ٢٣، ٢٤؛ ١ كو ١: ١٨)، لأنّه في الجسد المائت قد وُجدت الحياة! هنا الفداء! هنا الثور! هنا الرّبُّ يتقدّم نحو الموت ويُجاججه ويأمره بأن يُخرج التّفوس من الجحيم ومن الموت ويردّها إليه. ولهذا فإنّ الموت يضطرب إزاء هذا ويدخل إلى خدامه ويخشى كلّ قواته، ثم إنّ رئيس الشّرّ يأتي بضموكوه قائلاً: ”أنظر هؤلاء الذين قد أطاعوا كلمتي! أنظر كيف أنّ البشر قد سجدوا لسا!“ أمّا الله، فلكونه الديان العادل، فإنه يُظهر آنذاك عدلَه قائلاً له: ”لقد أطاعك ”آدم“^(١) حتّى إنّك استأثرت بكلّ القلوب، وقد أطاعتكم البشرية، ولكن ماذا يعمل جسدي أنا هنا؟ إنّه بلا خطيبة. فإنّ الذي استُدِين لك هو ذاك الجسد الّذي لآدم الأوّل، وبعذلٍ تمْسِيك أنت عليه

(١) على مدار هذه الفقرة وما بليها، يستعيض أنيا مقار بـ ”آدم“ عن ”البشرية“.

هذه الصُّكُوك، وأمّا أنا فالجميع يشهد لي أَنِّي ما أخطأت^(١)، وعلى هذا فلِي لست مَدِينًا لك بشيء. فلِي أَنَا هو ابن الله، والكلُّ يشهد لي بذلك: فقد شَهِدَ صوتٌ من فوق السَّمَاوَاتِ نازلًا عَلَى الْأَرْضِ: «هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ، لَهُ اسْمَعُوا» (مت ٣: ١٦؛ ٤٥؛ لو ٩: ٣٥)، ويوحَّدَا شهد قائلًا: «هُوَ ذَا حَمَلَ اللَّهُ الَّذِي يَحْمِلُ حَطِيقَةَ الْعَالَمِ» (يو ١: ٢٩)، وأيضاً الكتب تقول: «الَّذِي لَمْ يَصْنَعْ حَطِيقَةً وَلَا وُجْدَ فِيهِ غِشٌّ» (إش ٥٣: ٩؛ بط ٢: ٢٢)، وأيضاً: «رَئِيسُ الْعَالَمِ يَأْتِي، وَلَنْ يَجِدَ فِي شَيْئًا» (يو ١٤: ٣ - حسب النَّصّ). بل إنك أنت نفسك، أيها الشَّيْطَانُ، تشهد لي قائلًا: «أَنَا أَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ، ابْنُ اللَّهِ» (مر ١: ٢٤؛ ٣: ١١)، وأيضاً: «مَا لَكَ وَلَكَ يَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ، أَتَيْتَ قَبْلَ الْوَقْتِ لِتُعَذِّبَنَا» (مت ٨: ٢٩)، وهكذا فإن ثلاثة يشهدون لي: ذاك الَّذِي أَطْلَقَ صوتًا من فوق السَّمَاوَاتِ، وأولئك الَّذِينَ عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ أنت نفسك. فلِي أَنَا أَفْتَدِي الْجَسَدَ الَّذِي بَيْعَ لَكَ بِوَاسِطَةِ آدَمَ الْأَوَّلَ، وَأَبْطَلَ صُكُوكَكَ، لَأَنِّي قد وَفَّيْتُ ذُبُونَ آدَمَ لِمَا صُلِّبَتْ وَنُزِّلَتْ إِلَى الْجَحِيمِ، وَهَذَا فِي أَمْرِكَ، أيها الْجَحِيمُ وَالظُّلْمَةُ وَالْمَوْتُ، أَنْ تُخْرِجَ نُفُوسَ «آدَمَ» الْمَغْلَقَ عَلَيْهَا». وهكذا في النِّهاية، إذ ترتعد القوَّاتُ الشَّيْطَانِيَّةُ فَرَقًا، تَرُدُّ إِلَيْهِ «آدَمَ» الْمَغْلَقَ عَلَيْهِ.

(١) انظر: يو ٨: ٤٦.

[د] الرَّبُّ ينقد النَّفْسَ من براهن الموت

١١ - ولكن حين تسمع أنه في ذلك الزَّمان قد أنقذ الرَّبُّ النُّفوسَ من الجحيم ومن الظُّلْمَةِ، وأنَّه قد نزل إلى الجحيم وصنع عملاً مجيداً، لا تظنَّ أنَّ هذه الأمور بعيدةٌ عن نفسك أنت. ذلك أنَّ الإنسان له أن يُفسيح للشَّرِّير وله أن يقبله، فلقد قبضَ الموتُ على نفوس "آدم"، وأغلقَ على أفكار النَّفْسَ في غُورِ الظَّلَامِ. وكذلك حين تسمع عن القبور، فلا تعتير تلك القبور الظَّاهِرَةَ وحدها، بل إنَّ قلبك أنت أيضاً هو قبرٌ ورَمْسٌ، لأنَّه حين يكمن هناك رئيسُ الشَّرِّ وملائكته، وحين تقام هناك الصُّرُقُ والدُّرُوبُ حيث تجعل منها قواتُ الشَّيْطَانَ مَعْبِراً إلى عقلك وإلى أفكارك، أفلَّا تُمْسِي أنت آثَدُ جحيمًا وقبراً ورَمْساً؟ أولاً تُمْسِي مائتاً بالنِّسبةِ إلى الله؟ فإنه هناك قد سَلَكَ الشَّيْطَانُ فضَّلَتْ المغشوشة، وفي هذه النَّفْسِ قد ألقى بُذُورَ مُرَّةً، فتخمَّرت بخميرَةِ عتيقةٍ وتتدفقُ هناك ينبوعٌ وحليٌ^(١)! إلَّا أنَّ الرَّبَّ يأتي إلى النُّفوسِ الَّتِي تطلبُه، يأتي إلى عمقِ جحيمِ القلبِ، وهناك يأمر الموتَ قائلًا: "أَخْرِجِ النُّفوسَ الْمَغْلُقَ عَلَيْهَا، الَّتِي تطلبُنِي، تلَكَ الَّتِي تَحْتَجُّ إلَيْها بِقَسْوَةٍ"، ثُمَّ إِنَّه يَشْقُّ الْحِجَارَةَ الثَّقِيلَةَ الْجَاثِمَةَ عَلَى النَّفْسِ، ويُفْتَحُ الْقُبُورُ، ويُقْيَمُ الْمَيْتُ الْحَقِيقِيُّ، ويُخْرِجُ مِنْ خِيَابِ السِّجْنِ النَّفْسَ الْمَغْلُقَ عَلَيْها.

(١) انظر: إش ٥٧: ٢٠.

١٢ - كمثل أن يكون هناك إنسان مربوطة يداه ورجلاه بسلاسل، ثم يأتي أحد ويُفك قيوده ويُطلقه حرّاً يسير بلا أغلال؛ هكذا النفس الرأسفة في قيود الموت يخلُّها الرّبُّ من أصفادها، ويغفر لها ويُعتنق ذهنها لكي ينطلق في راحةٍ بلا عناء نحو الأجواء الإلهية. وكمثل أن يكون هناك إنسانٌ وسطَ نهرٍ في ملءِ فيضانه، فيغرق في مياهه ويرقد مائتاً وختئناً ومكتئناً بوحوش مُفزعـة، فإنْ حـدث أن إنساناً آخر لا خـبرـة له بالسباحة أراد أن ينقذ ذاكَ الـذـي قد سقط، فسوف يهـلـك هو نفسه معه ويختنق. فإن الحاجة هنا إلى سباحٍ خـبـيرـ بـارـعـ، لـكـيـما يـدـخـلـ إلى عـمـقـ جـلـجـةـ المـيـاهـ ويغوص ثم يصـعدـ ذاكَ الـذـي قد غـرقـ وصارـ في وـسـطـ الـوـحـوشـ، وأـمـاـ المـيـاهـ نفسـهاـ، فـحـينـما تـرـىـ خـبـيرـاـ بالـسـبـاحـةـ وـعـارـفـاـ لهاـ، فإـنـماـ تـعـيـنهـ وـتـرـفـعـهـ إلىـ أـعـلـىـ؛ـ هـكـذاـ النـفـسـ أـيـضاـ، فإـنـماـ لـمـاـ أـغـرـقـتـ فيـ هـوـةـ الـظـلـمـةـ وـفيـ عـمـقـ المـوـتـ،ـ اـخـتـنـقـتـ وـبـاتـ مـائـةـ بـالـنـسـبةـ إـلـىـ اللهـ، مـكـتـئـنـةـ بوـحـوشـ مـفـزعـةـ؛ـ فـمـنـ ذـاـ الـذـيـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـنـزـلـ إـلـىـ تـلـكـ الـمـواـضـعـ الـخـفـيـةـ وـإـلـىـ أـعـمـاقـ الـجـحـيمـ وـإـلـىـ الـمـوـتـ، إـلـاـ الـخـالـقـ الـبـارـعـ نـفـسـهـ، ذـاكـ الـذـيـ جـبـلـ الـجـسـدـ؟ـ فـإـنـهـ هوـ يـأـتـيـ إلىـ كـلـ الـمـوـضـعـينـ:ـ إـلـىـ عـمـقـ الـجـحـيمـ،ـ وـكـذـلـكـ إـلـىـ عـمـقـ غـورـ الـقـلـبـ،ـ هـنـاكـ حـيـثـ النـفـسـ مـمـسـوـكـةـ مـنـ الـمـوـتـ مـعـ كـلـ أـفـكـارـهـ،ـ وـيـصـعـدـ مـنـ

العمق المظلم ”آدم“ الذي كان قد مات؛ وأما الموت فإنه إزاء هذا الصَّنْبَع^(١) العظيم يصير هو نفسه عوناً للإنسان، كما الميأة للسباح.

١٣ - لأنَّه لماذا يُعدُّ أمراً عسيراً على الله أن يدخل إلى الموت، وأيضاً إلى عمق غَور القلب، لكي يدعُو مَرَّةً أخرى من هناك ”آدم“ المائت؟ ففي هذا العالم المنظور توجد مساكن وأبنية حيث يقطن بنو البشر، وتوجد كذلك مواضع حيث تأوي وحوش وأسود أو تنانين ووحوش سائمة أخرى، فإنْ كانت الشَّمس، وهي مجرد خلقة، تَنْفُذ إلى كلِّ صُوبٍ عبر المنافذ والكُوبي، إلى غُرَبِ الأسود كما إلى جحور الرواحف، ثمَّ تخرج لا يعوقها شيء؛ فكم بالأحرى جداً إلى الجميع وسيدهم، يدخل إلى الأوجرة وإلى الموضع حيث يتَصِّب الموت خيمته، وكذا إلى النُّفوس حيث ينقد ”آدم“، دون أن يتضرر من الموت في شيء؛ فالمطر أيضاً الذي يهطل من السماء يبلغ في نزوله أقسام الأرض السُّفلَى، وهناك يُرْطَب الجذور اليابسة ويُجَدَّدها، فتُنشئ هناك ثباتاً جديداً.

(١) الكلمة التي ترجمها هنا ”الصَّنْبَع“، هي: ”*τυμπανόν*“، وهي تعني ”عملًا بطيئاً عظيماً“، وهي من أصل *τύμπανον* = عاري، مجرد، على أساس أنَّ البطل يصل إلى أن يتعري من ثيابه ليتحقق العمل البطولي الذي يتغيه. غالباً كان عالقاً في ذهن أثبا مقار وهو يختار هذه الكلمة لأنَّ المسيح تعري على الصَّلَب لأجلنا، ليتحقق هذه السُّلطنة العظيمة على مملكة الشَّيطان وينفذنا منها. (عن أحد آباء التَّأْبِير)

[هـ] مناظرة بين الشّيطان والإنسان الخاطئ

١٤ - فذاك الذي يكون له جهادٌ وضيقٌ وحربٌ مع الشّيطان إنما هو إنسانٌ مُغايرٌ؛ إذ يقتني له نفساً منسحقة، كونه في همٍ وحزنٍ ودموع. مثل هذا يثبتُ من وجهتين (الأولى أنَّه يجاهد، والثانية أنَّ الرَّبَّ يغضُّه)، فإنَّ كان هو يتجلَّد إزاء مثل هذه الأمور، فإنَّ الرَّبَّ يكون معه في الحرب ويحرسه، ذلك لأنَّه يسأل باجتهاد ويقرع الباب حتى يفتح له، وإنْ كان يبدو لك أنَّه أخٌ صالحٌ فذلك لأنَّ النِّعمة تُثبتُه. أمَّا من كان لا أساسَ له، فإنه لا يجوز في نفسه مثل ذلك الخوف من الله، ولا يقتني قلباً منسحقاً، ولا يكون في حشيةٍ، ولا يصون قلبه وأعضاءه لكي لا تسلكه بلا ترتيب، مثل هذا لا يزال ذا نفسٍ سائبةٍ لأنَّه لم يدخل بعد في الجهاد. إذاً فذاك الذي له جهادٌ وضيقٌ إنما هو مغايرٌ تماماً من لا يعلم الحرب، ما هي! لأنَّه حتى الإذار حين تلقى في الأرض، فإنهما تتحمل ضيقاً من الصَّقبح ومن الشَّتاء ومن الأهوية قارصة البرودة، ثمَّ في الزَّمان المعيَّن يحيى التَّبُّث مجدداً.

١٥ - لكنْ يعرض أن يلاجحك الشّيطان في قلبك قائلاً: "انظرْ كم من شُرُورٍ صنعتَ؟ انظرْ كم من جهالاتٍ قد امتلأَت بها نفسُك؟ وهَا أنت تُثُوِّب بِعْمَل خطاياك، وعلى هذه الحال فلا يمكنك أن تخلص". فهو إنما يفعل مثل هذه الأمور لكيما يأتي بك إلى اليأس وإلى الظُّنْنِ بأنَّ توبتك غيرُ

مقبولة، لأنَّه منذ أن دخلَ الشَّرُّ بواسطة المعصية، والشَّيْطَانُ لا يُكُفُّ من أن يتحاجج مع النَّفْسِ كُلَّ سَاعَةٍ مثل إنسانٍ يتحاجج مع إنسان آخر. أمَّا أنت فرَدٌ عليه جوابًا هكذا: «إِنَّ عَنِّي شَهَادَاتُ الرَّبِّ مُكتَوَيَةٌ إِنِّي لَا أَشَاءُ مَوْتًا حَاطِنًا مُثْلًا أَنْ يَتُوبَ وَيَرْجِعَ عَنْ طَرِيقِ الشَّرِّ وَيَحْيَا» (قا: حز ٣٣: ١١). لأنَّه لأجلِ هذا قد نَزَلَ هو، لكي يخلصَ الحَاطِنَةَ^(١) ويقيِّمَ الْمَوْتَى وَيُخْبِيَ الَّذِينَ قُتِلُوا وَيُضَيءَ عَلَى الَّذِينَ فِي الظَّلَامِ، لأنَّه بالحقيقة لَمَّا جاءَ دُعَانًا إِلَى التَّبَّيِّنِ، وإِلَى مَدِينَةِ مَقْدَسٍ تَفَيَّضَ سَلَامًا - مَدِينَةُ حَيَّةٍ لَنْ تَمُوتَ أَبَدًا، وإِلَى مَجِدٍ لَا يَفْسُدُ. فَقَطَ لَنْصَعَ نَحْنُ خَاتَمُ صَالِحَةٍ لَمَا بَدَأْنَا بِهِ، وَلَنُثْبِتَ فِي الْفَقْرِ وَالْغَرْبَةِ وَالْمَذَلَّةِ وَالسُّؤَالِ إِلَى اللَّهِ قَارِعِينَ الْبَابَ بِلَحْاجَةٍ^(٢). لأنَّه كَمَا أَنَّ الْجَسَدَ هُوَ قَرِيبٌ مِنَ النَّفْسِ، هَكُذا الرَّبُّ أَيْضًا، بل إِنَّه أَقْرَبُ، حَتَّى إِنَّه يَأْتِي وَيُفْتَحَ أَبْوَابَ الْقَلْبِ الْمَوَصَّدَةِ وَيُنْدِقُ عَلَيْنَا غُنَّاه السَّمَاؤِيَّ؛ فَإِنَّه صَالِحٌ وَمُحْبٌ لِلْبَشَرِ وَمَوْاعِيدُهُ غَيْرُ كَاذِبَةٍ، إِنَّ كُلَّاً فَقَطَ نَصِيرٌ فِي طَلْبِنَا إِيَّاه حَتَّى الْمُنْتَهِي^(٣). فَاجْمَدْ لِرَأْفَاتِ الْآبِ وَالْابْنِ وَالرُّوحِ الْقَدِسِ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ، آمِينٌ.

(١) انظر: إبي ١٥: ١.

(٢) انظر: لو ١١: ٨.

(٣) انظر: مت ١٣: ٤٢٢: ١٠: ١٣.

العظة الثانية عشرة

الله يختم خاصته بروحه القدس

[عن حالة آدم قبل تعلّيه وصيّة الله، وحالته بعد أن أضاع كُلَّا من صورته الخاصة وكذا الصورة السماوية. العظة تحوي أيضًا أسللة نافحة جداً]

- [أ] موت آدم عن الله بتعلّيه الوصيّة [د] ليس لنا أن نستقصي فكر الله
[ب] فلتبن أفسنتنا على أساس الرَّبِّ والرَّسُول [ه] افتناء الروح القدس هو شغلنا الشاغل
[و] النفس كيسة لله تُرهف إليه سمعها [ج] معرفة آدم قبل التعلّي ويعده



[١] موت آدم عن الله بتعلّيه الوصيّة

١ - إنَّ آدم لَمَّا تَعَدَّى الوصيّة، هَلَكَ من وجهتين: الأولى أَنَّه أَضاع المُقتَنَى النَّقِيَّ الجميل الَّذِي لطبيعته، الَّذِي كَانَ عَلَى صُورَةِ الله وشَبَهَهُ^(١)؛ والثانية أَنَّه أَضاع الصُّورَةَ عِينَهَا المَذْخُورُ لَهُ فِيهَا - حَسْبُ الْوَعْدِ - كُلُّ الميراث السماوي. كمثل أَنْ تكون هُنَاكَ عَمَلَةٌ مُنْقَوْشٌ عَلَيْهَا صُورَةُ الْمَلَكِ ثُمَّ غُشِّتْ، فَيَضِيعُ الْذَّهَبُ، وَالصُّورَةُ كَذَلِكَ لَا تَعُودُ تَنْفَعُ؛ عَلَى هَذَا الْمَنْوَالِ أَيْضًا قَدْ قَاسَى آدم، ذَلِكَ لَأَنَّ غِئْرَيْ جَزِيلًا وَإِرْثًا عَظِيمًا كَانَ قَدْ أُعِدَّ لَهُ^(٢).

(١) انظر: تلك ١ : ٢٦.

(٢) يُشَتَّتِهُ أَنْبَا مقار آدم المخلوق على صُورَةِ الله والمَذْخُورُ لَهُ الإرث السماوي، بعملية من ذهب

وكما لو أنَّ هناك ضيَّعَةً عظيمَةً تحوي مواردَ كثيرةً؛ فهناك كرمةٌ مزدهرة، وهناك كُورٌ مُخْصِبة، وهناك قطعانٌ، وهناك ذهبٌ وفضَّةٌ؛ هكذا كانت الضيَّعَةُ - الَّتِي هي شخصٌ^(١) آدم - ثمينَةً قبل المعصية، ولكن لأنَّه اقتنيَ نَيَّاتٍ وأفكاراً شرِّيرة، مات عن الله.

٢ - غير أنا لا نقول إنَّه قد فَنَّ بالتأمَّام وهلكَ ومات؛ فإنَّه مات عن الله ولتكنَ ما فَتَّى يحيَا بطبعته الخاصةَ. لأنَّه ها هو العالم بأُسْرِه يسلُك في الأرض ويشتغل، ولكنَّ عَيْنَ الله تنظر لِبَ الجميع ودخلتَهم، وكأنَّ به فيما ينظر إليهم يغضُّ الطَّرفَ عنهم فلا يصنع شَرِّكةً معهم لأنَّهم ما فَكَرُوا بشيءٍ يُرضي الله. فكما أَنَّه وإنْ كانت هناك حاناتٌ ومواحِدٌ ومواقعٌ حيث الخلاعةُ وما لا يليق، فإنَّ خائفي الله حين يمرون بها يأنفون منها وحين يرؤونها لا يتطلَّعون إليها إذ قد باتت وكأنَّها مائةٌ بالنسبة لهم؛ هكذا الله أيضًا ولئن كان ينظر الذين يجحدون عن كلمته ووصيَّته، إلَّا أَنَّه يغضُّ نظره عنهم ولا يصنع شَرِّكةً معهم ولا يستريح لأفكارهم.

رمزاً لصورة الله، وقد نقشت عليها صُورة الملك رمزاً للإله الموعود؛ فلما تعدى آدم الوصيَّة خسر الاثنين جميعاً.

(١) الكلمة اليونانية هي: οὐκεῖδος = إباء، والمقصود بها شخص آدم أو كيانه البشري ككل. (see Lampe, s.v.)

[ب] فلتبن أنفسنا على أساس الرب والرسل

٣ - سؤال: كيف يمكن لأحدٍ أن يكون مسكيّناً بالروح^(١)، ولا سيما حين يدرك في نفسه أنَّه قد ترقى وغاً وبلغ معرفةً وفهمًا لم يحظَ بهما من قبل؟

الجواب: طالما لم يظفرُ المرءُ بهذه الأمور ويُتَمَّ، فما هو مسكيّن بالروح بعد، بل يتوقّم ذلك في نفسه؛ أمّا حين يبلغ هذا الفهم والثّمُّ فالتعلّمة عيُّتها تعلّمه أن يكون مسكيّناً بالروح.

سؤال: وما هو معنى أن يكون مسكيّناً بالروح؟

الجواب: معناه أنَّه رغم كونه بارًّا ومحتاًّراً من الله، إلَّا أنَّه لا يحسب نفسه شيئاً بل تكون نفسه غير ثمينة عنده^(٢) بل ومحتقرة، وكأنَّه ما عرف شيئاً ولا ملْكَ شيئاً، وهو يعرف ويملك، ويصبح هذا الأمرُ في ذهنه مثل شيءٍ طبيعيٍ وراسخ. ألا ترى إلى أبيينا إبراهيم - رغم كونه محتاًّراً^(٣) - قد دعى نفسه تراباً ورماداً^(٤)؟! وداود - رغم مسحه ليصير ملِكًا ومتّعه بمعية الله -

(١) انظر: مت ٥:٣.

(٢) انظر: أع ٢٠:٢٤.

(٣) انظر: تك ١٢:١.

(٤) انظر: تك ١٨:٢٧.

ماذا يقول؟ «أَنَا دُودَةٌ لَا إِنْسَانٌ، عَارُ الْبَشَرِ وَمُخْتَفِرُ الشُّعُوبِ». (مز ٢١: ٧ - حسب النَّصّ).

٤ - فالذين يرومون إذاً أن يرثوا مع هؤلاء ويصيروا معهم من رعيَّة^(١) المدينة السَّماوية ويتمجَّدوا معهم، يجب عليهم أن يقتربوا هنا التَّواضع ولا يطُّلُّوا في ذواتهم أَهْمَ شيء بل يكون لهم القلب المنسحق. لأنَّه وإنْ كانت النِّعمَةُ تعمل بطريقة مغایرة في كُلِّ واحدٍ من المسيحيين فيصير لها أعضاءٌ مختلفة، إلَّا أَهْمَ جميعًا مُنْتَسِبُون لمدينة واحدة ولم نَفْسٍ واحدة ولسانٍ واحدٍ ويعرف أحدهم الآخر عن كُثُبٍ. فكما أنَّه توجد أعضاء كثيرة في الجسد، ولكنَّ نَفْسًا واحدةً في جميعها هي الَّتي تحركها؛ هكذا هو روحٌ واحدٌ يعمل في الجميع بطريقة مغایرة، ولكنَّ الكلَّ ينتمي لمدينة واحدة وله لسانٌ واحدٌ وطريقٌ واحدة. ذلك أنَّ جميع الأبرار قد اجتازوا الطريقَ الصَّدِيقَ الْمُضَاعِطةَ، مُضطهدِين ومُذَلَّين ومُغَيَّرين وعائشين في جلودِ معاذِ في مغارَّ وفي شقوقِ الأرض^(٢). وبالمثل يقول الرَّسُول أيضًا: «إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ الْحَاضِرَةِ تَجُوعُ وَنَفَطَشُ وَنَغْرِي وَنَعِيرُ وَلَيْسَ لَنَا إِقَامَةٌ» (كو ٤: ١١ - ١٣).

(١) كلمة πολίτης وردت مرَّة واحدة في الكتاب المقدس في أوف ٢: ١٩، وترجمت “رعيَّة مع”， حيث كلمة “πολίτης” تعني “مواطن” أي “من أهل المدينة” (انظر كذلك: ثيوبوكية الثلاثاء - القطعة الرابعة - الربيع الثالث عشر).

(٢) انظر: عب ١١: ٣٧، ٣٨.

حسب النَّصَّ)، فمِنْهُمُ الَّذِينَ قُطِعْتُ رُؤُسُهُمْ، وَآخْرُونَ قُدِّسُوا، وَآخْرُونَ قُدِّسُوا عَلَيْهِمْ بِصَنْوُفٍ شَتَّى. بَلْ إِنَّ سِيدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ نَفْسَهُ، وَكَانَهُ قُدِّسَ تَنَاسِي مَجْدَهُ الْإِلَهِيُّ، كَمْ عَانَ صَائِرًا مَثَلًا لَنَا! فَلَقَدْ حَلَّ - إِمْعَانًا في الْإِسْتِهْزَاءِ بِهِ - إِكْلِيلًا مِنْ شُوكٍ عَلَى رَأْسِهِ، وَاحْتَمَلَ
الْبَصَاقَ وَاللَّطَمَ ثُمَّ الصَّلَبَ!!

٥ - فِإِنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ سَلَكَ هَكَذَا عَلَى الْأَرْضِ، فَيُنِيغِي لَكَ أَنْتَ أَيْضًا أَنْ تَصِيرَ مَتَمِّلِلًا بِهِ، فِإِنَّ الرَّسُولَ كَذَلِكَ وَالْأَنْبِيَاءِ أَيْضًا قَدْ سَلَكُوا هَذَا النَّهَجَ. وَنَحْنُ أَيْضًا، إِنْ كَانَ نَشَاءُ أَنْ نُبَنِّي عَلَى أَسَاسِ الرَّبِّ وَالرَّسُولِ^(١)، يَتَحَمَّلُونَا أَنْ نَصِيرَ مَتَمِّلِلِيْنَ بِهِمْ، لَأَنَّ الرَّسُولَ يَقُولُ بِالرُّوحِ الْقَدِيسِ: «كُوَّنُوا مَتَمِّلِلِيْنَ فِيِّ، كَمَا أَنَا أَيْضًا بِالْمَسِيحِ» (أَكُو ١١: ١). أَمَّا إِنْ كُنْتَ تَهْوِي أَعْجَادَ النَّاسِ^(٢) وَتَرْغُبُ فِي أَنْ تُعْبَدَ وَتُفْتَشَ عَنِ الرَّاحَةِ، فَقَدْ حِدَّتَ عَنِ الطَّرِيقِ. فِإِنَّهُ يَتَوَجَّبُ عَلَيْكَ أَنْ تُصَلِّبَ مَعَ ذَاكَ الَّذِي صَلَبَ، وَتَتَأَلَّمَ مَعَ ذَاكَ الَّذِي تَأَلَّمَ، حَتَّى بَهْذَا تَتَمَجَّدَ مَعَ ذَاكَ الَّذِي تَمَجَّدَ^(٣). فَلَا بُدَّ لِلْعَرْوَسِ أَنْ تَشْتَرِكَ فِي آلَامِ عَرِيبَتِهَا، وَهَكَذَا تَصِيرُ شَرِيكَةً لِلْمَسِيحِ وَوَارِثَةً مَعَهُ. فِإِنْ أَحَدًا لَا يُمْكِنُهُ - بِدُونِ الْآلَامِ وَالطَّرِيقِ

(١) انظر: أَفَ ٢: ٢٠.

(٢) انظر: يو ٥: ٤٣ - ٤٤: ١٢.

(٣) انظر: رو ٨: ١٧.

الوعرة الضّيقه الضّاغطة - أن يدخل إلى مدينة القديسين ويستريح ويملك مع الملك إلى الدهور التي لا نهاية لها.

[ج] معرفة آدم قبل التّعدي وبعده

٦ - سؤال: إذ قد قلت إنَّ آدم قد أضاع كُلَّا من صورته الخاصة وكذا الصُّورة السُّماوية، فإنْ كان قد اشترك في الصُّورة السُّماوية، فهل قد اقتني، تبعًا لذلك، الرُّوح القدس؟

الجواب: طالما كان كلمة الله (الوغوس) ملائِمًا له، وكذا الوصيَّة، فقد كان يحظى بكلِّ شيء، إذ إنَّ الكلمة نفسه صار له إرثًا، والكلمة نفسه كان لباسًا وجداً يسرقه، والكلمة نفسه كان تعليمه. فلقد كان يلقينه كيف يُسمَّى كلَّ شيء^(١)، فدعَا هذا "سماءً" وهذا "شمساً" وهذا "قمرًا"، وهذا "أرضاً" وهذا "طائراً" وهذا "وحشاً" وهذا "شجرةً"؛ فكما كان يلقنه، هكذا كان يدعو.

٧ - سؤال: هل كان لآدم الإحساس بالروح القدس والشَّرِكة معه؟

الجواب: حيث إنَّ الكلمة نفسه كان حاضرًا معه، فقد حاز كلَّ شيء؛ إنَّ كان معرفة أو حسناً أو ميراثاً أو تعليماً. لأنَّه ماذا يقول يوحنا عن

(١) انظر: تك ٢: ١٩.

الكلمة؟ «في الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ» (يو 1: 1)، فها أنت ترى أنَّ الكلمة كان كُلُّ شيءٍ. وإنْ كانَ الْكَلِمَةُ ملازِماً لآدم كَمَجِدٍ من الخارج أيضاً، فلا نعثُرُنَّ من هذا، إذ يقول: «كَانَا (آدُمُ وَحَوَاءُ) عُرْيَانَيْنِ» (قا: تك 2: 25) ولم ينظر أحدُهُما إلى الآخر، ولكنْ بعد تَعْدِي الوصيَّةِ، رأَيَا نفسيَّيهُما حينئذٍ عريَانَيْنِ⁽¹⁾، فتَمَلَّكُوهُما الخجل.

٨ - سؤال: أفكانا إذاً قبل ذلك متسلِّلين بِمَحْدِ اللَّهِ عَوْضَ رَدَاءِ؟

الجواب: مثلما كان الرُّوح القدس يَعْمَلُ في الأنبياء ويُعَلِّمُهم، ويكونُ في داخِلِهم، وفي لمحَةٍ خاطفةٍ يَظْهُرُ لهم من الخارج؛ هكذا أيضًا بالتناسبة إلى آدم: فمَنْ شاءَ الرُّوحُ القدسُ، كَانَ يَلْازِمهُ وَيُعَلِّمُهُ وَيُشَيرُ عَلَيْهِ: ”قل هكذا“، فيقول. ذلك لأنَّ الكلمة كَانَ لَهُ كُلُّ شيءٍ، وطالما كَانَ ثابتاً في الوصيَّةِ، كَانَ خَلِيلًا لله. وما العجبُ في أَنَّهُ وهو على هذه الحال قد تَعَدَّى الوصيَّةِ؟ فَإِنَّهُ حتَّى أولئكَ الَّذِينَ قد امتلأوا من الرُّوح القدس لا ينفكُون مقتنيَن للأفكار الطبيعية ولهم الإرادة للتَّوَافُق معها. هكذا أيضًا آدم نفسه، رغم كونه في معيَّنةِ الله في الفردُوسِ، قد تَعَدَّى – من نفسه وبمحض إرادته – وانصاعُ للجانب الشَّرِّيرِ، ولكنْ حتَّى بعد التَّعَدُّي كَانَت له معرفة.

٩ - سؤال: أية معرفة؟

(1) انظر: تك 2: 7، 11.

الجواب: كما حينما يؤخذ لصٌ إلى ساحة القضاء وتبداً محكمته، فيقول له الحاكم: ”حين كنت تفترف هذه الشُّرور، أما كنت تعلم أنَّه سوف يمسك بك وتموت؟“ أما ذاك فلا يجرؤ أن يقول: ”ما كنت أعلم“، لأنَّه بالفعل يعلم، وفيما هو يعاقب فسوف يتذكَّر كلَّ شيء ويُقرُّ به. والذي يزني، أمَّا يعلم أنَّه يصنع ردِّي؟ والذي يسرق أمَّا يعلم أنَّه يخطئ؟ هكذا أيضًا أمَّا يعلم النَّاسُ من الحسن الطَّبيعي - دون حاجة إلى كتب مقدَّسة - أنَّه يوجد إله؟ ففي ذلك اليوم لا يستطيعون أن يقولوا: ”ما علِمنَا أنَّك أنت هو الله“، لأنَّه سيقول لهم: ”أمَّا علِمْتُم من الرُّعود والبروق الصَّائرة من السَّماء أنَّه يوجد إله يُدَبِّر الخلقة؟“ فلماذا إذًا كانت الشَّياطين تصرُّخ: ”أنت هو ابن الله، لم أتَيت قبل الوقت لتعذِّبنا؟“ (قا: مت: ٨: ٢٩)؟ بل إنَّها لا تزال إلى الآن تصرُّخ في مواضع الشَّهادة^(١) قائلة: ”إنَّك تحرقني؛ إنَّك تحرقني“. أمَّا كان النَّاس يعرفون إذًا شجرة معرفة الخير والشرّ؟ فإنَّ تعذِّبِي آدم قد أعطاهم المعرفة.

(١) المعنى المقصود هنا من هذه الكلمة *μαρτύριον* τὸ, موضع الاستشهاد، أو موضع حفظ رفات الشُّهداء. ويجدر الذِّكر هنا أنَّ هذه الكلمة عينها هي التي أطلقها أنبياء مقار على قلابة القديسين مكسيموس ودوماديوس بعد نياحتهما، إذ كان يأخذ الآباء إلى هناك قائلًا: هلْمُوا نعain شهادة *μαρτύριον* τὸ الغباء الصُّغار. (Apoph., Mac., 33)

١٠ - وهنا يشرع كُلُّ واحِدٍ أن يتَسأَلُ: "أَيَّةٌ حَالَةٌ كَانَ عَلَيْهَا آدَمٌ إِذَا؟ وَمَاذَا فَعَلَ؟". فَإِنَّ آدَمَ نَفْسَهُ قَدْ اقْتَبَلَ مَعْرِفَةَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، ثُمَّ إِنَّا نَسْمَعُ مِنَ الْكِتَابِ الْمَقْدَسَةِ أَنَّهُ كَانَ فِي كَرَامَةٍ وَنَقاُوَةٍ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا تَعَدَّى الْوَصِيَّةُ طُرِدَ مِنَ الْفَرْدَوْسِ وَغُضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَعَلَى هَذَا فَقَدْ تَعَلَّمَ الْأُمُورَ الْجَيْدَةَ بِالنِّسْبَةِ لَهُ، وَتَعَلَّمَ كَذَلِكَ الْأُمُورَ الشَّرِّيرَةَ، فَصَارَ يَحْتَاطُ لِنَفْسِهِ لَكِي لا يَعُودُ يَخْطُئُ أَيْضًا فَيُسَقَّطُ فِي قَضَاءِ الْمَوْتِ. وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ خَلِيقَةَ اللَّهِ إِنَّمَا تُدَبِّرُ بِوَاسْطَتِهِ لَأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ قَدْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْحَيْوَانَاتَ وَالْزَّحْفَاتَ وَالْوَحْشَاتَ، تَلَكَ الَّتِي نَرَاهَا وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُ عَدَدَهَا، فَمَنْ مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ هَذَا إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ الْكَائِنُ فِي الْجَمِيعِ بَلْ وَفِي أَجْنَانِ الْحَيْوَانَاتِ؟ أَلَا يَعْلَمُ هُوَ الْأُمُورُ الْكَائِنَةُ تَحْتَ الْأَرْضِ وَالَّتِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ؟!

[د] ليس لنا أن نستحيي فكر الله

١١ - فَلَنْتَرَكَ عَنَّا إِذَا هَذِهِ الْأُمُورُ وَلَنْتَرَبَ بِالْحَرَيِّ، كَمْثُلُ بُجَارِ صَالِحِينَ، اقْتِنَاءِ الْمِيرَاثِ السَّمَاوِيِّ وَالْأُمُورِ النَّافِعَةِ لِنَفْوُسِنَا، وَلَنْتَعَلَّمَ أَنْ نَمْتَلِكَ قَنِيَّةً تَدُومُ مَعْنَا. فَإِنَّكَ إِذَا مَا شَرَعْتَ - وَأَنْتَ مُحَرَّدٌ إِنْسَانٌ - أَنْ تَفْحَصَ فَكْرَ اللَّهِ، فَتَقُولُ: "لَقَدْ وَجَدْتُ شَيْئًا وَأَدْرَكْتُهُ"، فَسُوفَ يَوْجَدُ عَقْلُكَ الْبَشَرِيُّ إِذْ ذَاكَ مُسْتَعِلِّيَا عَلَى فَكْرِ اللَّهِ! فَفِي هَذَا أَنْتَ تَضْلُلُ كَثِيرًا، لَأَنَّكَ بِمَقْدَارِ مَا تَبْتَغِي أَنْ تَتَفَحَّصَ بِعِرْفِكَ وَتَسْتَقْصِي، تَنْتَهِي إِلَى غَوْرٍ دُونَ أَنْ تَدْرِكَ شَيْئًا. لَأَنَّهُ

حتى التّساؤلات^(١) نفسُها الّتي تَعرض لك، ما الّذِي يُحدِثها فيك كُلَّ يوم؟ وكيف أنَّ هذا لا يُطْقِ به ولا سبِيل إلى إدراكه! هذا، لك فقط أن تَقبله بشكِّر وتومن. بل إنَّ نفسك أنت ذَاكَه، هل في مُكتِّبك أن تَعرِفها منذ ولدت إلى الآن؟ إِذًا فاعلمُني بالأفكار الّتي تَبع فيك من الصَّبَاح إلى المساء! قُل لي أفكار ثلاثة أيام! لكنك لا تستطيع. فإنْ كنت لا تقدر أن تطالَّ أفكار نفسك، فكيف يمكنك أن تدرك أفكار الله وعقله^{(٢)؟!}

١٢ - لكن كُلَّه أنت خبِّزاً بقدر ما تَجد، واترُك عنك الأرض وما فيها؛ وامض إلى شاطئ النَّهْر واشرب بقدر ما يكون لك احتياج واجتَزْ، ولا تَسْأَل من أين يأتي ولا كيف يتَّبع. اجتهد لكي تُشَفِّي قدمُك، أو تَصْبِح عينُك لكيما تبصر نور الشَّمْس، ولكن لا تطلب معرفة مقدار النُّور الّذِي تحويه الشَّمْس، ولا كم مرَّة تشرق. خُذِّ الحيوان الملائم لاستخدامك، ولكن ما الدَّاعي لأن تمضي إلى الجبال وتطلب معرفة كم يكون هناك من حَمِير وحشَّية تَرْعَى^(٣) أو من وحوش؟ فالطِّفل حينما يدنو من ثدي أمِّه يرتشف

(١) الكلمة اليونانية *ἐπίσκεψις* يمكن أن تعني تَساؤل، أو افتقاد، وهذا المعنى الأخير اختارته الترجمة الفرنسية والإنجليزية “الافتقادات (الإلهية)”， بينما اختير المعنى الأول في النهر الـلاتيني في PG 34, 563 A وفي الترجمة العربية القديمة، وأثرناه هنا ملائمة مع ما ورد في بقية الفقرة.

(٢) انظر: إش ٤٠: ١٣؛ رو ١١: ٣٤؛ ١: ٢؛ ٣: ٢.

(٣) قد يبدو لنا الآن غريباً أن يذكر أثينا مقار الحمير الوحشية كحيوانات ترعى في براري مصر وجبالها، ولكننا نجد في بستان الإلهان ثلاثة مواضع على الأقل يُذكر فيها الحمار الوحشي كحيوان

اللَّبَنُ وَيَعْتَذِي وَهُوَ لَا يَعْرِفُ أَنْ يَسْتَبِرُ أَصْلُهُ أَوْ مَنْبِعُهُ، مِنْ أَينْ يَنْبَعُ هَكُذا، لَأَنَّهُ يَرْضِعُ اللَّبَنَ وَيَسْتَفْدِهُ كَامِلًا، ثُمَّ فِي غَضْوَنِ سَاعَةٍ أُخْرَى يَمْتَلَئُ التَّدْبِيرُ أَيْضًا! هَذَا مَا لَا يَعْرِفُهُ لَا الْطَّفَلُ وَلَا أَمْهَهُ كَذَلِكَ، وَلَوْ أَنَّ اللَّبَنَ يَنْبَعُ بِلَارَبٍ مِنْ جَمِيعِ أَعْصَاءِ الْأُمَّ. فَإِنْ كُنْتَ إِذَا تَطْلَبُ الرَّبَّ فِي الْعُمَقِ، فَهُنَاكَ تَجْدُهُ^(۱)؛ وَإِنْ كُنْتَ تَطْلَبُهُ فِي الْمَيَاهِ، فَهُنَاكَ تَجْدُهُ صَانِعًا آيَاتٍ؛ وَإِنْ كُنْتَ تَطْلَبُهُ فِي الْجَهَنَّمِ، فَهُنَاكَ تَجْدُهُ فِي وَسْطِ أَسْدَيْنِ حَارِسَيْنِ دَانِيَالَ الْبَازَ^(۲)؛ وَإِنْ كُنْتَ تَطْلَبُهُ فِي النَّارِ، فَهُنَاكَ تَجْدُهُ عَصْدًا لِعَبِيدَهُ^(۳)؛ وَإِنْ كُنْتَ تَطْلَبُهُ فِي الْجَبَلِ، فَهُنَاكَ تَجْدُهُ مَعَ إِيلِيَّا وَمُوسَى^(۴). فَإِنَّهُ حَاضِرٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ إِنَّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ أَوْ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ أَوْ فِينَا، هُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ. كَذَا نَفْسُكَ أَيْضًا هِيَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ وَفِي دَاخْلِكَ وَفِي خَارِجِكَ، فَأَيْنَمَا تَشَاءُ الدَّهَابُ، وَإِنْ إِلَى بَلْدَانِ قَصْبَيَّةٍ، فَهُنَاكَ يَكُونُ عَقْلُكَ، سَوَاءً غَرِبًا أَوْ شَرْقًا أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ هُنَاكَ يَوْجُدُ.

مَالُوفُ تَوَاجِهُ فِي الْبَرَارِيِّ، سَوَاءً فِي الْبَرِّيَّةِ الْغَرِيَّةِ (قول رقم: ۸۵۵)، أَوْ فِي بَرِّةِ أَنْطَوْنِيوسِ الشَّرَقِيَّةِ (قول رقم: ۴۸۷، ۴۸۸)، وَلَا نَنسَنَ أَنَّ أَنْبَا مَقَارَ قد زَارَ جَيلَ أَنْطَوْنِيوسَ مَرْتَبَنَ عَلَى الْأَقْلَمِ.

(۱) انظر: مز ۱۰۶: ۲۴ س.

(۲) انظر: دا ۶: ۱۶ - ۲۳.

(۳) انظر: دا ۳: ۲۵.

(۴) انظر: مت ۱۷: ۳؛ مر ۹: ۴؛ لو ۹: ۳۰.

[ه] اقتناء الروح القدس هو شغلنا الشّاغل

١٣ - فلنطلب إذاً، قبل كل شيء، أن نقتني في ذاتنا وسِم^(١) الرَّبِّ وختمه، لأنَّه في زمان الدُّينونة، حين تصير صرامة الله وتحمُّع كُلُّ قبائل الأرض، كُلُّ جنس آدم، ويُدعى الرَّاعي رعيَّته الخاصة، فكُلُّ من له الوسِمُ سيعرف راعيه الخاص، وكذا الرَّاعي سيعرف أولئك الذين لهم ختمه الخاص ويجمعهم معاً من جميع الأمم، لأنَّ خاصته تسمع صوته وتذهب وراءه^(٢). فإنَّ العالم سوف يوقف في قسمين^(٣): رعيَّة مظلمة تضي إلى نار أبدية، وأخرى مفعمَة نوراً تُرفع إلى الميراث السماوي. فإذا، بما نقتنيه الآن في نفوسنا، هو بعينه سِيِّءٌ ويتجلَّ ويُسرِّيل أجسادنا بالجُدُّ.

١٤ - فكما أنَّه في زمان شهر كسانثيكس^(٤) تُخرج الجذور المدفونة في الأرض ثمارها الخاصة وأزهارها الخاصة وجمالاتها وتحمل ثُمراً، فتظهر الجذور الجديدة، وتصير الأخرى التي تحمل شوكاً ظاهرةً أيضاً؛ هكذا في ذلك اليوم

(١) الوسِمُ: أثر الكي، والكلمة اليونانية هي: *καυτήρ* (ومنها اشتُقَت الكلمة الفرنسية *cautère*، والإنجليزية *cautery*)، والتي تعني الحرق أو الكي في المجال الطبي، وهي هنا تعني بالتحديد علامة يتركها في اللحم الحديد المُخْمَى بالثار.

(٢) انظر: يو ١٠: ٣، ١٤، ٢٧.

(٣) انظر: مت ٢٥: ٣٣.

(٤) وهو يقابل شهر نيسان (مارس/أبريل) (انظر: حاشية ١ صفحة ١٩٧ - العظة ٥).

سيُبَيِّن كُلُّ واحد، بواسطة جسده الخاصّ، أيَّ ما صنع، وتظهر الصَّالحات والشُّرور، لأنَّه هناك ستصرير كُلُّ الدِّينونة والمحاذاة. فإنَّه يوجد طعامٌ آخر بخلاف هذا الظَّاهر، وتوجد مائدةٌ أخرى سماوَيَّة بخلاف الظَّاهرة، لأنَّ موسى أيضًا حين صعد إلى الجبل صام أربعين يومًا، فصعدَ إنسانًا ونزل مقتنِيَ الله. وهذا نحن ننظر في أنفسنا أَنَّه إِنْ لَمْ يُمْدَّ الجسد بالقوت يذبل في أيام قلائل، وأَمَّا هو فمكث صائمًا أربعين يومًا ثُمَّ نزل وهو أَشَدُ قوَّةً من الجميع، ذلك لأنَّه كان يغتذى بواسطة الله وكان جسده يتدبَّر بطعامٍ آخر سماويًّا، إذ قد أَضْحى كلمةُ الله (اللُّوغوس) ثُوتًا له فحظي بمحَدِّ في وجهه^(١). وهذا الَّذِي حدَثَ له غداً مثلاً، لأنَّ ذلك المجد يضيءُ الآن في داخل قلوب المسيحيين، وأجسادُنا كذلك الَّتي ستقام في القيمة ستتسربِيل بلباسٍ آخر إلهيًّا وتغتذى بطعام سماويًّا.

[و] الْفَقْس كِبِيسَةُ اللَّهِ شَرِيفٌ إِلَيْهِ سَمْعَهَا

١٥ - سؤال: ما معنى القول: «الْمَرْأَةُ الَّتِي تُصَلِّي بِرَأْسٍ غَيْرِ مَعَطَّلٍ»
(كو ١١ : ٥)؟

(١) أشار القديس سابقاً إلى نفس هذا المثال (انظر العظة ٥ : ١٠ ، ١١).

الجواب: في زمان الرُّسُل كانت النِّساء يتَرَكْن شَعْرَهُنَّ منسدلاً عَوْضَ غَطَاءٍ، لأَجْلِ هَذَا جَاءَ الرَّبُّ وَالرُّسُل إِلَى الْخَلِيقَةِ وَأَتَوْهَا إِلَى التَّعْقُلِ. غَيْرَ أَنَّ الْمَرْأَةَ تُعْتَدَ رَمِزاً لِلْكَنِيسَةِ، وَكَمَا أَنَّهُ فِي الظَّاهِرِ، فِي ذَلِكَ الزَّمَانَ، كُنَّ يَتَرَكْن شَعْرَهُنَّ منسدلاً عَوْضَ غَطَاءٍ؛ هَكَذَا الْكَنِيسَةُ أَيْضًا ثُلِيسَ أَوْلَادَهَا وَتَسْرِيلَهُم بِشَيَّابِ إِلهَيَّةِ مُحَمَّدةٍ. وَأَمَّا فِي الزَّمَانِ الْقَدِيمِ الَّذِي لِكَنِيسَةِ إِسْرَائِيلِ، فَقَدْ كَانَتِ الْجَمَاعَةُ وَاحِدَةً وَكَانَ مُظَلَّلاً عَلَيْهِمْ مِنَ الرُّوحِ الْقَدِيسِ وَكَانُوا مَتَّشِحِينَ بِالرُّوحِ الْقَدِيسِ عَوْضَ مَجْدِهِ، مَعَ أَنَّهُمْ مِنْ جَهَتِهِمْ لَمْ يَسْلِكُوا بِمَقْتَضَىِ هَذَا. فَكَلِمَةُ "كَنِيسَةٌ" إِذَا تَنْطَبِقُ عَلَى كَثِيرِينَ كَمَا عَلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، لِأَنَّ النَّفْسَ ذَاكَهَا تَجْمِعُ كُلَّ أَفْكَارِهَا، فَتَصْبِحُ كَنِيسَةً لِلَّهِ^(١). ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ قَدْ ُخُطِبَتْ^(٢) لِشَرِكَةِ الْعَرِيسِ السَّمَاوِيِّ وَهِيَ تَتَرَجَّعُ مَعَهُ. هَذَا يُقْهَمُ عَلَى كَثِيرِينَ كَمَا عَلَى وَاحِدٍ، لِأَنَّ النَّبِيَّ يَقُولُ أَيْضًا عَنِ إِسْرَائِيلَ: «وَجَدْنُوكُمْ مَهْجُورَةً وَعَرْيَانَةً، فَأَلْبَسْنُوكُمْ»، وَمَا يَلِيهِ^(٣)، كَمَا لَوْ كَانَ يَتَكَلَّمُ عَنْ شَخْصٍ وَاحِدٍ.

(١) انظر أيضًا: العظة ٣٧: ٨. وهكذا تسلّم أبا مقار من أبيه أبا أنطونيوس، فنجد له في كتاب فضائل أبا مقار - قول ٣١، يكرر أيضًا هذا التعليم قائلاً: "... لأنّ أبا أنطونيوس قال: "ينبغي لكلّ واحد أن يجعل نفسه كنيسةً في هذا الزمان"، أي أن يعمّل الإنسان كله جهده لتنقية نفسه التي هي كنيسة الله ...". (Amélineau, Histoire des Monastères de la Basse-Égypte - p.148)

(٢) هذا الفعل *ἀπμόρτω* = يخطب ورد مرأة وحيدة في العهد الجديد، حيث استخدمه بولس الرَّسُولُ فِي حِدْيَتِهِ أَيْضًا عَنْ هَذِهِ الْحِيطَةِ الْمُسْتَبِكَةِ: «لِأَنَّهُمْ خَطَبْتُكُمْ لِزِيَّلِ وَاحِدٍ، لِأَقْيَمَ عَذْرَاءَ عَقِبَةَ لِلْمُسْبِعِ» (٢: ١١). (٢: ١١)

(٣) قال: حز ٧: ١٦ . ١٠ .

١٦ - سؤال: ما معنى ما كانت تقوله مرتا للرَّبِّ عن مريم: ”إِنِّي أَتَعْبُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، بَيْنَمَا تَحْلِسُ هِيَ إِلَى جَوَارِكَ“؟ (قا: لو ١٠: ٣٩ - ٤١).

الجواب: إنَّ مَا كَانَ يَجِبُ أَنْ تَقُولَهُ مَرِيمٌ لِمَرْثَةِ، هَذَا قَدْ سَبَقَ الرَّبَّ وَأَجَابَ بِهِ مَرْثَةُ قَائِلاً: ”إِنَّ مَرِيمَ قَدْ تَرَكَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَجَلَسَتْ إِلَى جَوَارِ قَدْمَيِ الرَّبِّ، وَهِيَ تَبَارِكُ اللَّهَ طَوَالَ الْيَوْمِ“. أَفَتَرَى الْجَلوسُ إِلَى جَوَارِهِ بِدَاعِيِ الْحُبِّ؟ وَلَكِمَا تَرَدَادُ كَلْمَةُ اللَّهِ جَلَّاءً وَنُورًا، أَلَا فَاسْمَعْ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْبُّ يَسُوعَ وَيُصْغِي إِلَيْهِ بِاسْتِقَامَةٍ، وَلَيْسَ يُصْغِي إِلَيْهِ فَحَسْبٍ، بَلْ وَيَثْبِتُ فِي مُحِبَّتِهِ أَيْضًا، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْزِمُ فِي الْحَالِ أَنْ يَهْبَطَ لِتَلْكَ النَّفْسِ شَيْئًا مَا عِوْضَ مُحِبَّتِهَا هَذِهِ، وَإِنْ كَانَ الإِنْسَانُ لَا يَدْرِي مَا هُوَ عَيْدَ أَنْ يَنْالَهُ، أَوْ أَيُّ نَصِيبٍ يَرْمَعُ اللَّهُ أَنْ يَعْطِيهِ لِلنَّفْسِ. وَأَمَّا مَرِيمُ الَّتِي أَحَبَّتْهُ وَجَلَسَتْ إِلَى جَوَارِ قَدْمِيهِ، فَلَمْ يُعْطِهَا مُجَرَّدُ شَيْءٍ بِسِيطٍ، لَكِنَّهُ وَهَبَهَا قَوَّةً مَا خَفِيَّةً مِنْ ذَاتِ كِيَانِهِ. لِأَنَّ الْكَلْمَاتِ نَفْسَهَا الَّتِي كَانَ يَتَكَلَّمُ بِهَا الرَّبُّ مَعَ مَرِيمَ فِي سَلَامٍ، كَانَتْ رُوحًا وَقَوَّةً^(١)، وَهَذِهِ الْكَلْمَاتِ الَّتِي نَفَدَتْ إِلَى قَلْبِهَا أَضْحَتْ نَفْسَهَا وَرُوحَهَا لِرُوحِهَا، وَكَانَتْ هَنَاكَ قَوَّةً إِلهِيَّةً تَدْفَقُ فِي قَلْبِهَا حَتَّى الْمُلْءِ، لِأَنَّهُ حِينَما تَسْتَقِرُّ تَلْكَ الْقَوَّةُ، فَبِالضَّرُورةِ تَصِيرُ كَمُثُلُ قَنِيَّةٍ بَاقِيَّةٍ لَا تُنْزَعَ^(٢). مِنْ أَجْلِ هَذَا، إِذْ قَدْ عَلِمَ الرَّبُّ بِمَا أَعْدَهُ عَلَيْهَا،

(١) انظر: يو ٦: ٦٣.

(٢) ”ἀναφαίρετον“ = لَا تُنْزَعُ، مِنَ الْفَعْلِ الَّذِي اسْتَخْدَمَهُ الْمَسِيحُ

قال: ”مَرِيمٌ قَدْ اخْتَارَتِ النَّصِيبَ الصَّالِحَ“ (لو ۱۰: ۴۲). ولكن فيما بعد، فإن تلك الأمور التي كانت مرثا تصنعها بعئية من أجل الخدمة أتت بها إلى تلك الموهبة، لأنّها هي أيضاً قد افبلت قوّة إلهيّة في نفسها.

١٧ - ولم العجب من أن أولئك الذين كانوا يذنون من الرّب ويتصقون به جسدياً كانوا ينالون قوّة، إن كان المؤمنون حين كان يتكلّم إليهم الرّسل بالكلمة كان الرّوح القدس يخلُّ عليهم؟ فكورنيليوس من مجرّد الكلمة التي سمعها نال قوّة^(١)، فكم بالأحرى الرّب حين كان يقول كلمة لمريم^(٢)، أو لرِّيغا^(٣)، أو للخاطئة التي أسدلت شعرها ومسحت به قدمي الرّب^(٤)، أو للسامريّة^(٥)، أو لللّص^(٦)، فإن قوّة كانت تتبع منه فيمتزج الرّوح القدس بنفسهم؛ كذا الآن أولئك الذين يحبّون الله ويتركون كل شيء ويعاظبون على الصّلاة يتعلّمون في الخفاء ما لا يعرفونه، لأنّ الحقّ

كذلك في وصفه للنصيب الذي اختارته مريم أنه «لَنْ يُنْزَع ἀφαιρεθήσεται منها» (لو ۱۰: ۴۲).

(١) انظر: أع ۱۰: ۴۴.

(٢) انظر: لو ۱۰: ۳۹.

(٣) انظر: لو ۱۹: ۵.

(٤) انظر: لو ۷: ۴۸.

(٥) انظر: يو ۴: ۷ - ۲۶.

(٦) انظر: لو ۲۳: ۴۳.

ذاته - وفَقًا لِنِيَّتِهِمْ - يَظْهِرُ لَهُمْ وَيَعْلَمُهُمْ أَنْ «أَنَا هُوَ الْحَقُّ»^(١). فَإِنَّ الرَّسُولَ أَنفَسَهُمْ كَذَلِكَ، قَبْلَ الصَّلَبِ، لَمَّا كَانُوا مَا كَثِيرٌ مَعَ الرَّبِّ، كَانُوا يَنْظَرُونَ آيَاتٍ عَظِيمَةً، حَتَّى إِنَّ الْبُرْصَ كَانُوا يُطَهَّرُونَ وَالْمَوْتَى يَقُومُونَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ كَيْفَ أَنَّ قَوَّةً إِلهَيَّةً تَسْكُنُ فِي الْقَلْبِ وَتَغْدُو فَعَالَةً فِيهِ، وَلَا كَيْفَ أَنَّهُمْ مَزْمَعُونَ أَنْ يَوْلِدُوا مِنْ فَوْقِ رُوحِيًّا وَيَمْتَرِجُوا بِالنَّفْسِ السَّمَاوِيَّةِ وَيَصِيرُوا خَلِيقَةً جَدِيدَةً^(٢). وَلَكِنَّهُمْ مِنْ أَجْلِ الْآيَاتِ الَّتِي كَانُوا يَصْنَعُونَهَا الرَّبُّ كَانُوا يَحْبُّونَهُ، غَيْرَ أَنَّ الرَّبَّ قَالَ لَهُمْ: «لَمْ تَعْجَبُوكُمْ مِنَ الْآيَاتِ؟ فَهَا إِلَيْيَّ مُعْطِيكُمْ إِرَثًا عَظِيمًا لَا يَمْلِكُهُ الْعَالَمُ بِأَسْرِهِ».

١٨ - لَكِنَّهُمْ مَا بَرِحُوا مَتَعَجِّبِينَ مِنْ كَلَامِهِ، إِلَى أَنْ قَامَ مِنْ بَيْنِ الْأَمْوَاتِ وَأَصْبَدَ الْجَسَدَ مِنْ أَجْلِنَا فَوْقَ السَّمَاوَاتِ^(٣)، وَحِينَئِذٍ دَخَلَ الرُّوحُ الْمَعَزِّيُّ فِي نُفُوسِهِمْ وَامْتَرَجَ بِهَا. كَذَا الْحَقُّ ذَاتُهُ يُظَهِّرُ نَفْسَهُ لِلنُّفُوسِ الْأَمِينَةِ، فَيَأْتِي الإِنْسَانُ السَّمَاوِيُّ (أَيْ الْمَسِيحُ)^(٤) مَعَ إِنْسَانِكَ أَنْتَ وَيَصِيرُ مَعَهُ إِلَى شَرِكَةٍ وَاحِدَةٍ. إِذَا فَجَمِيعُ الَّذِينَ هُمْ فِي خَدْمَةِ، وَبِنَشَاطٍ يَصْنَعُونَ كُلَّ شَيْءٍ لِأَجْلِ عَيْرِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمُ اللَّهُ، يَأْتِي بِهِمْ ذَلِكُ الْأَمْرُ عَيْنُهُ، بَعْدَ بُرْهَةٍ مِنَ الزَّمْنِ،

(١) يو ١٤: ٦.

(٢) انظر: ٢ كو ٥: ١٧.

(٣) انظر: أف ٤: ١٠.

(٤) انظر: ١ كو ٤٧: ٤٧ - ٤٩.

إلى معرفة الحقّ نفسه، لأنَّ الرَّبَّ يَظْهَرُ لنفوسهم ويُعِلِّمُهم السُّلوك بحسب
الرُّوح القدس. فالمجد والستّجود للآب والابن والروح القدس، إلى الدُّهور،
آمين.

العظة الثالثة عشرة

من يغلب يرث كل شيء

[الثمرة التي يطلبها الله من المسيحيين]



١ - لقد خلق الله جميع المنظورات ومنحها للبشر لأجل راحتهم وتنعمهم، وأعطى لهم ناموس البر^(١)، ولكن منذ مجيء المسيح والله يطلب ثمرة أخرى وبُرًّا آخر - يطلب نقاوة القلب وضميرًا صالحًا وكلامًا طيبًا وأفكارًا طاهرة صالحة وكل أعمال القديسين القوية^(٢)، لأنَّ الرَّبَّ يقول: «إِنْ لَمْ يَزِدْ بِرُّكُمْ عَلَىٰ بِرِّ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِسِيَّيْنَ فَلَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَذَهَّلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ . وَمَكْتُوبٌ فِي النَّامُوسِ: لَا تَرْزُنْ، وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لَا تَشْتَهِي وَلَا تَغْضَبْ» (مت ٥: ٢٢، ٢٧، ٢٨). لأنَّه يتعين على من يريد أن يصير حبيباً وأخاً وابناً للمسيح أنْ يعمل شيئاً يفوق ما يعلمه باقي الناس، ألا وهو تكريسُ القلب ذاتِه والدهن ذاتِه، وبسطُ

(١) انظر: رو ٩: ٣١.

(٢) *κατόρθωμα* = عمل قوي، فضيلة، مائرة، ولعلها هي الكلمة الواردة في دلائلولوجية أنسطينيوس^(١)، والتي ترجمت "المعجزات"، والأصل: الأعمال القوية، أو المائر أو الفضائل، وقد وردت مرتين في سيرة أنسطينيوس: "... كان هذا هو عمل *κατόρθωμα* المخلص في أنسطينيوس" (فصل ٧); و "... لكن يقام *κατόρθωμα* ذلك (الشفاء) ليس لي ..." (فصل ٥٨).

الأفكار نحو الله، وهكذا يعطي الله، خُفيَّةً، حِيَاةً وَمَعْوِنَةً لِلْقَلْبِ وَيَأْتِنَهُ عَلَى ذَاتِهِ هُوَ. فَعِنْدَمَا يُسْلِمُ أَحَدُ سَرَائِرِهِ، أَيْ ذَهَنَهُ وَأَفْكَارَهُ، لِلَّهِ، دُونَ أَنْ يَنْشُغِلَ أَوْ يَطْبَشَ فِي مَكَانٍ آخَرَ بَلْ يَغْصُبُ ذَاتَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُؤْهِلُهُ لِأَسْرَارِهِ فِي قَدَاسَةٍ وَنِقاَوةٍ عَظِيمَتَيْنِ وَيَهُبُهُ غَذَاءً سَماوِيًّا وَشَرَابًا رُوحِيًّا.

٢ - كَمَا لَوْ كَانَ أَحَدٌ يَقْتِنِي مِلْكًا خَاصًّا عَظِيمًا وَعَبِيدًا وَأَوْلَادًا، فَإِنَّ الطَّعَامَ الَّذِي يَعْطِيهِ لِعَبِيدِهِ يَخْتَلِفُ عَنْ ذَاكَ الَّذِي يَمْنَحُهُ لِأَوْلَادِهِ الْخَواصَّ الْمُولَودِينَ مِنْ زَرْعِهِ، فَالْأَوْلَادُ يَرِثُونَ أَبَاهُمْ وَيَأْكُلُونَ مَعَهُ لَأَنَّهُمْ صَارُوا مُتَشَبِّهِينَ بِأَبِيهِمْ؛ هَكَذَا أَيْضًا الْمَسِيحُ، السَّيِّدُ الْحَقِيقِيُّ، قَدْ حَكَىْ هُوَ نَفْسُهُ كُلَّ شَيْءٍ، (١) وَهُوَ يَقْيِتُ الْأَشْرَارَ وَغَيْرَ الشَّاكِرِينَ (٢)، أَمَّا أَوْلَادُهُ الَّذِينَ وَلَدَهُمْ مِنْ زَرْعِهِ (٣) وَأَسْبَغُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعْمَتِهِ وَتَصُورَ الرَّبِّ فِيهِمْ (٤)، فَإِنَّهُ يَقْيِتُهُمْ بِأَسْمِي مَا يَقْيِتُ بِهِ بَقِيَّةُ النَّاسِ - يَقْيِتُهُمْ بِرَاحَةٍ خَاصَّةٍ وَطَعَامٍ وَمَأْكُلٍ وَمَشْرُبٍ، بَلْ وَيَهُبُهُمْ [ذَاتَهُ] (٤) لَأَنَّهُمْ يَسْلُكُونَ فِي مَعِيَّةِ أَبِيهِمْ يَسْوَعُ، كَمَا قَالَ الرَّبُّ: «مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرُبْ دَمِي يَبْثُثُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ» (يو ٦: ٥٦)، وَ«لَمْ يَرِيَ الْمَوْتَ إِلَى الْأَبَدِ» (يو ٨: ٥١). لَأَنَّ الَّذِينَ لَهُمُ الْإِرْثُ الْحَقِيقِيُّ هُمْ كَأَبْنَاءِ مُولَودِينَ

(١) انظر: لو ٦: ٣٥.

(٢) انظر: يو ٣: ٩.

(٣) انظر: غل ٤: ١٩، حيث الموضع الوحيد الذي ورد فيه هذا الفعل *mopphōō* في الكتاب المقدس.

(٤) وَرَدَتْ فَقْطَ فِي الْجَزْءِ الْمُقَابِلِ فِي الـPG (PG 34, 572 D).

من الآب السماوي، ويقضون حيائِهم في بيت أبيهم، كما قال الرَّبُّ:
«الْعَبْدُ لَا يَبْقَى فِي الْبَيْتِ، أَمَّا الْابْنُ فَيَبْقَى إِلَى الأَبَدِ» (يو ٨: ٨ -
حسب النَّصّ).

٣ - فإن كنَّا نشاء نحن أيضًا أن نُولَد من الآب السماوي، يلزمـنا أن
نعمل شيئاً فائقاً لما يعمـله باقي النَّاس - يلزمـنا الاجتـهاد والجهـاد والغـيرة
والمحـبة والـسـيرة الصـالحة في إيمـان وخوف، حيث إنـنا نريد أن نحظـى بـخـيرات
هـكـذا عـظـيمة، وأن نـرـث الله^(١)، «لأنَّ الرَّبَّ هُوَ نَصِيبُ مـيرـاثـي وـكـأسـي»^(٢).
وهـكـذا إـذـا ما رـأـى الرـبـُّ تـيـئـنا الصـالـحة وـصـرـنـا، يـصـنـعـ معـنـا رـحـمة، وـيـطـهـرـنـا
مـنـ وـسـخـ الخطـيـعـة وـمـنـ النـارـ الـأـبـدـيـةـ الكـائـنـةـ فـيـنـا، وـيـصـيـرـنـا أـهـلـاـ لـلـمـلـكـوتـ.
فـالـجـدـ لـتـحـثـنـهـ وـلـلـمـسـرـةـ الصـائـرـةـ نـحـوـنـاـ مـنـ الآـبـ وـالـابـنـ وـالـروحـ الـقـدـسـ،ـ آـمـينـ.

(١) انظر: رو ٨: ١٧.

(٢) مز ١٥: ٥ من.

العظة الرابعة عشرة

استنارة عيون القلب

[فَإِنَّ الَّذِينَ يُسْمِعُونَ أَنْكَارَهُمْ وَعَقْلَهُمْ لِلَّهِ، إِنَّمَا يَفْعَلُونَ هَذَا عَلَى رِجَاءِ اسْتِنَارَةِ عِيُونٍ قَلْوَبِيهِمْ؛ وَإِنَّ اللَّهَ يَوْهِلُ أَمْثَالَ هُؤُلَاءِ لِأَسْرَارِهِ فِي قَدَاسَةِ وَطَهَارَةِ عَظِيمَيْتَيْنِ جَدًّا، وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ نَعْمَلِهِ. وَمَا الَّذِي يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَعْمَلَهُ إِنْ كُنَّا تَرِيدُنَا نَيْلَ الْحَيَاةِ السَّمَاوِيَّةِ. وَفِي أَنَّ الرَّسُولَ وَالْأَنْبِيَاءَ يُشَبَّهُونَ بِاَشْعَةِ الشَّمْسِ النَّافِذَةِ عَبْرَ طَاقَةِ تَعْلُمُ الْعَذَلَةَ كَذَلِكَ عَمَّا هُوَ أَرْضٌ الشَّيْطَانُ، وَمَا هُوَ أَرْضُ الْمَلَائِكَةِ، وَإِنَّ كُلَّتِيهِمَا لَا تَلْمَسَانُ وَلَا تُرَيَانُ]

[أ] الصَّلَاةُ عَلَى رِجَاءِ اسْتِنَارَةِ عِيُونِ الْقَلْبِ [ب] الْمُسِيَّحُوْنَ يَحْيَوْنَ بِالرُّوحِ الْقَدِيسِ



[١] الصَّلَاةُ عَلَى رِجَاءِ اسْتِنَارَةِ عِيُونِ الْقَلْبِ

١ - إِنَّ جُمِيعَ الْأَعْمَالِ الْمُنْظَرَةِ فِي الْعَالَمِ إِنَّمَا تَتَمَّ عَلَى رِجَاءِ، لِأَجْلِ الْاِشْتِرَاكِ فِي ثُمَرِ أَتْعَابِهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ لَنْ يَنْالْ بِكُلِّ يَقِينٍ ثُمَرِ أَتْعَابِهِ فَلَنْ يَنْتَفِعْ شَيْئًا. فَإِنَّ الْفَلَاحَ أَيْضًا يَنْتَدِرُ عَلَى رِجَاءِ الشِّمَارِ وَيَحْتَمِلُ الْأَتْعَابَ لِأَجْلِ هَذَا الْاِنْتِظَارِ، وَالْحَرَّاثَ - كَمَا قِيلَ - «يَحْرُثُ عَلَى رَجَاءٍ» (أَكْو٩:١٠)، وَالَّذِي يَتَّخِذُ امْرَأَةٌ يَتَّخِذُهَا عَلَى رِجَاءِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَرَثَةً، وَالَّتَّاجِرُ يُسْلِمُ نَفْسَهُ لِلْبَحْرِ وَيَتَهَدَّدُهُ الْمَوْتُ لِأَجْلِ الرِّيحِ؛ هَكَذَا أَيْضًا فِي مَلْكُوتِ

السَّمَاوَاتِ: فِإِنَّ الْإِنْسَانَ يُسَلِّمُ ذَائِهِ عَلَى رَجَاءِ أَنْ تُسْتَبِّنَ عِيُونُ قَلْبِهِ^(١)، مُعْرِضًا عَنْ أَمْوَارِ هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَمُتَوَفِّرًا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالْطَّلَبَاتِ، وَمُنْتَظِرًا الرَّبَّ مَتَى يَجْبِيُهُ وَيُظْهِرُهُ لَهُ ذَائِهِ^(٢) وَيُطْهِرُهُ مِنَ الْخَطِيئَةِ السَّاكِنَةِ فِيهِ^(٣).

٢ - غَيْرُ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّ عَلَى أَتَاعَابِهِ وَسِيرَتِهِ إِلَى أَنْ يَحْظِيَ بِمَا يَتَرَجَّاهُ - إِلَى أَنْ يَأْتِيَ الرَّبُّ وَيُسْكِنَ فِيهِ بِكُلِّ حِسْنِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ وَفُغْلِهِ. وَعِنْدَمَا يَتَذَوَّقُ حَلاوةَ الرَّبِّ، وَيَتَلَذَّذُ بِثَمَرِ الرُّوحِ^(٤)، وَيُرْفَعُ عَنْهُ بَرْقُ الظُّلْمَةِ^(٥)، وَيُشَرِّقُ عَلَيْهِ نُورُ الْمَسِيحِ وَيَعْمَلُ فِيهِ بَرْحَ لَا يُطْقَبُ بِهِ، حِينَئِذٍ يَكُونُ لَهُ الْيَقِينُ الْكَامِلُ، حَائِزًا الرَّبَّ مَعَهُ فِي وُدٍ شَدِيدٍ، مَثَلُهُ مَثَلُ ذَاكَ التَّاجِرِ الَّذِي يَفْرَحُ إِذَا مَا رَبَحَ، إِلَّا أَنَّهُ مَا يَنْفَلُ قَائِمًا فِي صَفِّ الْجَهَادِ حَشِيَّةً لِلنُّصُوصِ وَأَرْوَاحِ الشَّرِّ، لَعَلَّا

(١) وَرَدَ تعبير "استنارة عيون القلب" في آف ١٨:١ ("القلب" وليس "الدهن"، طبقاً لأقدم المخطوطات، وهكذا وردت في الترجمة القبطية *Неба и тьма поглощают* *Наренерсфразы* *на* الذي يقال في أسبوع الفصح).

(٢) انظر: يو ١٤:٢١.

(٣) انظر: رو ٧:٢٠، ١٧.

(٤) انظر: غل ٥:٢٢، ٢٣.

(٥) هذا التعبير "σκότους τοῦ κάλυμμα = برقع الظلمة" نجده في خطاب أبا مقار الأخير لأولاده: [اكتشفوا عن وجوهكم برقع الظلمة الذي يعنكم عن أن تبصروا حلاوة محبة الإخوة....]، بل والأكثر من هذا أنه وقف على أبا مقار دون غيره، وبالبحث في مجموعة TLG نجده قد ورد في العظات الخمسين هذه أربع مرات (العظات ١٤:١٤؛ ٢٨:٤٢؛ ٤٢:٤٤؛ ٤٦:٤٣)، وفي باقي العظات المنسوبة له التي عشرة مرات، وخارجها عن كتاباته لم يرد عند أي من الكتاب الذين كتبوا باليونانية، مسيحيين كانوا أموثنيين.

إذا ما تراخي يُضيّع ثمر تعبي، وذلك إلى أن يُقبل في ملوكوت السماوات، في
 أورشليم العليا^(١).

٣ - فلننبهل إذا نحن أيضًا إلى الله كيما يخلع عنّا الإنسان العتيق ويلبسنا منذ الآن الإنسان السماوي - المسيح^(٢)، حتى إذا ما صرنا في همة الروح وافتدينا هكذا بواسطته، نكون في سكينة عظيمة. فالرب، إذ يريد أن يملأنا بمذاقة الملوكوت، يقول: «بِدُونِي لَا تَفْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا» (يو ١٥: ٥)، وهو يعرف أنه سينير كثيرين بواسطة رسله. فالرُّسُل رغم كونهم خلائق، إلا أنهم كانوا يهذبون العبيد نظراءهم بالكلمة السماوية، وكانوا يعيدون إلى الحياة الأذهان التي كانت قد ماتت وفسدت، ويقيموها ثانيةً بواسطة سلوكهم الحسن وتعليمهم. لأنّ الخلائق يُنمّي أحدها الآخر وينحيه، كما تفعل السحب - وما هي إلا مخلوقات - يizar الحنطة والشعير، وكذا المطر والشمس يُحييان ما يؤمّران به. وكما أنّ النور ينفّذ عبر كُوّة، بينما تنشر الشمس أشعتها على كلّ المسكونة؛ هكذا الأنبياء كانوا أنوارًا لبيتهم الخاصّ وحده - بيت إسرائيل، أمّا الرُّسل فكانوا شموسًا تثير بأشعتها كلّ أرجاء العالم.

(١) انظر: غل ٣: ٢٧.

(٢) انظر: أكتو ١٥: ٤٩؛ غل ٣: ٢٧.

[ب] المسيحيون يحيون بالروح القدس

٤ - فهناك "أرض" تسكن فيها الدّوابُ، وهناك "أرض" في الهواء حيث تسلك الطيور وتعيش، فإذا ما أرادت أن تخطُّ على الأرض وتمشي عليها فسوف يوجد لها الصيادون الذين يقتنصونها؛ وهناك كذلك "أرض" الأسماك، أي ماء البحر. ففي الموضع الذي يولد فيه كلُّ كائن، إنْ أرضاً أو هواءً، وهناك يكون مقامه وغذاؤه وراحته. هكذا هناك "أرض" ووطن للشيطان، حيث تعيش قوَّاتُ الظلمة وأرواح الشَّرّ وتجول وتستريح؛ وهناك كذلك "أرض" للأهواء، حيث تمشي جيوش (١) الملائكة والأرواح القديسة وتستريح. ولا سبيل إلى لمس تلك الأرض المظلمة ولا إلى رؤيتها بعَينَيْنِ العينَيْنِ، وكذا أرض الأهواء التُّورانيَّة لا تُلمس ولا تُرى بـالعينَيْنِ الجسدَيْنِ، إنما كلُّ منها - الأرض الشيطانية التي للظلمة، والأرض المنيرة التي للأهواء - تَظُهر للرُّوحانِيَّين بواسطة عين القلب.

٥ - كما أنَّ أسطورة يرِدُّها الذين من خارج (٢) مفادُها أنَّ ثُمَّةَ جبالاً نارِيَّةَ حيث النَّار متقدَّةٌ هناك، وفيها حيواناتٌ أُشْبَهُ بالخراف، فالذين

(١) وردت هذه الكلمة παρεμβολή في الكتاب المقدس بمعنى "جيش" (عب ١١: ٣٤)، وكذلك استُخدمت لوصف مكان تجتمع القديسين (معس克ِرهم) في رو ٢٠: ٩ وهي ذاتها التي أطلقت على المكان الذي كان يعسكر فيه بنو إسرائيل بخيامهم المعروف لدينا بـ"الخلة" (انظر: عب ١٣: ١٢، ١١). (قارن حاشية ١ صفحَة ٢٩٨ - العَظَة ١٥).

(٢) أي غير المؤمنين (انظر: ١ كوك ٥: ١٢؛ ١١ تي ٣: ٧).

يصطادونها يصنعون عجلاتٍ حديديَّةً ويلقُون صناراتٍ ويطرحوها في النَّار، إذ إنَّ النَّار هي مأكُلٌ لتلك الحيوانات ومشربٌ وراحةٌ ونمُوٌّ وحياة، فالنَّار لها هي عَوْضٌ كُلِّ شيءٍ، فإذا ما أخرجتها إلى وسْطِ آخر هَلْكَ، وحين تَسْخَفَهُ لا تغسلها في الماء بل في النَّار فتصير أكثر نقاوةً وأشدَّ بياضًا؛ هكذا المسيحيون أيضًا: فإنَّهم يقتلون تلك النَّار السَّماوية مأكلاً، فتصبح هي راحةٌ لهم، وتُطهِّر قلوبهم وتغسلها وتقدِّسها، وتدفعهم إلى النُّمُو، وتغدو لهم وسَطًا يتَسَمُون فيه وحياةً؛ أمَّا إذا خرجوا من هناك فإنَّهم يهلكون بفعل الأرواح الشَّرِّيرة مثلما تموت تلك الحيوانات إذا ما خرجت من النَّار، والسمك إذا ما خرج من المياه. فكما أنَّ الحيوانات ذوات الأربع التي تلقى في البحر تختنق، وكما أنَّ الطُّيور التي تتمشَّى على الأرض تختنق من الصَّياديْن؛ هكذا النَّفْس الَّتي لا تثبت في تلك "الأرض" تختنق وتحلُّك. فما لم تفتن النَّفْس تلك النَّار الإلهيَّة طعامًا وشرابًا وثيابًا وتطهيرًا للقلب وتقديسًا للنفس، فإنَّها تُمسِك من الأرواح الشَّرِّيرة وتحلُّك. أمَّا نحن فلنفحص [باجتهاد]^(١) ما إنْ كَمَا قد زُرِعْنَا في تلك الأرض غير المنظورة وغُرسنا في الكرمة السَّماوية. والحمد لرأفاته، آمين.

(١) وردت فقط في PG 34, 576 A

العظة الخامسة عشرة

حرية إرادة الإنسان وجلال قدره

[هذه العظة تعلم بالتفصيل كيف يجب على النفس أن تسلك - في قداسته وطهارة وتقاوة - نحو عريتها المسيح يسوع مخلص العالم. وهي تحوي أيضاً أسللة مملوكةً تعليمًا غزيرًا، مثلاً ما إن كانت جميع الأعضاء سوف تقوّي في القيمة، وغير ذلك كثيرون جدًا عن الشر، وعن النعمة، وعن حرية إرادة الجنس البشري وكرامته]

- [أ] الملك المسيح يخطب النفس البائسة
 - [ب] النفس تخدم الرَّب بروحه
 - [ج] فيما يخص قيمة الأجساد
 - [د] لا بد للحق أن يُضطهد
 - [ه] حفظ القلب وذرة الأفكار الخبيثة عنه
 - [و] التعمّة تُحفر ناموسها في القلب
- ❖❖❖
- [ز] سلطان الإنسان على ذاته
 - [ح] كرامة الإنسان ومسؤوليته إزاءها
 - [ط] ميل الإنسان طوعاً نحو الخير أو الشر
 - [ي] ثُمَّ الإنسان رويداً رويداً
 - [ك] منزلة الإنسان الأثيرية عند الله
 - [ل] السهر على القلب وتعهده

[أ] الملك المسيح يخطب النفس البائسة

١ - لِكَائِنًا رَجُلٌ غَنِيًّا جَدًّا، مَلِكٌ مَجْدٌ، قد سُرَّ باِمْرَأَةٍ مُسْكِنَةٍ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا سَوْيَ جَسْدِهَا فَقْطُ، وَبَاتْ مُفْتُونًا بِهَا وَرَامَ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا عَرْوَسًا لَهُ فَتَسْكُنُ مَعْهُ. ثُمَّ إِنَّهَا تُظْهِرُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلَّ نِيَّةٍ صَالِحةٍ لِلرَّجُلِ وَثَرَاعِيِّ مُحِبَّتِهَا لَهُ، وَإِذَا بَتَلَكَ الْمُسْكِنَةُ الْمُعْوَزَةُ الَّتِي لَا تَمْلِكُ شَيْئًا، تَغْدو سَيِّدَةً عَلَى كُلِّ مَا لِزَوْجِهَا. لَكِنْ إِنْ هِيَ عَمِلتُ أَمْرًا بِخَلْافِ مَا يَجِبُ عَلَيْهَا وَمَا يَنْبُغي

وتصرّفت على نحوٍ لا يليق في بيت رجُلها، حينئذٍ ثُطرد بازدراءً وامتهان، واضعةً كلتا يديها على رأسها^(١)، كما يشار إلى ذلك في ناموس موسى عن المرأة غير الخاضعة ولا النافعة لزوجها. وحينئذٍ تقتني لنفسها في النهاية وجعاً وحزناً عظيماً مفكراً كيف أهْمَا سقطَت من غَنِّي مثل هذا وكيف أقصيَت عن مثل هذا الجد وباتت في هوانٍ بسبب حماقتها.

٢ - هكذا أيضاً النَّفْس الَّتِي خطبَها المَسِيحُ، العَرِيسُ السَّمَاوِيُّ، عروسًا له كي يُنعمَّ عليها بالشَّرِكَةِ الْمُسْتِيكَيَّةِ^(٢) الإلهيَّةِ معه فتذوقت الغُنْيَ السَّمَاوِيَّ، ينبغي لها أنْ تُرضِي خطيبها المَسِيحُ في اجتِهادِ كثير وإِخْلَاصٍ، وأنْ تُتَّمِّمْ - كما يتوجَّبُ عليها وكما يليق - خدمة الرُّوح القدس^(٣) الَّتِي استُؤْمِنَتْ عليها، لكيما تُرضِي اللهُ في كُلِّ أمرٍ ولا تُحْزِنْ الرُّوح القدس في شيء^(٤)، وتَصُونَ، كما يليق، حِشْمَتَهَا الصَّالحةُ ومحبَّتها له، وتنصرَّفْ حسَنَاً في بيتِ الْمَلِكِ السَّمَاوِيِّ، مُقْدِرَةً التِّعْمَةَ الَّتِي أَغْدِقَتْ عليها حقَّ قدرها. مِثْلُ هذه النَّفْسِ تُقام سَيَّدَةً على كُلِّ خِيرَاتِ الرَّبِّ، بل وتقْتَنِي لنفسها الجسد المجيد عينَهُ الَّذِي للاهوتِيَّهُ . ولكنْ إِنْ كانت تَنْزِلُ في

(١) كناية عن العار والخزي والمهانة (انظر: ٢ صم ١٣ : ١٩ ، إر ٢ : ٣٧).

(٢) انظر: حاشية ١ صفحة ٢٢٣ - العظة ٩.

(٣) انظر: ٢ كو ٣ : ٨.

(٤) انظر: أف ٤ : ٣٠.

شيء وتأتي عملاً بخلاف ما يجب عليها في خدمتها وتصنع أموراً لا ترضيه، ولا تتبع مشيئته ولا تعمل في توافق مع نعمة الروح القدس الكائنة معها، فحينئذ يُزدَّرِي بها بامتهانٍ وعلى نحو لا يليق، وتنقصَ عن الحياة كمثل مَنْ لا تعود تنفع وتصلح لشَّرِكة الملك السماوي. وفي النهاية يكون هناك حزنٌ ووجعٌ وبكاءٌ من جميع القديسين والأرواح العاقلة على تلك النفس، ويُبكيها الملائكة والقوى والرسل والأنبياء والشهداء^(١).

٣ - لأنَّه كما أَنَّ فرحاً يكون في السماء - كما قال الرَّبُّ - «بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ» (لو ١٥ : ٧)، هكذا أيضًا يكون حزنٌ شديد وبكاءٌ في السماء على نفسٍ واحدةٍ تسقط من الحياة الأبديَّة. وكما أَنَّه حين يموت على الأرض رجلٌ غنيٌّ، فإنَّه بالمراثي والتَّنَوُّح والتَّحِيَّب يحمله إخوته وأقاربه وأحبابه ومعارفه خارجًا عن هذا العالم؛ هكذا أيضًا ينوح كلُّ القديسين على تلك النفس بتحيَّبٍ ومراثٍ. لأنَّه إلى هذا تشير الكتب المقدَّسة في موضعٍ آخر قائلةً: «سَقَطَ الصُّنُوبرُ، فَابْلُكِ أَيْمَانَ الْأَرْضِ» (زك ١١ : ٢ - حسب النَّصّ). لأنَّه كما أَنَّ شعب إسرائيل حين كان ييدو أَنَّه مُرْضٍ للستَّيد - وإن لم يُرضه أبداً كما ينبغي - كان يحظى بعمودٍ سحابٍ يُظَلِّل عليه وعمودٍ نارٍ يضيء له^(٢)، ونَظَرَ البحر وقد انشطر أمامه^(١)، وماء زللاً قد نَبَعَ من

(١) انظر: حاشية ٢ صفة ١٣٤ - العطة ١.

(٢) انظر: خر ١٣ : ٢١.

صخرة^(٢)؛ ولكن حين ارتدَ بفكرة ونيته عن الله، أسلم حينئذ للحيات^(٣) ولأعدائه، مُقْوِداً في سُبْي قاسي ورازحا تحت عبودية مُرّة؛ هكذا أيضًا يحدث نفس الشيء تماماً لنفسنا. وهذا قد أظهره الرُّوح أيضًا - سرًا - في سفر حزقيال الَّتِي عن مثل هذه النَّفس قائلًا، كأنَّه عن أورشليم: «وَجَدْتُكِ فِي الْبَرِّيَّةِ عُرْيَانَةً، فَعَسْتُلَكِ مِنْ مَاءِ نَجَاسَتِكِ، وَأَبْسَطْتُكِ لِتَائِسَا، وَوَضَعْتُ أَسَاوِرَ حَوْلَ يَدَيْكِ، وَقَلَّايدَ حَوْلَ عُنْقِكِ، وَأَفْرَاطًا فِي أَذْنِيْكِ، فَصَرَرْتُ لِي ذَاتَ اسْمٍ فِي جَمِيعِ الْأَمْمِ. وَأَكْلَتِ السَّمِيدَ وَالرَّبَّتَ وَالْعَسْلَ، وَفِي النِّهَايَةِ نَسِيَتِ إِحْسَانَاتِي، وَذَهَبْتِ وَرَاءَ مُجْيِيكِ، وَرَأَيْتِ فِي خَرْبِي» (انظر: حز ١٦: ٥ - ١٥ - حسب النَّصّ).

٤ - هكذا أيضًا يخضع الروح القدس النفس الَّتِي بالنِّعمة قد عرَفت الله، والَّتِي بعد أن تطهرت من سالف خططيها، وازدانت بزینات الروح القدس، واشتركت في الغذاء الإلهي السماوي، لم تسلك كما كان يجب عليها بحسب وافر المعرفة الَّتِي قد نالتها، ولم تصنُّ كما يليق نيتها الصالحة الواجبة عليها ومحبتها للمسيح عريتها السماوي؛ فُتُطرَد^(٤) وتنقصى من الحياة الَّتِي كانت

(١) انظر: خ ١٤: ٢١.

(٢) انظر: خ ١٧: ٦.

(٣) انظر: عد ٦: ٢١.

(٤) الفعل *مُلْمَأَة* (في صيغة المبني الجھول): "ترفض"، أو "تطاح"، أو "تُنْبذ".

شريكَةٍ فيها قبلًا. ذلك لأنَّ الشَّيْطَانَ لِهِ الْقُدْرَةُ أَنْ يَرْتَفِعَ وَيَعْلُوَ ضَدًّا مِنْ قَدْ
بَلَغُوا مِثْلَ هَذِهِ الْقَامَاتِ، وَالشَّرَّ لَا يَرْجِعُ مِنْصَبًا وَمِصَارِعًا مِنْ قَدْ ظَفَرُوا
بِعِرْفِ اللَّهِ، بِنَعْمَتِهِ وَقَوْتِهِ، حَتَّى يُسْقِطُهُمْ. فَخَلِيقُ بَنَا إِذَا أَنْ نَجَاهِدُ وَنَحْتَرِصُ
بِكُلِّ تَبَصُّرٍ لِكَيْ «تَنْتَمِمُ خَلَاصَنَا بِخَوْفٍ وَرِعَدَةٍ»، كَمَا هُوَ مَكْتُوبُ (فِي
٢ : ١٢). فَجَمِيعُكُمْ إِذَا، الَّذِينَ قَدْ صَرَّتُمُ شَرَكَاءَ رُوحِ الْمَسِيحِ، لَا
تَحْتَقِرُوا أَمْرًا مَا، صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا^(١)، وَلَا تَزَدِرُوا بِنَعْمَةِ الرُّوحِ
الْقَدِيسِ^(٢)، حَتَّى لَا تَفْصِلُوا خَارِجَ الْحَيَاةِ الَّتِي قَدْ صَرَّتُمُ شَرَكَاءَ
فِيهَا.

[ب] الْقَسْ تَخْدِمُ الرَّبَّ بِرُوحِهِ

٥ - وَأَيْضًا أَسْوَقَ مَثَلًا لِشَخْصٍ آخَرَ: كَمْثُلْ عَبْدِ إِنْ كَانَ يَدْخُلُ إِلَى
الْقَصْرِ لِكَيْ يَتَّمِمَ خَدْمَةً مَا، فَإِنَّهُ يَأْخُذُ أَدْوَاتَ خَدْمَتِهِ مِنْ مُخْصَصَاتِ
الْمَلْكِ، فَيَدْخُلُ خَاوِيَ الْيَدَيْنِ، وَبِأَدْوَاتِ الْمَلْكِ يَخْدُمُ الْمَلْكَ. وَهُنَّا يُعْوِزُهُ تَبَصُّرٌ
كَثِيرٌ وَإِفْرَازٌ حَتَّى لَا يَصْنَعُ شَيْئًا فِي خَدْمَتِهِ بِخَلْافِ مَا يَجِبُ، فَيُحَضِّرُ أَطْعَمَةً
عَلَى مَائِدَةِ الْمَلْكِ بَدَلًا مِنْ أُخْرَى، وَلَكِنَّهُ بِالْأَخْرِيِّ يَقْدِمُ الْأَطْعَمَةَ بِحَسْبِ

(١) يَكْرَرُ أَنْبَا مَقَارُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ لِأَوْلَادِهِ فِي خَطَابِهِ الْأَخِيرِ، قَائِلًا: [لَا تَقْبِلُوا مِشَوْرَةَ الْعَدُوِّ مِنْ جَهَةِ كَسْرِ أَيَّةِ وَصِيَّةِ مَهْمَا كَانَتْ صَغِيرَةً، لَأَنَّ كَسْرَ أَيَّةِ وَصِيَّةِ صَغِيرَةٍ كَانَتْ أَمْ كَبِيرَةً، يَعْضُبُ اللَّهُ].
("الْإِعْبَدَةُ الْقَبْطِيَّةُ فِي عَصْرِ ق. أَنْبَا مَقَارٍ" - طَبْعَةٌ ١٩٩٥ - ص ١١٢؛ بِسْتَانُ الْإِهْبَانُ قَوْل ٩٤٥)
(٢) انْظُرْ: عَبْ ١٠: ٢٩.

ترتيبها: الأولى فالأخيرة؛ أمّا إنْ كان، بسبب جهله وعدم تمييزه، لا يخدم الملك بترتيب، فإنه يصبح عرضةً للخطر والموت؛ هكذا النفس أيضًا التي بالنعمة وبالروح القدس تخدم الله، تحتاج إلى إفراز كثير ومعرفة، حتّى لا تخطأ في أوانِ الله - أي في خدمة الروح - بعدم توافق إرادتها مع النعمة. ففي خدمة الروح التي تتم سرًا بواسطة الإنسان الباطن، يُخدم الربُّ من النفس بآنية الله، أي بروحه؛ فما من أحدٍ - بدون آنية الله، أي نعمته - بمستطاع أن يخدم الله، أي أن يكون مُرضيًّا له في جميع مشيئاته^(١).

٦ - وحتّى حينما تناول النفس النعمة، فإنّها لا تزال إذ ذاك في حاجة إلى كثيرٍ من الفهم والتَّمييز، واللّذين يهبهما الله ذاته للنفس التي تطلبهما منه، حتّى تخدمه خدمةً مرضيةً بالروح القدس الذي تناله، فلا تُسرق بشيءٍ من الشّرّ وتخطيًّا حائدةً عن الطريق بسبب جهلها وعدم حشيتها وترابخها، فتأتي عملاً لا يتفق ومشيئتها. لأنَّ عقاباً وموتاً وحزناً يكون مثل هذه النفس، وهذا ما يقوله الرسول الإلهي: «لِغَلَّا بَعْدَمَا كَرِزْتُ لِآخَرِينَ أَصِيرَ أَنَا نَفْسِي مَرْفُوضًا» (أك ٩: ٢٧)، فها أنت ترى - رغم كونه رسولاً لله - أيَّ خوفٍ قد صار له! فلنضرع إذًا إلى الله، نحن جميعًا الذين نلنا نعمته، أن يجعلنا نخدمه خدمةً الروح بحرصٍ شديد بحسب مشيئته، وأن لا نعيش بنيةٍ

(١) أي مشيئات الله.

مرتخيَة، لكي بِهذا - إذ نخِيَا مُرْضِينَ لَهُ ونعبدُه عبادَةً روحِيَّةً وفَقَ مُشَيَّطَه - نرِثُ الحَيَاةَ الْأَبْدِيَّةَ.

٧ - فِإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَعْتَرِيهِ مَرْضٌ مَا، فَإِنَّ بَعْضًا مِنْ أَعْصَائِهِ، مَعَ هَذَا، تُلْبِثُ سَلِيمَةً، رَئِمَا الْعَيْنَ لِيَبْصُرَ بِهَا أَوْ أَيْ عَضْوٍ آخَرَ، بَيْنَمَا تَكُونُ بَقِيَّةُ الْأَعْصَاءِ قَدْ تَلَقَّتْ؛ أَوْ تَظَلُّ يَدَهُ صَحِيحَةَ فِيمَا تَكُونُ قَدْ أَمَّ بِهَا الْعَطَبُ؛ هَكُذا الْحَالُ أَيْضًا فِي الْعَالَمِ الرُّوحَانِيِّ؛ فَقَدْ يَكُونُ لِأَحَدٍ ثَلَاثَةَ مِنْ الْأَعْصَاءِ رُوحٌ صَحِيحَةٌ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ لِأَجْلِ هَذَا قَدْ صَارَ كَامِلًا. فَهَا أَنْتَ تَنْظَرُ مَا أَكْثَرُ دَرَجَاتِ الرُّوحِ وَقَامَاتِهِ، وَكَيْفَ أَنَّ الشَّرَّ يَتَصَفَّى وَيَتَضَاءَلُ تَدْرِيْجِيًّا وَلَيْسَ دَفْعَةً وَاحِدَةً؛ فِإِنَّ كُلَّ عِنْيَةَ الرَّبِّ وَتَدْبِيرِهِ - إِنْ فِي إِشْرَاقِ الشَّمْسِ أَوْ فِي كَافَّةِ أَعْمَالِهِ الْمُخْلُوقَةِ - إِنَّمَا صَارَ لِأَجْلِ الْمَلَكُوتِ الْعَتِيدِ أَنْ يَرِثُهُ الْمُخْتَارُونَ، حَتَّى يَغْدُو مَلَكُوتُنَا يَعْمَلُ فِيهِ السَّلَامُ وَالْإِتْفَاقُ.

٨ - فَيَنْبَغِي إِذَا لِلْمُسِيَّحِيِّينَ أَنْ يَجَاهِدُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَدِينُوا أَحَدًا بِالْبَتَّةِ: لَا الرَّازِيَّةَ الْبَغْيَيِّ، وَلَا الْخَطَّاءَ، وَلَا الَّذِينَ يَسْلُكُونَ بِلَا تَرْتِيبٍ، بَلْ بِنَيَّةٍ بِسِيَطَةٍ وَعِنْ نَقِيَّةٍ يَنْظَرُونَ إِلَى الْجَمِيعِ، حَتَّى إِنَّ هَذَا يَصْبِحُ لِلْإِنْسَانِ وَكَانَهُ شَيْءٌ طَبِيعِيٌّ وَرَاسِخٌ فِيهِ أَنْ لَا يَزْدَرِيَ بِأَحَدٍ وَلَا يَحْكُمُ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَقْتُلُ أَحَدًا وَلَا يَعُودُ يُمْيِّزُ بَيْنَ النَّاسِ^(١). فِإِنْ رَأَيْتَ إِنْسَانًا

(١) قيل عن أبا مقار: "إِنَّهُ كَانَ يَسْلُكُ بِرَاءَةً (بِسَاطَةً) نَحْوَ جَمِيعِ الْإِخْرَاجِ، فَقَالَ لَهُ الْبَعْضُ:

أعورَ فلَا تُمْيِّزهُ عن الباقيِ في قلبك بل انظرْ إِلَيْهِ كأنَّهُ صحيحٌ، والإنسان المقطوعة يده كأنَّهُ ليس بأقطعٍ، والأعرج كأنَّهُ يمشي مستقيماً، والأشلَّ كأنَّه معاً. فإنَّ هذه هي نقاوة القلب: أَنْكَ حين تنظرُ الخطاةَ أو المرضَى، تتعاطفُ معهم^(١) وتتحركُ أحشاوكَ من نحوهم. فإِنَّهُ يُعرضُ لقديسي الرَّبِّ أَنْ يجلسوا في مَرْصَدٍ وينظروا أباطيلِ العالم، ولكنَّهم فيما يُبدون للناس بإنسانهم الخارجيِّ أَهْمُّ يشاهدون ما يجري في العالم، يكونون بإنسانهم الدَّاخليِّ في حديثٍ مع الله.

٩ - فالأهل العالم عمل آخر يستلهمونه من روح الصَّلال^(٢) كي يفكروا في الأرضيات^(٣)، وأمَّا المسيحيون فلهم نِيَّةٌ مغايرةٌ وفَكْرٌ مغايرٌ ويتعمون إلى عالم آخر ومدينةٌ أخرى، ذلك لأنَّ روح الله له شِرَكةٌ مع نفوسهم^(٤)، وهو يطأون المقاوم. فإنَّه مكتوب: «آخِرُ عَدُوٌّ يُبْطَلُ هُوَ الْمَوْتُ» (أنا ١٥: ٢٦)، فالذين يتَّقون الله هم سادة على كلِّ شيء، أمَّا المرئون في الإيمان

لماذا تصنع بنفسك هكذا؟ أمَّا هو فقال: اثنا عشر عاماً خدمت فيها الرَّبُّ كي يَهْبِطْ هذه الموهبة، أفتشرون علىَّ جيغكم الآن بأنَّ أطرحها عَيْ؟». (Apoph., Mac., 9)

(١) الفعل συμπαθέω (σύν + παθέω) يتأمّم مع، أي: يشقق على، يتعاطف مع، يشارك وجاذبيّة، وليس مجرّد التّعاطف من الخارج فقط، بل الدُّخول في ذات الآلام والتّلامس معها والإحساس بها، وقد ورد مرتَّين في العهد الجديد (عب ٤: ٣٤، ١٥: ١٠)، وترجم "بوثي".

(٢) انظر: ١يو ٤: ٦.

(٣) انظر: في ٣: ١٩.

(٤) انظر: ٢كو ١٣: ١٢.

والخطأةُ فِإِنَّمَا عَبِيدُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ: فَالنَّارُ تُحْرِقُهُمْ، وَالْحَجَرُ وَالسَّيْفُ يَقْتِلُهُمْ،
وَالشَّيَاطِينُ فِي النِّهَايَةِ تَتَسَلَّطُ عَلَيْهِمْ.

[ج] فيما يَنْتَصُرُ قِيامَةُ الْأَجْسَادِ

١٠ - سؤال: هل في القيامة تقوم جميع الأعضاء؟

الجواب: إنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَيْسُورٌ لِدِي اللَّهِ، وَهُكُذا هُوَ وَعْدُهُ، حَتَّىٰ وَإِنْ
يَبْدُو هَذَا لِلضَّعْفِ الْبَشَرِيِّ وَالْفَكَرِ الْإِنْسَانِيِّ وَكَأَنَّهُ أَمْرٌ مُسْتَحْيِلٌ. لِأَنَّهُ كَمَا
أَنَّ اللَّهَ حِينَ أَخَذَ مِنَ الْتُّرَابِ وَمِنَ الْأَرْضِ كَوْنَهُ مِثْلُ طَبِيعَةِ أُخْرَىٰ غَيْرِ مُشَابِهٍ
لِلأَرْضِ (الَّتِي أَخَذَتْ مِنْهَا)، أَعْنِي طَبِيعَةِ الْجَسَدِ، وَجَعَلَ فِيهَا عِنَاصِرَ كَثِيرَةً
مِثْلِ الشَّعْرِ وَالْجَلَدِ وَالْعَظَامِ وَالْأَعْصَابِ؛ وَكَذَلِكَ عَلَىٰ غَرَارِ الإِبْرَةِ الَّتِي تُلْقَى
فِي النَّارِ فَيَبْتَدَّلُ لَوْهُا وَتَنْقُلِبُ نَارًا، وَإِنْ كَانَتْ طَبِيعَةُ الْحَدِيدِ بِالْتَّأْكِيدِ لَا
مُمْحَىٰ بَلْ تَبْقَى مَوْجَدَةً؛ هُكُذا أَيْضًا فِي القيامةِ سُوفَ تَقُومُ كَافَةُ الْأَعْصَاءِ، إِذَا
وَلَا تَهْلِكُ شَعْرَةً كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ^(١)، بَلْ تَغْدو جَمِيعُ الْأَعْصَاءِ مُضِيَّةً، إِذَا
تُغَمَّرُ كُلُّهَا فِي نُورٍ وَنَارٍ وَتَغْيِيرٍ. بَيْدَ أَنَّهَا لَا تَنْحلُّ - عَلَىٰ مَا يَزْعُمُ الْبَعْضُ -
وَلَا تَسْتَحْيِلُ نَارًا فَتَتْلَاشِي طَبِيعَتِهَا، فَبَطْرُسُ يَظْلُلُ بَطْرُسًا، وَبُولُسُ بُولُسًا،
وَفِيلِيبُسُ فِيلِيسَ، كُلُّهُ يَلْبِسُ فِي طَبِيعَتِهِ الْخَاصَّةِ وَفَرَادَتِهِ، مُمْتَلِّئًا مِنَ الرُّوحِ

(١) انظر: لو ٢١: ١٨.

القدس. أمّا إنْ كُنْتَ تقول إنَّ الطَّبِيعَةَ تَتَحَلَّ، فَلَا يَقِنُ بَعْدُ بَطْرُسُ أَوْ بُولُسُ بْلَ اللَّهِ فَقْطَ مِنْ كُلِّ جَهَةٍ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ، فَإِذَا ذَاكَ لَا أَذْدِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى الْجَحِيمِ يَشْعُرُونَ بِعِذَابِهِمْ، وَلَا أَذْدِينَ يَمْضُونَ إِلَى الْمَلْكُوتِ يُحِسِّنُونَ بِمَكَافَأَتِهِمْ!

١١ - وكأنما فردوس به أشجار زاهية من كل نوع: كثاثري وفاح وكرمة مورقة مثمرة، ثم يحدث أن يتغير هذا الفردوس بكل أشجاره وأوراقه ويبدل إلى طبيعة مغايرة ويُضحي بكل شيء منيراً؛ هكذا في القيامة أيضًا سوف يتغير الناس وتغدو أعضاؤهم مقدسة ومضيئة.

[د] لا بد للحق أن يُضطهد

١٢ - فَيَنْبَغِي إِذَا لِرَجُالِ اللَّهِ أَنْ يُعَدُّوا ذُوَّا حُمْمٍ لِلْجَهَادِ وَالصِّرَاعِ؛
فَكَمْثُلْ شَابٍ كَرِيمٍ الْمَحْتَدِ يَتَحَمَّلُ الْقِتَالَ وَمَا يَقُولُ عَلَيْهِ مِنَ الضرَّارِاتِ
وَيَدْفَعُهَا عَنْهُ، هَكُذا يَتَحَمَّلُ الْمَسِيحِيُّونَ أَنْ يَتَحَمَّلُوا الضِّيقَاتِ الَّتِي
مِنَ الْخَارِجِ وَكُذا الْحَرُوبُ الَّتِي مِنَ الدَّاخِلِ، حَتَّى بَهْدَا وَإِنْ يُضْرِبُوا يَغْلِبُوا
بِالصَّبَرِ^(١)، لَأَنَّ طَرِيقَ الْمَسِيحِيَّةِ هُوَ هَكُذا، فَحِيثُ يَكُونُ الرُّوحُ الْقَدْسُ،

(١) هنا يُعيد إلى ذاكرتنا القول الشهير لأننا مقار في بستان الرعبان: [طول الرُّوح هو الصَّير، والصَّير هو الغَة، والغلبة هي الحياة، والحياة هي الملكوت، والملكوت هو الله سبحانه وتعالى]. (قول ٢٠٠)

هناك يلزمه الاضطهاد والقتال [مُلَازِمَةُ الظِّلِّ]^(١). فها أنت تنظر الأنبياء الذين كان يعمل فيهم الرُّوح القدس، كيف كانوا يُضطهدون من بني جلدتهم على الدّوام. بل إنّك لتنظر الرَّبُّ، الذي هو «الطَّريقُ والْحَيَاةُ»^(٢)، ألم يُضطهد من أمّةٍ غريبة، بل من خاصّته ومن عشيرته - عشيرة إسرائيل - قد اضطهد وصُلِّبَ، وهكذا بالمثل الرُّسل أيضًا. لأنّه من بعد الصّليب انتقل الرُّوح المعزّى وسكن في المسيحيين، فلم يغدو أحدًّا من اليهود يُضطهد (آنذاك) لكنَّ المسيحيين هم الذين استُشهدوا، لأجل هذا ينبغي لهم أن لا يستغروا هذا الأمر، فلا بدّ للحق أن يُضطهد.

[ه] حفظ القلب وذرة الأفكار الخبيثة عنه

١٣ - سؤال: يزعم البعض أنَّ الشَّرَّ إنما يأتي من الخارج، وإنْ أراد الإنسان لا يقبله بل يصرفه عنه.

الجواب: كما أنَّ الحياة حين كلّمت حواءً من الخارج وجدت السَّبيل إلى الولوج داخلها بانصياعها، هكذا الآن أيضًا، بإذعان الإنسان تجد الخطية - رغم كونها من خارج - مُنفَدًا إلى داخله، لأنَّ للخطية سلطاناً وجسارةً أن تدخل إلى القلب. أمّا الأفكار فهي ليست من الخارج بل من الدّاخل،

(١) وردت فقط في الـPG (PG 34, 584 A).

(٢) يو ١٤: ٦.

من القلب، لأنَّ الرَّسُول يقول: «أُرِيدُ أَنْ يُصَلِّي الرِّجَالُ بِلَا عَضَبٍ وَلَا أَفْكَارٍ^(١) رَدِيَّةٌ» (٢١: ٨ - حسب النَّصّ)، إذ إنَّ الأفكار تخرج من القلب بحسب ما يقول الإنجيل^(٢). فاقْصِدِ الصَّلَاةَ إِذَا وَارْقَبْتَ قَلْبَكَ وَعَقْلَكَ، وَابْتَغِ أَنْ تُرِسلَ صَلَاتِكَ إِلَى فَوْقِ، إِلَى اللَّهِ، نَقِيَّةً؛ وَانظُرْ هَنَاكَ [بِحَرَصٍ شَدِيدٍ]^(٣) إِنْ كَانَ يَوْجِدُ أَيُّ عَائِقَ، إِنْ عَدَتْ صَلَاتِكَ نَقِيَّةً، إِنْ كَانَ عَقْلُكَ مُنْشَفِلًا بِالرَّبَّ انشَفَالَ الزَّارَعَ بِزَرَاعَتِهِ وَالرَّجُلُ بِامْرَأَتِهِ وَالسَّاجِرُ بِتَجَارَتِهِ؛ إِنْ كُنْتَ تَخْنِي رَكْبَتِكَ لِلصَّلَاةِ فَمَا يَخْطُفُ حِينَئِذٍ آخَرُونَ أَفْكَارَكَ.

١٤ - ولَكِنَّكَ تقول إِنَّ الرَّبَّ قد جاءَ، وبالصَّلَيبِ دَانَ الْخَطِيَّة^(٤) فلم تَعْدُ بَعْدُ فِي الدَّاخِلِ. ولكنْ كَمَا لو أَنَّ جَنْدِيًّا قد تركَ مركبَتِهِ فِي بَيْتِ إِنْسَانٍ مَا، فَإِنَّهُ يَكُونُ لِهِ السُّلْطَانُ أَنْ يَدْخُلَ ذَلِكَ الْبَيْتَ وَيَخْرُجَ مِنْهُ مَتَى يَشَاءُ؛ هَكُذا الْخَطِيَّةُ أَيْضًا لَهَا السُّلْطَانُ لِلْمُجَادِلَةِ دَاخِلَ الْقَلْبِ، لَأَنَّهُ مَكْتُوبُ:

(١) وَرَدَتْ فِي الْبَيْرُوْتِيَّةِ "جَدَالٌ"، وَلَكِنَّ الْكَلْمَةِ الْبِيْوَنَيَّةِ διαλογισμός تُرْجِعَتْ بِـ"أَفْكَارٍ" فِي مَتَ ١٥: ١٩ مَرَ ٧: ٢١، فِي ذَاتِ الْسِّيَاقِ الَّذِي نَعْنَى بِصَدِّهِ هَنَا. وَمَمَّا يُبَدِّلُ ذَكْرَهُ أَنَّ إِضَافَةَ صَفَةِ "الْرَّدِيَّةِ" إِلَى نَصِّ الْآيَةِ فِي هَذِهِ الْعَظَةِ تَجُدُّ لَهُ سَنَدًا تَلِيَّدًا فِي مِراثِنَا الْقَبْطِيِّ، فَهَذِهِ الْآيَةُ وَرَدَتْ فِي التَّرْجِمَةِ الْقَبْطِيَّةِ الْبَحِيرِيَّةِ "خωρίς νέα μοκτεκ χώντ"، وَاقْبَسَتْهَا دَكْسُولُوجِيَّةُ باكِرِ الْأَدَمِ مُضِيفَةً إِلَيْهَا كَلْمَةً "رَدِيَّة": "χωρίς νέα μοκτεκ επειδων".

(٢) انظر: مَتَ ١٥: ١٩ مَرَ ٧: ١٩.

(٣) وَرَدَتْ فَقْطًا فِي PG (PG 34, 584 C).

(٤) انظر: رو ٨: ٣.

«وَدَخَلَ الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ يَهُودًا» (لو ۲۲: ۳). أمّا إنْ كنتَ تقول إنَّه بمجيء المسيح قد أُدِينت الخطية، وإنَّه من بعد المعموديَّة لم يَعُدْ للشَّرِّ مَرْعَى للمجادلة داخل القلب، فتجهل إذًا أنَّه منذ ظهور الرَّبِّ وحَتَّى الآن، جميع الَّذين اعتمدوا قد أتَى عليهم وقتٌ افتكروا فيه بالشَّرُور؟ أوَمْ يوجد بينهم مَنْ جَنَاحَ نحو المجد الباطل أو الرَّيْنِ أو الشَّرِّ؟ بل كُلُّ الْعَلَمَانِيَّينَ الَّذِينَ لَهُمْ شَرِكَةٌ مع الكنيسة، أَفَقَدُوا غداً قلْبَهُمْ بلا عِيْبٍ ونَفِيَّاً؟ أمْ إِنَّا نجد أنَّه بعد المعموديَّة أيضًا قد اقْتُرِفتَ خطايا عديدة ووُجِدَ حَطَّةً كثيرون؟ لذلك فحتَّى بعد المعموديَّة هنالك مَرْعَى للسَّارِقِ لِكَيْ يَدْخُلْ وَيَصْنَعْ مَا يَشَاءُ.

١٥ - فإنَّه مكتوب: «أَنْجِبَ الرَّبُّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ» (تث ٦: ٥)، ولكنَّك تقول: ”إِنِّي أُحِبُّهُ وَأَقْتَنِي الرُّوحُ الْقَدْسُ“، فهل تقتني إذًا ذِكْرَ الرَّبِّ في نفسك؟ هل لك عشقٌ من نحوه؟ هل تتحرَّقُ شوقًا إِلَيْهِ؟ هل أنت ممسوكٌ هناك ليلٌ نَهَارٌ؟ إنْ كنتَ حائِرًا على مثل هذه الحَبَّةِ، فهل أنت نقِيٌّ؟^(١) أمَّا إنْ كنتَ مفتقرًا إليها، فافحص ذاتك بأكثَر تدقيق: حينما تَغْرِضُ لك بعضُ الأمور الأرضيَّة والأفكار القبيحة الشَّرِيرَة، هل تَرْضَخُ لها أم إنَّ نفسك تكون مجذبةً على الدَّوَامِ نحو محَبَّةِ الله والاشتياق إلى الله؟ لأنَّ الأفكار تجذب الْذِهَنَ إلى أسفل، إلى ما هو أرضيٌّ وفاسدٌ، ولا

(١) اعتبرت PG هذه الجملة خبرَيَّةً لا استفهاميَّةً: ”... فَأَنْتَ نقِيٌّ.“ (PG 34, 585 A)

تدعُه يحبَ الله أو يذكر الرَّبِّ. بَيْدَ أَنَّه في أوقات كثيرة يحدث أَنَّ إنسانًا عاصِيًّا يدخل ليصلِّي فِيُحْنِي رَبْتِيه ثُمَّ ينطلق عقله إلى الرَّاحَة، وكُلُّما يُحْفَر ويُعَمَّق يتَداعِي حِجَابُ الشَّرِّ القائم مُقاَبِلَه، فَيَلْجُئُ إِلَى رُؤْيَا وَحِكْمَةٍ لَا سِبَيلَ لِأَنْ يَلْغُها الْأَعْزَاءُ لَا الْحَكْمَاءُ لَا الْخَطَباءُ، وَلَا أَنْ يَدْرِكُوا أَوْ يَعْرِفُوا انطلاقَ عَقْلِه لِأَنَّه قد انشغل بالأسرار الإلهية، فَمَنْ لَا خِبَرَةَ لَه بِالْأَلَائِعِ لَا يَعْرِفُ أَنْ يُشَمِّنَهَا لِعدمِ خِبْرَتِه. فَالْمُسَيْحِيُّونَ إِذَا يَأْنَفُونَ أَمْجَادَ الْأَرْضِ، حَاسِبِينَ إِيَّاهَا كَرْبِلَ، إِزَاءِ تِلْكَ الْعَظَمَةِ الْعَامِلَةِ فِيهِمْ.

١٦ - سُؤَالٌ: هل يمكن لِإِنْسَانٍ لَه هَذِه الْمُوهَبَةِ أَنْ يَسْقُطَ؟

الجواب: إِنْ يَهْمِلَ يَسْقُطُ، لِأَنَّ الْأَعْدَاءَ لَا يَكْسِلُونَ وَلَا يَتَوَانَّونَ فِي حِرْبِهِمْ، فَكُمْ بِالْحَرَبِ يَنْبَغِي لَكَ أَنْتَ أَنْ لَا تَكْفُ عن طَلَبِ الله، لِأَنَّ خَسَارَةً فَادِحَةً تَلْحُقُ بِكَ إِنْ تَوَانَّتَ، حَتَّى وَإِنْ كُنْتَ تَظَنَّ ذَاتَكَ مُزَكَّى فِي سِرِّ النِّعْمَةِ عَيْنِهِ.

١٧ - سُؤَالٌ: وهل تَبْقِي النِّعْمَةَ بَعْدِ السُّقُوطِ؟

الجواب: إِنَّ الله يُشَاءُ أَنْ يَأْتِيَ إِنْسَانًا مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْحَيَاةِ، وَلِذَلِكَ يَسْتَحِثُهُ أَنْ يَكِيَّ أَيْضًا وَيَتُوبَ. بَلْ وَحْيًا إِنْ لَيْسَتَ أَنْتَ خَامِلًا، فَإِنَّه يَرُومُ أَنْ يَجْعَلَكَ مِنْ جَدِيدٍ فَاعِلًا أَشَدَّ ثَبَاتًا، تَائِبًا عَمَّا كُنْتَ قَدْ افْتَرَفْتَهُ قَبْلًا.

١٨ - سؤال: هل يعني الكاملون ضيقاً أو حرباً أم إنّهم يصيرون بلا هم بالكليّة؟

الجواب: إن العدو لا يكفي عن الحرب ضد كل أحد، لأن الشّيطان هو بلا رحمة^(١) ومبغض للبشر، ولأجل هذا فإنه لا يتوازي عن أن يحارب واحد، وإن كان لا يُظهر هجومه على الجميع بنفس الدرجة. فها إن الولاة والأشراف يُوفّون الضّرائب للملك، فالذّي يكون واثقاً بغناه وذهبه وفضنته يُوّفي الأموال المستحقة كما من فضلته، غير حاسب إياها خسارة - إذ كما أنّ الذي يصنع صدقة لا يعتبرها خسارة على الإطلاق، كذلك الشّيطان أيضاً يحسب هذه الأمور أعمالاً ثانوية - ولكن يوجد أيضاً من هو فقير مُعوز لقوت يومه، فهذا يُجحد ويُعذّب لكونه ما استطاع أن يُوّفي الضّرية المستحقة، ويوجد آخر يُكشط ويُعذّب بشدة غير أنه لا يموت، ويوجد آخر أيضاً يُحكم عليه بمجرد نطق واحد بأن تقطع رأسه فيهلك؛ هكذا أيضاً بالنسبة للمسيحيين: فإنه يوجد من يُحاربون بشدة ويُعذّبون من الخطيئة ومع ذلك لا يزالون متشدّدين في حروفهم وحكمة ومحقرّين للقوّة المعادية، فلا خطر عليهم من هذا القبيل لأنّهم بمنأى عن السقوط وفي حزءٍ

(١) ἀπολαγχνός = بلا أحشاء، أي بلا رحمة أو شفقة، وكذا تدعوه الكنيسة في تسبيحتها **”آئنَا“** = غير الرّحوم “(انظر: لُبْش تذاكّة الأربعاء - الرابع الرابع).

من جهة خلاصهم بسبب تمرّسهم في الحرب ضدَّ الشَّرِّ مراراً كثيرة وخبرتهم.
وحيث إنَّهُم يحظون بمعية الله، فهم يقتادون في الطريق وينعمون بالراحة.

١٩ - غير أنَّه يوجد آخرون، لأنَّهم لم يتذروا على الإطلاق، إنْ هم وقعوا في شدةٍ واحدةٍ وثارت عليهم الحرب، يسقطون للوقت في العطَب والهلاك.

[و] التَّعْمَة تُحْفَر نَامُوسُهَا فِي الْقَلْب

كمثل أَنَاسٍ مسافرين إلى مدينةٍ ينشدون رؤية أَحَبَّائِهم ومعارفهم، فحتى لو صادفوا كثيرين في الأسواق فإِنَّهُم لا يعاونون منهم، ذلك لأنَّ غايتَهم هي لُقْيَا أَحَبَّائِهم، لذلك فحالما يقرعون الباب من الخارج ويَدْعُونَهُم، يفتح لهم أَحَبَّاؤهم فرحين؛ أمَّا إنْ كانوا يتلَكَّأُونَ في الأسواق مخدوعين، أو يتعوّدون ممَّن قابلوهم، فإنَّ الباب يُوصَدُ دونهم ولا أحدٌ يفتح لهم؛ هكذا أيضًا الذين يسعون حثيثًا للبلوغ إلى سِيدنا المسيح، الحبيب الحقيقي، يبغى لهم أن يُعرضوا عن جميع الآخرين ويتجاوزوهم. فكما أنَّ الدَّاخلين إلى البلاط من أشرافٍ وولاةٍ ليَمْثُلُوا أمام الملك يكونون في خوفٍ شديدٍ كيف يعطُون جوابًا ولا يُخْطَأُون بكلمة في دفاعهم فيُعرَضُون للعقاب، في حين أنَّ الفلاحين والعامَّيين – إذ لا ينظرون رؤساءَ على الإطلاق – يقضُون حياتهم

بلا همٍ؛ هكذا أيضًا هذا العالم الذي تحت السماء، من الملوك إلى الفقراء، فلأنَّهم يجهلون مجَدَ المسيح، فإنَّهم يكونون في أمور هذه الحياة، ولا أحد يتذكَّر سريعاً يوم الدِّينونة؛ أمَّا الَّذين يأتون بفكرهم إلى منبر المسيح حيث عرشه، ويمثُّلون أمامه كُلَّ حين، فإنَّهم يكونون في خوفٍ ورعدة على الدَّوام لئلا يخطأوا في شيءٍ من وصاياته المقدَّسة.

٢٠ - وكما أنَّ أغنياء الأرض حين يجْلِبون أثاثاً وفييرة إلى مخازنهم، يعملون أيضًا أكثر يوماً فيوماً، حتَّى يزدادوا غُنىًّا ولا يفتقرُوا – إذ لو أنَّهم استنادُوا إلى الشَّرْوة الَّتي وضعوها في أهرائهم، فتهاونوا وما جمعوا شيئاً آخر بل استندُوا ما كانوا قد ادَّخرُوه، فإنَّهم يسقطُون سريعاً في الفاقة والعوز – ومن أجل هذا يلزمهم أن يتبعُوا وبجمعوا الخيرات مُكْثِرين ومُدَّخرين لئلا يعتازوا؛ هكذا أيضًا في المسيحية، من جهة تَدُّوق الإنسان شيئاً من نعمة الله، لأنَّه يقول: «ذُوقُوا وانظُرُوا أنَّ الرَّبَّ طَيِّبٌ» (مز ٣٣: ٩؛ ١ بط ٢: ٣). فهذه المذاقة هي قوَّة الروح القدس العاملة في يقينٍ تامٍ والخادمة في القلب (٢)، لأنَّ كُلَّ الَّذين هم أبناء للنُّور ولخدمة العهد الجديد بالروح القدس لا يتعلَّمون شيئاً من البشر إذ هم متعلَّمون من الله، لأنَّ النِّعمة

(١) كلمة *συμπόσιον* في سياق هذه الآية يُراد بها أنَّ الرَّبَّ "حلو المذاق".

(٢) عن خدمة الروح القدس في القلب، انظر: ٢ كو ٣: ٨.

عينها تحفر^(١) نواميس الرُّوح في قلوبهم. لهذا يجب عليهم ألا يستلهموا يقينهم فقط من الأسفار المكتوبة بغير، بل أيضًا من ألواح قلوبهم التي تكتب عليها نعمة الله نواميس الرُّوح والأسرار السماوية^(٢). لأنَّ القلب هو الذي يهُمِّيْن على الجسد بِرُّمَّتِه ويهُلُّك عليه كأداة له، فحالما تُمْسِك النِّعْمَة بِهِ راعي القلب تُمْلِك حِينَئِذٍ على كلِّ الأعضاء والأفكار، لأنَّ هناك في القلب يكون الذهن وكلُّ حواسِ النَّفْس وتطلُّعاتها، ولذا فإنَّ النِّعْمَة تَسْرِي إلى كلِّ أعضاء الجسد.

٢١ - كذلك أيضًا (على التَّقْيِض من هذا) بنو الظُّلْمَة: فإنَّ الخطيئة تملك على قلوبهم وتسْرِي إلى كلِّ أعضائهم، «لَأَنْ مِنَ الْقُلُوبِ تَخْرُجُ الْأَفْكَارُ الشَّرِّيرَةُ»^(٣)، وإذا تَبَعَ هكذا تُظْلِمُ الإِنْسَانَ. أمَّا الَّذِين لا يُقْرُونُ بِأَنَّ الشَّرَّ متعَايشٌ مع الإِنْسَان ونَارُه معه، فإِنَّهُم لا يَأْبَهُون بِعِدِّهِم ولا يَتَأْذُونَ من شهوة ما، لأنَّه لِرَمَانٍ معيَّنٍ يَكْفُ الشَّرُّ عن مضايقتهم في داخِلِهِم وإِغْرائِهِم بالشَّهْوَة، حتَّى لِيُقْسِمَ الإِنْسَانُ مُؤْكِدًا: «إِنَّ مِثْلَ هَذَا الْهَوَى لَا يَشُورُنَّ فِي بَعْدٍ». ولكنَّ بعد زمانٍ يُسِيرُ يَسْتَعِرُ بالشَّهْوَة حتَّى إِنَّهُ يوجد إذ ذاك حانًا لِقَسْمِه أَيْضًا. لأنَّه على غرار الماء ينساب عبرَ قنَّاً، هكذا أيضًا الخطيئة

(١) *inscribe* = يُحَفِّر، يُنقش، ينحت (انظر: عب ٨: ١٠؛ ١٦: ١٦).

(٢) انظر: عب ٨: ١٠؛ ١٦: ١٦؛ رو ٨: ٢.

(٣) مت ١٥: ٢٩.

عَبْرِ القلبِ والأفكارِ، فكُلُّ الَّذِينَ ينْكِرونَ ذَلِكَ يُوبَخُونَ وَيُسْتَهْزَأُ بِهِمْ مِنْ الْخَطِيئَةِ نَفْسِهَا، وَإِنْ كَانَتْ لَا تَشَاءُ أَنْ تَغْلِبَهُمْ عَلَيْهَا^(١)، لِأَنَّ الشَّرَّ يَسْعِي لِأَنْ يَخْتَبِئَ وَيَخْتَفِي فِي فَكْرِ الإِنْسَانِ.

[ز] سلطانُ الإِنْسَانِ عَلَى ذَاتِهِ

٢٢ - فَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يُحِبُّ اللَّهَ، فَاللَّهُ أَيْضًا يَمْزِجُ مُحِبَّتَهُ بِهِ، فَإِنْ هُوَ آمِنُ بِهِ مَوْرَةً، يَرِيدُ لَهُ اللَّهُ إِيمَانَ السَّمَاوِيِّ، فَيَغْدُو إِيمَانُ الإِنْسَانِ ضِعْفَيْنَ. فَكُلُّ مَا تَقْدِمُهُ لَهُ مِنْ أَعْصَائِكَ، يَمْزِجُهُ بِنَفْسِكَ، إِزَاءَ هَذَا، مَا يَقْابِلُ مِنْ حَوَاسِهِ، لَكِي تَكُونَ عَامِلًا كُلَّ شَيْءٍ بِنَقاوَةٍ وَمُحْبَّاً لَهُ وَمُصَلِّيًّا إِلَيْهِ. ذَلِكَ لِأَنَّ لِلإِنْسَانِ مَنْزِلَةً جَلِيلَةً، فَهَا أَنْتَ تَنْظُرُ مَا أَعْظَمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ، وَلَكِنَّ الرَّبَّ لَمْ يُسْرِرْ بِهِمْ، إِنَّا فَقْطُ فِي الإِنْسَانِ قَدْ وَجَدْ رَاحَتَهُ. فَالإِنْسَانُ إِذَا أَرْفَعَ كَرَامَةً مِنَ الْمَخْلوقَاتِ طَرِّاً، بَلْ رَبِّا أَجْسَرَ عَلَى الْقَوْلِ لَيْسَ فَقْطَ الْمَخْلوقَاتِ الْمَنْظُورَةِ لَكِنَّ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ، أَعْنِي الْأَرْوَاحَ الْخَادِمَةَ^(٢)، لِأَنَّهُ لَمْ يَقْلُ عنْ مِيَخَائِيلَ وَغَبْرِيَّالَ رَئِيسِيِّ الْمَلَائِكَةِ: «لِيَصْنَعَ عَلَى صُورَتِنَا وَشَبَهَنَا» (تَكَ ١ : ٢٦)، بَلْ عَنِ الْجَوْهَرِ الْعَقْلَيِّ^(٣)

(١) لَئِلَّا يَتَبَهَّوَا وَيَعْرِضُوا عَنْ رَأِيهِمُ الْخَاطِيِّ.

(٢) انظر: عَبْ ١ : ١٤.

(٣) *oὐσίαν = الجوهر العقلي* (انظر: حاشية ١ صفحَة ٢٣٠ - العَظَة ٩).

للإنسان، أي النفس التي لا تموت، لأنَّه مكتوب أيضًا: «مُعْسِكَرٌ مَلائِكَةٌ حَوْلَ خَافِفِيهِ» (مز ۳۳: ۸ - حسب النَّصْ^(۱))؛ فالخِلائق المُنظورة مربوطة بطبيعة غير قابلة للتغيير.

٢٣ - فلقد أقيمت السماء مَرَّةً وكذا الشَّمْسُ والقمر والأرض - تلك التي لم يُسَرِّ بها الرَّبُّ - ولكنَّ شَيْئاً مَمَّا خلقه لا يستطيع أن يُعَيِّنْ نفسه، لا ولا يملك حتَّى الإرادة لذلك. لهذا فإنَّك أنت على صورة الله وشَيْبِهِ، لأنَّه كما أَنَّ الله إِرَادَةً حَرَّةً وما يريده يفعله - فإنْ كان يشاء، فبحسب سلطاته، يرسل الأُبَار إلى جَهَنَّمَ والخطأة إلى الملائكة، ولكنه لا يختار هذا ولا يُفْبِلُه لأنَّ الرَّبُّ هو الدِّيَان العادل - هكذا أنت أيضًا لك سلطانٌ على ذاتك، وحَتَّى إلى الْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ تشاء. فأنت ذو طبيعة قابلة للتغيير مسارها، فإنْ أردت أن تُحْذَفَ أو تصنع سَمَا وتقتل به أحدًا، فليس من يقاومك أو يمنعك. فإنْ يَشَأْ أحد، يخضع للله ويسلك طريق البر ويكتب شهواته، لأنَّ هذا العقل هو خصم لقوى الشر، ويستطيع، بفكِّرِ مُؤَطَّد، أنْ يَسُودَ على هجمات الشر والشهوات القبيحة.

(۱) وردت في السَّبعينية هكذا: «مَلَائِكَةُ الرَّبِّ يُعْسِكِرُ حَوْلَ خَافِفِيهِ»، إذ إنَّ كلمة παρεμβολή = parēmbolē، معسكر، تحملة، لها نفس المعنى الذي للفعل παρεμβάλλειν = parēmbállein = يُعْسِكُ. (وهذه الآية استقْلَمَتها الكنيسة وأورَدَتها في الأنجية، في ختام قطعة "أَرْحَنَا يَا اللَّهُ ..": "... لَكِ نَكُونُ بِعَسْكِرِهِmen ποντιακού محفوظين ومُرْشَدِين..."). (قارن حاشية ۱ صفحَة ۲۷۷ - العظة ۱۴).

٢٤ - فإنْ كان في بيتٍ كبير - حيث توجد آنية ذهبيةٌ وأنية فضيةٌ، وصنوفٌ من الشِّباب، وذهبٌ وفضةٌ - يغصُّب الفتىَانُ والفتاتُ (الخدَّامُ) المقيمون هناك فكرهم، رغم أنَّهم بطبيعتهم يشتتهنون كلَّ هذه الأشياء بسبب الخطيئة الملازمة لها، فمن أجل خوفهم خوف البشر من أسيادهم يقاومون هجمات شهوتهم؛ فكم بالأحرى حيث يكون هناك خوف الله! فإنَّه يجب، إذ ذاك، أنْ يقاوم الإنسانُ ويصارع ضدَّ الشَّرِّ الملازم له، فالله إنما أمرَكَ بما هو في مقدورك. فإنَّ طبيعة الحيواناتِ غير العاقلة هي مُسيرة^(١): طبيعة الحياة قاسية وسامة، وكلَّ الحيات هكذا هي؛ والذئب لا يبني يفترس، وسائر الذئاب لها نفس الطبيعة؛ والخروف الذي يفترس ساذج، وهكذا جميع الخراف تحظى بذات الطبيعة؛ والحمامة هي بلا مكرٍ وبسيطة، ولكنَّ الحمام هذه الطبيعة عينها؛ أمَّا الإنسان فليس هكذا، بل يوجد من يفترس كالذئب، ويوجد من يفترس كالخروف، فمن ذات الجنس البشري يخرج الاثنين.

٢٥ - وهناك إنسان لا يقنع بأمراته بل يزني، بينما آخر لا يدع ولا حتى الشهوة تصعد إلى قلبه؛ وهناك من ينهب ما هو لقريبه، في حين يوجد آخر من أجل تقواه نحو الله يوزع ما هو له. فها أنت تنظر كم أنَّ هذه

(١) حرفيًا: "ستي" = مربوطة، مقيّدة، مُكبَّلة.

الطبيعة البشرية قابلة للتَّغْيِير: فتارةً توجد جانحةٌ نحو الشَّرّ وطُورًا نحو الخير، وفيما بينهما لها القدرة أن تميل إلى ما تشاوئه من الأفعال. فالطبيعة البشرية إِذَا قابلةٌ للخير والشَّرّ، إِمَّا لِلنِّعْمةِ الإلهيَّةِ أو لِلقوَّةِ المعاذيةِ، غير أَنَّها ليست مُسَيَّرَةً. فإنَّ آدَمَ نفْسَه فيِما مضَى، إِنَّا كُونَه في حال النَّقاوةِ، كان يَملُكُ عَلَى أَفْكَارِهِ، وَلَكِنْ مِنْذِ مُخالَفَتِهِ الْوَصِيَّةِ، وَجَبَالْ تِقَالٌ تَحْمِلُ عَلَى ذَهْنِهِ وأَفْكَارِ الشَّرِّ تَمْتَزِجُ بِهِ حَتَّى بَاتَ جَمِيعُهَا وَكَائِنًا أَفْكَارَهُ هُوَ، مَعَ أَنَّ وَاحِدًا مِنْهَا لَيْسَ لَهُ بَلْ هِيَ فِي حُوزَةِ الشَّرِّ.

٢٦ - وَبَعْدُ، فَيُجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَمِسْ سَرَاجًا كَيْمًا يُوقَدْ فَتَجِدْ أَفْكَارَكَ النَّقِيَّةِ، لَأَنَّ هَذِهِ هِيَ الْأَفْكَارُ الطَّبِيعِيَّةُ الَّتِي خَلَقَهَا الرَّبُّ فِيْكَ. فَإِنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَرْبُّونَ إِلَى جَوَارِ الْبَحْرِ يَعْلَمُونَ السَّبِيَّاحَةَ، فَإِذَا مَا قَامَتِ الْأَنْوَاءُ وَالْأَمْوَاجُ لَا يَقْزَعُونَ؛ أَمَّا الَّذِينَ لَا عَهْدَ لَهُمْ بِمَثَلِ هَذِهِ الْأَمْوَارِ، فَحَتَّى حِينَ تَأْتِي عَلَيْهِمْ وَلَوْ عَاصِفَةٌ صَغِيرَةٌ، يَتَمَلَّكُهُمُ الْخَوْفُ وَيَغْرِقُونَ؛ هَكَذَا يَكُونُ الْمُسَيِّحِيُّونَ أَيْضًا. وَكَمَا أَنَّ عَقْلَ طَفْلٍ ذِي ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ لَا يَمْكُنُهُ أَنْ يَعْرِيْ أو يَدْرِكَ عَقْلَ حَكِيمٍ كَامِلٍ، لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ بَعْدٍ شَاسِعٍ فِي الْعُمَرِ؛ هَكَذَا الْمُسَيِّحِيُّونَ أَيْضًا بِشِبَهِ الْأَطْفَالِ الصِّغَارِ يَعْتَبِرُونَ الْعَالَمَ، مُشَبِّهِنَ اِنْظَارَهُمْ بِالْأَحْرَى عَلَى مَقْدَارِ النِّعْمَةِ (الْمُعْطَاةِ لَهُمْ)، ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ غَرَبَاءُ عَنْ هَذَا الدَّهْرِ، فَلَهُمْ مَدِينَةٌ أُخْرَى وَرَاحَةٌ أُخْرَى. فَالْمُسَيِّحِيُّونَ يَقْتَنُونَ تَعْزِيزَةَ الرُّوحِ

القدس، وكذا دموعاً وحزناً وتنهاً، وهذه الدّموع عينها هي نعيمٌ لهم، على أنَّ لهم أيضاً خوفاً وسط فرحهم وتحليلهم. وهكذا يكونون كمثل أُناسٍ حاملين دمهم على أيديهم، لا يشقون في ذواхهم ولا يحسّبون أنفسهم شيئاً، بل يكونون مرذولين ومرفوضين أكثر من جميع الناس.

٢٧ - كما لو أنَّ هناك ملِكًا قد أودع إنساناً فقيراً كنزة الخاصّ، فذاك الذي أخذه ليصونه لا يعتبره وكأنَّه ملْكٌ له، بل يعترف على الدّوام بفقره ولا يجسر أنْ يبيّنَ من كنزِ إنسانٍ آخر. فإنَّه يتفكّر هكذا كلَّ حين: "ليس فقط أنَّ الكنز هو الآخر، بل أيضاً إنَّ ملِكًا مقتدرًا هو الذي قد عَهَدَ به إلى، ومتى أراد فإنه يأخذني مني"؛ هكذا أيضاً ينبغي أن يحسّبوا أنفسهم أولئك الذين قد اقتنوا نعمة الله، ويَتَّسِعوا بِلِيْهم ويُقْرِبُوا بِفَقْرِهِم. لأنَّه كما أنَّ ذلك الفقير الذي أخذ الكنز الذي اتّسِمَ عليه من قبْلِ الملك، إنَّه هو ارتفع متَّكلاً على كنزِ إنسانٍ آخر وكأنَّه ملْكُه الخاصّ وانتفخ قلْبُه فإنَّ الملك يستردُ منه كنزاً، ويلبّث ذاك الذي استُودع الكنز فقيراً كما كان قبلًا؛ هكذا أيضاً الذين قد اقتنوا النِّعْمة، إنَّهم ارتفعوا وانتفخت قلوبُهم فإنَّ الرَّبَّ ينزع نعمَتَه منهم، ويلبّث أمثالَ هؤلاء كما كانوا قبلَ أن ينالوا النِّعْمة من لَدُنِ الرَّبِّ.

٢٨ - بَيْدَ أَنْ كَثِيرِينَ - رَغْمَ مُلَازِمَةِ النِّعْمَةِ لَهُمْ - يُسْرِقُونَ مِنَ الْخَطِيئَةِ وَهُمْ لَا يَدْرُوْنَ. كَمِثْلِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ فَتَاهٌ فِي بَيْتٍ وَكَذَا شَابٌ أَيْضًا، وَإِزَاءِ تَمْلُقِهِ إِيَّاهَا تُوَافِقُهُ فَتُسَقَطُ فِي الزَّمْنِ وَتُطْرَدُ خَارِجًا؛ هَكُذا أَيْضًا الْحَيَاةُ الْبَغِيَّةُ - حَيَاةُ الْخَطِيئَةِ، فَإِنَّمَا تَلَازِمُ النَّفْسَ وَتُغُوِّيُّهَا وَتُغْرِيُّهَا، فَلَوْ وَاقْفَتُهَا النَّفْسُ، فَإِنَّ اتِّحَادًا نَجْسًا يَصِيرُ مَا بَيْنَ النَّفْسِ وَالْجَسْدِيَّةِ وَالشَّرْرِ غَيْرَ الْجَسْدِيِّ الَّذِي لِلرُّوحِ الشَّرِّيرِ، أَيْ أَنَّ الرُّوحَ تَقْتَرِنُ بِرُوحَ آخَرَ، فَيُبَيِّنُ فِي قَلْبِهِ ذَاكَ الَّذِي وَاقَعَ فِي الْحَيَاةِ وَقَبِيلَ إِلَيْهِ الْفَكَرِ الشَّرِّيرِ. فَمَقِيَّاسُ جَهَادِكَ إِذَا هُوَ هَذَا: أَنْ لَا تَزِّنَ فِي أَفْكَارِكَ بَلْ تَقاومْ بِذَهْنِكَ، وَتَشْنَّ حَرَبًا وَقَتَالًا فِي دَاخْلِكَ، وَلَا تُذْعِنْ لِلشَّرِّ فِي أَفْكَارِكَ وَلَا تُسْرِّ بِهِ، فَإِذَا مَا أَلْفَى الرَّبُّ فِيْكَ هَذَا الْاسْتَعْدَادُ، يَقْبِلُكَ فِي مَلْكُوتِهِ فِي الْيَوْمِ الْآخِيرِ.

٢٩ - فَإِنَّهُ تَوَجَّدُ أَمْوَارٌ يَدْبِرُهَا الرَّبُّ لَكِي لَا يَتَرَكْ نَفْسَهُ بِلَا شَاهِدٍ لِنَعْمَتِهِ الإِلَهِيَّةِ وَلِدُعْوَتِهِ، وَتَوَجَّدُ أَمْوَارٌ أُخْرَى يَدْبِرُهَا أَيْضًا هَكُذا بِسَمَاحٍ مِنْهُ، كَمِا يَتَرَكَّمُ الْمَرءُ وَيَتَدَرَّبُ فَتَتَجَلَّ حِينَئِذٍ حَرِيَّةُ إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ. فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَجْتَازُونَ ضَيْقَاتٍ وَتَحَارِبُ، إِنَّهُمْ صَبَرُوا فَلَنْ يُحْرِمُوهُمْ مِنْ مَلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَالْمُسَيْحِيُّونَ إِذَا لَا يَنْوِيُونَ تَحْتَ وَطَأَةِ الضَّيْقَاتِ أَوْ يَغْتَمُونَ هُنَّا، فَإِنَّ كَانُوا يُمْتَحِنُونَ بِفَاقِهٍ أَوْ كَرْبٍ، فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَلَا يَسْتَغْرِبُوا^(١)، بَلْ

(١) انظر: بيط٤: ١٢.

الأَجْدَرُ بِهِمْ أَنْ يُسْرُوا بِالْفَقْرِ وَيَحْسَبُوهُ كَغْنَىً، وَالصَّوْمَ كَتَنَعْمٍ، وَالاَزْدَرَاءُ وَالْمَهْوَانُ كَمَجْدٍ^(١). ثُمَّ إِنْ كَانُوا يَصَادِفُونَ أَمْوَالًا تُحَسَّبُ فَاخِرَةً فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، تَلَكَ الْأَمْوَالُ الَّتِي تُغْرِيهِمْ إِلَى رَاحَةِ جَسْدِيَّةٍ أَوْ غِنَىً أَوْ مَجْدٍ أَوْ تَرَفٍ، فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَلَا يُسْرُوا بِهَا، بَلْ أَنْ يَفْرُوا مِنْهَا فِرَارَهُمْ مِنَ النَّارِ^(٢).

[ح] كَرَامَةُ الْإِنْسَانِ وَمَسْؤُلِيَّتِهِ إِذَاَهَا

٣٠ - فِي الْعَالَمِ الْمَنْظُورِ، إِنْ كَانَتْ هَنَاكَ أُمَّةٌ خَامِلَةُ الذِّكْرِ تُثِيرُ حَرْيَاً ضَدَّ مَلِكٍ، فَإِنَّهُ لَا يَتَجَحَّشُ مَشَقَّةً مَحَارِبَتِهَا بِنَفْسِهِ، بَلْ يَرْسِلُ جَنُودًا مَعَ رُؤُسَائِهِمْ فِي ضَطْلَعَوْنَ هُمْ بِأَمْرِ الْحَرْبِ؛ أَمَّا إِنْ كَانَتْ تَلَكَ الْأَلْيَتِي تَحْرِكُ ضَدَّهُ أُمَّةً عَظِيمَةً الشَّأنَ وَلَهَا الْقُدْرَةُ أَنْ تُخْرِبَ مَلِكَتِهِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ يَلْتَزِمُ بِأَنْ يَمْضِيَ بِنَفْسِهِ مَعَ بَلَاطِهِ وَمَعَ جَيُوشِهِ وَيَنْظُمُ الْحَرْبَ. فَتَبَصَّرُ أَنْتَ إِذَاً فِي مَرْتَبِكَ، كَفُونَ اللَّهُ قَدْ تَحْرِكَ مَعَ جَيْشِهِ الْخَاصِّ، أَعْنَى الْمَلَائِكَةَ وَالْأَرْوَاحَ الْقَدِيسَةَ،

(١) يَكْرِرُ أَنْبَا مَقَارُ نَفْسَهُ هَذِهِ الْكَلِمَاتَ تَقْرِيْبًا فِي قَوْلِهِ وَزَدَ فِي أَقْوَالِ الْآباءِ الْتَّبَوُّخِ: [قالَ أَنْبَا مَقَارٌ: إِذَا صَارَ عِنْدَكَ الْأَزْدَرَاءُ مِثْلَ الْمَدِيْحِ، وَالْفَقْرُ مِثْلَ الْغِنَىِ، وَالْغَوْزُ مِثْلَ الْوَفَرَةِ، فَإِنَّكَ لَا تَمُوتُ]. (Apoph., Mac., 20)

(٢) سِيرَةُ أَنْبَا مَقَارٍ نَفْسَهُ زَانِخَةً يَمْوَاقِفُ الْهَرُوبِ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْجَدِ العَلَىِ، نَذَرَ مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: هَرُوبِهِ مِنَ الصَّبَّيْعَةِ الَّتِي رُسِّمَ عَلَيْهَا قَسَاً قَبْلَ رَهِبَتِهِ؛ وَهَرُوبِهِ مِنْ تَكْرِيمِ النَّاسِ لَهُ بَعْدَ ظَهُورِ بِرَاعَتِهِ مِنَ الْتَّهْمَةِ الَّتِي أَهْمَمَهَا فِي بَكُورِ حَيَاتِهِ الرَّهْبَانِيَّةِ (انْظُرْ: بَسْتَانُ الرَّهْبَانِ قَوْلُ ٣٣)، وَأَيْضًا اتِّيادِهِ الْهَرُوبِ مِنَ النَّاسِ طَلِيلَ حَيَاتِهِ عَنْ طَرِيقِ السَّيْرَدَابِ الَّذِي حَفَرَهُ لِنَفْسِهِ دَاخِلَ قَلَّابِيَهِ (Laus., 17: 10).

وجاء بنفسه للدفاع عنك، لكيما يفديك من الموت؛ فصُنْ ذاتك إذاً واعتبر أيّ تدبير قد صار لأجلك، فقد اقتبسنا مثلاً من أمور هذه الحياة، حيث إننا لا نزال فيها. فكما أنَّه إنْ كان هناك ملِكٌ قد وجد إنساناً مُعدماً متائلاً، فما استنكف منه بل داوى كلومه بعلاجات شافية، وأحضره إلى بلاطه وألبسه برفيراً وتابجاً وأشركه معه في مائدته؛ هكذا أيضًا المسيح، المَلِك السَّمَائي، قد جاء إلى الإنسان الذي بَرَح به الألم، فداوه وجعله شريكاً له في مائدته الملوكية، وما كان هذا رغمًا عن إرادة الإنسان، بل إنَّه بالإقناع يأتي به إلى هذه الكرامة.

٣١ - لأنَّه مكتوب في الإنجيل هكذا: «أَرْسَلَ السَّيِّدُ عِيَّدَةً، لِكَيْ يَدْعُوا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَشَاءُونَ، مُعْلِنًا لَهُمْ أَنَّ الْوَلِيمَةَ قَدْ أُعِدَّتْ. أَمَّا الْمَدْعُوُونَ فَأَسْتَعْفُوهُمْ؛ فَقَالَ وَاحِدٌ: 'إِنِّي قَدْ اشْتَرَيْتُ زَوْجَ بَقَرٍ'، وَآخَرُ: 'إِنِّي قَدْ حَطَبْتُ امْرَأَةً'» (را: مت ٢٢: ٤، ٥؛ لو ١٤: ١٧ - ٢٠). فها أنت ترى أنَّ صاحب الدُّعوة مُستعدٌ، أَمَّا المدعوون فأبُوا، فهُم الَّذِين صاروا مذنبين في حق أنفسهم. فللمسيحيين كرامة عظيمة هذا مقدارها، فانظر كيف أنَّ الرَّبَّ قد أعدَ لهم الملائكة وهو يدعوهם ليدخلوا، أَمَّا هم فلا يشاءون!! فمن جهة العطية الَّتي هم مزمعون أن يرثوها، رَبِّما يقول أحدٌ

[- وهذا حقٌّ -]^(١) إِنَّهُ إِنْ كَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْذَ أَنْ خُلِقَ آدَمُ إِلَى
انْقِضَاءِ الْعَالَمِ يَحَارِبُ قُبَّالَةَ الشَّيْطَانِ وَيَصْبِرُ عَلَى الصِّيَاقَاتِ، فَلَا يَكُونُ قَدْ
صَنَعَ شَيْئًا عَظِيمًا إِزَاءِ الْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يَرِثَهُ^(٢)، لِأَنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ مَعَ
الْمَسِيحِ إِلَى الدُّهُورِ الَّتِي لَا نَهايَةَ لَهَا. فَالْمَجْدُ لِذَاكَ الَّذِي أَحَبَّ مِثْلَ هَذِهِ
النَّفْسِ حَتَّى أَعْطَاهَا ذَاتَهُ وَنَعْمَتَهُ وَاسْتَأْمَنَهَا عَلَيْهِمَا! الْمَجْدُ لِعَظَمَتِهِ!

٣٢ - فَبِحَسْبِ الظَّاهِرِ، هَا نَحْنُ - الإِخْوَةُ الْجَالِسُونَ جَيِّعًا - لَنَا صُورَةٌ
وَاحِدَةٌ وَهِيَّةٌ وَاحِدَةٌ - هِيَّةُ آدَمَ، فَهَلْ أَيْضًا تَبَعًا لِذَلِكَ يَكُونُ لَنَا جَمِيعًا،
بِحَسْبِ الْبَاطِنِ وَفِي دُخُولِنَا الْعُمِيقَةِ، نَيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَقَلْبٌ وَاحِدٌ؟ هَلْ نَحْنُ كُلُّنَا
وَاحِدٌ، صَالِحُونَ وَنَتَقِيَ اللَّهُ؟ أَمْ إِنَّهُ يَوْجَدُ مِنَّا مَنْ لَهُمْ شَرِكَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ
وَمَلَائِكَتِهِ، وَمَنْ لَهُمْ شَرِكَةٌ مَعَ الشَّيْطَانِ وَأَبِالسَّتِهِ، رَغْمَ أَنَّنَا نَجْلِسُ جَيِّعًا مَعًا
وَنَبْدُو وَكَانَنَا وَاحِدٌ، وَلَنَا بَأْسَرْنَا هِيَّةٌ وَاحِدَةٌ - هِيَّةُ آدَمَ؟ فَهَا أَنْتَ تَرَى
كِيفَ أَنَّ الْجَوْهَرَ الْعُقْلِيَّ^(٣)، أَيِّ الْإِنْسَانِ الْبَاطِنِ، يَخْتَلِفُ عَنِ الْإِنْسَانِ
الظَّاهِرِ، فَجَمِيعُنَا نَبْدُو أَنَّنَا وَاحِدٌ، رَغْمَ أَنَّ مِنَّا مَنْ هُمْ مَعَ الْمَسِيحِ وَمَلَائِكَتِهِ،
وَمَنْ هُمْ مَعَ الشَّيْطَانِ وَالْأَرْوَاحِ النَّجْسَةِ. فَإِنَّ لِلْقَلْبِ غَوْرًا لَا قَرَازَ لَهُ، فَهُنَّا كَ
حَجَرَاتٍ لِلضَّيْافَةِ وَمَرَاقِدُ وَأَبْوَابٌ وَمَدَاخِلٌ وَخَدْمَاتٌ كَثِيرَةٌ وَمَعَابِرٌ، وَهُنَّا كَ

(١) وَرَدَتْ هَذِهِ الْجَمْلَةُ الْاعْتَارِيَّةُ فِي نَسْخَةِ PG فَقْطَ (PG 34, 597 A).

(٢) انْظُرْ: رو: ٨: ١٨.

(٣) انْظُرْ: حاشية ١ صَفَحةٌ ٢٣٠ - العَظَةُ ٩.

معلمُ البرِّ والإثم، وهناك الموت وهناك الحياة، وهناك التجارة الصالحة وكذا ما يُضادُها.

٣٣ - كمثل أن يكون هناك بلاط عظيم جدًا قد أُمِّ به خرابٌ وامتلاً من كلِّ نَّئِن ومن حِيَفِ كثيرة، هكذا أيضًا القلب، الذي هو بلاط المسيح، فإنه يَعْصُ بـكُلِّ نجاسةٍ وبخشودٍ غفيرة من الأرواح الشَّرِّيرة. فينبغي إدًا لهذا البلاط أنْ يُعاد بناؤه وتشييده من جديد، وتجهز مخادعه ومرارده، لأنَّه هناك يأتي الملك المسيح مع الملائكة والأرواح القدِّيسة كَيْما يستريح ويقيم ويتمشَّى ويرسي مملكته. بل إني أقول: كأَنَا سفينةً مُوسَّقةً وسُقَّاً عظيمًا، فإنه يوجد هناك الرُّبَّانُ يضبط الجميع ويدبرهم، فيوتونه هؤلاء ويوجهه أولئك؛ هكذا القلب أيضًا، فإنَّ له العقل رُبَّانًا، والضمير مُؤَنِّخًا، والأفكار مُشتَكِيَّةً ومُدَافِعَةً، لأنَّه يقول: «وَأَفْكَارُهُمْ فِيمَا بَيْنَهَا مُشْتَكِيَّةٌ أَوْ مُدَافِعَةٌ»^(١) (رو ٢: ١٥).

٣٤ - فها أنت تنظر أنَّ الضمير لا يتستر على^(٢) مثل هذه الأفكار التي تُذعن للخطيئة، بل للحال يُبَيِّنُها لأنَّه لا يكذب، وإنَّما الذي سوف يجيء به أمام الله؟ فإنه في يوم الدِّينونة سوف يشهد أنَّه ما بَرَح

(١) انظر: حاشية ٢ صفحه ٢١٥ - العظة ٧.

(٢) ”οὐδὲ συγκρύθει“ - لا يتستر؛ وقد ورد هذا الفعل في PG: ”οὐδὲ συγκρίνει“ بمعنى: ”لا يافق على؛ لا يستحسن“ (PG 34, 597 D).

مُبَكِّتاً لنا على الدوام. كمثل أن يكون هناك مركبة ذات أعنيّة، ودوايّها وعدّها جميّعاً تحت إمرة قائدٍ واحد، فمتى شاء ذاك، ينطلق بأقصى سرعة محمولاً بالمركبة، ومتى شاء فإنه يكبح جماحها، وأيضاً أينما يرغب أن يوجّهاً فهناك تذهب معه، لأنّ المركبة برمّتها موضوعة تحت سلطان قائدها؛ هكذا القلب أيضاً، فإنّ له أفكاراً طبيعية كثيرة مربوطة به، والعقل والضمير هما المنوط بمحماً أن يتّهرا القلب ويهدّيه ويوّقظاً الأفكار الطبيعية التي تبع فيه، لأنّ النّفس - وإنْ تكون واحدة - لها أعضاء كثيرة.

٣٥ - فمنذ الوقت الذي خالف فيه آدم الوصيّة، انسّلت الحيّة إلى الدّاخل وصارت سيدةً البيت، وباتت وكأنّها نفسٌ أخرى إلى جوار النّفس. لأنّ الرّب يقول: «كُلُّ مِنْ لَا يُنْكِرُ نَفْسَهُ، وَمَنْ لَا يُبْغِضُ نَفْسَهُ، فَلَيْسَ هُوَ بِتِيمِينِي» (را: مر ٨: ٣٤؛ لو ١٤: ٢٦)، وأيضاً «الذّي يُحبُّ نَفْسَهُ سَيُهْلِكُهَا» (يو ١٢: ٢٥ - حسب النّصّ). فإنه لمّا دخلت الخطيئة إلى النّفس، باتت عضواً منها والتتصقت التصاقاً بالإنسان الجسديّ ذاته، فتبعت من القلب أفكاراً كثيرة ودنسة. فذاك الذّي يصنع مشيّاتٍ نفسه إنما يصنع مشيّاتٍ قلبه، حيث إنّ النّفس قد جدّلت مع القلب وامتزجت به؛ أمّا الذّي يُخضع نفسه ويُخضب على ذاته وشهواته الملازمة له، فإنه يصبح بمثابة من أخضع مدينة أعدائه، ويصير أهلاً لأن يرقى إلى قامة

الرُّوح القدس الصَّالحة، ويحصل بالقدرة الإلهيَّة على "الإِنْسَان النَّقِيٌّ"^(١) ويغدو أعظم من نفسه. لأنَّ مثل هذا الإنسان يتَّأله^(٢) ويصبح ابنًا لله، نائلاً السِّمْة السَّماوِيَّة في نفسه، إذ إنَّ مختارِي الله يُمسِحون بِزَيَّت التَّقدِيس ويصيرون شرفاء بل وملوِّكًا.

[ط] مَيْلُ الإِنْسَان طَوْعًا نَحْوَ الْخَيْرِ أَوِ الشَّرِّ

٣٦ - فإنَّ للإِنْسَان مِيلَ هذه الطَّبَيْعَةِ، حتَّى إنَّ ذاكَ الَّذِي هو في عمقِ الشَّرِّ وعبدُ للخطيئة له أنْ يتحوَّل إلى الصَّلاح، وكذا المربوط بالرُّوح القدس والَّذِي قد مَيَّلَ بالسَّماوِيَّات له القدرة أنْ يتحوَّل إلى الشَّرِّ. كما لو كان هناك امرأةٌ تَشَرُّ بِأَسْمَاءٍ باليةٍ وتتَضَرُّر جوعاً وفي حالةٍ من القذارة، قد حَظِيَتْ بعدَ بَحْشُمِها أَتعاباً جزيلةً بِكَرَامَةٍ ملوكيَّةٍ وتَزَيَّتْ بِبَرْفِيرٍ وتأجِّ وغَدتْ عروساً لِلْمَلِكِ. هذه تَذَكُّر قذارتها السَّالفة، وتمْلِك الإِرادة لأنَّ تعودَ أدراجها إلى حالتها الأولى، لكنَّها لا تختار أن ترتدَّ إلى سابق خزيها، إذ إنَّ هذا يُعدُّ حماقةً. أمَّا الَّذِين قد ذاقوا نعمة الله وصاروا شركاء الرُّوح القدس^(٣)، فإنَّ كانوا لا يحيطُون لأنفسهم ينطفئون ويصيرون أسوأ ممَّا كانوا عليه حين كانوا

(١) أي الإنسان الجديد أو الخلية الجديدة.

(٢) *= to deify (mystically through power and grace of God) = ἀποθεώω*

بِعُرْبَه (مستيكُبَا) بِواسطة قُوَّةِ الله ونعمته (See Lampe, s.v.).

(٣) انظر: عب ٦: ٤.

يعيشون بحسب العالم. ليس أنَّ الله متغِيرٌ أو ضعيف، أو أنَّ الرُّوح القدس ينطفئ (من ذاته)، بل إنَّ البشر أنفسهم هم الَّذين لا يتافقون مع النِّعمة، ومن أجل هذا ينحرفون ويسقطون في رياضِ الشُّرور. لأنَّ الَّذين ينعمون بمذاقة تلك العطية يلزّهم كِلا الأمرين معاً: الفرح مع العزاء، والخوف مع الرِّعدة، والتهليل مع النُّوح، إذ ينحوون على ذواهم وعلى جنس آدم بأسره، لأنَّ طبيعة البشر هي واحدة، وهؤلاء دموعهم هي خبزٌ لهم (١) ونَوْحُهم حلاوةٌ ونياح.

٣٧ - فإنْ أبصرت إنساناً قد تسامخ وانتفع لأنَّه قد صار شريكاً للنِّعمة، فحتى وإنْ كان يحتاج آياتٍ ويقيم موتي، لكنَّ نفسه ليست مُهانةً ولا مُزدرى بها، وليس هو مسكيناً بالرُّوح ولا مرذولاً، فإنه يُسرق من الشَّر دون أنْ يدرى؛ فحتى ولو كان يصنع آياتٍ فيجب عدم تصديقه. لأنَّ عالمة المسيحية هي هذه: أنْ يكون الإنسان مُزكى عند الله، وبجهد أنْ يتواري عن النَّاس. حتى ولو كان يحظى بكلِّ كنوز الملك فإنه يخفيها، وما ينفك يقول على الدَّوام: "هذا ليس لي، بل إنَّ آخر قد عَهَدَ إليَّ بهذا الكنز، أما أنا فمسكين، ومتى شاء ذاك فإنه يأخذه مني". أما إنْ كان أحدٌ يقول: "إِنِّي غَنِيٌّ وَمُكْتَفِي وقد ربحتُ ولا حاجةٌ لي إلى شيء"؛

(١) انظر: مز ٤٢ : ٣.

فمثل هذا ليس بمعنِّي مسيحيٍ، لكنَّه إثابة للضلال والشيطان. لأنَّ التمتع بالله لا يُشبع منه، وكلَّما نَعَمَ أحدٌ بمذاقته وأكلَه، غداً أشدَّ جوعاً إليه. مثل هؤلاء يقتتون نحو الله لظُنِّي وعشقاً لا يمكن إخْماده، وعلى قدر ما يجتهدون لكي يتقدموه ويربحوا، يحسبون ذواتهم مساكين ومعوزين ولا شيء لهم، لأنَّهم يقولون: ”إني لست أهلاً لأنْ تضيء حولي هذه الشمس“، هذه هي عالمة المسيحية، هذا هو التَّواضع.

٣٨ - أمَّا إِنْ كانَ أَحَدٌ يَقُولُ: ”إِنَّ مُكْتَفِيَ، وَقَدْ اسْتَكْفَيْتُ تَمَامًا“، فهذا مُضِلٌّ وكاذب.

وكما أنَّ جسد الرَّب قد تمجَّد حين صَعدَ إلى الجبل، وتحلَّى^(١) إلى مجد إلهي وإلى نورٍ لا يُسْرَر مداره، هكذا أيضًا أجساد القدِيسين تتمجَّد وتلمع مثل البرق^(٢). فكما أنَّ مجد المسيح المذكور في داخله قد امتدَ إلى جسده وتوهَّج، هكذا أيضًا بنفس الطَّريقة بالنسبة للقدِيسين، فإنَّ قدرة المسيح المكونة داخلهم تتدفق خارجًا في ذلك اليوم إلى أجسادهم، فإِنَّمَا يشترون - منذ الآن، في أذهانهم - في ما هو من جوهره وطبيعته، لأنَّه مكتوب:

(١) μετεμορφώθη "وهذا هو الفعل الذي استخدمه البشيران متى ومرقس في وصف حادثة التجلي، وُترجم في الطبعة الباريسية: "وتغيرت هبته" (انظر: مت ١٧: ٤٢ مر ٩: ٢).

(٢) ἐξαστράπτει "، وهذا هو الفعل الذي استخدمه لوقا البشير في وصف ثياب الرَّب في حادثة التجلي أيضًا، ومعناه "يلمع مثل البرق" (انظر: لو ٩: ٢٩).

«المُقَدِّسُ وَالْمُقَدَّسُونَ هُنْ مِنْ وَاحِدٍ» (عب ٢: ١١)، و«الْمَجْدُ الَّذِي أَعْطَيْتَنِيهِ قَدْ أَعْطَيْتَهُمْ» (يو ١٧: ٢٢). فكما أنَّه من نارٍ واحدةٍ تُوقَد مصابيحٌ كثيرة، كذلك من الضَّرورة بِمَكَانٍ أنَّ أجسادَ الْقَدِيسِينَ - كَوْنُهَا أعضاءُ المَسِيحِ - تَرْوَى إِلَى مَا يَكُونُهُ المَسِيحُ نَفْسُهُ.

٣٩ - سُؤال: كَيْفَ لِلْمَسِيحِيِّينَ أَنْ يَفْضُلُوا عَلَى آدَمَ الْأَوَّلِ، إِذْ إِنَّ ذَاكَ كَانَ غَيْرَ مائِتَ وَغَيْرِ فَاسِدٍ نَفْسًا وَجَسْدًا، أَمَّا هُؤُلَاءِ فَيَمْوتُونَ وَيَدِبُّ فِيهِمُ الْفَسَادُ؟

الجواب: إنَّا الْمَوْتَ الْحَقُّ هُوَ ذَاكُ الدَّاخِلِيُّ، فِي الْقَلْبِ، وَهُوَ مُسْتَرٌ وَالَّذِي يَمُوتُ بِهِ هُوَ الإِنْسَانُ الْبَاطِنُ. فَإِنْ كَانَ أَحَدٌ قدْ «اَنْتَقَلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ»^(١) دَاخِلِيًّا، فَهُنَّا بِالْحَقِّ يَحْيَا إِلَى الدُّهُورِ وَلَا يَمُوتُ. وَأَمَّا إِنْ كَانَتْ أَجْسَادُ مُثْلِ هُؤُلَاءِ تَحْلِلُ رَدَحًا مِنَ الزَّمْنِ، فَإِنَّا تَقْوَمُ مُجَدَّدًا فِي مَجِدٍ^(٢) لِأَنَّهَا مَقَدَّسَةٌ، لَذَلِكَ فَنَحْنُ نَدْعُو مَوْتَ الْمَسِيحِيِّينَ نَوْمًا وَرَقَادًا. وَلَكِنْ لَوْ كَانَ الإِنْسَانُ لَا يَمُوتُ وَجَسْدُهُ لَا يَفْسَدُ، لَكَانَ كُلُّ الْعَالَمِ - إِذْ يَنْظَرُ عَجَبٌ هَذَا الْأَمْرُ، أَنَّ أَجْسَادَ الْمَسِيحِيِّينَ لَا يَعْتَرِفُهَا فَسَادٌ - يُبَيِّنُ شَطْرَ الصَّلَاحِ، لَا عَنْ إِرَادَةٍ وَالْخِيَارِ بل بِنَوْعٍ مِنَ الاضْطَرَارِ.

(١) يو ٥: ٢٤.

(٢) انظر: ١ كرو ١٥: ٤٣.

٤ - ولكن لكيما تتجلى بشكل قاطع الإرادة الحرة التي وهبها الله منذ البدء للإنسان وتدوم، فإن الأمور تضبط بحسب التدبير ويصير الأخلاق للأجساد، كيما يكون في دائرة مشيئة الإنسان تهوله نحو الصلاح أو الشر. لأن الذي أعطى نفسه بالتمام للشر وهو موغل في الخطية، وقد جعل من نفسه إباء للشيطان الذي يسود عليه بالتمام، ليس هو مربوطاً [بالشر]^(١) قسراً، بل إن له الحرية ليصبح إباء مختاراً للحياة^(٢). كذا بالمثل الذين قد ثملوا باللهوتية، وإن يكونوا ممتلكين بالروح القدس ومربوطين به، فإنهم ليسوا مسوκين غصباً، بل لهم الإرادة الحرة أن يغيروا وجهتهم ويعملوا ما يشاءون في هذا الدهر.

[ي] نمو الإنسان رويداً رويداً

٤ - سؤال: هل يتضاءل الشر ويستأصل على مراحل، ويتقدم الإنسان إلى النعمة، أم إن الشر يجتث في الحال إذا ما حظي الإنسان بنعم؟

الجواب: كما أن الجنين في الرحم لا يكتمل نموه رجلاً على الفور، ولكنه يتشكل تدريجياً ثم يولد، على أنه لا يولد كرجل بالغ بل ينمو في

(١) وردت هذه الكلمة في نسخة PG 34, 604 A فقط.

(٢) انظر: أعيان: ٩: ١٥.

سنين عديدة ثم يغدو رجلاً؛ وعلى غرار بذار الشعير أو الحنطة، فإنما لا تضرِب بجذورها في الحال بمجرد إلقائها في الأرض، بل إنّ عوافض ورياحاً تُغيّر عليها، وحينذاك، وفي الوقت المناسب، تتكون السُّنابل؛ وكذا ذاك الذي يغرس شجرة كُمثري لا يعني حالاً الأثار؛ هكذا أيضًا في الأمور الروحية - حيث مقدار الحكمة والدقة عظيم هكذا - ينمو الإنسان قليلاً قليلاً، و«يبلغ إلى رجلٍ كاملٍ، إلى قياس قَاتِبِه»^(١)، وليس كما يزعم قوم: «ليس هذا، وائلع ذاك»!

٤٢ - فالذى يروم أن يتعلم الآداب، يمضي أولاً ويتعلّم الحروف؛ وحين يصبح الأوّل هناك، يذهب إلى مدرسةٍ يتعلّم فيها الرومية حيث يكون فيها آخر الكل؛ ثم حين يُحرِز قصبة السبّق فيها، يمضي إلى مدرسة البلاغة والتي فيها يكون أيضًا مبتدئًا وفي آخر الصُّفوف؛ ومتى صار محامياً يكون مبتدئًا وسط الفقهاء وآخر الكل، ثم حين يُبْرِزُ أقرانه يغدو هو المتقدّم بينهم، وعندما يصبح رئيسًا يتّخذ لنفسه مشيرًا يعاونه. فإن كانت الأمور المنظورة لها مثل هذه المراحل للتقدّم، فكم بالأحرى الأسرار السماوية يكون لها أطواواً للتقدّم، وتنمو خلال درجاتٍ كثيرة، وحينذاك، وعبر تدريبٍ كثيريٍ وامتحاناتٍ عِدَّة، يصبح كاملاً ذاك الذي يجتازها حتّى النهاية.

. ١٣ : ٤ (١)

[ك] منزلة الإنسان الأثيرية عند الله

ذلك أنَّ المُسِيَّحِينَ الَّذِينَ قد تذوقوا النِّعْمَةِ حَقًّا، واقتَنُوا عَلَامَةَ الصَّلِيبِ فِي أَذْهَانِهِمْ وَقَلُوبِهِمْ^(١)، هُؤُلَاءِ - مِنَ الْمَلُوكِ إِلَى الْفَقَرَاءِ - يَحْسَبُونَ كُلَّ الْأَشْيَاءِ زِيَّلًا وَنَتَّنَا، وَهُمْ لَهُمُ الْقُدْرَةُ أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّ الْعَالَمَ الْأَرْضِيَّ بِأَسْرِهِ، وَكُنُوزَ الْمَلُوكِ، وَالغَنِّيَّ، وَالْمَجْدُ، وَكَلْمَاتِ الْحِكْمَةِ، إِنْ هِيَ إِلَّا خَدَاعٌ، لَيْسَ لَهَا أَسَاسٌ رَاسِخٌ بَلْ هِيَ إِلَى زَوَالٍ؛ وَأَئِيْ ما كَانَ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ يَحْتَقِرُونَهُ بِأَيْسِرِ مَرَامِ.

٤٣ - لِمَذَا؟ لِأَنَّ مَا هُوَ غَرِيبٌ وَعَجِيبٌ إِنَّمَا هُوَ الْأَمْرُ الَّتِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، الَّتِي لَيْسَتِ فِي كُنُوزِ الْمَلُوكِ وَلَا فِي حِكْمَةِ الْكَلَامِ وَلَا فِي الْمَجْدِ الْعَالَمِيِّ. وَلِأَنَّ الْكَرَامَاتِ وَالغَنِّيَ الَّذِي يَحْظَى بِهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قد اقْتَنُوا ربَّ كُلِّ الْأَشْيَاءِ وَخَالَقُهُمَا فِي إِنْسَانِمِ الدِّيَارِيِّ، إِنَّمَا هِيَ قِبَيْهُ لَا تَزُولُ بَلْ تَبْقِي. فَالْمُسِيَّحِيُّونَ يَعْلَمُونَ قِيمَةَ النَّفْسِ أَكْثَرًا تَفُوقُ كُلِّ الْمُخْلُوقَاتِ، لِأَنَّ الإِنْسَانَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ عَلَى صُورَةِ اللَّهِ وَشَبَهِهِ^(٢). فَهَا هِيَ ذِي السَّمَاوَاتِ كَمْ أَكْثَرًا فَائِقةُ الْعَظَمَةِ، وَالْأَرْضِ كَذَلِكَ، وَالْخَلَاقُ الَّتِي فِيهِمَا ثَمِينَةُ، وَعَظِيمَةُ هِيَ الْكَائِنَاتُ الَّتِي فِيهِمَا؛ أَمَّا الإِنْسَانُ فَيَفْضُلُ قِيمَةً عَلَى

(١) مَرَّةً أُخْرَى يُشَيرُ أَنْبَاءُ مَقَارٍ إِلَى خَبْرَتِهِ الْعَجِيْبَةِ فِي بَكُورِ حَيَاتِهِ حِينَ صَلَبَهُ الشَّارِوْبِيمْ (انْظُرْ: حَاشِيَةُ ١ صَفَحَةُ ٢٢١ - العَظَةُ ٨).

(٢) انْظُرْ: تَك١: ٢٦.

جميع الكائنات، لأنّ به وحده قد سرّ الرّبّ، مع أنّ حيتان البحر والجبال والوحش أعظم بحسب الظّاهر من الإنسان. فانظر إذاً منزلتك، كم أنتك ثمين! فإنّ الله جعلك فوق الملائكة، وذلك حين جاء هو نفسه بذاته على الأرض من أجل أن يشفع^(١) فيك ويفديك.

٤ - فلقد جاء الله مع ملائكته خلاصك^(٢)، فإنّ الملك، ابن الملك، قد تشاور مع أبيه، فأرسل الكلمة، وإذ ليس جسداً وأخفى لاهوته - لكي يخلص المثيل بالمثليل - ووضع نفسه^(٣) على الصّليب. فما أعظم محبّة الله للإنسان، حتى إنّ غير المائت اختار أن يُصلب من أجلك! فانظر كيف أنّ «الله أحبّ العالم حتى بدل ابنه الوحيد لأجله»^(٤)، «فكيف لا يهبنا معه كلّ شيء»^(٥)? وأيضاً في موضع آخر يقول: «الحقّ أقول لكم إنّه سقيمه على جميع أمواله» (مت ٢٤: ٤٧). بل وأيضاً يُري في موضع آخر الملائكة خداماً للقديسين، لأنّ أليشع لما كان في الجبل وأتت عليه القبائل الغريبة، قال له غلامه: «إنّ كثيرين

(١) $\pi\rho\varepsilon\beta\epsilon\alpha\sigma$ = شفاعة ، ويورد الآباء هذه الكلمة على المسيح، شفيعاً عن الإنسان لدى الآب (انظر مثلاً "تحمّل الكلمة" للقديس أثناسيوس - الفصل السابع - الفقرة الخامسة).

(٢) وردت هذه الجملة سؤالاً استنكارياً في PG هكذا: "فمني جاءت الملائكة خلاصك؟"، حيث وردت "Oτε" "بدلًا من "Ο Θεός".

(٣) انظر: يو ١٠: ١١، ١٥، ١٧.

(٤) يو ٣: ١٦ - حسب النّص.

(٥) رو ٨: ٣٢.

مُقْبِلُونَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ وَحْدَنَا، حِينَئِذٍ أَجَابَ أَلِيشَعُ: «أَلَا تَرَى جِيُوشَ الْمَلَائِكَةِ وَحْشُودَهُمْ مَعْنَا حَوَالَيْنَا لِيَؤَازِرُونَا؟»^(١) فَهَا أَنْتَ تَنْظُرُ أَنَّ السَّيِّدَ مَعَ حَشُودَ مَلَائِكَتِهِ مَلَازِمٌ لِعَبِيدِهِ، فَكُمْ تَكُونُ عَظِيمَةُ النَّفْسِ إِذَا! وَمَا أَكْرَمَ قِيمَتَهَا عَنِ اللَّهِ! حَتَّىٰ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَطْلُبُونَهَا لِلشَّرِكَةِ الْخَاصَّةِ مَعْهُمْ وَلِلْمُلْكُوتِ، أَمَّا الشَّيْطَانُ وَقَوَاتِهِ فَيَطْلُبُونَهَا لِنَصْبِيهِمْ.

٤٥ - فَكَمَا أَنَّهُ فِي الْأَمْرُورِ الْمَنْظُورَةِ لَا يُخْدِمُ الْمَلَكُ مِنَ الرُّعَاعِ بَلْ مِنَ الْحِسَانِ الْمُتَأَدِّبِينَ جِيدًا؛ كَذَلِكَ أَيْضًا فِي الْبَلَاطِ السَّمَاءِ، الَّذِينَ يَخْدُمُونَ الْمَلَكَ السَّمَاءِ هُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ بِلَا عِيبٍ وَلَا لَوْمٍ، الْأَنْقِيَاءُ بِقَلْوَاهُمْ. وَكَمَا أَنَّهُ فِي الْبَلَاطِ يُؤْتَىٰ بِالْعَذَارِيِّ الْحِسَانِ الْلَّائِي لَيْسَ بِهِنْ عَيْبٌ، الْأَبْعَرُ جَمَالًا، وَيُمْضَىٰ بِهِنْ إِلَى رِفْقَةِ الْمُلُوكِ؛ هَكَذَا أَيْضًا فِي الْبَلَاطِ الرُّوحَانِيِّ، فَإِنَّ النُّفُوسَ الْمُزَدَانَةَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بِالصَّالِحَاتِ، هِيَ الَّتِي يَكُونُ لَهَا شَرِكَةً مَعَ الْمَلَكِ السَّمَاءِ. فِي الْعَالَمِ الْمَنْظُورِ، أَيْنَا يَمْضِي رَئِيسٌ لِيُقِيمُ، وَيَحْدُثُ أَنْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ قَدَارَةً مَا، فَإِنَّهُ يَهْيَأُ وَيَجْرِي هُنَاكَ تَرْتِيبٌ ضَخِمٌ وَهُرْقَ الأَطْيَابِ؛ فَكُمْ بِالْحَرَقِيِّ مَنْزُلُ النَّفْسِ الَّذِي فِيهِ يَسْتَرِيعُ الرَّبُّ^(٢) - يَحْتَاجُ إِلَى تَرْتِيبٍ

(١) انظر: مل ٦: ١٤ - ١٧.

(٢) انظر: إش ٥٧: ١٥ س «الْمُسْتَرِيعُ فِي قَيَّسِيَّهُ»، انظر أَيْضًا تذاكِيَّةُ الْأَرْبَاعَ الْقَطْعَةُ السَّابِعَة.

كثير، كي يتسنى لذاك الذي هو بلا دَس ولا عيب أن يدخل فيه ويستريح، لأنَّه في مثل هذا القلب يستريح الله وكلُّ الكيسة السَّماوية.

٤٦ - ففي الأمور الظاهرة، إنْ كان لأِبِ ملائكة وتيجاناً وحجارةً كريمة، فإنَّه يُجْعَلُها في حجراتٍ سِرِّيةٍ ويدخُرُها لابنه الحبيب ويعطيها له؛ هكذا أيضًا قد استأمنَ الله النَّفَسَ على مُقتناته الذي له مع نفائه الخاصة. وفي العالم المنظور، لو أَنَّ حربًا قد نشَبَتْ ومضى ملِكٌ مع جيشه للمعركة، ويكون قِسْمُه هو الأقلُّ أو الأضعف، فإنَّه يرسل للوقت سِفارَةً سائلاً ما هو للسلام^(١)؛ أمَّا إنْ كانت هناك أُمَّةٌ عَظِيمَةٌ قِبَالَةً أخرى صِنْوَةُ لها، أو ملِكٌ قِبَالَةً ملِكٍ - مثلاً ملكَ الْفُرْسَ قِبَالَةً إمبراطورَ الرُّومَانِ^(٢) - فلا مندوحةَ للملِكَيْنَ عن أَنْ يتحرَّكاً كلاهما للحرب بِكامل جيوشهما. فانظر كم تكون منزلتك حتى إنَّ الله تحرك للحرب مع جيشه الخاصة - أعني الملائكة والأرواح - لخاريةِ المقاوم^(٣)، لكي يفتديك من الموت؛ فالله إِذَا إنما من أجلك قد جاء.

(١) انظر: لو ١٤ : ٣٢.

(٢) كانت هاتان الملوكان هما القوئين العظيمين في زمان أُنْبا مقار (٣٩٠ - ٣٠٠ م)، وكانت الحرب بينهما لا يحبُّوا رؤاهما، وإنْ كانت قد وضعت أوزارها مؤقتاً في أواخر أيام القديس ، وذلك بعد مقتل الإمبراطور بوليانوس الحاقد عام ٣٦٣م وإعلان هدنة بينَ تَبَيْنَ الطَّرفَيْنَ مدةً ثلاثة عَامَّا.

(٣) ἀντικείμενφ "tē" وتعني: المعاند، الخصم، المقاوم. وقد وردت في العهد الجديد عن الشَّيْطَانَ في: تس ٢: ٤؛ ٥: ١٤ وترجمت "المقاوم".

٤٧ - كما لو أن هناك ملِكًا قد وَجَدَ فقيرًا مُبْتَلِيًّا بالبرص في جميع أعضائه، غير أنه لم يأنف منه، بل وضع مراهم على جروحه وداوى قروحه ومضى به إلى مائدة الملوكية وألبسه برفيراً وجعله ملِكًا؛ هكذا أيضًا قد صنع الله مع جنس البشر، فلقد غَسَلَ جراحاتِهم وطَبَّها وأدخلهم إلى الخَلْدُر السَّمَاوِي. فما أعظم منزلة المسيحيين هذه، فما من شيء يمكن مقارنته بها! أما إن كان أحدُ يَسْتَعْلِي ويُسرِقَ من الشَّرّ، فَمَثَلُ هذا كَمَثَلِ مدينتِ بلا سور يتسلَّلُ إليها اللُّصوصُ من أيِّ موضعٍ يشاءون دونما عائقٍ ويُخْرِبونها ويحرقونها؛ هكذا أنت فيما تكون مُهْمِلاً وغير منتبِه لنفسك، تنقضُ عليك أرواحُ الشَّرّ وتُفْسِدُ عقلك وتخربه وتشتِّتُ أفكارك في هذا الدَّهر.

[ل] الشَّهْرُ عَلَى الْقَلْبِ وَتَعْهِدَهُ

٤٨ - فإنَّ كثيرين يُدَقِّقُونَ في الأمور الخارجية، ويتقنون العلم، ويعتنون بسيرة مستقيمةٍ، ويتوهمون أنَّ هذا هو الكمال، فلا يُعنون النَّظر داخل القلب ولا يرَون فيه الشُّرُورَ ثُكِّيمَ حصارها على النفس. لأنَّ الشَّرّ - بحسب معناه الباطن - هو جُذْرٌ ضارِّ في الأعضاء، واللُّصُّ - أعني القوَّةُ المعادية - متواجِدٌ في البيت، وهذه القوَّةُ قَوَّةٌ مُناوِئَةٌ وعاقلة. فما لم يَنصِبِ الإنسانُ جهادَهُ قُبَّالَةَ الخطيئةِ، ينساب الشَّرُّ الباطنُ رويدًا رويدًا ثمَّ يفيض

فيدفع الإنسان لاقتراف خطايا ظاهرة، فالشّرّ، كعين البشر، يَبعُ على الدّوام. فاصرف عنِيَّتك إذاً بأن تُوقِف تدفُقات الشّرّ، لكي لا تكون - فيما أنت ساقطٌ في ريواتِ من الشّرور - كمن هو في ذهول، ويكون حالك كحال إنسانٍ شريف الجنس، غَنِيٌّ، بلا هِمٍ، قد قَبضَ عليه خَدْمُ الحاكم وحَرَسُهُ، ومضوا به قائلين: «إِنَّكَ مُتَّهِمٌ بشَكْوَى، وتحت حكم الموت»، فمِنْ فَرَغَ الخير، أُسْقِطَ في يده وبات كمن ذَهَمَ ذهول.

٤٩ - فطَّبِقْ هذا أيضًا على أرواح الشّرّ، لأنَّ الذين في العالم المنظور - من الملوك إلى القراء - هم في اضطرابٍ وتشويفٍ وتناحرٍ، وليس منهم من يعلم العِلّة، التي هي الشّرّ الظَّاهِرُ الذي اتَّسَلَ بِواسطة معصية آدم، أي شوكة الموت. لأنَّ الخطيئة التي تسَلَّلت، وهي قوَّة عقليةٌ من الشَّيطان وعنصرٌ شَرِيرٌ، دَأَبَت أن تُبذر كلَّ الشّرور، وهي تَعْمَل - حُفَيْةً - في الإنسان الباطن وفي الذِّهن وتقاتل الأفكار. لكنَّ البشر لا يدرُون أَنَّهم يَقتَرِفُون هذه الأمور مسوقةين بقوَّة أخرى، بل يَظْنُون أَنَّها طبيعية وأَنَّهم إِنما يَصْنَعُونها من فكرهم؛ أمَّا الذين يَقْتَنُون سلامَ المسيح ونوره في ذهنهم، فإِنَّهم يَعْلَمُون مِنْ أين تُثُور هذه الأمور.

٥ - فإنَّ العالَم يتأمِّل ألم^(١) الشَّرّ وَهُوَ لَا يدرِي. فَإِنَّهُ توجَّد نَارٌ نَجْسَةٌ تُشعلُ القلبَ، وَهكذا تسرى إلَى كُلِّ الأَعْضَاءِ، وَتُرْغِبُ النَّاسَ فِي الْفَسقِ وَفِي رِبْوَاتِهِ مِن الشُّرُورِ. فَالَّذِينَ يَغْوَّنُونَ وَيَتَلَذَّذُونَ، يُتَمَّمُونَ التَّرَى داخِلِيًّا فِي الْقَلْبِ، وَهكذا لَمَّا يَرْتَعُ الشَّرُّ يَسْقُطُونَ فِي زَنِ ظَاهِرٍ. اعْتِرِّ ذَاتَ الْأَمْرِ أَيْضًا فِيمَا يَخْصُّ مُحَمَّدَ الْفَضَّةَ، وَالْجَحَدَ الْبَاطِلَ، وَالتَّصَلُّفَ، وَالْحَسَدَ، وَالْغَضَبِ. كَمْثَلُ أَنْ يُدْعَى أَحَدٌ إِلَى وَلِيمَةٍ وَتَوَضَّعُ أَمَامَهُ أَطْعَمَةً كَثِيرَةً، فَتَسْتَمِيلُهُ الْخَطِيئَةُ إِلَى أَنْ يَمْدُّ يَدَهُ إِلَى الْجَمِيعِ، وَهكذا توجَّد نَفْسُهُ الَّتِي تَلَدَّدَتْ بِهِذَا وَقْدَ نَاءَتْ بِجَمْلِهَا. فَالْأَهْوَاءُ إِنَّمَا هِيَ جَبَالٌ ثَقَالٌ فِي وَسْطِهَا أَنْهَارٌ تَنَانِيَّ وَوَحْشٌ مُسِّيَّهُ وَزَوْاحِفٌ، وَعَلَى مَثَلِ الْحَوْتِ يَتَلَعُّ إِنْسَانًا فِي بَطْنِهِ، هكذا الْخَطِيئَةُ أَيْضًا تَتَلَعُّ التُّفُوسُ. فَالْأَهْوَاءُ هِيَ لَهُبُّ نَارٍ تُحْرِقُ، وَسَهَامٌ مُلْتَهِبٌ لِلشَّرِّيرِ، لَأَنَّ الرَّسُولَ يَقُولُ: «إِنَّكُمْ نَقْدِيرُ أَنْ تُطْفَئُ سَهَامَ الشَّرِّيرِ الْمُلْتَهِبَةَ» (أف٦:٦ - حَسْبَ النَّصِّ)، فَإِنَّ الشَّرَّ قَدْ رَعَى فِي النَّفْسِ وَأَرْسَى أَسَاسَاتِهِ حَوْالَيْهَا.

٥١ - أَمَّا الْحَكَماءُ، فَمَتَى ثَارَتْ عَلَيْهِمُ الْأَهْوَاءُ لَا يَطِيعُونَهَا^(٢)، بل يَغْضِبُونَ عَلَى شَهَوَاتِهِمُ الشَّرِّيرَةِ وَيُنَاصِبُونَ أَنْفَسَهُمُ الْعَدَاءَ. لَأَنَّ لِلشَّيْطَانِ

(١) παθός - ألم، وجع، هوٰى كما ترجمت في المزارات الثلاثيّة وردت فيهـ في العهد الجديد (رو:١؛ ٢٦؛ كوك:٣؛ ٤؛ ٥) ويقصد بها جذر الخطية ومبدأها وأصلها.

(٢) انظر: رو:٦، ١٢، ١٦.

رغبةً عارمةً أن يستريح في النَّفْسِ ويَسْطُطُ جَنَاحِيهِ^(١)، بينما يتَمَلَّكُهُ الْكَرْبُ ويَضْيقُ ذَرْعًا حين لا تُطِيعهُ النَّفْسُ. فيوجدُ أَنَّاسٌ - إذ يَنالُونَ قُوَّةً مِنَ القدرةِ الإلهيَّةِ - حين يَرَوْنَ شَابًا مَعَ امرأة، وإنْ كَانَتْ تَنَاهُمُ أَفْكَارٌ، لَا يَتَدَنَّسُ عَقْلُهُمْ وَلَا يُكَمِّلُ الْخَطِيئَةَ دَاخِلَهُمْ، لَكِنْ حَتَّى مَنْ هُوَ هَكُذا لَيْسَ لَهُ أَنْ يُشَقِّ بِنَفْسِهِ. فَهُنَّاكَ آخَرُونَ قَدْ كَفَّتْ فِيهِمُ الْخَطِيئَةُ بِالْتَّمَامِ وَانْطَفَأَتْ وَجْهَتْ، غَيْرُ أَنَّ هَذِهِ الْقَامَاتِ هِيَ لِلْعَظَمَاءِ. فَكَمَا أَنَّ التَّجَّارَ يَنْزَلُونَ عُرَاءً إِلَى عُمَقِ الْبَحْرِ وَيَكُونُونَ عَلَى شَفَاعَةِ الْمَوْتِ غَرَقًا، لَكِيْنَما يَجِدُوا هُنَّاكَ لَا يَعْلَمُ فَيُرْصِعُوا بِهَا تَاجًا مَلْوَكِيًّا وَيُرْتَبُوا بِهَا أَرْجُوانًا؛ هَكُذا أَيْضًا الرُّهَبَانُ يَخْرُجُونَ عَرَاءً مِنَ الْعَالَمِ وَيَنْزَلُونَ إِلَى قَعْدَ بَحْرِ الشَّرِّ وَإِلَى جُحَيْثَةِ الظُّلْمَةِ، وَيَظْفَرُونَ مِنَ الْأَعْمَاقِ بِحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ وَيُصْعِدُونَهَا لِأَقْفَأَةِ بَتَاجِ الْمَسِيحِ وَبِالْكِنِيسَةِ السَّمَاوِيَّةِ وَبِدَهْرٍ جَدِيدٍ وَمَدِينَةٍ مُنِيرَةٍ وَحَشِيدٍ مَلَائِكِيًّا.

٥٢ - وَكَمَا أَنَّ أَصْنَافًا كثِيرَةً مِنَ السَّمَكِ تَسْقُطُ فِي الشَّبَكَةِ، فَيَطْرُحُونَ مِنْهَا مَا لَا نُفْعَ مِنْهُ أَخْرَى فِي الْبَحْرِ مُبَاشِرَةً؛ كَذَلِكَ أَيْضًا شَبَكَةُ النِّعَمَةِ تَسْطُطُ جَنَاحِيهَا^(٢) عَلَى الْجَمِيعِ وَتَطْلُبُ رَاحَةً، لَكِنْ بَنِي الْبَشَرُ لَا يُطِيعُونَ! مِنْ أَجْلِ هَذَا يُطْرَحُونَ مَرَّةً أُخْرَى فِي هُوَةِ الظُّلْمَةِ عَيْنَهَا. لَأَنَّهُ كَمَا أَنَّ

(١) من الفعل *spread over* = يُمْتد، يَسْطُطُ، يَنْشر.

(٢) استُخدِمَ أَنْبَاءُ مقارنةِ الفعل *éφapλόω* مع "النِّعَمة" ، في مقابل استُخدَامِه لذَاتِ الفعل في الفقرة السَّابِقةِ مَعَ الشَّيْطَانَ، لِيُبَرِّزَ عَمَلَ النِّعَمةِ الإيجابيِّ إِزَاءِ مَأْرِبِ الشَّيْطَانِ الْخَبِيثِ.

الذهب تُغسل منه كَمِيَّةٌ كبيرةٌ من الرَّمل لكيًّما توجد منه ذرَّاتٌ صغيرةٌ جدًّا، هكذا أيضًا من بين كثيرين، قليلون هم الَّذين يُرَكِّبون. فالَّذين لمْ عمل الملكوت هم ظاهرون، وكذا الَّذين يُزَيَّنون كلامهم^(١)؛ والمُصلحون بالملح السَّماويِّ الَّذين من كنوز الرُّوح القدس يتَكَلَّمون، هم كذلك ظاهرون؛ فالأنية الَّتي يُسْرُّ بها الله وينجذب إليها نعمته هي ظاهرة. وهناك آخرون أيضًا يَقْبِلُون بعد صِيرِكثيرِ القوَّةِ المقدِّسةِ، بطرق شَتَّى كما يشاء الله. فالذِّي يتَكَلَّمُ، إِنْ لَمْ يَكُنْ مُفْتَادًا بنورِ سماويِّ وحكمة، لا يمكنه أن يقنع عقلَ كُلِّ أحدٍ، لأنَّ نِيَّاتَ النَّاسِ كثيرة، فقومٌ في حربٍ وآخرون في راحة.

٥٣ - فكما حينما تكون هناك مدينةٌ خربةٌ ويريد أحدٌ أن يُعيد بناءها، فإنه للوقت يطرح تماماً ما تَهْدُم وسقط ثم يبدأ في الحفر ويضع الأساسات حيث حفرَ ويصعد بالبناء، بينما لا يكون هناك بيتٌ بعد؛ والَّذِي يروم أن يصنع فردوسًا في مواضع قاحلةٍ وئنةٍ، يبدأ أولاً في أن ينْقِيَها ويحيطها بسياج ويهبِّئُ قنواتٍ، وعندئذٍ يغرس ثم تنمو الأغراض وبعد زمانٍ طويل يأتي الفردوسُ بشرٌ؛ كذلك أيضًا نِيَّاتُ البشر من بعد التَّعدي هي مجدهُ ومُقفرةٌ وملوءةٌ أشواكاً، لأنَّ الله قال للإنسان: «شَوَّكَا وَحَسَّكَا ثُبِّثُ لَكَ الْأَرْضَ»

(١) ورد الضمير في PG 34, 612 B عائدًا على الملكوت: "كلامه" (PG 34, 612 B).

(نك ٣: ١٨). فالحاجةُ إِذَا إِلَى جَهْدٍ وَتَعْبٍ كَثِيرٍ، لَكِي يَفْتَشَ الإِنْسَانُ عَنِ الْأَسَاسِ وَيَحْتَفِظُ بِهِ، إِلَى أَنْ تَأْتِيَ إِلَى قُلُوبِ الْبَشَرِ نَارٌ تَأْخُذُ فِي تَنْقِيَةِ الْأَشْوَاكِ^(١)، وَهَكُذا يَبْدَأُونَ فِي أَنْ يَتَقَدَّسُوا مُجَدِّدِينَ الْآبَ وَالْابْنَ وَالرُّوحَ الْقَدِيسَ إِلَى الدُّهُورِ، آمِينَ.

(١) يُورِدُ أَبُوا مقارُ هُنَا النَّارَ الْمُقَدَّسَةَ (نَارُ الرُّوحِ الْقَدِيسِ)، فِي مُقَابِلِ النَّارِ التَّجَسِّسَةِ (نَارُ الْأَهْوَاءِ) الَّتِي ذَكَرَهَا آنِئَةً فِي الْفَقْرَةِ الْأُولَى، ٥.

العظة السادسة عشرة

ما تزرعه النفس إياها تحصد

[في أن الآنام الروحانية يتعرضون لتجارب وشدائد جراء الخطيئة الأولى]

- [أ] حرية اختيار النفس للخير أو الشر
[ج] اقتضاء الرَّبُّ هو تجارة النفس الراحة
[ب] تواجد نعمة الله في النفس الخاطئة
[د] يلزم ألا يفارق خوف الله قلوبنا



[١] حرية اختيار النفس للخير أو الشر

١ - إنَّ كُلَّ الْجَوَاهِرِ الْعُقْلِيَّةِ، أَعْنِي تِلْكَ الَّتِي لِلْمَلَائِكَةِ وَالنُّفُوسِ وَالشَّيَاطِينِ، قَدْ خَلَقَهَا الْبَارِئُ عَدِيمَ الشَّرِّ وَغَايَةً فِي الْبَسَاطَةِ. أَمَّا عَنْ جُنُوحِ بَعْضِ مِنْهَا إِلَى الشَّرِّ، فَقَدْ صَارَ ذَلِكَ لَهُمْ بِحِرَبَةٍ إِرَادَتِهِمْ الْخَاصَّةَ قَدْ حَادُوا عَنِ الْفَكَرِ الْلَّائِقِ. لَكِنْ إِنْ كُنَّا نَقُولُ إِنَّ الْبَارِئَ قَدْ خَلَقَهُمْ هَكُذا، فَنَحْنُ بِهَذَا نَصِيمُ اللَّهَ بِالظُّلْمِ لِأَنَّهُ يَرْسِلُ الشَّيْطَانَ إِلَى النَّاسِ. فَإِنَّ قَوْمًا مِنَ الْمَرَاطِقَةِ يَرْعُمُونَ أَنَّ الْمَادَّةَ أَرْزِلَّةٌ وَالْمَادَّةُ هِيَ الْأَصْلُ، وَهَذَا الْأَصْلُ هُوَ قَوَّةٌ ذَاتٌ قَدْرَةٌ مُعَادِلَةٌ (تِلْكَ الَّتِي لِللهِ)، فَلَكَ - عَنْ صَوَابٍ - أَنْ تَرُدَّ عَلَى هَذَا الرَّعْمِ قَائِلًا: "فَأَيُّ الْقَوْتَيْنِ فِي النِّهَايَةِ يَكُونُ لَهَا الْعَلَيْةُ"؟ بِالضَّرُورَةِ تِلْكَ الَّتِي لِللهِ، وَعَلَى هَذَا فَالَّتِي انْغَلَبَتْ لَا تَكُونُ بَعْدُ مُسَاوِيَةً فِي

الزَّمْنَ وَلَا مِعَادِلَةً فِي الْقَدْرَةِ. فَالَّذِينَ يُنَادِونَ بِأَنَّ لِلشَّرِّ وَجُودًا جَوْهِرِيًّا لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا، لِأَنَّهُ لِيُسَّ هُنَاكَ وَجُودٌ جَوْهِرِيٌّ لِلشَّرِّ عِنْدَ اللَّهِ بِسَبِيلِ كِيَانِهِ الْإِلهِيِّ الْمُبِرِّئِ مِنَ الْأَوْجَاعِ، أَمَّا فِينَا نَحْنُ فَالشَّرُّ يَعْتَمِلُ بِكُلِّ قُوَّةٍ فِي جَمِيعِ حَوَاسِنِنَا، حَاضِرًا عَلَى سَائِرِ الشَّهَوَاتِ الْأَثِيمَةِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَمْتَنِجُ بَنَا امْتِزَاجُ الْخَمْرِ بِالْمَاءِ، عَلَى مَا يَدْعُونَ بَعْضَهُ، بَلْ كَمَا فِي حَقْلٍ وَاحِدٍ تَكُونُ الْخَنْطَةُ عَلَى جِدَّهَا وَالْزَّوَانَ عَلَى جِدَّهِ، وَكَمَا فِي بَيْتٍ يَكُونُ الْلِّصُّ فِي جَانِبِ وَسِيدِ الْبَيْتِ فِي جَانِبِ آخَرِ.

٢ - فَقَدْ يَكُونُ هُنَاكَ بَئْرٌ يَبْعِيْعُ مَاءً صَافِيًّا، غَيْرَ أَنَّ طَيْنًا يَرْسُبَ فِي قَاعِهِ، فَحَالَمَا يَحْرِكُ أَحَدُ الطِّينِ يَتَعَكَّرُ كُلُّ الْبَئْرِ؛ هَكَذَا النَّفْسُ أَيْضًا حِينَما تَضَطَّرُ تَعَكَّرُ بِالشَّرِّ وَمَتَنِجُ بِهِ، وَيَصْبِعُ الشَّيْطَانُ مَعَ النَّفْسِ - كَوْنَهُمَا رُوحَيْنَ - شَيْئًا وَاحِدًا فِي اقْتِرَافِ الرِّذْنِ أَوِ الْقَتْلِ، لِأَجْلِ هَذَا «فَالَّذِي يَلْتَصِقُ بِرَازِيَّةِ هُوَ جَسَدٌ وَاحِدٌ»^(١). بَيْدَ أَنَّهُ فِي سَاعَةٍ أُخْرَى تَكُونُ النَّفْسُ مُوجَوَّدَةً عَلَى جِدَّهَا، فَتَنِدمُ عَلَى مَا اقْتَرَفَتْهُ وَتَبْكِي وَتَصْلِي وَتَتَذَكَّرُ اللَّهُ. فَلَوْ كَانَتِ النَّفْسُ غَائِضَةً فِي الشَّرِّ كُلَّ حِينٍ، فَمِنْ أَيْنَ لَهَا أَنْ تَصْنَعَ هَذَا، وَالشَّيْطَانُ لَا يَرِيدُ أَبَدًا أَنْ يُقْبِلَ النَّاسُ إِلَى التَّوْبَةِ لِأَنَّهُ بِلَا رَحْمَةٍ؟ فَالْمَرْأَةُ، عَلَى قَدْرِ مَا هِي مَرْتَبَةٌ بِالرَّجُلِ تَصْرِيرُ وَاحِدًا مَعَهُ، لَكَنَّهُمَا فِي سَاعَةٍ أُخْرَى يَكُونُانَ

(١) ٦ : ١٦ .

منفصلين، إذ كثيراً ما يعرض أنْ يموت أحدهما فيما يظلُ الآخر حيّاً؛ هكذا شيءٌ من هذا القبيل يكون في شرِكةِ الرُّوح القدس، إذ يصبح الرُّوح القدس والنَّفْسُ واحداً، «لِأَنَّ الَّذِي يُلْتَصِقُ بِالرَّبِّ هُوَ رُوحٌ وَاحِدٌ»^(١)، أمّا هذا فيحدث حينما ينغمِرُ الإنسان في التَّعْمَةِ عينها.

[ب] تواجد نعمة الله في النَّفْسِ الْخَاطِئَةِ

٣ - فإنَّه يوجد البعض مِنْ قد تَعمَوا بمذاكِفةِ الله، لا يزال يعمل فيهم المقاوم، وهم - إذ لا خبرةٌ لهم - يأخذُهم العَجَبُ كيف بعد افتقاد الله تعتمل فيهم أفكارٌ ضدَّ أسرارِ المسيحية، وأمّا الَّذِينَ تَرَسَّوا على هذه الأمور فلا يستغربون. وكما أنَّ المزارعين المُحْكَمِينَ من كثرة الاعتياد، حين يصير خصبٌ لا يطمئنُون بالثَّمام بل يتوقَّعون أيضًا الوباء والضيق، وكذلك حين يدركُهم وبأَوْ ضيق لا يفقدون الرَّجاء بالكلِّية عالمين بتغيير الأمور؛ هكذا أيضًا في العالم الروحي: فحينما تكتفِ النَّفْسُ بِتَحْارُبِ متنوِّعة، فإِنَّما لا تستغرب ولا تفقد رجاءَها، لأنَّها تعلم أَنَّها تُترك بسماحٍ (من الله) لكيما تتَرَكَ وتوَدُّبَ من الشَّرِّ، وكذلك حينما تغدو في غَنَى روحانيٍّ جزيلٍ وراحة، لا تطمئنَ بل تتوقع تَبَدُّلَ الحال. والشَّمسُ، وإنْ تكن ماديَّةً ومخلوقةً، حين تشرق على الموضع المُتَنَّيةَ حيث الوحل والقاذورات، لا يُضيرها هذا في

(١) كوك: ٦: ١٧.

شيء ولا تنجز؛ فكم بالحرى الرُّوح القدس النَّقِي الملازم للنَّفْس الَّتِي لا يزال الشَّرُّ يعتمل فيها، فإنَّ شيئاً من هذه الأمور لا يُدخله، لأنَّ «النُّورُ يُضيئ في الظُّلْمَةِ، والظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ»^(١).

٤ - ففيما يكون الإنسان في عمق النِّعمة وغناها، لا تزال فيه بقية من الشَّرِّ، إلا أنَّ ناصره يكون له معييناً. لذلك فحين يكون أحد في ضيقاتِ وأهواءِ عاصفة، فينبغي له ألا يفقد رجاءه، وإنَّ فسوف تستشري الخطية بالأكثر وتتوغل؛ أمَّا حين يكون لأحد رجاءٍ في الله على الدَّوام، فالشَّرُّ يصبح وكأنَّه يتضاءل ويضعف. فأنْ يكون هناك أناسٌ مفلوجون أو مشوهون، مشتعلون بالحُمَّى أو مَرْضٍ، فهذا قد صار بسبب الخطية لأنَّها هي أصلٌ لكلِّ الشرور، ومنها تتبع أهواءُ شهواتِ النَّفْسِ والأفكار التَّشَرِّيبة. كمثل أنْ يكون هناك متهلل دافق وإلى جواره مستنقعات رطبة، فإذا ما صار حَرًّا فالمتهل نفسه سيجفُّ وكذا الموضع المتاخمة له؛ هكذا أيضاً بالنسبة إلى عبيد الله الذين تفيض عليهم^(٢) النِّعمة، فإنَّها تُحَقِّف الشَّهوة الَّتِي من التَّشَرِّير وكذا تلك الطبيعية، لأنَّ رجال الله الآن هم أعظم من آدم الأوَّل.

(١) يو ١: ٥.

(٢) الفعل πλεονάει يعني أن يرداد الشيء جداً أكثر من الحاجة (more than enough).

وقد ورد مرتبطاً بالنِّعمة في رو ٦: ٤١ ك٢: ١٥.

٥ - فالله لا يُحذّ ولا يُدرك، وهو ظاهر في كلِّ مكان: في الجبال وفي البحر وأسفل المهاوية، لكنْ دون أنْ يُغيّر موضعه مثلما تفعل الملائكة في نزولها من السَّماء إلى الأرض، لأنَّه كائنٌ في السَّماء وهنا أيضًا. لكنك سوف تسألي: ”كيف يمكن لله أن يكون في جهنّم، أو كيف يمكنه أن يكون في الظلمة، أو في الشَّيطان، أو في الأماكن المُنْتَهَى؟“ فأجيبك أنا أيضًا بأنَّ الله مُبَرِّأً من الآلام وأنَّه يحوي كلَّ الأشياء لأنَّه غير محدود، أمَّا الشَّيطان فلكونه خليقته فهو مُقيَّد، فإنَّ ما هو صالحٌ لا يتنجس ولا تغشاه ظلمة. أمَّا إنْ كنت تُفْعِلُ القولَ بأنَّ الله يحوي كلَّ الأشياء، وضمنًا جهنّم والشَّيطان، فأنت بهذا تُحَدِّدُ خارج ذلك الموضع حيث يكون الشَّرِير، حتَّى نطلب - إذ ذاك - إلَّا آخرَ أفضل منه!! لأنَّه من الضَّرورة بمكان أنْ يكون الله في كلِّ موضع، وأمَّا الظلمة فلئن تكن محتوةً فيه، لكنَّها لا تطاله بسبب سرّ لاهوته وتترفَّعه عن المادة؛ والشَّرُ كذلك - وإنْ يكن هو أيضًا محتوى فيه - ليس بمستطيع أنْ يصيب نقاوته، فإنَّ شيئاً من الشَّر لا يوجد عند الله، إذ إنَّه لا يتضرَّر من شيء.

٦ - أمَّا فيما نحن، فالشَّرُ موجود بواسطة سكانه في القلب وعمله فيه، إذ يُوعِزُ بأفكارٍ شريرة أثيمة، ولا يدعُنا نصلِّي بنقاوة بل يسيء العقل إلى

هذا الدّهر. فلقد لِبَسَ النُّفوسُ، بل وَبَلَغَ إِلَى الْعِظَامِ وَالْمِخَاجِ^(١). فكما أَنَّ الشَّيْطَانَ مُوْجَدٌ فِي الْهَوَاءِ، وَاللَّهُ مُتَوَاجِدٌ مَعَهُ دُونَ أَنْ يَتَضَرَّرَ فِي شَيْءٍ؛ هَكُذَا فِي النُّفُوسِ أَيْضًا تَوْجِدُ الْخَطِيَّةُ، وَتَكُونُ نِعْمَةُ اللَّهِ حَاضِرَةً مَعَهَا وَلَا يُضَيِّرُهَا هَذَا فِي شَيْءٍ. كَمِثْلِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ عَبْدٌ إِلَى جَوَارِ سَيِّدِهِ، فَلَأَنَّهُ فِي كُلِّ حِينٍ قَرِيبٌ جَدًّا مِنْهُ، يَكُونُ فِي خَوْفٍ وَلَا يَفْعُلُ شَيْئًا مِنْ دُونِهِ؛ هَكُذَا نَحْنُ أَيْضًا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُسْلِمَ أَفْكَارَنَا لِسَيِّدِنَا الْمَسِيحِ الْعَارِفِ الْقُلُوبَ^(٢) وَنُظُهُرُهَا لَهُ، وَيَكُونُ لَنَا فِيهِ رِجَاءٌ وَثَقَةٌ قَائِلِينَ ”إِنَّهُ هُوَ غَنِيٌّ، وَهُوَ أَيْمَانٌ، وَهُوَ مَجْدِي“، فَلَذِلِكَ يَتَوَجَّبُ عَلَيْكَ دَائِمًا أَنْ تَقْتَنِي فِي ضَمِيرِكَ اهْتِمَامًا وَحْشَيَّةً. أَمَّا إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَيْسَ لَهُ نِعْمَةُ اللَّهِ مَغْرُوسَةً وَرَاسِخَةً فِي ذَاتِهِ، حَتَّى إِنَّهَا تَكُونُ مِثْلَ شَيْءٍ طَبِيعِي مُلْتَصِقٌ بِنَفْسِهِ لِيَلِ نَحَارٍ يَقُودُهُ كُلَّ حِينٍ وَيَوْقَطُهُ وَيَفْضُدُهُ نَحْوَ الصَّالَاتِ، فَلَيَكُنْ لَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ اهْتِمَامٌ وَخَوْفٌ وَوَجْعٌ، كَأَمْرٍ طَبِيعِي لَا يَتَغَيِّرُ، وَكَذَا انسَحَاقٌ قَلْبٌ رَاسِخٌ عَلَى الدَّوَامِ.

(١) وردت في PG 34, 617 A: μέλῶν = أعضاء، بدلاً من "μελῶν" = مخاج.

(٢) ونجده مررتين: في آع ١: ٤٢٤؛ ٨: ١٥.

[ج] اقتناه الرب هو تجارة النفس الرابحة

٧ - كما أن النحله تصنع أقراص العسل في الخفاء في الخلية، هكذا أيضًا النعمة تُنشئ في الخفاء داخل القلوب محبيها الخاصة بها، وتحول القلوب من المراة إلى الحلاوة ومن القساوة إلى اللطونة. فعلى غرار الصائغ والنحات ينخش على صفيحة فيعطي جزئياً الصور المختلفة التي ينشها، وحينما يفرغ منها يظهرها حينئذ للنور لامعة؛ هكذا الرب أيضًا، الفنان^(١) الحقيقي، ينخش على قلوبنا ويجددها خفيةً، إلى أن تتغرب عن الجسد^(٢)، وحينذاك يتَكَشَّف جمال النفس. فالذين يريدون أن يصنعوا أوابي وينقشوا عليها أشكالاً، يصوغون أولاً قالبًا في الشمع ثم يصيّبون الأوابي طبقاً لذلك القالب حتى يكتمل العمل بحسب هذا الشكل؛ هكذا أيضاً الخطيئة - وهي من الأمور الروحية - لها صورة معينة، وتغير نفسها (بدءاً من هذه الصورة) إلى أشكال كثيرة؛ بالمثل أيضاً الإنسان الباطن هو شكل ما، له صورته ومنظره، لأن الإنسان الباطن مشابه للإنسان الخارج، فهو إِنَاء عظيم وكريم، لأنَّه من بين جميع الخلق قد سرَّ الربُّ به. فالأفكار الصالحة التي للنفس تشبه أحجاراً كريمة ولآلئ، أما الأفكار النجس فهي مملوءة عظام أموات وكل نجاسة وتن.

(١) τεχνίτης = مهندس، فنان، وقد قيلت عن الله في عب ١١: ١٠ «...المدينة التي صانُّوها وبارِّوها الله»، (انظر كذلك: تذاكيَّة الأرباع - القطعة الثالثة - الربع الثاني).

(٢) انظر: ٢ كو ٥: ٨.

٨ - فالمسيحيون إنّا هم من دهرٍ آخر، أبناءُ آدم السّماوي، جنسٌ جديد، أولاد الرُّوح القدس، إخوةٌ منيرون للمسيح، مشابهون لأبيهم آدم الروحاني المنير؛ هم من تلك المدينة ومن ذلك الجنس ومن تلك القوّة. هم ليسوا من هذا العالم بل من عالم آخر، لأنّه هو نفسه يقول: «لَسْتُم مِنْ هَذَا الْعَالَمَ، وَأَنَا لَسْتُ مِنْ هَذَا الْعَالَمَ» (يو ١٧: ١٦) - حسب النّصّ. ولكنّ كما أنّ التّاجر حين يرّوّب من إقامته في مواضع متعدّدة وقد تضاعفت تجارتة، يرسل إلى ذويه وأقاربه لكيّما تقام له المنازل والبساتين ويُعَدُّ له ما يلزم من الثّياب؛ وحين يعود^(١) إلى خاصّته، يجلب حينذاك غَيْرَ جزيلاً، ويَقْبِلُه أهله وأقاربه بفرح عظيم؛ هكذا أيضًا في الأمور الروحية، إنْ كان قومٌ يتّجرّون في الغنى السّماوي، فإنْ أهل مدحّتهم^(٢)، أي أرواح القديسين والملائكة، يَعْلَمُون هذا ويعجّبون قائلين: ”إلى هذا الغنى العظيم بلغ إخوتنا الذين على الأرض“! فإِنَّمَّا (هؤلاء التّجار الروحانيون)، إذ يقتلون ربّ^(٣) معهم عند الخال لهم^(٤)، يمضون بفرح عظيم إلى الذين في العلاء

(١) من الفعل *ἀναλύω* الذي يعني بمحض اللّفظ: يَعْلَمُ أو يَتّكل (شيئاً) متّه أخرى، وبمازٍ: يرحل أو يغادر المكان (بأنْ يتكلّل أو يفلّك المرساة أو أتواند الخيمة استعداداً للرّحل). ويأتي كذلك بمعنى يرحل من هذه الحياة، وبهذين المعنيين ورد هذا الفعل في العهد الجديد: لو ١٢: ٣٦: «...مَتَى يَرْجِعُ مِنَ الْعُزُّ»؛ في ١: ٢٣: «...لِي اشْهَدَ أَنْ أَنْطَلَقُ».

(٢) *συμ-πολιτης*، انظر: حاشية ١ صفحه ٢٥٦ - العلة ١٢.

(٣) أي أنَّ ربّ نفسه هو الغُيُّ الذي ربحه هؤلاء التّجار الروحانيون في غريتهم على الأرض.

(٤) أي موضع، وكلمة *ἀναλύσις* (ومنها كلمة *analyse*، *analyse* بالفرنسية والإنجليزية)

حيث يستقبلهم هناك خواصُ الرَّبِّ وقد أَعْدُوا لهم منازلَ وبساتينَ وثياباً كاملةً البهاء غالياً الثمن.

[د] يلزم ألا يفارق خوف الله قلوبنا

٩ - فالحاجة ماسةٌ إِذَا إلى الاعتدال في كُلِّ شيءٍ، لكي لا تقلب حَقَّ الصَّالِحَاتِ الَّتِي نظَرْنَا نفتيها لضررنا. لأنَّ الَّذِينَ بطبعتهم لطفاء، إنْ لم يحرسوا أنفسهم، فبهذا اللطف عينه يُجْزَون شيئاً فشيئاً إلى أسفل؛ والَّذِينَ يحوزون الحكمة، بهذه الحكمة نفسِها يُسرقون. فيتوجّب على الإنسان إِذَا في كُلِّ الأمور، أن يمزج اللطف مع الصراامة، والحكمة مع التمييز، والكلمة مع العمل، والاتِّكال بالكلية على الرَّبِّ مع عدم الاتِّكال على ذاته. لأنَّ الفضيلة تُصلح بأنواعٍ شتَّى، كما أنَّ أي طعامٍ ممَّا هو لازمٌ للحياة يُصلح بالتَّوابل أو بأشیاء أخرى، وذلك ليس بالعسل فقط، بل وبالفُلُفُل أيضاً، وهذا يصبح نافعاً.

١٠ - فالَّذِينَ ينادون بأنَّ ليس خطيئةً في الإنسان هم أَشَبَّهُ بمن قد طَمَت فوقهم سيلٌ مياهٌ كثيرة، ولا يعترفون بهذا، بل يقولون: "نحن سمعنا

المستخدمة هنا هي من ذات الفعل *avardu* الذي استخدمه أَنْبَى مقار في المثل الَّذِي ساقه - والَّذِي أشرنا إليه سابقًا في حاشية سالفة - وهنا تأتي بالمعنى الجازئي الثاني، أي الموت ومغادرة هذه الحياة، وبهذا المعنى وردت هذه الكلمة مرتَّة وحيدة في العهد الجديد: ٢: ٤: ٦ «وَوَقَتْ أَغْلَالِي قُدْ حَضَرَ».

صوت مياه“ !! هكذا مع كونهم هم أيضًا غرقى تحت عمق أمواج الشّرّ، لا يقرؤون بأنّ الخطيبة في أذهانهم وأفكارهم. فأولئك الذين لهم الكلمة يلوكونها بأسنتهم وهم غير مصلحين بالملح السّماوي، ويتحذّلون عن المائدة الملوكية مع كونهم لم يأكلوا منها ولا حاروها، يختلف حالمهم عنّي يشاهد الملك ذاته، وتفتح له الكنوز، فيدخل ويرث ويأكل ويشرب من تلك الأطعمة الكثيرة الثّمن.

١١ - كما لو أنّ هناك أمّا لها ابنٌ وحيدٌ جميلٌ الصُّورة جدًا وحكيمٌ ومُزدانٌ بكلِّ الصّالحات وقد عقدت عليه كلَّ آمالها، ثمَّ حدثَ أحنا دفتنه بيديها، فإذا ذاك يستولي عليها وجع لا ينقطع وحزن لا يمازجه عزاء؛ هكذا الفكر أيضًا، حينما تموت النّفس عن الله، يجب أن يحمل حزنًا ودموعًا ووجعًا لا ينقطع، ويقتني له قلبًا منسحقًا، ويصير تحت خوفٍ واهتمام، ويكون له على الدّوام جوعٌ وعطشٌ لما هو صالح. مثلُ هذا الإنسان تَلَاقَهُ نعمَةُ الله ورجاؤه، فلا يقع بعدُ في مثل هذا الوجع بل يفرح كمن وجد كنزًا، إلَّا أنه لا يبرح مرتعًا حشبيًّا أنْ يُضيّعه إذا ما هاجنته لصوصٍ. كمثل إنسانٍ إذا ما كابد التراماتٍ وخسائرٍ كثيرةٍ ونجا منها بعد جهدٍ جهيدٍ، ثمَّ بعد ذلك حصل على غنىٍ عظيمٍ وثروةٍ وفيّة، فإنه لا يعود يخشى خسارةً بعدُ بسبب جزيل غناه الفاينض؛ هكذا الرّوحانيون أيضًا، فإنّهم

يحتازون أولاً في تجارب عديدة ومواضع مخيفة، ثمَّ بعد ذلك حينما يمتلكون نعمةً وفيضون بالصالحات، لا يعودون يخافون بعدُ منَ الذين يتغرون سرقهم، وذلك لأنَّ غناهم لم يعد يسيرًا. على أنَّ خوفاً لا ينفكُ مُنبثِّا فيهم، لا خوف المبتدئين من الأرواح الشَّرِّيرة، بل خوفٌ واهتمامٌ كيف يتصرّفون إزاء ما استؤمنوا عليه من مواهبٍ روحية.

١٢ - مثلُ هذا الإنسان تكون ذاته محقرةً عنده أكثر من جميع الخطأ والمنحلّين، وبقدر ما ينغرم في نور النّعمة تكون نفسه عنده فقيرة ومسكينة في كلِّ شيءٍ أكثر من جميع الخطأ، ويكون له مثلُ هذا الفكر مغروساً في نفسه كأمرٍ طبيعيٍ. وكلَّما يدخل إلى معرفة الله يكون عند نفسه جاهلاً؛ وعلى قدر ما يتعلم يكون وكأنَّه ما عرف شيئاً؛ أمّا هذه الأمور فتُتممُها النّعمة العاملة في النفس وكأنَّها أمور طبيعية. كمثل أن يكون هناك صبيٌ يحمله شابٌ، وذلك الشَّابُ الحامل له يسوقه أينما يشاء؛ هكذا أيضاً النّعمة العاملة في الأعمق تحمل الفكر وتُصعدُه إلى السَّماءات، إلى العالم الكامل، إلى الرَّاحة الأبديّة. ولكنْ في النّعمة نفسها توجد قاماتٌ ومراتب، فهناك فارقٌ بين قائد الجيش الذي له حظوة لدى الملك وبين الوالي. كمثل بيتٍ مملوءٍ دُخانًا حتى إنَّه يُسْرِيه إلى الهواء خارجاً، هكذا الحال أيضاً للنفس الممتلئة شرّاً، فإنَّ الشَّرَّ يندفع إلى خارج ويصنع ثراً. فكما أنَّ الذين قد وُكلُّ

إليهم ولاية مقاطعة أو استودعوا كنوزاً ملوكيّة يكونون كلّ الوقت في اهتمامٍ لئلا يغضّبوا الملك، هكذا أيضًا الذين استُؤمِّنا على عملٍ روحانيٍّ يكونون كلّ حين في اهتمام، ورغم كونهم في راحةٍ يصيرون وكأنّ لا راحة لهم، ذلك أنَّ مملكة الظلمة التي غَرَّت المدينة أَيِّ النَّفْس، والبرابرة الذين احتلُّوا مرعايَّها لا بُدَّ أن يُطَرَّدوا منها.

١٣ - فِيَّانَ الْمَلَكُ الْمُسِّيْحُ يَرِسِّلُ لِإِنْقَادِ الْمَدِينَةِ، وَيَقِيدُ الظَّالِّمِينَ، وَيَأْتِي بِقِيَادَةٍ سَمَاوِيَّةٍ وَبِأَجْنَادٍ مِّنْ أَرْوَاحٍ قَدِيسَةٍ وَيُسْكِنُهَا هُنَاكَ كَمَا فِي وَطْنِهَا الْخَاصِّ. وَفِي التَّهَايَا تَضَيِّءُ الشَّمْسُ فِي الْقَلْبِ وَتَنْطَلِقُ أَشِعَّتُهَا سَرِيعًا إِلَى كُلِّ الْأَعْضَاءِ، وَهُنَالِكَ أَخْبِرًا يَعْمُلُ سَلَامًا عَمِيقًا. وَأَمَّا جَهَادُ الْإِنْسَانِ وَنَضَالُهُ وَامْتَحَانُهُ وَنِيَّتِهِ الصَّالِحةِ مِنْ نَحْوِ اللَّهِ، فَهَذِهِ تَتَجَلِّي حِينَ تَنْحَسِرُ التِّعْمَةُ، فَيَتَصَرَّفُ بِرْجُولَةً وَيَصْرُخُ نَحْوَ اللَّهِ. وَلَكِنَّ حِينَ تَسْمَعُ أَنْتَ أَنَّ هُنَاكَ أَخْبَارٌ تَنَانِينَ، وَأَفْوَاهُ أَسْوَدَ، وَقَوَافِتُ مَظْلَمَةٍ تَحْتَ السَّمَاءِ، وَنَارًا مَسْتَعْرَةً وَمَتَاجِّحةً فِي الْأَعْضَاءِ، أَتَعْدُ هَذَا كَلَا شَيْءًا، غَيْرَ عَالِمٍ أَنَّهُ مِنْ دُونِ قَبْوِلَكَ لِعَرَبِيْونَ الرُّوحِ الْقَدِسِ، يُمْسِكُونَ نَفْسَكَ وَقَتَّ خروجَكَ مِنَ الْجَسَدِ وَلَا يَدْعُونَكَ تَصْعُدُ إِلَى السَّمَاوَاتِ؟ هَكَذَا أَيْضًا حِينَ سَمَاعُكَ عَنْ كَرَامَةِ النَّفْسِ، وَكَمْ أَنَّ الجَوْهَرَ الْعُقْلَيَّ^(١) هُوَ ثَمَنٌ، أَمَّا تَفْهِمُ أَنَّ قَوْلَهُ «فَلَنْ تُصْنَعَ عَلَى صُورَتِنَا

(١) *oὐοῖα νοερά* = الجوهر العقلاني (انظر: حاشية ١ صفحة ٢٣٠ – العضة ٩).

كَشَبَهُنَا» (تك ١: ٢٦ - حسب النَّصّ)، لا يقصد به الملائكة بل الطَّبيعة البشرية، وأنّ «السَّمَاءُ وَالْأَرْضَ تَرْوَلَانِ»^(١)، أمّا أنت فِإِنَّمَا دُعِيْتَ للخلود ولتكون ابْنًا وأخًا وعروسًا للملك؟ لأنّه في الأمور المنظورة كُلُّ ما هو للعریس فهو للعروس؛ كذا كُلُّ ما هو للرَّبِّ، أيًّا كان، فِإِنَّه يأْتِنَّكَ عليه. لأنّه قد جاءك بذاته ليُشفِّع^(٢) فيك، لَكِنْمَا يَدْعُوكَ ثانيةً. وأنت أَفَمَا تعي وتفهم سُمُّوَّ مِنْزَلَتَكِ؟! لَذِكَرِ فِعْدِيلٍ يَرَثِي سقوطَكَ المُرِتَّلِ الْأَبْسُرُ الرُّوح قائلًا: «إِنْسَانٌ فِي كَرَامَةٍ وَمَمْ يَفْهَمُ، فَقَدْ مَاثَلَ الْبَهَائِمَ الَّتِي لَا عَقْلَ لَهَا وَشَابَهَهَا» (مز ٤٨: ٢١ س)، والْمَجْدُ لِلْأَبْ وَالْأَبْنَ وَالرُّوحُ الْقَدْسُ إِلَى الدُّهُورِ، آمين.

(١) لو ٢١: ٣٣.

(٢) πρεσβειανُ - شفاعة» (انظر: حاشية ١ صفحة ٣١٥ - العظة ١٥).

العظمة السابعة عشرة

إطلاة النفس على الحياة الأبدية

[من مسحة المسيحيين الروحانية ومجدهم، وأنه بدون المسيح لا يمكن الخلاص أو الشركة في الحياة الأبدية]

[ج] ملوكوت الله بالعمل لا بالكلام

[أ] عربون الحياة الأبدية في هذا الدهر

[د] المسيح، لا غير، هو "الطريق"

[ب] النفس يتنازعها الصلاح والشر



[أ] عربون الحياة الأبدية في هذا الدهر

١ - إنَّ المسيحيين الكاملين الَّذِين حُسِبُوا أهلاً لِأنْ يبلغوا درجاتِ الكمال ويصيروا أكثر ذُنُوحاً من المَلِك، هؤلاء يكونون كُلَّ حين مُكَرَّسين لصليب المسيح. لأنَّه كما أنَّ المسحة في زمان الأنبياء كانت أكثر كرامةً من كُلِّ ما عدَها، لأنَّهم كانوا يُمسحون بواسطتها ملوِّغاً وأنبياء؛ هكذا الرُّوحانُيون الآن، الممسوحون بالمسحة السُّماوية، يصيرون مسحة بحسب النعمة، حتى إنَّهم يصبحون ملوِّغاً وأنبياء للأسرار السُّماوية. هؤلاء يكونون أبناء وأرباباً وآلهة، مربوطين ومسورين ومغموريين ومصلوبين ومكرَّسين. فإنْ كانت مسحة الرَّبِّيت، وهي من ثُبُتِ ظاهراً

و شجرة منظورة، قد صار لها من القدرة بحيث إن الممسوحين بها ينالون بلا مرأء مرتبة جليلة - إذ قد بات يقيناً أنهم هكذا يقاومون ملوكاً، الأمر الذي تحقق أيضاً في داود الذي بعدما مُسح ضيق عليه للحال واضطهد، ولكن بعد سبع سنين أصبح ملكاً - فكم بالحربي جميع الذين يمسحون في فكرهم وإنساحم الباطن بزَيَّت البهجة المقدِّس المُفْرَح السَّماوي الروحاني، يقبلون سَمَّة ذلك الملوكوت غير الفاسد والقدرة السُّرْمَدِيَّة، يقبلون عَرْبَوَن الرُّوح، الرُّوح القدس المعزى، وهو دُعِيَ "معزِّيَاً" لأنَّه يعزِّي المتضايقين ويُفَرِّجهم.

٢ - فهؤلاء، حينما يمسحون من شجرة الحياة، التي هي يسوع المسيح، ومن النَّبت السَّماوي، فإنهم يؤهّلون لبلوغ قامات الكمال، أعني قامات الملوكوت والتَّبَّيِّن، ويكونون شركاء للملك السَّماوي في أسراره، ويقتلون دَلَّةً لدى صابط الكل، ويلجُون - وهم بعدُ في هذا العالم - بلاطه حيث الملائكة وأرواح القديسين. لأنَّهم وإن لم يحوزوا بعد إرثهم الكامل المعد لهم في ذلك الدَّهر، إلا أنَّهم يكونون على يقين لأجل العَرْبَوَن الذي قبلوه الآن، وكأنَّهم بالفعل مُكَلَّلون ويعملون. وهم لا يستغربون أنَّهم عتيدون أن يملكون مع المسيح عند قَيْض الروح القدس ومجيئه. لماذا؟ لأنَّهم وهم بعد في الجسد كانوا يختبرون مذاقة حلاوته وقوَّة قدرته.

٣ - فكما أنه حين يكون أحد صديقاً للملك، قد ألف البلاط وبات على دراية بأسراره وناظراً أرجوانه؛ ثم يحدث أن يتوج هذا ملكاً، فإنه لا يستغرب ولا يُفْلِّ لكونه ترس زماناً طويلاً على أسرار البلاط - إذ لا يُؤخذ أحد من الدهماء والعامة والذين لا عهد لهم بالأسرار الملكية ليُدخل به ويصير ملكاً، بل فقط المتمرسون والمتآذبون - على هذا المنوال أيضاً المسيحيون المزععون أن يملكون في ذلك الدهر، فإنهم لا يستغربون هذا، كونهم بالفعل قد سبقو فعرفوا أسرار النعمة. فلأنَّ الإنسان كان قد تعدى الوصيَّة، فقد أَسْدَلَ الشَّيْطَانُ على النَّفْسِ بِرْمَتِها حجَّاً مظلماً، ولذا تأثَّرَ النَّعْمَةُ أخِيرًا وَهَتَّكَ الشِّيْطَانُ بِكَامْلَهُ، حَتَّى إِنَّ النَّفْسَ أخِيرًا - وقد أصبحت نقيَّةً واسترَّت طبيعتها الخاصة كخلية بلا عيب ونقية - ترى جلياً، كلَّ حين، بنقاوة وبعينين طاهرتين، مجده النُّور الحقيقي وشمس البر^(١) الحقة ساطعةً في ذات قلبها.

٤ - فكما أنه عند الانقضاء، عندما يزول جلد السماء، يعيش الأبرار أخيراً في الملائكة والثور والمجد، ولا ينظرون شيئاً آخر سوى كيف يكون المسيح في مجده على الدوام عن يمين الآب؛ هكذا أيضاً هؤلاء منذ الآن يكونون محظوظين ومحظوظين إلى ذلك الدهر وشاكرين

(١) انظر: ملا ٤: ٢ - البيرويَّة (ملا ٣: ٢٠ في ترجمات أخرى).

إلى كلّ الحسن والعجبات التي هناك. لأنّنا وإن كنّا على الأرض، إلّا أنّ موطنا هو في السّماوات، وعيشتنا ورعيتنا^(١) - بحسب الفكر والإنسان الباطن - هما في ذلك العالم. لأنّه كما أنّ العين الظّاهرة، إن كانت نقية، تنظر الشّمس بصفاء على الدّوام؛ هكذا أيضًا العقل الذي تنقّى بال تمام ينظر كلّ حين مجدَ نور المسيح، ويكون ليل هزار ملازمًا للربّ ملزمة جسد الرّب المتحد بلاهوته للروح القدس على الدّوام. على أنّ هذه القamat لا يدركها بنو البشر للتّو، بل بتعبِ وضيقاتِ وجهادٍ كثير. لأنّ هناك أنسانًا تكون النّعمة ملزمة له ت عمل وتستريح فيهم، بينما يكون الشرُ أيضًا حاضرًا معهم في داخلهم، وتعتمل كلّتا البيتيرتين - التي للنّور والتي للظلمة - في قلب واحد.

[ب] النفس يتنازعها الصلاح والشرّ

٥ - لكنّ على كلّ حال سوف تقول لي: «أيّة شرّكة للنّور مع الظلمة؟ أم أيّة موافقـة هيكل الله مع الأوثان؟»^(٢)، فأجيبك أنا أيضًا بهذا الكلام عينه: أيّة شرّكة للنّور مع الظلمة؟ أم كيف يُحجب النّور الإلهي أو

(١) وردت هذه الكلمة *πολιτεία* في آع ٢٢: ٢٨، وأيضًا آف ١٢: ٢، وهي تعني: *citizenship* = مواطنة، أي كون الإنسان مواطنًا له امتيازاته وحقوقه.

(٢) كوك ٦: ١٤، ١٦.

يتعكّر؟ وكيف يت遁س ما هو غَيْرُ دِينٍ ونَقْيٌ؟ لأنَّه مكتوب: «وَالسُّورُ يُضيِّعُ فِي الظُّلْمَةِ، وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ» (يو ۱ : ۵). فيجب ألا نعتبر الأمور من منظوري واحد ولا من وجهة واحدة. فالبعض يستريحون في نعمة الله إلى القدر الذي فيه يصبحون أقوى من الشَّرُّ الملائم لهم، وتكون لهم صلاةً وراحةً وافرةً من نحو الله؛ غير أنَّه في ساعةٍ أخرى تعتمل فيهم الأفكارُ الخبيثة ويسرقون من الخطيئة، ولو أَنَّهُم لا يزالون في نعمة الله. فإنَّ السُّدُّجَ وعدِيَ المعرفة، حين تعامل فيهم التَّعْمَةُ يسيراً، يتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ ما بقيَت فيهم خطيئة بعد؛ أمَّا ذُوو التَّميِيز والحكماء فما يحسرون أن ينكروا ذلك زاعمين: ”لأنَّنا نفتني نعمة الله، فما تعامل فينا الأفكارُ المخزية الأثيمة“.

٦ - فإنَّا كثيراً ما نصادف بين الإخوة مَنْ قد وجدوا فرحاً ونعمَّةً هذا مقدارها حتَّى إِنَّهُمْ في مدى خمسِ سنين أو سِيَّر يقولون: ”هَا إِنَّ الشَّهْوَةَ قد جَفَّتْ“! وبعد هذا، وحين يظُنُّون أَنَّهُم قد انتقلا من رِيَقتها، إذا بالشَّرُّ الكامن يتحرَّك فيهم فيشتغلون بالشَّهْوَةِ، حتَّى لَيَعْجِبُونَ قائلين: ”مِنْ أين ثَارَ عَلَيْنَا مِثْلُ هَذَا الشَّرِّ بَعْدَ كُلِّ هَذَا الزَّمَانِ؟“ وعلى ذلك فإنَّ أحداً من الحكماء لا يحسُّ على القول: ”لأنَّ التَّعْمَةَ حاضِرَةٌ معي“، فلقد تحرَّرتْ من الخطيئة بالثَّمَامِ، إنَّا الوجهان يعتملان في الفكر. فمن لا خبرَةَ لهم، إنَّ عملَتْ فيهم التَّعْمَةُ ولو قليلاً، يُخَيِّلُ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قد غَلَبُوا بالفعل وأَنَّهُمْ

مسيحيون كاملون. أما أنا فأقول إن الأمور هكذا هي: كمثل أن تكون الشمس في كيد السماء، منيرة وسط الهواء النقي، ثم يحدث أن تكتنفها سحب وتحجبها ويتبأد الجو، لكنها هي ذاتها لا تفقد شيئاً في داخلها من نورها ومن جوهرها؛ هكذا الذين لم يتطهروا بال تمام، فمع كونهم في نعمة الله، فإنّهم لا يرحو مسوكون في أعماقهم بالخطيئة، فنزاعاً لهم الطبيعية وأفكارهم نفسها قوية من نحو الله، غير أنّهم ليسوا بكمالين بعد في الخير.

٧ - هكذا أيضاً المسوكون في أعماقهم من جانب الصلاح - أعني جانب النعمة - لا يزالون عيّداً لجانب الشر وللأفكار الشريرة وفي متناول قبضتها. من ثم فالإنسان يُعوزه الكثير من الإفراز، لكي يَعلَم بالخبرة أنّ الأمور هكذا هي. بل إنّي أقول لك إنّه حتّى الرّسل رغم اقتنائهم للمعزي لم يُتعقّوا كليّة من الهم، لأنّ خوفاً ورعدةً كانوا يلازمان فرّحهم وابتهاجهم، وهذا كان من النعمة ذاتها لا من جانب الشرّ، بل إنّ هذه النعمة كانت تخرسهم لكي لا ينحرفوا ولو قليلاً. لأنّه كما لو أنّ أحداً قد ألقى بحصاة حقيرة بحاجه سورٍ مما أضرّت بالسور ولا زعزعته، أو كما لو أنّ سهماً قد صُوّب ضدّ من يلبس درعاً مما أصاب الحديد ولا الجسد بضرر ما، إذ يصطدم به ويرتد؛ هكذا أيضاً الرّسل: فلو أنّ شيئاً من جانب الشرّ كان يدنو منهم فما كان يضرّهم شيئاً، لأنّهم كانوا متسرّبين بقوّة المسيح

الكاملة. وهؤلاء أنفسهم، كونهم كاملين، كانت لهم الحرية لتميم أعمال البر.

٨ - ولأن البعض يقولون إنّه بعد التّعمة تغدو النّفوس بلا همّ، فإنّ الله، حتّى في الكاملين، يلتمس مشيئة النّفس في "خدمة الروح"^(١)، حتّى يتافقا معاً (أي الروح القدس والنّفس)، لأنّ الرّسول يقول: «لَا تُطْفِئُوا الرّوْحَ» (اتس ٥: ١٩). فمن بين الكاملين كان يوجد قوم لا يشاءون أن يصيروا ثقلاً على آخرين، والبعض الآخر كانوا يستكفون بذواتهم، والبعض كذلك، وإنّ كانوا يأخذون عطايا من العائشين في العالم إلّا أنّهم كانوا يوزعونها على الفقراء، وهذا هو الأفضل. لأن البعض ممّن ينالون التّعمة يهتمّون بأنفسهم فحسب، والبعض الآخر يجتهدون لينفعوا النفوس الأخرى، وهؤلاء يفوقون أولئك كثيراً. وهناك آخرون أيضاً بعدهما يحظّون بالتّعمة، يسلّمون أجسادهم من أجل اسم الله - إلى الإهانات والآلام، وهؤلاء أيضاً هم أفضل من أولئك. لكن البعض في سعيهم في إثر الفضيلة يرومون أن يتباهوا ومجّدوا من النّاس، زاعمين أنّهم مسيحيون وشركاء الروح القدس، بينما البعض الآخر يجتهدون أن يخفّوا نفوسهم من ملاقاة النّاس، وهؤلاء هم أفضل كثيراً من أولئك. فها أنت تنظر كيف أنّه في الكمال عينه، توجد نيّة صالحة من نحو الله تنشأ من رغبة طبيعية، كما توجد أخرى أفضل وأوفّر سخاءً منها.

(١) انظر: ٢ كو ٣: ٨.

[ج] ملکوت الله بالعمل لا بالكلام

٩ - كمثل إنسانٍ يرتدي ثياباً بالية قد رأى نفسه في خلْمٍ غنيّاً، ثم استفاق من نومه ونظر ذاته فإذا هو مسكيّنٌ وعريانٌ مِرْءَةً أخرى؛ هكذا أيضاً الذين يتشدّدون بالكلام الروحاني يتراءى لهم أَهْمَمُ يتكلّمون عن السيرة الحسنة، ولكن لأنّهم لم يختبروا فعل هذا الكلام مُتبَّعاً في أذهانهم، بما له من مذaqueٍ وقوّةٍ ويقين، يلتبثون عائشين في وهم. أو على غرار امرأةٍ لها ثوبٌ من حرير ومحليّةٍ بلا لِيَعَ، وقد سَلَّمت نفسها إلى ماخور؛ هكذا هو الحال أيضاً لأمثال هؤلاء: فقلبهم ماخوز للأرواح الشّرِّيرة، وهم يريدون أن يتتكلّموا عن البر دون أن يختبروا هذه الأمور.

١٠ - لأنّه كما لا يمكن لسمكة أن تحيَا بدون ماء، أو لأحدٍ أن يعشّي بدون أقدام، أو يرى نوراً بدون أعين، أو يتكلّم بدون لسان، أو يسمع بدون آذان؛ هكذا بدون الرَّبِّ يسوع وعمل القوّة الإلهيّة لا تكون هناك معرفة لأسرار الله وحكمته ولا يكون أحدٌ غنيّاً بالروح ومسيحيّاً^(١). لأنّ هؤلاء الذين يقتادون ويرعنون - بحسب إنسانهم الدّاخلي - من القوّة الإلهيّة هم حكماء الله [بالحقّ]^(٢) وجنوده ورجاله وفلاسفته.

(١) انظر: العظة ٣: ٤.

(٢) وردت في نسخة PG فقط (PG 34, 629 C).

لأنَّ فلاسفة اليونانيين يتعلَّمون (فَحْر) الكلام، بينما هناك آخرون «عَامِيُونَ في الْكَلَام»^(١) وهم فَرِحُون ومتَهَلِّلون بنعمة الله، رجالٌ يتَّقون الله. فلنَمِيزَنَّ إِذَا أَيُّهُما أَفْضَلُ، فِإِنَّهُ يَقُولُ: «إِنَّ مَلَكُوتَ اللَّهِ بِالْعَمَلِ وَالْقُوَّةِ» (أَكُو ٤: ٢٠ - حسب النَّصِّ)^(٢)، فليس هو بالكلام بل بالعمل والقوَّةِ.

١١ - فَأَنْ يَقُولُ أَحَدٌ إِنَّ هَذَا الْخَبَزَ قَدْ صُنِعَ مِنَ الْخَنْطَةِ، فَهَذَا أَمْرٌ هَيْنَ، أَمَّا كَيْفَ يُعَدُّ الْخَبَزُ بِالْتَّفَصِيلِ وَيُخْبِرُ، فَهَذَا هُوَ مَا يَجِبُ الْحَدِيثُ عَنْهُ، فَالْتَّكَلُّمُ عَنِ اِنْعَدَامِ الْأَوْجَاعِ وَعَنِ الْكَمَالِ أَمْرٌ هَيْنَ، أَمَّا الْعَبُورُ إِلَى حَالَةِ الْكَمَالِ عَنْ خَبِيرَةِ، فَهَذَا عَمَلُ النَّزَرِ الْيَسِيرُ مِنَ النَّاسِ. فَقَدْ أَوْصَى الإِنْجِيلُ فِي إِيجَازٍ: «لَا تَغْضِبُ؛ لَا تَشْتَهِي؛ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَلْطِمُكَ عَلَى خَدِّكَ فَقَدِيمٌ لَهُ الْآخِرُ أَيْضًا؛ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُخَاصِمُكَ لِيُأْخِذَ رِدَاءَكَ، فَأَغْطِهِ التَّوْبَ أَيْضًا» (انظُرْ: مَتْ ٥: ٢٢، ٢٨، ٣٩، ٤٠؛ لُو ٦: ٢٩)، أَمَّا الرَّسُولُ فِي تَابِعِهِ كَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَمَلُ التَّطَهِيرِ رُؤِيَّدًا بِصَرِّ وَطَوْلِ أَنَّةٍ؛ فَيُعَلِّمُ [بِطَرْقِ شَيْئٍ]^(٣)، مُقْدِمًا أُولَاءِ اللَّبَنِ كَمَا لِأَطْفَالٍ، ثُمَّ مُتَقْدِمًا إِلَى النَّمْوِ وَالْكَمَالِ^(٤). فَكَانَ الإِنْجِيلُ قَدْ قَالَ بِأَنْ يَكُونَ الشَّوْبُ مِنْ صُوفٍ، أَمَّا الرَّسُولُ فَكَشَفَ بِدَقَّةٍ كَيْفَ يُعَدُّ.

(١) أَكُو ١١: ٦.

(٢) إِضافةً كَلْمَةً "الْعَمَلِ" عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ يَدُوِّنُ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ تَدَاعِي الْمَعْنَى مَعَ ١٨: ٣ «لَا تُخْبِثُ بِالْكَلَامِ وَلَا بِالْلِسَانِ بَلْ بِالْعَقْلِ وَالْحُقْقَى»، مَعْ وُجُودِ "لَا بِالْكَلَامِ" كَحْزَءٍ مُشَرِّكٍ فِي الْأَيَّتَيْنِ.

(٣) وَرَدَتْ فِي نَسْخَةِ PG فقط (A). PG 34, 632.

(٤) انظُرْ: أَكُو ٣: ٢، ١، ٥: ٤١٢، ٦: ٦٤١٢.

١٢ - فالذين يتكلّمون كلاماً روحانياً دون أن يختبروا شيئاً من مذاقه، ممثّلهم مثل إنسانٍ يحتاج سهلاً مفترًا وقد دَهَهُ الحُرُّ، وفيما هو في شدة العطش رسمَ ينبوغًا يفيض ماءً وتصوّر نفسه يشرب منه، بينما شفاته قد يُسْتَأْنِدُها وكذا لسانه جراء العطش الذي أضنه! أو هم أشبّه بإنسانٍ يتكلّم عن العسل أنه حلو، وما عرف قوّة حلاوته إذ لم يذقه! هكذا هم المتتكلّمون عن الكمال والابتهاج أو انعدام الأوجاع، وما اقتنوا فعلَ هذه الأمور ولا يقينها، فليست كلّ الأمور هي هكذا كما يقولون هم عنها. فإنّه حين يؤهّل أحدّ من أمثال هؤلاء مرّة، ولو جزئياً، لأنّه يختبر بالفعل، فإنه يُميّز من تلقاء ذاته أن "ليس كما كنت أظنّ هكذا وجدتُ، لأنّ ما كنت أتكلّم عنه شيء، وشيء آخر هو ما يعمله الروح".

١٣ - فالمسيحية أكل هي وشرب، وكلما أكل أحد منها، ازداد عقله
اشتياقاً أكثر فأكثر، مدفوعاً بفرط حلاوهها، فلا يحصره مذى يبلغه ولا
يروي غليله حد يدركه، بل يطلب بلا شبع ويأكل. كما لو كان أحد
عطشان وأعطي له شراب حلوي، ثم لما شرع يتذوقه دنا منه أكثر جداً وهو
يستعر عطشاً بزيادة؛ كمثل هذا المثل هكذا [بالصدق]^(١) مذaque الرُّوح
القدس، فإنه يكاد يستحيل إشباعها. وما هذه بكلمات جوفاء، بل هذا

¹ وردت في نسخة PG 632 C فقط (PG 34, 632 C).

هو فعل الروح القدس الخادم سرًا في العقل. فإنَّ قومًا يتوهُّمون أَهْمَم بالفعل قدِيسون بسبب عزوفهم عن المرأة وعن سائر الأمور المنظورة، لكنَّ الأمر ليس هو هكذا، لأنَّ الشَّرَ لا ينفكُ بحياً ويرتفع في ذهنهم وفي قلبهِم. بل هذا هو القديس: مَنْ تَطَهَّرَ وَتَقَدَّسَ بحسب الإنسان الباطن، لأنَّهُ أَيْمَا انتصبَ الحقُّ، فهناك يحاربهُ الضَّلالُ ساعيًّا لأنْ يطمسه ويُعَكِّرْهُ.

[د] المسيح، لا غيرُه، هو "الطَّريق"

١٤ - فحين كان اليهود يملكون الكهنوت، كان يوجد من ذات أُمّتهم من يُضطهدون ويُضيقُّ عليهم بسبب ثباتهم في الحق، أقصد العازار والمكابيتين^(١). أمّا الآن فلأنَّهُ منذ الصَّليب وانشقاق الحجاب قد فارقهم الرُّوح القدس، فقد استُعلنَ الحقُّ^(٢) أخيرًا هنا وهو يعمَلُ. على أنَّ قومًا صاروا يُضطهدون من قبَل هذه الأُمَّةِ نفسيها^(٣): فمن قبَل هذه الأُمَّةِ ذاتها كانوا يُضطهدون ويُضيقُّ عليهم، لكي يصير محبُّو الحقُّ أولئك شهداء. لأنَّهُ كيف سيظهر الحقُّ ما لم يكن هناك مَنْ يناهضونه، أولئك الكذبة السَّاعون

(١) انظر: ملك ٦: ١٨ - إلخ.

(٢) المترجم إلى الفرنسية وضع كلمة "الحق" هنا بحرف كبير في بدايتها على اعتبار أنها تشير إلى المسيح الذي قال «أَنَا هُوَ الْحَقُّ». وسياق هذه الفقرة والآتي تليها يُغيّر هذا الاعتبار.

(٣) يقصد الرُّسل والمسيحيين الأوائل الذين صاروا يُضطهدون من قبَل الأُمَّةِ اليهودية.

ضدّه؟ بل إنّه يوجد من بين الإخوة مَن يتحمّلون آلاماً وشدائد، وهؤلاء يحتاجون إلى حرصٍ كثير لكي لا يسقطوا. لأنّ واحداً من الإخوة لِمَا كان يصلّي مع آخر سُبِّي من قبْل القدرة الإلهية واحتُطِفَ ورأى مدينة أورشليم العليا وصُورَا مضيئَةً ونورًا لا نهاية له، وسمع صوتاً قائلاً: "هذا هو موضع راحة الصّديقين". ثمّ بعد قليل، إذ انتفع وظنه أنّ ما رأه إنما كان يخصّه هو، وُجد بعد ذلك ساقطاً في أغوارِ الخطيئة وأدلى دركاتها وفي ربوات من الشّرور.

١٥ - فإنّ كان هذا الذي دخل إلى العمق وصعد إلى العلاء قد سقط، فكيف يمكن للإنسان العادي أن يقول: "لأيّ أصوم وأحيا حياة الغربة وأفريقي أموالي فقد أصبحت الآن قدّيساً"؟ فالامتناع عن الشّرور ليس هو الكمال. لكنّ إنّ أنت دخلت إلى فكرك الذي فسّدَ، وقتلت الحياة التي تقتلنك، القابعة أسفل العقل وفي أعماق الأفكار والكامنة في ما يمكن أن يدعى مخادعَ النّفس ومخازنها - إذ إنّ القلب لا يُسْرَ عُوزه - أقول إنّ أنت قتلت تلك الحياة، فقد طرحتَ كلَّ النّجاسة التي فيك خارجاً. لأنّ كلَّ محبي الحكمة، والنّاموس، والرّسل، ومحبيَّ المخلص، كلَّ هؤلاء ي عمل لحساب الطّهارة. فكلُّ النّاس، يهوداً كانوا أم يونانيّين، يحبّون الطّهارة، وإنْ تعذر عليهم بلوغها. لذلك فمن الضرورة بمكان أنْ نفتّش كيف وبأيّة الوسائل

يمكن للقلب أن يغدو نقىًّا. فإنه لا سبيل إلى هذا بآيٍ طريق آخرَ البتة سوى بذلك الذي من أجلنا صلب، لأنَّه هو الطريق، والحياة، والحق، والباب، واللُّؤلؤة، والخزير الحبي السماوي. فإنَّ أحدًا لا يمكنه بدون ذلك الحقَّ أن يعرف الحقَّ أو يخلص. فكما أنَّك فيما يخصِّ الإنسان الظاهر والأمور المنظورة قد جحدت كلَّ الأشياء ووزعت مقتناتك؛ هكذا أيضًا فيما يتعلق بالحكمة العالمية، إنْ كان لك معرفةٌ وقوَّةٌ كلام، بات لزاماً عليك أن تلقي عنك الكلَّ ولا تحسبه شيئاً، لكي يتسرى لك بهذا أنْ ثبئي «بِجَهَالَةِ الْكِرَاء»^(١) - تلك الكرازة التي هي الحكمة الحقة التي تحوي، لا كلمات مزخرفة بل قوَّةٌ فعالةٌ بواسطة الصليب المقدس. والمجده للثالوث المساوي في الجوهر إلى الدُّهور، أمين.

(١) انظر: ١ كرو ٢١: ١.

العظة الثامنة عشرة

الروح القدس ... كنز الصالحات

[عن كنز المحبين - أهني المسيح والروح القدس - الذي يدرّبهم بطريق شتى للبلوغ إلى الكمال]

[ب] [الروح القدس ربان سفينة النفس

[أ] [كنز الروح القدس



[أ] [كنز الروح القدس

١ - لو أن أحداً في العالم كان غنياً جداً وملك كنزاً مخفى، فإنه من كنوزه وغناه يقتني كلَّ ما يريد، ويجمع أيَّ ما يتغيه في العالم من مقتنياتٍ فاخرة، متوكلاً على كنزه الذي به يمكّنه بأيسر مرام اقتناء كلِّ الممتلكات التي يرغبهَا؛ هكذا أبصَا الَّذِين يطلبون من الله فيجدُون^(١)، ويقتلون الكنز السماويِّ الذي للروح القدس - الذي هو الرَّبُّ ذاته مشرقاً في قلوبهم - فإنَّهم من كنوزهم، أيَّ المسيح الكائن فيهم، يَتَّبِعُون كلَّ بَرِّ الفضائل ويقتلون كلَّ صلاحٍ وصايا الرَّبِّ؛ وبواسطته يَجْمِعون غَنِّي سماوياً أوفر. لأنَّهم بواسطة الكنز السماويِّ يَصْنَعون كلَّ فضائل البرّ، واثقين بفِيض الغَنِي الروحانيِّ الذي فيهم؛ ويعملون بسهولةٍ كُلَّ بَرِّ

(١) انظر: مت ٧: ٤٧، لوقا ١١: ٩.

وكلَّ وصايا الرَّبِّ بواسطة غُنْي النِّعمة غَيْر المنظور الَّذِي فيهم. والرَّسُول يقول أيضًا: «لَئَنَّا هَذَا الْكَنْزُ فِي أَوَانٍ حَرَقَيَّةٍ» (٢ كو ٤ : ٧)، الَّذِي هو قُوَّةُ الرُّوح المقدِّسة، وَالَّتِي صار هُؤُلَاءِ أهْلًا لاقتناها في داخِلِهِمْ وَهُمْ بَعْدُ فِي الجَسَدِ، وأيضًا: «الَّذِي صَارَ لَنَا حِكْمَةً مِنَ اللَّهِ وَبِرًا وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً» (١ كو ١ : ٣٠).

٢ - فالَّذِي يَجِد كنزَ الرُّوح القدس السَّمَاوِيَّ هَذَا وَيَقْتِنِيهِ فِي نَفْسِهِ، يُتَمِّمُ بِهِ كُلَّ بَرِّ الْوَصَايَا وَكُلَّ عَمَلِ الْفَضَائِلِ بِلَا لَوْمٍ وَبِنَقاوَةٍ وَبِلَا تَغْصُبٍ بِلَّا بِسْهُولَةٍ. فَلَنْطَلِبْ نَحْنُ أَيْضًا إِلَى اللَّهِ وَنَسْأَلُهُ وَنَصْرُعُ إِلَيْهِ أَنْ يُنْعِمَ عَلَيْنَا بِكَنْزِ رُوحِهِ الْقَدُّوسِ، وَبِهِذَا يَمْكُنُنَا أَنْ نَسْلِكَ فِي جَمِيعِ وَصَايَاهِ بِلَا لَوْمٍ وَبِنَقاوَةٍ، وَنَكْمِلَ كُلَّ بَرِّ الرُّوح القدس بِنَقاوَةٍ وَبِالْتَّامِ بِوَاسِطَةِ الْكَنْزِ السَّمَاوِيِّ، الَّذِي هُوَ الْمَسِيحُ. فَإِنَّهُ فِي الْعَالَمِ لَا يَمْكُنُ لِلْمَسْكِينِ وَالْعَرِيَانِ وَالْفَقِيرِ وَالْجَائِعِ أَنْ يَقْتِنِ شَيْئًا إِذَا تَحْصُرُهُ فَاقْتُهُ، أَمَّا مَنْ يَمْلِكُ كَنْزًا، كَمَا قِيلَ آنِي، فَإِنَّهُ يَقْتِنِ بِسْهُولَةٍ وَدُونَ مَشَقَّةٍ أَيَّةٌ مَقْتِنَياتٍ يَتَغَيِّبُهَا؛ هَكُذا أَيْضًا النَّفْسُ الْعَارِيَةُ وَالْمُقْفَرَةُ مِنْ شَرِّكَةِ الرُّوحِ الْقَدِّسِ، وَالرَّازِحَةُ تَحْتَ فَقْرِ الْخَطِيَّةِ الْمَدْقَعِ، لَا تَسْتَطِعُ - حَتَّى وَلَوْ أَرَادَتْ - أَنْ تُصْنِعَ أَيَّاً مِنْ ثَمَارِ رُوحِ الْبَرِّ بِالْحَقِيقَةِ قَبْلَ أَنْ تَنَالِ الرُّوحُ الْقَدِّسِ.

٣ - عَلَى هَذَا الْمَنْوَالِ لَا مَنَاصَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَنْ يَغْصُبَ ذَاتَهُ فِي السُّؤَالِ إِلَى الرَّبِّ، لَكِي يُؤَهَّلَ لِأَنْ يَجِدَ وَيَنَالِ كنزَ الرُّوح القدس السَّمَاوِيِّ، فَيُسْتَطِعُ هَكُذا بِلَا تَعْبٍ وَبِسْهُولَةٍ أَنْ يَعْمَلَ جَمِيعَ وَصَايَا الرَّبِّ بِلَا لَوْمٍ

وبنقاوة، تلك الْتِي لم يكن قادرًا على تكميلها من قبل حتى ولو بتفصُّب.
 لأنَّه كيف يمكن لِإنسانٍ مفتقرٍ إلى شرِّكة الرُّوح القدس وغُرْيَانٍ منها أن يقتني مثل هذه المقتنيات الروحية بدون كنزٍ وغَيْرِ روحين؟! أمَّا النَّفْس الَّتِي تحدُّ الرَّبَّ، الكنزُ الحَقِيقِيُّ، بِوَاسْطَة طلبِ الرُّوح القدس. وبالإيمان والصَّبَرِ الكثير، فإنَّما - كما سبقَ وقيل - تصنع ثمرُ الرُّوح بسهولة، لأنَّ الرُّوح يَعْمَلُ فِيهَا وبواسطتها كُلُّ البرِّ ووصايا الرَّبِّ الَّتِي أوصى بها - يَعْمَلُها بنقاوة وبالتأمُّم وبلا لوم.

٤ - فلنضربُ أيضًا مثلاً آخر: كما لو أنَّ إنسانًا مُؤْسِرًا صنع عشاءً فاخرًا جدًّا، فإنه من غناه ومن الكنز الذي له ينفق دون أن يخشى احتياجه إلى شيء، وذلك لأجل عظم غناه، وهكذا يبذُّخ وأبْهَجُ يُفْرِحُ مدعوِّيه الَّذِين دعاهم، مقدِّمًا لهم شتَّى أصناف الأطعمة وأحداثها. أمَّا المسكين الذي يُعْوِزُه الغَيْرُ، فإنَّ رام أنْ يُعِدَّ عشاءً لقومٍ فإنه يفترض كُلَّ شيء: الأوَّلية نفسها والثياب وما إلى ذلك ، ثمَّ بعد أن يتعشَّى المدعُون - كما في عشاءِ إِلَيْسان فقير - يَرُدُّ لِكُلِّ واحدٍ ما كان قد افترضه منه، إنْ كان وعاءً فضيًّا أو ثوبًا أو ما شابه ذلك. وهكذا بعد أن يُعِيدَ لِكُلِّ أحدٍ كُلَّ شيء، يليث هو مسكيَّناً وغُرْيَاناً، لا غَيْرَ خاصًّا له يُسْتَطِيعُ أن يُفرِحَ به.

٥ - هكذا أيضًا الأغنياء في الرُّوح القدس، الَّذِين هُم العَيْن السَّماويَّ

بِالْحَقِّ وَلَمْ شَرِكْهُ الرُّوحُ^(١) فِي ذُوَّاَتِهِمْ، مَتَى خَاطَبُوا قَوْمًا بِكَلْمَةِ الْحَقِّ وَمَتَى
تَشَارِكُوا مَعَ أَنَّاسٍ فِي كَلَامِ رُوْحَانِيٍّ وَأَرَادُوا أَنْ يُفَرِّحُوا النُّفُوسَ، فَإِنَّهُمْ مِنْ
غَنَاهُمُ الْخَاصُّ وَمِنْ كَنْزِهِمُ الْخَاصُّ الَّذِي قَدْ اقْتَنَوْهُ فِي ذُوَّاَتِهِمْ - مِنْهُ يَتَكَلَّمُونَ
وَمِنْهُ يُفَرِّحُونَ نُفُوسَ السَّاعِينَ لِلْكَلَامِ الرُّوْحَانِيِّ دُونَ أَنْ يَخْشَوْا افْتِقارَهُمْ،
لَأَنَّهُمْ قَدْ حَازُوا فِي ذُوَّاَتِهِمْ عَلَى كَنْزِ الصَّالحَاتِ السَّمَاوِيِّ، وَمِنْهُ يُخْرِجُونَ^(٢)
وَيُفَرِّحُونَ مَدْعُوِيِّي مَأْدُوبِهِمُ الرُّوْحَيَّةِ. أَمَّا الْمَسْكِينُ الَّذِي لَا يَقْتَنِي شَيْئًا مِنْ
غَنِّيِّ الْمَسِيحِ وَلَيْسَ لَهُ فِي نَفْسِهِ غَنِّيٌّ رُوْحِيٌّ، ذَلِكَ الْغَنِّيُّ الَّذِي يَفِيضُ مِنْهُ كُلُّ
مَا هُوَ صَالِحٌ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ وَأَشْوَاقٍ إِلهِيَّةٍ وَأَسْرَارٍ لَا يُطِيقُ بَهَا، أَقُولُ حَتَّى
وَلَوْ أَرَادَ هَذَا أَنْ يَتَكَلَّمَ كَلْمَةَ الْحَقِّ وَيُفَرِّحَ قَوْمًا مِنْ سَاعِيهِ دُونَ أَنْ يَقْتَنِي فِي
ذَاتِهِ كَلْمَةُ اللَّهِ بِالْقُوَّةِ وَالْحَقِّ، فَإِنَّهُ فَقْطٌ يَسْتَعِيدُ مِنْ ذَاكْرَتِهِ وَيَقْتَبِسُ كَلْمَاتِ
مِنْ كُلِّ مِنَ الْأَسْفَارِ الْمَقْدَسَةِ، أَوْ يَتَكَلَّمُ بِمَا يَسْمَعُ مِنْ رِجَالِ رُوْحَانِيَّيْنَ وَيَعْلَمُ
بِهِ، فَيَتوهُمُ أَنَّهُ يُفَرِّحُ الْآخَرِينَ وَأَنَّ الْآخَرِينَ يَتَفَعَّلُونَ مِنْ كَلَامِهِ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ
يَتَحَدَّثُ، تَعُودُ كُلُّ كَلْمَةٍ إِلَى مُصْدِرِهَا الَّذِي أَخْدَى مِنْهُ، وَيَرْجِعُ هُوَ أَيْضًا
وَيَلْبِسُ عَرِيَانًا وَمَسْكِينًا، لَيْسَ لَهُ كَنْزُ الرُّوحِ الْخَاصُّ بِهِ الَّذِي مِنْهُ يُخْرِجُ وَيَنْفَعُ
آخَرِينَ وَيُفَرِّحُهُمْ، لَأَنَّهُ هُوَ أَوَّلًا لَيْسَ فِرَحًا وَلَا مَتَهِلَّا بِالرُّوحِ.

(١) انظر: ٢ كور: ١٣؛ ١٣: ٢ في ١: ٢.

(٢) هذا الفعل προφέρω ورد مررتين فقط في العهد الجديد، في موضع واحد، في ذات هذا السياق، حين تكلم الرَّبُّ يسوع عن الإنسان الصالح والآخر الشَّرِير الَّذِي يخرج كُلُّ προφέρω منه ما فيه من الصالحات أو الشُّرور (انظر لو ٦: ٤٥).

٦ - من أجل هذا يجب أولاً أن نطلب من الله بوجع قلب وإيمان لكي يعطينا أن نجد في قلوبنا غناه، أي كنز المسيح الحقيقي، بقوة الروح القدس وفعله. وهكذا إذا ما وجدنا في ذواتنا أولاً المنفعة والخلاص والحياة الأبدية، التي هي الرب^(١)، آنذاك ستنفع آخرين أيضاً بحسب ما هو في وسعنا ومستطاع لدينا، مخرجين من كنز المسيح داخلنا كل صلاح الكلام الروحاني ومحدثين بالأسرار السماوية. لأن هكذا قد سرت مشيئة الآب الصالحة أن يخل في كل من يؤمن به ويطلبه، فالمسيح يقول: «لأن الذي يحبني، يحب مني، وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١)، وأيضاً: «تأتي أنا وأبي، وعندئذ تصنع متزلاً» (يو ١٤: ٢٣ - حسب النص). فهكذا شاء لطف الآب الذي لا يحمد، وهكذا سرت مجده المسيح التي لا تدرك، وهكذا وعد صلاح الروح القدس الذي لا يلفظ به، فالجد لشفقة الثالوث القدس التي لا ينطق بها!

[ب] الروح القدس ربان سفينة القدس

٧ - إن الذين حسروا أهلاً لأن «يصيروا أولاد الله»^(٢)، ولأن «يولدوا

(١) انظر: ١ يو ٥: ٢٠.

(٢) يو ١: ١٢.

من فَوْقٌ»^(۱) من الرُّوح القدس، الَّذِين يقتنون المسيح في ذواتهم منيراً إِيَّاهُم
وَمُنْعِماً عَلَيْهِم بِالرَّاحَةِ، يَكُونُون مُقْتَادِين بِالرُّوحِ الْقَدِيسِ بِأَوْجُهِ شَتَّى وَمُمْتَنِعَةِ،
وَتَعْمَلُ فِيهِم النِّعَمَةُ عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مُنْظَورٍ فِي قُلُوبِهِمْ، فِي رَاحَةِ رُوْحَانِيَّةٍ.
فَلَنَأَخْذْ صُورَةً مِنْ مَسَرَّاتِ الْعَالَمِ الْمُنْظَوَرَةِ لِنُوضِّحَ جُزْئِيًّا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ كَيْفَ
تَعْمَلُ النِّعَمَةُ فِي نُفُوسِ أُولَئِكَ: فَقَدْ يَحْدُثُ فِي وَقْتٍ مَا أَنْ يَصِيرُوا وَكَأَنَّهُمْ
يَفْرَحُونَ فِي عَشَاءِ مُلُوكِيٍّ وَيَتَهَلَّلُونَ بِتَهْلِيلٍ وَفَرِحٍ لَا يُنْطَقُ بِهِ؛ وَفِي وَقْتٍ آخَرَ
يَكُونُونَ مُثَلَّ عَرَوَسِ مُسْتَرِيحَةٍ رَاحَةً إِلَهِيَّةً فِي شَرِكَتِهَا مَعَ عَرِيسَهَا. أَوْقَاتًا
يَصْبِحُونَ - وَهُمْ بَعْدُ فِي الْجَسَدِ، مِنْ فِرْطِ الْخَفَّةِ وَالرِّقَّةِ - كَالْمَلَائِكَةِ لَا
جَسَدَ لَهُمْ؛ وَأَوْقَاتًا أُخْرَى يَكُونُونَ كَأَنَّهُمْ سُكَارَى بِشَرَابٍ، مُبْتَهَجُونَ وَمُثِلُونَ
بِالرُّوحِ الْقَدِيسِ تَمَّلِّاً إِلَهِيًّا مِنَ الْأَسْرَارِ الرُّوْحَانِيَّةِ.

۸ - تَارَةً يَكُونُونَ كَمَنْ هُمْ فِي بَكَاءً وَنَحْيَبٍ مِنْ أَجْلِ جَنْسِ الْبَشَرِ،
وَيَحْمِلُونَ، فِي تَوْسُّلِهِمْ مِنْ أَجْلِ سَائِرِ بَنِي آدَمَ، حَزَنًا وَبَكَاءً، مُضْطَرِّمِينَ بِمحَبَّةِ
الرُّوحِ الْقَدِيسِ لِلْبَشَرِيَّةِ؛ وَطَوْرًا يَشْتَعِلُونَ بِالرُّوحِ الْقَدِيسِ بِتَهْلِيلٍ وَمحَبَّةِ هَذِهِ
مَقْدَارَهَا، حَتَّى إِنَّهُمْ - إِنْ كَانَ مُمْكِنًا - يَضْعُونَ كُلَّ إِنْسَانٍ طَيِّبِ أَحْشَائِهِمْ،
غَيْرِ مُمِيزِينَ بَيْنَ طَالِحٍ وَصَالِحٍ. آنَا يَتَضَعُونَ أَيَّمَا اتِّضَاعٍ تَحْتَ كُلِّ إِنْسَانٍ بِتَوْاضِعِ
الرُّوحِ الْقَدِيسِ، حَاسِبِينَ ذَوَاهُمْ آخَرَ الْجَمِيعِ وَدُونَهُمْ؛ وَآنَا يُتَلَعَّلُونَ مِنْ قِبَلِ

الرُّوح القدس بفرح لا يُنطَق به؛ وأونَةٌ يكونون أشبَّه بجبارٍ يتسلَّح بسلاح ملوكِيٍّ كاملٍ وينقضُّ ببأسٍ على أعدائه في الحربِ ويصارعهم ويظفرُ بهم، لأنَّه بالمثل أيضًا يتسلَّح الإنسانُ الرُّوحانيُّ بأسلحةِ الرُّوح القدس السماوية وينقضُّ على أعدائه ويحارهم ويُخضِّعهم تحت قدميه.

٩ - أحياناً تستريح النَّفَس في سكونٍ عظيمٍ وهدوءٍ وسلامٍ، إذ تكون فقط في لذَّة روحانيةٍ وراحَةٍ لا يُعبَر عنها ونعمٍ؛ وأحياناً أخرى تتحكَّم من التِّعْمة بفهمٍ وحكمةٍ لا يُنطَق بها وبمعرفةِ الرُّوح القدس الذي لا يُفَحَّص، هذه الأمور التي يتعرَّدُ التَّكَلُّم عنها بلسانٍ وفم؛ وأحياناً أخرى أيضًا تبلُّث مثل واحدٍ من سائر الناس. هكذا تصرَّف النَّعْمة فيهم بطريقٍ مختلفٍ، وتقدُّم النَّفَس بسبيلٍ شَيْئاً، فتُشْعِمُ عليها بالرَّاحَة بحسب مشيئة الله وتدْرِّها بطريقٍ متنوِّعة، لكي ترَدَّها كاملاً وبلا عيَّبٍ ونقيةً إلى الآب السماوي.

١٠ - غير أنَّ مفاعيلَ الرُّوح القدس هذه، التي قيلت آنفًا، هي للقامات العليا لأولئك القريبين من الكمال، لأنَّ راحاتِ التِّعْمة المختلفة السابق ذكرها، ولكن تحدَّثنا عنها بطريقٍ شَيْئاً، إلَّا أنها تتمَّ فيهم بلا انقطاعٍ، فعلاً تلو الآخر. لأنَّه حين تدنُّى النَّفَسُ من الكمال الروحيِّ، وقد تطهَّرت بالتأمُّم من كافَّة الأهواء وانْجَدت بالرُّوح المعزي بشرَكَةٍ لا يُنطَق بها وامتزجت به،

وخيست أهلاً لأن تصير روحانية^(١)، كونها امترخت بالرُّوح القدس، فحينئذ تغدو كلُّها نوراً وكلُّها عيناً وكلُّها روحًا وكلُّها فرحةً وكلُّها راحةً وكلُّها تحليلاً وكلُّها محبةً وكلُّها أحشاءً وكلُّها صلاحًا ولطفاً. فكما أنَّ الحجر في قاع البحر يكون مكتنفاً بالماء من كلِّ جانب، هكذا هؤلاء، إذ يكونون مترجين بالرُّوح القدس من كلِّ وجهٍ، يصيرون مشابهين للمسيح، ويكون لهم في ذواتهم بثباتٍ فضائل قوة الرُّوح القدس، لأنَّهم يكونون داخلاً وخارجًا أنياء بلا لوم ولا دنس.

١١ - فإذا قد تكملوا بواسطة الرُّوح القدس، كيف يمكنهم أن يقدموا أنماطاً رديئة من الخارج؟! بل إنَّهم في كلِّ حين وفي سائر الأحوال تضيء فيهم ثمار الرُّوح^(٢). فلنطلب نحن أيضاً إذا إلى الله ونؤمن به في محبة ورجاء عظيم^(٣)، لكي يهبنا التعممة السماوية التي لعطية الرُّوح القدس، حتى يذربنا نحن أيضاً الرُّوح عينه ويقودنا إلى كلِّ مشيئة الله، ويريحنا بمختلف أوجه راحته. لكي بمثل هذا التدبير وبتمرين التعممة ونؤمن بالروحية نحسب أهلاً لبلوغ كمال ملء المسيح، كما يقول الرَّسول: ”لِكُنْ تَعْتَلُوا إِلَى كُلِّ

(١) حرفيّاً: ”πνεῦμα“ = روحًا.

(٢) انظر: غل: ٥، ٢٢، ٢٣.

(٣) للالاحظ كيف يورد هنا أنها مقار في جملة واحدة الفضائل الثلاث العظمى (را: ١ كرو: ١٣).

مِلْءُ الْمَسِيحِ» (أف ٣ : ١٩)^(١)، وأيضاً: «إِلَى أَنْ نَصِّلَ جَمِيعَنَا إِلَى رَجُلٍ كَامِلٍ ... إِلَى قِيَاسِ قَامَةِ مِلْءِ الْمَسِيحِ» (أف ٤ : ١٣). فلقد وعدَ الرَّبُّ كُلَّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ويسأَلُونَهُ بِالْحَقِّ بِأَنْ يُعْلَمَ عَلَيْهِمْ بِأَسْرَارِ شَرِكَةِ الرُّوحِ الْقَدِسِ، تَلِكَ الشَّرِكَةُ الَّتِي لَا يَعْبُرُ عَنْهَا. فَلَنَنْدُرْ نَحْنُ أَيْضًا ذَوَاتِنَا لِلرَّبِّ بِالثَّمَامِ، وَلْنُسْرَعْ لِكِي نُخْطِلَ بِتَلِكَ الْخِيَرَاتِ سَالِفَةَ الذِّكْرِ، وَلْنُصْرِّ - وَقَدْ تَكْرَسْنَا نَفْسًا وَجَسْدًا، وَسَهَّلْنَا عَلَى صَلِيبِ الْمَسِيحِ - جَدِيرِينَ بِالْمَلَكُوتِ الْأَبْدِيِّ، مَجْدِيْنَ الْآبَ وَالْابْنَ وَالرُّوحِ الْقَدِسِ إِلَى الدُّهُورِ، آمِينَ.

(١) هذه الآية وردت هكذا كما في نص العظة ("المسيح" بدلاً من "الله") في بعض المخطوطات القديمة للعهد الجديد.

العظة التاسعة عشرة

التَّغْصُبُ ... سُبْلُ الْمُتَلَادِ مِنَ الرُّوحِ

[المسيحيون الذين يبتلون التقدُّم والأنمو ينبعون لهم أن يغرسوا ذاتهم نحو كل صلاح، حتى يفتداوا من الخطيئة الماكنة فيهم ويمتلئوا من الروح القدس]

[ب] سُكُنُ الرُّوحِ الْقَدِيسِ فِي الْقَلْبِ

[أ] ضرورة التَّغْصُبُ نَحْوِ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ



[أ] ضرورة التَّغْصُبُ نَحْوِ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ

١ - الذي يريد أن يأتي إلى الرب ويتَّهَل للحياة الأبدية ويصير مسنيكاً لل المسيح ويحتلي من الروح القدس، حتى يمكنه أن يصنع ثمار الروح ووصايا المسيح بنقاوة وبلا لوم، يلزمـه أن يبدأ هكذا: أولاً يؤمن بالرب بثبات^(١)، ويكرس نفسه بالثمام لكلمات وصاياه، وينبذ العالم بالكلية، لكي لا يشغل عقله البة بشيء من المنظورات. وينبغي له أن يواطِب على الصلاة^(٢) كل حين، منتظرًا الرب في إيمان، ومتوقعاً على الدوام افتقاده

(١) $\beta\epsilon\betaai\omega\varsigma$ = بثبات، وقد ورد الفعل $\beta\epsilon\betaai\omega\varsigma$ مرتبطة أيضًا بالإيمان في كورنيليوس ٧: ٢.

«مُؤْطَّلُون $\beta\epsilon\betaaiou\mu\epsilon\nuoi$ في الإيمان».

(٢) ورد تعبير "المواظبة على الصلاة" $\pi\rho o\sigma\kappa\alpha\tau e\pi\tau$ في ثلاثة مرات في هذه العظة (انظر: حاشية ٣ صفحة ١٤٤ - العظة ٣).

و معونته، و موجّهاً نظر ذهنه أبداً صوب هذا الغرض. ثم يتوجّب عليه، بسبب الخطيئة الملزمة له، أن يغصب نفسه إلى كل صلاح وإلى كل وصايا ربّ: فمثلاً ليغصب نفسه إلى التواضع أمام كل إنسان، وليرحّب نفسه أدنى وأشار الكل، غير طالبٍ من أحدٍ كرامة أو مدحًا أو مدحَ الناس كما هو مكتوب في الإنجيل^(١)، بل جاعلاً ربّه وحده ووصاياه أمام ناظريه على الدّوام، مبتغيًا إرضاءه هو فقط في وداعٍ قلبٍ، كما يقول ربّ: «تعلّمُوا متي لآتني وديعٌ ومتواضع القلب، فتحذّروا راحَةً لنفسِكم» (مت ١١: ٢٩).

٢ - بالمثل فليعود نفسه بكل قوته أن يكون رحيمًا، لطيفًا، شفوقًا، صالحًا، كما يقول ربّ: «كُنُوْا صَالِحِينَ وَلُطْفَاءَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاءِ أَيْضًا رَحِيمٌ» (لو ٦: ٣٦ - حسب النّصّ)، وأيضاً يقول: «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونِي فَاحْفَظُوا وَصَائِبَاتِي» (يو ١٤: ١٥)، وأيضاً: «اغصِبُوا ذُواتِكُمْ، لأنَّ الْغَاصِبِينَ يُخْتَطِفُونَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (مت ١١: ١٢ - حسب النّصّ)، و«اجتَهِدُوا أَنْ تَدْخُلُوا مِنَ الْبَابِ الضَّيقِ» (لو ١٣: ٢٤). وفوق الكلٍ فليتذكّر بلا نسيانٍ تواضع ربّ وسيرته ودعّته وسلوكه كمثال لا ييرح ذاكرته؛ وليرواكب على الصّلوات، متوكلاً على الدّوام بياحانٍ، لكي

(١) انظر مثلاً: يو ٥: ٤١؛ ١٢: ٤٣.

يأْنِ الرَّبُّ ويسكَنَ فِيهِ وَيُكَمِّلَهُ^(١) وَيُمْكِنُهُ مِنْ جُمِيعِ وصَايَاهِ، وَلَكِي يَصِيرَ الرَّبُّ ذَاتُهُ مَسْكِنًا لِلنَّفْسِ. وَهَكُذَا إِنَّمَا يَصْنَعُهُ اللَّهُ بِتَغْصُّبٍ، مُخْضِعًا قَلْبَهُ، سِيفْعَلُهُ فِيمَا بَعْد طُوعًا إِنْ كَانَ يُعَوِّدُ نَفْسَهُ دَوْمًا عَلَى الصَّلَاحِ، وَيَذْكُرُ الرَّبَّ كُلَّ حِينٍ، وَيَنْتَظِرُهُ بُحْرٌ شَدِيدٌ. إِنَّ الرَّبَّ حِينَئِذٍ لَمَّا يَنْتَظِرُ مُثْلَ هَذَا الْعَزْمِ وَهَذِهِ الْحَمِيمَةِ الْحَسَنَةِ: كَيْفَ أَنَّهُ يَغْصُبُ ذَاتَهُ إِلَى تَذْكُرِ الرَّبِّ إِلَى الصَّلَاحِ عَلَى الدَّوَامِ، وَيَكْرُهُ قَلْبَهُ - وَإِنْ لَمْ يَشَأْ - إِلَى التَّوَاضُعِ وَالْوَدَاعَةِ وَالْمُحِبَّةِ، وَيَسْلُكُ بِتَغْصُّبٍ بِكُلِّ مَا فِي وُسْعِهِ، فَإِنَّهُ يَصْنَعُ حِينَئِذٍ رَحْمَتَهُ مَعَهُ وَيَفْتَدِيهُ مِنْ أَعْدَائِهِ وَمِنْ الْخَطِيئَةِ السَّاكِنَةِ فِيهِ وَيَحْلُّهُ مِنْ الرُّوحِ الْقَدِيسِ. وَهَكُذَا مَذْذَكَرٌ يَعْمَلُ بِالْحَقِّ كُلَّ وصَايَا الرَّبِّ بِلَا تَغْصُبٍ وَلَا تَعْبُ، بل بِالْأَحْرَى الرَّبُّ نَفْسُهُ هُوَ الَّذِي يَعْمَلُ وصَايَاهُ الْخَاصَّةُ فِيهِ، فَيَشْمُرُ عَنْدَئِذٍ بِنَقاوَةٍ ثُرَّ الرُّوحِ^(٢).

٣ - فَيَجِبُ أَوَّلًا عَلَى مَنْ يَأْنِي إِلَى الرَّبِّ أَنْ يَغْصُبَ ذَاتَهُ هَكُذَا إِلَى الصَّلَاحِ، وَلَوْ لَمْ يُرِدْ قَلْبُهُ، مُنْتَظَرًا رَحْمَتَهُ كُلَّ حِينٍ فِي إِيمَانٍ لَا ارْتِيَابٍ فِيهِ؛ فَيَغْصُبُ نَفْسَهُ إِلَى الْمُحِبَّةِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ عَنْهُ مُحِبَّةٌ، وَيَغْصُبُ نَفْسَهُ إِلَى الْوَدَاعَةِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ عَنْهُ وَدَاعَةٌ، وَيَغْصُبُ نَفْسَهُ إِلَى أَنْ يَكُونَ رَؤُوفًا ذَا قَلْبٍ رَحِيمٍ،

(١) الفعل *καταρπίω* يمكن في هذا السياق أن يعني يكتبل (عب ١٣: ٤٢١ بـ ٥: ١٠)، أو يجهجي (مت ٢١: ٤٦ عـ ١: ٥).

(٢) انظر: غل ٥: ٢٣، ٢٢.

ويغصب نفسه إلى المحرقة، وإلى طول الأناة إذا ما احتقر، وإلى عدم العيظ إن أزدرى به أو أهين، كالمكتوب: «لَا تَنْتَقِمُوا لِأَنفُسِكُمْ أَيُّهَا الْأَجَاءُ» (رو ١٢: ١٩). وليرغصب نفسه إلى الصلاة، حتى ولو لم يكن له صلاة روحانية. وهكذا لمَّا ينظره الله مجاهداً على هذا التحول ومُكِلِّفاً نفسه عنوةً، رغم إباء قلبه، يهبه حينئذ صلاة الروح القدس الحقيقة، ويهبه محبةً حقيقةً، ووداعةً حقيقةً، و«أَحْشَاءَ رَأْفَاتٍ»^(١)، ولطفاً حقيقياً، وبالإجمال يملأه من ثمر الروح.

٤ - أمَّا إِنْ كَانَ أَحَدٌ، بِسَبِبِ افْتَقَارِهِ إِلَى الصَّلَاةِ، يغصب نفسه إلى الصلاة وحدها لكي يحظى بصلاة التنعم، ولكنه لا يغصب نفسه إلى الوداعة والتواضع والمحبة وبقي وصايا الرَّبِّ، ولا يُسَايِلُ ويتوَجَّعُ ويُجَاهِدُ لتكميل تلك الأمور بأقصى ما له من نية وإرادة حرَّة، فإنَّه يُعطَى في بعض الأوقات - جزئياً، وبحسب طلبه - صلاة التنعم في راحةٍ وفرحٍ من الروح القدس، غير أنَّه يلتبث في سيرته على الحال الْتِي كان عليها قبلًا، فلا تكون له وداعه لأنَّه لم يتمسها بتوجُّعٍ ولا سَبَقَ فأعده نفسه ليصير هكذا، ولا يظفر بتواضعٍ لأنَّه لم يطلبه ولا غَصَبَ نفسه إليه، ولا يقتني محبةً نحو الجميع لأنَّه لم يعبأ بهذا الأمر ولا جاهد من أجله بالسؤال في الصلاة وبصرف عنايته إلى ممارسته، ولا يكون له إيمانٌ وثقةٌ من نحو الله لأنَّه ما عَرَفَ ذاته

(١) كو ١٢: ٣

ولَا مَيْزَ أَنَّهُ عَادِمٌ مِنْ هَذَا وَلَا كَدَّ وَتَجْشِيمُ الضَّيقِ طَالِبًا مِنَ الرَّبِّ أَنْ يَظْفَرَ
بِإِيمَانٍ وَطَيِّدَ بِهِ وَثَقَةً حَقِيقَةً مِنْ نَحْوِهِ.

٥ - لِأَنَّهُ مِنَ الضرُورَةِ بِمَكَانٍ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنَّهُ كَمَا يَغْصُبُ نَفْسَهُ وَيَقْتَسِرُهَا
إِلَى الصَّلَاةِ، وَإِنْ لَمْ يَرْغُبُ الْقَلْبُ، هَكُذا أَيْضًا يَغْصُبُهَا إِلَى التِّقَةِ، وَهَكُذا أَيْضًا
إِلَى التَّوَاضُعِ، وَهَكُذا إِلَى الْحَبَّةِ، وَهَكُذا إِلَى الْوَدَاعَةِ وَكُذا إِلَى الْبِرَاءَةِ وَالْبِساطَةِ،
وَهَكُذا - كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ - «إِلَى كُلِّ صَبَرٍ وَطُولِ أَنَّا بِرَحْمَةِ رَبِّنَا» (كِو١: ١١)،
وَهَكُذا إِلَى احْتِقارِ ذَاتِهِ وَخُسْبَانِهِ فَقِيرَةً وَأَخْيَرَةً، وَهَكُذا إِلَى عَدَمِ التَّكَلُّمِ بِمَا لَا
يَجْدِي نَفْعًا بِلِلَّهِ كُلَّ حِينٍ بِمَا هُوَ لَهُ وَالْتَّكَلُّمُ بِهِ بِالْفَمِ وَالْقَلْبِ، وَهَكُذا
إِلَى عَدَمِ السَّخْطِ وَعَدَمِ الصَّيَاخِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «لَيُرْفَعَ مِنْ يَئِنْيُكُمْ كُلُّ مَرَأَةٍ
(وَسَخَطٌ) وَغَضَبٌ وَصِيَاخٌ (وَتَحْدِيفٌ)^(١) مَعَ كُلِّ خُبْثٍ» (أَف٤: ٣١).
وَيَغْصُبُهَا أَيْضًا إِلَى كُلِّ طُرُقِ الرَّبِّ، وَإِلَى كُلِّ مَارِسَةٍ لِلْفَضْلَيَةِ وَلِلْسَّيِّرَةِ الصَّالِحةِ
الْحَسَنَةِ، وَإِلَى كُلِّ سُلُوكِ صَالِحٍ، وَإِلَى كُلِّ تَوَاضُعٍ وَوَدَاعَةٍ، وَإِلَى عَدَمِ الْكَبَرِيَاءِ
وَالْتَّشَامِخِ وَالْأَنْفَاخِ وَالْتَّكَلُّمِ بِالشَّرِّ ضَدَّ أَحَدٍ.

٦ - إِلَى جَمِيعِ هَذِهِ يَلْزَمُ أَنْ يَغْصُبُ نَفْسَهُ ذَاكُ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مُنْزَكًا
وَمَرْضِيًّا عِنْدَ الْمَسِيحِ، حَتَّى إِذَا رَأَى الرَّبُّ شَدِيدَ رَغْبَتِهِ وَنِيَّتِهِ فِي أَنْ يَسْلُكَ
يَغْصُبُ وَيَقْتَسِرُ ذَاتَهُ هَكُذا إِلَى كُلِّ صَلَاحٍ وَبِسَاطَةٍ وَلَطْفٍ وَتَوَاضُعٍ وَمحَبَّةٍ

(١) وَرَدَتْ كَلِمَتَا «سَخْطٌ وَتَحْدِيفٌ» (كَمَا فِي النُّصْنَ الإِنْجِيلِيِّ) فِي الْPG فَقْطَ (C 645, 34 PG).

وصلاة، حينئذٍ يعطيه الربُّ كلَّ ذاتِه ويصنع الربُّ نفسه فيه بالحقّ وبنقاوةٍ جميع هذه الأمور بلا تعَبٍ ولا تغصَب، تلك التي كان قبلاً لا يقوى على حفظها حتَّى ولا كثُرَّها بسبب الخطيئة السَاكنة فيه، وتُصبح له سائِرُ أعمالِ الفضيلة وكأنَّها طبيعية. لأنَّه مُذْ ذاك يأتي الربُّ ويصير فيه وهو يصير في الربِّ^(١)، ويُعمل الربُّ فيه وصاياه الخاصة دوَّنَ مشقةً، مالِقاً إيماناً بشمر الروح. أمَّا إنْ كان أحدُ يغضِبُ نفسه إلى الصَّلاة فقط ريشما ينال نعمتها من لُدُنِ الله، دونَ أنْ يغضِب نفسه بالتساوي ويقتصرها ويُعوِّدُها على هذه الفضائل السَّابق ذكرها، فإنَّه لا يمكنه أنْ يصنعها بالحقّ وبنقاوةٍ وبلا لوم. فالذِّي يلزمُه هو أنْ يسبق ويعُدُّ نفسه بكلِّ قدرته إلى الصَّلاح، إذ يحدثُ أحياناً أنْ تنعطف نحوه النِّعمة الإلهية إذا ما طلب وتوسل إليها - لأنَّ الله صالحٌ وخَيْرٌ ويهبُّ الذين يسألونه ما يطلبون - ولكنَ لأنَّه لا يملك الفضائل آنفة الذِّكر ولم يعتدُ عليها ولم يسبق ويهبُّ نفسه لها، فإنَّه وإنْ يتألُّها، يفقد النِّعمة التي نالها ويسقط في الكبراء، أو (على الأقل) لا يتقدَّم وينمو في النِّعمة التي صارت إليه، لأنَّه لم يكُرِّس نفسه باختياره إلى وصايا الربِّ. ذلك لأنَّ مَسْكِنَ الرُّوح القدس وراحته هما التَّواضع والمحبَّة والوداعة وبقية وصايا الربِّ.

٧ - فينبغي إذاً من يروم حقاً أنْ يُرضي الله ويقبل منه نعمة الروح

(١) انظر: يو ١٤: ٢٠.

القدس السَّماوية وينمو ويُكَمِّل في الرُّوح القدس، أَنْ يغتصب نفسه إلى جميع وصايات الله، وأنْ يخضع لها قلبَه الرَّافض، حسب المكتوب: «لِأَجْلِ هَذَا ثُجَاهَ كُلِّ وَصَايَاكَ تَقَوَّمْتُ، وَكُلَّ طَرِيقٍ ظُلْمٌ أَبْغَضْتُ» (مز ۱۱۸: ۱۲۸س). لأنَّه كما يغتصب الإنسان نفسه ويقتسرها إلى المشابهة على الصَّلاة حتَّى يَقُومْ هذا؛ بالمثل فإنَّه - إِنْ يَشَأْ - يغتصب نفسه أيضًا ويقتسرها إلى جميع أعمالِ الفضيلة ويعتادها كعادَةٍ صالحة. وهكذا - بطلبِه وتلوُّله إلى الرَّبِّ على الدَّوام، وظَفَرِه بطلبِه، ونَيْلِه مذاقَةَ الله، واشتراكِه في الرُّوح القدس - يُنْمِي التَّعْمَةَ المعطَاةَ له وينعيَّشُها، إذ تستريح في اِتضاعِه ومحبَّته وودِّه.

[ب] شُكُوكُ الرُّوح القدس في القلب

٨ - فالرُّوح نفسه يُنعم عليه بهذه ويعْلَمُه الصَّلاة الحقيقية والمحبَّة الحقيقية والوداعة الحقيقية، هذه الْتِي سبقَ وغَصَّبَ نفسه إليها وطلبَها وعُزِّيَّ بها ولهجَ فيها فأُعْطِيَت له. وهكذا إذ ينمو ويُكَمِّل في الله، يُحَسَّبُ أهلاً لأنَّه يرثُ الملائكة. فإنَّ المتواضع لا يسقط أبداً، لأنَّه مِنْ أين يسقط مَنْ هو كائِنٌ تحتِ الكل؟^(١) فالكبriاء إنما هو مذلة^(١) عظيمة، بينما الاضطلاع

(١) هذا المقطع الروحي البسيط البليغ عن عدم إمكانية سقوط المتواضع، نجده متغللاً ثانياً بستان الرُّعبان وعلى أنفوا الآباء القديسين، ونورد هنا على سبيل المثال لا المحصر ثلاثة أقوال نحوية ذات المقطع:

رفعة عظيمة وكراهة سمو. لذلك فلنغصبنَّ نحن أيضًا ذاتنا ونقتسرُّها إلى التواضع - ولو لم يرُّد قلبنا - وإلى الوداعة وإلى الحبّة، متواسِلينًّا وضارعينًّا إلى الله في إيمانٍ ورجاءً ومحبةً، بلا انقطاع، في انتظارِ هذا مقداره وتَرْقُّبٍ، لكي يرسل روحه إلى قلوبنا حتى نصلّى ونسجدَ لله «بِالرُّوحِ وَالْحُقْقِ»^(٢).

٩ - فيصلّي الروح نفسه في داخلنا، لكي يعلّمنا الروح ذاته الصلاة الحقة التي لا نقتنيها الآن حتى ولو قسراً، والتواضع الحقيقي الذي لا نقدر أن نحققه الآن حتى ولو غصباً، و«أَحْشَاءَ رَأْفَاتٍ وَلُطْفَاءَ»^(٣) وكلّ وصايا ربّ - يعلّمنا أن نعملها بالحقّ وبلا تعب^(٤) ولا غصب. لأنّ الروح نفسه يعرف أن يملأنا بثماره، وهكذا - إذا ما أتممنا وصايا الله بواسطة روحه الذي هو وحده يعرف مشيئة ربّ، وإذا كمّلنا الروح في نفسه وتكامل

+ قال أبا برصوفيوس: المُتَضَعُ كائِنٌ في أَسْفَلِ، وَالَّذِي هُوَ فِي أَسْفَلِ فَلَنْ يَقْعُدْ. (قول ٢٦٧)

+ قال شيخ: كما أنّ الأرض لا تسقط أبداً لكونها موضوعة هكذا إلى أَسْفَلِ، كذلك من وضع ذاته لا يسقط أبداً. (قول ٥٥٥)

+ قال أبا بيمين (أحد تلاميذ أبا مقار الكبير): كما أنّ الأرض لا تسقط لأنّها أَسْفَلِ، هكذا من يضع نفسه لا يسقط. (قول ٧٢٣)

(١) ταπείνωσις = تواضع، ولكن هنا ترد كلمة ταπείνωσις بمعناها السليبي.

(٢) يو ٤: ٢٤

(٣) كو ٣: ١٢

(٤) وردت في PG "بِلَا حَرْجٍ ἀλύπως" بدلاً من "بِلَا تَعْبٍ ἀκόπως". (PG 34, 649 A)

هو فينا، وصرنا مُطَهَّرين من كُلِّ دنسِ الخطيئة وعینها - يَرْزُفُ نفوسَنا
للمسيح، طاهرةً وبلا عيْنٍ، كعائسٍ بھيَّة، فنستريح في الله، في ملکوته،
ويستريح الله فينا إلى الدُّهور الَّتِي لا نَهايَةَ لَهَا. فاجد لرأفاته ورحمته
ومحبته، لأنَّه مثل هذه الكرامة والجد أَهْل جنس البشر - أَهْلَمُهم بنينَ
للآب السَّماوي، ودعاهم إخوتَه الأَخْصَاء، فله الجد إلى الدُّهور، آمين.

العظة العشرون

المسيح ... لباس النفس وطبيبها الوحد

[وحدة المسيح، الطبيب الحقيقي للإنسان الباطن، يقدر أن يشفى النفس ويُزيّنها
لباس النعمة]

[ا] المسيح وروحه القدس هما لباس النفس [ب] المسيح هو طيب النفس الوحد



[ا] المسيح وروحه القدس هما لباس النفس

١ - إنْ كان أحد عرياناً من الْلِبَاسِ الإلهيِّ السَّماويِّ، الَّذِي هو قوَّةُ الرُّوحِ القدس - كما قيل: «إنْ كان أحد لَيْسَ لَهُ رُوحُ المَسِيحِ، فَذَلِكَ (الإِنْسَانُ) لَيْسَ لَهُ (أي لِيسَ لِلْمَسِيحِ)» (رو ٨: ٩) - فَلَيَبْلُكِ ولْيَتَضَرَّعَ إِلَى الرَّبِّ لِكِيمَا يَنَالُ مِنَ السَّمَاءِ الْلِبَاسَ الرُّوحَانِيِّ، حَتَّى تكتسِي^(١) نَفْسَهُ الَّتِي قد تعرَّتْ مِنَ القوَّةِ الإلهيَّةِ، لأنَّ مَنْ لا يلبَسُ لباسَ الرُّوحِ القدس فقد تسربَل بالخزيِّ العظيمِ الَّذِي «لأْهْوَاءِ الْهُوَانِ»^(٢).

(١) وردت في هذه العظة أربعة أفعال متراوفةُ المعنى، وترجمت على النحو التالي:

ένθύω بليس؛ σκυψίασσω يكتسي؛ περιβάλλω يتسربل؛ φορέω يرتدي أو يلبس.

(٢) رو ١: ٢٦.

فكم أَنَّه في الأمور المنظورة، إِنْ كَانَ أَحَدُ عُرْيَانًا يَكُونُ فِي خَزِيرٍ وَهُوَانٍ عَظِيمَيْنِ، وَالْأَصْدِقَاء يُعْرِضُونَ عَنْ أَصْدِقَائِهِمُ الْعَرَاءِ، وَالْأَقْرَبَاءُ عَنْ ذُوِّيهِمْ، وَالْأُولَادُ إِذَا مَا لَحِوا بِأَبَاهِمْ قَدْ تَعَرَّى يُحَوِّلُونَ وُجُوهَهُمْ لِكَيْ لَا يَرَوْا جَسَدَ أَبِيهِمْ عَارِيًّا، وَيَرْجِعُونَ الْفَهْمَرِيَّ^(١) وَيَسْتَرُونَهُ ثُمَّ يَرُدُّونَ وُجُوهَهُمْ؛ كَذَلِكَ اللَّهُ أَيْضًا يُعِرِّضُ عَنِ النُّفُوسِ الَّتِي لَا تَلْبِسُ لِبَاسَ الرُّوحِ فِي يَقِينِهِنَّ، وَعَنِ الَّذِينَ لَا يَلْبِسُونَ الرَّبَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ بِالْقَوَّةِ وَالْحَقِّ.

٢ - إِنَّ الْإِنْسَانَ الْأَوَّلَ نَفْسَهُ حَالَمَا نَظَرَ ذَاتَهُ عُرْيَانًا شَمِيلَهُ الْخَزِيرُ، إِذْ إِنَّ خَزِيرًا هَذَا مَقْدَارَهُ يَلْازِمُ الْعَرَى^(٢). إِنَّ كَانَ فِي الْأَمْوَارِ الْجَسْدَانِيَّةِ يُظَهِّرُ الْعَرَى مُثْلَهُ هَذَا الْخَزِيرُ، فَكَمْ بِالْأَحْرَى النُّفُسُ الْعَارِيَّةُ مِنَ الْقَوَّةِ الإِلَهِيَّةِ، الَّتِي لَا تَرْتَدِي وَلَا تَكْتَسِي حَقًّا بِاللِّبَاسِ الرُّوحَانِيِّ غَيْرَ الْفَاسِدِ وَلَا الْمَنْطُوقُ بِهِ، أَيِّ الْرَّبُّ يَسُوعُ الْمَسِيحُ نَفْسَهُ، فَإِنَّمَا تَكُونُ قَدْ تَسْرِيَّلَتْ بِخَزِيرٍ أَعْظَمَ - خَزِيرٍ الْآَلَامُ وَهُوَانُهَا. وَكُلُّ مَنْ كَانَ عَارِيًّا مِنْ ذَلِكَ الْمَجْدِ الإِلَهِيِّ، يَلْزَمُهُ أَنْ يَخْجُلَ هَكُذا مِنْ نَفْسَهُ وَيَعْرُفَ هُوَانَهُ، كَمَا أَنَّ آدَمَ - جَسْدِيًّا - كَانَ يَغْشَاهُ الْخَجْلُ لِأَنَّهُ عَرِيَانٌ. وَمَعَ أَنَّهُ صَنَعَ لَنَفْسِهِ ثُوبًا مِنْ أُورَاقِ التِّينِ، إِلَّا أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ كَانَ يَرْتَدِي الْخَزِيرَ، عَالِمًا بِفَقْرِهِ وَعَرِيهِ. فَلَتَطْلُبْ مُثْلُ هَذِهِ النُّفُسِ مِنْ

(١) كَلْمَةٌ = *όπισθοφανῶς* = إِلَى خَلْفِ، لَمْ تَرِدْ فِي الْعَهْدَيْنِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةٍ فَقْطَ، فِي تِكْ ٩:٢٣ س، فِي وَضْفَرِ رَجُوعِ سَامِ وَيَافِثِ الْفَهْمَرِيِّ لِسْتَ أَيْمَهَا نَوْجَ.

(٢) انْظُرْ: تِكْ ٣:٧.

المسيح الذي يعطي المجد^(١) أن يكشوها به في نور لا يُعَيِّر عنه، ولا تصنعن لنفسها ثواباً من أفكارٍ باطلة، خادعةٌ ذاتها بزعم بريها الخاص ومتوهمة اقتناءها ثواب الخلاص.

٣ - لأنَّه إنْ كان أحدٌ يُعَوِّل على بره فقط، دون أن ينتظر بره الله الذي هو الربُّ «الذِي صَارَ لَنَا بِرًا وَفِدَاءً» كما قيل (١ كورس ٣٠ : ١)، فإنَّه باطلٌ وعبئاً يتبع، لأنَّ كلَّ ظنه ببره سوف يستعلن في اليوم الأخير «كخرقةٍ طامتِ»، كما يقول إشعيا النبي: «قَدْ صَارَ كُلُّ بِرِّنَا مِثْلَ خِرْقَةٍ طَامِتِ» (إش ٦٤ : ٥ س). فلنسائل الله ولنضرغ إليه أنْ يُلِسِّنَا «ثواب الخلاص»^(٢)، أي رئنا يسوع المسيح، النُّورُ الذي لا يوصف، الذي إذا ما لبسته النفوس فلن تخلعه إلى الدهور^(٣)، بل إنَّ أجسادها أيضاً ستتمجد في القيامة بالجed التوراتي الذي تسربلت به منذ الآن النفوس الأمينة^(٤) النبيلة، كما يقول الرسول: «الذِي أَقامَ الْمَسِيحَ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَيِّخِي أَحْسَادَكُمُ الْمَائِنَةَ أَيْضًا بِرُوحِهِ السَّائِكِينَ فِيكُمْ» (روم ٨ : ١١)، فالمجد لشفقته التي لا يُنطق بها ورحمته التي لا يُعَيِّر عنها!

(١) انظر: يو ١٧ : ٢٢.

(٢) إش ٦١ : ١٠ س: «وَسَيَّئِهِمُونَ إِلَيْهَا جَاءَ بِالرَّبِّ. فَلُتَّهُلُّنَّ نَفْسِي بِالرَّبِّ لِأَنَّهُ أَنْتَ نَفْسِي ثَوْبُ الخلاص ورداء الاتهام. وَضَعَ عَلَى عَمَّامَةٍ مِثْلَ عَرَبِيْسِ، وَزَيَّنَتِي بِرِينَةٍ مِثْلَ عَرَوِيْسِ».

(٣) الربُّ يسوع نفسه هو ثواب الخلاص الذي يلبسه المؤمنون (انظر: رو ١٣ : ١٤ غل ٣ : ٢٧).

(٤) αι πισται = الأمينة أو المؤمنة.

[ب] المسيح هو طبيب النفس الوحيد

٤ - وأيضاً كما أنَّ المرأة نازفة الدُّم حين آمنت بالحقٍّ ومسَّتْ هُدْبَ السَّيِّدِ، نالت الشفاء للتوِّ وجفَّ نزفُّ الينبوع النَّجس لدمها^(١)؛ هكذا كلُّ نفسٍ أثْخَنَها جُرْحُ الخطيئة عديم الشِّفاء، أي ينبعُ الأفكار الشَّرِّيرة النَّجسَة، إنْ هي تقدَّمت إلى المسيح وتتوسَّلت، مؤمنة حَقّاً، فإِنَّما تناول الشِّفاء والخلاص^(٢) من ينبع آلامها العُضال، ويجفَّ ذلك الينبوع الذي ينبع الأفكار النَّجسَة ويأخذ في النُّضوب بقدرة يسوع وحده، وليس بأحدٍ آخرٍ يمكن لهذا الجرح أنْ يندمل. لأنَّ هكذا قد رَسَّم العدوُّ في تعديِّي آدم، أن يجرح الإنسان الباطن القائد للعقل والنَّاظر لله ويسدِّل عليه ظلمته، فَشَحَّصَتْ إذ ذاك عيناً الإنسان إلى الشُّرُور والأهواء وانغلقت عن الخيرات السَّمَّاوية.

٥ - فإِنَّه هكذا قد جُرْحَ الإنسان الباطن، حتى إنَّ أحداً لا يمكنه شفاءه سوى الرَّبِّ فقط، فهو وحده يستطيع ذلك. لأنَّه هو لمَّا أتى رفع خطيئة العالم^(٣)، أي جَفَّفَ ينبعُ أفكارَ النفس النَّجس. فكما أنَّ نازفة الدُّم تلك أنفقت كلَّ ما تملِّك على من كانوا يعذُّونها بالشِّفاء ولم تصِّحَّ من

(١) انظر: مت ٩:٤٢٢؛ مر ٥:٤٢٩؛ لو ٨:٤٤.

(٢) حرفيًّا: ”ιάσεως σωτηρίου“ = الشِّفاء المُخلص، أو الشِّفاء الخلاصي“.

(٣) انظر: يو ١:٢٩.

مرضها بواسطة أيٍّ منهم، إلى أنْ دَنَتْ من الرَّبِّ مؤمنةً حَقًّا وَمَسَّتْ هُدْبَهُ، وهكذا للوقت أحسَّت بالشفاء وتوقف نزيفُ دمها؛ كذلك النَّفْس المكلومة منذ البدء بجُرح أهواه الشَّرِّ عَدِيم البُرُءَةِ، لم يقدر أحدٌ - لا من الأبرار ولا من الآباء ولا من الأنبياء ولا من رؤساء الآباء - أنْ يَشْفِيَها.

٦ - فلقد جاء موسى لِكُلِّهِ ما استطاع أنْ يُعْطِي شفاءً تاماً؛ فكان في زمان النَّاموس كهنةً، وتقديمات، وعشورٍ، وسبوتٍ، ورؤوسٍ شهورٍ، وغسلاتٍ، وذبائحٍ، وحرقاتٍ، وكلُّ بقيةِ البرِّ، وما استطاعت النَّفْسُ أنْ تُشْفَى وتتطهَّر من نزيف الأفكار الخبيثة النَّجْسِ، ولم يُسعِفها كُلُّ برِّها لِكَي تبَرُّ؛ إلى أنْ جاء المُخلِّصُ، الطَّبِيبُ الحَقِيقِيُّ، الَّذِي يَداوِي مجَانًا، الَّذِي بَذَلَ ذَاتَه فديةًّا لأجل جنس البشر^(١). هو وحده صنع فداء النَّفْس العظيم الخلاصيَّ وشفاءها؛ هو عَتَقَها من العبوديَّة وأخرجها من الظلمة ومجَّدها بنورِه الخاصَّ؛ هو أَنْضَبَ ينبوغ الأفكار النَّجْسَةَ فيها، لأنَّه يقول: «هُوَ ذَا حَمَلَ اللَّهُ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيئَةَ الْعَالَمِ» (يو ١ : ٢٩)^(٢).

٧ - ذلك أنَّ أدويتها الأرضيَّة، أعني أعمالَ برِّها الخاصَّ فقط، ما استطاعت أن تداوِيها وتشفيها مِن مثل هذا الجُرح غير المنظور، بل إنَّه

(١) انظر: مت ٢٠ : ٤٢٨، مر ١٠ : ٤٦.

(٢) هذه الفقرة التي تُغَيِّرُ بائناً لا شفاء للنَّفْس إلَّا بالمسیح، وتقارن عمله بعمل السَّابقين له بدءاً من موسى، نجد لها ما يقابلها في رسائل ق. أنطونیوس (انظر: الرسائل ٣ : ٢٤٢، ٤٢ : ٢).

بواسطة الطبيعة السماوية الإلهية التي لعطيه الروح القدس - بواسطة هذا الدواء فقط استطاع الإنسان أن ينال الشفاء ويبلغ الحياة، متطهراً في قلبه بالروح القدس. لكن كما أن تلك المرأة، وإن لم يمكنها الشفاء ولم يُداو جُرُحها، فقد كان لها رغم ذلك قدمان لكي تأتي بهما إلى الرَّبِّ ومجيئها نالت البرء؛ وبالمثل أيضاً ذلك الأعمى، وإن تعرَّض عليه أن يجتاز ويأتي إلى الرَّبِّ لكونه لا يرى، إلَّا أنه أرسل صوتاً أمنضاً من الملائكة وراح يقول: «يا ابنَ داؤد ارحمْنِي» (مر ١٠: ٤٧؛ لو ١٨: ٣٨)، وهذا المَّا آمن نال الشفاء، إذ أتى الرَّبُّ إليه وجعله يبصر جلياً؛ هكذا النفس أيضاً ولئن تكن محروحة بـكُلُوم «أهواهِ الْهَوَانِ»^(١)، وعمياء جراء ظلمة الخطيئة، إلَّا أنَّ لها مع ذلك الإرادة أن تصرخ وتدعُّو يسوع لكيما يأتي هو ويصنع فيها «فداءً أندِيَّاً»^(٢).

٨ - فكما أن ذلك الأعمى لو لم يصرخ، ونافذة الدَّم لو لم تأتِ إلى الرَّبِّ، لما كانا قد نالا الشفاء؛ هكذا إن لم يأتي الإنسان إلى الرَّبِّ بمحض إرادته وبكمال اختياره، ويتولَّ بـ«يَقِينِ الإِيمَانِ»^(٣)، لا ينال الشفاء. فلماذا أولئك لما آمنوا كانوا يبرأون للوقت بينما نحن لم نبصر

(١) رو ١: ٢٦.

(٢) عب ٩: ١٢.

(٣) عب ١٠: ٢٢.

بعد بالحق ولم نيرا من الأهواء الخفية، مع أنَّ الرَّبَّ يُولِي بالحرى النَّفسَ غير المائة عنایةً أين منها عنایته بالجسد؟ هذه النَّفس التي إذا ما أبصرت - بحسب القائل: «اکْسِفْ عَنْ عَيْنِي» (مز ۱۱۸: ۱۸) - فلن تعمَى بعد إلى الأبد، وإذا ما ثالت الشِّفاء فلن تعود تُجْرِيَ بعد ذلك. لأنَّه إن كان الرَّبُّ بمجيئه على الأرض قد أظهر عنایته بالأجساد التي تفسد، فكم بالأحرى النَّفس غير المائة المخلوقة على صورته؟^(۱) لكننا لأجل عدم أمانتنا، وانقسامنا الدَّاخلي، وعدم محبتنا إياه من كلِّ القلب، وعدم إيماننا به بالحق، لم نتل بعد الشِّفاء الرُّوحاني والخلاص. إلا فلنؤمن به إذا ولنتقدَّم إليه بالحق، حتى يُجْرِي فينا سريعاً الشِّفاء الحقيقي، لأنَّه وَعَدَ بأنْ «يُعْطِي الرُّوح الْقُدُّسَ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ»^(۲)، وأن يفتح للَّذِين يقرعون، وأن يوجد للَّذِين يطلبونه^(۳)، والَّذِي وَعَدَ هو «مُتَّرَةٌ عَنِ الْكَذِبِ»^(۴)، «لَهُ الْمَجْدُ وَالْسُّلْطَانُ إِلَى الدُّهُورِ، آمِنٌ»^(۵).

(۱) انظر: العظة ۴: ۲۶.

(۲) لو ۱۱: ۱۳.

(۳) انظر: مت ۷: ۷؛ لو ۱۱: ۹.

(۴) تي ۱: ۲.

(۵) بط ۵: ۱۱.

العظة الحادية والعشرون

الحرب المزدوجة قبالة المسيحيين

[إنَّ حرباً مزدوجة منصوبة قبالة الإنسان المسيحي، أعني حرباً داخليةٍ وأخرى خارجيةٍ: وهذه في إعراضه عن الملاهي الأرضية، وتلك في القلب ضدَّ أفكار أرواح الشَّرّ]

- [أ] الإنسان المسيحي يواجه حرين
- [ب] الحرب تكشف لم يشرع في الجهاد
- [ج] سلاح الله الكامل



[أ] الإنسان المسيحي يواجه حرين

١ - إنَّ الَّذِي يُريدُ أَنْ يُرضِّي اللَّهَ بِالْحَقِّ، وَالَّذِي يُعَادِي حَقًّا جَانِبَ الشَّرِّ الْمَضَادَّ، تَكُونُ لَهُ مَصَارِعَة^(١) فِي سَاحِقٍ كَفَاحٍ وَجَهَادٍ: الْأُولَى فِي الْأَمْوَالِ الظَّاهِرَةِ هَذِهِ الْحَيَاةِ، إِذْ يُعْرِضُ عَنِ الْمَلَاهِي الْأَرْضِيَّةِ وَعَنِ الْمُحْبَّةِ الْإِرْبَابِاتِ الْعَالَمِيَّةِ وَعَنِ الْأَهْوَاءِ الْخَطِيبِيَّةِ؛ وَالْآخِرَى فِي الْأَمْوَالِ الْخَفِيَّةِ، إِذْ يَقَاوِيلُ ضَدَّ أَرْوَاحِ الشَّرِّ عِنْهَا، الَّتِي عَنْهَا يَقُولُ الرَّسُولُ: «فَإِنَّ مُصَارِعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ

(١) πάλη = مصارعة لم ترد في العهد الجديد إلا مرة واحدة، في ذات هذا السياق، في آف ٦: ١٢، وهي الآية التي سيوردها القديس في نهاية هذه الفقرة.

دِمْ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤْسَاءِ، مَعَ السَّلَاطِينِ، مَعَ وُلَادَ الْعَالَمِ عَلَى هَذِهِ الظُّلْمَةِ،
مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوْحِيَّةِ فِي السَّمَاوَيَاتِ» (أَفَ ٦ : ١٢) (١).

٢ - لأنَّ الإِنْسَانَ لَمَّا خَالَفَ الْوَصِيَّةَ وَنُفِيَّ مِنَ الْفَرْدَوسِ (٢) فُيَدَ بِطَرِيقَيْنِ
وَبِرَبَاطِينِ: أَوْلَاهُما فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، فِي أَمْوَارِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي مَحْبَّةِ الْعَالَمِ أَيْ مَحْبَّةِ
الْمَلَائِكَاتِ وَالْأَهْوَاءِ الْعَالَمِيَّةِ وَالغَيْرِيَّةِ وَالْمَجْدِ وَالْمَقْتِنَاتِ وَالْمَرْأَةِ وَالْأُولَادِ وَالْأَقْارَبِ
وَالْأُوْطَانِ وَالْمَوْاضِعِ وَاللِّيَاسِ، إِنْجَمَالًا سَائِرَ الْمَنْظُورَاتِ الَّتِي تَأْمِرُهُ كَلْمَةُ اللَّهِ أَنْ
يَنْفَكُّ مِنْهَا بِمَحْضِ اخْتِيَارِهِ - إِذْ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يُكَبِّلُ بِجُمِيعِ الْمَنْظُورَاتِ بِإِرَادَتِهِ -
حَتَّى إِذَا مَا فَكَّ نَفْسَهُ مِنْ جُمِيعِ هَذِهِ وَتَحَرَّرَ مِنْ رِقْتِهَا، يَسْتَطِعُ أَنْ يَصِيرَ مَالِكًا
لِلْوَصِيَّةِ بِالْتَّمَامِ؛ وَثَانِيهِمَا فِي الْحَفَاءِ، إِذْ قَدْ طُوقَتِ النَّفْسُ وَأَحْيَطَتْ وَسَيَّجَ
حَوْلَهَا وَكُبِّلَتْ بِسَلَاسِلِ الظُّلْمَةِ مِنْ قِبَلِ أَرْوَاحِ الشَّرِّ، فَمَا عَادَتْ قَادِرَةً أَنْ تَحْبَّ
الرَّبَّ كَمَا تَشَاءَ وَلَا أَنْ تَؤْمِنَ كَمَا تَشَاءَ وَلَا أَنْ تَصْلِيَ كَمَا تَشَاءَ. فَعَلَى كُلِّ وَجْهٍ،
إِنْ فِي الظَّاهِرَاتِ أَوِ الْخَفَيَّاتِ، قَدْ آلَتْ إِلَيْنَا الْعَدَاوَةُ مِنْ تَعْدِيِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ.

(١) بِجُدْنِي روحي لا ييارى استنهم أنيا مقار هذه الآية في نصيحة عملية لأولاده، إذ قال: «إِنْ
كَئَنْ تَنْذِّرُ الشَّرُورَ الَّتِي تَأْيِيَا مِنَ النَّاسِ نَقْطِعُ عَنَّا قَوَّةَ ذَكْرِ اللَّهِ (إِذْ إِنْ حَرَبَنَا لَيْسَ مَعَ دِمْ وَلَحْمٍ)؛ أَمَّا
إِنْ كَئَنْ تَنْذِّرُ شَرُورَ الشَّيَاطِينِ نَلِبَتْ عَيْنَ مُجْرِحِينَ». (Apoph., Mac., 36)

(٢) هذه الجملة παραβάτας τὴν ἐντολὴν καὶ ἔξορισθεὶς ἀπὸ τοῦ παραδείσου الجامعية لهذه الكلمات الأربع معاً تذكّرنا بمثيلها لها في القرآن الباسيلي، احتفظت فيها اللغة القبطية
بنفس الكلمات اليونانية، وذلك في قطعة «قدُوس قدُوس ...» التي يصليها الكاهن:
«وعندما خالقنا وصيّنك δέν πτζινθρενερπαραβενιν δε ητεκεντολη
نُفينا من فردوس التّعيم ατρεπεζοριζιν άμον εθολθεν πιπαραδισος ητε πογνωσ .

[ب] الحرب تكشف ملء يشرع في الجهاد

٣ - إِذَا، إِنْ كَانَ أَحَدٌ عِنْدَ سَمَاعِهِ كَلْمَةً اللَّهِ يُجَاهِدُ وَيُطْرَحُ عَنْهُ أَمْرًا
الْحَيَاةِ وَأَغْلَالِ الْعَالَمِ وَيُنَكِّرُ سَائِرَ الْمَلَدَّاتِ الْجَسْدِيَّةِ، حَالًا نَفْسَهُ مِنْهَا، حِينَئِذٍ
إِذَا مَا التَّصَقَ بِالرَّبِّ وَتَكَرَّسَ لَهُ، يُمْكِنُهُ أَنْ يَعْرُفَ أَنَّ فِي قَلْبِهِ مَصَارِعَةً أُخْرَى
وَعَدَاوَةً أُخْرَى خَفِيَّةً وَحَرْبًا أُخْرَى ضَدَّ أَفْكَارِ أَرْوَاحِ الشَّرِّ وَجَهَادًا آخَرَ
مَنْصُوبًا^(١). وَهَكُذا إِنْ كَانَ يَبْتَتُ وَيَدْعُو الرَّبَّ فِي إِيمَانٍ لَا يَتَزَعَّزُ وَصَبَرَ
كَثِيرٌ وَيَنْتَظِرُ الْمَعْوَنَةَ مِنْ لَدْنِهِ، يُمْكِنُهُ أَنْ يَنْالَ مِنْ هَنَاكَ الْعَتْقَ الدَّاخِلِيَّ مِنْ
الْقِيُودِ وَالْأَسْوَارِ وَالسِّيَاجَاتِ وَظُلْمَةِ أَرْوَاحِ الشَّرِّ، الَّتِي هِيَ أَفْعَالُ الْأَهْوَاءِ
الْخَفِيَّةِ.

٤ - لَكِنَّ هَذِهِ الْحَرْبِ يُمْكِنُ أَنْ تُبْطَلَ بِنَعْمَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، لِأَنَّ أَحَدًا لَا
يُمْكِنُهُ مِنْ تَلَقَّاءِ ذَاتِهِ أَنْ يُتَحْجِيَ نَفْسَهُ مِنْ مَعَادَةِ وَضَلَالِّ الْأَفْكَارِ وَالْأَهْوَاءِ
غَيْرِ الْمَنْظُورَةِ وَأَسْلَحةِ^(٢) الشَّرِّيْرِ. أَمَّا إِنْ كَانَ أَحَدٌ مُرْتَبِكًا بِأَمْرِهِ هَذَا الْعَالَمِ

(١) هذا التَّعْلِيمُ، وَالَّذِي سِكَرَهُ الْقَدِيسُ أَكْثَرُ مِنْ مَرَّةٍ فِي هَذِهِ الْعَظَةِ، يُذَكِّرُنَا بِقُولِّي فِي بِسْتَانِ
الرَّهْبَانِ: [قَالَ فَائِلٌ مِنَ الْإِخْرَاجِ الرَّهْبَانِ لِشَيْخِ الْمُسْلِمِ: «يَا أَبَي، لَسْتُ أَجْدُ فِي قَلْبِي قَنَالًا»، فَقَالَ لَهُ:
«إِنَّكَ تُشَبِّهُ الْقَبَّةَ الْمَرْتَفَعَةَ فِي وَسْطِ السُّوقِ، فَكُلُّ مِنْ أَرَادَ جَازَّ تَحْتَهَا، كَذَلِكَ قَلْبُكِ؛ أَمَّا إِنْ أَغْلَقْتَ بَابَ
قَلْبِكِ، وَلَمْ تَدْخُلْهُ الْأَفْكَارُ الرَّدِيدَةُ، لَنْظَرْتَ الْأَعْدَاءَ يَقْاتِلُونَكَ قَلَّا شَدِيدًا»]. (قول رقم ١١٦٧)

(٢) حِرَقَّيَا: مَجَانِيقُ، وَالْكَلْمَةُ اليونَانِيَّةُ هِيَ μηχανή (وَمِنْهَا الْكَلْمَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ وَالْأَنْجِلِيَّةُ machine)
بَلْ وَلَقَدْ دَخَلَتْ حَقِيقَةً فِي الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ «مَكِّيَّةً»)، وَقَدْ وَرَدَتْ مَرَّةً فِي ٢٦ أَغْسَطِ ١٥:٢٦، وَاثِنَيْ عَشَرَةَ مَرَّةً
فِي سَفَرِيِّ الْمَكَانِيْرِ، وَتُرْجِمَتْ فِي جَمِيعِ الْمَوْضِعِ بِكَلْمَةِ «مَنْجِنِيقٌ»، وَهِيَ آلةٌ حَرِيقَةٌ مِنْ آلَاتِ الْحَصَارِ.

المنظورة، وواقعًا في أشراف رباطاتٍ أرضية متنوعة، ومنقادًا بأهواء الشّرّ، فإنَّه ولا حتَّى يدرِّي أنَّ هناك مصارعةً أخرى ومحاركةً وحربًا تدور رحابها في داخله. فقد يحدث أنَّ أحدًا يستنهض نفسه مجاهدًا، ويُفْكِّر نفسه من هذه القيود العلميَّة المنظورة والأمور الماديَّة والملذَّات الجسديَّة، ويشرع في أن يلازم الرَّبَّ، مفَرِّغًا ذاته من هذا العالم، حينئذٍ يتَسَوَّل له أن يدرك مصارعة الأهواء القابعة في داخله، والحرب الباطنية، والأفكار الشَّرِّيرة. لأنَّه، كما قلنا آنفًا، ما لم يجاهد الإنسان ويُجحد العالم ويُفْكِّر نفسه، بكلِّ قلبه، من الأهواء الأرضيَّة، ويَهُوَى في أن يتلصق بالرَّبَّ بالتأمُّل والكمال، فما يدرِّي بضلالة أرواح الشَّرّ الخفيَّة ولا بأهواء الشَّرّ المستترة فيه، بل يكون غريباً عن نفسه، شأنه شأنُ من لا دراية له بجراحاته، ومن ترعي فيه أهواه خفيَّة وهو غافل عنها، ذلك لأنَّه لا يربح مكبلاً بالمنظورات ومتورطاً في حبائل أمور العالم بإرادته

[ج] سلاح الله الكامل

٥ - فإنَّ الذي ينكر العالم حقًّا، ويُجاهد، ويطرح عنه ثقلَ الأرضِ والشهوات الباطلية والملذَّات الجسدية والجحود والرِّئاسة والكرامات البشرية، ويستنهض نفسه، ويُنْفَضُّ عنه هذه الأمور من كليِّ قلبه - إذ يَعْصُدُ الرَّبُّ سرًا جهاده المنظور هذا، وفقًا لدرجة إنكاره لمشيئة العالم -

ثم يداوم راسخاً في عبادة الرَّبِّ بكلٍّ كيانيه، أعني جسداً ونفساً، فإنَّ ذاك يلقى في داخله معاداة وأهواه كامنة وأغلالاً غير منظورة وحرباً غير ظاهرة ومجاهدةً وصراعاً خفيّاً. وهكذا لو أَنَّه توسل إلى الرَّبِّ ونال من السَّماء أسلحة الرُّوح - هذه الَّتي سردها الرَّسول المطوب، أي «دُرَعَ الْبَرِّ، وَخُوذَةُ الْخَلَاصِ، وَثُرْسَ الإِيمَانِ، وَسَيْفَ الرُّوح»^(١) - وتسلح بها فسوف يتمكّن من أن «يَتَبَتَّضَ ضِدَّ مَكَابِدِ إِبْلِيس»^(٢) المخفية في وسط الشُّرور الحاضرة. فمتي اقتني هذه الأسلحة بواسطة «كُلِّ صَلَاةٍ وَمُؤَاطَبَةٍ وَطَلْبَةٍ»^(٣) وصوم، وهذا كُلُّه بالإيمان، فسيُمْكِنه أن يظفر بالرؤساء والسلطنين وولاة العالم في حربه معهم. وهكذا متى غَلَبَ القوَاتِ المعادية بمعيته للروح القدس في العمل^(٤) وباجتهداته في كُلِّ الفضائل، يغدو أهلاً للحياة الأبديّة، مُجَدِّداً الآب والابن والروح القدس، هذا الذي له المجد والسلطان إلى الدُّهور، آمين.

(١) انظر: أف ٦: ١٤، ١٦، ١٧.

(٢) انظر: أف ٦: ١١.

(٣) انظر: أف ٦: ١١.

(٤) الكلمة اليونانية *συνεργία* (*synergos*) + (*syn*) العمل مع، وهي تُبرز التَّوافُق والانسجام في العمل بين الله والإنسان، (انظر مثلاً: ١ كو ٣: ٩ «تَعْنُى عَامِلَانِ مَعَ الله»).

العظة الثانية والعشرون

مصير النفس حال خروجها من الجسد

[عن حالي الذين يخرجون من هذه الحياة]



حينما تخرج نفس إنسانٍ من جسده، فإن سرًا ما عظيمًا يكمل آنذاك، فإن كانت مذنبةً في خطايا، تأتي زمرة^(١) الشياطين وملائكة اليسار وقوىُ الظلمة وأخذنون تلك النفس ويسكون بها في نصيبيهم الخاص. وينبغي ألا يستغرب أحدٌ لهذا، لأنَّه إنْ كان الإنْسان - وهو بعدُ حيٌّ وكائنٌ في هذا الدُّنْهُر - قد خضع لهؤلاء وأطاعهم وبات عبدًا لهم، فكم بالحرى حينما يخرج من العالم، فإنَّه يقع في قبضتهم ويُمسكُ منهم. وأما عن نصيب الإنسان الصالح فينبغي لك أن تفهم أنَّ الأمور هي على التحوُّل التالي: فإنَّ ملائكةُ تلازِم عبيد الله القدِيسين منذ الآن، وأرواحًا قدِيسةً تحوطهم وتحرسهم^(٢)، وحينما يخرجون من الجسد، فإنَّ خوارس الملائكة تأخذ نفوسهم إلى نصبيها الخاص^(٣) في العالم الظاهر، وهكذا تقدِّمهم إلى الرب.

(١) حرفيًا: "χορός" = خوارس .

(٢) انظر: مز ٣٣: ٨ .

(٣) أي نصيب خوارس الملائكة .

العظة الثالثة والعشرون

الروح القدس يُعد النفس للحرب

[كما أنَّ اللُّوْلُوَةَ الْمُلُوكِيَّةَ الْثَّمِينَةَ يُمْكِنُ فَقْطُ الْمُولُودِيْنَ مِنْ نَسْلِ الْمَلَكِ أَنْ يَلْبِسُوهَا؛
بِنَفْسِ الْطَّرِيقَةِ الْلُّوْلُوَةَ السَّمَاوِيَّةَ يُسَمَّحُ فَقْطُ لِأَوْلَادِ اللَّهِ أَنْ يَلْبِسُوهَا]

[أ] المولود من الروح يلبس المسيح [ب] الروح القدس يُروض النفس الجمُوح



[أ] المولود من الروح يلبس المسيح

١ - إِنَّ اللُّوْلُوَةَ الْعَظِيمَةَ الْثَّمِينَةَ الْمُلُوكِيَّةَ الْمُخَصَّصةَ لِلتَّاجِ الْمَلَكِيِّ إِنَّمَا تليق بِالْمَلَكِ فَقْطُ، وَالْمَلَكُ وَحْدَهُ يُسْتَطِيعُ أَنْ يَلْبِسَ هَذِهِ اللُّوْلُوَةَ، وَأَمَّا أَيُّ إِنْسَانٍ آخَرَ فَلَا يُسَمَّحُ لَهُ أَنْ يَلْبِسَ مَثَلَّ هَذِهِ اللُّوْلُوَةَ؛ هَكَذَا إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُولَدُ مِنَ الرُّوحِ الْمُلُوكِيَّةِ الإِلهِيَّةِ وَيُصِيرُ جَنْسًا سَمَاوِيًّا مُلُوكِيًّا وَابْنًا لِلَّهِ - كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قِيلُوا لَهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلَادَ اللَّهِ» (يو ١: ١٢) - فَمَا يُسْتَطِيعُ أَنْ يَلْبِسَ اللُّوْلُوَةَ السَّمَاوِيَّةَ الْكَثِيرَةَ الْثَّمِينَ، أَيْقُونَةُ النُّورِ الَّذِي لَا يُطَّقُ بِهِ، الَّتِي هِيَ الرَّبُّ، لَأَنَّهُ لَمْ يَصُرْ ابْنَهُ لِلْمَلَكِ. لَأَنَّ الَّذِينَ يَقْتَنُونَ هَذِهِ اللُّوْلُوَةَ وَيَلْبِسُونَهَا يَحْيَوْنَ مَعَ الْمَسِيحِ وَعِلْكُونَ مَعَهُ إِلَى الدُّهُورِ، لَأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ الرَّسُولُ: «كَمَا لَبِسْنَا صُورَةَ التَّرَازِيِّ، سَنَلْبِسُ أَيْضًا صُورَةَ السَّمَاوِيِّ» (أَكُو ١٥: ٤٩).

[ب] الروح القدس يُروض النفس الجموج

٢ - فكما أنّ الفرس ما دام يرعى في الغابات مع الحيوانات البريّة لا يكون خاضعاً للبشر، أمّا حينما يمسك به لكيما يُرْوَض فإنهم يضعون عليه جاماً ثقيلاً إلى أن يتعلّم السير بانتظام واستقامة، وبعد ذلك يُدرب بواسطة فارسٍ متعرّس لكيما يصير أيضاً نافعاً في الحرب. ثمَّ إنّهم يلّيسونه أسلحةً، أغنى الزَّرَد^(١) والدُّروع، ويعلّقون عليه أوّلاً جاماً ويُهزوّنه أمام عينيه لكي يعتاد عليه ولا يفزع، وهكذا إذ يتعلّم من الرَّاكِب عليه يعرف أن يحارب الأعداء، إذ بدون راكِب ودرع لا يمكن للفرس أن يحارب. وحينما يتعلّم وأيّلُف الحرب فحالما يستشعرها ويسمع صَحْبَها، ينفَضُّ بتأهُبٍ على الأعداء حتّى إنَّه من مجرّد صهيله يدبُّ الذُّعر في المُتَحَاوِلين؛ بنفس الطريقة أيضاً النّفس: فمنذ المعصية أُمسَت جُمُوحًا غير مَرْوَضة، تَهُمُّ في بيادِ العالم مع الوحوش، أي أرواح الشَّرّ، خادمةً للخطيئة، لكنَّ حينما تسمع كلمة الله وتؤمن وتُلْجِم من الروح القدس، فإنَّها تطرح عنها عادِتها الوحشية واهتمامها الجسدي، إذ يقودها راكبها - المسيح. ثمَّ بعد ذلك تجوز شدَّةً وتأديباً وضيقاً لأجل تزكيتها، لكيما تُرْوَض شيئاً فشيئاً بواسطة الروح القدس وتُفْتَنَ الخطيئةُ التي فيها قليلاً قليلاً وتضمِحْل. وهكذا حين تلبس

(١) الزَّرَد (وجمعها زُرُود) هو درع ذو حلقات ينداخل بعضها في بعض.

النَّفْس «دُرْعُ الْبَرِّ، وَحُوَادَةُ الْخَلَاصِ، وَثُرُّسُ الإِيمَانِ، وَسَيِّفُ الرُّوح»^(١) تتعلَّم أنْ تُحارِب أعداءَهَا، وهكذا وهي متسلِّحة بروح الرَّبِّ، تصارِع ضَدَّ أرواح الشَّرِّ وتطفئ «سَهَامَ الشَّرِّيرِ الْمُلْتَهِيَّةَ»^(٢). فإنَّه من دون أسلحة الرُّوح لا تصعد النَّفْس إلى صفوَّ الحَرْبِ، أمَّا إنْ كَانَتْ لَهَا أسلحة الرَّبِّ فَحالماً تسمع وَتَسْتَشُرُ حِروْبًا عنيفة، تخرج في صياحٍ وصراخٍ، كما هو مكتوب في أَيُّوب^(٣)، ومن مجرَّد صوتٍ تضرِّعُها يُسْقَطُ الأَعْدَاءِ. وهكذا إنْ هِي جاهَدَتْ وَغَلَبَتْ في الحَرْب بالرُّوحِ الْقَدِيسِ، تلبَّسَ أَكاليلَ الظَّفَرِ في دَائِلَةٍ عظيمة، وهكذا تستريح مع الملك السماويِّ. والحمد للسُّلطان لِلْأَبِّ والابن والرُّوحِ الْقَدِيسِ إِلَى الدُّهُورِ، آمين.

(١) أَفٰ: ٦، ١٤، ١٦، ١٧.

(٢) أَفٰ: ٦.

(٣) انظر: أَيٰ: ٣٩؛ ٢٥ س.

العظة الرابعة والعشرون

الروح القدس ... الخميرة المقدسة

[حالة المسيحيين تشبه التجارة وتشبه التخمر؛ فكما أن التجار يجمعون الأرباح الأرضية، هكذا أيضًا المسيحيون يجمعون أفكارهم المشتتة في العالم؛ وكما أن الخميرة تجعل من العجين كله خميرة، هكذا خميرة الخطيئة تتغلل كل جنس أدم، غير أن المسيح يبْثُث خميرة صلاح سماوية في النفوس الأمينة]

[أ] التجارة العظمى الحقة

[ب] خميرة الروح القدس الصالحة

[ج] من دون الروح القدس لا تنفع النفس شيئاً



[أ] التجارة العظمى الحقة

١ - إنَّ المسيحيين يُسْبِهُون بُحَاراً يتَّجرُون لأجل مكاسب عظيمة جدًا، فكما أنَّ هؤلاء يجمعون الأرباح الأرضية من الأرض، هكذا أولئك، بواسطة سائر الفضائل وبقوَّة الروح القدس يجمعون من كُلِّ الأرض أفكاراً قلوبهم المشتتة في هذا الدهر، وتلْكُمْ هي التجارة العظمى الحقة. لأنَّ هذا العالم يُعادِي العالم الفوقياني، وهذا الدهر يقاوم الدهر الفوقياني، فالمسيحيُّ الذي أنكر العالم ينبغي له - وفقاً للكتب المقدسة - أنْ ينصرف بذهنه عن هذا

الدَّهْر الَّذِي قَدْ مَكَثَ الْتِهْنُ مُنْحَصِّراً فِيهِ وَمُنْخَدِعًا بِهِ مِنْذَ تَعْدِي آدَمَ،
وَيَنْتَقِلُ إِلَى دَهْرٍ أَخْرَى وَيَكُونُ بِفَكْرِهِ فِي عَالَمِ الْأَلَاهُوتِيَّةِ الْفَوْقَانِيِّ، كَمَا قِيلَ:
«وَأَمَّا مَوْطِئُنَا^(١) نَحْنُ فَهُوَ فِي السَّمَاوَاتِ» (فِي ٣ : ٢٠).

٢ - أَمَّا هَذَا فَلَا سَبِيلٌ إِلَى تَحْقِيقِهِ بِأَيِّ حَالٍ إِلَّا إِذَا آمَنَتِ النَّفْسُ مِنْ
كُلِّ قُلُبِهَا بِالرَّبِّ، جَاحِدَةً هَذَا الدَّهْرَ، وَإِذْ ذَاكَ فَقْوَةُ الرُّوحِ الإِلَهِيِّ لَهَا
الْقَدْرَةُ أَنْ تَجْمِعَ إِلَى مُحِبَّةِ الرَّبِّ ذَلِكَ الْقَلْبُ الْمُشَتَّتُ فِي كُلِّ الْأَرْضِ،
وَتَنَقْلُ الْفَكْرَ إِلَى الْعَالَمِ الْأَبْدِيِّ. لِأَنَّهُ مِنْذَ مُخَالَفَةِ آدَمَ وَأَفْكَارِ النَّفْسِ تَشَتَّتَ
فِي هَذَا الدَّهْرِ بَعِيدًا عَنْ مُحِبَّةِ اللَّهِ، وَاخْتَلَطَتْ بِأَفْكَارٍ مَادِيَّةٍ وَأَرْضِيَّةٍ.

[ب] خميرة القدس الصالحة

لَكُنْ كَمَا أَنَّهُ لِمَا خَالَفَ آدَمَ فَلِلَّهِ فِي ذَاتِهِ خَمِيرَةٌ شَرِّ الْأَهْوَاءِ، هَكَذَا
بِالْمُشَارِكةِ صَارَ لِلْمُولَودِينَ مِنْهُ وَلِكُلِّ جِنْسِ آدَمَ نَصِيبٌ فِي تِلْكَ الْخَمِيرَةِ.
وَتَبَعَّدَا لِذَلِكَ تَمَثُّلُ أَهْوَاءِ الْخَطِيَّةِ فِي الْبَشَرِ غَنِّوْا مُتَزايدًا هَذَا مَقْدَارُهُ، حَتَّى إِنَّمَّا
أَتَوْا إِلَى زَرَّى وَعَهَارَةِ وَعِبَادَةِ أُوثَانٍ وَقُتْلٍ وَأَمْوَالٍ أُخْرَى شَائِئَةٍ، وَتَخْمَرَتِ الْبَشَرِيَّةُ
بِالْخَطِيَّةِ وَتَفَاقَمَ الشَّرُّ فِي الْبَشَرِ إِلَى درْجَةٍ تَوَهَّمُوا فِيهَا أَنْ لَا إِلَهَ، بَلْ عَبَدُوا
الْحَجَارَةَ الَّتِي لَا حَيَاةَ فِيهَا، وَمَا اسْتَطَاعُوا - حَتَّى بِمُجَرَّدِ الْفَكْرِ - أَنْ يَدْرِكُوا

(١) انظر: حاشية ١ صفحَة ١٧٨ - العَظَة ٥.

الله. إلى هذا المقدار خُمِرتْ خَمِيرَةُ شَرِّ الأَهْوَاءِ جَنْسَ آدَمَ الْقَدِيمَ.

٣ - على ذات المنوال قد سُرَّ اللَّهُ إِبَانَ إِقامَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ يَتَّلَمَّ
مِنْ أَجْلِ الْجَمِيعِ^(١)، وَيَشْتَرِيهِمْ بِدَمِهِ الْخَاصِّ^(٢)، وَيَبْثُثُ خَمِيرَةَ صَلَاحٍ
سَمَاوِيَّةً فِي النُّفُوسِ الْأَمِينَةِ الرَّازِحَةِ تَحْتَ الْخَطِيَّةِ. وَهَكُذا بَعْدَ ذَلِكَ سُرَّ أَنْ
يُكَمِّلَ فِي تَلْكَ النُّفُوسِ، عَلَى قَدْرِ نُعْوَهَا وَتَقْدُمَهَا، كُلَّ بَرِّ الْوَصَايَا وَكُلَّ
الْفَضَائِلِ، إِلَى أَنْ تَتَخَمَّرْ لِتَصِيرَ كِيَانًا وَاحِدًا فِي الصَّلَاحِ، بَلْ وَتَصِيرَ مَعَ
الرَّبِّ «رُوحًا وَاحِدًا» كَقُولُ بُولِسَ (أَكْوَ ٦ : ١٧)، حَتَّى إِنَّهُ لَا يَمْكُنُ لِشَرِّ
أَوْ لَخْبِثِ أَنْ يَدْخُلَ - وَلَا حَتَّى مِنْ جَهَةِ الْفَكْرِ - إِلَى النَّفْسِ الَّتِي قَدْ
تَخَمَّرَتْ بِكَامِلِ كِيَانِهَا بِالرُّوحِ الإِلَهِيِّ، كَمَا قِيلَ: «الْمَحَبَّةُ لَا تُفَكِّرُ فِي^(٣)
السُّوءِ»، وَبِقِيَّةِ القَوْلِ (أَكْوَ ١٣ : ٥). فِي بَدْوِنِ الْخَمِيرَةِ السَّمَاوِيَّةِ، الَّتِي هِي
قُوَّةُ الرُّوحِ الإِلَهِيِّ، لَا تَقْدِرُ النَّفْسُ أَنْ تَخْتَمِرْ بِصَلَاحِ الرَّبِّ وَأَنْ تَبْلُغَ
الْحَيَاةِ؛ قَمَّا كَمَا أَنْ جَنْسَ آدَمَ لَمْ يَكُنْ لِيَجْنِحَ إِلَى مِثْلِ هَذَا السُّوءِ وَالشَّرِّ إِلَّا
حِينَ انْسَلَّتْ إِلَى دَاخِلِهِ خَمِيرَةُ الشَّرِّ، الَّتِي هِيَ الْخَطِيَّةُ، لِكُونِهَا قُوَّةً لِلشَّيْطَانِ
رُوْحِيَّةً وَعُقْلَيَّةً.

(١) انظر: أَكْوَ ٥ : ١٤، ١٥، ٤١ : ٢٦.

(٢) انظر: أَكْوَ ٦ : ٢٠٠، ٢٣ : ٢، ٤٢٣ : ٢، بَطِ ٢ : ٤١، ٥ : ٩ رُوْ ٥ : ٩.

(٣) الفعل "تفكّر في" أكثر مناسبة إلى التعبير من "تظنّ" الوارد في الترجمة الـبيروتـية، وكذا يتطابق ومعنى الفعل *ταρπίουμαι* الوارد في التصنـيـونـيـاتـيـةـ لمـذـهـةـ الآـيـةـ.

٤ - فكما أَنَّه إنْ كَانَ أَحَدٌ يَعْجِنْ دَقِيقًا وَلَا يَضْعُ خَمِيرَة، فَمَهْمَا يَبْدُو
لَهُ أَنَّه يَعْتَنِي بِهِ وَيَعْمَلُ فِيهِ، فَإِنَّ الْعَجِينَ يَلْبَسُ غَيْرَ مُخْتَمِرٍ وَغَيْرَ نَافِعٍ
لِلأَكْلِ، أَمَّا حِينَ تَوْضُعُ الْخَمِيرَة فَإِنَّهَا تَحْتَذِبُ إِلَيْهَا كُلَّ دَقِيقِ الْعَجِينِ وَتُحَوِّلُهُ
بِكَامِلِهِ إِلَى عَجِينٍ مُخْتَمِرٍ، مَثَلَمَا شَبَّهَ الرَّبُّ الْمَلْكُوتَ قَائِلًا: «يُشَبِّهُ مَلْكُوتُ
السَّمَاوَاتِ خَمِيرَةً أَخْدَنَهَا امْرَأَةٌ وَخَبَأَتْهَا فِي ثَلَاثَةِ أَكْبَارٍ دَقِيقٍ حَتَّى احْتَمَرَ
الْجَمِيعُ» (مت ١٣: ٣٣؛ لو ١٣: ٢١)؛ أَوْ كَمَا أَنَّه إنْ كَانَتْ هَنَاكَ لَحْوَمٌ
وَكَانَ أَحَدٌ يُولِيهَا كُلَّ عِنَايَتِهِ، لَكَنَّهُ لَا يُمْلِحُهَا بِالْمَلْحِ الَّذِي يَقْتَلُ الدُّودَ وَيُزِيلُ
الرَّائِحةَ النَّتِنَةَ فَإِنَّ هَذِهِ الْلَّحْوَمَ تَخْمُ وَتَقْسِدُ وَتَصِيرُ بِلَا نَفْعٍ لِلنَّاسِ؛ عَلَى نَفْسِ
الْمُنَوَّالِ افْتَرَضْ مَعِي أَنَّ كُلَّ الْبَشَرِيَّةَ هِي "لَحْمٌ" وَ"عَجِينٌ غَيْرُ مُخْتَمِرٍ"،
وَتَقْعِيمُهُمْ أَنَّ الْمَلْحَ وَالْخَمِيرَةَ هُمَا مِنْ دَهْرٍ آخِرٍ، وَهُمَا طَبِيعَةُ الرُّوحِ الْقَدِيسِ الإِلهِيَّةِ.
فَمَا لَمْ تَمْتَرِجْ الْخَمِيرَةُ السَّمَاوِيَّةُ الَّتِي لِلرُّوحِ الْقَدِيسِ وَالْمَلْحُ الصَّالِحُ الْمَقْدِسُ
الَّذِي لِلْأَهْوَيَّةِ، الَّذِيْنَ مِنْ ذَلِكَ الدَّهْرِ وَمِنْ ذَلِكَ الْوَطَنِ، بِطَبِيعَةِ الْبَشَرِ
الَّذِيْلَةِ، وَبِوَضْعِهِنَّ فِيهَا، فَلَنْ تَغْيِيرَ النَّفْسُ عَنْ نَتَنِ الشَّرِّ وَلَنْ تَخْمَرْ
تَارِكَةً عَنْهَا ثِقلُ الشَّرِّ وَخَمْوَلَهُ.

[ج] من دون الروح القدس لا تنفع النفس شيئاً

٥ - لَأَنَّ كُلَّ مَا تَظْنُ النَّفْسُ أَنَّهَا تَعْمَلُهُ مِنْ ذَاكِهَا وَتَهْتَمُ بِهِ وَتُؤْلِيهِ
عِنَايَتِهَا، إِنْ هِيَ عَوَّلَتْ عَلَى قُوَّاتِهَا الذَّاتِيَّةِ فَحُسْبٌ وَتَوَهَّمَتْ أَنَّهَا تَسْتَطِعُ

النجاح الكامل من ذاتها بدون أن تتم معيّتها في العمل^(١) مع الروح القدس، فإنّها تضلّ كثيراً. لأنّ النفس التي تحسّب أنها من ذاتها وبداتها فقط، بعزل عن الروح القدس، تبلغ الطهارة الكاملة، مثل هذه النفس لا تنفع للمواضع السماوية ولا تصلح للملائكة. ذلك أنّ الإنسان الذي تعتمل فيه الأهواء، ما لم يأت إلى الله وينكر العالم ويؤمن في رجاء وصبر أن يقبل صلاحاً معايراً لطبيعته الخاصة، الذي هو قوّة الروح القدس؛ وما لم يقطّر^(٢) الربُّ، من فوق، حيَاة اللاهوتية في نفس ذلك الإنسان، فلن يشعر مثل هذا بالحياة الحقيقية، ولن يستفيق من السُّكُر بالهادئات، ولن تشرق إنارة الروح القدس في نفسه المظلمة وتضيء فيها نهاراً مقدساً، ولن يستيقظ من نوم الجهلة العميق الثقيل، فيعرف الله هكذا بالحقيقة، بقدرة الله وفعل نعمته.

٦ - لأنّه مالم يؤهّل الإنسان هكذا بواسطة الإيمان لتنيل النعمة، فإنّه يثبت غير نافع للملائكة ولا صالح له. ولكن حينما يتقدّم نعمة الروح القدس، ولا يجيد في شيء، ولا يزدرى بالنعمات بتراخيه واقتراحه الشرور، ولا

(١) synergy = συνεργία، انظر: حاشية ٤ ص ٣٧٩ - العظة ٢١.

(٢) trickle = ἐντάξις، يعني ينزل قطرات، وقد استخدم أثنا مقارن نفس هذا الفعل في ذات المعنى والبيّان في العظة ٥: ٦ (بداية الفقرة).

يُحزِّن الرُّوح^(١) مجاهدًا هكذا زمانًا، يمكنه أن ينال الحياة الأبدية. لأنَّه كما أنَّ الإنسان يستشعر أعمال الشَّرِّ النَّابع من الأهواء، أعني الغضب والشهوات والحسد والتَّقلُّل والأفكار الشَّرِّيرة وباقى الأمور الرَّديعة، هكذا يجب أن يستشعر نعمَة الله وقدرَتِه في ما يخصُّ الفضائل، أعني الحبَّة واللطف والصلاح والفرح والخفة والتَّهليل الإلهي، لكي يستطيع أن يشابه ويعتزَّ بالطَّبيعة الصَّالحة الإلهية ويفعل النِّعمة الصَّالحة المقدَّس. ومع تقدُّمه وغدوه، وعلى مدى الأوقات والأزمنة، تختَّر نيتُه، فإنْ وُجِدت دائمًا متحدةً بالنعمَة ومُرضيَّةً لها، تغدو بكلِّيتها، شيئاً فشيئاً، «في الرُّوح»^(٢). وهكذا أخيرًا، إذ تصير مقدَّسة وظاهرة بفعل الرُّوح القدس، تُعَيَّن مستحقةً للملائكة. فالحمد والسبُّاحة للأب فائق النِّقاوة والابن والروح القدس إلى الدُّهور، آمين.

(١) انظر: أف ٤ : ٣٠.

(٢) رؤ ١ : ١٠.

العظة الخامسة والعشرون

قوّة الدُّموع والنَّار الإلهيّة

[هذه العظة تعلم أن ليس أحد من الناس - إنما إذا تمكّن من المسيح - بمستطاعه أن يغلب عثرات الشّرّير. وما الذي ينفي أن يصونه الذين يبتلون بالجحود الإلهيّ. وتعلم أيّها أنه بمحضه أدم ترددنا في عبوديّة أهواء الجسد، تلك التي تنتقد منها بواسطة السُّرُّ الذي في الصليب. وهي تعلمنا كذلك كيف أن قوّة الدُّموع والنَّار الإلهيّة هي

عظيمة]

[ج] الرَّب يقبل الدُّموع عوضَ أشفيته

[د] نار الرُّوح القدس تُصرِّم القلوب

[أ] الإنسان بمفرده لا يمكن أن يغلب

[ب] حالنا البائسة من دون نعمة الله



[أ] الإنسان بمفرده لا يمكن أن يغلب

١ - إنَّ الَّذين يتأصلُ فيهم النَّاموسُ الإلهيُّ، لا مكتوبًا بعِرٍ وأحرفٍ بل مغروساً في قلوبٍ لحميَّة^(١)، هؤلاء متى استثارت عيونُ أذهانهم^(٢) وابتغوا على الدّوام لا رجاءً محسوساً ومنظوراً بل آخرَ معقولاً وغيرَ منظور، يمكنهم أن يغلبوا عثرات الشّرّير، لا من تلقاء ذواتهم إنما بالقوّة الّتي لا تُقهر. أمّا الَّذين لم يتكرّموا بكلمةِ الله ولم يتأنّدوا تحت النَّاموس الإلهيِّ فلأنَّهم، إذ

(١) انظر: ٢ كو ٣: ٣.

(٢) انظر: أف ١: ١٨، انظر أيضًا: حاشية ١ صفحَة ٢٧٥ - العظة ١٤.

يتفحرون باطلًا^(١)، يظُنُّونَ أَهْمَّ بِقُوَّةِ إِرادَتِهِمُ الْخَاصَّةِ يُبْطِلُونَ عِلْمَ الْخَطِيْعَةِ، تلَكَ الْخَطِيْعَةُ الَّتِيْ قَدْ أَدِينَتْ فَقْطَ فِي السِّرَّ الَّذِيْ فِي الصَّلَبِ^(٢). فَإِنَّ قُوَّةَ إِرَادَةِ الَّتِيْ فِي مَقْدُورِ الإِنْسَانِ هِيَ مَوْضِوْعَةٌ لِيَقْوَمُ بِهَا الشَّيْطَانُ، لَا لِيَسُودُ عَلَى الْأَهْوَاءِ بِالْتَّمَامِ، لَأَنَّهُ يَقُولُ: «إِنْ لَمْ يَبْنِ الرَّبُّ الْبَيْتَ، وَيَخْرُجْ مِنَ الْمَدِيْنَةِ، فَبَاطِلًا يَسْهُرُ الْحَارِسُ وَيَتَغَبَّبُ الْبَنَاءُ» (مز ١٢٦: ١ - حَسْبَ النَّصِّ).

٢ - فَإِنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ لِلإِنْسَانِ أَنْ «يَطَأَ عَلَى الْأَفْعَى وَمَلِكَ الْحَيَّاتِ وَيَسْخَقَ الْأَسَدَ وَالْتَّنِينِ»^(٣)، مَا لَمْ يُطْهِرْ نَفْسَهُ أَوْلًا، بِكُلِّ مَا فِي وُسْعِهِ، وَيَأْخُذُ الْقَدْرَةَ مِنْ ذَاكَ الَّذِيْ قَالَ لِرَسُولِهِ: «هَا أَنَا قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ»^(٤) قُدْرَةً لِتَدْوُسُوا الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدُوِّ» (لو ١٠: ١٩). لَأَنَّهُ لَوْ كَانَتِ الطَّبَيْعَةُ الْبَشَرِيَّةُ تَقْدِيرٍ - بِدُونِ سِلَاحِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ الْكَامِلِ - أَنْ «تَثْبِتَ ضِيدَ مَكَابِدِ إِبْلِيسِ»^(٥)، لَمَّا قَالَ الرَّسُولُ: «وَإِنَّهُ السَّلَامُ سَيَسْخَقُ الشَّيْطَانَ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ سَرِيعًا» (رو ١٦: ٢٠)، وَأَيْضًا: «..الْأَئِيمَمُ الَّذِيْ رَبُّ سَيِّيْدِهِ بِنَفْحَةِ فَمِهِ» (٢تس ٢: ٨). لَأَجلِ هَذَا أَيْضًا فَقَدْ أَمْرَنَا بِأَنْ نَتَوَسَّلَ إِلَى الرَّبِّ: «لَا تُدْخِلُنَا فِي بَهْرَيْةٍ، لَكِنْ تَجْنِنَا مِنَ الشَّرِّيْرِ» (مت ٦: ١٣). فَمَا

(١) انظر: كو ٢: ١٨.

(٢) انظر: رو ٨: ٣.

(٣) مز ٩٠: ٩٣ س.

(٤) ”δέδωκα“ = قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ (وليس ”أَعْطَيْكُمْ“ كَمَا فِي التَّرْجِمَةِ الْبَيْرُوْتِيَّةِ).

(٥) أف ٦: ١١.

لم نُنقذ بواسطة ”المعونة الأفضل“ من »سهام الشّرِّير المُلْتَهِب«^(١) ونُؤهَّل للتبَّيِّن فعثنا نسعى، إذ نوجد بعيدين عن قوَّة الله.

[ب] حالنا البائسة من دون نعمة الله

٣ - فالذِّي يروم إِذَا أَن يصِير شريكَ الْمَجْد الإلهيِّ، وأنْ ينظر في عقله^(٢) إلى شكل المسيح كما في مرآة، ينبغي له أن يطلب - بولعٍ لا يشبع ونزوعٍ لا يقْنَع، من كُلِّ قلبه وقدرته، ليلاً ونهاراً - المعونة الآتية من الله بقوَّة، والّتي لا يمكن الاشتراك فيها، كما قلتُ آنفًا، ما لم يبتعد الإنسانُ أَوْلأً عن ملذَّات العالم وشهوات القوَّة المعادية الشّرِّيرة المغایرة للنُّور، الّتي لا اتِّفاقَ لها مع القوَّة الصَّالحة وهي غريبةٌ عنها في كُلِّ شيءٍ. لذلك فإنْ كنتَ ت يريد أن تعلم الأمرَ الذِّي بسببه - رغم كوننا خلِقنا في كرامةٍ وأقمنا في الفردوس - قد شابهنا أخرينَ البهائمَ الّتي لا فهم لها وحاكَينَاها^(٣)، إذ سقطنا من المجد فائق النّقاوة؛ فاعلم أَنَّه بسبب المعصية قد

(١) أَف ٦:١٦.

(٢) الكلمة ”*τέλευτον*“ تعني حرفيًّا: ”الرِّئاسي“ أو ”القيادي“، وهي مستخدمة في مز ٥٠:١٤ مس »...وَبِرُوحِ رِئَاسِيِّ اَعْصَدْنِي«، وهي عند الرُّواقيين تعني ”intellect“ = العقل“ كونه الجزء الأساسي صاحب السلطة والسيطرة في النفس البشرية. وقد أخذها العديد من الآباء واستخدموها بنذن المعنى، مثل: كليمينتس الإسكندرى، وأوريجانوس، وق. أثanasius الرَّئِسُولِي، وق. يوحنا فيم الذهَب، وغيرهم. (see Lampe, s.v.)

(٣) انظر: مز ٤٨:٢١ مس.

(١) أمسينا عيًداً لأهواء الجسد، وأوصدنا دون ذاتنا «كُورَةَ الْأَحْيَاءِ» الطُّوباوِيَّة، وما نزال بعد قابعين في السَّيِّ، جالسين «عَلَى أَهْمَارِ بَابِل» (٢). ومن أجل أَنَّا لم نَرِّ مسوكين في مصر فنحن لم نَرِّ بعد أرضَ الموعَد الَّتِي تفيض لبَنَا وعسْلًا؛ وحَتَّى الآن لم نُعْجَن بخِمِيرَةِ الإِخْلَاصِ بل ما زلنا في خِمِيرَةِ الشَّرِّ؛ ولم يُرِّشَ قلوبَنَا بعد بَدْمَ اللهِ، لِأَنَّ «شَرَكَ الْجَحَّامِ» (٣) وصَنَارَةَ الشَّرِّ لا يَرَانِ مغروسيَّنَ في قلوبِنَا.

٤ - فحَتَّى الآن ما نِلَنَا بِهِجَةَ خلاصِ المَسِيحِ (٤)، لِأَنَّ شَوَّكَةَ الْمَوْتِ (٥) لا تنفكُ مغروسةً فينا. وما لِبَسَنَا بعد «الإِنْسَانَ الْجَدِيدَ الْمَخْلُوقَ بِحَسَبِ اللَّهِ فِي الْقَدَاسَةِ» (٦)، لِأَنَّا لم نخلع بعد «الإِنْسَانَ الْعَيْنِقَ الْفَاسِدَ بِحَسَبِ شَهَوَاتِ الْعُرُورِ» (٧). وما لِبَسَنَا بعد «صُورَةَ السَّمَاوَيِّ» (٨) ولا صرنا «عَلَى صُورَةِ مَجْدِي» (٩). وما سجَدْنَا للَّهِ بعد «بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ» (١)، بِسَبِّ تَمْلِكِ الْخَطِيئَةِ في

(١) مز ١٤٤: ٩ س.

(٢) مز ١٣٦: ١ س.

(٣) أم ٩: ١٨ س.

(٤) انظر: مز ٥٠: ١٤ س.

(٥) انظر: ك١: ١٥: ٥٦.

(٦) أَف ٤: ٢٤ - حسب النَّصَّ.

(٧) أَف ٤: ٢٢.

(٨) ك١: ١٥: ٤٩.

(٩) ف٣: ٢١ - حسب النَّصَّ.

جسدنَا المائت^(١). وما نظرُنَا حَتَّى الْآن مَجَدَ غَيْرِ الفاسد، لأنَّ الظُّلْمَةَ الدَّامِسَةَ لا تَفْتَأِ تَعْمَلُ فِينَا. وَمَا لَبَسْنَا بَعْدُ «أَسْلِحَةَ الثُّورِ»^(٢) لأنَّا لَمْ نُخْلِعْ عَنَّا أَسْلَحَةَ الظُّلْمَةِ مَعَ سَهَامِهَا وَأَعْمَالِهَا. وَمَا تَغَيَّرْنَا بَعْدُ عَنْ شَكْلِنَا بِتَجْدِيدِ أَذْهَانِنَا^(٣) لأنَّا لَمْ نُنْزِلْ مُشَاهِكِلِينَ لِهَذَا الدَّهْرِ فِي بُطْلِي ذَهْنِهِ^(٤). وَمَا تَمَجَّدْنَا حَتَّى الْآن مَعَ الْمَسِيحِ لأنَّا لَمْ نَتَّالِمْ مَعَهُ^(٥)؛ وَلَا حَمَلْنَا بَعْدُ بِعَاتِهِ^(٦) فِي جسدنَا باشتراكِنَا فِي سَرِّ صَلِيبِ الْمَسِيحِ، لأنَّا لَمْ نُنْجِحْ كَائِنِينَ فِي الْأَهْوَاءِ الْجَسَدِيَّةِ وَالشَّهْوَاتِ. وَمَا صَرَنَا بَعْدُ «وَرِثَةَ اللَّهِ وَوَارِثِينَ مَعَ الْمَسِيحِ»^(٧) لأنَّ رُوحَ الْعَبُودِيَّةِ لَا يَزَالُ هُوَ الْحَالُ فِينَا لَا رُوحَ التَّبَّيِّنِ. وَمَا صَرَنَا هِيكَلًا لِلَّهِ وَمُسْكِنًا لِلرُّوحِ الْقَدِيسِ^(٨) لأنَّا لَمْ نَنْزِلْ هِيكَلًا لِلأَوْثَانِ وَإِنَّا لِأَرْوَاحِ الشَّرِّ بِسَبِيلِ مَيْلَنَا إِلَى الْأَهْوَاءِ.

٥ - فَإِنَّا بِالْحَقِيقَةِ مَا افْتَئَنَا بَعْدُ بِسَاطَةِ السُّلُوكِ وَاسْتِنَارَةِ الدِّهْنِ، وَلَا

(١) يو : ٤ : ٢٤.

(٢) انظر: رو : ٦ : ١٢.

(٣) رو : ١٣ : ١٢.

(٤) انظر: رو : ١٢ : ٢.

(٥) انظر: رو : ١٢ : ٤٢؛ أَف : ٤ : ١٢.

(٦) انظر: رو : ٨ : ١٧.

(٧) انظر: غل : ٦ : ١٧، وقد أورد أَنَّا مقارِنَةً هَذِهِ الْكَلِمَةِ «بِيمَاتٍ = στιγματα» ثَلَاثَ مَرَاتٍ فِي عَطَاهِ (هَنَاءٌ : ٣٢؛ ٤٧ : ٣٢). (٩).

(٨) رو : ٨ : ١٢.

(٩) انظر: كو : ٣ : ١٦.

أَهْلَنَا «لِلَّبَنِ الْعَقْلِيِّ عَدِيمِ الْغِشِّ»^(١) وَلَا لِلنُّمُّوِّ الرُّوحِيِّ. وَحَتَّى الْآن لَمْ «يَنْجُرْ لَنَا النَّهَارُ وَيَطَّلَعْ كَوَكْبُ الصُّبْحِ فِي قُلُوبِنَا»^(٢)؛ وَلَمْ يَنْتَزِجْ بَعْدُ «بِشَمْسِ الْبَرِّ»^(٣) وَلَا يَسْتَضْنَا بِأَشْعَتِهِ. وَحَتَّى الْآن مَا حَصَلْنَا عَلَى شَبَهِ الرَّبِّ، وَلَا صَرَنَا «شُرُكَاءُ الطَّبِيعَةِ الإِلَهِيَّةِ»^(٤). وَمَا أَصْبَحْنَا بَعْدُ أَرْجُوْنَا مُلْوَكِيَا بِلَا عَيْبٍ وَلَا صُورَةً إِلَهِيَّةً خَالِصَةً. وَحَتَّى الْآن مَا جُرِحْنَا بِالْعُشُقِ الإِلَهِيِّ، وَلَا أَصَابْنَا مُجَبَّةُ الْعَرِيسِ الرُّوحَانِيَّةِ. وَمَا عَرَفْنَا بَعْدُ الشَّرِكَةَ الَّتِي تَفُوقُ الْوَصْفِ، وَلَا تَحْفَقْنَا الْقَوْةُ وَالسَّلَامُ الْكَائِنَينِ فِي التَّقْدِيسِ. وَبِالْإِجْمَالِ أَقُولُ إِنَّا حَتَّى الْآن مَا غَدَوْنَا «جِنْسًا مُخْتَارًا، وَكَهْنُوتًا مُلْوَكِيَا، وَأَمَّةً مُمَدَّسَةً، وَشَعْبَ اقْتِنَاءِ»^(٥) لِأَنَّا بَعْدُ «حَيَّاتٍ، أَوْلَادُ أَفَاعِ»^(٦).

[ج] الرَّبُّ يَقْبِلُ الدَّمْوعَ عَوْضَ أَشْفَيْتِهِ

٦ - فَكَيْفَ لَا نَكُونُ حَيَّاتٍ نَحْنُ الَّذِينَ لَسْنَا نَوْجَدُ تَحْتَ طَاعَةِ اللَّهِ، بَلْ فِي الْمُعْصِيَةِ الَّتِي صَارَتْ بِوَاسِطَةِ الْحَيَّةِ؟ فَعَلَى هَذِهِ الْحَالِ كَيْفَ أَنْذُبُ بِؤْسَنَا بِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَهُ؟ لَسْتُ أَجْدِ! كَيْفَ أَذْرُفُ الدَّمْوعَ صَارِخًا نَحْوَ الْقَادِرِ أَنْ

(١) بِطَ ٢ : ٢ - حَسْبَ النَّصِّ.

(٢) بِطَ ١ : ١٩ .

(٣) مَلا ٣ : ٢٠ .

(٤) بِطَ ١ : ٤ .

(٥) بِطَ ٢ : ٩ .

(٦) مَت ٢٣ : ٣٣ .

يطرد عنيِّ الضَّلالَةِ السَّاكِنَةَ فِي؟ لستُ أدرِي! «كَيْفَ أَرْتُمْ تَرْبِيَمَةَ الرَّبِّ
فِي أَرْضِ غَرِيبَةٍ؟»^(۱) كيف أنوْحَ عَلَى أُورْشَلِيم؟ كيف أهْرَبَ مِنْ عَبُودِيَّةِ
فَرْعَوْنَ الْقَاسِيَّةِ؟^(۲) كيف أَتَرَكَ الْفَرْبَةَ الْمُخْزِيَّةَ؟ كيف أَنْكِرَ الطُّغْيَانَ الْمُرَّ؟
كيف أَخْرَجَ مِنْ أَرْضِ مَصْرَ؟ كيف أَغْبَرَ الْبَحْرَ الْأَحْمَرَ؟ كيف أَجْتَازَ
الْمَفَارَةَ الْعَظِيمَةَ؟ كيف لَا أَهْلَكَ مَلْدُوعًا مِنْ الْحَيَّاتِ؟ كيف أَهْرَمَ
الْغَرَبَاءَ؟ كيف أَهْلَكَ تَمَامًا الْأَمَمَ الَّتِي فِي؟ كيف أَقْبَلَ كَلْمَاتِ النَّاْمُوسِ
الْإِلَهِيِّ فِي لَوْحِي؟ كيف أَعْاينَ عَمْوَدَ النُّورِ الْحَقِيقِيِّ وَسَحَابَةَ الرُّوحِ
الْقَدِسِ؟ كيف أَقْتَعَ بَمِنْ النَّعِيمِ الْأَبْدِيِّ؟ كيف أَشْرَبَ المَاءَ مِنَ الصَّخْرَةِ
الْمُحْيِيَّةِ؟ كيف أَعْبَرَ الْأَرْدَنَ وَأَدْخَلَ أَرْضَ الْمَوْعِدِ الْجِيَّدَةِ؟ كيف أَنْظَرَ
رَئِيسَ جَنَدِ الرَّبِّ، الَّذِي حَالَمَا رَأَاهُ يَشُوعَ بْنَ نُونَ سَقْطَ الْلَّوْقَتِ وَسَجَدَ
لَهُ؟^(۳)

٧ - فَإِنَّهُ مَا لَمْ أَجْزُ هَذِهِ جَمِيعًا وَأَهْلِكَ تَمَامًا الْأَمَمَ الَّتِي فِي، فَلَنْ أَدْخُلَ
وَأَسْتَرِحَ فِي مَقْدِسِ اللَّهِ وَلَنْ أَصِيرَ شَرِيكًا فِي مَجْدِ الْمَلِكِ. لَذِكْرِ فَلَتَجْتَهَدْ أَنْ
تَصِيرَ ابْنًا اللَّهِ بِلَا عِيْبٍ^(۴) وَأَنْ تَدْخُلَ «تِلْكَ الرَّاهَةَ»^(۱) «حَيْثُ دَخَلَ

(۱) مِنْ ۱۳۷:۴.

(۲) بَدَءَ مِنْ هَنَا وَإِلَى خَاتَمَ هَذِهِ الْفَقْرَةِ، يَسْرُدُ أَنَّبَا مَقْارَ مَا قَدْ حَدَثَ لِشَعْبِ إِسْرَائِيلَ فِي رَحْلَةِ
خَرْجَهُمْ مِنْ مَصْرَ، وَيُضَيِّقُهُ 'مُسْتِكِيًّا' عَلَى نَفْسِهِ، أَوْ بِالْأَحْرَى عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ.

(۳) انْظَرْ: يَشٌ: ۵: ۱۴.

(۴) انْظَرْ: فِي ۲: ۱۵.

الْمُسِيْخُ كَسَابِقٍ لِأَجْلِنَا»^(۲). اجتهد إِذًا أَن تُكَتَّبَ فِي كَنِيسَةِ السَّمَاوَاتِ مَعَ الْأَبْكَارِ^(۳) لِكَيْمَا تَوْجَدْ «عَنْ يَمِينِ عَظَمَةِ الْعُلَيْيِّ»^(۴). اجتهد أَن تَدْخُلَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمَقْدِسَةِ، «أُورُشَلِيمَ الْعُلَيْيِّ»^(۵) الَّتِي تَفِيضُ سَلَامًا، هُنَاكَ حِيثُ الْفَرْدَوْسُ. فَإِنَّهُ مَا مِنْ وَسِيلَةٍ أُخْرَى لَدِيكَ لَكِي تُؤَهَّلَ هَذِهِ الْمَثَالَاتِ الْعَجِيْبَةِ الطُّوبَاوِيَّةِ سَوْيَ أَنْ تَدْرِفَ الدَّمْوعَ نَهَارًا وَلَيْلًا، بِحَسْبِ الْقَائِلِ: «سَأَعْوِمُ كُلَّ لَيْلَةٍ سَرِيرِيِّ، وَيَدُمُوعِي سَأَبْلُغُ فِرَاشِي» (مَزْ ۶ : ۷ س)، فَإِنَّكَ لَسْتَ تَجْهَلُ أَنَّ «الَّذِينَ يَزْرَعُونَ بِالدَّمْوعِ سَيَحْصُدُونَ بِالاِتِّهَاجِ»^(۶). وَلَذِكَ يَقُولُ النَّبِيُّ بِاجْتِزَاءِ: «عَنْ دُمُوعِي لَا تَسْكُنْتُ» (مَزْ ۳۸ : ۱۳ س)، وَأَيْضًا: «وَضَعْتَ دُمُوعِي أَمَامَكَ بِخَسِبٍ وَعَدِيكَ» (مَزْ ۵۵ : ۹ س)، وَأَيْضًا: «صَارَتْ دُمُوعِي حُبْزًا لِي نَهَارًا وَلَيْلًا» (مَزْ ۴۱ : ۴ س)، وَفِي مَزْمُورٍ آخَرَ: «مَزْجَتْ شَرَابِي بِئْكَاءً» (مَزْ ۱۰۱ : ۱۰ س).

۸ - لَأَنَّ الدَّمْعَةَ الْمَنْسِكِيَّةَ بِالْحَقِيقَةِ «مِنْ حُزْنٍ كَثِيرٍ وَكَآبَةٍ قَلِيبٍ»^(۷)، فِي

(۱) عَبْ ۴ : ۱۱.

(۲) عَبْ ۶ : ۲۰ - حَسْبُ النَّصْ.

(۳) انْظُرْ: عَبْ ۱۲ : ۲۳.

(۴) عَبْ ۱ : ۳ - حَسْبُ النَّصْ.

(۵) انْظُرْ: غَلْ ۴ : ۲۶، مَعَ الْأَخْذِ فِي الْاعْتِبَارِ أَنَّ الصِّفَةَ «الْعُلَيْيَا» وَرَدَتْ هَنَا فِي صِيَغَةِ التَّفْضِيلِ الْعَلِيَا: αὐτωτάτην = الْعُلَيْيَا، وَلَيْسَ كَمَا فِي الْآيَةِ: αὖτος = الْمُفْوَاتِيَّةُ.

(۶) مَزْ ۱۲۵ : ۵ س.

(۷) كَوْ ۲ : ۴.

معرفة الحق مع التهاب الأحشاء، هي قُوّةٌ مُقدّمٌ للنَّفْس من الخبر السَّماويِّ، ذاك الَّذِي كانت تتناوله مريم أَسَاً وهي جالسةٌ عند قدميِّ الرَّبِّ باكيةً، بحسب شهادة المُخلص نفسه، لأنَّه يقول: «اخْتَارْتُ مِنْ يَمِّ النَّصِيبِ الصَّالِحَ الَّذِي لَنْ يُنْزَعْ مِنْهَا» (لو ۱۰: ۴۲). فيا لِتَلِكَ الْلَّائِي الْعَالِيَةُ الشَّمْنُ الْمَكْوُنَةُ فِي سُكُبِ الْقَبَرَاتِ الطُّوبَاوِيَّةِ! يَا لِهَذَا الْإِنْصَاتِ الْمُخْلصِ الطَّيِّعِ! يَا لِالشَّجَاعَةِ الْذِهَنِ وَحِكْمَتِهِ! يَا لِالشَّدَّةِ عِشْقِ رُوحِ الرَّبِّ الْجَاذِبَةِ بِقُوَّةٍ نَحْوِ الْخَنَّ! فَائِقُ الْتَّقاوَةِ! يَا لِحَدَّةِ تَوْقِ النَّفْسِ إِلَى اللهِ الْكَلْمَةِ! يَا لِهَا شَرِكَةً حَمِيمَةً لِلْعَرُوسِ مَعَ الْعَرِيسِ السَّماويِّ!

[د] نار الروح القدس تضرم القلوب

٩ - فلتستمثِّلْ بِمريم مثلَ طفليِّ عَمَّلْنَا بِالْأَيْتِيَّ لِمَ تَشْخَصُ إِلَى آخرِ إِلَّا فَقَطْ إِلَى ذاكِ القائل: «جِئْتُ لِأَلْقِيَ نَارًا عَلَى الْأَرْضِ، وَكُنْتُ أُرِيدُ لَوْ أَنَّهَا اضْطَرَّمَتْ» (لو ۱۲: ۴۹ - حسبَ النَّصِّ)! فَإِنَّ نارَ الرُّوحِ الْقَدِسِ هِيَ الَّتِي تُضْرِمُ الْقُلُوبَ^(۱). من أجلِ هَذَا فَالنَّارُ الإِلَهِيَّ غَيْرِ الْمَادِيَّةِ قدْ دَأَبَتْ أَنْ تَنْيِرَ الْقُلُوبَ وَتُذَكِّيَّهَا كَذَهَبٍ نَقِيٍّ فِي أَتُونَ، أَمَّا الشَّرُّ فِي أَنَّهَا تَلْتَهِمُ كَشْوِكَ وَقَشَّ، «لَأَنِّي إِهْنَا نَارًا أَكِلَّهُ، يُعْطِي نَقْمَةً فِي لَهِبِ نَارِ الْلَّذِينَ لَا

(۱) تَكَلُّمَ أَبَا أنطَوْنِيوسَ كَثِيرًا عَنْ هَذِهِ النَّارِ غَيْرِ الْمَادِيَّةِ الَّتِي جَاءَ الرَّبُّ لِكَيْ يَلْقَيَهَا فِي الْقُلُوبِ (انظر مثلاً الرِّسَالَةَ ۳: ۵ - ۶؛ ۴: ۸).

يَعْرُفُونَهُ وَالَّذِينَ لَا يُطِيعُونَ إِنْجِيلَهُ^(١). هذه النار قد عملت في الرسل حين كانوا يتكلّمون بآلية نارية^(٢)؛ هذه النار أضاءت حول بولس عبر الصوت (الذي خاطبه) فأنارت ذهنه بينما طمسَت بصره، إذ إنَّه ليس بدون جسم قد رأى قوَّة ذلك النور^(٣)؛ هذه النار ظهرت لموسى في العلائق^(٤)؛ هذه النار اختطفت إيليا من الأرض في شكل مركبة^(٥)؛ هذه النار كان يلتمس فعلها داود الطُّبُواوي قائلًا: «اخْتَبِرْنِي، يَارَبُّ، وَجِرِّنِي. آشْعُلْنِي^(٦) كُلْيَّيْ وَقَلْيَيْ» (مز ٢٥ : ٢ س).

١ - هذه النار ألهبت قلب كليوباس ورفيقه حين كان المخلص يتحدث إليهما بعد قيامته^(٧). فإنَّ الملائكة والأرواح الخادمة تشارك هي أيضًا في معان تلك النار بحسب ما قيل: «الصَّانِعُ مَلَائِكَةُ أَزْوَاجَهَا، وَخَدَامَةُ نَارِ مُلْتَهِبَةٍ» (مز ١٠ : ٣ س؛ عب ١ : ٧). هذه النار حين تحرق الخشبة التي في العين الدَّاخِلِيَّةِ تُعيَّد العقل نقىًّا، حتى إذا ما استردَ بصيرته الصَّافِيَّةَ التي بحسب الطَّبَيْعةِ، ينظر على الدَّوَامِ عجائب الله، بحسب القائل: «اَكْتِشِفْ

(١) تث ٤ : ٢٤؛ عب ١٢ : ٢٩؛ تس ١ : ٨ - حسب التفسير.

(٢) انظر: أع ٤ : ٣، ٣ : ٢.

(٣) انظر: أع ٩ : ٢٢، ٩ : ٢٦.

(٤) انظر: خر ٢ : ٣.

(٥) انظر: مل ٢ : ١١.

(٦) *burn, refine by fire = πυρόω*، والمقصود هنا التَّنقِيةُ والتحمِيصُ كما بنار.

(٧) انظر: لو ٧ : ٣٢.

عَنْ عَيْنِي، فَأَتَقْهَمُهُمْ عَجَائِبَ مِنْ نَامُوسِكَ» (مز ١١٨: ١٨ س)^(١). لذلك فهذه النار تطرد الشياطين وتحدم الخطيبة؛ هي قوّة القيامة و فعل الخلود؛ هي إنارة نفوس القديسين وقوام القوّات العقلية. فلنصل نحن أيضاً لكي تدركنا هذه النار، حتّى إذا ما سلّكنا كلّ حين في النور، لا نصدّم أرجلنا أبداً بمحجر^(٢)، ولو إلى حين، بل «نُضِيءَ كَأَنُوا رِيْفِ الْعَالَمِ، مَتَّسِيْكِينَ بِكَلْمَةِ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ»^(٣)، لكي إذا ما تمعّنا بخيرات الله نستريح مع الرّبّ في الحياة، مُجَدِّدين الآب والابن والروح القدس، له المجد إلى الدّهور، آمين.

(١) في هذه الجملة الواحدة رَبَطَ أثبا مقار بين أربع كلمات، وقد وجدنا في سيرة أبيه أثبا أنطونيوس هذا الرابط عيّه بين هذه الكلمات الأربع عينها وفي جملة واحدة كذلك. ففي سيرته وردت هنا القول على لسانه: [...] لأنّي أعتقد أنه إن تقدّم النفس تمامًا، وكانت في حالتها بحسب الطبيعة، تستطيع - وقد صفت بصيرًا - أن تنظر أكثر وأبعد من الشياطين، لأنّ لها الرّبّ الذي يكشف لها]. (سيرة القديس أنطونيوس بقلم البابا أنثانيوس الرسولي - فصل ٣٤ PG 26, 893B). فنجد هنا أنّ كلاً القديسين قد رَبَطُ في جملة واحدة بين نقاوة النفس وبصيرتها الصافية التي بحسب طبيعتها من جهة وبين كشف الرّبّ لها من جهة أخرى. والكلمات الأربع المقصودة هي: (١) καθαρός = نقى؛ (٢) τὸ διορατικός = البصيرة الصافية؛ (٣) κατὰ τὴν φύσιν = بحسب الطبيعة؛ (٤) ἀποκαλύπτω = يكشف؛ يعني.

(٢) انظر: مز ٩٠: ١٢، مت ٤: ٤، لو ٤: ١١.

(٣) في ٢: ١٥، ١٦ - حسب التّصرّ.

العظة السادسة والعشرون

مسيرة الإنسان، ومؤازرة الروح القدس

[عن سُمْوَ النَّفْسِ الْخَالِدَةِ وَكَرَامَتِهَا وَقَدْرَتِهَا وَعَمَلَهَا، وَكَيْفَ أَنْهَا تُجَرِّبُ مِنَ الشَّيْطَانَ، وَتَنَالُ الْعُتْقَ مِنَ التَّجَارِبِ]. العظة تحوي أيضًا أسللة مملوكة تعليمًا عظيمًا جدًا]

- [ه] جهاد الإنسان وتشبيهه بالفرح والرجاء
- [أ] سُمْوَ النَّفْسِ الْخَالِدَةِ وَكَرَامَتِهَا
- [و] حرب الشَّيْطَان بِاقِيَّةٌ مَا بَقِيَتِ الْحَيَاةِ
- [ب] الشَّيْطَانُ لَيْسُ مُطْلِقُ الْبَيْانِ
- [ز] لَا ثُمَرٌ لِلْإِنْسَانِ بِدُونِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ
- [ج] عدم مبارحة طبيعة النفس خالما
- [ح] كَمَا نَأَمَ الْرَّبِّ لِأَجْلَنَا، حَرَبَ بِنَا أَنْ نَأَمَ لِأَجْلِهِ
- [د] الشَّيْطَانُ لَا يُجِرِّبُ إِلَّا بِسَمَاحٍ مِنَ اللَّهِ



[١] سُمْوَ النَّفْسِ الْخَالِدَةِ وَكَرَامَتِهَا

١ - لا تنظر، أيها الحبيب، ببساطة إلى الجوهر العقلي للنفس^(١)، فالنفس الخالدة إنما هي إناةً كريم. فاعبرْ كم هي عظمة السماء والأرض، والله لم يُسْرِّ بحما، بل بك وحدك قد سرّ! فافطنْ إلى كرامتك وشرفك، لأنَّ الرَّبَّ - ليس بملائكةٍ بل بنفسه - قد جاء للمحاماة عنك^(٢)، حتى يدعوك أنت الضال المثخن بالجراح، ويرد إليك جبلاة

(١) انظر: حاشية ١ ص ٢٣٠ - العظة ٩.

(٢) πρεσβεία = شفاعة؛ دفاع، محاماة.

آدم الطَّاهِرُ الْأُولَى. فإنَّ الإِنْسَانَ كَانَ سَيِّدًا، بَدَئًا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى مَا هُوَ أَسْفَلَ، مُهِبِّاً الْأَهْوَاءَ، وَغَرِيبًا عَنِ الشَّيَاطِينِ، وَنَقِيًّا مِنَ الْخَطِيئَةِ، وَ«عَلَى صُورَةِ اللَّهِ وَشَبَهِهِ»^(١). لَكُنْ بِسَبِبِ التَّعْدِيِّ بَاتَ ضَالًّا وَمَكْلُومًا وَمَيْتًا، لَأَنَّ الشَّيَاطِينَ أَظْلَمُ عَقْلَهُ. فَهُوَ هَكُذا مِنْ وَجْهٍ، وَمِنْ وَجْهٍ آخَرُ هُوَ يَحْيَا وَمُهِبِّزٌ وَعِلْكَ الْإِرَادَةِ.

٢ - سُؤَالٌ: حِينَما يَأْتِي الرُّوحُ الْقَدْسُ، أَلَا تُسْتَأْصِلُ الشَّهْوَةُ الطَّبِيعِيَّةُ مَعَ الْخَطِيئَةِ؟

الجواب: قَدْ سَبَقْتُ وَقْلُتُ إِنَّ الْخَطِيئَةَ تُسْتَأْصِلُ، وَيَسْتَرُّ الإِنْسَانُ جَبَلَةً آدَمَ الطَّاهِرَ الْأُولَى؛ كَذَلِكَ بِالْحَقِّ بِقَوْةِ الرُّوحِ الْقَدْسِ وَبِالْمِيلَادِ الرُّوحَانِيِّ الْجَدِيدِ يَبْلُغُ الإِنْسَانُ قَامَاتِ آدَمَ الْأُولَى، بَلْ وَيَغْدو أَعْظَمُ مِنْهُ، لَأَنَّهُ يَتَأَلَّهُ^(٢).

[ب] الشَّيَاطِينَ لَيْسُ مُطْلَقُ الْعِنَانِ

٣ - سُؤَالٌ: هَلْ الشَّيَاطِينُ مُطْلَقٌ إِلَى حَدٍّ مُعَيَّنٍ، أَمْ إِنَّهُ يَحْارِبُ كَمَا يَشَاءُ؟

(١) تك ١: ٢٦.

(٢) من الفعل *ἀποθεόω*, انظر: حاشية ٢ صفحة ٣٠٨ - العظة ١٥.

الجواب: إنَّ هجومه ليس هو على المسيحيين فحسب، بل على عبادة الأوثان وعلى العالم بأسره. فلو أطلق له العنان ليُشنَّ حربه كما يشاء لكان قد أهْلَكَ الجميع! لماذا؟ لأنَّ هذا هو عمله ومشيئته. لكنْ كما أنَّ الفخاري يُلقي الآنية ويشعل الأتون من تحتها إلى درجة معينة، فلا يزيد عليها لئلاً تتصدع إذا شُوِّت أكثر مما ينبغي، ولا ينقص منها لكي لا تتلف إذا ما لبست نيةً؛ بالمثل صائع الفضة وصائع الْذَّهَب يضعان ناراً بقياس، لأنَّ النار إذا زادت ينحلُّ الْذَّهَب والفضة وينصرحان ويتبان. فإنْ كان العقل البشري يعرف أنَّ يَرِنَ الأَحْمَال لِلَّدَائِة ولِلْجَمْل^(١) ولأيِّ حيوانٍ آخر بحسب ما يمكنه أن يتَحَمَّل من ثقال، فكم بالحرى الله العالم بآنية البشر يُفسح أيضاً بدرجات متفاوتة للقوءة المعادية؟!

٤ - فكما أنَّ الأرض، وإنْ تكون واحدة، فهي هنا وعرة وهنالك سهلة، وموضع فيها يصلح لغرس كُرمٍ وآخر لزراعة حنطة وشعير؛ كذلك أيضاً هذه المواقع التي لقلوب البشر ونياثِهم هي متمايزة؛ وكذلك أيضاً الموهاب المُعطاة من فوق: فيما يعطى لواحدٍ خدمة الكلمة، يعطى لآخر تمييزاً، ولثالثٍ موهاب شفاءً، لأنَّ الله يَعْلَم مقدرة كلِّ أحد على التَّدْبِير، وتبعاً لذلك يعطي شيئاً موهابه. بالمثل أيضاً في ما يختص بالحروب، فبقياسٍ

(١) لا ننسى مهنة آنبا مقار القديمة كجَمَال، وقد أورد ذكرًا لهذا الحيوان أيضاً في العظة الثانية والثلاثين (انظر: عظة ٣٢: ١).

معين، بحسب ما يمكن أن يقبل كله واحد ويتحمل، تطلق عليه القوة المعادية.

[ج] عدم مبارحة طبيعة النفس حالها

٥ - سؤال: إذا ما قيل أحد القوّة الإلهية وتغيير جزئيًا، فهل يتثبت في طبيعته؟

الجواب: لكي تتحقق الإرادة، حتى بعد قبول العمدة، إلى أيّة وجهة تميل ومع أيّة منحى توافق، فإنّ الطبيعة تتثبت على حالها: القاسي في قساوته، واللّذين في لينه. فقد يحدث أنّ إنساناً رغم كونه عاّمياً يولد ثانيةً روحياً ويتحوّل إلى سبيل الحكمة وتعلّن له أسرارٌ خفيةٌ، ومع هذا يظلّ بالطبيعة عاّمياً. وآخر مع كونه بالطبيعة قاسياً يُسلّم إرادته نحو خوف الله فيقبله الله، ومع أنّ الله يُسرُّ به فما تنفك طبيعته على قساوتها. وثالث يكون ذا أخلاقٍ جيّدة، حليماً، صالحاً، يُسلّم ذاته لله ويقبله الرّبّ، ولكن حينما لا يثبت في الأفعال الصالحة لا يُسرُّ به الرّبّ، لأنّ كلّ طبيعة آدم هي متقللة نحو الخير نحو الشّرّ، فلها إمكانية قبول الشّرّ، لكنّ لها - إنْ تشاء - أن لا تفترفه.

٦ - كمثل رقي يكتب عليه بطرقٍ شتّى، فأنت قد شئت وكتبت شيئاً

ثم تحوّته، لأنَّ الرِّقَ يُقبل كُلَّ ما يُكتب عليه؛ هكذا الإنسان القاسي الذي سلم إرادته إلى الله وتحول إلى الصَّلاح، يُقبل لدى الله. لأنَّ الله، لكي يُظهر أحساءه، يُقبل كُلَّ إنسان وكلَّ اشتياق. فإنَّ الرَّسُولَ كانوا يصرُفون زمانًا ما في المدينة التي كانوا يدخلونها، وكانوا يُشفون بعض المعدِّبين ولا يُشفون البعض الآخر. فالرَّسُولُ أنفسهم كانوا يرومون أنْ يَهُبُوا الحياة لجميع موتاهم ويجلُّوا الصِّحةَ لجميع السُّقماء، ولكنَّهم لم يحظُوا بمتغاهم كاملاً، إذ لم يُؤذن لهم بأنْ يعملا كُلَّ ما شاءوا. كذلك بالمثل بولس حين أُمسك من قِبَل الوالي^(١)، فلو شاءت النِّعمةُ التي معه^(٢) لجعلت الوالي كالحجَر^(٣) وثلمت السُّورَ، إذ إنَّ بولس كان إنساناً مقتنياً للباراكليت، لكنَّ الرَّسُولَ دُلِيَ في زنبيل! فأين هي القدرة الإلهية الملائمة له؟! فهذه الحوادث إنما قد صارت تدبرِيَّاً، ففي بعض الأمور يجترح الرَّسُولُ آياتٍ وعجائبَ، وفي البعض الآخر يلبثون ضعفاء، لكي بهذا يُميِّز إيمانُ الذين يؤمنون والذين لا يؤمنون ومتخَّن حرَّةُ الإرادة وتنظَّر، إنْ كان البعض لا يُشترون في المواقف الأكثر ضعفاً. لأنَّه لو كان كُلُّ ما يريدُه الرَّسُولُ يصنعونه لكانوا يَغرسون النَّاسَ في تقوى الله عنْهُ بواسطة الآيات لا بالإرادة الحرة، ولما كان هناك بعدُ إيمان أو عدم

(١) انظر: ٢٤: ١١، ٣٢، حيث كان الوالي يحرس دمشق لكي يتسلَّى له أن يمسك بولس.

(٢) انظر: ١: ١٥: ١٠.

(٣) الفعل *πετρίζω* = *to become stone, to be petrified* = يتحجَّر.

إيمان. فالمسيحية إنما هي «**حَجَرٌ صَدْمَةٌ وَصَخْرَةٌ عَنْتَرَةٌ**»^(١).

[د] الشّيّطان لا يجرّب إلّا بساح من الله

٧ - بيّنَ أَنَّ مَا قُدِّسَتِ عنْ أَيُّوب لِيُسْ هُوَ بِالْأَمْرِ الْبَسِيْطِ، كَيْفَ أَنَّ الشّيّطان طَلَبَهُ^(٢)، لِأَنَّهُ مَا كَانَ لِيُسْتَطِعُ أَنْ يَعْمَلْ شَيْئًا مِنْ نَفْسِهِ بِدُونِ سَمَاحٍ. لَكِنْ مَاذَا يَقُولُ الشّيّطان لِلرَّبِّ؟ «أَعْطِنِي إِيَاهُ فِي يَدِي **«وَسَيْلَعْنَكَ فِي وَجْهِكَ»**» (أي ١ : ١١ س). هَكُذا أَيْضًا الْآن أَيُّوب هُوَ هُوَ، وَاللهُ هُوَ هُوَ، وَالشّيّطان هُوَ هُوَ، فَعَلَى قَدْرِ مَا يَنْالُ أَحَدٌ مُعَاضِدَةَ اللهِ وَيَكُونُ غَيْوَرًا وَحَارِّاً بِالنِّعْمَةِ، يَطْلُبُهُ إِبْلِيسُ وَيَقُولُ لِلرَّبِّ: «**لَا تُكَلِّمْنِي وَتَعْضُّدْنِي فِي وَجْهِكَ**». وَبَعْدَ ذَلِكَ حِينَ يَعْبُدُكَ اتْرُكْهُ وَسَلِّمْنِهِ لِي **«وَسَيْلَعْنَكَ فِي وَجْهِكَ»**. وَبَعْدَ ذَلِكَ حِينَ تَنْعَزِي النَّفْسَ تَنْسَحِبُ النِّعْمَةُ وَتُسْلِمُ النَّفْسُ لِلتَّجَارِبِ، فَيَأْتِي الشّيّطان جَالِبًا رِبْوَاتٍ شُرُورٍ: يَأْسًا وَقُنُوطًا وَأَفْكَارًا شَرِيرَةً، مُضَيِّقًا الْخَنَاقَ عَلَى النَّفْسِ، حَتَّى يُضَعِّفَ رَجَاءَهَا بِاللهِ وَيُفْصِبُهَا عَنِ هَذَا الرَّجَاءِ.

(١) رو ٩ : ٣٣ ، ١ بط ٢ : ٨.

(٢) الفعل **يَرِدُ** فعلٌ نادِرٌ لم يَرِدْ سُوَى مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ فِي الْكِتَابِ الْمَقَدُّسِ ، وَذَلِكَ فِي سِيَاقٍ مُشَابِهٍ لِمَا نَحْنُ بِصَدِّدِهِ، حِينَما صَرَّحَ الْمُسِيحُ لِبَطْرِسِ بِأَنَّ الشّيّطَانَ قدْ طَلَبَ **το ἔγγυό σατανά** الرُّسْلَ لِكِي يَغْرِيلُهُمْ كَالْحَنْطةِ (انظُرْ لِو ٢٢ : ٣١).

(٣) حَرْفِيًّا، بحسب التَّرْجِيمَةِ السَّبْعِينِيَّةِ وَكَذَا الأَصْلِ الْعَرَبِيِّ: **«يَبْلُوكُكَ»**، وَذَلِكَ لِتَحْاشِي استِعمالِ لفْظٍ مُثْلِّ **يَلْعَنُكَ** «يَنْطَوِي عَلَى دَمَّ أو ما شَابَهُ إِلَى جَانِبِ اسْمِ اللهِ، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ بِال-

٩ : ٥ ، ٥ : ٢ ، ١ : ٥

٨ - أمّا النّفس الحكيمـة فلا تفقد رجاءـها وسط المـلـمات والضـيق بل تتمسـك بما هي مـسـكةـ به، وأـيـ ما يجلـبـه عـلـيـها الشـيـطـان عـبـرـ رـبـوـاتـ من التـجـارـب تصـيرـ عـلـيـه قـائـلةـ: "حقـ وإنـ كـنـتـ أـمـوتـ فـإـنـيـ لاـ أـتـرـكـهـ". وـهـيـنـدـ، إـنـ كـانـ الإـنـسـانـ «يـصـبـرـ إـلـىـ الـمـنـتـهـىـ»^(١)، يـشـرـعـ الرـبـ فيـ مـحـاجـاهـ الشـيـطـانـ: "هـاـ أـنـتـ تـنـظـرـ كـمـ مـنـ شـرـورـ وـضـواـقـ جـلـبـتـهـ عـلـيـهـ، وـمـاـ أـطـاعـكـ بـلـ إـنـهـ يـعـدـنـ وـيـخـافـنـيـ" ، حـيـثـيـ يـخـزـيـ الشـيـطـانـ وـلـاـ يـعـودـ لـهـ شـيـءـ بـعـدـ لـيـقـولـهـ. فـإـنـهـ فـيـمـاـ يـخـصـ أـيـوـبـ، لـوـ أـنـ الشـيـطـانـ كـانـ يـعـلـمـ أـنـ أـيـوـبـ حـالـ وـقـوعـهـ فـيـ التـجـارـبـ كـانـ مـزـمـعـاـ أـنـ يـصـرـ وـلـاـ يـنـفـلـبـ، لـمـاـ كـانـ قـدـ طـلـبـ (ليـجـرـبـهـ) حـتـيـ لـاـ يـخـزـيـ؛ هـكـذـاـ الـآنـ أـيـضاـ يـخـزـيـ الشـيـطـانـ مـنـ الـذـينـ يـصـبـرـونـ عـلـىـ الـضـيـقـاتـ وـالـتـجـارـبـ وـيـنـدـمـ لـأـنـهـ مـاـ ظـفـرـ بـشـيءـ، فـيـشـرـغـ الرـبـ فـيـ مـحـاسـبـتـهـ: "هـاـ إـنـيـ قـدـ أـفـسـحـتـ لـكـ، هـاـ قـدـ أـذـنـتـ لـكـ لـكـيـ تـجـرـبـهـ، فـهـلـ اـسـتـطـعـتـ شـيـئـاـ؟ هـلـ أـطـاعـكـ؟"

٩ - سـؤـالـ: هـلـ يـعـلـمـ الشـيـطـانـ إـذـاـ كـلـ أـفـكـارـ الإـنـسـانـ وـخـواـطـرـهـ؟
الـجـوابـ: إـنـ كـانـ الإـنـسـانـ حـيـنـ يـعـيـشـ مـعـ آخـرـ يـعـلـمـ أـمـورـهـ، وـأـنـتـ ذـوـ العـشـرـينـ عـامـاـ تـعـلـمـ أـمـورـ قـرـيبـكـ، أـفـلاـ يـعـلـمـ أـفـكـارـكـ الشـيـطـانـ الـمـاصـاحـبـ لـكـ مـنـذـ وـلـادـتـكـ؟! إـنـاـ لـهـ سـتـةـ آلـافـ مـنـ الـأـعـوـامـ. لـكـيـاـ لـسـناـ نـزـعـمـ أـنـهـ يـعـلـمـ قـبـلـ

.٢٢ : ١٠ (١)

أن يجرب الإنسان ماذا عساه أن يصنع، فالجريب يجريب ولكن لا يعلم أيطعه الإنسان أم لا، إلى أن تسلّم النفس إرادتها عبدة له. كذلك لا نزعم أن الشيطان على دراية بكل أفكار القلب ورغباته. كما لو أن هناك شجرة لها أغصان كثيرة وأفرع عديدة، فيستطيع المرء - لسبب ما - أن يمسك بعصبتين من الشجرة أو ثلاثة؛ هكذا أيضًا فإن للنفس أغصاناً كثيرة وأعضاءً عديدة، فتوجد أغصان للأفكار والخواطر يمسكها الشيطان، وتوجد أفكارًا وخواطر أخرى تمنع عليه.

[ه] حمد الإنسان وتشبيهه بالفرح والرّجاء

١ - فإنه حين تتبع الأفكار، تارة يكون جانب الشر أقوى وطورًا يكون فكرُ الإنسان هو الغالب تماماً، وذلك إذا ما نال عونًا ونجاةً من لدن الله وقاوم الشر؛ فالإنسان يكون آنًا مسُودًا وأونَةً مالگًا لإرادته. فقد يعرض أن يتقدم الإنسان بحراة إلى الله، والشيطان يعلم ذلك ويرى أنه يُضاده، ولكن لا تكون له قدرة أن يمنعه. لماذا؟ لأن للإنسان إرادةً أن يصرخ إلى الله، وله ميّلٌ طبيعيٌّ^(١) لأن يحب الله ويؤمن به ويطلبه ويقتدُم إليه. ففي الأمور المنظورة يعمل الفلاخ الأرض، لكنه وإن كان يعملاها إلا أنه يحتاج إلى المطر والعين من فوق، فما لم ينزل المطر من فوق تذهب فلاحة الفلاخ

(١) حرفيًا: ”καρπούς φυσικούς“ = له ثغر طبيعي...”.

لأرضه أدرج الريح؛ هكذا هو الحال أيضاً في العالم الروحي، فإنَّ الأمور تُعتبر من وجهتين: فمن الضرورة بمكان أن يفلح الإنسان - باختياره - أرض قلبه ويُكَبِّدُ الأتعاب، لأنَّ الله يطلب تعب الإنسان وكُده وعمله، إلَّا أَنَّه ما لَمْ تَلْعُ من فوق سحابة سماويةٍ وغَيْوَثٍ التَّعْمَةُ فِيهَا، إلَّا أَنَّه ما لَمْ تَلْعُ من فوق السُّكُونِ الْمَكْدُودِ شَيْئًا.

١١ - فإنَّ هذه هي علامة المسيحية، أن يُحسَنُ الإنسان - مع كلِّ ما يجاهد فيه، ومع كلِّ أعمال البرِّ التي يصنعها - وكأنَّه ما عملَ شيئاً؛ فإذا ما صام يقول: "إِنِّي مَا صُمِّطْتُ" ، وإذا ما صلَّى: "إِنِّي لَمْ أَصْلِلْ" ، وإذا ما ثابَرَ على الصَّلاة: "إِنِّي لَمْ أَتَوَفَّ عَلَى الصَّلَاةِ، بَلْ لَمْ أَزْلَ مُبْتَدِئًا^(١) فِي النُّسُكِ وَالْجَهَادِ". حتَّى وإنْ يكن بارِّاً أمام الله، يجب عليه القول: "إِنِّي لَسْتُ بِيَارِ" وليس لي جهاد، بل إِنِّي أَبْدَأَ كُلَّ يَوْمٍ^(٢) . فيلزمه أنْ يكون له كُلَّ يوم رجاءَ الملائكة المنتظر وفرخه وانتظاره مع انتظار الفداء العتيد، قائلاً: "إِنْ لَمْ أَفْدَ

(١) هذه الفكرة البسيطة الحكيمية: أن يُعتبر الإنسان ذاته مبتدئاً على الدُّوَامِ، كانت هي البيِّنَةُ وراء احتفاظ ق. أنطونيوس أبي آنبا مقار ومعلميه بغيرته وحبيته ثابتين منذ بداية رهبنته إلى نهاية حياته، ونجد لها ليس أقلَّ من أربع مراتٍ في سيرته بقلم ق. أنطانيوس [فصل ٧ (مرتان)، فصل ١٦ (في مُسْتَهَنٍ خطابه المُشَطَّلُ لِلرُّهْبَانِ)، فصل ٩١ (وصيَّته الأخيرة عند نياحته)].

(٢) καθ' ιημέραν = كُلَّ يَوْمٍ "هاتان الكلمتان سوياً هما أيضًا سُرُّ عظيمِ جليل القدر قد خفِّظَ للقديس أنطونيوس عزمه وقلبه مشتعلين ومتوقعين إلى النهاية، ونجد عبارة "كُلَّ يَوْمٍ" متكررة أربع عشرة مرَّةً في سيرته لنصف دوام جهاده [الفصول ٧ (مرتان)، ١٦، ١٨، ١٩ (أربع مرات)، ٤٥، ٤٧، ٥٥، ٦٦، ٨٩ (عند نياحته)، ٩١ (عند نياحته أيضًا)].

اليوم، فغدًا سوف أُفدي“ . لأنَّه كما أَنَّ الَّذِي يغرس كرمةً يكون له في نفسه - حتَّى قبل أنْ يشرع في كَدِه - رجاءً وفرجٌ، ويسبق فيتمثل في ذهنه حتَّى الكَرْم ويَخْسُب ما سَيُدُرُّه عليه قبَلَما يكون خَمْرٌ بعد، وهكذا يتقبَّل التَّعب إذ يَشْحُدُ الرَّجَاءُ والانتظارُ هُمَّه لتجثُّمِ الأَتَعْبِ، فيُنْفَقُ من أمواله في ذلك الزَّمان الشَّيءُ الكَثِير؛ بالمثل أيضًا الَّذِي يبني بيتًا والَّذِي يزرع، فإنه ينفق أَوْلًا من أمواله كثِيرًا من أجل رجاءِ الْكَسْبِ المزمع؛ هكذا أيضًا هنا ما لم يقتِنِ الإِنْسَانُ أَمام ناظِرِيهِ الفَرَحُ والرَّجَاءُ قائلًا: “إِنِّي عَيْدُ أَنْ أَنَا الْفَداءُ وَالْحَيَاةُ“ لا يمكنه أن يتحمل الضَّيقات أو الانتقال ولا أن يتقبَّل الطَّرِيقَ الضَّيِّقةَ، لأنَّ الرَّجَاءَ وَالْفَرَحَ الْمَلَازِمَينَ لِهِ يُشَجِّعُهُ عَلَى مُكَابَدَةِ الأَتَعْبِ وَتَحْمِيلِ الضَّيقاتِ^(١) .

١٢ - لكنْ كما أَنَّه ليس من السَّهْل على مجندٍ أنْ تُقْبَلَ من النَّارِ، هكذا لا تُهْرِبُ النَّفْسُ من نَارِ الموتِ إِلَّا بِأَتَعْبٍ جَزِيلٍ. لأنَّ الشَّيْطَانَ في غالب الأحيان يُؤْسِسُ لُحْفَيَّةً للنَّفْسِ - في طَيِّ أَفْكَارٍ صَالِحةٍ - قائلًا: ”إِنَّكِ بِهَذَا يُمْكِنُكِ أَنْ تُرْضِيَ اللَّهَ“ فَيَغْنِمُهَا إِلَى أَفْكَارٍ سَفِيهَةٍ غَرَّاءَةً، وَإِذْ لَا

(١) لنلاحظ أنَّ أبا مقار قد أورد في هذه الفقرة فقط أربع مرات سلامًا روحًا بـ”سلام سَدَاه الفَرَحِ وَلَحْنَهُ الرَّجَاءِ“ . وهذا إنما يذكرنا بصيحة أبا أنطونيوس الذهبيَّةِ التي جمع فيها تَيَّنُكَ الْفَضْلَيْنَ ”إِذَا أَرَدْنَا احْتِقارَ الْعَدُوِّ، فلتَأْمَلْ دوَائِنَّا فِي مَا لِلرَّبِّ، وَلِتَفْرُجْ النَّفْسَ كُلَّ حِينٍ فِي الرَّجَاءِ“ . (سيرة ق. أنطونيوس - ٤٤)، ولعلَ الآيةُ الَّتِي يستلهمانها هي: »فَرِحُونَ فِي الرَّجَاءِ« (رو: ١٢: ١٢).

تعرف النفس المخدوعة أن تُمْيز، «تَسْقُطُ فِي فَخِ إِبْلِيسِ»^(١) وهلاكه. أمّا السلاح الأفضل للمجاهد والمناضل فهو هذا: أن يدخل إلى قلبه ويصنع حرباً مع الشيطان ويبغض ذاته وينكر نفسه ويغضب عليها وينتهارها، ويقاوم الشهوات الماجعة فيه ويناصب أفكاره العداء ويقاتل ذاته.

١٣ - فإن كنت تحفظ جسدك خارجياً من الفساد والرذلي بينما تزني في باطنك، فإنك إنما قدّام الله قد زَنَيت وفسيقت بأفكارك، ولا يُجديك نفعاً اقتتاوك جسداً بتوّلاً. كمثل أن يكون هناك شابةً وشابًّا، وهذا يغويها بمكراٍ حتى يفسدها، فإنهما تُمسي أخيراً رِجْسَةً عند عريسها لأنهما زنت؛ هكذا النفس غير الجسدانية التي يكون لها شركة مع الحياة الكامنة في الدّاخل، أي الروح الشّرير، فإنهما تزني (مرتدّة) عن الله، إذ إنّه مكتوب: «إِنَّ كُلَّ مَنْ يُنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيُشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ» (مت ٥: ٢٨). فإنه يوجد زنى يُكمل بالجسد، وكذا يوجد زنى للنفس حين يكون لها شركة مع الشّيطان. لأنّ النفس ذاتها تكون شريكة وأختاً إنما للشّياطين أو الله ولملائكته، فإنّ هي زنت مع الشّيطان فما عادت جديرة بالختن السّماوي.

(١) آية ٣: ٧

[و] حرب الشّيّطان باقيةٌ ما بقيت الحياة

١٤ - سؤال: هل يأتي وقت يهدا فيه الشّيّطان ويُعتق الإنسان من الحرب، أم إنَّ حربه تدوم ما دام هو حيًّا؟

الجواب: إنَّ الشّيّطان لا يهدا عن الحرب قطٌّ، فطالما الإنسان حيٌّ في هذا الدّهر ولا بسأ للجسد فإنَّ رحى الحرب لا تفتَّ تدور. لكنْ حين تنطفئ «سهام الشّرّير المُلْتَهِيَّةُ»^(١)، أيُّ ضررٍ يمكن أن يصيب الإنسان حتَّى ولو أتاها الشّيّطان؟ فقد يعرض أنْ يكون أحد صديقاً للملك ويُفلح في إنزال عقابٍ بخصمه، فطالما أنَّ الملك في صفة وهو صديق له يغضُّنه، فلا شيء يضرُّه. فحين ينفع إنسانٌ في أن يشقَّ طريقه عبر جميع الرُّتب والمكانت وينجدو صديقاً للملك، فأيُّ ضررٍ يمكن لأحد أن يُلحِّقه به إذ ذاك؟ ففي الأمور المنظورة توجد مدنٌ تناول عطايا وهباتٌ كلَّ سنةٍ من الملك، فإنَّ كانت تخدمه يسيرًا فإنَّها لا تخسر شيئاً، ذلك لأنَّها تنتفع بمثل هذه العطايا وتقبلها من لدن الملك؛ هكذا أيضًا المسيحيون، فإنَّ كان العدوُّ يشير عليهم حربًا، إلا أنَّهم قد أقاموا في اللاهوتية ولبسوا «ثُوَّةً من الأَعْالَى»^(٢) وراحةً، فلا يغيرون أمرَ الحرب اهتماماً.

(١) آف ٦:٦

(٢) لو ٢٤:١٩

١٥ - فكما أنَّ الرَّبَّ قد لَيْسَ جسداً تارِكًا وراءه كُلُّ رئاسةٍ وسلطان، هكذا المسيحيون أيضًا يلبسون الرُّوح القدس^(١) ويكتشون في راحةٍ، حتَّى وإنْ ثارت عليهم حربٌ فالشَّيطان يقمع من الخارج (فقط) أمَّا من الدَّاخِل فَهُم مُحَصَّنُون بِقُوَّةِ الرَّبِّ ولا يأبهون بالشَّيطان. فحين جرَب الشَّيطان الرَّبَّ هناك في البرِّية أربعين يومًا^(٢)، هل أضرَّه بشيءٍ حين دنا من جسده من الخارج؟ لأنَّه من الدَّاخِل كان إلَّا؛ هكذا المسيحيون أيضًا ولئنْ كانوا يجربون من الخارج لكنَّهم من الدَّاخِل مملوؤون من الْلَّاهوَيَّة^(٣) ولا يضرُّهم شيءٌ. فإنْ أدرك أحدٌ هذه القامات، يكون قد بَلَغَ محبَّةَ المَسِيحِ الكاملة و«ملءَ الْلَّاهوَتِ»^(٤). أمَّا من لم يكن على هذه الحال فإنَّ له إلى الآن حرَبًا في داخله، فيكون في راحةٍ في صلاتِه حينًا، وفيَّنَا آخرَ يجاهِه ضيقًا وحرَبًا. لأنَّه هكذا يشاء الرَّبُّ فيدرِّيه على الحروب إذ لا يزال طفلاً، وكلا الوجهين يتبعان في داخله: التُّور والظلمة، الرَّاحَةُ والضَّيق، فمُثْلُ هؤُلَاء يُصلُّون في راحةٍ آنًا، ويكونون في اضطرابٍ آنًا آخر.

(١) انظر: لو ٢٤: ١٩.

(٢) انظر: مر ١: ٤١-٤٣، لو ٤: ٢.

(٣) انظر: كو ٢: ١٠.

(٤) كو ٢: ٩.

١٦ - أَفَمَا تسمع ما ي قوله بولس؟ «إِنْ كَانَتْ لِي كُلُّ الْمَوَاهِبِ، وَإِنْ أَسْلَمْتُ جَسَدِي حَتَّى أُحْتَرِقَ، وَإِنْ كُنْتُ أَنْكَلَمْ بِالسِّنَةِ الْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِي مُحَبَّةٌ، فَلَسْتُ شَيْئًا» (١) (كو ١٣: ٣-١ - حسب النَّصّ). ذلك لأنَّ كلَّ هذه المَوَاهِبِ إِنَّما هي للتشجيع، وأولئك القائمون فيها - وإنْ يكونوا في الثُّور - أَطْفَالٌ بعد. فإنَّ كثيرين من الإخوة قد أدركوا مثل هذه القَامَاتِ، واقتَسَوا مَوَاهِبَ شَفَاءٍ وَإِعْلَانًا وَنِبَوَةً، وَلَكِنْ لَأَنَّهُمْ مَا بَلَغُوا الْمُحَبَّةَ الْكَاملَةِ حيث «رِبَاطُ الْكَمَالِ»^(١) دَهْتَهُمُ الْحَرَبُ، وَفِي تَحَاوُلِهِمْ سَقَطُوا. أمَّا لَوْ بَلَغَ أَحَدُ الْمُحَبَّةِ الْكَاملَةِ، فَمَذْ ذَاك يُرِبِطُ بِالنِّعَمَةِ وَيَكُونُ مَأْسُورًا لَهُا. ولكنَّ حَتَّى وإنْ كَانَ أَحَدٌ يُوشِّكُ أنْ يَدْنُوَ مِنْ قَامَةِ الْمُحَبَّةِ دُونَ أَنْ يَلْعُجَ لَأَنَّهُ يُرِبِطُ بِالْمُحَبَّةِ عِيْنَهَا، مُثْلِهِ هَذَا مَا يَزَالُ تَحْتَ رِبْقَةِ الْخُوفِ وَالْحَرَبِ وَالسُّقْوطِ، وَإِنْ لَمْ يَتَحْفَظْ يَطْرُحُهُ الشَّيْطَانُ.

١٧ - لَأَنَّهُ هَكُذا قَدْ ضَلَّ كَثِيرُونَ، إِذْ بَعْدَمَا أَتَتْهُمُ النِّعَمَةَ تَوَهَّمُوا أَنَّهُمْ أَدْرَكُوا الْكَمَالَ وَطَفِقُوا يَقُولُونَ: "خَسَبْنَا هَذَا، فَلَا حَاجَةُ لَنَا إِلَى شَيْءٍ"^(٢). إِلَّا أَنَّ الرَّبَّ لَا نَهَايَةَ لَهُ وَلَا يَكُونُ الإِحْاطَةُ بِهِ، وَالْمُسِيحِيُّونَ لَا يَجْسِرُونَ أَنْ يَقُولُوا: "إِنَّا قَدْ أَدْرَكَنَا"^(٣)، لَكِنَّهُمْ يَلْبِسُونَ مَتَوَاضِعِينَ وَيَطْلُبُونَهُ لَيْلَ

(١) (كو ٣: ١٤).

(٢) انظر: رو ٣: ١٧.

(٣) "κατελάβομεν" ، قارن: في ٣: ١٢ «لَيْسَ أَيْ قَدْ نَلَتْ أَوْ صِرْتُ كَامِلًا، لَكِنِي أَسْعَى لَكِنِي أُذْرِكُ». *εἰ καὶ καταλάβω*

نهاًر. ففي الأمور المنظورة لا نهاية للّتّعلم، وليس أحدٌ يعرف هذا إلّا من له
باع طويلاً في تحصيل العلوم؛ هكذا هنا أيضًا: فإنَّ الله لا يُدرك ولا يُقاس
إلّا للذين تذوّقوا ذاك الّذى قِيلوه، وعرفوا ضعفهم. فلو أنَّ أحدًا لم يكن
يعرف إلّا التّزّر اليسير من العلم ويزهّب إلى ضَيْعَةٍ حيث يوجد عَامِيون،
فإنَّه يُمْجَد منهم كمتعلّم لأنَّهم قرويُون أَفْحَاحٌ لا يُعرفون أن يمْتَزوا؛ أمَّا إن
كان ذلك الرّجُل عينُه، الّذى لا يُعرف العلم إلّا يسيراً، يذهب إلى مدينة
حيث يوجد خطباءً ومتعلّمون فإنه لا يجرؤ أن يظهر أمامهم ولا أن يتكلّم،
لأنَّه يُحْكَم عليه كجاهل من أولئك المتعلّمين.

[ز] لا ثُمَر للإِنْسَان بِدُون الرُّوْحِ الْقَدِيسِ

١٨ - سؤال: إنْ كان إنسانٌ ينتقل من هذا العالم وهو لم يزل بعدُ في حربٍ، وله في نفسه الوجهان معاً: وجه الخطيئة ووجه النِّعمة، فإلى أين يذهب وهو ممسوكٌ من الجانبين؟

الجواب: إنَّه يذهب حيث يكون هدف عقله وحيث تكون محبته.
فقط إن أنت عليك شَدَّةً وحربٌ فينبغي لك أن تقاومها وتبغضها، لأنَّه
أن تأتي الحربُ وهذا ليس من شأنك، أمَّا الذي يخصُّك فهو أنْ تبغضها.
حينئذ، حين ينظر الرَّبُّ عقلك، أتَك تجاهد وتحبُّه من كلِّ نفسيك، فإنَّه

يُفصِّل الموت عن نفسك في ساعة واحدة – لأنَّ ليس عنده أمرٌ عسير – ويأخذك إلى أحضانه وإلى نوره، فيختطفك في لحظةٍ من الزَّمان من جوف الظُّلمة وينقلك للثَّقَلَيْن إلى ملكوته. فإنَّه حينَ لدى الله صُنْعٌ كُلِّ شيءٍ في لحظةٍ من الزَّمان؛ فقط ليكن لك حبًّا من نحوه، فالله يحتاج إلى جهُدِ الإنسان، لأنَّ النَّفْس شريكةٌ للألوهية.

١٩ – وكما ذكرنا مارًا كثيرةً مثلَ الزَّارع، فإنَّه بعد أن يكُدُّ ويُلْقِي البَذَار في الأرض ينبغي له أن يتَّنَاهي المطر من فوق. لأنَّه ما لم يظهر السَّحاب وتحبَّ الرياح، يَضيِّع تعبُّ الفلاح هباءً إذ إنَّ البدرة تُدْفَن مجردةً. فلنَسْخُنْ هذا أيضًا على العالم الروحاني: فإنَّه إذا ما عَوَّلَ الإنسانُ على جهاده الخاصَّ فقط، دون أن يتَّقَبَّل ما هو غريبٌ عن طبيعته^(١)، لا يمكنه أن يعطي أثمارًا لائقةً بالرَّبِّ. فما هو إذاً عَمَلُ الإنسان؟ هو تَرْكُ (الكل)، والخروج من العالم، والمداومة على الصَّلاة، والسَّهر، ومحبة الله والإخوة؛ هذا هو ما يخصُّه. ولكنَّه إنْ كان يعتمد على جهاده الخاصَّ ولا يرجو قَبُولَ شيءٍ آخرَ، ولا تَهُبُّ على نفسه رياحُ الرُّوح القدس، ولا تَظْهُر سحابةً سماويةً وينزل مطرًا من السماء ويَهُطِّل على نفسه، فلا قدرة للإنسان أن يعطي أثمارًا لائقةً بالرَّبِّ!

(١) يقصد أبا مقار هنا نعمة الروح القدس (انظر العظة ٤: ٦).

٢٠ - فإنَّه مكتوب إنَّ الْكَرَامَ حينما يرى الغصنَ آتِيَا بشمر ينقِيه ليأتي بأكثَر؛ وأمَّا الَّذِي لا يأتي بشمر فإنَّه يجتَهُ ويسلِّمه للحريق^(١). لكنَّ الَّذِي يخصُّ الإِنْسَانَ هو هَذَا: إِنَّه سواءً كَانَ يصُومُ أَوْ يسْهُرُ أَوْ يصَلِّي أَوْ يعْمَلُ أَيْ صَلَاحٍ، يَعْزُزُ كُلَّ شَيْءٍ لِلرَّبِّ، قائلًا: «لَوْلَا أَنَّ الرَّبَّ قَوَّانِي مَا كُنْتُ أَسْتَطِعُ أَنْ أَصُومَ أَوْ أَصَلِّي أَوْ أَخْرُجَ مِنَ الْعَالَمِ»، وهَذَا حَالَمَا يَرَى اللَّهُ نِيَّاتِكَ الصَّالِحةَ، أَنَّ الَّذِي لَكَ، الَّذِي تَصْنَعُهُ بِالْطَّبِيعَةِ، تَعْزُزُهُ إِلَى اللَّهِ، يُغْدِقُ هُوَ عَلَيْكَ الَّذِي لَهُ خَاصَّةً، أَيْ الْأَمْرُورُ الرُّوحِيَّةُ الإِلهِيَّةُ السَّمَاوِيَّةُ. فَمَا هِيَ ثَمَارُ الرُّوحِ؟ هِيَ الْابْتِهَاجُ وَالسُّرُورُ.

٢١ - سُؤَالٌ: لكنَّ من حيث إنَّه تَوْجُدُ ثَمَارٌ طَبِيعِيَّةٌ كَالْحَبَّةِ وَالْإِيمَانِ وَالصَّلَاةِ، تَشَبَّهُ هَذِهِ الثَّمَارُ الرُّوحِيَّةُ، فَبَيْنَ لَنَا كَيْفَ تَكُونُ الطَّبِيعِيَّةُ وَكَيْفَ تَكُونُ الرُّوحِيَّةُ؟

الجواب: إنَّ أَعْمَالَكَ الَّتِي تَصْنَعُهَا، وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً وَمَقْبُولَةً لِدِي اللَّهِ، لَكَنَّهَا لَيْسَ بِبَطَاهَةٍ. فَمَثَلًا أَنْتَ تُحِبُّ اللَّهَ، لَكَنْ لَيْسَ بِالْكِمالِ، فَيَأْتِي الرَّبُّ لِيُعْطِيكَ حَبَّةً لَا يَعْتِيرُهَا تَغْيِيرٌ - الْحَبَّةُ السَّمَاوِيَّةُ. أَنْتَ تَصَلِّي عَلَى نَحْوِي طَبِيعِي بِطَيْشٍ وَتَشَتُّتٍ فَكِيرٍ، وَلَكَنَّ اللَّهَ يُعْطِيكَ الصَّلَاةَ النَّقِيَّةَ «بِالرُّوحِ

(١) انظر: يو ١: ١٥ - ٦.

والحق»^(١). فإنه في الأمور المنظورة، **خُرُج الأرض** - في **خُل الأحياء** - الشَّوْك من نفسها، أما الزَّارع فينقلب ويعمل باجتهاد ويُلقي بذاراً، لكن الشَّوْك دون أن يُزرع يطُلُّع ثانيةً ويكثر، إذ قد قيل لآدم عَقِبَ التَّعْدِي: «**حَسَّكَا وَشَوَّكَا تُنْبِت لَكَ الْأَرْضُ**» (تك ٣: ١٨ - حسب النَّصّ). فيكدر الزَّارع أيضاً في الأرض ويقتلع الأشواك وهي لا تزال تكثُر. فلتَسْخُذْ هذا المثال روحيّاً: فإنه بعد التَّعْدِي **خُرُج أرض القلب** شوّكَا وحَسَّكَا، فيعمل الإنسان ويُكدر ولكن لا يزال شَوْك الأرواح الشَّرِيرية يطُلُّع ثانيةً. ثم إن الروح نفسه يُعيَّن ضعفَ البشر^(٢)، والرَّبُّ يُلقي زرعًا سماوياً في ذات أرض القلب ويفُلِّحُها، ورغم إلقائه الزَّرع لا ينفك الحَسَكُ والشَّوْك يطُلُّون أيضاً. ومرة أخرى يُفلِّح الرَّبُّ نفسه أرضَّ النفس جنباً إلى جنب مع الإنسان، والأرواح الشَّرِيرية والأشواك ما تفتَّأ تبع هناك وتطلع ثانيةً، إلى أن يصير الصَّيف وتكثُر النَّعمة وتحفَّ الأشواك بفعل حرارة الشمس.

٢٢ - لأنَّه وإن يكن الشَّرُّ ملازمًا للطبيعة، غير أنَّه لا يُسُود هكذا عليها ولا يكون له مَرْعَى فيها. فإنَّ أعود القمح الرَّقِيقَة يمكن للزَّوان أن يخنقها، لكن حينما يُقْبَل الصَّيف وتحفَّ السَّنابِل، لا يعود الزَّوان يضرُّ القمح في شيء. فحَتَّى وإنْ حدث أنْ هناك ثلاثة مكيالاً من القمح النَّقِي

(١) يو ٤: ٢٣.

(٢) انظر: رو ٨: ٢٦.

ومخلوطٌ معه رُبْع مكياً من الرَّوان، فماذا يَظْهِرُ مِنْهُ؟ لأنَّه قد طُمِرَ بِكثرة
الخنطة؛ هكذا أيضًا في حالة التَّعْمَة، فمَتى ازدادت عطيةُ الله ونعمتهُ
لِلإِنْسَان فَغَدَا غَنِيًّا لِلرَّبِّ^(١)، فِإِنَّ الشَّرَّ - رُغم كونه ملازمًا لِهِ جزئيًّا - لا
يُسْتَطِيع أَنْ يَضُرَّ الإِنْسَان، وَلَا أَنْ يَكُونَ لَهُ قَوْةٌ عَلَيْهِ أَوْ مَرْعَةٌ فِيهِ. لأنَّ
مُجِيءَ^(٢) الرَّبِّ وَتَدَبِّيرِهِ قَدْ صَارَا مِنْ أَجْلِ هَذَا: كَمَا يَعْتَقَدُ أُولَئِكَ الَّذِينَ مَا
بَرَحُوا مُسْتَعْبِدِينَ لِلشَّرِّ وَوَاقِعِينَ بَيْنَ بَرَائِنَهُ وَرَازِحِينَ تَحْتَ وَطَأَتِهِ، وَيَهْبِطُونَ
الْفَلَبَّةَ عَلَى مَوْتِ الْخَطِيَّةِ. فَيَنْبَغِي إِذَا لِلإخْوَةِ أَلَا يَسْتَغْرِبُوا إِنْ كَانُ يُضَيِّقُ
عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ الْبَعْضِ، لِكَمَا يَتَحَرَّرُونَ مِنْ عِقَالِ الشَّرِّ.

[ح] كَمَا تَأَلَّمَ الرَّبُّ لِأَجْلِنَا، حَرَبَّ بَنَا أَنْ نَتَأَلَّمَ لِأَجْلِهِ

٢٣ - فِإِنَّهُ فِي الْقَدِيمِ أَيْضًا، مَعَ أَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ كَانُوا لَهُمَا الْكَهْنُوتَ
فَقَدْ تَأَلَّمَا كَثِيرًا؛ أَمَّا قِيَافَا، الْجَالِسُ عَلَى كَرْسِيِّ ذِيْنِيكَ، فَقَدْ اضْطَهَدَهُ
نَفْسُهُ الرَّبُّ وَحْكَمَ عَلَيْهِ^(٣)، لَكِنَّ الرَّبِّ رُغمَ هَذَا، إِكْرَامًا لِلْكَهْنُوتِ، تَرَكَهُ
يَكْهَنَ^(٤). كَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ كَانُوا يُضْطَهِدُونَ مِنَ الْأَمَّةِ ذَاتِهَا، وَأَخِيرًا صَارَ

(١) انظر: لو ١٢ : ٢١.

(٢) كلمة مجيء εἰσῆλθεν، وردت مرتَّة واحدة في الكتاب المقدس على لسان ق. إستفانوس، عن مجيء ربنا يسوع المسيح (أع ٧:٥٢).

(٣) انظر: مر ١٤ : ٦٤.

(٤) وردت في PG: ἀφῆκεν αὐτὸν γενέσθαι = ترك هذا الأمر يحدث، بدلاً من: τράπεζαν οὐδὲν ιερᾶσθαι” (PG 34, 689 C) = تركه يكهن “ἀφῆκεν αὐτὸν ιερᾶσθαι”

بطرس خلّفًا لموسى، مُؤمّنًا على كنيسة المسيح الجديدة وعلى الكهنوت الحقّ. فإنّه توجد الآن معنودية نارٍ وروحٍ^(١)، وختانٌ يتمّ في القلب^(٢)، لأنَّ الروح الإلهي السماوي يسكن في القلب^(٣). لكنْ ولا حتّى هؤلاء الكاملون - ما داموا في الجسد - بمعطئين، بسبب حرّيّة إرادتهم، بل لا يرحون تحت الحوف، ولأجل هذا أيضًا يُخلّى بينهم وبين التجارب. أمّا إذا بلغت النّفس لأنْ تمضي إلى مدينة القديسين تلك، فحيثُنِّ فقط يمكنها أن تكون بلا ضيق ولا تجرب، لأنَّ هناك لا يكون بعد همٌ ولا ضيق ولا تعب ولا شيخوخة ولا شيطان ولا حرب، بل راحةً وفرحً وسلامً وخلاصً، إذ يكون الرَّبُّ في وسط قدسيه. هذا الذي دُعى "محلاًصاً" لأنَّه يخلّص المسيئين، ودُعى "طبيباً" لأنَّه يهبُ دواءً سماوياً إلهياً ويشفى أهواء النّفس التي لا تزال تسود أحياناً على الإنسان. فعلى سبيل المفاضلة نقول: إنَّ يسوع هو ملكٌ وإله، أمّا الشّيطان فهو ظالم^(٤) ورئيسٌ شرير.

٤٢ - والله وملائكته - إلى ذلك - يرمون أنْ يسكن هذا الإنسان معهم في الملائكة، كذلك الشّيطان وملائكته يتغرون أن يسكن عندهم.

(١) انظر: مت ٣: ١١؛ لو ٣: ١٦.

(٢) انظر: رو ٢: ٢٩.

(٣) حرفيّاً: νόος = الذهن، والذي كثيراً ما كان يقصد به "القلب" عند الآباء.

(٤) τύραννος = الظّالم، الطّاغية، وقد استخدمنا الآباء (مثل ق. أنطاكيوس الرّوسيّ وق. كيرلس الأورشليمي) كنادمة عن الشّيطان، (انظر أيضًا: بش تذكرة الأربعاء - الرابع الرابع).

فالنَّفْسِ إِذَا هِيَ فِي الْوَسْطِ بَيْنَ هَاتِينِ الْحَقِيقَتَيْنِ، وَفِي النِّهَايَةِ أَيُّمَا نَصِيبٌ تَنْزَعُ إِلَيْهِ مُشِيَّةً النَّفْسِ يَصِيرُ الإِنْسَانُ مِلْكًا لَهُ وَإِنَّا. فَكَمَا لَوْ أَنَّ أَبَا يَرْسَلُ ابْنَهُ إِلَى بَلْدِ غَرِيبٍ حِيثُ تَلْقَاهُ وَحْشٌ فِي الطَّرِيقِ، فَيُعْطِيهِ أَدْوِيَةً وَمَا يُبَطِّلُ بِهِ السُّمُومَ لِكَيْمَا إِذَا أَتَتْ عَلَيْهِ الْوَحْشُوْنَ أَوِ الْأَفَاعِيَ يَعْطِيهَا مِنَ الدَّوَاءِ وَيُقْتَلُهَا؛ هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا اجْتَهَدُوا أَنْ تَنْالُوا الدَّوَاءَ السَّمَاوِيَ الشَّافِيَ لِلنَّفْسِ وَالْمُحَصَّنِ لَهُ، لَكِي تَقْتَلُوهُ بِهِ الْوَحْشُوْنَ السَّامَةُ الَّتِي لِلأَرْوَاحِ النَّجَسَةِ. فَلِيُسَيِّرَا اقْتَنَاءُ قُلْبٍ نَقِيًّا، إِنَّمَا فَقْطَ بِجَهَادٍ كَثِيرٍ وَنَصِيبٍ يَقْتَنِي الإِنْسَانُ أَمْرًا يَسِيرًا وَقَلْبًا نَقِيًّا، حَتَّى تُسْتَأْصلَ مِنْهُ شَأْفَةُ الشَّرِّ.

٢٥ - فَإِنَّهُ يَعْرِضُ أَنْ تَكُونُ النِّعْمَةُ فِي أَحَدٍ، بَيْنَمَا قَبْلَهُ مَا تَنَقَّى بَعْدَ، وَهَذَا السَّبَبُ سَقْطُ الَّذِينَ سَقْطُوا، لَا هُمْ لَمْ يَصِدِّقُوا أَنَّ الدُّخَانَ وَالْخَطِيئَةَ مَا يَنْفَكَّانِ يَلَازِمُهُمْ حَتَّىٰ بَعْدَ قَبْوِلِهِمُ النِّعْمَةَ. أَمَّا جَمِيعُ الْأَبْرَارِ فَقَدْ أَرْضَوْا اللَّهَ إِلَيْهِ الْمُنْتَهَىٰ عَبْرَ الطَّرِيقِ الضَّيْقَةِ الصَّاغِطَةِ؛ فَإِبْرَاهِيمُ، رَغْمَ كُونِهِ غَنِيًّا بِحَسْبِ اللَّهِ وَكَذَا بِحَسْبِ الْعَالَمِ، كَانَ يَدْعُو نَفْسَهُ «تَرَاجِبًا وَرَمَادًا»^(١)؛ وَدَاؤِدُ يَقُولُ: «أَمَّا أَنَا فَعَاءُ الْبَشَرِ، وَمُخْتَفِرُ الشَّعْبِ، وَدُوَدَةٌ لَا إِنْسَانٌ» (مِزَ: ٢١ : ٧٦ - حَسْبُ الْأَصْحَّ)؛ بِالْمِثْلِ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ كَانُوا مُذَلِّينَ وَمُعَيَّرِينَ. لَا بِلَ إِنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ، الَّذِي هُوَ الطَّرِيقُ وَالْإِلَهُ، لَمَّا جَاءَ - لَا لِأَجْلِ نَفْسِهِ، بَلْ

۱۸:۲۷

لأجلك أنت - لكي يصير مثلاً لك في كل صلاح، انظر إلى آية مذلةٌ بلغ، «آخِذَا صُورَةَ عَبْدٍ»^(١)، وهو الإله ابن الإله، والملك ابن الملك، المعطي بنفسه أدوية شافية والواهب البرء للمجرورين، أما من الخارج فكان يبدو كواحدٍ من المجرورين.

٢٦ - لكن إياك والاستهانة بجلاله الإلهي حين تنظره من الخارج مذلولاً نظير واحدٍ منا! فإنه من أجلنا ظهر هكذا لا من أجل ذاته. تأمله في الساعة التي فيها طفقو يصرخون: «إصلبْه! إصلبْه!» (لو ٢٣: ٢)، وكان الجمع محتشدًا، كيف كان مذلولاً أكثر من الكل! فكما أنه في الأمور الظاهرة، إنْ كان هناك فاعلٌ شرٌ قد صدر عليه حكمٌ من الولي، فإنه يُمسي بالقالي مرذولاً ومحتقرًا من جميع الناس؛ هكذا الرّب في ساعة الصّليب، كإنسانٍ مُشرفٍ على الموت، تحرّع من الفريسين غصصَ الهوان. فحين بصقوا على وجهه ووضعوا عليه إكليلَ شوكٍ ولطمهوه، آية مذلةٌ لم يجزها؟! لأنَّه مكتوب: «ظَهَرَيْ قَدْ بَذَلْتُ لِلسِّيَاطِ، وَوَجَهِيْ لَمْ أَرْدَ عَنْ خِزْيِ الْبَصَاقِ، وَحَدَّيْ عَنْ اللَّطْمِ» (إش ٥٠: ٦ - حسب النّصّ). فإنْ كان الله قد نزل إلى مثل هذا الدّرك من الإهانات والآلام والمذلة، أفانت - يا من بطبيعتك طينٌ ذو طبيعة

.٧٢ (١)

مائة - مهما تذلّلت بكلِّ نوع، سَتَعْمَلُ شيئاً يضارع ما عمله سَيِّدُكَ؟!
فإنَّ الإله، من أجلك، قد واسعَ ذاته، فأنت من أجل ذاتك لا تتذلّل
بل ترتفع وتنتفع؟! هو أنتي ليحمل ضيقاتك وأنقذك ويعطيك راحته،
أفلا تشاء أنت أن تحمل الأتعاب وتعالِم لكي يمكنك بهذا أن تنال
شفاءً لجراحتك؟! فالمجد لإمهاله وطول أناهه، إلى الدهور، آمين.

العظة السابعة والعشرون

للإِنْسَانُ أَنْ يُضْرِمِ الرُّوحَ أَوْ يَحْزِنَهُ

[هذه العظة، كسابقتها، تكمل الحديث بالتفصيل عن كرامة الإنسان المسيحى ومنزلته. ثُمَّ إنَّها تُلْمِعُ أموراً كثيرة عظيمة النفع عن حرية الإرادة، وتتخللها أسلة ملحوظة حكمة إلهية]

- [د] إمكانية سقوط الإنسان أيًّا كانت قامته
- [أ] معرفة الإنسان لكرامته مفتاح اتضاعه
- [هـ] فلنحرص لنلأ نُسُلِّمَ آتَيْنَا بيدِ أعدائنا
- [ب] التعميم تقى الإنسان شرَّ الكرباء
- [و] حرية الإنسان الثامة في اختياره للرب
- [ج] حرية الإرادة خجز المخلق للإنسان



[أ] معرفة الإنسان لكرامته مفتاح اتضاعه

١ - ألا فاعلم، أيُّها الإنسان، شرف جنسِك وكرامتَك، كيف أَنَّك مُكَرَّمٌ وأَخٌ للمسيح وصديقُ للملك وعروضُ للختن السماوي^(١). فإنَّ من يقدر أن يعرف كرامَةَ نفْسِهِ، يستطيع أن يعرف قوَّةَ الْلَّاهوَتِيَّةِ

(١) هذا يمثال ما استهلَّ به أَنْبِيَا مقار عظته السابقة. وهذه الدُّعوةُ إلى التَّبَصُّرِ في كرامة الإنسان ومنزلته ما برح أَنْبِيَا أنطونيوس يوجِّهُها إلى أولاده في رسائله (انظر على سبيل المثال: الرِّسالَةُ ٢: ٣، ٣: ٦، ٤٤: ٧).

وأسرارها^(١)، ومن هنا يتَّضَعُ بالأكثَرِ، لأنَّه إِزاءَ قُوَّةِ الله ينظرُ الإنسَانُ سقطَتَهُ . لكنَّ كَمَا اجتازَ هو عَبْرَ الآلامِ والصَّلَبِ وهكذا تَجَّدَّدُ وجلَسَ عنِ يَمِينِ الْآبِ، كَذَلِكَ يَلْزَمُكَ أَنْتَ أَيْضًا أَنْ تَتَّسِّلُمَ مَعَهُ وَتُصَلَّبَ مَعَهُ وهكذا تصعدُ وتجلسُ مَعَهُ وَتَتَّحدُ بِجَسَدِ المَسِيحِ وَتَمْلِكُ مَعَهُ عَلَى الدَّوَامِ فِي ذَلِكَ الدَّهْرِ، «فَإِنْ كُنَّا نَتَّالِمُ مَعَهُ، لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ»^(٢) .

٢ - فَإِنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَغْلِبُوا وَيَجْتَازُوا أَسوارَ الشَّرِّ، يَدْخُلُونَ الْمَدِينَةَ السَّمَاوِيَّةَ الْفَائِضَةَ سَلَامًا وَالْمُتَرَعِّةَ خَيْرَاتٍ وَفِيرَةً، حِيثُ تَسْتَرِيعُ أَرْوَاحُ الْأَبْرَارِ . فَيَلْزَمُ إِذَا مِنْ أَجْلِهِ هَذَا، عَظِيمُ التَّعْبِ وَالْجَهَادِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ فِي شَيْءٍ أَنْ يَأْتِيَ الْخَتَنُ مِنْ أَجْلِكَ وَيَتَّسِّلُمَ وَيُصَلَّبَ، ثُمَّ تَرْتَخِي الْعَرْوَسُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا قَدْ جَاءَ الْخَتَنُ وَكَيْمُ طَائِشَةً . فَكَمَا أَنَّهُ فِي الْأَمْرِ الظَّاهِرَةِ، إِنْ كَانَتْ هَنَاكَ امْرَأَةٌ زَانِيَّةٌ تُسْلِمُ ذَاهِنًا لِلْجَمِيعِ بِلَا ضَابِطٍ؛ هكذا النَّفْسُ أَيْضًا قَدْ أَسْلَمَتْ ذَاهِنًا لِكُلِّ شَيْطَانٍ وَأَفْسَدَهَا الْأَرْوَاحُ الشَّرِّيرَةِ . فَشَمَّةُ اْنْسَانٍ تَكُونُ عِنْدَهُمُ الْخَطِيئَةُ وَالشَّرُّ بِاِخْتِيَارِهِمْ، وَآخَرُونَ عَلَى غَيْرِ اِخْتِيَارِهِمْ، فَمَا مَعْنَى هَذَا؟ الَّذِينَ عِنْدَهُمُ الشَّرُّ بِاِخْتِيَارِهِمْ هُمْ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ يُسْلِمُونَ

(١) إِلَى هَذِهِ الْعَلَاقَةِ أَيْضًا بَيْنَ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ وَمَعْرِفَةِ أَمْرَوْرِ اللهِ يُشَيرُ أَنَّبَا أَنْطَوْنِيوسَ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي رِسَالَتِهِ (انْظُرْ عَلَى سَيْفِ الْمَثَالِ: الرِّسَالَةُ ٣: ٤١-٤٤، ٦: ٦٧). .

(٢) رو: ١٧.

مشيئتهم للشّرّ ويستطيعونه^(١) وبهادنونه، هؤلاء لهم سلام مع الشّيطان، ولا يصنعون حرّاً مع إبليس في أفكارهم؛ أمّا أولئك الذين على غير اختيارهم، فالخطيئة فيهم «تُحارب في أعضائهم» بحسب قول الرّسول (رو ٧: ٢٣)، وتكون فيهم القوّة المُظْلِمَةُ والغشاوةُ رغمَما عن اختيارهم، غير أنّهم لا يوافقونها في أفكارهم ولا يستطيعونها ولا يطعونها، بل يناهضونها ويُضادُون أفعالها ويقاومون السُّقوط فيها ويفضّبون على نُفوسهم؛ فهؤلاء أفضلُ كثيراً عند الله وأكرمُ من الأوّلين الذين بمحض اختيارهم يُسلّمون مشيئتهم للشّرّ ويستطيعونه.

٣ - كما لو أنّ هناك ملِكًا قد وجد فتاةً فقيرةً مُترّبةً بثيابِ رثّة، وما استحى بل أخذ ثيابها المتّسخة، وغسل عنها سوادها، وزانها بثيابِ بهيّة، وجعلها شريكةً للملِكِ ولمائته وقادتها وليمته؛ هكذا الرّبُّ أيضًا قد ألقى النّفسَ مكلومةً ومضروبةً، فدواها ونزع عنها ثيابها السّوداء وقباحة شرّها، وخلّع عليها خللاً ملوكيّةً - خلل اللاهوت السّماويَّة الخيرة المجيدة، وكلّ بتاج هامتها، وجعلها شريكةً في مائتها الملوكية لأجل فرحةها وابتهاجها. وكما حينما يكون هناك روضةً غناءً بها أشجارٌ مثمرة تُبَعَّثُ جيّعاً أرجيحاً ركيساً، وبها مواضع عديدةً جيّعاًها بهيجـة وبديعـة قد

(١) الفعل συνήδομαι (synēdōmai) يُستَرِّ مع ، فيشمل كلا المعنيين: التّوافق مع الشّيء، والشّرور به. وقد ورد مرّة واحدة في الكتاب المقدس (رو ٧: ٢٢)، وترجم "أُشتُّ".

عِقْدَتْ بالشَّدَا العاطر وشَلَّتْها الرَّاحَةُ، وكُلُّ من مضى إلى هناك يجذلُ ويستريح؛ هكذا تغدو الأنفس في الملائكة، فالجميع يكونون في فرح وفي خبور وفي سلام، ملوّغاً وأرباباً وأهلاً، لأنَّه مكتوب إنَّه «مَلِكُ الَّذِينَ مَلَكُوا وَرَبُّ الَّذِينَ غَدُوا أَرْبَابًا» (رؤ ١٧: ١٤ - حسب النَّصْ).

٤ - فالمسيحية إذاً ما هي بالأمر العادي، لأنَّ «هَذَا السِّرَّ عَظِيمٌ»^(١)؛ فاغرفْ كرامتك حقَّ معرفتها أنَّك إِنَّما دُعيتَ إلى شرفِ ملوكِي، إلى «جِنْسٍ مُخْتَارٍ، وَكَهْنُوتٍ، وَأَمَّةٍ مُقَدَّسَةٍ»^(٢). ذلك أنَّ سِرَّ المسيحية هو غريبٌ عن هذا العالم، فمجده الملك المنظور وغناه إنَّ هي إلَّا أمورٌ أرضيَّةٌ فاسدة وزائلة، أمَّا تلك المملكة وذلك الغنى فأمورٌ إلهيَّة، أمور سماوية ومجيدة لا تزول قطًّ ولا تنحل، لأنَّهم يملكون مع المَلِك السَّمَاوِيِّ في الكنيسة السَّمَاوِيَّة، فهو «بِكُثْرٍ مِنْ بَيْنِ الْأَمْوَاتِ»^(٣) وهم أيضًا أبكار^(٤). لكنَّ وإنْ كان مثل هؤلاء مختارين ومُزَكَّينَ عند الله، إلَّا أَنَّهم عند ذواتهم دون الجميع وجدُّ مرذولين، وهذا يكون عندهم مثل أمرٍ طبيعيٍّ وراسخٍ أنَّ لا يَحْسَبُوا أنفَسَهُمْ شَيْئًا.

(١) آف ٥: ٣٢.

(٢) ابط ٢: ٩ - حسب النَّصْ

(٣) كو ١: ١٨.

(٤) انظر: عب ١٢: ٢٣.

٥ - سؤال: أَفَمَا يَعْلَمُونَ إِذَا أَهْمَّ حَازُوا تَقْدِيمًا، وَاقْتَنَوْا مَا لَمْ يَكُنْ فِي حُوزَّهُمْ وَمَا هُوَ غَرِيبٌ عَنْ طَبِيعَتِهِمْ؟

الجواب: ما أقوله لك هو أَهْمَّ لِيْسُوا بِمَزَكَّيْنَ عِنْدِ ذَوَاهُمْ، وَلَا هُمْ فِي تَقْدِيمٍ فِي أَعْيُنِهِمْ، وَلَا هُمْ يَدْرُؤُنَ أَهْمَّ قَدْ افْتَنَوْا مَا لَمْ يَكُنْ فِي حُوزَّهُمْ، بَلْ - فِيمَا هُمْ كَذَلِكَ - تَأْتِي التِّعْمَةُ نَفْسُهَا وَتُعْلِمُهُمْ أَنَّ لَا تَكُونَ نَفْوُسُهُمْ ثَيْنَةً عَنْدَهُمْ^(١). فَلَئِنْ كَانُوا فِي تَقْدِيمٍ إِلَّا أَهْمَّ - دُونَمَا تَصْنَعُ - يَعْدُونَ نَفْوُسُهُمْ حَقِيرَةً؛ وَمَعَ أَهْمَّ عِنْدَ اللَّهِ مُكَرَّمُونَ فَإِنَّمَا نَفْوُسُهُمْ لِيْسُوا كَذَلِكَ؛ وَرَغْمَ أَهْمَّ فِي تَقْدِيمٍ وَيَعْرُفُونَ اللَّهَ فِي أَهْمَّ يَكُونُونَ وَكَأَهْمَّ مَا يَعْرُفُونَ شَيْئًا؛ وَمَعَ كَوْنِهِمْ أَغْنِيَاءَ عِنْدَ اللَّهِ فِي أَهْمَّ عِنْدَ نَفْوُسُهُمْ مَسَاكِينَ! فَكَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ «لِمَّا أَخْذَ صُورَةَ عَبْدٍ»^(٢)، غَلَبَ الشَّيْطَانُ بِالاتِّضَاعِ؛ هَكَذَا مِنْذَ الْبَدْءِ، بِالْكَبِيرِيَاءِ وَالْتَّصَلُّفِ^(٣) صَرَعَتِ الْحَيَّةُ آدَمَ وَالآنِ الْحَيَّةُ نَفْسُهَا، إِنْ هِيَ انسَلَّتْ دَاخِلَ الْقُلُوبَ، تَطْرَحُ جِنْسَ الْمَسِيحِيِّينَ وَهُلْكُهُمْ بِوَاسْطَةِ التَّصَلُّفِ.

٦ - كَمَا لَوْ أَنَّ هَنَاكَ إِنْسَانًا حَرِّيًّا شَرِيفَ النَّسَبِ بِحَسْبِ الْعَالَمِ، لَهُ غِنَّى جَزِيلٌ وَلَا يَنِي يَسْتَرِيدُ مِنْ رِبْحِهِ وَيَسْتَدِرُ مَكْسِبِهِ. هَذَا يَعْتَدُ بِنَفْسِهِ وَيَرْجُنَ

(١) انظر: أَعْ ٢٠ : ٢٤ .

(٢) في ٢ : ٧ .

(٣) تَصَلُّفٌ، تَكْبُرٌ، عَجَبٌ، مِنَ الْفَعْلِ الْمُفْرَدِ الَّذِي كَرَرَهُ أَنْبَاءُ مَقَارٍ فِي هَذِهِ الْعَظَةِ تِسْعَ مَرَاتٍ مُعْتَدِلًا إِيَّاهُ عِلْمًا لِلسُّقُوطِ وَنَذِيرًا لَهُ.

إليها، وإذا لا يحتمله أحد، يُقصي عنه الجميع ويدفعهم^(١)؛ هكذا يكون قومٌ لا إفراز لهم، فحين يجدون راحةً بسيرةً وصلاًةً، يتذئون في أنْ يتصلّفوا ويعتذّروا بأنفسهم ويحكموا على الآخرين، وبهذا يهُوون «إلى أَسافِلِ الأَرْض»^(٢). لأنَّ الْحَيَّةَ نفْسُهَا الَّتِي طَرَدَتْ آدَمَ بِوَاسْطَةِ الْكَبْرِيَاءِ، قائلةً: «تَصِيرَانِ كَالْهِيَّةِ» (تك ٣: ٥ س)، هي الآن أيضًا تُدْسُ الْكَبْرِيَاءَ في القلوب قائلةً: «كَامِلٌ أَنْتُ، وَهَذَا حَسْبُكَ! قَدْ اسْتَغْنَيْتَ وَلَسْتَ بِحَاجَةٍ لِشَيْءٍ، فَطُوبَاكَ!». على أنَّ هنالك قوماً آخرين، رغم امتلاكهم للغنى بحسب العالم، بل واستزادته بوفر الأرباح، يتمسّكون بالإفراز في أنفسهم فلا ينتفحون ولا يرتفّعون بل يلبثون في اتّزانٍ، لَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ جَدْبًا يَتَبَعُ السِّيَّعَةَ؛ وكذا حين يتجمّشُون خسارةً وجَدْبًا لا يحزنون بل أيضًا يلبثون متّزين، لَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ خَصْبًا أَيْضًا يَعْقُبُ. وَبِتَمْرِيسِهِمْ كَثِيرًا في هذه الأمور لا يُؤْخِذُونَ على غِرَّةٍ: فلا يتصلّفون في الخِصْبِ والرَّخَاءِ، وكذلك لا تستولي عليهم الحِيَّةُ إذا ما لَعِنَّهُمْ خسارةً.

[ب] التِّعْمَةُ تَقِيُّ الإِنْسَانَ شَرَّ الْكَبْرِيَاءِ

٧ - فِحْقِيَّةُ الْمَسِيحِيَّةِ إِذَا هِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِهَذَا: تَدَوُّقُ الْحَقِّ، وَالْأَكْلُ

(١) حرفياً: "τακτίζει καὶ κολαφίζει" = يُرْسِلُهم ويلْكُمُهم"!

(٢) مز ٦٢: ١٠ من.

والشرب من الحق، أن تأكل وتشرب بالقوّة والفعل. كما لو أن إنساناً ظمئاً قد وَرَدَ عَدِيرًا وراح يشرب، وفيما هو يشرب رده أحدٌ ولم يَدَعْهُ يُروي ظماءً كما يشاء. فهذا يتحرّق عطشاً بالأحرى عقب ذلك بسبب تذوقه الماء ويطلبه بأشد اجتهد؛ هكذا أيضًا في العالم الروحاني، فإن الإنسان يتذوق طعامًا سماوياً ويتناوله، وفيما هو على هذه الحال يُرْفَع عنـه الطَّعام ولا أحد يعطيه أن يشعـ.

٨ - سؤال: ولم لا يعطى ليشعـ؟

الجواب: لأنَّ الرَّبَّ يَعْلَم ضعفَ الإنسان وأنَّه سرعانَ ما يت shamخ، من أجل هذا يتوارى ويفسح لكي يتمرنُ الإنسـان ويکابـد الصــوارقـ. لأنـك إنْ كنتَ في حالِ نَيـلـك القليل لا يحتمـلك أحدٌ بل تتصلـفـ، فكيف بك إنْ كان أحدٌ يعطـيكـ أنـ تشـبعـ دـفـعـةـ واحـدةـ؟ فإذاـ ذاكـ لـنـ يـكـونـ فيـ طــوقـ أحدـ اـحـتمـالـكـ! لكنـ لـعـلـمـ اللهـ بـضـعـفـكـ يـدـبـرـ لكـ الضــيـقـاتـ لـكـيـمـاـ تصــيرـ متـواضـعاـ وأـشـدـ اـجـتـهـادـاـ فيـ طــلبـ اللهـ. فـلوـ أنـ إـنـسـانـاـ فـقـيرـاـ بـحـسـبـ العــالـمـ قدـ وـجـدـ كـيـسـ ذـهـبـ، فإـنـهـ فيـ رـعـونـةـ يـبـداـ يـنـاديـ: "قدـ وـجـدـتـ كـيـسـاـ، إـنـيـ غـنيـ"ـ، وـحـينـتـ يـسـمعـ الـخـبـرـ ذـاكـ الـذـيـ أـضـاعـ الـكـيـسـ وـيـأـخـذـهـ. وـإـنـسـانـ آخرـ غـنيـ قدـ اـعـتـدـ بـنـفـسـهـ وـابـتـدـأـ يـشـتـمـ الـجـمـيعـ وـيـذـلـهـمـ وـيـعـالـيـ عـلـيـهـمـ، فـحـينـ يـيلـغـ ذلكـ مـسـامـعـ الـمـلـكـ يـصـيـرـ أـمـلاـكـهـ مـشـاعـاـ. هـكـذاـ فيـ الـعــالـمـ الروـحـانـيـ، فإذاـ ما

ذاق البعض راحهً يسيرةً، لا يعرفون كيف يتذمرون إزاءها بل يُضيّعون حَتَّى
هذا الَّذِي قد نالوه، لأنَّ الخطيئة تُجْزِيهم وَتُظْلِمُ أذهانَهـ.

[ج] حرية الإنسان التامة في اختياره للرب

٩ - سؤال: كيف يسقط قومٌ بعد افتقاد النعمة لهم؟ أمَّا أظهر الشيطان
أنَّه أضعف كثيرًا فحيث النهاز كيف يمكن أن يكون ليل؟

الجواب: ليس أنَّ النعمة تنطفئ أو تضعف، إنَّما هي تُفسح للشَّرِّ لكيما
تمتحن إرادتك المُخيَّرة وحربيتك، أين تتحمِّي. لكنَّ بعد ذلك، حين تدنو
أنت بإرادتك من الرَّبِّ، تُشَجِّع النعمة أن تفتقدك. لأنَّه كيف هو مكتوب:
«لَا تُطْفِئوا الرُّوح» (اتس ١٩: ٥)؟ فإنَّ ذاك هو غير منطفئ بل منير،
لكنَّ أنت، لأنَّك بإرادتك تحمل ولا تتجاوز معه^(١)، تنطفئ (متعدًا) عن
الروح. بالمثل يقول: «لَا تُخْزِنُوا الرُّوح القدس الذي بِهِ خُتَمْتُمْ لِيَوْمِ الْفِدَاءِ»
(أف ٤: ٣٠ - حسب النَّصّ)، فها أنت ترى أنَّه قد ثُرِكَ لمشيتك
ولإرادتك الحَرَةُ أن تُكَرِّمَ الروح القدس ولا تخزنه. أمَّا أنا فأقول لك إنَّه حَتَّى
من جهة المسيحيين الكاملين الَّذِين سُبُّوا وُغْلُوا بالصلاح فإنَّ حرية الإرادة
تلزمهم، وهذا فإنْ كانوا يمتحنون بربوات شرورٍ إلَّا أَهْمَّ يتوجهون شَطْرَ
الصلاح.

.be in harmony with = συμφωνέω (١)

١٠ - كما حينما يكون هناك أناسٌ ذوو كرامةٍ وأغنياءٍ وشريفو النسب، هؤلاء، بمشيئتهم الخاصة واختيارِهم، يتركون غناهم وشرفَ نسبِهم وكرامتهم وعوضُونَ ويلبسونَ خرقاً بالية وثياباً زرقاءً وهواناً عوضَ مجدِه، ويقاسونَ البوسَ والازدراء، وكلُّ هذا قد ثرَكَ لمشيئتهم الخاصة. أمَّا أنا فأقول لك إنَّه حتَّى الرُّسل المُكَمَّلون في النِّعمة، ما كانت النِّعمة لتخول بينهم وبين فعلِهم لما كانوا يريدونه، حتَّى ولو كان أولئك أنفسُهم يريدون أن يصنعوا أموراً غير مرضية للنِّعمة. لأنَّ طبيعتنا قابلةٌ للخير والشرّ، والقوَّة المعادية تُغري دون أن تلزِم، فها إنَّ لك حرية الإرادة تتوجه أيِّما تشاء. أمَّا ترى أنَّ بطرس «كَانَ مَلُومًا»^(١)، فانبرى بولس يوجَّه؟ فحتَّى إنسانٌ مثل هذا كان بعدُ مستوِّجاً اللَّوم. وبولس - مع كونه روحانياً - تورط بمحض مشيئته في مجادلة^(٢) مع بَرنابا، وبعد أن تشاجراً فارق أحدهما الآخر؛ وهو نفسه يقول أيضًا: «فَأَصْلَحُوا أَنْتُمُ الرُّوحانِيَّينَ مِثْلَ هَذَا، نَاظِرِي إِلَى نَفْسِكَ لِقَلَّا تُجَرِّبَ أَنْتَ أَيْضًا» (غل ٦ : ١)، فها إنَّ الرُّوحانِيَّين يجربُون من قبيل إرادتهم الحرة التي لا تبرح تلازمهم، وطالما هم في هذا الدَّهر فالآباء متربصون بهم.

١١ - سؤال: ألم يكن ممكناً للرُّسل أن يخطأوا متى أرادوا، أم إنَّ النِّعمة

(١) غل ٢ : ١١.

(٢) استخدم أثينا مقارنة الكلمة *διάλεκτος* = مجادلة بدلاً من الكلمة *παροχυσμός* = مشاجرة الواردة في هذه المحادثة في أغ ١٥ : ٣٩.

كانت أقوى من إرادتهم ذاتها؟

الجواب: أمّا أن يحيطوا بهذا ما لم يكونوا يقدرون عليه، لأنّهم ولا هذا كانوا يختارونه، لأنّهم كانوا في نورٍ وفي نعمةٍ أمّا نعمة. لكنّا لسنا نقول إنّ النعمة كانت تضعف فيهم، بل نقول إنّ النعمة تفسّح حتّى للروحانيين الذين بلغوا ذرى الكمال أن تكون لهم الإرادة والسلطان أن يعملوا ما يريدون ويتجهوا أمّا يشاءون. أمّا الطبيعة البشرية نفسها، فلما كانوا ضعيفون، فإنّ لها الإمكانيّة أن تحيد، حتّى مع ملازمة الصلاح لها. كما لو أنّ هناك قوماً قد لبسوا عدّة الحرب كاملاً من دروع وعتاد ولبسوا محمّدين بالداخل، فلا تأتي عليهم الأعداء؛ وإنْ أتت، يكون في متناول إرادتهم أمّا أن يستخدمو الأسلحة ويعاهدوا ضدّ الأعداء ويصارعوهم ويظفّروهم، وإمّا أن يتّبعوا مع الأعداء ويهاذوهم ولا يحاربوهم، رغم امتلاكهم للأسلحة؛ هكذا المسيحيون أيضاً، مع تبصّرهم القوّة الكاملة واقتنائهم الأسلحة السّماوية، لهم - إنّ يشاءوا - أن يتّبعوا مع الشّيطان ويهاذووه ولا يحاربوه، ذلك أنّ الطبيعة البشرية هي متقلبة، فإنّ يشا أحدّ، يُغدو ابنَ الله أو ابنَ للهلاك من قبل إرادته الحرة التي أبداً تلازمـه.

١٢ - فإنّ الحديث، ولو مُسْهِبًا، عن الخبر والمائدة شيءٌ، وشيءٌ آخر هو الأكلُ ونبيّل مذاقة الخبز وسرّيّان القوّة في كلِّ الأعضاء. وشيءٌ هو

التَّفَوُهُ بِكَلْمَاتٍ عَنِ الَّذِي الشَّرَابُ، وَشَيْءٌ آخَرُ هُوَ الْمُضِيُّ إِلَى الْمَنْهَلِ نَفْسِهِ وَالْعَبُّ مِنْهُ وَالْأَرْتَوَاءُ مِنْ مَذَاقَةِ الشَّرَابِ الَّذِيذِ عَيْنِهَا. وَالْقَصَصُ، وَلَوْ مُطْبَنًا فِيهِ، عَنِ الْحَرْبِ وَالْأَبْطَالِ الشُّرُفَاءِ وَالْأَعْدَاءِ شَيْءٌ، وَأَنْ يَمْضِيَ الرَّهْبُ وَيَصْطُفُ لِلْحَرْبِ وَيَدْخُلُ حَوْمَةَ الْقَتَالِ مَعَ الْأَعْدَاءِ، فَيُقْبَلُ وَيُدْبِرُ وَيَنْالُ ضَرِبَاتٍ وَيُسَدِّدُهَا ثُمَّ يَفْوَزُ بِإِكْلِيلِ الظَّفَرِ، هُوَ شَيْءٌ آخَرُ. هَكُذا أَيْضًا فِي الْأَمْرِ الرُّوحَانِيَّةِ، فَالْحَدِيثُ بِكَلْمَاتٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْعُقْلِ شَيْءٌ، وَشَيْءٌ آخَرُ هُوَ اقْتِنَاءُ الْكَنْزِ وَالْتِعْمَةِ وَمَذَاقَةِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ وَفَاعْلَيْهِ - اقْتِنَاءُ هَذِهِ بِالْحَقِّ وَالْعَمَلِ وَالْيَقِينِ، فِي الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ وَفِي الْقَلْبِ^(١). لَأَنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِكَلْمَاتٍ جَوْفَاءَ إِنَّمَا هُمْ يَتَبَاهُونَ وَيَتَفَخَّهُونَ مِنْ قِبَلِ ذَهْنِهِمْ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: «كَلَامُنَا وَكِرَازُنَا لَمْ يَكُونَا بِكَلَامِ الْحِكْمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُقْنَعِ، بَلْ بِرُهَانِ الرُّوحِ وَالْقُوَّةِ» (١ كُو ٢ : ٤ - حَسْبُ النَّصِّ)، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرٍ يَقُولُ: «أَمَّا غَايَةُ الْوُصِيَّةِ فَهُيَ الْمَحَجَّةُ مِنْ قَلْبٍ طَاهِرٍ وَصَمِيرٍ صَالِحٍ وَإِيمَانٍ بِلَا رِيَاءً» (١ تِي ١ : ٥)، مُثْلِهِ هَذَا الإِنْسَانُ لَا يَسْقُطُ. لَأَنَّ كَثِيرِينَ لَمَّا طَلَبُوا اللَّهَ افْتَحْ لَهُمُ الْبَابَ وَنَظَرُوا إِلَيْهِ، وَوَلَجُوا إِلَيْهِ، وَبَيْنَمَا كَانُوا - فِي غُرْمَةِ فَرْحَتِهِمْ - يَقُولُونَ: "هَا نَحْنُ وَاجِدُونَ كَنْزًا"، إِذَا بِهِ يُغْلِقُ دُوَّهُمُ الْأَبْوَابَ، فَيَبْتَدُئُونَ يَصْرُخُونَ وَيَنْوِحُونَ وَيَطْلُبُونَ: "قَدْ وَجَدْنَا كَنْزًا ثُمَّ أَضْعَنَاهُ!". فَإِنَّ التِّعْمَةَ تَنْسَبُ تَدْبِيرِيًّا لِكَيْمَا يَلْعَبُ طَبَّئِنَا أَشَدَّهُ، لَأَنَّ الْكَنْزَ إِنَّمَا يُظَهِّرُ لَكِي يَسْتَحْثَنَا عَلَى طَلْبِهِ.

(١) حِرْفًا: ظ = الْمَنْ.

١٣ - سؤال: حيث إن البعض يقولون إن الإنسان بعد النعمة «يُنتَقِلُ من الموت إلى الحياة»^(١)، فهل يمكن لأحد وهو في النور أن تكون له أفكار رديئة؟

الجواب: إنَّه مكتوب: «أَبْغَدَ مَا ابْتَدَأْتُمْ بِالرُّوحِ تُكَمِّلُونَ إِلَيْهَا بِالْجَسَدِ؟» (غل ٣: ٣)، ويقول أيضًا: «الْبَشَّارُ سَلَاحُ الرُّوحِ الْكَامِلِ لِكَيْنَى تَقْدِيرُوا أَنْ تَثْبِثُوا ضِدَّ مَكَابِدِ إِلَيْلِيسِ» (أف ٦: ١١ - حسب النَّصّ). فَوْفَقًاً لهذا هنالك وضعان: أحدهما حيث ليس الإنسان عذة الحرب، والآخر حيث يحارب قبة الرؤساء والسلاطين^(٢)، في ذاك يكون في النور وفي هنا في الظلمة. وأيضًا: «لِكَيْنَى تَقْدِيرُوا أَنْ تُطْفَقُوا سِهَامَ الشَّرِّيرِ الْمُلْتَهَيَّةِ» (أف ٦: ١٦ - حسب النَّصّ)، وأيضًا: «لَا تُخْزِنُوا رُوحَ اللَّهِ الْقُدُّوسَ» (أف ٤: ٣٠)، وأيضًا: «لِأَنَّ الَّذِينَ اسْتَنْتَرُوا مَرَّةً وَذَاقُوا مَؤْهِبَةَ اللَّهِ وَصَارُوا شُرَكَاءَ الرُّوحِ الْقُدُّوسِ، وَسَقَطُوا، لَا يُمْكِنُ بَعْدِهِمْ» (عب ٦: ٤ - ٦ - حسب النَّصّ). فهو ذا الذين استثروا وذاقوا يسقطون! فها أنت ترى أنَّ الإنسان له الإرادة أنْ يتواافق مع الروح القدس، وله الإرادة أنْ يُحزنه. فقطعاً إنَّه ينال الأسلحة لينطلق إلى الحرب ويجاهد ضدَّ الأعداء، ولقد استثار بلا شكٍ لكي يحارب قبة الظلمة.

(١) يو ٥: ٢٤.

(٢) أف ٦: ١٢.

[د] إمكانية سقوط الإنسان أياً كانت قامته

١٤ - سؤال: كيف يقول الرسول: «إِنَّ كَانَ لِي كُلُّ عِلْمٍ وَكُلُّ ثُبُوةٍ، وَأَتَكُلُّ بِإِلْسِنَةِ الْمَلَائِكَةِ، فَلَمَسْتُ شَيْئًا» (أكوا ١٣: ١، ٢)؟

الجواب: ينبغي ألا نفهم هذا هكذا، أي أنَّ الرسول ليس شيئاً. لكنْ إزاء تلك الحبَّةِ، التي هي الكمال، تتضاءل هذه الأمور؛ والذي يكون في هذه الدرجات يمكن أن يسقط، أمَّا الذي يقتني الحبَّةَ فهو خلُوٌّ من السُّقوط. وإنِّي أقول لك إنِّي رأيْتُ أناسًا أدركوا كلَّ المواتِب وصاروا شركاءَ الرُّوح القدس، وهؤلاء، لأنَّهم لم يبلغوا الحبَّةَ الكاملة، سقطوا. فإنَّ واحدًا مِنْ هم شرف الأصل قد تخَلَّى عن مقتنياته وباعها وأعتقد عبيده وكان حكيمًا وفهيمًا، ثمَّ إِنَّه أصبح ذائع الصَّيْبَت بسبب سيرته الفاضلة، وفيما هو هكذا، حين ظَرَّ نفسه شيئاً وتصلَّفَ، هوَ أخيرًا في فواحشٍ وربواتٍ من الشُّرور.

١٥ - وآخرُ إِيَّانِ الاضطهاد سَلَّمَ جسده وصار معترفًا، وبعد ذلك عَمَّ السلام فأُطْبِقَ وشَاعَ اسْمُهُ، إذْ كانت أَجفانه قد تأذَّتْ جرَاءَ ما تعرَّضَ له من دخانٍ (أثناء تعذيبه). هذا أخيرًا لِمَا خُلِعَ عليه الجدُّ وصار يُدعى للصلوات، كان يأخذ التَّقدِيمات^(١) ويعطيها لخادمه، وهكذا بات عقلُه وكأنَّه ما سَمِعَ كلامَ الله قطًّا. وآخرُ سَلَّمَ جسده أثناء الاضطهاد وغُلِقَ

(١) حرفيًا: στρίον = حنطة؛ خبر.

وَكُشِطَ جُلْدُهُ وَبَعْدَ هَذَا أُلْقِيَ فِي السِّجْنِ، ثُمَّ حَدَثَ أَنَّ مُكَرَّسَةً مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ دَأَبَتْ عَلَى خَدْمَتِهِ، فَأَنِسٌ إِلَيْهَا بَيْنَمَا كَانَ فِي السِّجْنِ وَسَقَطَ فِي الرَّزْنِ. فَانظُرْ كَيْفَ أَنَّ الْغَنِيَّ الَّذِي باعْ مَقْتَنَاهُ، وَذَاكَ الَّذِي سَلَّمَ جَسَدَهُ لِلشَّهَادَةِ، كَلَاهَا سَقَطُ.

١٦ - وآخر، ناسك حكيم، كان مقيماً معه في مسكنه وكان يُصلّى
معي، هذا كان له من الغنى في النعمة بحيث إن قلبي كان ينحسني حين كان
يصلّى بالقرب متى لأن النعمة كانت مضطربة فيه؛ وقد أعطيت له موهبة
الشفاء، وما كان يخرج الشياطين فحسب بل كان يشفى ذوي الأرجل
المشلولة والأيدي اليابسة والذين يcabدون شديد الآلام، بوضع يديه
عليهم. ثم إنَّه لِمَا سرقه التهاون وحَفَّه العالم بالتمجيد وطابت نفسه به،
تصلَّف وتَرَدَّى في مهاري الخطيئة - في أَحْطَ مهاراً بها؛ فانظر أنَّه حتَّى
الذى حظي بموهِبِ الشفاء قد سقط. أترى كيف أَنْه طالما لم يدركوا
قامت المحبة يسقطون؟ لأنَّ الذي بلغ المحبة غداً مربوطاً وثِملاً ومغموراً
ومسيئاً إلى عالم آخر، وكأنَّه ما عاد يشعر بطبيعته الخاصة.

[ه] فلنحرص لعَلَّا نُسْلِمُ آنِيتنا بيد أعدائنا^(١)

١٧ - سؤال: ما معنى «مَا لَمْ تَرَهُ عَيْنُ وَمَمْ تَسْمَعْ بِهِ أَذْنُ وَمَمْ يَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ إِنْسَانٍ» (أكوا ٢ : ٩)؟

الجواب: في ذلك الزَّمان، كان العظماء والأبرار والملوك والأنبياء يعرفون أنَّ الفادي سيأتي، أمَّا أَنْ يتأمَّلُ ويصلَّبُ ويُسفَكُ دمَهُ على الصَّلِيب فهذا ما لم يكن يعرفونه ولا سمعوه. وكذلك لم يخطر على قلوبهم أَنَّه ستكون هناك معموديَّة بالنَّار والرُّوح القدس^(٢)، وأنَّه سيُقدَّمُ في الكنيسة خبزٌ وخمُرٌ كأعراضٍ^(٣) لجسمه ودمه، وأنَّ الَّذين يتناولون من الخبز الظَّاهِر يأكلون روحِيًّا جسدَ الرَّبِّ، وأنَّ الرُّسل والمسيحيين يَقْبَلُون المُغَرِّي ويلبسون «فُوَّةً مِنَ الْأَعْلَى»^(٤) ويعتلئون من الْأَلَهُوَيَّة^(٥)، وأنَّ نفوسهم تتزوج بالرُّوح القدس،

(١) هذا العنوان مأخوذه من قول لأنبياء مقار في بستان الرُّهبان خليق به أن يعتبر نظيرًا مطابقًا لما تتضمنه الفقرات التالية، وهما كقوله: [إذا أقدمت على الصَّلاة فاحرص أن تكون ثابتًا لعَلَّا نُسْلِمُ إِنَاءَكَ بيد أعدائك]. لأَنَّمَ يشنثون احتطاف آنِيتك الْأَنْتَ هي أشواق نفسيك، وهي الأشواق الصالحة التي يجب أن تخدم بما الله خماراً وليلاً. لأنَّ الله لا يطلب أن تتجدَّد بشفتيك فقط بينما تطيش أفكارك بأباطيل العالم، لكنَّه يريد ألا تُوقِف نفسك أمامه وأفكارك تنظر إليه بدون التفاتات] (بستان الرُّهبان - قول رقم ١٩٩).

(٢) انظر: مت ٣: ١١؛ لو ٣: ١٦.

(٣) الكلمة الْأَντίτυπος الْوَارَدَةُ هنا، استخدمها آباء الكنيسة للتَّعبير عن العلاقة بين خبز الإفخارستيا وجسد الرَّبِّ، انظر على سبيل المثال: القديس كيرلس الأورشليمي - عظة ٢٣: ٢٠ (PG 33, 1124 B)؛ والقديس غريغوريوس التَّازيانزي - عظة ٨: ١٩ (PG 3, 809 C).

(٤) لو ٢٤: ٤٩.

هذا لم يكن يعرفه الأنبياء والملوك ولا خطرَ على قلوبهم. فإنَّ المسيحيين الآن يغتنون بطريقَةٍ مغايرةٍ ويتحرّقون شوًقًا إلى الالاهوتية، غيرَ أَنْهم، على افتائهم مثل هذا الفرح والعزاء، يلبثون تحت «خوفٍ ورعدة»^(٢).

١٨ - سؤال: تحتَ أيِّ خوفٍ وأيَّةٍ رعدة؟

الجواب: أَلَا يَرِلُوا في أمِّ ما، بل يكونوا في تجاوُبٍ مع النعمة. كما لو أنَّ إنسانًا يملِك كُنوزًا قد سافر إلى مواضع حيث يوجد لصوص، في بينما يكون فَرِحًا من أجل غناه وكنزه، فإنَّه يتوجَّس خيفةً لئلا يأْتِي اللصوص ويسلُّبوه إِيَاه، وكِمْثلَ مَنْ يحمل دمه على يديه هكذا تكون حاله^(٣). فبحسب الظاهر من الأمور، كُلُّنا قد تَرَك الكلَّ وأضَحى غريباً وفقيراً وعَرَفَ عن أَيِّ شَرِكة جسدانية؛ لكنَّ فيما يَتَّخِذُ الجسدُ وَضْعَ الصَّلاة، ينبغي للإخوة أَنْ يتَسَاءلوا أيَّ توافق العقل أيضًا مع الجسد. فكما أنَّ الصناع ورؤساء الأعمال في هذا العالم تكون أجسامُهم، في معظم الأحوال، مربوطة بصناعتهم، وبالمثل تكون عقولُهم أيضًا ليلاً ونهاراً؛ فأنت أيضًا، يا من بجسدك غريبٌ عن هذا العالم، تَفَقَّدُ ذاتك، أَلَكَ عقلٌ مغايرٌ لهذا الدُّهر ولستَ تطيش في العالم؟ فإنَّ كُلَّ إنسانٍ في العالم، جندياً كان أم تاجراً،

(١) انظر: كوك ٢ : ١٠.

(٢) في ٢ : ١٢.

(٣) استخدم أَنْبَا مقار ذاتَ هذا التَّعبير قبل ذلك (انظر العطة ١٥ : ٢٦).

حيث يكون جسده، هناك يكون عقله مربوطاً أيضاً وهناك يكون كنزه، لأنَّه مكتوب: «حَيْثُ كَنْزُكَ، هُنَاكَ قَلْبُكَ» (مت ٦: ٢١ - حسب النَّصّ).

١٩ - فِإِلَى أَيِّ كَنْزٍ إِذَا يَصْبُو عَقْلُكَ؟ هُلْ هُوَ بِكَلِّتِهِ وَتَمَامِهِ نَحْوَ اللَّهِ أَمْ لَا؟ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَقُولُوا لِي مَا الَّذِي يَحْوِلُ دُونَ ذَلِكَ. بِلَا شَاءٍ هِيَ الْأَرْوَاحُ الشَّرِّيرَةُ، إِبْلِيسُ وَشَيَاطِينُهُ، أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يُمْسِكُونَ الْعِقْلَ وَيُطْرِحُونَ النَّفْسَ أَرْضًا. لَأَنَّ إِبْلِيسَ الْكَثِيرَ الْحَيْلَ، الَّذِي لَهُ عَدَّةٌ حَرِبَهُ وَأَبْوَابُهُ الْثَّلَاثَيَّةُ^(١) وَزَخَارَفَهُ الْكَثِيرَةُ، يُمْسِكُ بِمَرَاعِي النَّفْسِ وَأَفْكَارِهَا وَلَا يَدْعُهَا تَصْلِيَ باسْتِقَامَةٍ وَتَدْنُو مِنَ اللَّهِ^(٢). فِإِنَّ الطَّبِيعَةَ نَفْسُهَا لَهَا أَنْ تَكُونَ شَرِيكَةً لِلشَّيَاطِينِ وَلِأَرْوَاحِ الشَّرِّ، كَمَا لِلملائِكَةِ وَلِلرُّوحِ الْقَدِيسِ؛ هِيَ هِيَكَلٌ لِإِبْلِيسِ، وَهِيَكَلٌ لِلرُّوحِ الْقَدِيسِ. فَلَتَتَفَقَّدُوا إِذَا عَقُولَكُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ، لَمْ أَنْتُمْ شَرَكَاءُ، لِلملائِكَةِ أَمْ لِلشَّيَاطِينِ؟ هِيَكَلٌ وَمَسْكِنٌ لِمَنْ أَنْتُمْ، اللَّهُ أَمْ لِإِبْلِيسِ؟ الْقَلْبُ مُتَلَىءٌ بِأَيِّ كَنْزٍ، بِالْتَّعْمَةِ أَمْ بِالشَّيْطَانِ؟ كَمَثُلَ يَسِّرِي مُلْؤُهُ مِنَ النَّقَنِ

(١) *triple doors* = *τριθύρα*، وهي تعني شَرَّةٌ إِحْكَامٌ أَسْرَهُ لِلنَّفْسِ، كَمَا لَوْ كَانَ وَرَاءَ ثَلَاثَةِ أَبْوَابٍ مُتَتَالِيَّةٍ؛ كَمَا كَانَ بَطْرَسُ مُثَلَّاً مَسْجُونًا وَرَاءَ الْحَرْسِ الْأَوَّلِ، وَالْحَرْسِ الثَّانِي، ثُمَّ الْبَابُ الْحَدِيدُ الَّذِي يَؤْدِي إِلَى الْمَدِينَةِ (أع ١٢: ١٠).

(٢) لَا شَكَّ أَنَّ مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ لِأَنْبِيَا مَقَارٍ بِخَصُوصِ كُثْرَةِ أَشْرَاكِ الشَّيَاطِينَ وَتَنْوِعِهَا حِينَ أَرَاهُ إِبْلِيسَ الْمُخْتَالَ وَعَدَّتَهُ، لَمْ يَرْجِعْ ذَاكْرَتَهُ، وَهَا هُوَ يُتَحْصِّنُ أَوْلَادَهُ ضَدَّهُ (رَاجِعٌ بِسْتَانُ الرُّهْبَانِ، قَوْل٤٧). وَقَدْ سَبَقَهُ أَبُوهُ أَنْبِيَا أَنْطَوْنِيوسُ فِي رَؤْيَةٍ كُثْرَةِ فَخَاخِ الشَّيَاطِينِ (بِسْتَانُ الرُّهْبَانِ، قَوْل٩٧٥).

والقدر، يلزم أن يُطَهَّر بالتمام ويُزَيِّن ويُمَلأ من كُلِّ رائحة زكية وكوز، حتى يأتي الروح القدس عوضاً عن إبليس ويستريح في نفوس المسيحيين.

[و] حرثة الإرادة حجر المخل للإنسان

٢٠ - لكن ليس بمجرد أن يسمع الإنسان كلمة الله يكون للتو قد صار من النصيب الصالح، لأنَّه لو أنَّ الإنسان حال سماعه يصير من النصيب الصالح، لَمَا كان هناك جهاداتٌ ولا أزمنةٌ حروبٌ ولا سعْيٌ، بل لكان دون تعب يكفي الإنسان أن يسمع فقط حتى يأتي إلى الرَّاحَة وإلى درجات الكمال. ليست الأمور هكذا هي، لأنَّك بقولك هذا تُبْطِل إرادة الإنسان ولا تُقرَّ بأنَّ هناك قوَّةً معاديةً تصارِع العقل. أمَّا نحن فنقول هذا: إنَّ الذي يسمع الكلمة يأتي إلى التَّندَامة، وبعد هذا، حين تنسحب التَّنْعِمة وَفَقًا لتدبرِها، لأجل منفعة الإنسان، يخوض تدريبَ الحرب وتآديَها، ويصارع إبليس ويجاهده، ومن بعد سعْيٍ كثير وجهاد ينال الظَّفَر ويغدو مسيحيًّا (بالحق). لأنَّه لو أنَّ الإنسان حين يسمع فقط يصير من النصيب الصالح من دون تعب، لكان حتَّى المُمَتَّلون والرُّزَّانَة جيئًا عتيدين أن يدخلوا الملائكة والحياة، لكنَّ أحدًا لن يعطيهم هذه من دون تعبٍ وجهاد، لأنَّ «الطَّرِيقَ ضَيْقَةً وضَاغِطَةً»^(١)، وعبر ذات الطَّرِيق الوعرة ينبغي أن نسلك

(١) قا: مت ٧: ١٤.

ونصر ونُلْئِي الشَّدائد، وهكذا ندخل إلى الحياة.

٢١ - لأنَّه لو كان ثُمَّةً تقويمٌ ونجاح دون تعب، لَمَّا كانت المسيحية «حَجَرَ صَدْمَةً وَصَخْرَةً عَثْرَةً»^(١)، ولَمَّا كان هنَاك إِيمَانٌ وَعَدْمٌ لِإِيمَانٍ. أمَّا أنت فتجعل الإنْسَانَ مُسْتَيْرًا^(٢)، لا قدرة له على التَّغْيُيرِ نحو الْخَيْرِ أو الشَّرِّ. فالنَّامُوسِ إِنَّما قد أُعْطِيَ لِمَنْ يُمْكِنُهُ أَنْ يَقْصِدَ أَيًّا مِنَ الْفَسَدَيْنِ، لِمَنْ لَهُ الإِرَادَةُ الْحَرَّةُ أَنْ يَصْنَعَ حَرِيَّاً مَعَ الْفَوَّةِ الْمَعَادِيَّةِ، لَأَنَّهُ لَا نَامُوسٌ يَوْضُعُ لِطَبِيعَةِ مُسْتَيْرَةٍ، فَلَا الشَّمْسُ وَلَا السَّمَاءُ وَلَا الْأَرْضُ قَدْ وُضِعَ لَهَا نَامُوسٌ. فَالخُلُاقُ هِيَ مِنْ طَبِيعَةِ مُسْتَيْرَةٍ، وَلَذِلِكَ لَا كَرَامَةٌ تَتَنَظَّرُهَا وَلَا قِصَاصٌ. فَالْكَرَامَةُ وَالْمَحْدُودُ إِنَّما هُمَا مُعَدَّانٌ لِمَنْ يَجْعَلُ وِجْهَتَهُ صَوْبَ الصَّالِحِ، وَأَيْضًا جَهَنَّمُ وَالْقِصَاصُ مُعَدَّانٌ لِلْطَّبِيعَةِ الْمُتَغَيِّرَةِ الَّتِي لَهَا الْقَدْرَةُ أَنْ تَفْرَأَ مِنَ الشَّرِّ وَتُؤَيِّدَ الْجَانِبَ الْيَمِينِ الصَّالِحِ. أمَّا إِنْ كُنْتَ لَا تُفَرِّزُ بَأَنَّ الإِنْسَانَ ذُو طَبِيعَةِ حُرَّةٍ، فَأَنْتَ إِذْ ذَاكَ تَجْعَلُ الإِنْسَانَ الصَّالِحَ غَيْرَ أَهْلٍ لِلْمَدِيْحِ. لَأَنَّ الَّذِي بِالْطَّبِيعَةِ صَالِحٌ وَخَيْرٌ لَيْسَ حَقِيقًا بِالْمَدِيْحِ، وَإِنْ كَانَ مَرْغُوبًا. فَالصَّالِحُ الَّذِي لَيْسَ عَنِ الْخِيَارِ، وَإِنْ يَكُنْ مُشْتَهَىً، مَا هُوَ بِالْأَمْرِ الْجَدِيرُ بِالْمَدِيْحِ، بَلْ إِنْ ذَاكَ هُوَ الْخَلِيلُ بِالْمَدِيْحِ: مَنْ بِاجْتِهادِهِ الْخَاصِّ مَعَ جَهَادِهِ وَقَتَالِهِ، يَحْزِمُ أَمْرَهُ عَلَى الصَّالِحِ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةِ.

(١) رو ٩: ٤٣٣، بـط ٢: ٨.

(٢) حرفياً: ”δειδόν“ = مربوطاً.

٢٢ - فكما عندما يكون هناك معسكراً للفرس ومعسكراً للروم^(١)، وقد يرز منهما شاباً متكاففاً القوة واندفعاً كأَهْمَا أَبْتَأْ أَجْنَحَةً واشتباكاً في نزال؛ هكذا القوة المضادة والعقل هما متكاففان في القوة، أحدهما ضد الآخر. فإبليس له من القوة على الجحود بالنفس وإغواها إلى مشيته الخاصة، ما للنفس أيضاً من القوة على مقاومته وعدم إطاعته في شيء. فكلتا القوتين تُحَقِّران إماً للشَّرِّ أو للخير، دونما قُسْرٍ. فلمثل هذه النية تعطى معونة إلهية، ويمكناها حين تصارع أن تثال أسلحةً من السماء، وب بواسطتها تقتلع الخطيئة وتظفر بها، إذ إن مقاومة الخطيئة يمكن أن تضطلع بها النفس، أمّا غلبة الشرّ واجتثاثه فبدون الله لا يمكنها ذلك. أمّا الذين يزعمون بأنّ الخطيئة هي مثل جبارٍ عاتٍ والنفس مثل صبيٍّ، إنما هم يجانبون الصواب. لأنّه لو كانت الأمور هي هكذا غير متكاففة، وكأن الخطيئة مثل جبارٍ والنفس مثل صبيٍّ، لكان واضح النّاموس ظالماً في إعطائه ناموساً للإنسان لأن يحارب قبلة الشّيطان^(٢).

٢٣ - أمّا أساس الطريق إلى الله فهو هذا: إنّه في صبرٍ كثير وفي رجاءٍ وفي تواضعٍ وفي مسكنة بالروح وفي وداعه، نسلك طريق الحياة، وبواسطة هذه الأمور يمكن للإنسان أن يبلغ البر في نفسه، ونعني بهذا

(١) انظر: حاشية ٢ - صفحة ٣١٧ العنة.

(٢) عن تكافؤ القوة ما بين النفس والخطيئة، انظر: العنة ٣: ٥.

البِرِّ الرَّبُّ نفْسَهِ^(١). فإنَّ هذه الوصايا الَّتِي تأمرنا هكذا هي على غِرار حجارةٍ منصوبةٍ^(٢) وعلاماتٍ على الطَّرِيقِ الْمُلُوكِيَّةِ الَّتِي تُفْضِي بالسَّائِرِينَ فيها إلى المدينة السَّمَاوِيَّةِ. فإنَّه يقول: «طُوئِي لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، طُوئِي لِلْوَدَاعِ، طُوئِي لِلرُّحْمَاءِ، طُوئِي لِصَانِعِي السَّلَامِ» (مت ٥: ٣ - ٩)، وهذا هو ما يُدعى المسيحيَّة. أمَّا إِنْ كَانَ أَحَدٌ لا يسلُكُ في هذا الدَّرْبِ، فقد ضَلَّ وعَدِيمَ الطَّرِيقِ واستعملَ أساسًا خاطئًا. والحمد للرأفات الآب والابن والروح القدس، إلى الْدُّهُورِ، آمين.

(١) انظر: كرو: ٣٠ «الَّذِي صَارَ لَنَا جُكْنَةً مِنَ اللَّهِ وَبِرًا وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً».

(٢) $\mu\lambdaια$ = milestones = صُوئِيٌّ: وهو ما كان يُنصب من الحجارة ليُستَدَلَّ به على الطريق، في ذلك الزمان.

العظة الثامنة والعشرون

ترأسي الحبيب للنفس وسكناه فيها

[هذه العظة تصفُ وتُرثي مأساة النفس، أنه بسبب الخطيئة لا يسكن الرَّبُّ فيها.
و(تتعذر) عن يوحنا المعمدان أنْ ليسَ مِنْ بين الولودين مِنَ النَّسَاءِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ
مِنْهُ]

- [أ] ويل لِنَفْسٍ لَا يُسْكِنُ فِيهَا الْمَسِيحَ
- [ب] الرَّبُّ يَتَرَاءَى رُوحًا لِلْنَّفْسِ الْأَمِينَةِ
- [ج] أَعْظَمُ مَوَالِيدِ النَّاسِ، وَمَنْ هُمْ أَعْظَمُ مِنْهُ



[أ] ويل لِنَفْسٍ لَا يُسْكِنُ فِيهَا الْمَسِيحَ

١ - كَمَا أَنَّهُ لِمَا غَضِبَ اللَّهُ قَدِيمًا عَلَى الْيَهُودِ، أَسْلَمَ أُورْشَلِيمَ جَهَازًا إِلَى
الْأَعْدَاءِ، «وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ مُبْغَضُوهُمْ»^(١)، وَمَا عَادَ هُنَاكَ لَا عِيدٌ وَلَا تَقْدِمَةٌ؛
هَكَذَا أَيْضًا حِينَ غَضِبَ عَلَى النَّفْسِ بِسَبَبِ تَعْدِيَهَا الْوَصِيَّةُ، أَسْلَمَهَا إِلَى
الْأَعْدَاءِ، أَيِّ الشَّيَاطِينَ وَالشَّهَوَاتِ، وَهَكَذَا بَعْدَمَا أَصْبَلُوهَا بِالْتَّمَامِ أَهْلَكُوهَا، وَمَا
عَادَ هُنَاكَ لَا عِيدٌ وَلَا بَخْرُورٌ وَلَا تَقْدِمَةٌ مَرْفُوعَةٌ مِنْ قِبَلِهَا إِلَى اللَّهِ، وَامْتَلَأَتْ

(١) مِنْ ١٠٦ : ٤١.

مداركها بالوحوش الرّابضة في الطرق، وقبعت فيها زحافات الأرواح الشّريرة. وكما أنَّ بيتاً لا يسكنه سيدٌ ثقِيم عليه الظلمة والذلة والبؤار ويمتلئ دنساً ونفاية؛ هكذا أيضًا النّفس التي لا تقتني سيدًا محتفلاً فيها مع ملائكته، قتلى من ظلمة الخطيئة وخزي الشهوات وكل مذلة.

٢ - فويل لطريق لا يسلك فيها أحدٌ ولا يسمع فيها صوت إنسان، فإنهما تمسّي مأوى للوحوش؛ وويل لنفسٍ لا "يجتاز" فيها الرّبُّ ومن صوته تفرُّ منها وحوش الشّر الروحية! ويل لبيتٍ لا يسكن فيه سيدٌ، وويل لأرضٍ لا يكون لها فلاخ يفلحها! ويل لسفينة لا ربّان لها، فإنهما تحمل من أمواج البحر وجحجه وهلك؛ وويل لنفسٍ لا تقتني فيها المسيح، الرّبّان الحقيقي، لأنّها توجد في بحر مرارة الظلمة وتطمُّ فوقها جحْ الأهواء وتُكابد عواصف الأرواح الشّريرة، وفي النهاية تجُلب على نفسها الهالك! ويل لنفسٍ لا يكون لها المسيح الذي يفلحها باعتناءٍ لتقدر أن تأتي بثمار الروح القدس الصالحة، لأنّها تكون فقرًا وملوءةً شوكًا وحسكًا وفي النهاية تُحصد لنفسها نارًا حرققة! ويل لنفسٍ لا تقتني سيدًا المسيح ساكناً فيها، لأنّها تكون خربةً ومتلئةً من نتن الأهواء ومباءً للشرّ!

٣ - فكما أنَّ الفلاح حين يذهب ليفلح الأرض، يأخذ ما يلزم

لفلاحته من أدواتٍ وثيابٍ؛ هكذا أيضًا المسيح، الملك السماوي والفالح الحقيقي، حين جاء إلى البشرية التي أجدبت جراء الشرّ، لا بسًا الجسد وحاملاً الصليب أداةً، فلَعَّ النفس الحديدة ونَزَعَ منها شوّك الأرواح الشريرة وحسَّكها، واقتلع زوان الخطيئة، وأحرق كلَّ عشبٍ خطاياها بنارٍ، وهكذا بعد أن قُلَّحَا بخشبة الصليب، عَرَسَ فيها فردوسَ الرُّوح القدس ذا الجمال الكامل، الحامل لله سيدِها كلَّ ثمرةٍ حلوةٍ ومشتهاة.

[ب] الرب يتراءى روحياً للنفس الأمينة

٤ - وكما أتَاه في مصر، حين صارت ثلاثة أيام الظلمة^(١)، ما كان إلا يرى أباه، ولا الأخُواه، ولا الصَّديقُ صديقه المخلص، لأنَّ الظلمة كانت تُلْفُهم؛ هكذا حين تعدَّى آدم الوصيَّة وسقط من مجده الأوَّل، وبات رازحًا تحت وطأة روح العالم، وانسدل على نفسه برفع الظلمة^(٢)، مُذ ذاك حتى آدم الأخير، أي الرب^(٣)، ما كان الإنسان يرى أباه الحقيقي السماوي، ولا أتَاه الصالحة الرؤوم، أي نعمة الروح القدس^(٤)، ولا أخاه الخلُو المُشتَهَى، أي

(١) انظر: خر. ٢٢ : ١٠ ، ٢٣.

(٢) انظر: حاشية ٥ صفحة ٢٧٥ - ١٤ العضة .

(٣) انظر: كرو ٤٥ : ١٥ .

(٤) قارن هذا بما ورد في رسالة الثامنة للقديس أنطونيوس، الفقرة ١ : [والآن فإنَّ أمَّكم سارة، التي هي الروح، تفرح بكم. هذه التي أكمَّت حيلها وولدت روحًا إلهيًّا فيكم، وتشتهي أن تكتبلكم - كما طلَّبَ منها عنكم - بذلك الروح التاري العظيم، هذا الذي قبلته أنا؛ فاقبلوه أنتم أيضًا...].

الرَّبُّ، ولا أصدقاؤه المخلصين له، أي الملائكة القدِيسين، الذين كان يفرح معهم محتفلاً ومُعِيداً. وليس فقط حَتَّى آدم الأَخِير، بل الآن أيضًا أولئك الذين لم يشرق عليهم المسيح، شمْسُ الْبَرِّ، ولم تفتح عيون نفوسهم كي يستثيروا بالنُّورِ الحَقِيقِيِّ، ما ينفكُون تحت الظُّلْمَةِ عَيْنَاهَا، ظلمةُ الْخَطِيَّةِ، ولم يَفْعُلُ اللَّذَاتِ نَفْسُهُ، ورازحٌن تحت القِصاصِ ذاتِهِ، ولا أعينَ لهم بعْدَ تَنْظُرَ الآبِ.

٥ - فَيَنْبَغِي لِكُلِّ واحِدٍ أَنْ يَعْرُفَ أَنَّ ثَمَّةَ عِيُونًا أَكْثَرَ إِيْغَالًا مِنْ هَذِهِ الْأَعْيُنِ، وَسَمْعًا أَكْثَرَ إِيْغَالًا مِنْ هَذِهِ السَّمْعِ. وَكَمَا أَنَّ هَذِهِ الْأَعْيُنِ تَنْتَظِرُ عَلَى نَحْوِ مَحْسُوسٍ وَتَدْرِكُ وَجْهَ الصَّدِيقِ أَوَّلَ الْحَبِيبِ؛ هَكَذَا أَيْضًا أَعْيُنَ النَّفْسِ الْمُسْتَحِقَّةُ الْأَمِينَةُ، إِذْ تَسْتَتِيرُ عَلَى نَحْوِ رُوحَانِيَّ بَنُورِ إِلَهِيٍّ، تَنْتَظِرُ وَتَدْرِكُ الْحَبِيبَ الْحَقِيقِيَّ، الْخَتَّنَ الْأَحْلَى وَالْمُشْتَهَى جَدًّا، الَّذِي هُوَ الرَّبُّ، لَأَنَّ النَّفْسَ يَشْرُقُ عَلَيْهَا الرُّوحُ الْقَدِيسُ الْمَسْجُودُ لَهُ، وَهَكَذَا حِينَ تَنْتَظِرُ عَقْلِيًّا^(١) الْخَسْنَ الْمُشْتَهَى الْوَحِيدُ الَّذِي لَا يُنْطَقُ بِهِ، تَنْجُرُ^(٢) بِالْعُشُقِ الإِلَهِيِّ وَتَنْقَادُ بِالرُّوحِ الْقَدِيسِ نَحْوِ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ، وَهَكَذَا تَقْتَنِي حَبًّا لَا يَحْكُمُ وَلَا يَنْضُبُ نَحْوِ الرَّبِّ مُشْتَهَا هَا. فَأَيُّ شَيْءٍ أَكْثَرُ غُبْطَةً مِنْ ذَاكَ الصَّوْتَ الْأَبْدِيِّ الَّذِي لَيُوحَنَّا

(١) لَنْلَاحِظُ تَكْرَارَ أَنْبَا مَقَارَ وَتَأكِيدَهُ عَلَى تَجْرِيدِ هَذَا التَّنْظُرُ الرُّوحَانِيُّ مِنْ كُلِّ مَا هُوَ مَادِيٌّ وَاقِعٌ تَحْتَ الْحَوَائِنِ.

(٢) اسْتَخْدَمَتِ السَّبْعِينَةُ هَذَا الْفَعْلَ *τετρώσκω* = بِحِجْرٍ، فِي آيَتِي نَشِيدِ الْأَنْشِيدِ الَّذِينَ تُصْرَحُ فِيهِمَا الْعَرْوَسُ بِأَهْمَاء «مَرِيضَةً حَبًّا» (نَش٢:٥؛ ٨)، فَتَقُولُ إِنَّهَا «مَجْرُوحَةٌ بِالْحَبَّ». *τετρωμένη ἀγάπης*

حين أشار إلى الرَّبِّ أَمَامْ أَعْيُنَنَا، قائلًا: «هُوَ ذَا حَمَلَ اللَّهُ الَّذِي يَرْفَعُ حَطَبَيَّةَ
الْعَالَمَ» (يو ١: ٢٩)؟

[ج] أَعْظَمُ مَوَالِيدِ النِّسَاءِ، وَمَنْ هُمْ أَعْظَمُ مِنْهُ

٦ - بالحقيقة «لَيْسَ مِنْ بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ
يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانِ»^(١)، لأنَّهُ هو كمال جمِيع الأنبياء. فجميعهم تنبأوا عن
الرَّبِّ مشيرين إليه من بعيد آتِيًّا، أمَّا هو فحين تنبأ عن المخلص أشار إليه
عيانًا، صارخًا إلى الجميع وقائلًا: «هُوَ ذَا حَمَلَ اللَّهُ» (يو ١: ٢٩). فكم هو
حُلُوقٌ وحَسَنٌ صوتُ ذاك الَّذِي يشير مباشِرًا إلى مَنْ يُشَيرُ به! «فَلَيْسَ مِنْ
بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانِ، لَكِنَّ الْأَصْغَرَ
فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ»^(٢). فالرُّسل المولودون من فوق، من الله،
الَّذِينَ نالوا باكورة الرُّوحِ الْمُعَزِّي، هؤلاء استحقُّوا أن يَحْكُمُوا مع المسيح
ويجلسوا معه في عرشه^(٣). هؤلاء قد صاروا منقذين للبشر؛ فإنَّك بتجدهم
يشفُّون بحرَّ القوَاتِ الشَّرِّيرَةِ ويَغْيِرُون بالنُّفُوسِ الأمِينةِ، وتجدهم فُلَاحِين
يَفْلُحُون كَرَمَ النَّفْسِ، وتجدهم أصدقاءً للْحَنَّ يُزَوِّجُونَ النُّفُوسَ لِلمسيحِ، كما

(١) مت ١١: ١١؛ لو ٧: ٢٨.

(٢) مت ١١: ١١.

(٣) انظر: مت ١٩: ٤؛ ٢٨: ٢٢؛ لو ٢٢: ٣٠.

يقول الرَّسُول: «لَأَنِّي حَطَبْتُكُمْ لِرَجْلٍ وَاحِدٍ» (كو ١١: ٢)، وبتحدهم يعطُون حيَاةً للبشر. وبالإيجاز فإنَّك بتحدهم، بأنواعٍ وطرقٍ شَتَّى، خادمين للرُّوح القدس؛ فهذا هو الصَّغير الأعظم من يوحنا المعمدان.

٧ - لأنَّه كما أنَّ الفلاح يمسِّكُه رَوْحُجِي البقر يفلُّخُ الأرض، على ذات المنوال أيضًا الرَّبُّ يسوع، الفلاح الصالح والحق، أَفَرَن اثنين اثنين من رسلي وأرسلهم، فالحَا معهم أرضَ الَّذِين يسمعون ويؤمنون بالحق. لكنْ يجدر أن يقال هذا أيضًا: إنَّ ملَكوت الله وكرازة الرَّسُول لم يَكُونَا بكلمة السَّمْع فقط، كما لو كان أحدٌ يعرِفُ كلاماتٍ ويتحدثُ بها إلى آخرين، إنَّا الملَكوت يكون بقُوَّةِ الرُّوح القدس وفعله^(١). فإنَّ هذا هو ما قد أصاب أيضًابني إسرائيل؛ فرغمَ أَهْمَمِ كَانُوا يلهجون في الكتب على الدُّوَام، وكانت تَمَلَّا هُم بحسب زعمِهِم - تدور حول الرَّبِّ، فلأَهْمَمْ لم يقبلوا الحقَّ ذاتَه سَلَّموا إِزْتَهُم لآخرين؛ هكذا أيضًا الَّذِين يتحدَّثُون بكلمات الرُّوح إلى آخرين دون أنْ يقتنوا هُم أنفُسَهُم الكلمةَ بقوَّها، يُسَلِّمُون إِزْتَهُم لآخرين. والحمد للآب والابن والرُّوح القدس إلى الدُّهُور، آمين.

(١) انظر: كو ٤: ٢٠.

العظة التاسعة والعشرون

تدابير نعمة الله من نحو بني البشر

[الله يُجري تدابير نعمته من نحو جنس البشر على نهجهن، وهو عتيد أن يطلب ثمارها أيضًا في دينونة عادلة]

[أ] أولئك الذين تأثيرهم النعمة سريعاً

[ب] أولئك الذين تتمهل عليهم النعمة

[ج] دينونة الإنسان على قدر معرفته



[أ] أولئك الذين تأثيرهم النعمة سريعاً

١ - إن حكمة الله، كونها لا تُحَدّ ولا تُدرك، تُجري بطريق فائقة للإدراك والفحص تدابير النعمة من نحو جنس البشر بسبيل شئي، لأجل امتحان الإرادة الحرة، حتى يظهر أولئك الذين من كل قلوبهم يحبونه ويحملون كل خطير وتعبر من أجل الله. فالبعض تُبادرهم مواهب الروح القدس وهباته وتدركُهم فيما هم يتقدّمون بإيمان وسؤال، وبحدث أن يعطيهم الله نعمته دون مشقات وأعرارٍ وأنتعابٍ وهم بعد في العالم^(١). وهذا ليس خرافاً ولا في غير أوانه ولا كيما

(١) أي وهم لم يخرجوا بعد من العالم إلى الرهبة.

اتفق، إنما بحكمة لا يُنطق بها ولا تدرك، لأجل امتحان النّيّة وحرّيّة الإرادة لأولئك الذين نالوا النّعمة الإلهيّة هكذا سريعاً، إنْ كانوا قد شعروا بإحسان الله ولطفه نحوهم وحلّوته، بما يتناسب ونعمتة المطّأة لهم دونَ تعّبٍ من جانبهم - تلك النّعمة التي بعد أنْ حسّبوا أهلاً لها وجبَ عليهم أنْ يُظهّروا اجتهاداً وسعياً وجهاداً وثراً الحبّة النّابع من إرادتهم ونیّتهم، وأنْ يرثُوا العوضَ^(١) إزاء هذه المواهب، بأنْ يعطّلوا ثقوسهم بالكلّيّة ويسّلّموها لحبّة الرّبّ ويتّمّموا مشيّته فقط ويبيّدوا بالّ تمام كلّ شهوة جسدية.

[ب] أولئك الذين تمّلّ عليهم النّعمة

٢ - ولكن لآخرين - لأولئك الذين اعزّلوا العالم وأنكروا هذا الدّهر، بحسب الإنجيل^(٢)، وهم يتوفّرون في ذاً كثير على الصّلاة والصّوم والاجتهد وبقيّة الفضائل، لا يعطيهم الله في الحال نعمة الرّوح القدس وراحته وابتهاجه، إنما يُطيل أناه عليهم محتاجاً موهبة عنهم. وهذا ليس جزاً ولا في غير أوانه ولا كيّفما اتفق، إنما بحكمة لا يُنطق بها، لأجل امتحان الإرادة الخّرّة، لكي يرى إنْ كانوا يحسّبون الله الذي وعّد أميناً وصادقاً^(٣) حتى يعطي الّذين يسألون

(١) الفعل *άνταποδίδωμι* ورد في سياق مشابه في مر ١١: ٣ س «إِنَّا أَكْفَى

άνταποδώσσω الرّبّ عن كُلِّ ما أَعْطَانِيه».

(٢) انظر على سبيل المثال: مر ١٠: ٢٩؛ لو ١٤: ٢٦... إلخ.

(٣) انظر: عب ١١: ١١.

ويفتح باب الحياة للذين يقرون. ولكن يرى إن كانوا - بعد أن آمنوا حقاً بكلمته - يتبئون إلى النهاية في يقين الإيمان^(١) والاجتهد سائرين وطالبين، كانوا لا يرتدون خائري العزائم ناكصين على أعقابهم، قد فت في عصدهم عدم الإيمان وعدم الرجاء، غير صابرين إلى المتهى^(٢) بسبب بطء الزمان وامتحان إرادتهم وثباتهم.

٣ - لأنَّ الَّذِي لَا يَنالُ التَّعْمَةَ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ - وَذَلِكَ بِإِمْهَالِ اللَّهِ وَطُولِ أَنَاتِهِ - يَكُونُ أَشَدَّ اتِّقاداً وَأَكْثَرَ ابْتِغَاءً لِلخَيْرَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَيُزَدَّادُ كُلَّ يَوْمٍ أَكْثَرُ فَأَكْثَرُ شَوْقًا وَاجْتِهادًا وَسَعْيًا وَجْهَادًا وَكُلَّ سِيرَةً لِلْفَضْيَلَةِ وَجَوْعًا وَعَطْشًا إِلَى الصَّلَاحِ، وَلَا يُنْبَطِطُ هُنْتَهُ شُرُّ الْأَفْكَارِ الْمُلَازِمَةُ لِلنَّفْسِ، وَلَا يَجْنَحُ إِلَى الْإِهْمَالِ وَفَرَاغِ الصَّبَرِ وَقْطَعِ الرَّجَاءِ، وَلَا يُسَلِّمُ نَفْسَهُ إِلَى التَّرَاجِيِّ بِعِلْمِ طَولِ الْأَنَاءِ، مُتَذَرِّعًا بِمَثِيلِ هَذَا الْفَكْرِ "إِنِّي نَائِلٌ يَوْمًا مَا نَعْمَلُ اللَّهُ"؛ وَمَنْ هُنَا يَسْرُقُهُ الشُّرُّ إِلَى التَّهَاوُنِ. لَكِنْ (عَلَى التَّقْيِيسِ مِنْ هَذَا بَقْدَرِ مَا يَطْبِلُ الرَّبُّ نَفْسَهُ أَنَّهُ عَلَيْهِ بِإِمْهَالٍ، مُتَحَمِّلًا إِيمَانَهُ وَمَا تَحْمِلُهُ مَشِيتَتَهُ، يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْلُبُ «عَطِيَّةَ اللَّهِ»^(٣) بِأَكْثَرِ شَدَّةٍ وَأَكْثَرِ حَمِيمَةٍ، بِلَا

(١) انظر: عب ٢٢:١٠.

(٢) انظر: مت ١٠:١٠؛ ٢٤:٢٢؛ ١٣:١٣؛ مر ١٣:١٣.

(٣) تعبير "θεοῦ τοῦ δωρεάς" = عطيَّةُ الله "لم يرد في العهد الجديد إلا مرتين فقط، يشير في كلِّ منها إلى الروح القدس: يو ٤:٤؛ ١٠:٨؛ أع ٤:٢٠.

فُتُورٍ ولا كُلُّ، إذ قد آمن مَرَّةً وَتَيَقَنَ في نَفْسِهِ أَنَّ اللَّهَ «مُنَزَّهٌ عَنِ الْكَذِبِ»^(١)، وَأَنَّ ذَاكَ الَّذِي وَعَدَ أَنْ يَعْطِي نِعْمَتَهُ لِلَّذِينَ يَطْلَبُونَ بِإِيمَانٍ إِلَى النِّهايَةِ بِكُلِّ صِرْ، هُوَ صَادِقٌ.

٤ - لَأَنَّ اللَّهَ مُعْتَبِرٌ أَمِينًا وَصَادِقًا لِلنُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ، وَالَّتِي «قَدْ خَتَمَتْ أَنَّ اللَّهَ صَادِقٌ»^(٢)، بحسب الكلمة الصَّادِقةِ. فَوَفَقًا لِمَعْنَى الإِيمَانِ المذكور سالِفًا، فَإِنَّ النُّفُوسَ الْمُؤْمِنَةَ تَفْحَصُ ذَوَاهَا عَلَى قَدْرِ طَاقَتْهَا فِيمَا يُعْزِزُهَا، تَعْبًا كَانَ أَمْ جَهَادًا أَمْ اجْتِهَادًا أَمْ إِيمَانًا أَمْ مُجَبَّةً أَمْ تَوْطِيدًا لِبَقِيَّةِ الْفَضَائِلِ. وَبَعْدَ أَنْ تَفْحَصَ ذَوَاهَا بِكُلِّ تَدْقِيقٍ وَعَنْاءٍ، تَغْصِبُهَا بِكُلِّ مَا لَهَا مِنْ قُوَّةٍ وَتَقْسِيرُهَا إِلَى مَرْضَاهُ الرَّبِّ، إذ قد آمنتْ مَرَّةً أَنَّ اللَّهَ، كَوْنُهُ صَادِقًا، لَنْ يَحْرِمَهَا مَوْهَبَةُ رُوحِهِ إِذَا مَا لَبَثَتْ حَتَّى النِّهايَةِ بِكُلِّ اجْتِهَادٍ فِي عِبَادَتِهِ وَانتِظَارِهِ، بِلْ سُؤْهَلَ لِلمَوْهِبَةِ السَّمَاوِيَّةِ وَهِيَ بَعْدُ فِي الْجَسَدِ وَتَنَالُ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ.

٥ - وَهَكُذا فَإِنَّهَا تَدْفعُ بِكُلِّ مُحِبَّتِهَا نَحْوَ الرَّبِّ، جَاحِدَةً كُلَّ شَيْءٍ، وَمُنْتَطَلِعَةً إِلَيْهِ وَحْدَهُ فِي اشْتَهَاءِ كَثِيرٍ وَجُوعٍ وَعَطْشٍ، وَمُتَرْقِبَةً فِي كُلِّ حِينٍ رَاحَةً النِّعَمَةِ وَتَعْزِيَّتِهَا، وَرَافِضَةً – بِاخْتِيَارِهَا – أَنْ تَعْزَزَ أَوْ تَسْتَرِيعَ أَوْ تُوَبِّطَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ. لَكِنْ عَلَى الدُّوَامِ، فِيمَا هِيَ تَقاوِيمُ الْأَفْكَارِ

(١) يو ٣: ٢.

(٢) يو ٣: ٣.

الْمَادِيَّةِ، تَتَطَلَّعُ فَقَطَ إِلَى مَعْوِنَةِ اللَّهِ وَمُعَاصِدِهِ. لَأَنَّ النُّفُوسَ الَّتِي تَأْخُذُ عَلَى عَاتِقِهَا مِثْلَ هَذَا الاجْتِهَادِ وَالْعَزْمِ وَالصَّبَرِ يَكُونُ الرَّبُّ نَفْسَهُ حَاضِرًا بِالْفَعْلِ مَعْهَا خُفْيَّةً، فَيُعِينُهَا وَيَحْرُسُهَا وَيُؤَازِرُهَا نَحْوَ كُلِّ ثُرَّةٍ لِلْفَضْيَلَةِ، حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ لَا تَرَالُ فِي تَعْبٍ وَضَيقٍ، وَمَا نَالَتْ بَعْدَ نِعْمَةَ الرُّوحِ الْقَدِيسِ وَرَاحَةَ «الْمَوْهِبَةِ السَّمَاءِيَّةِ»^(۱) - فِي مَا يَخْصُّ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَاسْتِنَارَةِ النَّفْسِ - وَمَا شَعَرَتْ بِهَا بِيَقِينٍ. وَذَلِكَ بِسَبِيلِ حِكْمَةِ اللَّهِ الَّتِي لَا يُنْطَقُ بِهَا وَأَحْكَامِهِ الَّتِي لَا يُعَبَّرُ عَنْهَا، إِذْ يَمْتَحِنُ النُّفُوسَ الْمُؤْمِنَةَ بِسَبِيلٍ شَيْئًا وَيَرَاقِبُ الْمُحَبَّةَ التَّابِعَةَ مِنْ إِرَادَتِهَا وَنِيَّتِهَا. لَأَنَّ هُنَاكَ حَدُودًا وَقَامَاتٍ وَقِيَاسَاتٍ لِلْبَيْنَةِ الْحَرَّةِ وَلِمُشَيَّعَةِ الْمُحَبَّةِ وَالْعَزْمِ بِكُلِّ قَوَّةٍ نَحْوَ جَمِيعِ وَصَاحِبَيِ الْمَقْدِسَةِ، وَهَكُذا حِينَ تُتَبِّعُ النُّفُوسُ قَامَةً مُحِبَّتَهَا وَمَا هُوَ مَنْوَطٌ بِهَا، تُؤَهَّلُ لِلْمُلْكُوتِ وَالْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ.

[ج] دِيَنُونَةُ الْإِنْسَانِ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِ

٦ - فَإِنَّ اللَّهَ عَادِلٌ هُوَ وَعَادِلٌ هُوَ أَحْكَامُهُ^(۲) «وَلَيْسَ عِنْدَهُ مُخَابَةٌ»^(۳)، بَلْ حِينَ يَدِينُ كُلَّ وَاحِدٍ سِيَطْلُبُ ثَمَارَ الْفَضْيَلَةِ بِمَا يَتَنَاسَبُ وَالْمَيْزَانُ الْحَسَنَةُ - إِنْ جَسَدِيَّةً أَوْ رُوحِيَّةً أَوْ مَعْرِفَةً أَوْ فَهْمًا أَوْ تَميِيزًا - الَّتِي قَدْ وَضَعَهَا اللَّهُ أَيْضًا

(۱) عِبْرَةٌ ٤: ٦.

(۲) انْظُرْ: مِزَانٌ ١١٩: ١٣٧، ٧٥ س.

(۳) أَفَ ٦: ٩.

على نحوٍ متبادرٍ في طبيعة البشر، وسيجازي كلَّ واحدٍ في يوم الْدِيْنُونَة بالعدل طبقاً لأعماله. لأنَّه يقول: يأتي «وَجَازَى كُلُّ وَاحِدٍ حَسَبَ أَعْمَالِه» (رو: ٢: ٦)، و«الْأَفْوَيَا بِقُوَّةِ سَيْفِحَصُونَ، أَمَّا الْأَصْعَرُ فَخَلِيقٌ بِهِ الرَّحْمَةُ» (حك: ٦: ٦ - حسب النَّصّ). والرَّبُّ يقول: «الْعَبْدُ الَّذِي يَعْلَمُ إِرَادَةَ سَيِّدِهِ وَلَا يَفْعَلُ سَيُضْرِبُ كَثِيرًا، وَلَكِنَّ الَّذِي لَا يَعْلَمُ وَيَفْعَلُ مَا يَسْتَحْقُ ضَرَبَاتٍ سَيُضْرِبُ قَلِيلًا. وَمَنْ يُودِعُونَهُ كَثِيرًا سَيُطَالِيُونَهُ بِأَكْثَرَ» (لو: ١٢، ٤٧: ٤٨ - حسب النَّصّ). أمَّا «المعرفة» و«الفهم» (آنِفَا الْذِكْر) فلتفهم أَهْمَماً يَكُونان بدرجاتٍ متباينة، إِمَّا بحسب نعمة الرُّوح القدس وعطائه السَّمَاوِيَّة، أو بحسب ارتقاءٍ طبيعيٍّ للفهم أو التَّمييز مع التَّأْدِيب بالأسفار الإلهية. لأنَّ كُلَّ وَاحِدٍ سوف تُطلَب منه ثمارفضيلته بما يتَناسب وما صار له من قبِيل الله من مَيْزَاتٍ حسنة، طبيعيةً كانت أم مُعطاً من النِّعمة الإلهية. فكُلُّ إِنْسَانٍ إِذَا هو بلا عنِّرٍ عند الله في يوم الْدِيْنُونَة، لأنَّ كُلَّ وَاحِدٍ سوف يُطالَب - على قدر ما له من معرفة - بثمار الإيمان والمحبة وكلِّ فضيلة مُعطاً له، وما رَدَّ بمحض اختياره وإرادته، سواءً سمعَ كلمةَ الله أم لم يسمعها قطّ.

٧ - فإنَّ النَّفْسَ الْمُؤْمِنَةَ الْمُحِبَّةَ لِلْحَقِّ حين تُنْعِمُ النَّظَرُ في الخيرات الأبدية الموضوعة للأبرار، وفي الإحسان الذي لا يُنْطَق به الكائن في النِّعمة الإلهية العتيدة أن تفتقد لها، تُحَسَّب ذائِها - مع اجتهاودها وتعيدها وكدِّها -

غَيْرَ مُسْتَحِقٌ إِزَاءً مَوَاعِيدِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ الَّتِي لَا يُنْطَقُ بِهَا. هَذَا هُوَ الْمُسْكِنُ بِالرُّوحِ الَّذِي طَوَّبَهُ الرَّبُّ^(۱)؛ هَذَا هُوَ الْجَائِعُ وَالْعَطْشَانُ إِلَى الْبَرِّ^(۲)؛ هَذَا هُوَ الْمُنْكَسِرُ الْقَلْبُ^(۳). فَالَّذِينَ يَتَخَذُونَ مُثْلَهُ هَذَا الْعَزْمُ وَالْاجْهَادُ وَالتَّأْبَعُ وَالشَّوْقُ إِلَى الْفَضْيَلَةِ، وَيُلْبِثُونَ فِيهِ إِلَى النِّهَايَةِ، يَكْنِيْهُمْ أَنْ يَنْالُوا بِالْحَقِّ الْحَيَاةَ وَالْمَلْكُوتَ الْأَبْدَيِّ. فَلَا يَتَشَامِخُ إِذَا أَحَدٌ مِنَ الْإِخْرَوَةِ عَلَى أَخِيهِ وَلَا يَتَقَدَّمُ إِلَى الْعَجْبِ مُخْدُوِّعًا مِنَ الشَّرِّ، وَكَأَيِّنَ بِهِ يَقُولُ: "هَا أَنَا ذَا قَدْ حِزْتُ مَوْهَبَةً رُوحِيَّةً". فَإِنَّهُ لَا يَجُدُّ بِالْمُسْكِنِيْنَ أَنْ يَتَفَكَّرُوا هَكُذا، لَأَنَّهُ مَاذَا يَصْنَعُ الْغُدُّ بِذَاكَ؟ لَسْتَ تَعْلَمُ؛ وَأَيَّةً خَاتِمَةً لِذَاكَ، وَأَيَّةً خَاتِمَةً لِكَ؟ لَسْتَ تَعْلَمُ. لَكِنْ لِي فَحْصٌ كُلُّ وَاحِدٍ ضَمِيرَهُ هُوَ عَلَى الدَّوَامِ، مُنْتَبِهَا إِلَى ذَاتِهِ، وَلِي مَتْحَنَ عَمَلَ قَلْبِهِ؛ وَأَيَّةً هِمَّةً تَكُونُ لِعَقْلِهِ مِنْ نَحْوِ اللَّهِ وَأَيُّ جَهَادٍ. وَلِي رَكْضٌ فَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَنْشَيِّ عَزْمُهُ، مُثْبِتًا نَظَرَهُ عَلَى الْهَدْفِ الْكَامِلِ، أَعْنِي الْحَرِيَّةَ وَانْعَدَامِ الْأَوْجَاعِ^(۴) وَرَاحَةِ الرُّوحِ، غَيْرَ قَانِعٍ بِأَيِّ مَوْهَبَةٍ أَوْ بِرِّيْ. وَالْجَدُّ وَالسُّجُودُ لِلْآبِ وَالْابْنِ وَالرُّوحِ الْقَدِيسِ إِلَى الدُّهُورِ، آمِينَ.

(۱) انظر: مت ۵:۳.

(۲) انظر: مت ۶:۵.

(۳) انظر: مر ۳۳:۶۱؛ ۱۹:۵۰؛ ۱۹:۱۴۶؛ ۱۹:۴۳ إِش ۶۱:۱.

(۴) هَذِهِ هِيَ الْمَةُ السَّادِسَةُ (وَالْأُخِيرَة)، فِي هَذِهِ الْعَطَاتِ الْخَمْسِينِ، الَّتِي يُورِدُ فِيهَا أَنْبَا مَقَارُ كَلْمَةَ الْ"απάθεια"؛ أَيْ انْدَعَامُ الْأَهْوَاءِ أَوْ الْأَوْجَاعِ (انظر: ۴: ۴۲۵، ۳: ۱۷۴۵، ۱۱: ۱۲، ۱۲: ۱۲).

العظة الثلاثون

المسيح يرسم صورته فينا، ويداوي نفوسنا

[النفس المزمعة أن تدخل الملائكة يلزم أن تولد من الروح القدس، وبآية طرقة يحدث هذا]

[أ] غاية مجيء الرَّبِّ أن يلدنا من روحه

[ب] فلتشخص إلى الرَّبِّ ليرسم صورته فينا

[ج] المسيح الطيب الحق يقرع أبواب قلوبنا



[أ] غاية مجيء الرَّبِّ أن يلدنا من روحه

١ - إنَّ الَّذين يسمعون الكلمة ينبغي لهم أن يُظْهِرُوا فعلَ الكلمة في نفوسهم، لأنَّ كلمة الله ما هي بالكلمة الخامدة، بل لها فِعلُها الصَّائر في النفس، فلأجل هذا تُدعى أيضًا "فعلاً" لكيما يوجد الفعل في الَّذين يسمعون. فيما ليت الرَّبُّ يمنع فعلَ الحق في الَّذين يسمعون، لكي توجد الكلمة مثمرةً فينا. لأنَّه كما أنَّ الظِّلَّ يتقدَّمُ الجسد - إذ الظِّلُّ يشير فقط إلى الجسد، أمَّا الحقيقة فهي الجسد - بنفس الطَّريقة أيضًا الكلمة هي بمثابة ظِلٍّ للحقيقة أي للمسيح، فالكلمة تتقدَّمُ الحقيقة. فإنَّ الآباء على الأرض يَلْدُون بنيَّنَ من طبيعتهم، من أجسادهم ونفوسهم ، وحين يولد هؤلاء فيكُلُّ نشاطٍ واجتهادٍ يؤدِّبُونَهم كبنيَّهم إلى أن يصيروا رجالاً بالغين

وخلفاء ووارثين لهم. فإنَّ مَرَامَ الآباءِ وكلَّ اجتهدَهمْ منْذَ البدءِ هو أنْ يلدُوا بنينٍ ويكونُ لهمْ ورثةً. فإنَّ لمْ يلدُوا انتابُهمْ حزْنٌ جسيمٌ جدًا ووجعٌ، على قدر ما يَعْنِشُهمْ الفرحُ أيضًا إذا ما ولدوا، ويفرحُ معهمْ أقاربُهمْ وجيرانهمْ.

٢ - على نفس المنوال أيضًا رَبُّنا يسوع المسيح، إذ عُنيَ بخلاص الإنسان، أكملَ في سبيل ذلك كلَّ تدبيرٍ واجتهدَ، ففي البدءِ بواسطة الآباءِ ورؤساءِ الآباءِ، ثمَّ بواسطة النَّاموسِ والأنبياءِ، وأخيرًا أتى هو نفسه واحتملَ الموتَ مستهينًا بخزيِّ الصَّليبِ^(١). وقد كانَ عملُه هذا كلهُ واجتهدَه لكي يَلْدَدَ منْ نفسه، منْ طبيعته، بنينَ منَ الرُّوحِ القدسِ، إذ قد سُرَّ بأنْ يولَدُوا منْ فوقِه، منْ لاهوتِه. وكما أنَّ هؤلاءِ الآباءِ إذا لمْ يلدُوا يشملُهمُ الحزنُ، هكذا الرَّبُّ أيضًا لأنَّه أحبَّ جنسَ البشرِ كصورةِ الخاصةَ، أرادَ أنْ يلدُهمْ منْ زَرْعِ لاهوتِه، فإنْ كانَ أنسُاسٌ لا يشاءُونَ أنْ يأتُوا إلى مثلِ هذا الميلادِ ويولَدو منْ "رحمٍ" روحَ الlahوتِ، يَلِمُّ بالMessiah حزنَ بليغٍ، كونُه تجسَّمَ الألمَ منْ أجْلِهمْ وصَبَرَ لكي يخلِصُهمْ.

٣ - فإنَّ الرَّبَّ يريدُ أنَّ جميعَ النَّاسِ يُحسِّنُونَ أهلاً لهذا الميلادِ، لأنَّه منْ أجلِ الجميعِ قدْ ماتَ، والجميعَ قدْ دعا إلى الحياة^(٢)، وأمَّا الحياةُ فهي الميلادُ

(١) انظر: عب ١٢: ٢.

(٢) في هذه التَّلَاثَ تَجْملُ الأَيْضَى تكرَّرتْ فيها كلمةُ "الْجَمِيعُ"، وردَتْ هذه الكلمةُ، في الأصل اليونانيِّ، في مستهلِّ كُلِّ جملةٍ تزكيَّها على شُمولَيَّةِ دعوةِ اللهِ.

من فوق، من الله. لأنَّه بدون هذا الميلاد لا يمكن للنَّفَس أنْ تُحْيِا، كما يقول الرَّبُّ: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُولَدُ مِنْ فَوْقٍ لَا يَعْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ» (يو ۳: ۳)، بينما كُلُّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالرَّبِّ وَيَتَقدَّمُونَ إِلَيْهِ فَيُحَسِّبُونَ أَهْلًا لِهَذَا الْمَيْلَادِ، يَجْلِبُونَ فَرَحًا وَابْتَهاجًا عَظِيمًا جَدًّا فِي السَّمَاوَاتِ لِلْوَالَّدِينِ الَّذِينَ وَلَدُوهُمْ، فَكُلُّ الْمَلَائِكَةِ وَالْقُوَّاتِ الْمَقْدَسَةِ تُفْرِحُ بِالنَّفَسِ الَّتِي وُلِدَتْ مِنِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ وَعَدَتْ رُوحًا. لأنَّ هَذَا الْجَسَدُ هُوَ عَلَى شِبَهِ النَّفَسِ، أَمَّا النَّفَسُ فَهِيَ صُورَةُ الرُّوحِ، وَكَمَا أَنَّ الْجَسَدُ بِدُونِ النَّفَسِ مِيتٌ لَا قَدْرَةٍ لَهُ عَلَى فَعْلٍ شَيْءٍ؛ هَكُذا بِدُونِ النَّفَسِ السَّمَاوِيَّةِ، أَيِّ الرُّوحِ الْإِلهِيِّ، تَكُونُ النَّفَسُ مِيتَةً عَنِ الْمَلَكُوتِ، إِذَا لَا قَدْرَةٌ لَهَا عَلَى فَعْلٍ شَيْءٍ مَمَّا لَهُ بِدُونِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ.

[ب] فَلَلشَّخْصِ إِلَى الرَّبِّ لِيَرِسمَ صُورَتَهُ فِينَا

٤ - كَمَا أَنَّ الرَّسَامَ يُحَدِّقُ فِي وَجْهِ الْمَلَكِ وَيَرْسُمُهُ، فَحِينَ يَكُونُ وَجْهُ الْمَلَكِ مُقَابِلَ رَاسِهِ فَإِنَّ الْآخِرَ يُصَوِّرُ الصُّورَةَ فِي سَهْوَةٍ وَيُحَسِّنُ تَصْوِيرَهَا، أَمَّا مَتَّ أَدَارَ الْمَلَكُ وَجْهَهُ فَلَا يُمْكِنُ لِلْرَّسَامِ أَنْ يَرْسُمَ لِأَنَّ الْوَجْهَ لَا يَشَخُصُ إِلَيْهِ؛ عَلَى ذَاتِ الْمَنْوَالِ أَيْضًا الْمَسِيحَ، الْمَصْوِرَ الصَّالِحَ، يُصَوِّرُ لِلْحَالِ أُولَئِكَ

الذين يؤمنون به والذين يشخصون إليه في كل حين^(١) - يصوّرهم على صورته إنساناً سماوياً. فمن روحه ومن جوهره ومن نوره الذي لا يُنطق به، يَرْسُم صورةً سماوية، ويَهْبِطُها عريستها البهية الصالحة. فإنْ كان أحد لا يشخص إليه في كل حين، غاصتاً الطَّرفُ عن كل شيء، فلن يَرْسُمَ الرَّبُّ فيه صورةً ذاته ومن نوره. فمن ثم ينبع لنا أن نشخص إليه، مؤمنين به ومحبين إياه وطارحين كل شيء (سواء) ومحذقين فيه، حتى إذا ما رَسَمَ صورته السماوية يَنْعَثُها في نفوسنا. وهكذا لما تَحْمَلَ المسيح، نال الحياة الأبدية ومذ ذاك نظر بالراحة والقين قام الْفِقة.

٥ - فكما أن العملة الذهبية ما لم تَنْلِ الصورة الملكية وتُدْمَغُ بها، فلا هي تَرُوج في التجارة ولا هي توضع في خزائن الملك بل تكون مرفوضة؛ هكذا النفس أيضاً ما لم يكن لها صورة الروح السماوي، أي المسيح منطبعاً فيها بنور لا يُنطق به، فلا نفع منها في الخزائن العليا، بل تكون مرفوضة من تجَارِ الملوك، أي الرسل الصالحين. فإنْ ذاك الذي كان قد دُعيَ ولم يكن لابساً لباس العروس طرداً كغريب إلى الظلمة الخارجية لأنَّه لم يكن لابساً الصورة السماوية^(٢). فإنْ علامَةَ الرَّبِّ وسيَّره المنطبعَةَ في

(١) يؤكد أئبنا مقار إسكندرية هذا في قوله في البستان: [إنَّ النَّفْسَ لَهَا اسْتِطَاعَةٌ أَنْ تَنْظَرَ إِلَى اللهِ فِي كُلِّ حِينٍ، فَتَوَجَّدُ لَهَا دَلَلٌ عِنْدَ سَيِّدِهَا ...] (بستان الرهبان - قول رقم ٢٠٨).

(٢) انظر: مت ٢٢: ١١ - ١٣.

النُّفوس، إنما هي روح النُّور غير المنطوق به الحال فيهم. وعلى غرار الميت في مدينة لا فائدة منه ولا يُرجى منه نفع بالكلية للذين هناك، وهذا يحملونه خارج المدينة ويدفونوه؛ هكذا أيضاً النفس التي لا تحمل صورة النُّور الإلهي السماوية، التي هي حياة النفس، تصير كمزولة ومرفوضة من جميع الوجوه، لأنَّ نفسيّة ميّة لا تحمل الروح المنير الإلهي لا يُجدِّي نفعاً لمدينة القديسين. فكما أنَّه في هذا العالم النفس هي حياة الجسد، كذلك أيضاً في العالم الأبدي السماوي روح الالهوت هو حياة النفس، فبدون "روح" النفس تكون هذه النفس ميّة بالنسبة لما هو فوق وتبقى بلا نفع.

٦ - فينبغي إذاً لمن يطلب الإيمان والتقدُّم إلى الرَّب أنْ يتولَّ لكيما ينال منذ الآن الروح الإلهي، لأنَّه هو حياة النفس. ومن أجل هذا أكمل الرَّب مجيهه، لكي يهب للنفس منذ الآن الحياة أي روحه. لأنَّه يقول: «ما دَامَ لَكُمُ النُّورُ، آمِنُوا بِالنُّورِ. يَأْتِي لَيْلٌ حِينَ لَا تَسْتَطِعُونَ أَنْ تَعْمَلُوا» (يو ١٢: ٣٦ - ٤: ٩ - حسب النصّ). فإذاً كان أحدٌ لم يطلب لنفسه منذ الآن الحياة، أي النُّور الإلهي الذي للروح القدس، ولم ينلها، فعند خروجه من الجسد يُصرَّز^(١) للوقت في مواضع الظلمة اليسارية ولا يدخل إلى

(١) هذا الفعل *αφοριζω* - يُصرَّز، يُمْكِنُ هو المستخدم في ذات الميثاق، في موضعين من الإنجيل: في فرز الملائكة الأشارة من الأخيار (مت ١٣: ٤٩)، وفي تغيير المسيح الحرف من الجداء (مت ٢٥: ٢٥).

ملكت السَّماوات، بل يكون مصيره جَهَنَّمَ مع «إِبْلِيسَ وَمَلَائِكَتِهِ»^(١). فكما حين يُلقى الْذَّهَبُ أو الفَضَّةُ في النَّارِ يصير أَكْثَرَ نَقاوةً وَتَمْحِيصاً، ولا شيءَ يَقْدِرُ أَنْ يُصْبِرَهُ، لَا خَشْبٌ مَثَلًا وَلَا عَشْبٌ، إِذْ إِنَّهُ يَأْكُلُ كُلَّ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَقْرَبُ مِنْهُ فَصَيْرَهُ هِيَ أَيْضًا نَارًا؛ هَكُذا أَيْضًا النَّفْسُ الَّتِي تَعِيشُ فِي نَارِ الرُّوحِ وَفِي النُّورِ الإِلَهِيِّ، لَنْ تَنْفَلِبْ لِشَيْءٍ مِنْ قَبْلِ أَيِّ مِنَ الْأَرْوَاحِ الشَّرِّيرَةِ، بَلْ وَحْتَ إِنْ دَنَا مِنْهَا شَيْءٌ فَإِنَّهُ يَجْتَرِقُ بِنَارِ الرُّوحِ السَّمَاوِيَّةِ. وَكَمْثُلِ الطَّائِرِ إِذَا مَا طَارَ فِي الْغُلُوِّ يَكُونُ بِلَا هُمْ لِكُونِهِ لَا يَخْشَى شَيْئاً، لَا صَيَادِينَ وَلَا وَحْوَشَ شَرِّيرَةَ، لَأَنَّ الَّذِي فِي الْمَوْضِعِ الْمَرْتَفَعِ يَهْزَأُ بِكُلِّ الْأَشْيَاءِ؛ هَكُذا أَيْضًا النَّفْسُ الَّتِي قَدْ اتَّخَذَتْ لَهَا أَجْنَحَةَ الرُّوحِ الْقَدْسِ مُحَلَّقَةً فِي أَعْلَى السَّمَاءِ، فَلَأَنَّهَا تَكُونُ أَعْلَى مِنَ الْجَمِيعِ، تَهْزَأُ بِكُلِّ الْأَشْيَاءِ.

[ج] المسيح الطيب الحق يقع أبداً أبواب قلوبنا

٧ - فَإِنَّ «إِسْرَائِيلَ حَسَبَ الْجُسْدِ»^(٢)، حينما شَقَّ مُوسَى الْبَحْرَ كَانُوا يَجْتَازُونَ أَسْفَلَهُ، أَمَّا أُولَئِكَ فَلَكُونُهُمْ أَوْلَادُ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يَمْشُونَ فِي الْعُلَاءِ، فَوْقَ بَحْرِ مَرَارةِ الْقَوَافِلِ الْشَّرِّيرَةِ، لَأَنَّ أَجْسَادَهُمْ وَنُفُوسَهُمْ قَدْ أَضْحَتْ مَنْزِلَةً اللَّهِ.

(١) مت ٤١: ٢٥

(٢) كو ١٠: ١٨

فإنه في ذلك اليوم الذي سقط فيه آدم، أتى الله مashi'a في الفِرَدَوس وبكى - إنْ جاز القول - لـمَّا رأى آدم، قائلًا: «مِنْ أَيَّهَا خيراتٍ سقطتْ وَأَيَّهَا شرورٍ اخترتْ؟ مِنْ أَيِّ مَجْدٍ تعرَّيتْ وَبَأَيِّ خُزُّوٍ تسرِّيلَتْ؟ مَا بِالْكَ مُظْلَمًا هَكَذَا؟ مَا بِالْكَ دَمِيمًا؟ مَا بِالْكَ مُنْتَنِيًا؟ مِنْ أَيِّ نُورٍ هَرَبْتَ وَأَيَّهَا ظُلْمَةٍ غَشِيَّتْكَ؟»^(١) فحين سقط آدم ومات عن الله، بكاه الخالق والملائكة وكل القوّات السماوات والأرض، وناحت كل الخليائق على موته وعلى سقطته، لأنَّ الَّذِي قد أُعْطِيَ لَهُمْ مِلْكًا رَأَوهُ وقد أُمْسِيَ عَبْدًا للقوّات المعادية الشّريرة. فلقد اكتسَى إِذَا في نفسه بالظلمة - الظلمة المُؤَمِّنة الشّريرة، وتَلَكَ عليه رئيسُ الظلمة؛ هذا هو الَّذِي جَرَحَهُ اللُّصوص فصار بين حِيٍّ وميت بينما هو نازل «مِنْ أُورُشَلَيمٍ إِلَى أَرِيشَكَ»^(٢).

٨ - ولعاذر أيضًا الَّذِي أقامَهُ الرَّبُّ، الَّذِي أَفْعَمَ رائحةً جَدَّ كريهةً حتَّى إنَّ أحدًا لم يكن يستطيع أنْ يدُنُّو من قبره^(٣)، كان رمزاً لآدم الَّذِي اقتُبِلَ في نفسه رائحةً كريهةً شديدةً الكراهة وامتلاً قتاماً وظلمةً. لكن حين تسمع أنت عن آدم وعن ذلك المُثْخَن بالجرح وعن لعاذر، فلا تُطْلِقْ ذهنك كما

(١) شيءٌ مثل هذا الثناء من الله على آدم نحمد في موضعٍ ما من صلوات الكبيسة (انظر: طرح السّاعة التاسعة من يوم الاثنين من البصخة المقدّسة).

(٢) لو ١٠ : ٣٠.

(٣) انظر: يو ١١ : ٣٩.

إلى القفار، بل كن في الدّاخل في نفسك، لأنك أنت أيضًا تحمل ذات الجراح ذات الرّائحة الكريهة ذات الظلمة. لأننا نحن جميعاً أولاد ذلك الجنس المظلوم، وجميعنا نتشارك في الرّائحة الكريهة عينها. فالآلم الذي كابده ذاك، كابدناه نحن جميعاً لأنّنا من زرع آدم إذ قد عَمِّنا مثل هذا الألم، كما يقول إشعيا: «لَيْسَ جُرْحٌ وَلَا كَدْمَةٌ وَلَا ضَرْبَةٌ مُلْتَهِيَةٌ لَهَا مَرْهُومٌ لِيَوْضَعَ وَلَا زَيْتٌ وَلَا ضِمَادَاتٌ» (إش ۱: ۶ س - حسب النّص). هكذا نحن قد جرّحنا بجروح عديم البرء، والرّبُّ وحده هو القادر أن يُداويه. فإنّه من أجل هذا قد جاء هو بنفسه، لأنّ أحداً من القدماء لم يستطع أن يُداوي هذا الجرح؛ فلا التّاموس نفسه ولا الأنبياء، بل هو وحده حين جاء دّاوي ضربة النّفس عديمة الشّفاء^(۱).

٩ - ألا فلنقبل إذا إلينا ورثنا، الشّافي الحقيقي، الذي وحده القادر، حين يأتي، لأنّ يشفي نفوسنا، لأنّه قاسي^(۲) كثيراً من أجلنا. فإنّه أبداً يقرع أبواب قلوبنا لكيما نفتح له، وحين يدخل يستطيع في نفوسنا^(۳)، فنغلق قدميه وندفعهما^(۴) ويصنع عندنا منزلأ^(۱). فإنّ الرّبُّ ههنا يوتيغ

(۱) هذا المعنى نجده متكرراً في رسائل القديس أنطونيوس، انظر: الرّسالة: ۲: ۳؛ ۲: ۶؛ ۲: ۲.

(۲) يزيد هذا الفعل في زمن *perfect* *κεκοπιακώς*، والذي يفيد حدوث الفعل في الماضي واستمراره في الحاضر، ما سيظهر جلياً في ما يلي مباشرة.

(۳) انظر: رؤ: ۳: ۲۰.

(۴) انظر: لو: ۷: ۳۸؛ يو: ۱۲: ۳.

ذاك الذي لم يغسل قدميه^(٢)، ويقول في موضع آخر أيضاً: «هَا أَنَا ذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ، إِنْ فَتَحَ أَحَدٌ لِي، سَأَدْخُلُ إِلَيْهِ» (رؤ ٣: ٢٠) - حسب النَّصْ. لأنَّ لأجل هذا احتمل أنْ يتَأَلَّمَ كثِيرًا، مُسْلِمًا جسده إلى الموت ومُفتدياً إِيَّانا من العبوديَّة، لكيما يأْتِي إلى نفوسنا ويصنع فيها منزلًا. لهذا ففي الدِّينونة يقول الرَّبُّ لأولئك الذين عن يساره، المسلمين من قبِيلِه إلى جَهَنَّم مع إبليس: «كُنْتُ عَرِيبًا فَلَمْ تَأْوُنِي، وَجَهْوَاعًا فَلَمْ تُطْعِمُونِي، وَعَطْشًا فَلَمْ تَسْقُونِي» (مت ٢٥: ٤٢، ٤٣ - حسب النَّصْ). لأنَّ طعامَه وشرابَه ولياسَه ومنزَلَه وراحتَه إنَّما هي في نفوسنا، لذلك فهو يقع على الدَّوام مويَّداً أنْ يدخل إلينا. فلنقبله إذا ولنُدْخِلْه داخْلَنا، لأنَّ طعامَنا نحن أيضًا وشرابَنا وحياتَنا الأَبديَّة إنَّما هي هو ذاتُه. وكلَّ نفسٍ لا تَقْبِلُه في داخْلِها منذ الآن وتَهْبِه الرَّاحَة، بل بالأَحرى تجد راحتَها هي فيه، فليس لها ميراثٌ في ملَكوت السَّمَاوَات مع الْقَدِيسِين، ولا يمكنها أنْ تدخل إلى المدينة السَّمَاوَية. لكنَّ أنت، يا ربِّي يسوع المسيح، أَدْخِلْنا إِلَيْها لنُمَجِّدَ اسمَك مع الآب والرُّوح القدس إلى الدُّهُور، آمين.

(١) انظر: يو ١٤: ٢٣.

(٢) انظر: لو ٧: ٤٤.

العظة الحادية والثلاثون

المسيح يجمع شَتَاتَ أَفْكَارِ النُّفُسِ

[الَّذِي يَلْعَنْ يَجْبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَغَيِّرَ بِذَهْنِهِ وَيَجْمِعَ فِي اللَّهِ كُلَّ أَفْكَارِهِ، فَفِي هَذِينِ الْأَمْرَيْنِ تَقْوِيمُ حَقًا كُلَّ عِبَادَةٍ لِلَّهِ]

[ب] فَلَنْضَعْ رِجَاءَنَا دَوَامًا عَلَى الرَّبِّ وَحْدَهُ

[أ] المسيح يجمع إليه أفكار النفس



[أ] المسيح يجمع إليه أفكار النفس

١ - إِنَّ الَّذِي يُؤْمِنْ يَجْبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَتَغَيِّرَ فِي نَزَعِيهِ، بِتَغْيِيرِ قلْبِهِ، فَيَنْتَقِلُ مِنَ الْمَرَأَةِ إِلَى الْحَلَوَةِ؛ وَأَنْ يَتَذَكَّرَ كَيْفَ أَنَّ الْأَعْمَى شُفِيَّ^(١)، وَنَازَفَةَ الدَّمِ بِالْمُشْلَلِ حَلَمَا مَسَّتْ هَدْبَهُ نَالَتِ الْبُرْءَ^(٢)، وَطَبِيعَةَ الْأَسْوَدِ رُؤَوضَتْ^(٣)، وَطَبِيعَةَ النَّارِ تَلَاشَتْ^(٤)، وَعَيْنَ المَاءِ الْمُرَّةِ حَلَّيَتْ^(٥). لَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَيْرُ - مُتَنَاهِي الْخَيْرِ، ذَاكَ الَّذِي نَحْوُهُ يَنْبَغِي لِكَ أَنْ تَجْمِعَ ذَهْنَكَ

(١) انظر: مر ٤٦:١٠.

(٢) انظر: مر ٥:٢٥.

(٣) انظر: دا ٦:٢٢.

(٤) انظر: دا ٣:٢٤.

(٥) انظر: خر ١٥:٢٥.

وأفكارك ولا تعتبر أمراً آخر سوى أن تُعمل فكرك في انتظاره.

٢ - فلتكن النفس إذا مثلَ مَن تجمع أولادها المائين وتصح لأفكارها الطائشة بفعل الخطيئة، ولتدخل بها إلى بيت جسدها، متطرفة الرَّبُّ في كلِّ حين بصوم ومحبة، متى يأتي ليجمعها بالحق^(١). وحيث إنَّ ما سيكون هو غير واضح، فلتضع رجاءها بالأَكْثَر على رُبَّنا، متَّكلةً عليه حسناً. ولتذكرة كيف أنَّ راحاب أيضاً رغم أنها كانت مع الغرباء صدَّقت الإسرائيِّلين ومحبَّت مستحقةً أن تكون معهم^(٢)، بينما تحول بنو إسرائيل بمحبتهم إلى مصر. فكما أنَّ سُكُنَي راحاب مع الغرباء لم تضرَّها شيئاً، بل لقد جعلها إيمانُها جديرةً بنصيب بني إسرائيل؛ هكذا لا تضرُّ الخطيئة شيئاً أولئك الذين في رجاء وإيمان ينتظرون الفادي، الَّذِي متى جاء ينْقُلُ أفكارَ النَّفْس ويجعلها إلهيَّة سماوَيَّة صالحة، ويُعِلِّم النَّفْس الصَّلاة الحَقَّة الَّتِي لا شُرودَ فيها ولا طَيْش. فإنه يقول: «لَا تَخَفْ، أَنَا أَسِيرُ قَدَامَكَ، وَاجْبَلَ أَمْهَدُ، وَالْأَبْوَابَ التُّخَاسَ أَحْطَمُ، وَالْمَغَالِقَ الْحَدِيدَ أَكْسِرُ» (إش ٤٥: ٢). وأيضاً: «إِحْرِزْ لِنَفْسِكَ أَنْ لَا يَكُونَ فِي قَلْبِكَ كَلِمَةٌ خَفِيَّةٌ أَثِيمَةٌ،

(١) يسوق أنسا مقارنة نفس هذا التَّشبِيه في قول آخر: "... مثل ألم تجمع صغارها في بيتهما لكي تُثْرِيَهم وتحْدِّيَهم، هكذا النفس عليها أن تجمع من كلِّ جهة أفكارها الشَّاردة وكائناً أطفالها هي ... ولا تكفت عن ذلك بقدر إمكانها". (فردوس الآباء ج ١ - الطَّبعة الأولى ٢٠٠٥ ص ١٨٦)

(٢) انظر: يش . ٢

أن لا تقول في قلبك: «هذِهِ الْأَمْمَةُ كَثِيرَةٌ وَقَوِيَّةٌ» (تث ١٥: ٩؛ ٧: ٦ س - حسب النصّ).

٣ - فإن كنّا نحن لا نرتخي ولا نسلّم مراجينا لأفكار الشّرّ التي بلا ترتيب، بل بإرادتنا نجتذب ذهننا غاصبين أفكارنا نحو الرّبّ، فبلا مراء سوف يأتي الرّبّ إلينا عن رضى ويجتمعنا بالحقّ إلى نفسه، لأنّ كلّ مرضاته وعبادته إنما تكون في الأفكار. لذلك اجتهد أن تُرضي الرّبّ، منتظرًا إيمانًا على الدّوام في داخلك، وملتمسًا إيمانًا في أفكارك، وغاصبًا إرادتك ونیتک ومُلزّماً إيماناً حتى تسمو إليه في كلّ حين. وانظر كيف أنه يأتي إليك ويصنع عندك منزلًا^(١)، لأنّك على قدر ما تجمع ذهنك في طلبـه، يكون هو مُلزّماً أكثر كثيراً - من قبل أحشائه وصلاحـه - أن يأتي إليك ويَهْبـك الراحة، إذ إنّه يقف ناظرًا إلى ذهنـك وأفكارـك وخواطرك ومراقبـاً من على كيف تطلبـه، أمنـ كلّ نفسـك وبلا كسلٍ ولا تراخٍ.

[ب] فلنضع رجاعـنا دواماً على الرّبّ وحده

٤ - فإذا ما رأى اجتهاـدك في طلبـه، حينـتـ يتجلـى ويظهـر لك وينـتـلك

(١) انظر: يو ١٤: ٢٣.

معونته ويهبُك الغَبَة، منقذًا إِيَّاك من أعدائك. لِأَنَّه لَمَّا ينظر أَوْلًا طلبك إِيَّاه وكيف أَنَّ كُلَّ انتظارك هو له بلا انقطاع، يُعِلِّمك هكذا ويعطيك الصَّلاة الحقيقية، والمحبة الحقيقة التي هي هو نفسه صائِرًا فيك كُلَّ شيء: الفردُوس و«شجرة الحياة»^(١)، الجوهرة والإكليل، البناء والفالح، المتألم^(٢) والسمنة عن الألم، الإنسان والإلة، الخمر و«الماء الحي»^(٣)، الحمل والعريس، رجل الحرب والسلام، المسيح «الكُلُّ في الْكُلِّ»^(٤). وعلى غرار الطِّفل لا يعرف أن يخدم نفسه أو يتولى رعايتها، بل فقط يرثُوا إلى آمه باكيًا، متى تتحرّك أحشاؤها نحوه وتحمله؛ هكذا النُّفوس المؤمنة تضع رجاءها أبدًا على الرَّب وحده، ناسبة إليه كُلَّ بِرِّها. فكما أَنَّه بدون الكرمة يجفُّ الفصن، هكذا أيضًا الذي يريد أن يتبرأ بدون المسيح. فكمثال اللِّصّ والسارق الَّذِي «لَا يَدْخُلُ مِنَ الْمَدْخَلِ بَلْ يَطْلُعُ مِنْ مَوْضِعِ آخَر»^(٥)، هكذا الذي يبرأ ذاته بدون ذاك الذي يبرأ^(٦).

٥ - فلنأخذ هذا الجسد ولنجعل منه مذبحًا ونضع فوقه جميع

(١) رو ٢: ٢٢، ٤٧: ١٤.

(٢) وردت هذه الكلمة πάτησύ مَرَّةً وحيدة في الكتاب المقدس، كصفة للمسيح في أغ ٢٦: ٢٣، ٢٣: ٢٣.

(٣) يو ٤: ٤، ١٠.

(٤) أف ١: ٢٣.

(٥) يو ١٠: ١ - حسب النَّصّ.

(٦) داء القَرِيسِينَ أَهْمَّ كَانُوا «يَطْلُبُونَ أَنْ يَتَبَرَّأُوا مِنْ أَنفُسِهِمْ» (رو ١٠: ٣)، وَلَا يَقْرُؤُنَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَبْرَأُنَا (انظر مثلاً: رو ٣: ٤، ٤٢٦: ٤٥، ٨: ٣٣).

مشوراتنا، ولنضرغ إلى الرَّبِّ لكي يرسل من السماء النَّار العظيمةَ غير المرئية فتلتَّهم المذبح وكلَّ ما عليه، ويسقط كلُّ كهنة البعل، الذين هم القوَّات المضادَّة. وحينذاك نصر المطر الروحاني آتياً إلى النَّفس مثلَ أثَرِ إنسانٍ^(١)، حتَّى يتمَّ فينا موعدُ الله، كما قيل في النبي: «سَأَقِيمُ خَيْمَةَ دَاؤَدَ السَّاقِطَةَ وَأُعِيدُ بَنَاءَهَا وَأُعِيدُ بَنَاءَ رَدِمَهَا» (عا ٩: ١١ س؛ أع ١٥: ١٦). وذلك لكي يُشرِّق الرَّبُّ، بصلاحه هو، على النَّفس التي تختبَط في ظلمةٍ وعتمةٍ وقد أسكنَّها جهلُها، حتَّى إذا ما استفاقت سلَكَت حينئذ بلا عترة مُكمِّلةً أعمالَ النَّهار وأعمالَ الحياة. لأنَّه حينما تغذى النَّفس فهناك تأكل، إمَّا من هذا الدَّهر أو من روح الله، والله هناك يغذى ويهيا ويستريح ويسكن.

٦ - أخيراً فليتحنَّ كلُّ واحدٍ نفسه - إنَّ يَشأُ - من أين يغذى وأين يهيا وفي أيَّة سيرة هو، لكي بهذا، إذ يعي ويقتني التَّمييز بتدقيق، يُسلِّم نفسه بالائمَام إلى الوجهة المُفضِّية إلى الصَّلاح. فانتبه لذاتك في صلاتك حين

(١) انظر: مل ١: ٤ - ٣٨ س. ولننجبَّ أيضًا من مدى تطابق هذا القول مع قول الأنبياء أنطونيوس أبي أنا مقار: [أجعلوا هذا الجسد الذي أنتم لا بسوه مجمرةً ترفعون فيها جميع أفكاركم ومشوراتكم الرَّديعة وتضعونها أمام الرَّبِّ ليرفع قلوبكم إليه. اطلبوا منه بكلٍّ قوَّة العقل أن ينعم عليكم بإيمان ناره غير الميولانية من العلاء إليكم، لتحقِّقَ كُلُّ ما في تلك الجمرة وتطهُّرها. فيخاف كهنة البعل المضادُّون وبهربون من أمامكم كهروهم أمام إيمانِ النبي]، وحيثند تنتظرون أثر إنسان طالعًا بالملائكة من ينبوع الإلهي ويعطِّر لكم المطر الروحاني الذي لروح البارقليط] (الرسالة السادسة - الفقرة الثامنة).

تصلي، مُستقسيماً أفكارك ونَرْعاتِكِ مِنْ أين هي: من الله أَمْ مِنْ المُضاد؟ وَمَنْ الَّذِي يُمْدُدُ قلبك بِغَدائِهِ: الرَّبُّ أَمْ «وَلَاهُ الْعَالَمُ عَلَى هَذَا الدَّهْر»^(١). فَحِينَ تَمْتَحِنِ ذَاتِكِ، أَيَّتِهَا النَّفْسُ، وَتَعْرِفُنِها عَنْ كِتَابٍ، اطْلُبِي مِنَ الرَّبِّ بِوَجْهٍ وَشَوْقِ الْفُؤُوتِ السَّمَاوِيِّ وَالنَّمَوِّ وَعَمَلِ الْمَسِيحِ، بِحَسْبِ الْمَكْتُوبِ: «وَأَمَّا مَوْطِئُنَا^(٢) نَحْنُ فَهُوَ فِي السَّمَاوَاتِ» (في ٣: ٢٠)، لَكِنْ لَيْسَ بِالشَّكَلِ وَالْمَظَهُرِ كَمَا يَظْنُ قَوْمٌ. فَهَا هُمُ الَّذِينَ لَهُمْ فَقْطُ صُورَةُ التَّقْوَى^(٣)، هُمْ هِيَ أَفْكَارُهُمْ وَأَذْهَانُهُمْ تَشَابِهُ الْعَالَمَ، هُوَ تَرَاعِزُ نَيَّاَتِهِمْ وَاضْطِرَابُهُمْ الْمُتَقْلِبَةُ وَجُبْنُهُمْ^(٤) وَخَوْفُهُمْ، بِحَسْبِ الْمَكْتُوبِ: «سَوْفَ تَكُونُ مُتَنَاهِداً وَمُرْتَعِداً فِي الْأَرْضِ» (تك ٤: ١٢). فِي حَسْبِ عَدْمِ إِيمَانِهِمْ وَاضْطِرَابِ أَفْكَارِهِمُ الَّتِي لَا تَهْدَأُ، يَوْجِدونَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنْزَعِجِينَ مِثْلِ باقيِ جَمِيعِ الْبَشَرِ، فَإِنَّهُ بِالشَّكَلِ وَحْدَهُ وَمَا يَدْعُونَهُ مِنْ أَفْكَارٍ وَمَا يُتَمَمِّمُونَهُ مِنْ أَعْمَالٍ جَسَديَّةٍ تَخَصُّ الْإِنْسَانَ الظَّاهِرَ يَخْتَلِفُ أَمْثَالُ هُؤُلَاءِ عَنِ الْعَالَمِ، أَمَّا بِقُلُوبِهِمْ وَبِأَذْهَانِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَنْجِرُونَ فِي الْعَالَمِ وَيُطْوِقُونَ تَمَامًا بِأَغْلَالِ أَرْضِيَّةٍ وَاهْتِمَامَاتٍ لَا غَنَاءَ فِيهَا، عَيْرَ حَائِزِينَ فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى السَّلَامِ الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ، كَمَا

(١) أَف ٦: ١٢ - حَسْبِ النَّصِّ.

(٢) انظر: حاشية ١ صفحَةٌ ١٧٨ - العَظَةُ ٥.

(٣) انظر: ٢ في ٥.

(٤) *θειλία* = الْجَنِينُ، الْجَنِينَةُ. وَتَحدِّدُ الإِشَارةُ هُنَا إِلَى أَنَّهَا وَرَدَتْ مَرَّةً وَاحِدَةٍ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، فِي ٢ في ١: ٧، وَجَانَبَ التَّوْفِيقَ مُتَرْجِمُ النُّسْخَةِ الْبَيْرُوَتِيَّةِ، فَتَرَجَّمَهَا "رُوحُ الْفَشْلِ"، بِدَلَالٍ مِنْ "رُوحِ الْجَنِينِ".

يقول الرَّسُولُ: «فَلَيْمِلِكْ سَلَامُ اللَّهِ فِي قُلُوبِكُمْ» (كو ٣: ١٥ - حسب النَّصّ) - ذلك السَّلامُ الَّذِي يَمْلِكُ عَلَى أَذْهَانِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُجَدِّدُهَا ثَانِيَةً في مُحَبَّةِ اللَّهِ وَمُحَبَّةِ جَمِيعِ الإِخْرَوَةِ. وَالْمَجْدُ وَالسُّجُودُ لِلآبِ وَالابنِ وَالرُّوحِ الْقَدِيسِ إِلَى الدُّهُورِ، آمِينَ.

العظة الثانية والثلاثون

مجد الأجساد المقاومة، وتقى الله لخلاص الجميع

[مجد المسيحيين يمكث منذ الان في نفوسهم، وهو عتيد ان يظهر في زمن القيمة
ويمجد أجسادهم بما يتناسب وتقواهم]

- [أ] الروح القدس يسريل الأجساد المقاومة
- [ب] ظل السماويات، والسماويات عندها
- [ج] النفس العادمة شرِكة الروح مداعاة للرِّباء

١) [الروح القدس يسريل الأجساد المقاومة]

١ - إن لغات هذا العالم مختلفة، فلكل أمّة لغتها الخاصة، أمّا المسيحيون فيتعلّمون لغة واحدة جديدة ويتأدّبون جميعاً تحت حكمـة واحدة - حكمـة الله التي ليست من هذا العالم ولا من هذا الدّهر الزّائل. وبينما يسلّك المسيحيون في هذا العالم يختطفون إلى مناظر سماوية جديدة تماماً وإلى أمجاد وأسرار، متّخذين فرصـة لذلك من الأمور المنظورة. فإنّه يوجد أنجاس حيوانات داجنة كالقرس والثور، ولكلّ منهم جسده الخاصّ وصوته الخاصّ؛ نفسُ الأمر أيضاً مع الحيوانات البريّة: فللاسد جسده الخاصّ وصوته الخاصّ، وبالمثل للؤلؤ؛ وبين الزواحف بئون شاسع؛ وفي الطّيور

أجسام كثيرة: فجسم النسر وصوته شيء، وشيء آخر هو جسم الصقر وصوته؛ نفس الأمور أيضاً في البحر، فتَمَّة أجسام عدّة لا يشبه أحدها الآخر؛ وفي الأرض بذور كثيرة ولكل بذرة ثمرة خاصة، وهنالك أشجار عديدة، لكن توجد أشجار أكثر ضخامة وأشجار أقل حجماً، بل وفاكهتها أيضاً متباعدة فيما بينها أشد التباين، فلكل منها مذاقه الخاص؛ وهنالك أعشاب وفيما بينها اختلافات جمة، ففيما يختص بعضها للعلاج، يستخدم البعض الآخر للتتعطر ليس إلا؛ فكل واحدة من الأشجار تخرج من باطنها أرديتها الظاهرة من أوراق وزهور وثمار، بالمثل أيضاً البذور من داخلها تحمل أردية ظاهرة، والزنابق تخرج من داخلها أرديتها وتربيتها العشب.

٢ - هكذا أيضاً كلُّ المسيحيين الذين حُسِبوا أهلاً منذ الآن لأن يقتنوا للباس السماوي، يمتلكون ذلك عينه ماكنا في نفوسهم. وحيث إنَّ الرَّب قد سبق فَعَيْنَ أنَّ هذه الخليقة تنحل وأنَّ السماء والأرض تزولان، فاللباس السماوي الذي منذ الآن يكسو النفس ويمحوها والذى اقتناه المسيحيون في قلوبهم، هو بعينه سيكسو ويمحى أيضاً الأجساد المجردة، تلك التي ستقوم من القبور في ذلك اليوم، أعني الأجساد المُقاومة. فواضح أنَّ هذا الذي يناله المسيحيون منذ الآن كعطاية وليس سماويٌ غير منظور سيسربل آنذاك

تلك الأجساد أيضًا بالمجده! فكما أنَّ الأغنام والجمال حالما تجد عشباً تُقِيل على الطعام بنَهَم وتحرُّق وتَدْخُر منه قوتاً لذواتها، وفي وقت الجوع تُصعد ذلك عينيه من جوفها وبختره، فما قد سَبَقَت وحرَّقتْه يكون بمثابة غذاء لها؛ هكذا أيضًا كُلُّ الَّذِين اخْتَطَفُوا الآن ملَكُوت السَّمَاوَاتِ^(١) وتذَوَّقُوا الطَّعَام السَّمَاوِيَّ، عائشين بالرُّوح، سيَحْظُون في زمان القيمة بذلك الرُّوح عينه ساترًا لجميع أعضائهم ومُدْفِنًا لها.^(٢)

٣ - فكما أسلفنا القول عن تمايز البدور، أنَّ الكثير منها يُزرع في أرضٍ واحدة ويعطي ثمارًا متباعدة لا يشبه أحدها الآخر؛ بالمثل أيضًا فيما يخصُّ الأشجار، فمنها ما هو أكثر ضخامةً ومنها ما هو أقلَّ حجمًا، لكنَّ أرضاً واحدة تُمْسِك بجذورها جميعًا؛ هكذا أيضًا الكنيسة السَّمَاوِيَّة: فلن تكون واحدة إلَّا الله لا حصر لها، فكلُّ واحدٍ مُزدانٌ بِمَجْدِ الرُّوح القدس على نحو ممِير^(٣). فعلى منوال الطُّيور تُخْرِج من أجسادها أرديَّةً أجنحتها، وفارقَ جَلْيَّ فيما بينها، إذ يطير البعض أكثرَ ذُنُوبًا من الأرض بينما يُحْلِق البعض الآخر

(١) انظر: مت ١١: ١٢.

(٢) انظر: العظة ٥: ٧ - ١٢.

(٣) في قول آخر له في بستان الرُّهبان، يشير أنساً مقار أيضًا إلى نفس هذه الحقيقة قائلاً: [كما أنَّ بستانًا واحدًا يستنقى من ينبوع واحد، تنمو فيه أثمارٌ مختلفة مذاقها وألوانها؛ كذلك الرُّهبان فإنهم يشربون من عينٍ واحدةٍ، وروحٍ واحدٍ ساكنٍ فيهم، لكنَّ ثرثهم مختلفٌ، فكلُّ واحدٍ منهم يأتي بشمرة على قدرِ الفيض الممعطى له من الله]. (بستان الرُّهبان - قول ٣٤١).

في الأعلى؛ أو على غرار السماء وهي واحدةٌ لكنّها تحوي في ذاتها نجوماً كثيرة، منها ما هو أشدُّ لمعاناً وما هو أكبر حجماً وما هو أقل، وكلُّها مثبتة في السماء؛ هكذا أيضاً القدِيسون هم متأصِّلون على نحوٍ متباين في سماء الالهوت الواحدة وفي أرضٍ غير منظورة. بالمثل بالنسبة إلى آدم^(١) نفسه فالآفكار التي تأتي عليه متباعدة، أمّا الروح الذي يأتي إلى القلب فيصنع فكراً واحداً وقلباً واحداً، لأنَّ الآفكار التي من أسفل وتلك التي من فوق تتدبَّر تحت قيادة روح واحد.

[ب] ظلّ السماویات، والسماءات عینها

٤ - فما هو المراد بالحيوانات التي تشُقُّ ظلّها؟ إمّا بظفرَين تسلك الطريق بلياقة، فهي موضوعة رمزاً للذين يسلكون في النّاموس باستقامة. فكما أنَّ ظلَّ الجسد هو من الجسد نفسه لكنَّه لا يقدر أنْ يُتّم خدمة جسدية - إذ لا قدرة للظليل أنْ يغتصب جروحاً ولا أنْ يُمدُّ بالغذاء أو يتکلَّم - غير أنه من الجسد نفسه ويسبق فيعلن قُدومَ الجسد؛ هكذا أيضاً النّاموس العتيق هو ظلٌّ للعهد الجديد، أمّا الظلُّ فيسبق ويعلن الحقيقة لكنَّه

(١) المقصود: الإنسان.

(٢) انظر: لا ١١ : ٣.

ليس له «خدمة الروح»^(١). فإن موسى ما كان ليستطيع - وهو لابن الجسد - أن يدخل إلى القلب وينزع ثياب الظلمة التّجسة، فليس من يخلُ قوَّة الظُّلْمَةِ الشَّرِّيرَةِ سوى ما هو روح، ونارٌ من نار. فالختان الذي في ظلِّ النَّاموس يشير إلى الختان الحقيقى الوشيك - ختان القلب، ومعموديَّة النَّاموس هي ظلٌّ للأمور الحقيقة، لأنَّ تلك المعموديَّة تغسل الجسد، أمَّا هنا فمعموديَّة النَّار والروح يُطهِّر العقل الذي قد تنجَّس وتنغسله.

٥ - هناك: كاهن متسريل بالضعف يدخل إلى الأقدس، ليقدم ذبائح من أجل نفسه ومن أجل الشعب^(٢)؛ وهنا: المسيح، رئيس الكهنة الحقيقي، قد دخل مرأة واحدة إلى المسكِن غير المصنوع بيدِ والمذبح الفوقي^(٣)، وهو مستعدٌ أن يُطهِّر الذين يسألونه والضمير الذي قد تدنس. لأنَّه يقول: «سأكون معكم إلى انتهاء الدَّهر» (مت ١٨: ٢٠) - حسب النَّصّ). فإنَّ رئيس الكهنة كان له على صدره حجران كريمان، وكان يحمل أسماء رؤساء الآباء الائني عشر^(٤). فالذي قد صار «هناك» هو

(١) كوكو: ٣: ٢.

(٢) انظر: عب: ٥، ٢.

(٣) انظر: عب: ٩، ١١، ١٢.

(٤) انظر: خر: ٢٨، ٩، ١٠، ٢٩.

مثال، لأنَّه هكذا الرَّبُّ أيضًا، بعد أن تسرِّبل بالرُّسل، أرسلهم مبشِّرين وكارزين للعالم أجمع. فها أنت ترى كيف أنَّ الظِّلَّ يُشير إلى الحق الوشيك. فعلى شَاكِلَةِ الظِّلِّ لا يُسْدِي خدمةً ولا يُبرئ أتعابًا؛ هكذا النَّاموس العتيق ليس ب قادرٍ أنْ يُبرئ جراحاتِ النَّفْس وأتعابها، لأنْ لا حياة له.

[ج] النَّفْس العاديَّة شَرِكَةُ الرُّوح مَدْعَةٌ لِلتَّرَاءِ

٦ - فحينما يتَّحد شينان معًا يُتَّجَان شيئاً ما كاملاً، كالعهدين مثلًا. فعلى صورة الله وشَبَهِه قد صار الإنسان^(١)، والإنسان له عينان وحاجبان ويدان وقدمان، فإذا ما عَرَضَ أن يكون ذا عَيْنٍ واحِدَةٍ أو يَدٍ واحِدَةٍ أو قدمٍ واحِدَةٍ، بات كالْمُشَوَّهِ؛ أو على مثال الطَّائر إذا ما كان له جناحٌ واحد، فما يستطيع بجناحٍ واحد أن يطير؛ هكذا أيضًا طبيعة البشر إذا ما لِبَثَت بمفردها عُريانةً، ولم تَنَلْ خُلْطَةَ الطَّبِيعَة السَّماوِيَّة وشَرِكَتَها، فإِنَّمَا لَا تُقْوِمُ شيئاً بل تقع عريانةً ومشوهةً في طبيعتها في ذَنَسٍ كثير. لأنَّ هذه النَّفْس قد دُعِيت هيكلًا لله ومسكناً له وعروساً للملك، لأنَّه يقول: «إِنَّمَا سَأَسْكُنُ فِيهِمْ وَأَسِيرُ بِيْنَهُمْ» (٢٦: ٦). فهكذا سُرُّ الله، إذ لَمَّا نزل من السَّماوات المقدَّسة احتوى طبيعتك العقلية، أي جسدك الذي من الأرض، ومنزجه بروحه الإلهي، لكي تَقْبَلَ أنت التَّرَاءِ أيضًا النَّفْس

(١) انظر: تك ١: ٢٦.

السماوية. وعندما يكون لنفسك شرکة مع الروح القدس وتدخل النفس السماوية إلى نفسك، حينئذ تكون إنساناً كاملاً في الله ووارثاً وأبناً.

٧ - فكما أنَّ عظمة الله وعدم محدوديَّه لا تحيط بها الكائنات الفوقانية ولا السُّفلية؛ هكذا أيضًا رِقة الله، وأنَّه يتضاغر مع المتواضعين والصغار، شيء لا تستطيع إدراكه لا العوالم السماوية ولا الأرضية. لأنَّه كما أنَّ عظمته لا سبيل للإحاطة بها، كذلك أيضًا رقتُه. فقد يدبر الله أن تكون أنت في ضيقاتٍ وألامٍ وجراح^(١)، وهذه الْتِي تَخَالُّها أمورًا مضادة تكون لصالح نفسك. فمثلاً إنْ كنتَ تشاء أن تكون في العالم وتغتنى ثمَّ يصادفك إخفاقٌ، فتبتدىء حينئذٍ تُفَكِّر في نفسك: "حيث إنِّي لم أُصِبْ نجاحًا في العالم فألمض وأهجره وأعبد الله". ثمَّ حين تأتي هنَا تسمع الوصيَّة القائلة: "«بَعْ أَمْلَاكَكَ» (مت ٢١: ١٩)؛ أبغض الشَّرِّكة الجسدانية؛ أعبد الله"؛ حينئذٍ تبدأ تشكر على إخفاقك الْذِي كان في العالم قائلاً: "إنِّي بهذه العلة أوجد مطیعاً لوصيَّة المسيح". ثمَّ إنَّك كما غيرَت ذهنك - جزئياً، من جهة الأمور الظاهرة - واعتزلت العالم والشَّرِّكة الجسدانية؛ هكذا يُعوزك كذلك تغييرُ ذهنك من الاهتمام الجسدي إلى الاهتمام السماوي، ثمَّ تشرع بعد ذلك تفحص ما قد بلغ مسامعك، فلا يكون لك راحةٌ بعد إلَّا فقط في

(١) حرفيًا: "στύγματα" = بقعات، انظر: حاشية ٧ صفحة ٣٠١ - العظة ٢٥.

الاهتمام والجهاد لكي تقتني هذا الذي قد سمعته.

٨ - وحينما تَحْسَب أنك قد صنعت كل شيء باعتزالك العالم، يخاطبك الرَّبُّ قائلاً: ”علام افتخراًك؟ جسدك ونفسك أَمَا خلقُهُمَا أَنَا؟ ذَهَبْتُكِ وفَضَّلْتُكِ أَمَا صنعتُهُمَا أَنَا؟ فما زَعِلْتَ أَنْتَ؟“ فتبتدئ النَّفْس تعرف جهازاً وتتوسل إلى الرَّبِّ وتقول: ”كُلُّ الأَشْيَاء هِيَ لَكَ، الْمُسْكِنُ الَّذِي أَنَا فِيهِ هُوَ لَكَ، ثِيابِي هِيَ لَكَ، مِنْكِ أَغْتَذَى، وَمِنْ لَدُنْكِ أَتَدْبَرُ فِي كُلِّ احْتِياجِي“ . حينئذٍ يبدأ الرَّبُّ حِيَالَ هَذَا أَنْ يَقُولُ: ”أَشْكُرُكَ، فَالْخَيْرَاتُ هِيَ لَكَ، وَالْمُشَيَّةُ الصَّالِحةُ هِيَ لَكَ . وَمِنْ أَجْلِ مُحِبَّتِكَ لِي، إِذَا مَحَدَّثَنِي مَلَادًا لَكَ، هَلَمَّا فَاعْطَيْتَكَ مَا لَمْ تَمْتَلِكْ هَذَا أَنْتَ حَتَّى الْآنِ وَلَا اقْتَنَاهُ بَشَرٌ عَلَى الْأَرْضِ . اقْبَلْنِي أَنَا رَبُّكَ، مَعَ نَفْسِكَ، لَكِ تَكُونُ نَفْسُكَ مَعِي فِي كُلِّ حِينٍ فِرْحَةً وَمُبْتَهِجَةً“ .

[د] الْيَعْمَةُ تُفْسِحُ لِلصِّيقَاتِ لِأَجْلِ الْمُنْفَعَةِ

٩ - فَكَمَا أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمَخْطُوبَةَ لِرَجُلٍ تُحْضِرُ كُلَّ أَمْوَالِهَا وَكُلَّ مَهْرِهَا، مِنْ فَرْطِ مُحِبَّتِهَا، وَتَضَعُهَا بَيْنِ يَدَيِ رَجُلِهَا، وَتَقُولُ هَكَذَا: ”إِنِّي مَا أَمْلِكُ شَيْئاً لِي، فَأَمْوَالِي لَكَ وَمَهْرِي لَكَ وَنَفْسِي وَجَسْدِي لَكَ“ ؛ هَكَذَا أَيْضًا تَكُونُ النَّفْسُ الْحَكِيمَةُ عَذْرَاءَ لِلرَّبِّ وَلَا شَرِكَةً مَعَ رُوحِهِ الْقَدُّوسِ . لَكُنْ

كما أَنَّه لِمَا أَتَى إِلَى الْأَرْضِ تَائِمٌ وَصُلْبٌ، يَنْبَغِي لَكَ أَنْتَ أَيْضًا أَنْ تَائِمَ مَعْهُ. لَأَنَّكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي فِيهِ تَعْتَزِلُ الْعَالَمَ وَتُقْبَلُ عَلَى طَلَبِ اللَّهِ وَاقْتَنَاء التَّمْيِيزِ، بُحَاجَّيْهِ حَرَبًا مَعَ طَبِيعَتِكَ فِي عَوَانِدِهَا الْقَدِيمَةِ، وَمَعَ عَادَاتِكَ الَّتِي وُلِدْتَ بِهَا، وَفِي مَحَارِبِكَ مَعَ عَادَاتِكَ تَلْقَى أَفْكَارًا مَعَادِيَةً لَكَ وَمَحَارِيَةً لِذَهْنِكَ، فَتَجْتَذِبُكَ هَذِهِ الْأَفْكَارِ وَتَطْوِفُ بِكَ فِي الْعَالَمِ الْمَنْظُورِ الَّذِي خَرَجَتَ مِنْهُ؛ فَتَشْرُعُ تَحَادِهَا وَتَحَارِبُهَا، دَافِعًا بِأَفْكَارٍ قُبَالَةً أَفْكَارٍ، وَبِذَهْنٍ قُبَالَةً ذَهْنٍ، وَبِنَفْسٍ قُبَالَةً نَفْسٍ، وَبِرُوحٍ قُبَالَةً رُوحًا، وَهُنَاكَ يَبْلُغُ صِرَاطُ النَّفْسِ أَشْدَهَ^(١).

١٠ - ذَلِكَ أَنَّ الْإِثْمَامَ يُمَاطُ عَنْ قَدْرَةِ الظُّلْمَةِ - قَدْرَةِ كَامِنَةِ مُرَاوِغَةٍ قَابِعَةٍ فِي الْقَلْبِ. إِلَّا أَنَّ الرَّبَّ يَكُونُ قَرِيبًا مِنْ نَفْسِكَ وَجَسْدِكَ وَنَاظِرًا حَرَبَكَ، فَيُسِيرُ إِلَيْكَ بِأَفْكَارٍ سَمَاوِيَّةٍ وَيُبَدِّأُ فِي أَنْ يَهَبَكَ رَاحَةً فِي الْخَفَاءِ، لَكَنَّهُ يَتَرَكَكَ رِيشَمَا تَتَهَذَّبُ. وَفِي هَذِهِ الشَّدَائِدِ عَيْنِهَا تُدَبِّرُ التَّعْمَةُ أَمْرُكَ، وَحِينَ تَبْلُغُ الرَّاهِةَ، تُعَرِّكُ التَّعْمَةُ ذَاهِمًا وَتُرِيكُ أَنَّهُ إِنَّمَا لِأَجْلِ مَنْفَعَتِكَ أَفْسَحَتْ هِيَ لِتَتَدَرَّبَ أَنْتَ. فَكَمَا حِينَ يَكُونُ هُنَاكَ غَلَامٌ لِرَجُلٍ غَنِيٍّ وَلِهِ مُرِبٌّ يَعْذِبُهُ بُرْهَةً

(١) الفعل *ἀγωνία* (ومعه *agonie* بالفرنسية، و*agony* بالإنجليزية) يعني الدُّخُولُ في صراع شديد جدًا يبلغ حدَّ الموت، ولم يرد هذا الفعل في العهد الجديد. في حين وردت الكلمة المشتقة منه (*ἀγωνία*) مَرَّةً وحيدة، وذلك في وصف الصِّرَاعِ العنِيفِ الَّذِي جازَهُ الْمَسِيحُ فِي جَنْسِيْمَانِ (انظر: لو ٤٤: ٤٤).

بجلداتٍ وتَظَهُرُ عَلَيْهِ آثَارُ التَّأْدِيبِ والجُرُوحِ والضَّرَباتِ التَّقْبِيلَةِ إِلَى أَنْ يَغْدُوَ رَجُلًا، لَكِنْ حِينَئِذٍ يَبْدُأُ يَشْكُرُ مُرْسِيهِ؛ هَكُذا أَيْضًا تَؤَدِّبُكَ النِّعْمَةُ تَدِيرِيًّا إِلَى أَنْ تَبْلُغَ إِلَى «رَجُلٍ كَامِلٍ»^(۱).

[ه] الله يُشَدُّ خلاص الجميع

۱۱ - إِنَّ الْفَلَاحَ يُلْقَى بِذَارِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَالَّذِي يَغْرِسُ كَرْمَةً يَرِيدُ أَنْ تَأْتِي كُلُّهَا بِشَمْرٍ، فَإِذَا حَضَرَ أَخِيرًا مِنْ جَلَهُ وَلَمْ يَجِدْ ثُمَّاً تَوْلَاهُ الْحَزْنُ؛ هَكُذا الرَّبُّ أَيْضًا يَرِيدُ أَنْ يَبْدُرَ كَلْمَتَهُ فِي قُلُوبِ الْبَشَرِ. لَكِنْ كَمَا أَنَّ الْفَلَاحَ يَحْزُنُ عَلَى الْأَرْضِ الْعَقِيمَةِ، كَذَلِكَ الرَّبُّ أَيْضًا يَحْزُنُ عَلَى الْقَلْبِ الْعَقِيمِ عَدِيمِ الشَّمْرِ. فَكَمَا أَنَّ الرِّيَاحَ تَحْبُبُ فِي كُلِّ مَكَانٍ عَلَى كُلِّ الْخَلِيقَةِ، وَكَمَا أَنَّ الشَّمْسَ تَشْرُقُ عَلَى الْمَسْكُونَةِ؛ هَكُذا الْأَلَاهُوتُ هُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمُتَوَاجِدٌ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ، فَإِذَا مَا التَّمَسَّتَهُ فِي السَّمَاوَاتِ فَهُنَاكَ تَجْدُهُ فِي أَفْكَارِ الْمَلَائِكَةِ، وَإِذَا مَا التَّمَسَّتَهُ عَلَى الْأَرْضِ تَجْدُهُ هُنَاكَ أَيْضًا فِي قُلُوبِ الْبَشَرِ، عَلَى أَنَّ نَفْرًا قَلِيلًا مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ، مِنْ بَيْنِ كَثِيرِينَ، يَوْجَدُونَ مُرْضِينَ لَهُ. وَالْمَجْدُ وَالْعَظَمَةُ لِلَّآبِ وَالابنِ وَالرُّوحِ الْقَدِيسِ، إِلَى الدُّهُورِ، آمِينَ.

(۱) أَف٤: ۱۳.

العظة الثالثة والثلاثون

الصلوة دعوة إلى رب للحضور

[ينبغي أن نصلِّي إلى الله بلا انقطاع وبانتباه]

[ب] حضور الرَّب وسكناه في القلب

[أ] الصلاة بانتظار قدوم الرَّب



[أ] الصلاة بانتظار قدوم الرَّب

١ - ينبغي لنا أن نصلِّي، لا كعادةً جسديةً ولا باعتياد الصُّرَاخ ولا بتعود الصَّمت ولا بإحناء الرَّكْب، بل أن ننتظر الله بتيقُّنٍ متباهٍ إلى عقولنا، متى يحضر ويفتقد النَّفْس عَبْر جميع مخارجها وطرقها وحواسِها. وهكذا حين تدعو الحاجة لأنْ نصمت وحين تدعو الحاجة لأنْ نصرخ بل حتَّى أن نصلِّي بصياح، فقط ليكن العقل مُثبَّتاً نحو الله^(١). لأنَّه على غِرار الجسد حين يقوم بعملٍ ما، فإنَّه يكون بالكُلِّية منهمكًا فيه ومنصرفًا إليه وأعضاؤه جميعاً يشُدُّ

(١) نجد في كتاب ”فضائل أئمَّا مقار“ - القول رقم ٦١، نظيرًا مطابقًا تقريباً لوصايا أئمَّا مقار هذه، بل وتصادف العبارات عيَّتها بالفاظها، إذ يقول: [يجب على الرَّاهب ألا يرفع صوته في الصَّلوات كعادةً جسديةً... بل ينبغي له أثناء صلاته أن يهتمَ بأن يكون متبه العقل، متظراً متى يأتي الله ويفتقد مخارج النَّفْس وحواسِها وجميع طرقها، هكذا متى حان الوقت لنصمت أو لنصرخ في الصلاة، ليكن العقل ساهراً منتظرًا الله كلَّ حين]

(Amélineau, Histoire des Monastères de la Basse-Égypte - p.174)

بعضها أَرَّ بعض؛ هكذا أيضًا فلتشَّلِم النَّفْسُ ذَاكَهَا بالكَلِيَّة إِلَى طلب الرَّبِّ ومحبَّتِه، لا تُشَتِّتها الأَفْكَارُ ولا تُطِيشُ بِهَا، بل تجتهد هي بِكُلِّ مَا لَهَا مِن قُوَّةٍ وتجمع ذَاكَهَا مَعَ أَفْكَارِهَا وتنكرَسُ لانتظار المَسِيحِ.

٢ - وهكذا يشرق هو عَلَيْهَا، مُعلِّمًا إِيَّاهَا الْطَّلَبُ الْحَقِيقِيُّ، ومعطِيًّا لها الصَّلَاةُ النَّقِيَّةُ الْرُّوْحَانِيَّةُ الْلَّاتِقَةُ بِاللهِ، و«السُّجُودُ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ»^(١). لكنَّ كَمَا أَنَّ الَّذِي يَتَّخِذُ التِّجَارَةَ مهنةً لَا يَقْنَعُ بِوسيَّلَةٍ لِلرِّيحِ مِنْ جَهَّةٍ وَاحِدَةٍ، بل يَسْعَى حَيْثِيًّا لِكَيْ يَسْتَرِيدَ الرِّيحَ وَيَضَاعِفَهُ مِنْ كُلِّ جَهَّةٍ، فينصرفُ مِنْ هَذِهِ الْوَسِيَّلَةِ إِلَى تِلْكَ، وَيُسْرِعُ مِنْ هَذِهِ الْمَسْلِكِ إِلَى ذَاكَ، وَيَسْعَى مُتَخَطِّيًّا عَلَى الدَّوَامِ مَا لَا تَقْعُدُ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ أَكْثَرَ رَبْحًا؛ هكذا نحنُ أَيْضًا فلنْهَيِّءُ نفوسَنَا بِشَتَّى السُّبُلِ وَبِحِذْقٍ لِكَيْ نُرِبِّي الرِّيحَ الْحَقِيقِيَّ العَظِيمِ، أَيِّ اللهُ، الَّذِي يَعْلَمُنَا أَنْ نَصْلِيَ بِالْحَقِّ. فَإِنَّهُ بِهَا يَسْتَرِيدُ الرَّبُّ لَعْزَمَ النَّفْسِ الصَّالِحِ، جَاعِلًا مِنْهَا كَرْسِيًّا مُجِدًا يَجْلِسُ عَلَيْهِ وَيَسْتَرِيدُ فَهكذا قد سمعنا من حزقيال النَّبِيِّ عَنِ الْأَحْيَاءِ الرُّوْحَانِيَّةِ الْخَامِلَةِ مُرْكَبَةِ السَّيِّدِ، إِذ يُقدِّمُهَا لِسَاكِلَهَا عِيُونًا كَالنَّفْسِ الْخَامِلَةِ لِللهِ، بَلْ بِالْأَحْرَى الْخَمُولَةِ مِنَ اللهِ، لَأَكَلَهَا تَغْدو كُلُّهَا عِيَّنًا^(٢).

(١) يو ٤: ٢٤.

(٢) انظر: العضة ١ - الفقرات: ١، ٢، ٣، ٩.

[ب] حضور الرب وسكناه في القلب

٣ - وعلى مثال البيت الذي يكون سيده حاضراً فيه، فإنَّ يمتليء من كلِّ اتساقٍ وجمالٍ ومحامٍ؛ هكذا أيضاً النفس التي تقتني سيدها معها وحالاً فيها، تمتليء من كلِّ جمال، لأنَّها تحوز الربَّ مع كنوزه الروحية ساكناً فيها وقائداً لمركبتها. لكنَّ ويلٌ لدارٍ يفارقها سيدها ولا يكون رجُلها حاضراً فيها، فلقد استحالت خرابةً يباباً وغضَّت بكلِّ نجاسةٍ وفوضى، وهناك تسكن «أشباحٌ^(١) وشياطين» كما يقول النبي (إش ١٣: ٢١ س)؛ فالدار الخربة مأوى للقطط والكلاب وكلِّ نجاسة. وويلٌ لنفسٍ لا تنهض من وطأة سقطتها ولا تقبل المسيح، ربِّ البيت الصالح، ساكناً فيها، بل تقع في نجاستها وتحتفظ في داخلها بأولئك الذين يستميلونها ويحملونها على معاداة عريتها ويتغرون إفساد أفكارها عن المسيح^(٢).

٤ - لكنْ حين يرى الربُّ أنَّ النفس تجمع ذاتَها بكلِّ ما أوتيت من

(١) الكلمة اليونانية *εὐφρόνης* هي في أصلها اسم ورد في الأساطير اليونانية لعذاري كمن يسخرُ بعنائهن البخاراء الذين يعبرون بجرirخن، فيستملئون إليهن ثم يذبحنهم. وقد استعملت السُّيُّونية هذه الكلمة لترجمة الكلمات العربية: "الثعام"، أو "البوم"، أو "بنات آوى"، واحتفظت السُّسخة القبطية للعهد القديم بذات الألفاظ اليونانية دون ترجمتها *εὐφρόνης*. وُسُكِّنَ هذه الكائنات في مكانٍ ما كنایةً عن خرابه وإفقاره (على سبيل المثال، انظر: إش ١٣: ٣٤؛ ٢١: ٣٩؛ ٢٧: ٣٩).

(٢) انظر: كوك ١١: ٣.

قوَّة، طالبة الرَّبِّ في كلِّ حين ومنتظرةٌ إِيَّاه لِيلًا ونهارًا وصارخةٌ إليه كما أوصى: «صَلُوا بِلَا انْقِطَاعٍ فِي كُلِّ حَالٍ^(١)» (١٧: ٥ تـس)، فإنه يُنْصِفُها كما وَعَدَ^(٢)، مطهِّرًا إِيَّاهَا ممَّا فيها من شَرّ، «وَيُخْضِرُهَا إِلَيْهِ عَرْوَسًا بِلَا عَيْنٍ وَلَا ذَنَبٍ»^(٣). فإنْ كنتَ تؤمنُ أنَّ هذه الأمور هي حقٌّ، كما هي بالفعل، فانتبه لِذَاتِك، إنْ كانت نفسك قد وجدتِ النُّور قائدًا لها، والماكلَ والمشربَ الحقيقَين اللَّذِين هما الرَّبُّ، وإلا فاطلب ليلًّا نهارًّا لكي تناهله. فحينما تنظر الشَّمس، اطلب الشَّمس الحقيقة، لأنَّك أعمى؛ وحينما تشاهد نورًا، انظر إلى نفسك إنْ كنتَ قد وجدتِ النُّور الحقَّ الصَّالح. فجميع الأمور الظَّاهِرَة إِنَّما هي ظُلُّ للأمور الحقيقة التي للنَّفْس، فإلى جوار الإنسان الظَّاهِر هناك آخرٌ باطنٌ، وهناك أعينٌ قد أعمَها الشَّيْطان، وأذْنُون قد أصْمَئُها، ولقد جاءَ يسوع ليصنع شفاءً لهذا الإنسان الدَّاخلي. له المجد والسلطان مع الآب والروح القدس إلى الدُّهور، آمين.

(١) فَهُمْ أَنْبِيَا مَقَارِ عِبَارَةٍ “παντὶ πᾶν” = في كُلِّ شيء، الواردة في هذه الآية، مرتبطة، لا بما بعدها كما هو وارد في التَّرْجِمَة الْبِرْوَيَّة الدَّارِجَة («صَلُوا بِلَا انْقِطَاعٍ، أشْكُرُوا فِي كُلِّ شيء، ... إِلَه»)، بل بما قبلها: «صَلُوا بِلَا انْقِطَاعٍ فِي كُلِّ شيء، أشْكُرُوا، ... إِلَه». وعَيْنٌ عن القول أنَّه لم تكن هناك علامات ترقيم قديمًا، فلكلِّ واحدٍ أنْ ينقسم كلمات الآية حسبما يفهمها.

(٢) انظر: لو ١٨: ٨.

(٣) أف ٥: ٢٧ - حسب النَّصَنَ.

العظة الرابعة والثلاثون

المدينة التي لها الأساسات

[عن مجد المسيحيين الذي ستؤهل إليه أجسادهم في القيمة وستتنير به مع النفس]



١ - كما أنَّ الأعين الجسدية تنظر كلَّ شيءٍ جَلِيلًا، هكذا أيضًا حاسنَ اللَّاهوَيَّة تكون ظاهرةً ومنظورةً لنفوسِ الْقَدِيسين، تلك المحسنَاتِ بها يمتنجَ المسيحيُّون وفيها يتفكّرون. غير أنَّ ذلك المجد قد أخفى عن الأعينِ الجسدية، وأمامَ للنفسِ المؤمنة فإنه ينكشفُ جَلِيلًا، تلك النَّفْسُ الَّتِي بعدَ أنْ ماتت يقيمها الرَّبُّ من الخطيئة كما يقيم أيضًا الأجسادِ المائنة، ويُعِدُّ لها «سماءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً»^(١) وشمسَ البرِّ، ويُعدِّقُ عليها كلَّ شيءٍ من لاهوته. فنَّمَّة عَالَمٌ حَقِيقِيٌّ وَأَرْضٌ حَيَّةٌ وَكَرْمَةٌ مثمرةٌ وَخَبْزٌ حَيَا وَمَاءٌ حَيٌّ، كما هو مكتوب: «أَوْمَنْ أَنِّي أَغَارِينَ حَيَّرَاتِ الرَّبِّ فِي أَرْضِ الْأَحْيَاءِ» (مز ٢٦: ١٣)، وأيضاً: «وَسَتُشْرِقُ لِحَافِي الرَّبِّ شَمْسُ الْبَرِّ، وَالشِّفَاءُ فِي أَجْنِحَتِهَا» (ملا ٣: ٢٠ س - حسب النَّصّ)، وقد قال الرَّبُّ: «أَنَا هُوَ الْكَرْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ» (يو ١٥: ١)، وأيضاً: «أَنَا هُوَ حُبُّ الْحَيَاةِ» (يو ٦:

(١) رؤ ٢١: ١.

٣٥)، وأيضاً: «مَنْ يَشْرِبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أَنَا أُعْطِيهِ، سَيَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعٌ مَاءٌ يَنْبُغِي إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ» (يو ٤: ١٤).

٢ - لأنَّ كُلَّ مجِيءِ الرَّبِّ كان من أجل الإنسان الذي قد أُميِّت في قبر الظلمة والخطيئة والأرواح النجسة والقوى الشَّرِّيرة، لكي يقيِّم الإنسان، الآن في هذا الدَّهر، ويُحيِّيه ويُطهِّرَه من كُلِّ سُوادٍ وينيره بنوره الخاص ويلبسه ثيابه هو - ثياب الْلَّاهُوت السَّماوِيَّة. أمَّا عند قيام الأجساد التي قد قامَت نفوسُها قبلاً وتَمجَّدت، فحيثُنِي تَمجَّدُ الأجساد أيضًا معها وتستثير مع النَّفس التي قد استثارت منذ الآن وتَمجَّدت، لأنَّ الرَّبَّ يكون بيتهم وخيمتهم ومدينتهم. فلقد لبسو «الْمَسْكِنَ الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ غَيْرَ الْمَصْنُوعِ يَبْدِي»^(١)، أيَّ مَجَدَ النُّورِ الإلهيِّ، كونهم صاروا أبناءَ للنُّورِ، فلن يَرْمُقُوا بعضاً بعينِ شَرِّيرَة، لأنَّ الشَّرَّ يَكُون قد انتفى. هناك «لَيْسَ ذَكْرٌ وَأُنْشَى، عَبْدٌ وَحْرٌ»^(٢)، إذ يتَّجَزَّ الجميع إلى طبيعة ذات صفات إلهيَّة^(٣)، صائرين مُسَحَّاء

(١) كو ٥: ١، ٢.

(٢) غل ٣: ٢٨.

(٣) φύσιν” φύσιν εἰς θεϊκήν”， ويلاحظ أنَّ الكلمات اليونانية التي تنتهي بـ (τή) - تعني: “من له صفة كذا”， فمثلاً: ”الإنسان الروحاني“ (كو ٢: ١٥) تعني ”الإنسان الذي له صفات روحية“، دون أن يفهم من ذلك أنه تحول إلى الروح القدس! كما يلاحظ أيضًا أنَّ أربًا مقارن يستعمل هنا أدلة التعريف φύσιν εἰς την θεϊκήν، أي ”إلى الطبيعة الإلهية“، بل تركها نكرةً بمعنى: إلى طبيعة ذات صفات إلهية، ولكن مفهومه ضمنًا أنها ليست الطبيعة الإلهية بالألف واللام. (عن أحد آباء الدير)

وألهه^(١) وأولاداً لله. هناك سيتكلّم الأخ حينئذٍ بلا خجل مع أخيه بالسلام، لأنَّ جميعهم وجميعهن يكُونون واحداً في المسيح، مستريحين في نور واحد. سيتطلّع الواحد إلى الآخر، وفيما هم يتطلّعون سُيُشَعُون^(٢) للوقت مرّة أخرى بالحق، برؤيتهم الحقيقية للنور الذي لا يغيب عنه.

٣ - هكذا يأشكال كثيرة وأمجاد إلهيّة عديدة ومتنوّعة ينظرون بعضهم البعض، وكلّ واحدٍ سيأخذنـه العجـب ويتهـجـج ابـهاجـاً لا يـنـطـقـ به حين يـتـطـلـعـ إلى مـجـدـ الآخرـ. فـهـا أـنـتـ تـرـى كـيـفـ أـمـجـادـ اللهـ يـجـلـ عنـ الـوـصـفـ والإـدـراكـ، فـهـيـ أـمـجـادـ الثـورـ الـذـي لا يـعـبـرـ عـنـهـ وـالـأـسـرـارـ السـرـمـدـيـةـ وـالـخـيـرـاتـ الـتـيـ لـاـ تـحـصـيـ. فـكـماـ أـنـهـ فـيـ الـأـمـورـ الـظـاهـرـةـ لـاـ يـمـكـنـ لـأـحـدـ أـنـ يـدـرـكـ عـدـدـ مـزـرـوـعـاتـ الـأـرـضـ أـوـ الـبـذـورـ أـوـ الرـهـورـ المـتـنـوـعـةـ، وـيـتـعـدـرـ عـلـيـهـ أـنـ يـقـيـسـ كـلـ غـنـيـ الـأـرـضـ أـوـ يـعـرـفـهـ؛ أـوـ كـمـاـ أـنـهـ لـاـ قـبـلـ لـأـحـدـ مـنـ الـبـشـرـ بـأـنـ يـدـرـكـ الـأـحـيـاءـ الـتـيـ فـيـ الـبـحـرـ أـوـ عـدـدـهـاـ أـوـ أـجـنـاسـهـاـ أـوـ تـنـوـعـهـاـ أـوـ حـجـمـ الـمـاءـ فـيـهـ أـوـ مـقـدـارـ الـأـسـاعـهـ؛ أـوـ كـمـاـ أـنـهـ مـاـ مـنـ أـحـدـ بـقـادـرـ أـنـ يـعـرـفـ عـدـدـ الـطـيـورـ فـيـ الـهـوـاءـ أـوـ

(١) انظر: مز ٨٢: ٦؛ يو ١٠: ٣٤.

(٢) الفعل **exclāp̄w** المستخدم هنا ورد مرأة واحدة في العهد الجديد (وبنفس حالته هنا - زمن المستقبل للغائب الجمع)، حين كان يصف الرَّبُّ أيضًا حالة الأبرار في ملكوت السموات («جِئْتُنِي سَيْمَسْعُهُ الْأَبْرَارُ كَالشَّمْسِ فِي مَلْكُوتِ أَبِيهِمْ» (مت ١٣: ٤٣)). والفعل، بالحاق حرف الجر **ka** به، يفيد إشعاع النُّور إلى خارج لا مجرد الإضاءة، فالأدقة: «يُشَقُّونَ»، أو «يُشَقُّوْنَ».

أجناسها أو تنوعها؛ أو كما أنه ليس مستطاعاً إدراكُ عظمة السَّماء أو «مجموعاتِ النُّجوم»^(١) أو مسارِها كما هو؛ كذلك أيضاً ليس ممكناً أن نتكلّم عن غَيْرِ المسيحيين غَيْرِ المحدود وغير المُدرك أو نستجلِّيه، لأنَّه إنْ كانت هذه المخلوقات قد امتنعت هكذا على فهم البشر وإدراكم، فكم بالحربيِّ الذي خلقها وأعدها. فيجب على الإنسان بالأحرى أن يتهج ويفرح لأنَّ غَيْرَنا مثل هذا قد أعدَّ للمسسيحيين، حتى إنَّ أحداً لا يمكنه أن يتكلّم عنه أو يستجلِّيه. فينبعي لنا إذا بكلِّ همةٍ وتواضعٍ أن تُثْثَطَ نحو ميدان جهاد المسيحيين وننال ذلك الغَيْرَ. لأنَّ ميراث المسيحيين ونصيبِهم هو الله نفسه، لأنَّه يقول: «الرَّبُّ هُوَ نَصِيبُ مِيراثِي وَكَأْسِي» (مز ١٥: ٥). فالمجد إلى الظهور لمن يعطي ذاته ويمزج طبيعته القدُّوسَةَ بِأنفُسِ المسيحيين، آمين.

.٢٩، ١٩: (١)

العظة الخامسة والثلاثون

السَّبْتُ الْحَقِيقِيُّ كَفٌّ عَنِ الشَّرِّ

[عن المُبْتَدَعِ الْمُتَقِيقِ وَالْمُبْتَدَعِ الْجَدِيدِ]



١ - في ظلِّ النَّاموس^(١) المُعْطَى بواسطة موسى أَمْرَ اللَّهُ بِأَنْ يَسْتَرِيعَ كُلُّ أَحَدٍ فِي السَّبْتِ وَلَا يَصْنَعْ شَيْئًا^(٢)، لَكِنْ هَذَا كَانَ مَثَلًاً وَظَلَّلًاً لِلسَّبْتِ الْحَقِيقِيِّ الْمُعْطَى لِلنَّفْسِ مِنَ الرَّبِّ. ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ الَّتِي صَارَتْ أَهْلًا لِلسَّبْتِ الْحَقِيقِيِّ تَكُفُّ عَنِ الْأَفْكَارِ الْقَبِيحةِ النَّجْسَةِ وَتَسْتَرِيعُ مِنْهَا فَتَسْبِيْتُ^(٣) السَّبْتِ الْحَقِيقِيِّ وَتَسْتَرِيعُ الرَّاحَةِ الْحَقِيقِيَّةِ، إِذْ تَكُفُّ عَنِ جَمِيعِ الْأَعْمَالِ الْمُظْلَمَةِ وَتَتَحرَّرُ مِنْ رِيْقَتِهَا. فَإِنَّهُ هُنَاكَ فِي السَّبْتِ الرَّمْزِيِّ حَتَّىٰ وَإِنْ كَانُوا يَسْتَرِيعُونَ جَسْدِيًّا، إِلَّا أَنَّ نُفُوسَهُمْ لَا تَبْرُحُ مُكَبَّلَةً بِالشُّرُورِ وَالْمَفَاسِدِ؛ أَمَّا هَذَا السَّبْتُ الْحَقِيقِيُّ فَهُوَ رَاحَةٌ حَقَّةٌ لِلنَّفْسِ وَقَدْ كَفَتْ عَنِ الْأَفْكَارِ الشَّيْطَانِ وَتَطَهَّرَتْ مِنْهَا وَاسْتَرَاحَتْ فِي رَاحَةِ الرَّبِّ الْأَبْدِيَّةِ وَفَرِحَهُ.

(١) انظر: عب ١:١٠ «النَّاموس إِذْ لَهُ ظُلُلُ الْمُتَبَرِّياتِ الْغَيِّبَةِ».

(٢) انظر: خر ٢٠:١٠.

(٣) من الفعل *oxaffBattit* = تَسْبِيْت (انظر مثلاً: لا ٢٦: ٣٢؛ ٣٥: ٢٣).

٢ - فكما أمر الله آنذاك أنه حتى الحيوانات غير العاقلة نفسها تستريح في السبت^(١)، فالثور لا يربط بالنَّير قسراً والحمار لا توضع عليه أحمال، فحتى الحيوانات غير العاقلة نفسها كانت تستريح من الأعمال الثقيلة؛ هكذا لما جاء الرَّبُّ ووَهَبَ السبت الحقيقى والأبدى، أراح النَّفس الْتِي أنقلتها أحمال إثِيرها وأفكارها النَّجسَة فسقطت تحتها واقتربت - صاغرةً - الأفعال الأثيمَة وكأنَّها مستعبدة لسادَةِ قساةٍ، وعَتَقَها من الأعباء الباهظة الباطلة، أعباء الأفكار النَّجسَة، ورفع عنها النَّير المُرّ، نير أعمالها الأثيمَة، وأراحها بعد أن أغيَّبت في أفكار النَّجاسة.

٣ - فإنَّ الرَّبَّ يدعو الإنسان إلى الرَّاحة قائلًا: «تعالوا يا جمِيع المُتَعَيِّنِينَ والثَّقِيلِيِّينَ الأَحْمَالِ وَأَنَا سَأَرِيكُمْ» (مت ١١: ٢٨ - حسب النَّص). فكُلُّ الأنفس الْتِي تُصدِّقُ ذلك وتُدْنِي منه يُريَّها من كُلِّ الأفكار الثقيلة الفادحة النَّجسَة، فتكفَّ عن كُلِّ إثم وتسِّيِّدُ السبت الحقيقى البهيج المقدس^(٢)، وتعيَّد عيد الرُّوح، عيد الفرح والابتهاج الَّذِي لا يُنطَقُ به، وتعيد عبادة نقيةً مُؤْضيةً لله من قلب نقى، هذا هو

(١) انظر: خر. ٢٠: ٢٠.

(٢) هذه الثلاثة تُعمَّوت لـ"السبت" (الْحَقِيقِي *ἀληθινός*، والبهيج *τρυφερός*، والمقدس *ἅγιος*) وجدناها مجتمعة كذلك، وكُعمِّوت لـ"السبت" ، عند كاتب مصري آخر معاصر للأقبا مقار، هو العلامة ديديموس الصَّفَرِير (٣٩٨-٣١٢ م)، ففي مستهل شرحه للمزمور السادس يتكلَّم عن "السبت الحقيقى البهيج المقدس" (PG 39 - 1176 A).

السبت الحقيقي والمقدس. فلنطلب إلى الله أن ندخل نحن أيضاً هذه الراحة لكي نكف عن الأفكار المخزية الشّريرة الباطلة، حتى بهذا يتسمى لنا أن نعبد الله من قلب نقى ونعيده عيد الروح القدس. فمغبوط إذاً هو ذاك الذي «يَدْخُلُ تِلْكَ الرَّاحَةَ»^(١)؛ والمجد للذى سرّ بهذا - للأب والابن والروح القدس، آمين.

(١) عب ٤: ١١.

العظة السادسة والثلاثون

تباین القدیسین ووحدتهم في آن واحد

[عن القيامة المزدوجة للنقوص والأجسام، وتباین مجد القائمين]



١ - إنَّ قيامة النُّفوس المائتة تَتَمَّمْ منذ الآن، أمَّا قيامة الأجساد فهي في ذلك اليوم. لكنْ كما أَنَّ النُّجوم وإنْ تكون مُثبَّتةً في السَّماء ليست جميعُها متساوية، بل يختلف أحدها عن الآخر في الْمَعْنَانِ والْعَظَمَةِ؛ كذلك أيضًا بين الرُّوحَيْن هنالك درجات، بحسب قامة الإيمان، في ذات الرُّوح، فواحدٌ أَوْفَرُ غَيْرَه من الآخر. والكتاب يقول إنَّ «الَّذِي يتكلَّم بِلِسَانٍ، فَبِرُوحِ اللَّهِ يتكلَّم» (قا: ١ كو ١٤ : ٢)، فهذا روحانيٌ لأنَّه يتكلَّم مع الله؛ «أَمَّا الَّذِي يَتَبَيَّنُ فِيَّنِي الْكَنيْسَةُ»^(١)، وهذا قد صارت له نعمةٌ فائضة، فالأخير «يَبَيَّنُ نَفْسَهُ»^(٢) فقط أمَّا الثاني فيبني نفسيه وقربيه. فمَثَلُ هذا الأمر كمَثَلِ حَبَّةٍ حنطةٍ مزروعة في الأرض وهي نفسيها تُخْرِج من قلبٍ واحدٍ حَبَّاتٍ حنطةٍ كثيرةً ومتباعدةً، وحَيَّ السَّنَابِلُ نفسيها أيضًا بعضها أكبر حجمًا والبعض

(١) كو ١٤ : ٤ .

(٢) كو ١٤ : ٤ .

الآخر أقل، لكن الكل يُجتمع إلى بيدٍ واحدٍ وإلى مخزنٍ واحدٍ، ويتكوّن منه، على تباعته، خبزٌ واحدٌ.

٢ - أو كأنما هنالك مدينة ملأى من النّاس، بعضهم صيّبة أطفال والبعض الآخر رجال أو شباب، لكن الجميع يشربون من ينبع ماءً واحد ويأكلون من خبز واحد ويتسمون هواءً واحداً. أو كمثل أن يكون هناك مصباحان، أحدهما له فوهةتان والآخر له سبعة، لكن حيث يكون النور أشد تكون الإضاءة متباعدة. هكذا كلُّ الذين في نارٍ ونورٍ لا يمكنهم أن يكونوا في ظلام، لكن اختلافاً شاسعاً يكون بينهم. كما لو أنَّ هناك أباً له ابنان، الواحد صبيٌّ والآخر شابٌ، فإنه يرسل الأخير إلى مدنٍ وبلدان، أمّا الطفل فيحرسه على الدّوام إذ لا يستطيع أن يفعل شيئاً. والحمد لله، آمين.

العظة السابعة والثلاثون

فرصة المغفرة للقريب، وكون النفس كنيسة لله

[عن الفردوس، والنّاموس الروحي]

[أ] المغفرة هي تكميل النّاموس

[ب] الرّوح القدس يعلن لنا الخيرات المنتظرة

[ج] النفس المدانة بالفضائل هي كنيسة



[أ] المغفرة هي تكميل النّاموس

١ - إنَّ «مَجْهَةُ الْعَالَمِ» - كما هو مكتوب - «هِيَ عَدَاوَةٌ لِلَّهِ» (يع ٤: ٤)، لذلك تأمر الكتب المقدّسة بأنَّه بكلِّ حَفْظٍ يَحْفَظُ كُلُّ واحِدٍ قلبه^(١)، لكي إذا ما حفظَ الإنسانُ الكلمةَ في قلبه كفردوس تَمْتَعَ بالنّعمة، غيرَ منصتٍ للحياة التي ترحف بالداخل مُؤسِّسًا بما يبعث على اللذّة - تلك اللذّة التي يُولَدُ بواسطتها الغضبُ الذي يقتل الأخ بينما تموت النفس التي ولَدَته^(٢) - بل منصتاً للرّبِّ القائل: «اصرِّفْ عنائك إلى الإيمان والرجاء

(١) انظر: أم ٤: ٢٣ س.

(٢) انظر: ١ يو ٣: ١٥: «كُلُّ مَنْ يُبغضُ أخاه فَهُوَ قَاتِلٌ نَفْسٍ»، ويفهم من قول أئمبا مقار ” بينما تموت النفس التي ولَدَته“ (أي التي ولَدَتَ الغضب) أنَّ مَنْ يبغض أو يبغض أخيه يقتل نفسه روحياً قبل أن يقتل أخيه جسدياً.

اللذين بهما تولَّد محبَّةُ الله ومحبَّةُ البشر، المحبَّةُ التي تمنَّع الحياة الأبدية^(١). إلى هذا الفردوس دخل نوح، حافظًا الوصيَّةَ وعاملاً بها، وبواسطة المحبَّةِ افْتَدَى من الغضب^(٢). هذه الكلمة لِمَا حفظها إبراهيم سمع صوت الله^(٣)، ولِمَا حفظها موسى اقتبل الجد في وجهه^(٤)، وبالمثل لِمَا حفظها داود وجعلَ يعمل بها بسَطَّاً بسبب ذلك سعادته على أعدائه، بل حتَّى شاول الملك طالما كان حافظًا قلبَه كان يفلح، لكن لِمَا خالف أخيراً ترك خائباً. لأنَّ كلمةَ الله تسعى وراء كلِّ واحدٍ بقدرٍ ووفقاً لمعاييرٍ: فبقدر ما يُمسِك بها الإنسان يُمسِك منها، وبقدر ما يحفظها يُحفظ منها.

٢ - لأجل هذا فكلُّ خورُس الأنبياء القدِيسين والرُّسل والشهداء كانوا يحفظون الكلمة في قلوبهم، غير مبالين بشيء آخر بل [غاضبين الطُّرفَ عن الأرضيات وثابتين في وصيَّةِ الرُّوح القدس،]^(٤) مُفضِّلين على الكلِّ محبَّةَ الله والصلاح التَّابعَين من الرُّوح القدس^(٥)، وهذا ليس

(١) انظر: تك ٧.

(٢) انظر: تك ١٢: ١.

(٣) انظر: خر ٣٤: ٣٥، ٢٩.

(٤) هذه الجملة وردت فقط في PG 34, 752 A.

(٥) ”μεντειν προκρίνοντες على الكلِّ محبَّةَ الله“، هنا يُنضر إلى ذاكرتنا جلةً مضيبة مشابهة للأئمَّة أنطونيوس استُخدِم فيها ذات الفعل عينه προκρίνειν، كان يوجهها للجميع بعد أول خروج له من وحدته: [وكان (أنطونيوس) ينادِ الجميع على الأَنْتَصِلُوا προκρίνειν شيئاً ممَّا في العالم على محبَّةِ المَسِيحِ] (سيرة ق. أنطونيوس بقلم البابا أثناسيوس - فصل ٤ (PG 26 – 865A)).

فقط بالقول أو بمحرّد المعرفة، بل بالقول والفعل وبواسطة الأعمال ذاتها؛ فعِوضًا عن الغُنى آثروا الفقر، وعِوضًا عن المجد الهوان، وعِوضًا عن الرَّاحَة الشَّقاء، وعِوضًا عن السَّخط الحَبَّة. فِإِنْهُمْ لَمَّا أبغضوا لذَّاتِ الْحَيَاةِ، باتوا يحبُّون بالحرَّيِّ الَّذِينَ يَنْزِعُونَ عَنْهُمْ هَذِهِ الْلَّذَّاتِ كشِركَاءَ لَهُمْ فِي سعيِّهِمْ نَحْوِ غَايَتِهِمْ، متجنِّبِينَ مَعْرِفَةَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. فِإِنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَكْرُونَ الصَّالِحِينَ وَلَا كَانُوا يَلْوَمُونَ الطَّالِحِينَ، بَلْ يَحْسَبُونَ الْجَمِيعَ مُنَقِّذِينَ لِتَدِيرِ السَّيِّدِ، لِذَلِكَ فَقَدْ صَارَ لَهُمْ مِنْ نَحْوِ الْجَمِيعِ مُودَّةٌ مَتَّاصِلَةٌ. فِإِنْهُمْ لَمَّا سَمِعُوا الرَّبَّ قَائِلًا: «أَغْفِرُوا وَسَيُغْفَرُ لَكُمْ» (لو ٦: ٣٧)، حِينَئِذٍ رَاحُوا يَحْسَبُونَ الْأَمْمَةَ مُحْسِنِينَ، مُغْتَمِّينَ مِنْهُمُ الْفُرَصَ لِتَلِيلِ الْمَغْفِرَةِ. وَلَمَّا سَمِعُوا أَيْضًا: «وَكَمَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمْ افْعَلُوا أَنْتُمْ أَيْضًا بِهِمْ هَكَذَا» (لو ٦: ٣١)، حِينَئِذٍ أَخْذُوا يُحِبُّونَ حَتَّى الصَّالِحِينَ فِي ضَمَائرِهِمْ^(١)، لَأَنَّهُمْ هُمْ أَنفُسُهُمْ حِينَ تَرَكُوا بِرَّهُمُ الْذَّاتِيَّةِ وَالْتَّمْسُوا بِرَّ اللَّهِ، وَجَدُوا تَبَعًا لِذَلِكَ الْحَبَّةَ الْمَكْنُونَةَ طَبِيعِيًّا فِي بَرَّ اللَّهِ.

٣ - فِإِنَّ الرَّبَّ بَعْدَمَا أَوْصَى مَرَارًا كثِيرًا بِالْحَبَّةِ، أَمْرَ بِطَلَبِ بَرَّ اللَّهِ^(٢)، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا هُوَ أَبُو^(٣) الْحَبَّةِ، فَمَا مِنْ سَبِيلٍ آخِرٍ لِلْخَلاصِ إِلَّا

(١) أي المسوكون بالبر الذاتي.

(٢) انظر: مت ٦: ٣٣.

(٣) في الأصل اليوناني: “أُمٌّ”， حيث إنَّ كلمة *δικαιοσύνη* = بَرٌ في اليونانية مؤثثة.

بواسطة القريب^(١)، كما أوصى: «اغفروا وسیغفّر لکم» (لو ٦: ٣٧). فهذا هو النّاموس الرّوحي المكتوب في القلوب المؤمنة وهو تكميل النّاموس الأوّل^(٢)، لأنّه يقول: «ما جئت لأنقض النّاموس بل لأنكمل» (مت ٥: ١٧)، لكن فلتتعلّم كيف يكمل؟ فالنّاموس الأوّل - متّحداً فرصة مؤاتية من الذّي أخطأ - حكم بالأكثر على المذنب إليه، إذ يقول: «لأنك في ما تدين غيرك تحكم على نفسك» (رو ٢: ١)، وأمّا إذا ما غفر هو فسيغفر له، لأنّه هكذا يقول النّاموس: «في وسط الدينونة دينونة، وفي وسط المغفرة مغفرة»^(٣) (تث ١٧: ٨ س).

٤ - فالمغفرة إنّما هي تكميل النّاموس، وقد دعّوناه النّاموس الأوّل، ليس لأنّ الله قدّم ناموسين للبشر بل ناموساً واحداً روحياً بحسب طبيعته^(٤)، أمّا بحسب قصائه فهو ناموس يجلب مجازة عادلة على كلّ أحد: يغفر لمن يغفر، ويشتّد على من يشتّد، لأنّه يقول: «مع المختار ستكون محظياً، ومع الأعوج ستعوج» (مز ١٨: ٢٦ س). من أجل هذا

(١) يقول أليبا أنطونيوس في رسالته السادسة: “إنّ حياتنا هي من بعضنا البعض” (الرسالة ٦: ٦).

(٢) انظر: رو ١٣: ١٠.

(٣) نصّ هذه الآية في السّبعينية: «في وسط الدينونة دينونة، وفي وسط الصّربة ضربة». فمن الرّاجح أن الشّبهة في الحروف بين كلمتي οιμψεστι = مغفرة، وοιμψή = ضربة هو ما حدا بأنّا مقارن للاستشهاد بهذه الآية هنا.

(٤) انظر: رو ٧: ١٤.

فالذين قد أكملوه روحياً واشتركتوا على قدر ذلك في النعمة كانوا يحبون ليس فقط المحسنين إليهم بل أيضاً مُغّيريهم ومغضطيهيم، متظرين المحبة الروحية كمكافأة لأعمالهم الصالحة. أقول "أعمالهم الصالحة"، ليس لأنهم صفحوا عن المظالم، بل لأنهم، فضلاً عن ذلك، أحسنوا إلى نفوس ظالميهما. فإنه هكذا قدموهم إلى الله كمن بواسطتهم قد نالوا الطوى، كما يقول: «طوى لكم إذا غيروكم وطردوكم» (مت ٥: ١١).

٥ - فإنه من النّاموس الروحي تعلّموا أن يتفكّروا هكذا، فلقد صبروا وخفّظوا وداعتهم الروحية، ولما أبصر الرّب صبر قلوبهم إزاء الحرّوب ومحبتهم التي لا تتبدل، مرتق «حائط الستياغ المُتوسِّط»^(١)، فطرّحوا العداوة بالتمام وما عادوا بعد يقتلون المحبة بتغصّبٍ بل بمعونة. ذلك لأنّ الرّب أبطل كذلك «السيف المُتّقلب»^(٢) الذي يحرّك الأفكار، فدخلوا «إلى ما داخل الحجاب، حيث دخل الرّب كسابيقِ منْ أجلنا»^(٣)، وطفّقوا يتنعمون بثمار الروح. وحيث إنّهم شاهدوا الحيرات العديدة بثباتٍ قلبيٍ وليس بعد كقول الرّسول «في مِرآة، وفي لُغز» (كو ١٢: ١٣)، فإنهم أخذوا يتحدّثون عن

(١) أف ٢: ٤.

(٢) تك ٣: ٢٤.

(٣) عب ٦: ١٩، ٢٠ - حسب النّصّ.

«مَا لَمْ تَرَ عَيْنِ، وَلَمْ يَسْمَعْ أُذْنِ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ إِنْسَانٍ: مَا أَعْدَهُ اللَّهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ»^(١).

[ب] الروح القدس يعلن لنا الخيرات المنتظرة

٦ - سؤال: لكيّي أسأل عن هذا الأمر العجيب: إنْ كان «لَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ إِنْسَانٍ»، فكيف تعرفون هذه الأشياء؟ سيما وأنتم تعترفون في سِفْرِ الْأَعْمَالِ أَنَّكُمْ «بَشَّرْتُمْ تَحْتَ آلامِ مِثْلِنَا»^(٢)؟

الجواب: بل اسمعوا ما يجيب به بولس على هذا: «فَأَغْلَطَهُ اللَّهُ لَنَا نَحْنُ بِرُوحِهِ، لِأَنَّ الرُّوْحَ يَفْحَصُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَعْمَاقَ اللَّهِ» (أك ٢: ١٠). لكن لعّلا يقول أحد إيه لهم كرسل قد أعطي الرُّوح أمّا لنا بحسب طبيعتنا فلا سبيل لنيله، فإنه يقول في موضع آخر مصلّياً: «لَكُنْ يُعْطِيْكُمُ اللَّهُ قُوَّةً لِتَتَشَدَّدُوا (بِرُوحِهِ) فِي إِنْسَانِ الْبَاطِنِ لِيَحُلَّ الْمَسِيحُ فِي قُلُوبِكُمْ» (أف ٣: ١٦)، ١٧ - حسب النّصّ)، وأيضاً: «وَأَمَّا الرَّبُّ فَهُوَ الرُّوحُ، وَحْيُثُ زُوْخُ الرَّبِّ فَهُنَّاكَ حُرْيَّةً» (أك ٣: ١٧)، وأيضاً: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَيْسَ لَهُ رُوحٌ الْمَسِيحِ، فَذَلِكَ (إِنْسَانٌ) لَيْسَ لَهُ (أي لِيَسَ لِلْمَسِيحِ)» (رو ٨: ٩).

(١) أك ٢: ٩.

(٢) أع ١٤: ١٥ - حسب النّصّ.

٧ - فلنصلِّ إذاً نحن أيضًا في يقينٍ وَتَبَصُّرٍ لِكَي نشتَركَ في الرُّوحِ
القدُسِ، وندخلَ إلى حيث كُنَّا قد خرجنا، وتفصَّلَ عَنَّا من الآن فصاعداً
الحِيَّةُ والدَّهُ الغضَبُ والخاضَةُ على الغُجُوبِ، الَّتِي هي رُوحُ الْهُمُومِ
والسُّكُرِ. حتَّى إذا ما آمنَّا بثباتٍ، حفِظْنَا وصايا الرَّبِّ وَمُؤْنَةُ فِيهِ «إِلَى
رَجُلٍ كَامِلٍ، إِلَى قِيَاسِ قَامَتِهِ»^(١)، كَي لا يعود يَتَسَلَّطُ عَلَيْنَا خَدَاعُ هَذَا
الدَّهَرِ، بل نَكُونُ في يقينِ الرُّوحِ لَا يَخْمَرُنَا الشَّكُّ فِي أَنَّ نِعْمَةَ اللهِ تُسَرِّ
أيضاً باخْطَأَةِ التَّائِبِينَ. لأنَّ مَا يَوْهَبُ عَلَى سَبِيلِ نِعْمَةٍ لَا يَقْاسُ بَعْدُ وَلَا
يُقَارِنُ بِسَالِفِ الْضَّعْفِ، «وَإِلَّا فَلَيَسْتِ النِّعْمَةُ بَعْدُ نِعْمَةً»^(٢). لكنَّ
وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِاللهِ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فلنتقَدَّمْ بِبِسَاطَةٍ وَسَلَامَةٍ قَلْبٌ
إِلَى ذَاكَ الَّذِي يَئِنُّ عَلَيْنَا بِشَرْكَةِ الرُّوحِ الْقَدُسِ بِالْإِيمَانِ لَا بِمَا يَتَنَاسَبُ
وَأَعْمَالُنَا الطَّبِيعِيَّةُ، لأنَّهُ يَقُولُ: «لَا بِأَعْمَالِ النَّاسِ مُؤْمِنُ الرُّوحِ بَلْ بِخَبَرِ
الْإِيمَانِ» (غل ٣: ٢ - حسب النَّصّ).

[ج] النَّفْسُ الْمُرْدَانَةُ بِالْفَضَائِلِ هِيَ كَنِيسَةٌ

٨ - سُؤَالٌ: وما معنى «أَرِيدُ أَنْ أَتَكَلَّمُ فِي كَنِيسَةٍ خَمْسَ كَلِمَاتٍ بِذِهْنِي»
(كو ١٤: ١٩ - حسب النَّصّ)?

(١) آف ٤: ١٣.

(٢) رو ١١: ٦.

الجواب: الكنيسة تفهم من وجهتين: جماعة المؤمنين، وقِوام النَّفْس (١)؛ فحينما تُؤخذ روحياً على الإنسان، فالكنيسة هي قوامه كله، أمّا الكلمات الخمس فهي الفضائل الحاوية لغيرها التي تبني الإنسان كله، موزعة بطرق شئ. لأنَّه كما أنَّ الذي يتكلَّم في الرَّب قد حاز كلَّ الحكمَة بالكلمات الخمس، هكذا الذي يتبَع الرَّب يبني وافرَ التَّقوى بالفضائل الخمس. فِيكونُوا خمساً فهي تحوي الجميع، فالأولى: الصَّلاة (٢)، ثُمَّ ضبط النَّفْس، والصدقة، والمسكنا، وطول الأنَّة. فهذه، إذا ما أكملت عن شوقٍ واختيارٍ تكون كلماتٍ للنَّفْس، مَقْوِلَةٌ من الرَّب ومسموعةٌ من القلب، لأنَّ الرَّب يعملها والرُّوح القدس حينئذٍ يتكلَّم بها روحياً (٣)، والقلب بقدر ما يشتق إليها يُكملُها علانيةً.

٩ - أمّا هذه الفضائل بقدر ما إنَّها حاويةٌ للكلِّ تكون أساسيةً إحداها للأخر. فعند غياب الأولى (أي الصَّلاة) ينتفي الجميع، بالمثل عن طريق الثانية (أي ضبط النَّفْس) تكون الْيَتَّى تعقبها، وهكذا دوائياً. لأنَّه كيف سيصلَّي أحدٌ دون أن يفعل فيه الرُّوح القدس، وهذا الكتب المقدَّسة تشهد

(١) انظر: العظة ١٢ : ١٥.

(٢) يؤكد أبا مقار هذا أيضًا في موضع آخر قائلاً: ”إنَّ الذي يلازم الصَّلاة يقتني أفضَّل الأعمال“ (بستان الرُّعبان – قول ٥٦)؛ انظر أيضًا: العظة ٤٠ : ٢.

(٣) ”vōepōς“، أي يبتَّأى عن الحوان.

لي قائلةً: «لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ: "يَسْوَعُ رَبٌّ" إِلَّا بِالرُّوحِ الْقُدُّسِ» (أكوا ١٢: ٣)؟ وكيف يشابر الذي يضبط نفسه دون صلاةً ومعونة؟ والذي لا يضبط نفسه في كل شيء كيف سيرحم الجائع أو الأثيم؟ والذي لا يرحم لا يقبل كذلك أن يفتقر باختياره. وأيضاً الغضب هو قرين شهوة المقتنيات، سواءً أكان يمتلك أو لا يمتلك. أمّا النَّفْس ذات الفضائل فهكذا تُبَيَّنُ ككنيسة ليس لكونها عملت بل لكونها اشتاقت، لأنَّ عملَ الإنسانِ الذَّائِي لا يخلصه، بل اللهُ الذِّي يَهْبُ القدرة. فإنْ كانَ أَحَدٌ يتحمل ^(١) سماتِ (السَّيِّدِ) فلا يفتخرونَ بشيءٍ - أيًّا كانَ ما عَمِلَ من أعمالٍ - إِلَّا فقط بمحبَّته وسعْفيه في إِثْرِ الأَعْمَالِ. فلا تتوهَّمْنَ قطَّ أَنَّك سَبَقْتَ الرَّبَّ فِي فَضْلِيْلِكَ، بل تَفَكَّرْ حَسَبَ القائلِ إِنَّهُ «هُوَ الْعَامِلُ فِيْكُمْ أَنْ تُرِيدُوْا وَأَنْ تَعْمَلُوْا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ» (في ٢: ١٣).

١٠ - سؤال: فبماذا توصي الكتب المقدسة الإنسانَ بأنْ يعمل؟

الجواب: قلنا آنفًا إِنَّ الإنسانَ بحسب الطَّبيعةِ له شَعْفٌ للسَّعيِ وهذا يطلبُه اللهُ، لذلك توصيه الكتب المقدسة أَوْلًا بِأَنْ يفهمُ وإذا ما فَهِمَ يحبُّ ويُسْعى بإرادته. أمّا أَنَّ يتأثَّرْ ذهْنُه أو يتحمَّلُ التَّعبَ أو يُتَمِّمُ العملَ، فهذا تمنحه نعمةُ الرَّبِّ لِلَّذِي يريدُ ويؤمنُ. فإِرادةُ الإنسانِ إِذَا هي أَشْبَهُ بخدمَةٍ

(١) حرفيًا: στίγματα = سمات، انظر: حاشية ٧ صفحة ٣٩٤ - العلة ٢٥.

لا غنى عنها، فإذا لم تتوفر الإرادة، ولا الله نفسه يصنع شيئاً - مع أنه قادر - بسبب حرية الإرادة. لذلك فتتميم عمل الله مرهون بإرادة الإنسان. وأيضاً إن كنا نعطيه كل إرادتنا فإنه يعزو لنا كل العمل، فعجبٌ هو الله في كل شيء ولا يُسبِّر غُفرانه البَلَة. أمّا نحن البشر فنحاول أن نتكلّم عن جزء من عجائبِه مستندين على الكتب المقدسة، بل بالأحرى المتعلمين منها، لأنّها تقول: «مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ؟» (رو 11: 34؛ 1 كو 2: 16). فإنّه هو نفسه يقول: «كُمْ مَرَّةً أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ أُولَادَكُ وَلَمْ تُرِيدُوا» (مت 23: 23؛ لو 13: 34)، فنؤمن من هذا أنّه هو نفسه يجمعنا، أمّا مِنْا نحن فيلتّمس الإرادة لا غير، لكنّ ما هو تبيّان إرادتنا سوى التّعب طوعيّة؟

١١ - فكما أنَّ الحديد حينما يُنشر ويُقطع به أو يُقْطَع ويُعرَس به يَكُلُّ هو نفسه جرأ الضّغط عليه، إلا أنَّ هناك آخر يُحرِّكه ويُسْتَيره وحين ينكسر يُحْمِيه بالنار وبجدّده؛ هكذا أيضاً الإنسان وإن كان يتجمّش الضّيق والتّعب فيما يَعْمل الصّلاح، لكنَّ الرَّبَّ يَعْمل فيه سرّاً وحين ينال منه الكَلَال وينكسر قلبه يعزّيه وبجدّده، كما يقول النّبِيُّ أيضاً: «هَلْ تَتَمَجَّدُ الْفَاسِدُونَ بِدُونِ الْفَاطِعِ بِهَا؟ أَوْ يَتَعَالَى الْمِنْشَارُ بِدُونِ جَاذِبِهِ؟» (إش 10: 15). لكنَّ هكذا أيضاً يكون الحال في الشّرّ: فحينما يطّيعه الإنسان ويُهْبِي نفْسَه له، يُحرِّكه الشّيطان

ويَشْحَذُه شَحْذُ الْلِّصَّ لِلسَّيْفِ. ولقد شَبَّهُنَا الْقُلُوبُ بِالْحَدِيدِ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْدَامُونَ حِسَبَهُ
بِالْأَمْوَارِ وَكَثْرَةِ صِلَابَتِهِ. لَكُنَّا مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَجْهَلَ، كَالْحَدِيدِ الْعَادِمِ الْخَيْرِ،
ذَاكُ الَّذِي يُحِسِّكُنَا - وَإِذَا ذَاكُ فَمَا كَنَّا نَتَقَلَّ هَكُذا سَرِيعًا مِنَ الْكَلْمَةِ
(الْلُّوغُوسُ) الَّذِي يُقْلِلُنَا إِلَى أَفْكَارِ عَدُوِّنَا - بَلْ بِالْأَخْرَى كَانَ يَنْبَغِي أَنْ
نَعْرِفُ، كَالثَّورُ وَالْحَمَارُ، ذَاكُ الَّذِي يَقُودُنَا وَيَرْشُدُنَا بِحَسْبِ قَصْدَهُ، لَأَنَّهُ
يَقُولُ: «الشَّوْرُ عَرَفَ قَائِمَةً، وَالْحِمَارُ مَعْلَفَ صَاحِبِهِ، أَمَّا إِسْرَائِيلُ فَلَمْ
يَعْرِفِنِي» (إِشْ ۱ : ۳ س)! فَلَنُصَلِّ إِذَا لَكِي تَقْبَلَ مَعْرِفَةَ اللَّهِ وَنَسَادَهُ
بِالْتَّامُوسِ الرُّوحِيِّ لِخَدْمَةِ وَصَابِيَاتِ الْمَقْدِسَةِ، مُجَدِّدِينَ الْآبَ وَالْابْنَ وَالرُّوحِ
الْقَدِيسِ إِلَى الدُّهُورِ، آمِين.

العظة الثامنة والثلاثون

المسيحي الحق وتدبر النعمة له

[ال الحاجة إلى تدقيق كثير وفطنة لامتحان المسيحيين الحقيقيين، ومن يكون أولئك]

[أ] ذوو الفطنة يمدون الحق من الرِّيْف [ب] الشَّيْطَان يُؤْسِّسُ الشَّرُورَ للصَّالِحِين



[أ] ذوو الفطنة يمدون الحق من الرِّيْف

١ - كثيرون إذا ما ظهروا أبراً يُظْنُّ بهم أَلْهَمُ مسيحيُّون، لكن لذوي الفطنة والتجربة أنْ يمتحنوا أحَدًا مثل أولئك سَمَّةُ الملك وصوريَّه، لئلاً يكونوا مُزَّعِّجين لأعمال الحاذقين، فيعجب الحاذقون لهم ويستنكروهم. أمَّا من لا فطنة له فلا يمكنه امتحان «الْفَعْلَةُ الْمَاكِرِينَ»^(١) لأنَّهم هم أيضًا يلبسون شكل ذهبان أو مسيحيين، ولأنَّ «الرَّسُولُ الْكَذَّابَةَ»^(٢) تَأَلَّمُوا أيضًا لأجل المسيح وهم أنفسهم بشرًا بملائكة السَّمَاوَاتِ، لأجل هذا يقول الرَّسُولُ: «في الْأَخْطَارِ أَكْثَرُ، فِي الصِّيَقَاتِ أَوْفَرُ» (٢٢ كو ١١: ٢٣ - حسب النَّصَّ)، مريدًا بهذا أنْ يُبَيِّنَ أَنَّهُ تَأَلَّمُ أكثر منهم.

(١) ٢٢ كو ١١: ١٣.

(٢) ٢٢ كو ١١: ١٣.

٢ - فإنَّ الْذَّهَبَ يُوجَدُ بِسَهْوَةِ، أَمَّا الْلَّالَى وَالْأَحْجَارُ الْكَرِيمَةُ الْلَّائِقَةُ بِتَاجِ الْمَلِكِ فَنَادِرًا مَا تَوَجَّدُ، إِذَاً فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ لَا يُوجَدُ بَيْنَهَا مَا يَصْلِحُ؛ هَكُذا الْمُسِيحِيُّونَ أَيْضًا يُبَيِّنُونَ إِكْلِيلًا لِلْمَسِيحِ، لَكِي تَصْبِحُ تِلْكَ النُّفُوسُ شَرِيكَةً لِلْقَدِيسِينَ. فَالْمَجْدُ لِلرَّبِّ الَّذِي هَكُذا أَحَبَّ هَذِهِ النَّفُوسَ وَمِنْ أَجْلِهَا تَلَمَّ وَأَقَامَهَا مِنْ بَيْنِ الْأَمْوَاتِ! لَكِنْ كَمَا أَنَّ بُرْقَعًا كَانَ يُوَضَّعُ عَلَى وَجْهِ مُوسَى حَتَّى لَا يُمْكِنُ لِلشَّعَبِ أَنْ يُحَدِّقَ فِي وَجْهِهِ^(١)، هَكُذا الْآنُ أَيْضًا الْبَرْقُ مَوْضِعُهُ عَلَى قَلْبِكَ حَتَّى لَا تَنْظُرْ مَجْدَ اللَّهِ^(٢). أَمَّا مَنْ تُرِعَ هَذَا، فَحِينَئِذٍ يَنْجَلِي اللَّهُ وَيُظَهِّرُ ذَاتَهُ لِلْمُسِيحِيِّينَ وَلِلَّذِينَ يَجْبُونَهُ وَيَطْلُبُونَهُ بِالْحَقِّ، كَمَا يَقُولُ: «سَأَظْهِرُ لَهُ ذَاتِي وَعِنْدَهُ سَأَصْنَعُ مَنْزِلًا» (يو ١٤: ٢١، ٢٣) - حَسْبَ النَّصِّ).

٣ - فَلنَجْهَدْ إِذَاً أَنْ نَتَقدَّمَ إِلَى الْمَسِيحِ الْمُنْتَهَى عَنِ الْكَذِبِ، لَكِي نَنْالَ الْمَوْعِدَ وَالْعَهْدَ الْجَدِيدَ الَّذِي كَرَسَهُ الرَّبُّ بِصَلِيبِهِ وَمَوْتِهِ، كَاسِرًا أَبْوَابَ الْجَحِيمِ وَالْمُخْطِيَّةِ، وَمُخْرِجًا النُّفُوسَ الْمُؤْمِنَةَ وَوَاهِبًا لَهَا الْمُغْزِيَّ مِنَ الدَّاخِلِ وَمُصْعِدًا إِيَّاهَا إِلَى مَلْكُوتِهِ. فَلَتَمَلِكُنَّ نَحْنُ أَيْضًا مَعَهُ فِي أُورْشَلِيمَ مَدِينَتِهِ، فِي الْكَنِيسَةِ السَّمَاوِيَّةِ، فِي خَوْرُسِ الْمَلَائِكَةِ الْقَدِيسِينَ. أَمَّا الْإِخْوَةُ الَّذِينَ تَدَرَّبُوا زَمَانًا طَوِيلًا وَتَرَكُوا، فَهُؤُلَاءِ لَهُمُ الْقَدْرَةُ أَنْ يُعِينُوا مَنْ لَا خِبَرَةَ لَهُمْ وَيَتَأَلَّمُوا مَعَهُمْ.

(١) انظر: خر ٣٤: ٣٣.

(٢) انظر: كو ٣: ١٥.

[ب] الشّيّطان يُدْسِ الشّرُور لِلصَّالِحِين

٤ - فإنَّ البعض لِمَا صانوا أنفسَهِم وعَمِلَتْ فيهم النِّعْمة بقَوَّة، وَجَدُوا أَعْضَاءَهُمْ قَدْ تَقدَّسَتْ، حَتَّى إِنَّهُمْ حَسِبُوا أَنَّ لَا شَهْوَةَ تَعْرِضُ فِي الْمَسِيحِيَّةِ بَلْ وَأَنَّهُمْ قَدْ حَازُوا ذَهَنًا مِنْ ضِبْطًا مَقْدَسًا وَأَنَّ إِنْسَانَهُمُ الْبَاطِنُ سَيَغُدو فِيمَا بَعْدِ مُخْلِقاً فِي الْإِلَهِيَّاتِ وَالسَّمَاوَيَّاتِ، حَتَّى لَيَتَوَهَّمَ مُثْلُ هَذَا إِنْسَانٌ أَنَّهُ بِالْفَعْلِ قَدْ بَلَغَ الْقَامَاتِ الْكَاملَةِ. وَفِيمَا يَظْنُ أَنَّهُ قَدْ دَنَا بِالْفَعْلِ مِنَ الْمِبْنَاءِ الْآمِنِ، إِذَا بِالْأَمْوَاجِ تَشَوَّرُ عَلَيْهِ حَتَّى إِنَّهُ يَوجَدْ مَرَّةً أُخْرَى وَسْطَ الْلُّجَّةِ وَيُرْجَعُ بِهِ حِيثُ الْبَحْرُ وَالسَّمَاءُ وَالْمَوْتُ الْمُخْدِقُ، وَهَكُذا لِمَا ذَهَبَتْهُ الْخَطِيبَةُ «أَنْشَأَتْ كُلَّ شَهْوَةٍ شَرِيرَةً»^(١). لَكُنْ مَرَّةً أُخْرَى، مُثْلُ هُؤُلَاءِ حِينَ يَسْتَحِقُّونَ نِعْمَةً مَا وَيَقْتَلُونَ - إِنْ جَازَ الْقَوْلُ - قَطْرَةً مِنْ كُلِّ عَمْقِ الْبَحْرِ، يَجِدُونَ هُمْ أَنفُسَهُمْ كُلَّ سَاعَةٍ وَكُلَّ يَوْمٍ عَجَبًا هَذَا مَقْدَارُهُ حَتَّى إِنَّ إِنْسَانَ الَّذِي يَتَمَّ فِيهِ هَذَا يَتَمَّلِّكُهُ الْذُّهُولُ إِزَاءِ هَذَا الْعَمَلِ الْعَجِيبِ الْغَرِيبِ الإِلهِيِّ، وَيَعْجَبُ كَيْفَ حَظِيَّ بِهَذِهِ الْحِكْمَةِ، لَأَنَّ النِّعْمَةَ تَنِيرُهُ ثُمَّ تَرْشِدُهُ وَتُولِيهُ سَلَامًا وَتَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ حَسَنًا، كَوْنَهَا إِلَهِيَّةً وَسَماوَيَّةً، حَتَّى إِنَّ الْمُلُوكَ وَالرُّؤُسَاءَ، وَالْحَكَماءَ وَالشُّرِفاءَ، إِزَاءِ ذَلِكَ إِنْسَانٌ، يُحَسِّبُونَ كَأَصَاغَرَ لَا قِيمَةَ لَهُمْ. لَكُنْ بَعْدَ زَمَانٍ وَوَقَتٍ تَبَدَّلُ الْأُمُورُ، حَتَّى إِنَّ مُثْلَ هَذَا يَحْسَبُ نَفْسَهُ بِالْحَقِّ خَاطِئًا أَكْثَرَ مِنْ

(١) رو ٧: ٨ - حَسْبِ النَّصَّ.

جميع البشر، ثم في ساعة أخرى ينظر نفسه مثل ملوك عظيم جداً لا يُضاهى أو رئيس أثير للملك، وأيضاً في ساعة أخرى ينظر نفسه ضعيفاً ومسكيناً. وأخيراً تأخذ ذهنه حيّة: لماذا الحال هكذا وبعد حين هكذا؟ لأنَّ الشَّيْطَانَ، كونه مبغضًا للصَّالِحَ، يَدْسُ شروراً للذِّينَ يَقُومُونَ بِالْفَضْلَةِ ويجاهدهم ليردُّهم، لأنَّ هذا هو عمله.

٥ - لكن لا تدع عنك أنت له، بل اعمل البرَّ الذي يكمل في الإنسان الباطن، حيث منبر المسيح قائمٌ مع مقدسه فائق الطُّهر، حتى تفخر شهادةً ضميرك^(١) بصلب المسيح - المسيح الذي «يُطَهِّرُ ضميرك من أعمالٍ ميتةٍ»^(٢) لكي تعبد الله بروحك^(٣)، حتى تعرف ما أنت تسجد له، بحسب القائل: «لَهُنَّ نَسْجُدُ لِمَا نَعْلَمُ» (يو ٤: ٢٢). فضع ثقتك في الله الذي يقودك، ولتكن لنفسك شركَةً مع المسيح كشريكَةِ عروسٍ مع عريسها، فإنه يقول: «هَذَا السِّرُّ عَظِيمٌ لَكِنِّي أَقُولُ مِنْ نَحْوِ الْمَسِيحِ وَالنَّفْسِ الَّتِي بِلَا عَيْبٍ» (أف ٥: ٣٢ - حسب النَّصّ)، له المجد إلى الدُّهُورِ، آمين.

(١) انظر: كو ٢: ١٢.

(٢) عب ٩: ١٤.

(٣) انظر: رو ١: ٩.

العظة التاسعة والثلاثون

غاية إرسال الله الكتب المقدسة

[نَإِذَا أُعْطِيَتْ لَنَا الْكِتَبُ الْإِلَهِيَّةُ مِنْ اللَّهِ؛]



١ - كأنما ملِكٌ يكتب رسائل للذين يرحب في أن يغدق عليهم امتيازاتٍ وعطايا خاصة، فيشير للجميع أن ”اجتهدوا أن تأتوا إلى سريعاً، كي تناولوا متى عطاياي الملكية“ . فإذا لم يمضوا وأخذوها، فما استفادوا شيئاً من قراءة حكم الرسائل، بل بالحربي باتوا مستوجبين الموت لأنهم لم يشاءوا أن يمضوا ويؤهلوها للكرامة من يد الملك؛ هكذا أيضاً الله، الملك، أرسل الكتب الإلهية للبشر، كمثل رسائل، فاصلها بما أن يطلبوا إليه ويسألوه مؤمنين فينالوا عطيَّةً سماويةً من جوهر لاهوته^(١)، لأنَّه مكتوب: «لِكُنْ نَصِيرَ شُرَكَاءِ الطَّبِيعَةِ الْإِلَهِيَّةِ» (بط ١ : ٤) . أمَّا إذا لم يتقدم الإنسان ويسأل وينال، فما استفاد شيئاً من قراءة الكتب المقدسة بل بالحربي بات مستوجباً الموت، لأنَّه لم يشأ أن ينال من لدن الملك السماوي عطيَّةَ الحياة، التي بدونها لا يمكن الحصول على الحياة الخالدة، التي هي المسيح، الذي له الجد إلى الدهور، آمين.

(١) δωρεάν οὐράνιον ἐκ τῆς ὑποστάσεως τῆς θεότητος αὐτοῦ = عطيَّة سماوية من جوهر لاهوته أو من أقnon لاهوتة .

العظة الأربعون

الصلوة رأس الفضائل ومضرمة النعمة

[في أن كلَّ الفضائل وكلَّ الشرور مربوطة بعضها ببعض، وكمثل سلسلة قد اقتربت الواحدة بالأخرى]

[أ] الفضائل مربوطة بعضها، وكذا الشرور

[ب] تفاوت الدرجات في المكروه، وكذا في جهنم

[ج] الصلاة توجّح النعمة كما المطلب للنار



[أ] الفضائل مربوطة بعضها، وكذا الشرور

١ - فيما يخص النسك^(١) الظاهري، وأئمة ممارسة هي العظمى والأولى، فاعلموا، يا أحبائي، أن كلَّ الفضائل مربوطة بعضها ببعض، لأنَّها كمثل سلسلة روحانية قد اقتربت الواحدة بالأخرى^(٢): فالصلة مقتنة بالمحبة، والمحبة بالفرح، والفرح بالوداعة، والوداعة بالتواضع، والتواضع بالخدمة، والخدمة بالرجاء، والرجاء بالإيمان، والإيمان بالطاعة، والطاعة بالبساطة؛

(١) ἀσκήσις، ومنها "asceticism" في الفرنسية والإنجليزية، وكذلك الكلمة "الإسقاط" التي أطلقت على بريئة أبا مقار (اللاستزاد في أصل هذه التسمية، انظر: "الرهبة القبطية في عصر ق. أبا مقار" - طبعة ١٩٩٥ - ص ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) يعود أبا مقار ويكرر هذا المبدأ في خطابه الأخير: "الوصايا مثل السلسلة، متى انفكَّت غرزة منها ثَلَقَت بأكمتها، فمن توان عن وصيَّةٍ من الوصايا ضاع تعبيه" (الخطاب الأخير لأبا مقار).

وأيضاً على الجانب الآخر، الشُّرور مربوطٌ أحدها بالآخر: فالبغض مربوطة بالبغض، والبغض بالكربلاء، والكربلاء بالمجده الباطل، والمجده الباطل بعدم الإيمان، وعدم الإيمان بقساوة القلب، وقساوة القلب بالتهاون، والتهاون بالرَّخاوة، والرَّخاوة بالصَّجر، والصَّجر بعدم الاحتمال، وعدم الاحتمال بمحبَّة اللَّذات، وبقيَّة أعضاء الشَّرِّ هي مُعلَّقة بعضها ببعض. وهكذا أيضاً في جانب الصَّلاح، الفضائل مُعلَّقة بعضها ببعض وموصلة الروابط.

٢ - على أنَّ رأس كلِّ سعيٍ صالحٍ وهامة الأعمال القويمة^(١) هو المواظبة^(٢) على الصَّلاة، التي بواسطتها يمكننا أن نحصل كذلك على بقيَّة الفضائل يوماً بعد يوم، بالطلب إلى الله. لأنَّه من هنا تتوَّل للمستحقين شركُّهم في قداسة الله وعمله الروحي، وإتحادُ ميول ذهنهم صوبَ الله في محبَّة لا يُنطِق بها. لأنَّ الذي يغتصب نفسه، يوماً بعد يوم، على المواظبة على الصَّلاة، يضطرُّم - بفعل الحبَّة الروحانية - بعشقِ إلهيٍّ وشوقٍ ناريٍّ نحو الله، ويتقَبَّل نعمة الكمال المقدِّس الذي للروح القدس.

(١) κατορθώματα ”، انظر: حاشية ٢ صفحة ٢٧١ - العظة ١٣.

(٢) προσκαρτερεῖν ”، انظر: حاشية ٣ صفحة ١٤٤ - العظة ٣؛ انظر كذلك: العظة

[ب] تفاوت الدرجات في الملائكة، وكذا في جهنم

٣ - سؤال: حيث إن البعض يبعون مملكتهم ويعتقدون عيدهم ويعملون الوصايا، لكنهم لا يطلبون نيل الروح القدس في هذا العالم، ألم يمضون، وهم يحيون هكذا، إلى ملائكة السماوات؟

الجواب: هذا الكلام دقيق، فالبعض يقولون إن ثمة ملائكةً واحدةً وجهنم واحدةً، أمّا نحن فنقول إن هنالك درجات كثيرةً واختلافات وقامت في الملائكة نفسه وفي جهنم نفسها. فمثلاً توجد نفس واحدة في كل الأعضاء، فتعمل في المخ من فوق، وهي نفسها تحرك القدمين أسفل؛ هكذا أيضاً الألهوت يحيط بكل الخلائق: السماوية، والتي تحت الأعماق. وهو مكتمل في كل مكان في الخليقة، وإنْ كان خارجاً عن المخلوقات من أجل أنه لا يُفاس ولا يُحدّ. فالإلهوت نفسه يتَّعهد البشر ويدير الجميع بما يناسبهم. وحيث إن قوماً يصلون وهم لا يدرُّون ما يطلبون وآخرون يصومون وآخرون يتَّبِّتون في الخدمة، فالله، كونه الديان العادل، يعطي الأجرة لكلِّ منهم وفقاً لقامة إيمانه، لأنَّ ما يعملونه إنما يعملونه من أجل خوف الله، غير أنَّهم ليسوا جميعاً بنين ولا ملوكاً ولا ورثة.

٤ - في بينما يوجد في العالم قوم قتلة وآخرون زناة وآخرون خاطفون، يوجد كذلك من يؤذون مقتناهم على القراء، وهؤلاء وأولئك يُغيّرُهم ربُّ اهتمامه،

فيعطي للذين يصنعون الخير الرَّاحَةُ والمكافأةُ. لأنَّه توجَّد قاماتٌ فائقةُ وقاماتٌ صغيرة، وفي التُّور نفسيه وفي المجد هنالك اختلافات، وفي جهنَّم نفسيها وفي العذاب يظهر السُّحرَةُ والسَّارقون وكذلك الآخرُ الذين يَرِّبون الزَّلَات الصِّغارَ. أمَّا الذين يقولون بأنَّ هناك ملكوتًا واحدًا وجهنَّم واحدةً وليس من درجات، فخطأً يقولون. فكم يوجد أنسانٌ عالميون الآن يبدأون ارتياض المَتَشَاهِدِ^(١) وبافي ما لا يليق، وكم يوجد حالياً من يُصلُّون ويُخافون الله، فهوئاء وأولئك يُعنى الله، وكديانٍ عادلٍ يُعِدُّ لهؤلاء راحةً ولأولئك قصاصاً.

٥ - كمثل إنسانين يُشَدَّان على فرسَيهما ويقودان مركبتهما ويسوقانهما الواحد ضد الآخر، إذ يجاهد كلُّ واحدٍ كيف يطرح الذي يُضادُه ويريحه؛ هكذا يكون المشهد في قلوب المجاهدين، فالآرواح الشَّرِّيرة تصارع النفس، والله وملائكته يشهدون الصراع. ففي كلِّ ساعةٍ تتبع أفكارٍ كثيرةً جديدة من النفس وبالمثل أيضاً أفكارٍ من الشَّرِّ في الدَّاخل. فلننفس أفكارٍ كثيرةً مخفيةً وفي تلك الساعة تُخرجها وتلدها، والشَّرُّ نفسه له أفكاره وممارسته الكثيرة وفي كلِّ ساعةٍ يلدُ أفكاراً جديدةً قُبالة النفس. والعقل هو قائد مركبة النفس وسائلها الذي يُمسِك بزمام الأفكار، وهو هنا يسرع ضدَّ مركبة إبليس الذي شدَّ هو أيضاً مركبته قُبالة النفس.

(١) "théâtre" = مسارح " (ومنها الكلمة الفرنسية "théâtre" ، والإنجليزية "theater").

[ج] الصلة توجّح النعمة كما الحطب للنار

٦ - سؤال: إن كانت الصلاة هي راحة، فكيف يقول قوم: ”لا نقدر أن نصلّى“، ولا يداومون على الصلاة؟^(١)

الجواب: إنَّ هذه الرَّاحَة، إِذَا مَا كثُرَتْ، تعطِي أَحْشَاءً وَخَدْمَاتٍ أُخْرَى كافتِقاد الإِخْوَةِ وَخَدْمَتِهِم بالكلمة. والطَّبِيعَةُ نَفْسُهَا تَرْغُبُ فِي الْمُضِيِّ إِلَى الإِخْوَةِ وَرَؤْيَتِهِمْ وَالشَّحْدُثُ إِلَيْهِم بالكلمة. فَمَا مِنْ شَيْءٍ يُلْقَى فِي النَّارِ وَيُمْكِنُهُ أَنْ يَلْبِسْ فِي طَبِيعَتِهِ الْخَاصَّةِ بَلْ بِالصَّرْوَرَةِ يَصِيرُ هُوَ نَفْسُهُ نَارًا، كَمَا يَحْدُثُ إِذَا مَا أَلْقَيْتَ بِحَصَّيِّ فِي نَارٍ فَإِنَّ الْحَرَ يَصِيرُ مَتَوَهِّجًا لَا يُمْكِنُ إِخْمَادُهُ، إِنَّ الَّذِي تَحْدُدوهُ الرَّغْبَةُ الشَّدِيدَةُ فِي أَنْ يَنْزَلَ إِلَى الْبَحْرِ وَيَمْضِي إِلَى وَسْطِ الْلُّجَّةِ يَنْغُمِرُ بِهَا وَيَتَوَارِي عَنِ الْأَنْظَارِ، أَمَّا مَنْ يَدْخُلُهُ خَطْوَةً خَطْوَةً فَإِنَّهُ يَرُومُ أَنْ يَطْفُؤَ فَوْقَهُ ثَانِيَّةً وَيَعْبُرُهُ فَيَخْرُجُ إِلَى الْمِينَاءِ وَيَنْظُرُ النَّاسَ عَلَى الْبَرِّ؛ هَكُذا أَيْضًا فِي الْعَالَمِ الرُّوحَانِيِّ يَدْخُلُ الْمَرْءُ إِلَى عَمَقِ النِّعَمَةِ ثُمَّ يَتَذَكَّرُ أَيْضًا رَفَقاءَهُ؛ وَالطَّبِيعَةُ نَفْسُهَا تَرْغُبُ فِي الْمُضِيِّ إِلَى الإِخْوَةِ وَتَكْمِيلِ الْمَجَّةِ وَتَتَمِيمِ الْكَلْمَةِ.

٧ - سؤال: كيف يمكن أن يكون في القلب الأمران: النعمة والخطيئة؟

(١) فلنرى كيف يجيب أئمَّا مقار على هذا السُّؤال بكلِّ جدُّهِ روحيٍّ ينتفي معه تمامًا أيُّ حُكْمٍ على الآخرين أو إدانة لهم، ويتوافق كلُّ التَّوَافُق مع ما سبق وقاله في العلة: ٣: ٢، ١، ٣.

الجواب: كما حينما تكون هناك نارٌ خارج إناء من نحاس، فإذا ما وضعت تحته حطباً فإن الإناء يُحْمَى وداخله يغلي ويفور جراء اتِّقاد النَّار تحته من خارج، أمّا إن كان أحد يتهاون بما يضع حطباً أسفلَ فإنَّ النَّار تأخذ في المفتوح حتى تكاد تنطفئ؛ كذلك أيضاً النِّعمة، التي هي النَّار السَّماوية، وهي داخلك وخارجك، فإن كنت تصلي وتعطي أفكارك طبَّةَ المسيح، فها أنت ذا تضع حطباً أسفلَ، فتفدو أفكارك ناراً وتغمر في الشَّوْق إلى الله، بل وحتى إنْ كان الرُّوح القدس ينحرس وكأنَّه قد بات خارجاً عنك، إلَّا أنَّه لا يربح داخلك ويظهر أيضاً خارجك. أمّا إنْ كان أحدٌ يتهاون، مُسْلِمًا نفسه قليلاً إمَّا إلى أمرِ عالمية أو إلى الطَّيش، فإنَّ الشَّرَّ يأتي مَرَّةً أخرى ويُلبِّس النَّفْسَ ويبداً يُضايق الإنسان بِكامله، فتذكَّر النَّفْسُ راحتها الأولى وتبدأ تغتمُ وتتحبَّ بلا انقطاع.

٨ - ومرةً أخرى يتباهي الدهن نحو الله، وتبتدئ الرَّاحَةُ الأولى تدنو منه، ويسرع يطلب بأكثر شدةً ويقول: ”أصرع إليك يا ربّ“. وقليلًا قليلاً تتزايد عليه النَّارُ التي تُضرِّم النَّفْسَ وترِيحها، كمثل ما ترفع الصِّنَارةُ السَّمْكَةَ من العمق قليلاً قليلاً. لأنَّه ما لم يكن قد ذاق هكذا المُرَّ والموت، فكيف يمكنه أن يميِّز المَرَّ من الحلو، والموت من الحياة، وأن يشكر الآبَ الحبي والابنَ والروح القدس إلى الدُّهور؟ آمين.

العظة الحادية والأربعون

التواضع يصون النعمة

[صيغة جدأ هي مخادع النفس التي تنمو جزئياً إما مع النعمة أو مع الشرور]

[ب] التواضع يصون النعمة

[أ] تغلغل الخطية في النفس



[أ] تغلغل الخطية في النفس

١ - إن إباء النفس الثمين لعمق شديد العمق، كما يقول في موضع: «هُوَ يَفْحَصُ الْعُمَقَ وَالْقُلُبَ» (سي ٤٢ : ١٨). فإنه لـمَا حاد الإنسان عن الوصيـة وأمسى تحت حكم الغضـب أحـكـمت الخطـيـة قـبـضـتها عـلـيـهـ، وحيـث إـنـا هـيـ ذـاـهـبـةـ بـعـدـ لـلـمـرـارـةـ يـنـسـلـلـ فـيـ خـفـقـةـ وـعـقـمـ، فـقـدـ نـقـذـتـ إـلـىـ الدـاخـلـ وـأـمـسـكـتـ بـمـرـاعـيـ النـفـسـ حـتـىـ أـعـقـمـ مـخـادـعـهاـ. بمـثـلـ هـذـهـ الطـرـيـقـةـ فـلـنـمـثـلـ النـفـسـ وـالـخـطـيـةـ الـمـتـزـجـةـ بـهـاـ بـمـثـلـ شـجـرـةـ عـظـيمـةـ جـدـاـ لـهـاـ أـغـصـانـ كـثـيرـةـ وـجـذـورـ تـضـرـبـ فـيـ أـبـعـدـ أـعـمـاقـ الـأـرـضـ؛ هـكـذاـ الخـطـيـةـ الـمـنـسـلـةـ لـمـاـ أـمـسـكـتـ بـمـرـاعـيـ مـخـادـعـ النـفـسـ الـعـمـيقـةـ، صـارـتـ عـادـةـ وـمـيـلـاـ تـنـمـوـ مـعـ كـلـ واحدـ منـ الطـفـولـيـةـ وـتـرـبـوـ مـعـهـ وـتـعـلـمـهـ الشـرـورـ.

[ب] التواضع يصون النعمة

٢ - فلذلك حين يُظلل النفس عمل النعمة الإلهية، وفقاً لقامة إيمان كل واحد، وتقبّل النفس معونة من فوق، فلا يزال تظلل النعمة هذا إلى الآن جزئياً. فلا يتوهّم أحد إذاً أن النفس قد استنارت بالكلية، فحتى الآن هنالك مرعى فسيح للشرّ في الداخل، ويقتضي الأمر من الإنسان تعاباً كثيراً وكذاً يتافق والنعمـة الصائرة إليه. لأنّه من أجل هذا أيضاً شرعت النعمة تفتقد النفس جزئياً مع كونها قادرة أن تُطهّر الإنسان وتكمّله في لحظة من الرّمان، وذلك لكيما تختبر حرّيّة إرادة الإنسان، أيحفظ محبيّه نحو الله تائهةً، غير مرتبط بالشرّ في شيء بل مُستِلّماً نفسه بالتمام للنعمـة. وهكذا لـما تترّكى النفس لأزمنة وأوقاتٍ ولا تُخزن النعمة في شيء ولا تزدرّها، تُعان شيئاً فشيئاً. والنـعمة نفسها تَتّخذ مرعى في النفس وتضرب بجذورها حتى أعمق أجزائها وأفكارها، فيما تكون النفس قد ترّكت عبر زمانٍ طويل وتوافقت مع النـعمة، إلى أن تُطوّق النفس بكلّيتها بالنعمـة السـماوية، وتملك النـعمة أخيراً في إماء النفس ذاته.

٣ - لكن إن كان هناك أحد ليس له تواضع كثير، يُسلم هذا للشّيطان ويُعرّى من النـعمة الإلهية التي صارت إليه و مجرّب بضيقـات كثيرة، وحينئذٍ ينكـشف ادّعاؤه إذ يوجد عرياناً وشقـياً. فينبغي إذاً لمن

هو غنيٌ في نعمة الله أن يلبث في تواضعٍ كثير وانسحاقٍ قلِبٍ، ويحسب نفسه كمسكينٍ لا شيء له، لأنَّ ما عنده ليس منه، وأخْرُ هو الَّذِي أسبغه عليه ومقى أراد نَزَعَه منه. فالَّذِي يُوضِعُ نفسه هكذا الله والنَّاسُ يمكنه أن يصون النِّعْمَة الصَّائِرَة إِلَيْهِ، كما يقول الرَّبُّ: «مَن يَضَعُ نَفْسَه يَرْتَفَعُ» (لو ١٤: ١١؛ ١٨: ١٤). حتَّى وإنْ يكن مختاراً من الله فليكن عند نفسه مرفوضاً، وإنْ يكن أميناً فليَحْسِبْ نفسه غيرَ مستحقٍ. مثل هذه التُّفُوس تُرضِي الله وتحيا في المسيح الَّذِي له المجد والقوَّة إلى دهر الدُّهُور، آمين.

العظة الثانية والأربعون

العدوُّ الرَّابِضُ فِي الدَّاخِلِ

[ليست الأمور الخارجية هي التي تقدم الإنسان أو تضره بل تلك الداخلية، أي روح النعمة أو روح الشر]

[أ] المسيح والروح القدس حصن للنفس [ب] الانتهاء لإنسان العيق في الداخل



[أ] المسيح والروح القدس حصن للنفس

١ - كما لو أنَّ هناك مدينةً عظيمةً قد خربت وتقوَّضت أسوارها، فأخذت من الأعداء وما نفعتها عظمتها شيئاً. فإنه بحسب عظمتها يلزم أن يكون تَوْحِيدها لأنَّ تكون لها أسوأ حصينة حتى لا يجد الأعداء إليها مَنْفَدًا؛ هكذا أيضًا النفوس التي قد ازدانت بالمعرفة والفهم والذهن الشديد الحدة هي أشبه بمدن عظيمة، إنما يلزم تَوْحِيدها أن تكون محصنة بقوة الروح القدس، لئلا يتسلل إليها الأعداء ويُخربوها. فإنَّ حكماء العالم كأرسطو وأفلاطون أو سocrates، لأنَّهم كانوا حكماء في المعرفة صاروا مثل مدن عظيمة، لكنَّها مدن قد أخرجاها الأعداء، وذلك بسبب عدم وجود روح الله فيهم.

٢ - لكنَّ كُلَّ الَّذِينَ هُمْ عَامِلُونَ، شركاء النعمة، هُمْ كمدين صغيرةٍ

محصنةٍ بقوَّةِ المَسِيحِ^(١)، إِنَّمَا مَتَّ سُقْطَوْا مِنَ النِّعَمَةِ فَإِنَّهُمْ يَهْلِكُونَ لِأَحَدٍ سَبَبَيْنِ: إِنَّمَا لِأَنَّهُمْ لَا يَصِرُّونَ عَلَى الظِّنَنَاتِ الْآتِيَةِ عَلَيْهِمْ، أَوْ لِأَنَّهُمْ تَمْتَعُوا بِلَذَّاتِ الْحَطَبَيَّةِ فَلَبِثُوا فِيهَا. فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِلْمُجْتَازِينَ أَنْ يَعْبُرُوا دُونَ تَجَارِبِ، فَكَمَا أَنَّ الشَّحَادَةَ وَالْمُلْكَةَ تَكَابِدَانِ عِنْدَ الولادةِ نَفْسَ آلامِ الْمَخَاضِ، بِالْمُثَلِّ أَيْضًا أَرْضَ الْغَنَيَّ وَأَرْضَ الْفَقِيرِ، مَا لَمْ تَنَالَا الْفِلَاحَةَ^(٢) الْوَاجِبَةَ لَا يُمْكِنُهُمَا أَنْ تَأْتِيَ بِشَمْرِ ذِي قِيمَةٍ؛ هَكُذا أَيْضًا فِي فِلَاحَةِ النَّفْسِ لَا يَمْلِكُ فِي النِّعَمَةِ لَا حَكِيمٌ وَلَا غَنِيٌّ، إِلَّا بَصَرٍ وَضِيقَاتٍ وَأَعْوَابٍ جَزِيلَةٍ، لِأَنَّ سِيرَةَ الْمُسِيَّحِيِّينَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَكُذا. وَكَمَا أَنَّ الْعَسْلَ، كَوْنُهُ حُلْوٌ الْمَذَاقُ، لَا يَقْبَلُ أَنْ يَشُوَّهَ شَيْءٌ مِنَ الْمَرَارَاتِ أَوِ السُّمُومِ؛ هَكُذا الْمُسِيَّحِيُّونَ هُمْ مُحْسِنُونَ لِكُلِّ الَّذِينَ يَدْتُونَ مِنْهُمْ، أَخْيَارًا كَانُوا أُمَّ أَشْرَارًا، كَمَا قَالَ الرَّبُّ: «كُوْنُوا مُحْسِنِينَ كَأَيْكِمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (لو ٦: ٣٦ - حَسْبُ النَّصِّ). لِأَنَّ مَا يَضُرُّ الْإِنْسَانَ وَيَنْجِسِهُ هُوَ مِنَ الدَّاخِلِ، كَمَا يَقُولُ الرَّبُّ: «إِنَّ مَا يُنَجِّسُ الْإِنْسَانَ هُوَ مِنَ الدَّاخِلِ، لِأَنَّ مِنَ الْقُلُوبِ تَخْرُجُ أَفْكَارٌ شَرِّيرَةٌ» (قارن: مت ١٥: ١٩، ١٨، ٢٠؛ مر ٧: ٢١).

(١) وَرَدَتْ فِي PG "الصَّلَبِ" τοῦ σταυροῦ "، بِدَلَّا مِنْ "الْمَسِيحِ" τοῦ Χριστοῦ". (PG 34, 769 D)

(٢) وَرَدَتْ فِي PG "الْسُّقْنَى" τὴν ἀρδείαν "، بِدَلَّا مِنْ "الْفِلَاحَةِ" ἐργασίαν . (PG 34, 769 D)

[ب] الانتباه للإنسان العتيق في الدّاخل

٣ - ففي الدّاخل إذا ثُمَّة روح شرِّ يدبُّ ويَسْعى في النَّفْس، روح عقلٌ مُحِرِّضٌ، الذِّي هو برع الظُّلْمَة^(١)، الإنسان العتيق، الذِّي يجب على الَّذِين يلْجأُون إلى الله أن يخلعوه ويلبسوا الإِنْسَانَ السَّمَاوِيَّ الْجَدِيدَ الذِّي هو المَسِيحُ. فعلى ذلك لا شيءَ من الْخَارِجِ بِمُسْتَطِيعٍ أَن يضرَّ الإِنْسَانَ، بل فقط روح الظُّلْمَة العائشُ والعاملُ والساكِنُ في القلبِ. فمن ثُمَّة يُنْبَغِي لِكُلِّ واحدٍ أَن يكونَ له جهادٌ في أفكارِه، حتَّى يضيَّءَ في قلبه المَسِيحُ الذِّي له المَحْدُ إلى الدُّهُورِ، أمِينٌ.

(١) انظر: حاشية هـ صفحة ٢٧٥ - العظة ١٤ .

العظة الثالثة والأربعون

حفظ القلب كأشد ما يكون الحفظ

[من تقدُّم الرَّجُلُ المُسِيحِيُّ، ذَلِكَ التَّقدُّمُ الَّذِي كُلُّ قوَّتِه مرهونةٌ بِالْقَلْبِ، كَمَا يَوْصِفُ هَذَا
بِطْرَقٍ شَتَّى]

[أ] المُسِيحِيُّون يُضَرِّمُونَ مِنْ سَرَاجِ الْأَلَاهُوتِ [ج] وَجُوبُ التَّحْفِظِ وَالْحِرْصِ إِلَى النِّهَايَةِ
[د] أَرْوَاحُ الشَّرِّ تَلْتَمِسُ مَرْغُى فِيهِمْ

[ب] الالتصاق الدائم بالرَّبِّ يُعْرِقُ الشَّيَاطِينَ



[أ] المُسِيحِيُّون يُضَرِّمُونَ مِنْ سَرَاجِ الْأَلَاهُوتِ فِيهِمْ

١ - كَمَا أَنَّهُ مِنَ النَّارِ تُشَعِّلُ سُرُّجُ كثِيرَةٍ وَمَصَابِيحُ مَتَّقِدةٍ، لَكُنْ كُلُّ
الْمَصَابِيحِ وَالسُّرُّجِ تُضَرِّمُ وَتُضَيِّءُ مِنْ طَبِيعَةٍ وَاحِدَةٍ؛ هَكُذا المُسِيحِيُّونْ أَيْضًا
يُضَرِّمُونَ وَيُضَيِّئُونَ مِنْ طَبِيعَةٍ وَاحِدَةٍ - مِنَ النَّارِ الْإِلَهِيَّةِ، مِنْ ابْنِ اللَّهِ،
وَيَقْتَنُونَ الْمَصَابِيحِ الْمَتَّقِدَةِ فِي قُلُوبِهِمْ وَيُضَيِّئُونَ أَمَامَهُ وَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا هُوَ
أَيْضًا، لَأَنَّهُ يَقُولُ: «لِأَجْلِ هَذَا مَسَحَّلَ اللَّهُ إِلَهُكَ بِزَيْتِ الْإِتْهَاجِ» (مز.
٤٤:٨ س؛ عَب١:٩). لَذِلِكَ فَقَدْ دُعِيَ هُوَ "الْمَسِيحُ"، لَكِي إِذَا مَا
مُسِخْنَا بِالْزَيْتِ نَفْسِهِ كَمَا مُسِخٌ هُوَ، نَصِيرُ نَحْنُ أَيْضًا مُسَحَّاءً، مِنْ طَبِيعَةٍ

واحدة - إنْ جاز القول - ومن جسده واحد، لأنَّه يقول أيضًا: «الْمُقْدِسُ وَالْمُقْدَسُونَ حَمِيعُهُمْ مِنْ وَاحِدٍ» (عب ٢ : ١١).

٢ - فالمسيحيون إذاً يشبهون، من أحد الوجوه، سُرُجًا لها زيت في ذواتها، الذي هو ثمر البر، لكن ما لم تُشَعَّل من سراج الألوهية فيها، فليست هي بشيء؛ فالرَّبُّ كان السراج الموقَد بروح الألوهية الحال فيه جوهرياً والمضرم قلبه بحسب ناسوته. فكما لو أن هناك كيساً رديناً ممتلئاً لآلئ، هكذا المسيحيون أيضًا ينبغي أن يكونوا مُذَلِّين بحسب الإنسان الظاهر ومحترقين^(١)، أمّا من داخلهم في إنماهم الباطن فيقتلون المؤلأة الكثيرة الشَّمَن^(٢). لكن هناك آخرون يُشبهون «قُبُورًا مُبَيَّضَةً»^(٣)، فمن الخارج مُزخرفون وحسانٌ جدًا أمّا من الداخل «فَمَمْلُوُونَ عِظَامٍ أَمْوَاتٍ»^(٤) ورائحةٌ تُتنَّى جدًا وأرواحًا نجسَة، فهم أمواتٌ عن الله ومتسللون بكلٍّ خزيٍّ ونجاسةٍ وظلمة العدو.

(١) حرفيًا: ”εὐκαταφρόνητοι“ = سهل احتقارهم .

(٢) انظر: مت ١٣ : ٤٦ .

(٣) مت ٢٣ : ٢٧ .

(٤) مت ٢٣ : ٢٧ .

[ب] الالتصاق الدائم بالرب يحرق الشياطين

٣ - فإنَّ الرَّسُول يقول إنَّ القاصر، ما دام صغيراً، فهو «تَحْتَ أَوْصِيَاءٍ وَوَكَلَاءَ»^(١) للأرواح الشَّرِّيرة، تلك الأرواح التي لا تزيد للقاصر أن ينمُّ حتى لا يشرع - إذا ما أصبح «رَجُلًا كَامِلًا»^(٢) - في أن يتَّقدَّمَ عن نَسِيَّه ويطالِب بسيادته. فينبغي للمسيحي أن يقتني ذِكْرَ الله في كُلِّ حين، لأنَّه مكتوب: «تَحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ» (تث ٦: ٥؛ مر ١٢: ٣٠)، لكي يحبَ الله، ليس فقط حين يدخل موضع الصَّلاة، بل حين يمشي وحين يتحدَّث وحين يأكل يقتني ذِكْرَ الله وحبه وغرامه. لأنَّه يقول: «عَيْنُتُ يَكُونُ عَقْلُكَ، هُنَاكَ يَكُونُ كَنْزُكَ أَيْضًا» (مت ٦: ٦ - حسب النَّصّ). فإنَّ ما يُرِيَطُ به قلبُ أحدٍ، وحيث تجذبه شهوَتُه، فذاك هو إلهه، فإنْ كان القلب في كُلِّ حين يشتهي الله، فالله يكون ربَّ هذا القلب. أمَّا إنْ كان أحدٌ بعد أن هَجَرَ الكلَّ وصار مُعدَّماً ولا مدينة له وصائماً، لا يزال مريوطاً بذاته أو بالأمور العالَّمة أو بيته أو بمحبَّة والديه، فحيث رُيَطَ قلبه وسُيِّعَ عقلُه، فذاك هو إلهه، وفيما يوجد خارجاً من العالم من بوابته الواسعة، يتسلَّل من الباب الجانِي ويُسقط في العالم. وكما أنَّ العيَّدان المُلْقَأة في النار لا يمكنها أن تصمد قبالة قُوَّةِ النار لكنَّها تحترق

(١) غل ٤: ١.

(٢) أف ٤: ١٣.

في الحال تماماً، هكذا أيضاً الشياطين إذا ما ابتغت أن تحارب إنساناً قد غداً أهلاً للروح القدس تحرق وتلتهم بقوّة النار الإلهيّة. فقط ليكن الإنسان ملتصقاً بالرُّبٍ في كلِّ حين، واضعاً ثقته ورجاءه فيه. فلن تكن الشياطين قويّة قوّة جبارٍ من حديد، فإنهما تحرق من الصلاة مثل الشّمع من النار، غير أنَّ جهاداً عظيماً منصوبٌ للنفس في غضون هذا، وحرجاً ضدّهم، فهناك أنحصار تنانين وأفواه أسود ونارٌ مستعرّة في النفس. وكما أنَّ فاعل الشرور الذي بلغ ذروّهما، حين يسخر بروح الضلال أو يقتل أو يزني لا يتبع من الشرّ؛ كذلك المسيحيون أيضاً الذين اصطبغوا بالروح القدس يصيرون بلا خبرة في الشرّ. أمّا الذين يقتنون النّعمة ولا يزالون بعدُ متزجين بالخطيئة، فهولاء يكونون تحت خوفٍ ويسلكون عبراً مواضع مخيفة.

[ج] وجوب التّحفظ والحرص إلى الْتِهَايَة

٤ - لأنَّه كما أنَّ التجار الذين أبحروا ولمَّا يبلغوا الميناء بعد، حتَّى وإنَّ وجدوا ريحًا موافقةً ومحرراً هادئاً، يلبثون تحت خوفٍ لئلاً تثور ريحٌ مضادةً بعنةٍ فيمُور البحرُ ويصير المركب في خطر؛ هكذا المسيحيون أيضاً حتَّى وإنَّ كان لهم في أنفسهم ريح الروح القدس تحبُّ مؤاتيةً، إلاَّ أنَّهم لا يرحون تحت خوفٍ لئلاً تهبَّ ريح القوّة المعادية وتأتي عليهم فشیر اضطراباً وتصبح نفوسيّهم في خطر. فالحاجة إذاً إلى اجتهادٍ كثير لكيما نصل إلى ميناء

الرَّاحَةُ، إِلَى الْعَالَمِ الْكَامِلِ، إِلَى التَّنَعُّمِ الْأَبْدِيِّ، إِلَى مَدِينَةِ الْقَدِيسِينَ، إِلَى
أُورْشَلِيمِ السَّمَائِيَّةِ^(١)، إِلَى كَيْسَةِ الْأَبْكَارِ^(٢). أَمَّا إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يَجْتَازُ تَلْكَ
الْقَامَاتِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ تَحْتَ خَوْفٍ كَثِيرٍ لَعْلَّا فِي أَشَاءَ هَذَا ثَدِيرٌ لِهِ الْقُوَّةُ
الشَّرِّيرَةُ سَقْطَةً.

٥ - وَكَمَا أَنَّ الْمَرْأَةَ مَتَّ حِيلَتْ فَإِنَّهَا تَقْنِي طَفَلًا فِي دَاخِلِهَا، فِي ظَلْمَةٍ -
إِنْ جَازَ الْقَوْلُ - وَفِي مَوْضِعٍ كَثِيفٍ. فَإِذَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ خَرَجَ الطِّفْلُ
فِي الزَّمَانِ الْمُعَيْنِ، فَإِنَّهُ يَنْظَرُ خَلِيقَةً جَدِيدَةً مَا رَأَاهَا قَطْ: سَمَاءً وَأَرْضًا
وَشَمَسًا، وَلِلْحَالِ يَحْمِلُهُ الْأَحْبَاءُ وَالْأَقْرَبَاءُ عَلَى أَذْرِعِهِمْ بِوْجُوهٍ مُسْتَبِشَّةٍ؛ أَمَّا
إِنْ حَدَثَ، لِعَارِضٍ مَا، وَتَحرَّكَ الطِّفْلُ مِنْ مَوْضِعِهِ بِالدَّاخِلِ، فَالْأُمْرُ يَقْتَضِي
مِنَ الْأَطْبَاءِ الْمَنْوَطِ بِهِمُ الْأُمْرُ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا الْمِيَضَعَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَوْجِدُ
الطِّفْلُ مِنْتَقَلاً مِنْ مَوْتٍ إِلَى مَوْتٍ، وَمِنْ ظَلْمَةٍ إِلَى ظَلْمَةٍ. تَفَهَّمُ هَكُذا أَيْضًا
بِالْمَعْنَى الرُّوحِيِّ: فَكُلُّ الَّذِينَ قُبِّلُوا بِذَرَّةِ الْلَّاهُوتِ، هُؤُلَاءِ يَقْتُنُونَهُ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ
مَنْظُورَةٍ، وَبِسَبِيلِ الْخَطِيئَةِ الْمَلَازِمَةِ لَهُمْ يُخْفَونَهُمْ فِي مَوَاضِعَ مَظْلَمَةٍ وَمَخِيفَةٍ. فَإِذَا
مَا صَانُوا ذَوَاتِهِمْ وَحَفَظُوا الزَّرْعَ فَإِنَّهُمْ فِي الزَّمَانِ الْمُعَيْنِ يُولَدُونَ مِنْ جَدِيدٍ
جَهَارًا، وَبَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَ اخْتِلَالِ أَجْسَادِهِمْ تَقْبِلُهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَكُلُّ الْخَوارِسِ
الْعَلَوِيَّةِ بِوْجُوهٍ مُسْتَبِشَّةٍ؛ أَمَّا إِنْ ارْتَخَى ذَاكُ الَّذِي قِيلَ أَسْلَحَةُ الْمُسِيحِ

(١) انظر: عب ١٢:٤٤.

(٢) انظر: عب ١٢:٤٣.

ليحارب برجولة، فللحال يُسلّم مثلًّا هذا للأعداء، وعند اخلال جسده، فمن الظلمة التي تُلْفُه الآن ينتقل إلى ظلمةٍ أخرى أشدّ وطأةً وإلى الملاك.

[د] أرواح الشَّرِّ تلتمس مرتعَيَّ فيما

٦ - كما لو كان هناك فردُوْسٌ يحوي أشجارًا مثمرة وأغراضًا أخرى عطرة الرائحة وجميعها مُعْتَنَى بها جيًّداً ومجملةً، وهو - إلى ذلك - له سورٌ صغير عِوْضٌ سياجٌ لصونه. ثم يُتَّفقُ أنَّ هنَّرًا ثائِرًا يجتاز هناك، فحتَّى لو أَنَّ ماءً يسيراً يصدِّم السُّورَ ويُفْسِدُ الأساسَ شيئاً فشيئًا فإنَّه يجد مَنْفَدًا له وقليلًا قليلاً ينقضُ الأساسَ، وحين يدخل يشقُّ طريقَه وسط كلِّ المزروعات ويقتلعها ويُلْاْشِي كلَّ هذا العمل ويجعله بلا ثمر؛ هكذا يكون أيضًا قلب الإنسان: فهو يحوي الأفكار الحسنة، لكنَّ في كلِّ وقتٍ تدُنُّو من القلب أيضًا أنهاُرُ الشَّرِّ ومارِبُّها أنْ تُسْقِطَه وتُلْقِيه في نصيبيها. فإنَّ وِجْدَ العقل متراخيًا قليلاً ومُذْعِنًا للأفكار النَّجْسَة، فها أرواحُ الضَّالِّلَ قد ظُفِرت بمرعى ووُجِدت مدخلاً وأفسَدَت المحسنَ هناك ولاشت الأفكار الصالحة وأفقرت التَّفَسُّ.

٧ - وكما أنَّ العينَ صغيرةً بالقياس إلى سائر الأعضاء، بل وإنسانُ العينِ نفسه، على صغره، هو إِنَاءٌ عظيمٌ إذ بلمحةٍ واحدةٍ ينظر السماء

والنُّجوم والشَّمْس والقمر والمدن والخلائق الأخرى، بالمثل أيضًا كلُّ ما يُرى
بلمحةٍ واحدة يتَّسَعُ ويُصَوَّر في إنسان العين الصَّغِير؛ هكذا أيضًا الْدَّهْن
الَّذِي في القلب: فالقلب نفسه إِنَّمَا صغير، وهناك التَّنَانِين وهناك الأَسْوَد،
هناك الوحوش السَّامَة وكلُّ كنوز الشَّرِّ، هناك الطُّرُق الخشنة الوعرة وهناك
الْوُهْدَان؛ بالمثل أيضًا هناك الله وهناك الملائكة، هناك الحياة والملائكة،
هناك النُّور والرَّسُل، هناك المدن السَّمَاوَة، هناك كنوز التِّعْمَة، هناك كلُّ
شيء. لأنَّه كما يكون ضبابٌ يُعْشِي كُلَّ المُسْكُونَة فلا يَرَى إِنْسَانٌ الْآخِر،
هكذا أيضًا ظلمة هذا الْدَّهْن تُعْشِي كُلَّ الْخَلِيقَة وكلَّ طبَيعَةِ الإِنْسَانِ مِنْذِ
الْمُخَالَفَةِ، لِذَلِكَ الَّذِينَ تَغْشَاهُمُ الظُّلْمَةُ هُمْ فِي لَيْلٍ وَيَسْلُكُونَ فِي مَوَاضِعِ
مُخْيِفَةٍ. وكما يكون هناك دَحَانٌ كثيفٌ في بَيْتٍ وَاحِدٍ، هكذا أيضًا الْخَطِيَّةُ
مع أَفْكَارِهَا الْأَثِيمَة تَنْسَلُ خُلْسَةً إِلَى أَفْكَارِ الْقَلْبِ وَتَقْبَعُ هُنَاكَ، وَمَعَهَا
حَسْدٌ لا يُحْصَى مِنَ الشَّيَاطِينِ.

٨ - وكما أَنَّه في الأمور المنظورة حين تندرع حربٌ لا يمضي الحُكْماء
والعُظَمَاء بل يتخَلَّفُون خوفاً من الموت، بينما يُزَجُّ بالجنود والفقراء والعَامِيَّين
في المقدِّمة. ثُمَّ حين يظفرون بالأعداء ويطردونهم من تخومهم وينالون جوائزَ
الْعَلَيْبَةِ والأَكَالِيلِ من الملك ويحظُون بالمراتبي والكرامات، يوجد أولئك
العُظَمَاء خلف هؤلاء؛ هكذا أيضًا في الجانب الروحاني: فالعَابِرُون حين

يسمعون الكلمة من البدء، فبفكريٍّ محِّت للحق يُقدِّمون على العمل بما وينالون من لدن الله نعمة الرُّوح القدس، أمَّا الحكماء والذين يطلبون الكلمة بحِمَةٍ خائرة، فهؤلاء يُفْرُّون من الحرب ولا يتقدَّمون بل يوجدون خلفَ الَّذين يحاربون ويتصرُّون.

٩ - وكما أنَّ الرِّياح حين تَعصف عصفاً عنِيفاً تُحرِّك كلَّ المخلوقات التي تحت السَّماء وتُدُوِّي عالِيَاً، هكذا قوَّةُ العدو تُصدِّم الأفكار وتحملها وترُبِّعُ أعماق القلب نحو مشيئة العدو المخَاصَّة وتشتَّتُ الأفكار لخدمته. فكما أنَّ العَشَّارين يجلسون عند الْطُّرق الضَّيقَة ويسكُونُ بالمازِين ويسلُّبونهم، هكذا أيضًا الشَّياطين تَرْقُبُ النُّفوسَ عن كِتبٍ وثُمِسِكَ بها. وعند خروجها من أجسادها، إنْ لم تكن قد تَطَهَّرت بالتَّمام، فما ياذنون لها بالصُّعود إلى مراقي السَّماء وملاقاة سِيدِها، إذ تُحدِّرُها شياطين الهواء إلى أَسفل. أمَّا إنْ كانوا، وهم بعدُ في الجسد، ينالون النِّعمة من الأعلى من عند الرَّبِّ بتعِيبٍ وجهادٍ كثيرٍ، فواضحةٌ أنَّ هؤلاء سينطلقون إلى الرَّبِّ، مع أولئك الَّذين بلغوا الرَّاحَة بسيرِكم الفاضلة، كما وَعَدَ هو: «حَيْثُ أَكُونُ أَنَا هُنَاكَ أَيْضًا سَيَكُونُ خَادِمِي» (يو ١٢: ٢٦)، وسيملكون إلى الدُّهُور الَّتِي لا نَهايَةَ لها مع الآب والابن والرُّوح القدس إلى دهور الدُّهُور، آمين.

العظة الرابعة والأربعون

الرب يغير النفس ويجددها

[أ] تغيير وتجديـد في الإنسان المسيحي يجريه المسيح الذي يـشـفـي أهـوـاءـ النـفـسـ وأمـراضـهاـ]

[أ] الـربـ يـغـيرـ النـفـسـ الـوـحـشـيـةـ إـلـىـ الصـلـاحـ

[ج] الرـوحـ الـقـدـسـ يـطـيـرـ بـالـنـفـسـ فـوـقـ هـذـاـ الـعـالـمـ

[بـ] الـربـ هو طـيـبـ النـفـسـ الـحـقـيقـيـ

[دـ] مـسـيـحـ الرـبـانـ الـبـارـعـ لـسـفـيـنـةـ النـفـسـ



[أ] الـربـ يـغـيرـ النـفـسـ الـوـحـشـيـةـ إـلـىـ الصـلـاحـ

١ - الـذـيـ يـتـقدـمـ إـلـىـ اللهـ وـيـرـومـ حـقـاـ أنـ يـكـونـ جـلـيـسـاـ^(١) لـمـسـيـحـ،ـ يـلـزـمـهـ لأـجـلـ هـذـهـ الغـاـيـةـ أـنـ يـتـقدـمـ لـيـتـغـيـرـ وـيـتـحـوـلـ عـنـ حـالـتـهـ وـسـيـرـتـهـ السـالـفـةـ،ـ وـيـغـدـوـ إـنـسـانـاـ صـالـحـاـ وـجـدـيـدـاـ لـاـ يـحـمـلـ شـيـئـاـ مـنـ إـلـاـنـسـانـ العـتـيقـ،ـ لـأـنـهـ يـقـولـ:ـ «إـنـ كـانـ أـحـدـ فـيـ مـسـيـحـ فـهـوـ خـلـيقـةـ جـدـيـدـةـ»^(٢) (كو ٥: ١٧).ـ فـإـنـ رـبـاـ^(٣) لأـجـلـ هـذـاـ قـدـأـتـىـ،ـ لـكـيـ يـغـيـرـ الطـبـيـعـةـ وـيـحـوـلـهـاـ وـيـجـدـدـهـاـ وـيـخـلـقـ ثـانـيـةـ هـذـهـ النـفـسـ الـتـيـ طـوـحـتـ بـهـ أـهـوـاءـ بـسـبـبـ المـخـالـفـةـ،ـ مـازـجـاـ إـيـاهـاـ بـرـوـحـهـ الـخـاصــ رـوـحـ الـأـلوـهـةـ؛ـ يـخـلـقـهـاـ ذـهـنـاـ جـدـيـدـاـ،ـ وـنـفـسـاـ جـدـيـدـةـ،ـ وـعـيـونـاـ جـدـيـدـةـ،ـ وـآذـانـاـ جـدـيـدـةـ،ـ وـلـسـانـاـ جـدـيـدـاـ رـوـحـانـيـاـ^(٤).ـ وـمـجـمـلـ القـولـ إـنـهـ قـدـأـتـىـ

(١) $\pi\alpha\rho\epsilon\delta\rho\sigma$ = جـالـسـ بـجـانـبـ.

(٢) تـضـيـفـ نـسـخـةـ PGـ هـنـاـ "يـسـوعـ الـمـسـيـحـ" (PG 34, 780 A).

(٣) انـظـرـ:ـ الـعـظـةـ ٢ـ:ـ ٤ـ (ـنـهاـيـةـ الـفـقـرـةـ).

ليجعل من الَّذِين يؤمنون به أَنَّاساً جُدُّداً، أو أَزْفاقاً جديداً، ماسحَا إِيَّاهَا بنور معرفته الخاصّ، لكي يضع فيها الخمر الجديدة الَّتِي هي روحه، لأنَّه يقول: «الْخَمْرُ الْجَدِيدَةُ يَلْزَمُ^(١) أَنْ تُوَضَّعَ فِي زَقِّ الْجَدِيدِ» (لو ٥: ٣٨).

٢ - فكما أَنَّ العدُوَّ لِمَا أَحْكَمَ قبضَتِه عَلَى الإِنْسَانِ، جعله جديداً لنفسه وألقى فيه خمَرَ كُلِّ إِثْمٍ وتعلِيمٍ شَرِّيرٍ، كاسِيَا إِيَّاهُ بِأَهْوَاءِ الشَّرِّ وما سَحَّ إِيَّاهُ بِرُوحِ الْخَطِيئَةِ؛ هكذا الرَّبُّ أَيْضًا لِمَا افتداه من العدُوَّ، جعله جديداً، ماسحَا إِيَّاهُ بِرُوحِهِ الْخَاصِّ، وسَكَبَ فِيهِ خمَرَ الْحَيَاةِ الَّذِي هو تَعْلِيمُ الرُّوحِ الْقَدِيسِ الْجَدِيدِ. فَإِنَّ الَّذِي غَيَّرَ طَبِيعَةَ الْخَمْرِ خَبِزَاتٍ إِلَى كَثْرَةٍ^(٢)، وَالَّذِي أَعْطَى صَوْتاً لطَبِيعَةِ الْحَمَارِ غَيْرِ النَّاطِقةِ^(٣)، وَالَّذِي حَوَّلَ الزَّانِيَةَ إِلَى الْعَفَّةِ، وَالَّذِي هَيَّأَ طَبِيعَةَ النَّارِ الْمُحْرَقَةِ لِتَشَدِّيَ عَلَى الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَئْوَنِ^(٤)، وَالَّذِي ذَلَّ لِدَانِيَال طَبِيعَةَ الْأَسْوَدِ، الْوَحُوشَ الْبَرِّيَّةَ^(٥)، هُوَ قادِرٌ كَذَلِكَ أَنْ يُغَيِّرَ مِثْلَ هَذِهِ النَّفْسِ الْخَرِبَةِ الْخَرُونِ، مِنَ الْخَطِيئَةِ إِلَى صَلَاحِهِ وَلَطْفِهِ وَسَلَامِهِ، «بِرُوحِ الْمُؤْعِدِ الْقُدُّوسِ»^(٦) الصَّالِحِ.

(١) بحسب الترجمة الأدق لكلمة بَرْزَقَهُ.

(٢) انظر: مت ١٤: ١٧-٢١؛ مر ٦: ٤٥-٣٨؛ ٤: ٩؛ لو ٩: ١٣-١٧.

(٣) انظر: عد ٢٢: ٢٨.

(٤) انظر: دا ٣: ٥٥ س.

(٥) انظر: دا ٦: ٢٣.

(٦) أف ١: ١٣.

[ب] الرَّبُّ هو طبيب النفس الحقيقي

٣ - لأنَّه على غِرار الرَّاعي الَّذِي يستطيع أنْ يُشْفِي الْخَرُوفَ الْأَجْرَبِ وَيُحِسِّنَهُ مِنَ الذِّئْابِ، بِالْمُثْلِ أَيْضًا الْمَسِيحُ، الرَّاعِي الْحَقِيقِيُّ، لِمَا أُتِيَ استِطاعَ وَحْدَهُ أَنْ يُشْفِي الْخَرُوفَ الْصَّالِحَ وَالْأَجْرَبَ، الَّذِي هُوَ الإِنْسَانُ، وَيُرَدِّهُ مِنْ جَرِبِ الْخَطِيئَةِ وَيَرْصُدُهَا. لِأَنَّ الْكَهْنَةَ وَالْأَلْوَاتِينَ وَالْمُعْلَمِينَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلًا مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يُشْفِفُوا النَّفْسَ بِتَقْدِيمِ الْقَرَابِينَ وَالْذَّبَائِحِ وَرِشَّ الدَّمِ، لَا وَلَا حَتَّى ذَوَاهُمْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يُشْفِفُوهَا، لِأَنَّهُمْ هُمْ أَيْضًا مُخَاطِبُونَ بِالْعَصَفِ^(١)، لِأَنَّهُ يَقُولُ: «لَا يُمْكِنُ أَنَّ دَمَ ثِيرَانٍ وَثِيُوسٍ يَرْفَعَ خَطَايَا» (عِبْرَانِي ٤: ١٠)؛ أَمَّا الرَّبُّ، فَلَكِي يُبَيِّنَ ضَعْفَ الْأَطْبَاءِ آنذاكَ، قَالَ: «عَلَى كُلِّ حَالٍ تَقُولُونَ لِي هَذَا الْمُثَلُ أَيْكُلُهَا الطَّيِّبُ اشْفِي نَفْسَكُ» (لو ٤: ٢٣)، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: «إِنِّي لَسْتُ مُثَلَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يُشْفِفُوا وَلَا حَتَّى ذَوَاهُمْ. أَنَا الطَّيِّبُ الْحَقِيقِيُّ وَالرَّاعِي الصَّالِحُ الَّذِي أَصْبَعَ نَفْسِي مِنْ أَجْلِ الْخَرَافِ^(٢)، الْقَادِرُ أَنْ أَشْفِي كُلَّ مَرْضٍ وَكُلَّ ضَعْفٍ لِلنَّفْسِ^(٣). أَنَا هُوَ الْخَرُوفُ الَّذِي بِلَا عِيْبٍ الَّذِي «قَدِيمٌ مَرَّةً وَاحِدَةً»^(٤)، الْقَادِرُ أَنْ أَشْفِي الَّذِينَ يَتَقدِّمُونَ إِلَيَّ». لِأَنَّ شَفَاءَ النَّفْسِ الْحَقِيقِيِّ

(١) انظر: عِبْرَانِي ٥: ٢.

(٢) انظر: يو ١١: ١٠؛ وأيْضًا: حاشية ٢ صفحَة ٣٧٢ - العَظَة ٢٠.

(٣) وَرَدَتْ هَاتَانِ الْكَلِمَتَيْنِ "كُلَّ مَرْضٍ وَكُلَّ ضَعْفٍ πάσαν νόσον καὶ πάσαν μαλακίαν" هُكْمًا مُتَجَاوِرَيْنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَقْطًا فِي الْكِتَابِ الْمَقْدِسِ، وَفِي هَذِهِ الْمَوْاضِعِ الْثَّلَاثَةِ جَمِيعَهَا يُوصَفُ بِمَا عَمِلَ الْمَسِيحُ (مت ٤: ٩، ٢٣؛ ٩: ٤٣٥؛ ١٠: ١).

(٤) عِبْرَانِي ٩: ٢٨.

يتأتى من ربّ وحده، لأنّه يقول: «هُوَ ذَا حَمَلَ اللَّهُ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيئَةَ الْعَالَمِ» (يو ١: ٢٩)، أي خطيئة النفس التي آمنت به وأحببته من كل قلبها.

٤ - فالراعي الصالح إذا يشفى الحروف الأجرب، أمّا الحروف فما يستطيع أن يشفى حروفاً؛ وإذا لم يُشفَّفَ الحروف الناطق أي الإنسان، فإنه لا يدخل إلى «كنيسة الرّبّ» السّماوية^(١)، إذ هكذا قد قيل في النّاموس خلال ظلٍّ ورمزٍ. فإنه بشأن الأبرص والّذي فيه عيوب يلمّح الروح مشيراً إلى هذه الأمور فيقول: «لَا يَدْخُلُنَّ الْأَبْرَصُ وَالَّذِي فِيهِ عَيْبٌ إِلَى كَنِيسَةِ الرَّبّ» (قارن: لا ٢١: ٢١؛ تث ٢٣: ٣-١؛ لا ٢١: ٢١-١٨). لكنه أمر الأبرص بأن يمضي إلى الكاهن ويطلب إليه كثيراً بأن يجيء إلى بيت خيمته، ليشير هو له على موضع ضربة البرص، فيضع الكاهن يديه على البرص ويشفيه؛ على ذات المثال أيضًا المسيح «رَئِيسُ كَهْنَةِ الْحَيَّاتِ الْعَتِيدَةِ»^(٢) الحقيقي، حين ينعنع على النفوس البرصاء ببرص الخطيئة حالما تدعوه، فإنه يدخل إلى خيمة أجسادها ويشفى أهواءها ويداويها، وهكذا تتمكن النفس من الدخول إلى كنيسة القديسين السّماوية، كنيسة إسرائيل الحقيقي. لأنّ كلّ نفس تحمل برص أهواء الخطيئة ولا تتقدّم الآن إلى رئيس الكهنة

(١) عبارة «كنيسة الرّبّ» عبارة شائعة في التّرجمة السّبعينية (تكررت سبع مرات)، وهي مُترجمة «جامعة الرّبّ» في التّرجمة العربية الّدارجة عن العبرية (انظر: تث ٢٣: ٢، ٤؛ ٢٣: ٤، ٥؛ ٢٣: ٤، ٥). .

(٢) عب ٩: ١١.

الحقيقي وَتُشَفِّي، فلن تدخل إلى معسكر^(١) القدِيسين أَيِ الكنيسة السَّمَاوِيَّة. فلائَنَّ هذه الكنيسة بلا عَيْبٍ وَنَقِيَّةٌ فَإِنَّمَا تطلب نفوسًا بلا عَيْبٍ وَنَقِيَّةٌ، لَأَنَّهُ يَقُولُ: «طُوبَى لِأَقْيَاءِ الْقُلُوبِ، لِأَنَّهُمْ يَعَايِنُونَ اللَّهَ» (مت ٥: ٨).

[ج] الروح القدس يطير بالنفس فوق هذا العالم

٥ - فينبغي للنَّفْسِ الَّتِي تؤمن حَقًّا بِالْمَسِيحِ أَنْ تنتقل وَتَتَغَيَّرَ مِنْ سِيرَتِهِ الشَّرِّيرَةِ الْمَاضِيَّةِ إِلَى سِيرَةِ أُخْرَى صَالِحةٍ، وَمِنْ طَبِيعَتِهِ الدَّلِيلَةِ الْمَاضِيَّةِ إِلَى طَبِيعَةِ أُخْرَى إِلهَيَّةٍ، وَأَنْ تَتَجَدَّدْ بِقُوَّةِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ، وَهَكُذا يُمْكِنُهَا أَنْ تَكُونْ لَائِقَةً بِالْمَلَكُوتِ السَّمَاوِيِّ. أَمَّا الْحَصُولُ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ فَيَتَحَقَّقُ لَنَا إِنْ كَانَ نَوْمُنَا بِهِ وَنَجْبُهُ بِالْحَقِّ وَنَسْلُكُ فِي جَمِيعِ وَصَابِيَّاتِ الْمَقْدِسَةِ. لَأَنَّهُ إِنْ كَانَ فِي زَمَانِ أَلْيُوشَ الْئَيِّ، لَمَّا أَلْقَيَتِ الْخَشِبَةَ - وَهِيَ بِطَبِيعَتِهِ خَفِيفَةٌ - فِي الْمَيَاهِ رَفَعَتِ الْحَدِيدَ التَّقِيلَ بِطَبِيعَتِهِ^(٢)، فَكُمْ بِالْأُخْرَى هُنَا يَرْسِلُ الرَّبُّ رُوحَهُ الْخَفِيفِ النَّشِيطِ الصَّالِحِ السَّمَاوِيِّ، وَبِوَاسِطَتِهِ يَرْفَعُ النَّفْسَ الَّتِي قَدْ أُغْرِقَتِ فِي مَيَاهِ الشَّرِّ، وَيُصَبِّرُهَا خَفِيفَةً وَيُبَيِّنُ لَهَا أَجْنَحَّةً فَتُثَحِّلِقُ فِي أَعْلَى السَّمَاوَاتِ، وَيَنْقُلُهَا وَيُغَيِّرُهَا مِنْ طَبِيعَتِهِ الْخَاصَّةِ.

(١) παρεμβολή، انظر: حاشية ١ صفحَة ٢٧٧ - العظة ١٤؛ وحاشية ١ صفحَة ٢٩٨ - العظة ١٥.

(٢) انظر: مل ٦: ٦.

٦ - وكما أَنَّه في الأمور الظاهرة ليس أحدٌ يستطيع من ذاته أن يَعْبِر البحر ويَجْتَازه إِلَّا إذا كان له سفينةٌ سريعةٌ خفيفةٌ قد صُنعت من الخشب، تلكِ الَّتِي وحدها تستطيع أن تمشي فوق الماء، إذ إِنَّ مَن يَصْدُعُ إِلَى البحْر يغرق ويَهْلِك؛ بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ لَا تُسْتَطِعُ النَّفْسُ مِنْ ذَاتِهِ أَنْ تَجْتَازَ وَتَتَخْطَّى وَتَعْبُرَ بَحْرَ الْحَطِيشَةِ الْمُرَّ وَلَجَّةَ الْقَوَافِتِ الشَّرِيرَةِ الصَّعْبَةِ الَّتِي لَظَلَمَةُ الْأَهْوَاءِ، إِلَّا إِذَا قَبَلَتْ رُوحُ الْمَسِيحِ الْخَفِيفَ السَّمَاوِيَّ ذَا الْأَجْنَحَةِ الصَّالِحةِ، ذاكُ الَّذِي يَمْشِي فَوْقَ كُلِّ الشَّرِّ وَيَعْبُرُهُ، وَالَّذِي بِوَاسِطَتِهِ تَتَمَكَّنُ النَّفْسُ مِنَ الْوُصُولِ مُبَاشِرَةً وَبِاستِقْامَةٍ إِلَى مِبْنَاءِ الرَّاحَةِ السَّمَاوِيِّ، إِلَى مَدِينَةِ الْمَلَكُوتِ. لَكِنْ كَمَا أَنَّ الَّذِينَ فِي السَّفِينَةِ لَا يَسْتَقْوِنُ مَاءً مِنَ البحْرِ وَيَشْرِبُونَهُ وَلَا يَقْتَنُونَ مِنْهُ ثَيَابَهُمْ وَلَا طَعَامَهُمْ، بَلْ مِنَ الْخَارِجِ يَأْتُونَ بِهَذِهِ فِي السَّفِينَةِ؛ هَكُذا نُفُوسُ الْمُسِيحِيِّينَ تَحْصُلُ عَلَى طَعَامٍ سَمَاوِيٍّ وَثِيَابٍ رُوحَانِيَّةٍ، لَا مِنْ هَذَا الدَّهْرِ بَلْ مِنْ فَوْقِهِ، مِنَ السَّمَاءِ، وَإِذْ تَحْيَا مِنْ هَنَاكَ وَتُبَعِّرُ فِي سَفِينَةِ الرُّوحِ الصَّالِحِ وَالْمُحْيِيِّ، تَجْاوزُ الْقَوَافِتِ الْمَعَادِيةِ الشَّرِيرَةِ الَّتِي لِلرُّؤْسَاءِ وَالسَّلَاطِينِ. وَكَمَا أَنَّهُ مِنْ طَبِيعَةِ الْخَشْبِ الْوَاحِدَةِ ثُبَّئَ كَافَةُ الْقَوَارِبِ الَّتِي بِهَا يَتَسَوَّلُ لِلنَّاسِ أَنْ يَعْبُرُوا بَحْرَ الْمُرَّ، هَكُذا كُلُّ نُفُوسِ الْمُسِيحِيِّينَ إِذَا مَا نَالَتِ الْقَوَّةَ مِنَ الْلَّاهُوتِ الْوَاحِدِ ذِي التُّورِ السَّمَاوِيِّ وَمِنْ مَوَاهِبِ الرُّوحِ الْوَاحِدِ الْمُتَنَوِّعَةِ، تُحْلِقُ عَالِيًا فَوْقَ كُلِّ الشَّرِّ.

[د] المسيح الرَّبُّ الْبَارِعُ لِسَفِينَةِ النَّفْسِ

٧ - ولأنَّ السَّفِينةَ يُعَوِّزُهَا أَيْضًا رَبِّانٌ وَرَبِّحُ موافقةً طَيِّبةً لِكِيمَا تُبَحِّرُ حَسَنًا، فَهَذِهِ جَمِيعًا هِيَ الرَّبُّ نَفْسُهُ الْحَاضِرُ فِي النَّفْسِ الْمُؤْمِنَةِ وَالْعَابِرِ بِهَا الْعَاصِفَ الْمُرْءَوَةَ وَأَمْوَاجَ الشَّرِّ الْعَاتِيَةَ وَزَوْابِعَ رَبِّحَ الْخَطِيعَةِ الْعَاصِفَةَ، بِيَاسِ وَخُنْكَةٍ وَدَرَايَةَ، كَمَا يَعْلَمُ هُوَ، مُبْطِلًا ثُورَانَهَا. فِيَدِونَ الْمَسِيحَ، الرَّبِّانَ السَّمَاوِيَّ، هِيَهَاتٌ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْبُرَ بَحْرَ قَوَاتِ الظُّلْمَةِ الشَّرِّيرِ وَأَنْوَاعَ التَّجَارِبِ الْمُرَّةِ، لَأَنَّهُ يَقُولُ: «يَصْعَدُونَ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَيَهُبِطُونَ إِلَى الْأَعْمَاقِ» (مز ١٠٦ : ٢٦ س). فَالْمَسِيحُ لَهُ كُلُّ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي لِرَبِّانٍ حَادِقٍ فِي الْحَرُوبِ وَالْتَّجَارِبِ، فَيُبَحِّرُ فَوْقَ الْأَمْوَاجِ الْعَاتِيَةِ، لَأَنَّهُ يَقُولُ: «فِي مَا هُوَ قَدْ تَأَلَّمَ مُجَرَّبًا يَقْدِرُ أَنْ يَعْيَنَ الْمُجَرَّبِينَ» (عب ٢ : ١٨).

٨ - مِنْ ثُمَّ يَبْغِي لِنَفْوسِنَا أَنْ تَغْيِيرٌ وَتَنْتَقِلُ مِنْ سِيرَتِهَا الرَّاهِنَةِ إِلَى سِيرَةِ أُخْرَى وَطَبِيعَةِ إِلهِيَّةٍ، فَنَغْدُو جُدُّدًا مِنْ عَتَقَاءِ، أَيْ صَالِحِينَ وَلَطَفَاءِ وَأَمْنَاءِ مِنْ بَعْدِ مَرَأَةٍ وَعَدَمِ إِيمَانٍ، وَهَكُذا نَصْبُ لَانْقِنَينَ لِلْعُودَةِ إِلَى الْمَلْكُوتِ السَّمَاوِيِّ. فَالْطُّوبَاوِيَّ بُولِسُ يَكْتُبُ عَنْ تَغْيِيرِهِ وَعَنِ الإِدْرَاكِ الَّذِي بِهِ أَدْرَكَهُ^(١) الرَّبُّ هَكُذا: «لِكِينِي أَسْعَى لَعَلَّيِ اُدْرِكُ الَّذِي لَأَجْلِهِ أُدْرَكَنِي أَيْضًا الْمَسِيحُ» (في

(١) الفعل καταλαμβάνω المُتَرَجَّمُ يُدْرِكُ يَسِّئُ مَرَّاتٍ فِي هَذِهِ السُّطُورِ، يَعْنِي: يُمْسِكُ بِهِ يَلْحَقُ بِهِ، يَبْلُغُ.

٣ : ١٢). فكيف أدركه الله؟ كما لو أنَّ طاغيًّا يسوق سبيًّا قد اخْتَطَفَهُ، ثم يدركه الملكُ الحقيقِي؛ هكذا بولس أيضًا لِمَا كان يَعْمَلُ فيه روحُ الخطيئة الطاغي كَانَ يَضْطَهُدُ الْكَنِيسَةَ وَيَهْبُهَا^(١)، لكنَّ لأنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ هَذَا غَيْرَهُ لله، عن جهْلٍ كَائِنًا يَجَاهِدُ مِنْ أَجْلِ الْحَقِّ^(٢)، فَإِنَّ الرَّبَّ لَمْ يَغْفِلْ عَنْهُ بِلَأْدِكَمْ، إِذْ أَبْرَقَ حَوْلَهُ السَّمِيلُكُ السَّمَاءُوِيُّ الْحَقِيقِيُّ عَلَى نَحْوِي لَا يُطْقَبُ بِهِ، مَا نَأَى عَلَيْهِ بِصَوْتٍ مِنْهُ، وَلَطَمَّهُ كَعْبَدٌ ثُمَّ أَطْلَقَهُ^(٣). فَانظُرْ صَلَاحَ السَّيِّدِ وَتَغْيِيرَهُ لِلْإِنْسَانِ، كَيْفَ يَسْتَطِعُ أَنْ يُغَيِّرَ النُّفُوسَ الَّتِي جَدَّلَتْ بِالشَّرِّ وَنَكَّصَتْ إِلَى الْوَحْشِيَّةِ، وَيَنْقُلُهَا فِي لَحْظَةٍ مِنَ الزَّمَانِ إِلَى صَلَاحِهِ وَسَلَامِهِ!

٩ - «فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ اللَّهِ»^(٤)، مثلاً صارَ مَعَ الْلِّصْنَ الَّذِي يَا مَاهَ نَقْلَ فِي لَحْظَةٍ مِنَ الزَّمَانِ وَرُدَّ إِلَى الْفَرْدَوْسِ^(٥). فَمِنْ أَجْلِ هَذَا جَاءَ الرَّبُّ لِكِي يُغَيِّرَ نُفُوسَنَا وَيَخْلُقُهَا مِنْ جَدِيدٍ وَيَجْعَلُهَا - كَمَا هُوَ مَكْحُوبٌ - «شَرِيكَةً لِلْطَّبِيعَةِ الْإِلَهِيَّةِ» (٢٦ : ٤)، وَلِكِي يَهْبَ لِنُفُوسَنَا نَفْسًا سَمَاوِيَّةً، أَيْ رُوحَ الْأَلَهُوتِ كَمَرْشِدٍ لَنَا نَحْوِي كُلِّ فَضْيَلَةٍ، حَتَّى يُكَنِّنَا أَنْ نَحْيَا الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ. فِيَا لِيَتَنَا نَؤْمِنُ مِنْ كُلِّ قَلْوَبِنَا بِمَوْعِيدِهِ الَّتِي

(١) انظر: غل ١ : ١٣؛ في ٣ : ٦.

(٢) انظر: رو ١٠ : ٤٢؛ في ١ : ١٣.

(٣) إِشَارَةٌ إِلَى إِصَابَتِهِ بِالْعَمَى مَدَّةً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ جَرَأَهُ رُؤْيَا دَمْشَقَ، ثُمَّ شَفَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

(٤) مر ١٠ : ٢٧.

(٥) انظر: لو ٤٣ : ٢٣.

لا يُعَبِّرُ عنها، لأنَّ الَّذِي وَعَدَهُ صادقٌ.

فيتعيَّن علينا إذًا أنْ نحبَّ الرَّبَّ، ونجتهد بكلِّ وسيلةٍ في سائر الفضائل، ونسأله بِمداومةٍ ومثابرةٍ، لكي تَقْبَلَ موعدَ روحه^(١) بالثَّمام والكمال، حتَّى تُحيَا نفوسُنا ونخن بعدُ في الجسد. فما لم تَقْبِلِ النَّفْسُ «تَقْدِيسَ الرُّوحِ»^(٢) في هذا العالم بِإيمانٍ كثيرٍ وتَوْسُّلٍ، وما لم تصِرْ «شَرِيكَةً لِلطَّبِيعَةِ الْإِلَهِيَّةِ»^(٣) ومتزوجةً بالنِّعمةِ التي تُمْكِنُها من تكميلِ كارِوصَيَّةٍ بلا لومٍ وبنقاوةٍ، فإنَّا نُحَسِّبُ غَيْرَ لائقَةً بِملَكوت السَّمَاوَاتِ، لأنَّ ما اقتناه أحدٌ من صلاحٍ منذ الآنِ، هذا عينُه سيَكونُ له حيَاةً في ذلك اليوم، بِواسطةِ الآبِ والابنِ والرُّوحِ القدسِ إلى الدُّهورِ، آمين.

(١) انظر: أع ٢: ٣٣؛ غل ٣: ١٤.

(٢) تس ٢: ١٣.

(٣) بط ١: ٤.

العظة الخامسة والأربعون

القرابة الحميمة بين النفس وال المسيح

[ليس مناعة ما، ولا غنى لهذا العالم، إنما فقط ظهور المسيح وحده، يستطيع أن يُشفّي الإنسان، والذي تُعتبر هذه العقلة قرابته العظمى نحو الله]

[أ] ثبّعة مخالفة الإنسان الأول

[ب] المسيح وحده طبيب النفس ودواؤها

[ج] وشائح القُرْبَى بين الله والنفس



[أ] ثبّعة مخالفة الإنسان الأول

١ - الّذِي يختار حِيَاة العزلة ينبعي له أَنْ يَحْسَبَ كُلَّ الأمور الّتِي تَحْمِرُ فِي هَذَا الْعَالَم غَرِيبَةً عَنْهُ وَاجْنِبَيَّةً. لَأَنَّ الّذِي يَقْتَفِي صَلَبَ الْمَسِيحَ بِالْحَقِّ، مُنْكِرًا كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضًا^(١)، يَلْزَمُ أَنْ يَقْتَنِي عَقْلًا مُسْمَرًا فِي حِبِّ الْمَسِيحِ، مُؤْثِرًا^(٢) الرَّبُّ عَلَى الْوَالَدَيْنِ وَالإِخْرَوَةِ وَالْمَرْأَةِ وَالْأُولَادِ وَالْأَقْرَبِ وَالْأَحْبَاءِ وَالْمِمْتَلَكَاتِ، لَأَنَّ هَذَا قَدْ أَوْضَحَهُ الْمَسِيحُ حِينَ قَالَ: «كُلُّ مَنْ لَا يَتَرُكُ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ أَوْ إِخْوَتَهُ أَوْ امْرَأَتَهُ أَوْ أُولَادَهُ أَوْ حُقُولَهُ، وَيَتَبَعُنِي، فَلَا يَسْتَحْقُنِي» (قا: مت ١٠: ٣٧؛ ١٩: ٢٩)، لَأَنَّهُ مَا مِنْ

(١) انظر: لو ١٤: ٢٦.

(٢) من الفعل προτιμάω (πρό + τιμάω) - يُكتَرِمُ في المقام الأول.

أحدٍ آخر يوجد فيه خلاصُ البشر و راحتهم، كما سمعنا^(١). فكم من ملوك ظهروا من جنس آدم، بـاسطين هـيمـنـتـهـم على الأرض بـأـسـرـهـاـ، مـتـفـكـرـيـنـ أـمـوـرـاـ عـظـيمـةـ بـشـأنـ سـطـوـقـمـ الـمـلـوـكـيـةـ، وـلـيـسـ أـحـدـ مـنـ هـؤـلـاءـ - وـقـدـ حـظـيـ بـمـثـلـ هـذـهـ الـجـدـارـةـ - اـسـتـطـاعـ أـنـ يـعـلـمـ بـالـشـرـ الـذـيـ نـقـدـ إـلـىـ النـفـسـ جـرـاءـ مـعـصـيـةـ الـإـنـسـانـ الـأـوـلـ وـأـظـلـمـهـ لـكـيـ لـاـ تـدـرـيـ بـتـبـدـلـ حـالـهـاـ. ذـلـكـ أـنـ الـعـقـلـ لـمـاـ كـانـ نـقـيـاـ فـيـ الـبـداـيـةـ كـانـ يـنـظـرـ سـيـدـهـ، إـذـ كـانـ حـقـيقـاـ بـذـلـكـ، أـمـاـ الـآنـ فـقـدـ تـسـرـيـلـ بـالـخـرـيـ بـسـبـبـ السـقـوـطـ وـانـطـمـسـتـ أـعـيـنـ قـلـبـهـ حـتـىـ بـاتـ لـاـ يـرـىـ ذـلـكـ الـمـجـدـ الـذـيـ كـانـ يـرـاهـ أـبـوـنـاـ آـدـمـ قـبـلـ الـعـصـيـةـ.

٢ - فقد كان هناك أيضاً حـكـماءـ مـتـبـاـيـنـونـ بـحـسـبـ الـعـالـمـ، فـمـنـهـمـ الـذـينـ بـالـفـلـسـفـةـ أـظـهـرـواـ فـضـيـلـةـ، وـمـنـهـمـ الـذـينـ لـمـاـ تـرـخـرـفـواـ بـالـسـيـفـسـطـةـ أـثـارـوـاـ الـعـجـبـ، وـآـخـرـوـنـ تـحـذـلـقـواـ بـفـخـرـ الـكـلـامـ، وـآـخـرـوـنـ - وـقـدـ صـارـوـ أـدـباءـ وـشـعـرـاءـ - أـلـفـواـ الـقـصـصـ بـحـسـبـ أـصـوـلـهـاـ الـمـوـضـوـعـةـ. بلـ لـقـدـ كـانـ هـنـاكـ أـيـضـاـ صـنـاعـ مـخـتـلـفـوـنـ فـيـمـاـ بـيـنـهـمـ يـزاـلـوـنـ حـرـقـهـمـ بـحـسـبـ الـعـالـمـ، فـمـنـهـمـ الـذـينـ يـحـفـرـوـنـ فـيـ الـخـشـبـ أـصـنـافـ طـيـورـ وـأـسـمـاـئـ وـصـوـرـ الـبـشـرـ وـفـيـ تـلـكـ اـجـتـهـدـوـاـ أـنـ يـظـهـرـوـنـ تـفـوـقـهـمـ، وـآـخـرـوـنـ سـعـواـ أـنـ يـصـيـغـواـ مـنـ الـتـحـاسـ أـشـيـاءـ صـوـرـ الـبـشـرـ وـأـشـيـاءـ أـخـرـىـ، وـآـخـرـوـنـ شـيـدـوـاـ أـبـنـيـةـ عـظـيـمـةـ غـاـيـةـ فـيـ الـجـمـالـ، وـآـخـرـوـنـ يـحـفـرـوـنـ

(١) انظر: أعيان: ٤: ١٢.

الأرض وينحرجون الفضة والذهب الرائدين وآخرون ينحرجون الأحجار الكريمة. وأخرون، إذ كان لهم أجساد جميلة، أخذتهم الشياطين بحسن وجههم، أو بالحرى انطلت عليهم حيلة الشيطان وسقطوا في الخطية. فكل هؤلاء الصناع السالف ذكرهم لما أمسكوا من الحياة القابعة في داخلهم وما علّموا بالخطيئة الساكنة فيهم، باتوا أسرى القوة الشريرة وعييда لها، وما انتفعوا شيئاً من مهاراتهم وحرفهم.

[ب] المسيح وحده طبيب النفس ودواؤها

٣ - فالعالم، وقد غصَّ هكذا بكلٍ تنوعٍ، أشبة بإنسانٍ غنيٍ يملك بيوتاً فاخرةً وعظيمةً وكذا ذهباً وفضةً ومقتنياتٍ مختلفةً مع خدمٍ كثيرين من كلِّ صنف، لكنَّه مُعترى في الوقت نفسه بعللٍ وألام، ولا تستطيع كلُّ عشيرته وقد وقفت لديه، مع كلِّ غناه، أن تنقذه من مرضه. فإنَّه ليس مسعى لأيٍ شيءٍ من هذه الحياة، إنْ كان إخوةً أو غنيًّا أو شجاعهً أو أيًّا من كلِّ ما قيل سابقاً، ينقد النفس التي انغرمت بالخطية وما عادت تستطيع أن تنظر بناقاوة، إلَّا فقط ظهور المسيح، فهو قادرٌ أن يُطهِّر النفس والجسد جميعاً. فلننفرغ إذا للربِّ، تاركين عنَا كلَّ اهتمامٍ لهذه الحياة، صارخين نحوه ليلاً ونهاراً، لأنَّ هذه الحياة المنظورة والراحة التي فيها، على قدر ما تبدو للجسد تنعماً تثير أهواء النفس وتزيد مشقتها.

٤ - فإنَّ رجلاً ما ذا فطنة، لِمَا اشتاقَ أنْ يُعْنَى بنفسه بذل جهده أنْ يُجْرِب كُلَّ مَا يَرْخُر به هذا الدَّهْر، عساه يُمْكِنَه أنْ يَجِد نفعًا؛ فَقَصْد ملوكًا وسلاطينَ ورؤساء، وما وجد هناك علاجًا ناجعًا يُقْدِم لنفسه، وبعد أنْ قُضِيَّ معهم زمانًا طويلاً ما انتفع شيئاً؛ فَمُضِيَّ بعد ذلك إلى حكماء العَامَّ وخطبائه، وبنفس الطَّرِيقَة أعرض عن هؤلاء أيضًا وما ربح شيئاً؛ فاجتاز بالْمُصَوِّرين والَّذِين يُخْرِجُون الْذَّهَب والفضة من الأرض وبسائر أرباب الْحِرَف، وما استطاع أن يَجِدَّ عندَه شفاءً لجراحاته الْبَتَّة. أخيراً لِمَا اعْتَزَّ هؤلاء شَرَع يطلب لِدَائِه الله الَّذِي يُشْفِي آلامَ النَّفْس وأمراضَها، ولِكُلِّهِ عندَما افْتَقَدَ ذاتَه وَتَفَكَّرَ في هذه الأمور، وُجِدَّ عَقْلُه شارداً في تلك الأمور التي اعْتَزلَ عنها ظاهرياً لبغضه إياها.

[ج] وشانع الشرف بين الله والنَّفْس

٥ - كمثل امرأةٍ غَنِيَّةٍ في العالم، ومع ما لها من أموالٍ كثيرة وبيتٍ فاخرٍ كانت تفتقر إلى الحماية، فكثُرَ الَّذِين يأتون عليها ليُؤذُوها ويُصَرِّروا بيتهَا خراباً. وإذا لم تحتمل هذا الأذى طافت طالبةً رجلاً مقتدرًا وكُفُناً ومتهدِّباً في كلِّ شيءٍ، وحالما ظَفِرت بِمثيل هذا الرَّجُل بعد سَعْيٍ دُؤوبٍ، ابتهجَت به وأخْذَته لها سوراً منيعاً؛ على ذات المنوال كانت النَّفْس بعد المخالفة: فلقد ضُيِّقَ عليها كثيراً من القوَّة المعادية، وهَوَت في وحشةٍ قاسية، وترَكَت أرملةً

ووحيدة من قيل رجلها السماوي بسبب مخالفتها الوصيّة، وأصبحت أضحوكةً لكلِّ القوّات المضادّة، إذ قد انتزاعها من مداركها الخاصة وأغوغوها عن الفكر السماوي حتّى باتت لا ترى ما قد حدث لها بواسطتهم بل تظرُّ أنَّ الأمر هو هكذا من البدع. ثمَّ لما سمعت وعرّفت عزلتها ووحشتها، تنهَّدت قبالة الله محبت البشر، فوجدت حياءً وخلاصاً. لماذا؟ لأنَّ فاءَت إلى قربتها. فما من قربيٍّ أخرى لها مثلُ هذا النفع، إلَّا تلك التي للنفس نحو الله والله نحو النفس. فإنَّ الله صنع أجنساً شئِّ من الطيور، فمنها ما يبقى في الأرض ومن هناك يحصل على طعامه وراحته، ومنها ما دَبَّر له أن يبقى تحت الماء ومن هناك يحصل على معيشته؛ وخلق كذلك عالمين: العالم الفوقي «لأرواح الحادمة»^(١) وأمرَّ بأنْ يكون وطنُهم هناك، والعالم السُّفليُّ الذي تحت هذا الهواء للبشر؛ وخلق السَّماء والأرض، والشَّمس والقمر، والمياه، والأشجار المثمرة، وأجنس الأحياء على اختلاف أنواعها، ولكنَ لم يجد الله راحتَه في أيِّ منها. فكلُّ الخليقة تحت سلطانه، ومع ذلك لم يثبتت عرشه فيها ولا ارتبط معها^(٢) بشرَّكة، إنما فقط بالإنسان وحده قد سُرَّ، صانعاً شرَّكةً معه وواحداً فيه راحتَه. أوَّلَى هنَا قرابةَ الله من

(١) عب ١: ١٤.

(٢) الفعل ἀρμότω يُستخدم للتعبير عن رباط الزوج، وقد ورد مرّة واحدة في العهد الجديد في كو ١١: ٢: «لأني خطبتمكم ἐρμοσάμην لرجل واحد...».

نحو الإنسان، والإنسان من نحو الله! لذلك فإنَّ النفس الوعية الحكيمَة، بعد أن طافت بكلِّ المخلوقات، ما وجدَت راحَةً لِذاتِها إلَّا في الرَّبِّ وحده، والرَّبُّ لم يُسْرَ بِأيِّ شَيْءٍ إلَّا بالإنسان وحده^(١).

٦ - فإنَّ كُنْتَ تَبْسُطُ عَيْنَيْكَ نحو الشَّمْسِ، تجِدُ قُرْصَهَا فِي السَّمَاءِ أَمَّا نورَهَا وَأَشْعَتَهَا فَتُجْهَاهُ الأَرْضُ، فكُلُّ قَوَّةٍ نُورِهَا وَلِمَا عَنْهَا مِنْ طَلَقَةٍ صَوْبَ الأَرْضِ؛ هكذا الرَّبُّ أَيْضًا يَجْلِسُ عَنْ يَمِينِ أَيْمَهُ فَوْقَ كُلِّ رئَاسَةٍ وَسُلْطَانٍ، أَمَّا عَيْنُهُ فَمُصَوَّبَةٌ نحو قُلُوبِ الْبَشَرِ عَلَى الأَرْضِ، لَكِي يَرْفَعَ الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ الْمَعْوَنَةَ مِنْ لَدْنِهِ إِلَى حَيْثُ هُوَ كَائِنُ، لَأَنَّهُ يَقُولُ: «حَيْثُ أَنَا كَائِنُ هُنَاكَ أَيْضًا سَيَكُونُ خَادِمِي» (يو ١٢ : ٢٦)، وَبِولُوسُ يَقُولُ أَيْضًا: «أَقَامَنَا مَعَهُ وَأَجْلَسَنَا مَعَهُ عَنْ يَمِينِهِ فِي السَّمَاوَيَاتِ» (أَف ٢ : ٦ - حَسْبُ النَّصِّ). فإنَّ الْحَيَوانَاتَ غَيْرَ الْعَاقِلَةِ هِيَ أَعْقَلُ مَنْ جَدَّا، لَأَنَّ كُلَّاً مِنْهَا يَتَّحِدُ مَعَ طَبِيعَتِهِ الْخَاصَّةِ: الْوَحُوشُ مَعَ الْوَحُوشِ، وَالْخَرَافُ مَعَ جَنْسِهِ الْخَاصِّ؛ أَمَّا أَنْتَ فَلَسْتَ تَعُودُ إِلَى قِرَابَتِكَ السَّمَاوَيَةِ، الَّتِي هِيَ الرَّبُّ، بِلَ ثُلَّمَ أَفْكَارَكَ بِإِرَادَتِكَ إِلَى أَفْكَارِ الشَّرِّ وَتَوَافُقِ مَعْهَا، فَتَنْصَبُ مَسَاعدًا لِلْخَطِيشَةِ وَمُؤَالِيَّاً لَهَا فِي حِرْبَهَا ضَدَّكَ، وَهكذا تَجْعَلُ مِنْ ذَاتِكَ فَرِيسَةً لِلْعُدُوِّ عَلَى غَرَارِ طَائِرٍ قَدْ أَمْسِكَ وَالثَّمِيمَ مِنْ نَسَرٍ، أَوْ خَرُوفٍ مِنْ ذَئْبٍ.

(١) انظر: العضة ١٥ : ٢٢.

أو طفلٍ غَرِيرٍ مَدَّ يده إلى حيَّةٍ فلَدَعْتَهُ ومات، فهَذِهِ الأمثلةُ لها ما يُقابِلُها في العمل الروحي.

٧ - كمثل عذراءٍ غنِيَّةٍ مخطوبةٍ لرجلٍ، فكُلُّ ما تَقبلُهُ من هدايا قبل الشَّرِيكَة^(١)، زينةً كانت أم ثيابًا أم آنيةً ثمينةً، لا تجد راحتها فيه إلى أن يأتي زمان العُرس وَتَطُوفُرُ بالشَّرِيكَة؛ هكذا النَّفْس المخطوبة كعروس للعرس السَّمائي، فإذاً نَسَالَ عُرْبُونًا من الرُّوح القدس^(٢)، إنْ كان «مَوَاهِبُ شِفَاءٍ»^(٣) أو معرفةً أو إعلانًا، لكنَّها لا تجد راحتها في تلك الأمور إلى أن تحظَى بالشَّرِيكَة الكاملة، التي هي الحِبَّة، التي كونها لا تتغيَّر ولا تسقط، تجعل من الَّذِين يتَوقُون إليها أنسَاً بلا هُوَيٍّ^(٤) لا يتَزَعَّزُونَ. أو كمثل طفلٍ رضيعٍ قد ألبسوه لِأكيٍّ وملابسٍ ثمينةً، لكنَّ حين يُحْسَسُ بالجُوع يَحْسَبُ ما يلبسه كَلَّا شيءَ بل ويُزدرِيه، ويُضعُ كَلَّا هِيَهُ في ثديِ مُرْضِعِته، كيف يَرْتَشِفُ اللَّبَن؟ فهَكُذا تَفَكَّرُ معي فيما يَخْصُّ مَوَاهِبَ اللهِ الرُّوحِيَّةِ، الَّذِي لَهُ الْمَجَدُ إِلَى الدُّهُورِ، آمين.

(١) كلمة *κοινωνία* = شَرِيكَة، كانت تُستَعمل أيضًا للتَّعبير عن رابطة التَّبَرِيجَة (see L&S, s.v.).

(٢) انظر: ٢٤: ٥: ٥٢٢.

(٣) ٩: ٢٨، ١٢: ١.

(٤) *impassible* = ἀπαθής = بلا هُويٍّ.

العظة السادسة والأربعون

الشَّرِكَةُ الوَطِيدَةُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّفْسِ

[من الفرق بين كلمة الله وكلمة العالم، وبين أولاد الله وأولاد هذا العالم]

[أ] بَعْدُ الشُّفَقَ بَيْنَ أُولَادَ اللَّهِ وَأُولَادَ الْعَالَمِ

[ب] عَنْقُ الشَّرِكَةِ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّفْسِ

[١] بَعْدُ الشُّفَقَ بَيْنَ أُولَادَ اللَّهِ وَأُولَادَ الْعَالَمِ

١ - إنَّ كَلْمَةَ اللَّهِ هُوَ اللَّهُ، وَكَلْمَةُ الْعَالَمِ هِيَ الْعَالَمُ، وَشَاسِعٌ هُوَ الْفَارَقُ وَالْبَيْنُ بَيْنَ كَلْمَةِ اللَّهِ وَكَلْمَةِ الْعَالَمِ، وَبَيْنَ أُولَادِ اللَّهِ وَأُولَادِ الْعَالَمِ. فَكُلُّ ذُرْيَّةٍ تُشَابِهُ وَالْدِيَهَا، فَإِنْ كَانَتْ ذُرْيَّةُ الرُّوحِ الْقَدِيسِ تُسْلِمُ ذَاهِنًا يَبْرَادُهَا لِكَلْمَةِ الْعَامِ وَلِأَمْرِ الْأَرْضِ وَلِجَهَدِهَا الدَّهْرِ فَإِنَّهَا تَمُوتُ وَتَهْلِكُ، لَأَنَّهَا لَا تُسْتَطِعُ أَنْ تَجِدَ رَاحَةً لِلْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ، إِذْ إِنَّ رَاحْتَهَا هِيَ هَنَاكَ حِيثُ وُلِدَتْ. فَإِنَّ الْمَرْتَبَ الْمُهُومَ الْحَيَاةِ وَالْمَرْبُوطَ بِالرِّيُطِ الْأَرْضِيَّ يَخْتَنِقُ - كَمَا يَقُولُ الرَّبُّ^(١) - وَيَصِيرُ بِلَا ثَمِيرٍ مِّنْ جَهَةِ كَلْمَةِ اللَّهِ. بِالْمُثَلِّ أَيْضًا الْمَسْوُكُ بِرَغْبَةِ جَسَدِيَّةٍ، أَعْنِي إِنْسَانُ الْعَالَمِ، إِذَا مَا رَأَمَ أَنْ يَسْمَعَ كَلْمَةَ اللَّهِ فَإِنَّهَا يَخْتَنِقُ وَيَصِيرُ مِثْلَ إِنْسَانٍ لَا عَقْلٍ

(١) انظر: مت ١٣: ٢٢؛ مر ٤: ١٤؛ لو ٨: ٧؛ ٤: ١٤، حيث استعمل نفس هذا الفعل συμπνίγω = يختنق) في مثل الزراع في الأناجيل الثلاثة المتناظرة.

له، لأنَّ الَّذِينَ اعْتَادُوا عَوَيَايَاتِ الشَّرِّ، مَنْ سَمِعُوا عَنِ اللَّهِ يَضِيقُونَ ذِرْعًا كَمَا بَحْدِيثٍ كَرِيهٍ تَئُبُّونَ عَنْهُ عَقْوَهُمْ.

٢ - فإنَّ بولس يقول أيضًا: «الإِنْسَانُ الطَّبِيعيُّ لَا يَقْبَلُ الْأُمُورَ الَّتِي لِرُوحِ اللَّهِ لِأَنَّهَا عِنْدَهُ جَهَالَةٌ» (أكرو ٢: ١٤)، والنَّبِيُّ يقول: «صَارَتْ لَهُمْ كَلِمَةُ اللَّهِ مِثْلَ فَيْءٍ» (إش ٢٨: ٢٨)^(١). فها أنت ترى أنَّه لا يمكنُ الحياة بسبيلٍ آخرٍ إلَّا بمقتضى الكلمة الَّتِي قد وُلِدَ منها كُلُّ واحدٍ. ولكنَّ يلزمُ فَهُمْ هذا بطريقَةٍ أخرى: إنْ كانَ الإِنْسَانُ الْجَسْدَانِيُّ يُسْلِمُ ذَاهِه لِيَتَغَيَّرُ، فَإِنَّهُ يَمُوتُ أَوْلَى مِنْ هَنَاكَ وَيَصِيرُ بِلَا ثَمِيرٍ مِنْ جَهَةِ حِيَاتِه السَّالِفَةِ فِي الشَّرِّ. كَمَا لو أَنَّ أَحَدًا يُمْسِكُ بِمَرْضٍ أَوْ حُمَّى، فَحَتَّى لو كَانَ جَسْدَه مَطْرُوحًا عَلَى الْفَرَاشِ، غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الْقِيَامِ بِأَيِّ شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِ الْأَرْضِ، فَإِنَّ عَقْلَه مَا كَانَ لِيَهْدِيَ بَلْ يَنشُغلُ بِمَا يَصْنَعُه (حِيَالَ مَرْضِه) وَيَهْتَمُ بِهِ، فَيَطْلُبُ الطَّبِيبَ وَيَرْسُلُ إِلَيْهِ أَحْبَاءَه؛ بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ أَيْضًا النَّفْسُ الَّتِي قد صارت - مِنْذِ مُخَالَفَةِ الْوَصِيَّةِ - في ضُعْفِ الْأَهْوَاءِ وَبَاتَ مُنْخَلَّةً الْفُوَى: إِنْ هِيَ تَقْدَمَتْ إِلَى الرَّبِّ وَآمَنَتْ بِهِ فَإِنَّهَا تَنالُ مَعْوِنَتَهِ؛ وَإِنْ هِيَ جَحَدَتْ حِيَاتَهَا السَّابِقَةِ الشَّرِّيرَةِ، فَحَتَّى لو كَانَتْ مُضطَجَعَةً فِي سَالِفِ ضَعْفِهَا وَغَيْرِ قَادِرَةٍ عَلَى الْقِيَامِ بِأَعْمَالِ الْحَيَاةِ بِالْحَقِّ، فَإِنَّهَا، رَغْمَ ذَلِكَ، الْقَدْرَةُ أَنْ تَهْتَمَ جَدًّا الْإِهْتِمَامَ بِالْحَيَاةِ وَتَتَضَرَّعَ إِلَى الرَّبِّ وَتَطْلُبُ الطَّبِيبَ الْحَقِيقِيَّ.

(١) هكذا وردت في ترجمة ثيودوتيون للعهد القديم.

[ب] عُمق الشركَة بين الله والنَّفْس

٣ - وليس كما يزعم قوم قد انقادوا بتعاليم فاسدة أنَّ "الإِنْسَانَ قَدْ ماتَ مَرَّةً وَإِلَى الْأَبَدِ، وَلَا يُسْتَطِعُ الْبَيْتَ أَنْ يَعْمَلْ صَلَاحًا". فَإِنَّ الْطَّفْلَ وَإِنْ
كَانَ لَا يَقُوَّ عَلَى فَعْلِ شَيْءٍ أَوْ يَقْدِرُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى أُمَّهُ عَلَى قَدْمَيْهِ، فَرَغْمَ
هَذَا فَإِنَّهُ يَتَمَرَّغُ وَيَصْرُخُ وَيَسْكُنُ طَالِبًا أُمَّهُ، وَفِي هَذَا تَتَحَمَّنُ^(١) الْأُمُّ وَتَفْرَحُ لِأَنَّ
صَغِيرَهَا يَطْلَبُهَا فِي وَجْهٍ وَصَرَاطٍ. وَمَعَ أَنَّ الْطَّفْلَ لَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَأْتِي إِلَيْهَا،
فَإِنَّ الْأُمَّ لِأَجْلِ إِلْحَاحِهِ فِي الْطَّلْبِ تَذَهَّبُ بِنَفْسِهَا إِلَيْهِ - مَأْسُورَةً بِحِجْرِهَا
لَطْفَلَهَا - وَتَرْفَعُهُ وَتَحْتَضِنُهُ وَتُطْعِمُهُ فِي عَطْفِ^(٢) شَدِيدٍ؛ هَذَا أَيْضًا يَصْنَعُهُ
اللهُ مَحِبُّ الْبَشَرِ لِلنَّفْسِ الَّتِي تَتَقدَّمُ نَحْوَهُ وَتَتَوَقُّ إِلَيْهِ. بَلْ إِنَّهُ بِالْأَحْرَى جَدًا -
مَدْفُوعًا بِحِبِّهِ الْمَتَّاصِلِ وَلَطْفِهِ الْخَاصِّ - يَلْتَصِقُ بِفَكْرِهَا وَيَصِيرُ مَعَهَا
«رُوحًا وَاحِدًا» كَقَوْلِ الرَّسُولِ (ع) كَوْ ٦ : ١٧). فَحِينَ تَلْتَصِقُ النَّفْسُ
بِالرَّبِّ، وَحِينَ يَرْحَمُهَا الرَّبُّ وَيَجْعَلُهَا وَيَأْتِي إِلَيْهَا وَيَلْتَصِقُ بِهَا فِي دُوْمِ فَكْرِهَا
بِلَا انْقِطَاعٍ فِي نِعْمَةِ الرَّبِّ، حِينَئِذٍ تَغْدُو النَّفْسُ وَالرَّبُّ رُوحًا وَاحِدًا

(١) الفعل *σπλαγχνίζομαι* - يشقق، يهجنّ، ورد اثنى عشرة مرّة في العهد الجديد، جميعها موقوفة على الله فقط (انظر: مت ٩: ٤٣-٤٦؛ ١٤: ٤١-٤٥؛ ١٥: ٤٢-٤٣؛ ١٨: ٤٢-٤٣؛ ٢٠: ٤٢-٤٣؛ مر ١: ٤١-٤٦؛ ٩: ٤٢-٤٣؛ لوكا ٧: ٤٢-٤٣؛ ١٠: ٤٣-٤٤؛ ٢٠: ٤٥-٤٦).

(٢) هذه الكلمة *στοργή* تصف على وجه المخصوص الحبّة والعاطفة التي بين الآباء والأبناء، وقد وردت مرتين في العهد الجديد مسبوقة بحرف “α” الذي يحرّمها معناها، وترجمت “بلا حنّة”. (انظر: رو ١: ٣١؛ ٤: ٣١).

ومزيجاً واحداً وفكراً واحداً. وفيما يكون جسدها ملقياً في الأرض، تعيش بفكريها بكلّيتها وتقامه في أورشليم السماوية، صاعدةً «إلى السماء الثانية»^(١)، وملتصقةً بالربّ تخدمه هناك.

٤ - وهو كذلك، فيما يكون جالساً في عرش العظمة في الأعلى في المدينة السماوية، يكون بكلّيتها عندها بل في جسدها؛ لأنّه بينما قد وضع صورتها فوقُ، في أورشليم، مدينة القديسين السماوية، وضع في جسدها صورته الخاصة - صورة نور لا هوته غير الموصوف! فهو يخدمها في مدينة جسدها، وهي تخدمه في المدينة السماوية! هي ورثته في السماوات، وهو ورثها على الأرض! فإنَّ الربَّ يصبح ميراثَ النفس، والنفس ميراثَ الربِّ! لأنَّه إنْ كان فكُّر وذهن الخطأ المُتَخَطِّطين في الظلمة يمكن أن يكون هكذا نائياً عن أجسادهم ومرتحلاً بعيداً عنهم، وله القدرة أن يمضي في لحظةٍ من الزمان إلى أوطانٍ قصيّةٍ جداً، ومراراً كثيرة فيما يكون الجسد ملقياً على الأرض، يكون الفكر في وطن آخر بالقرب من حبيبه أو حبيبته ويرى ذاته وكأنَّه عائشٌ هناك - أقول إنَّ كانت نفسيُّ الخطاطي هي هكذا خفيفة وذات أجنحة قوية حتى إنَّ ذهنها لا تنتفع عليه الموضع النائي، فكم بالأحرى جداً النفس التي رفع عنها برقُ الظلمة^(٢)

(١) كوك ٢: ١٢.

(٢) انظر: حاشية ٥ صفحة ٢٧٥ - العظة ١٤.

بقدرة الرُّوح القدس، واستُنيرت أعينها الرُّوحية بالنُّور السَّماوي، وعُتقت بالتمام من «أهواه الْهَوَان»^(١)، وجعلت نقية بالتعمة، تخدم بكليتها الرَّب بروحها في السَّموات، وتخدمه بكليتها بجسدها. ويبلغ بها امتداد فكرها مبلغًا تكون معه في كلِّ مكان، وتخدم المسيح أينما شاءت ومتى شاءت^(٢).

٥ - فإنَّ الرَّسُول يقول: «حَتَّى تَسْتَطِيعُوا أَنْ تُدْرِكُوا مَعَ جَمِيعِ الْقَدِيسِينَ، مَا هُوَ الْعَرْضُ وَالظُّلُولُ وَالغُلُوُّ وَالعُمُقُ، وَتَعْرِفُوا مَحْبَّةَ الْمَسِيحِ الْفَائِقَةَ الْمُعْرِفَةِ، لِكُنِّي تَمْتَلِقُوا إِلَى كُلِّ مِلْءِ اللَّهِ» (أف : ٣ ، ١٨ ، ١٩). فتأملنَّ ملِيًّا في الأسرار التي لا يُنطِقُ بها - أسرار النَّفْسِ التي ينزع عنها الرَّبُّ الظُّلْمَةَ الْمُطْبِقَةَ عليها ويُظْهِرُها ويُسْتَعلِّمُ لها، كيف يُوَسِّعُ أفكارَ ذهنها ويمتدُّ بها إلى عروض وأطوال وأعمقِ وعُلوَاتِ كُلِّ خليةٍ ثُرى ولا ثُرى. فالنَّفْس حَقًّا هي صنيع إلهيٌّ عظيمٌ وعجبٌ، لأنَّ الله في خلقته لها صنعها هكذا، إذ لم يغرس شرًّا في طبيعتها بل على صورة فضائل الرُّوح القدس صنعها^(٣)، فوضع لها نواميس فضائل: إفرازاً، ومعرفةً، وفطنةً، وإيماناً، ومحبةً، وبقية الفضائل، بحسب صورة الرُّوح القدس.

(١) رو ١: ٢٦.

(٢) التَّصُّلُ اليوناني يحمل أيضًا: «أينما شاء (المسيح) ومتى شاء».

(٣) إذ قد خلق الله النَّفْس البشريَّة على صورته (انظر: تك ١: ٢٦).

٦ - والرَّبُّ حَتَّى الْآن أَيْضًا لَا يَنْفَكُ يُوجَد لَهَا وَيُظَهِّر لَهَا فِي الْعِرْفَةِ
وَالْفَطْنَةِ وَالْمُحْبَّةِ وَالْإِيمَانِ، فَوْضُعَ فِيهَا ذَهَنًا وَأَفْكَارًا وَإِرَادَةً، وَمَلَكَ عَلَيْهَا عَقْلًا
مُدَبِّرًا وَخَفْقَةً كَثِيرَةً مِنْ نُوْعِ جَدِيدٍ، فَجَعَلَهَا سَهْلَةً التَّنَقُّلِ، مُجْنَحَّةً جَيْدًا، لَا
يَنَالُ مِنْهَا التَّعْبُ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهَا بَأْنَ تَأْتِيَ وَتَذَهَّبُ فِي لَحْظَةٍ وَتَخْدِمَهُ بِأَفْكَارِهَا
هُنَاكَ حِيثُ يَشَاءُ الرُّوحُ الْقَدِيسُ. وَقُصَارَى الْقَوْلِ إِنَّهُ خَلَقَهَا هَكَذَا حَتَّى
تَغْدُوَ عَرْوَسًا وَشَرِيكَةً لَهُ، كَيْ يَتَزَجَّرَ هُوَ بِهَا، وَتَصِيرُ هِيَ مَعَهُ «رُوحًا
وَاحِدًا» كَمَا يَقُولُ: «مَنِ النُّصَاقَ بِالرَّبِّ فَهُوَ رُوحٌ وَاحِدٌ» (١ كِو٦: ١٧)، لَهُ الْمَجْدُ إِلَى دَهْرِ الدَّهْرِ، آمِنٌ.

العظة السابعة والأربعون

المسيح يقود النفس في موكب نصرته

[تفسير رمزي للأمور التي قد صارت تحت التأmost]

[أ] التأmost رمز وظل للحقيقة [ج] العدو يتعقب النفس، والرَّبُّ ينقدرها

[ب] المسيح يعتق النفس من عبودية الشيطان [د] المسيح يحول ماراتنا إلى حلاوة



[أ] التأmost رمز وظل للحقيقة

١ - إنَّ مجد موسى، الذي كان له في وجهه، كان رمزاً للمجد الحقيقى، لأنَّه كما كان الحال هناك إذ لم يكن اليهود يستطيعون أن يحدِّقوا في وجه موسى^(١)، هكذا الآن يقبل المسيحيون في نفوسهم ذلك المجد المنير، بينما تغُرِّ الظُّلْمَةُ هاربةً إذ لا تُحتمل شعاع النُّور الذي يعميها تماماً. فأولئك كانوا يُظهِرون أَهْمَ شعب الله من الختان، أمَّا هؤلاء فالذين هم شعب الله الخاص^(٢) يقبلون علامَةَ الختان في الدَّاخل في قلوبهم^(١)، لأنَّ سَكِينَاً سماوِيًّا

(١) انظر: خر. ٣٤: ٣٠.

(٢) περιούσιος = خاص، وقد وردت مرَّة واحدة في العهد الجديد كصفة لشعب الله: «شَعْبًا خاصًا» περιούσιον (في ١٤: ٢)، كمقابل لإطلاقها على شعب الله في العهد القديم (انظر مثلاً: خر. ١٩: ٤٥؛ تث. ٧: ٢٦؛ ١٤: ٤٦؛ ٢٦: ١٨). وأصلها: εἰμί + εἰμι = يكون

يقطع فضلة الذهن، أي غرلة الخطيبة التجسة. فعند أولئك: محمودية تقدس المجسد، أما عندنا فهي محمودية الروح القدس وال Starr، لأن هذا هو الذي كرّز به يوحنا: «هُوَ سَيِّدَمْدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُّسِ وَنَارٍ» (مت ٣: ١١؛ لو ٣: ١٦).

٢ - هناك كان يوجد مسكنٌ داخليٌّ وخارجيٌّ، «فِي الْأَوَّلِ كَانَ يَدْخُلُ الْكَهْنَةُ كُلُّ حِينٍ مُكْمِلِينَ الْحَدْمَةَ، أَمَّا إِلَى الثَّانِي فَرَئِيسُ الْكَهْنَةِ فَقَطُّ، مَرَّةً وَاحِدَةً فِي السَّنَةِ، بِدِيمٍ، مُعْلِنًا الرُّوحَ الْقُدُسَ ۖ هَذَا أَنَّ طَرِيقَ الْأَقْدَاسِ لَمْ يُظْهِرْ بَعْدًا»^(٢)؛ أَمَّا هُنَا فَالْمُسْتَحْقُونَ يَدْخُلُونَ إِلَى الْمَسْكِنِ غَيْرِ الْمَصْنُوعِ يَدِ^(٣) «حَيْثُ دَخَلَ الْمَسِيحُ كَسَابِقَ لِأَجْلِنَا»^(٤). فَإِنَّهُ مُكْتَوِّبٌ فِي النَّامُوسِ إِنَّ الْكَاهِنَ يَأْخُذُ حَامِتَيْنِ، فَيَذْبَحُ وَاحِدَةً مِنْهُمَا وَيَرْشُّ الْأُخْرَى الْحَيَّةَ مِنْ دِمِ تِلْكَ شَمَّ يَطْلُقُهَا لِتَطْيِيرِ حُرَّةً^(٥). فَهَذَا الَّذِي صَارَ إِنَّمَا كَانَ رِمْزاً وَظِلَّلَ لِلْحَقِيقَةِ، فَإِنَّ الْمَسِيحَ «قَدْ ذَبَحَ»^(٦) وَدَمَهُ الْمَرْشُوشُ عَلَيْنَا قَدْ أَنْبَتَ لَنَا أَجْنَحَّةً، لِأَنَّهُ

حَوْلٌ (وبناءً على هذا وردت في الترجمة القبطية للقداس الباسيلي " Ἐποιήτης τοῦ λαοῦ = شعباً مُجتمعًا").

(۱) انظر: رو ۲۹:

(٢) عب ٦:٩ - حسب النَّصْ.

(٣) انظر: عب ٩:١١.

(٤) عب ٦: ٢٠ - حسب النّصّ.

(٥) انظر: لا ٤ : ١٤ - ٧.

۱۰ : ۷

أعطانا أجنحةً الروح القدس لكي نطير في أجواء اللاهوتية بلا عائق.

٣ - فلأولئك أعطي ناموس مكتوب «في اللوائح الحجرية»^(١)، أمّا لنا فنوا ميسُ روحيَّة محفورة «في اللوائح قلب حميّة»^(٢)، لأنَّه يقول: «أعطي تَوَامِيسِي في قلوبِهم، وَأَنْقَشَّها في أَذْهَانِهم» (عب ١٠: ١٦). وكلُّ تلك الأمور كانت زائلةً وإلى حين، أمّا الآن فجميعها تُكمل بالحقِّ في الإنسان الباطن، لأنَّ العهد هو في الدَّاخل وال الحرب في الدَّاخل؛ وبالإيجاز «فَكُلُّ الْأُمُورُ الَّتِي حَدَثَتْ لِأَوْلَئِكَ صَارَتْ مِثَالًا، وَكُتِبَتْ لِإِنْذَارِنَا»^(٤). فإنَّ الرَّب سَبَقَ وقال لإبراهيم ما سوف يكون: «إِنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا في أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُ، فَيُسَيِّئُونَ إِلَيْهِ وَيَسْتَغْبِدونَهُ أَرْبَعَ مِائَةَ سَنَةٍ» (تك ١٥: ٣ - حسب النَّصّ). فهذا كان يُتَمِّم صُورَةَ الظِّلِّ، لأنَّ الشَّعَبَ صار غريباً واستُبعِدَ تماماً من المصريين وأُسيءَ إليه «في الطِّينِ وَاللِّبَنِ»^(٥)، فقد جَعَلَ فرعونُ عليهم رؤساء عملٍ ومسخرين لكي يعملوا عمله قسراً. وحينما تنَهَّى بنو إسرائيل من أعمالهم إلى الله^(٦) افتقدتهم حينئذٍ بواسطة موسى، وبعد ما

(١) كور ٣: ٢٢.

(٢) كور ٣: ٢٢.

(٣) من الفعل *μιτάθω* = يُعطي، وأحياناً يأتي بمعنى يجعل (كما ورد في هذه الآية التَّرجمة الـبيروتية)، وقد آثرنا المعنى الأول لوروده في أول الفقرة ومناسبته أكثر للبيان.

(٤) كور ١٠: ١١.

(٥) خر ١: ١٤.

(٦) انظر: خر ٢: ٢٣.

ضرب المصريين بضرباتٍ كثيرة في شهر الزهور - حيث تلوح بشائر الربيع الجزيئ العذوية فيما تمضي عبوسة الشتاء - أخرجهم من مصر.

٤ - وقال الله لموسى أن يأخذ خروفاً بلا عيوب ويدبحه ويمسح بدمه على الأبواب والأعتاب^(١) «لَعَلَّا يَمْسِهُمُ الَّذِي يُهْلِكُ أَبْكَارَ الْمِصْرِيِّينَ»^(٢). فإنَّ الملائكة المُرسل كان يرى علامَةَ الدَّمَ من بعيد ويرحل، بينما كان يدخل إلى البيوت التي لم يكن لها العلامَةُ ويقتل كلَّ بكرٍ فيها^(٣). بل إنَّ الله قد أمرَ أيضًا بأنْ يُعزِّلَ الحميرُ من كُلِّ بيت، ورسَّمَ بأنْ يؤكِّلَ الخروفُ المذبح مع فطيرٍ وأعشابٍ مُرَّة، على أن يأكلوه وأحقاوهُم مُمنَظَّةً وأحدِيثُهم مشدودة في أرجلهم وعصيَّهم في أيديهم، وهكذا أمرَ بأنْ يأكلوا فصحَ الرَّبَّ بكلِّ عَجَلَةٍ عند المساء، وعَظِيمًا لا يكسرُوا من الخروف^(٤).

٥ - وأخرجهم بفضةٍ وذهبٍ، إذ أمرَ بأنْ يستعيرَ كُلُّ واحدٍ من جاره المصريَّ أمتَعَةً ذهبٍ وفضةً^(٥)، فخرجوا من مصر فيما كان المصريون يدفون أبكارهم. بينما كان هناك فرحةً لأولئك بالعتق من العبوديَّة القاسية، كان هناك في المقابل حزنٌ ونوحٌ لهؤلاء على هلاك الأولاد، لأجل هذا يقول

(١) انظر: خر ١٢: ٣ - ٧.

(٢) عب ١١: ٢٨ - حسب التصرّ.

(٣) انظر: خر ١٢، ١٢: ١٣، ١٣.

(٤) انظر: خر ١٢: ١٠، ١٠: ٤٦.

(٥) انظر: خر ١٢: ٢٢، ٣: ٣٥.

موسى: ”هَذِهِ هِيَ الْيَلَةُ الَّتِي وَعَدَنَا بِهَا اللَّهُ لِيُفْتَدِينَا“^(١). فكلُّ هذه الأمور إنما هي سرُّ النَّفْسِ الَّتِي افْتَدِيتُ بظهور المسيح، لأنَّ تفسير كلمة ”إِسْرَائِيلَ“: ”الْعَقْلُ الَّذِي يَنْظَرُ إِلَى اللَّهِ“^(٢)، فیقتضی من عبودیة الظلمة أي من أرواح المصريين.

[ب] المسيح يعتق النفس من عبودية الشيطان

٦ - فإنَّ الإنسان، بالمعصية، قد مات موتَ النَّفْسِ الرَّهِيبِ، وقبلَ لعنة فوق لعنة: «خَسَّاً وَشَوَّاً سَتُبْثِثُ لَكَ الْأَرْضُ» (تك ٣: ١٨ - حسب النَّصْ)، ومرةً أخرى: «سَتَقْلُعُ الْأَرْضُ وَلَنْ تَغُودَ تُعْطِيكَ ثَمَرَهَا» (تك ٤: ١٢ - حسب النَّصْ). وهكذا فقد طَلَعَ شوْكٌ وحَسَكٌ وَنَبَتَ في أرض قلبه، ونَزَعَ عنه الأعداء مجده بعوایتهم وأليسوا الخزي فانثُيَ نُورُه وأليس الظلمة، وقتلوا نفسه وشتّتوا أفكاره وقسموها، وأحدروا عقله من الغلاء، وأمسى إسرائيل إنساناً عبداً لفرعون الحقيقي. فجعل الأخير عليه رؤساء عملٍ ومستحرين، أي أرواح الشَّرِّ الَّتِي تُجْهِرُه - شاء أم أبي - أن

(١) انظر: خر ٦: ٦-٧.

(٢) كلمة ”إِسْرَائِيلَ“، وقد وردت أولاً ما وردت في الكتاب المقدس في تك ٣٢: ٢٨ في صراع يعقوب مع الله، يمكن أن تعني، بحسب أصلها العبرى، ”بِجَاهَدِ مَعَ اللَّهِ“، أو ”أَمِيرُ اللَّهِ“، أو ”النَّاطِرُ إِلَى اللَّهِ“. وتفسير اسم ”إِسْرَائِيلَ“ بمعنى ”النَّاطِرُ إِلَى اللَّهِ“ نجده عند فيليو الإسكندرى (عن إبراهيم ٥٧ - ٥٩)، وعنه أخذ معظم الآباء، حتى إننا نجد هذا في رسائل ق. أنطونيوس أيضًا (انظر: الرِّسَالَةُ ٣: ٤١ - ٤٧).

يصنع أعماله الشّريرة ويُكمل «مقدار الطّين واللّبن»^(١)، والتي بعد أن تفاصيله أيضًا عن الاهتمام السّماوي، تُحطّه إلى الفِعال الشّريرة الماديّة الأرضية الموجلة وإلى الكلمات والخواطر والأفكار الباطلة. لأنّ النّفس لمن هَوَتْ من علوِّها وَجَدَتْ مملكةً مُبغضةً للبشر ورؤسأة قساًةً يُجبرونها قسرًا على أن تبني لهم مُذنَّ الشّرِّ والخطايا.

٧ - لكنْ إذا ما تنهَّدت النّفس وصرخت إلى الله^(٢)، يرسل إليها ”موسى“ الرّوحاني الذي يفتديها من عبوديّة المكريين. غير أنها تصرخ وتنتهَّد أولاً، وحيثُنِّي تعال تباشير الفداء. فإنّها هي نفسها أيضًا تُندى «في شَهْرِ الرُّهُورِ الْجَدِيدَةِ»^(٣) في زمان الرّبيع، حيث يمكن لأرض النّفس أن تخرج أغصانَ الْبَرِّ النَّاضِرةِ الْمُزَهْرَةِ، وحيث تمضي العواصفُ المُرَّةُ - عواصفُ الجهالَةِ والظُّلْمَةِ وكثرة قساوةِ أعمالِ الخزي والخطايا. حيثُنِّي يأمر اللهُ بأنْ يُعزِّلَ الخميرُ العتيقَ من كلِّ بيت، أيَّ بأنْ تَطْرحَ النّفْسُ بكلِّ ما في

(١) قال: خر ٥:٨، ١٤، ١٨.

(٢) انظر: خر ٢:٢٣.

(٣) ”τὸν νέαν μῆνιν τοῦ μηνὸς = شهر (الرُّهُور) الجديدَةَ“، وهذا هو ترجمة النسخة الشّيعيَّة لـ”شهر أبيض“ في العرية، وهو الشّهر الذي خرج فيه شعب إسرائيل من مصر أرض العبوديَّة (انظر: خر ١٣:٢٣؛ ٤٤:٢٣؛ ٤٥:٣٤؛ ١٨:٣٤) - عن هذه التّسمية، انظر: كتاب سفر الخروج يوناني - عربي، حاشية ١٤٤ - ص ٩٧ - الزاهب إيفانيوس المقاري - الطبعة الأولى - (٢٠١٣).

وسعها أعمالاً «الإنسان العتيق الفاسد»^(١) ومقاصده وأفكاره الشّريرة وخواطره الأثيمة.

٨ - فيلزم أن يذبح الحروف ويُحرَّر^(٢) وتمسح الأبواب بدمه، لأنَّ المسيح، الحروف الحقيقي الصالح الذي بلا عيب، قد ذُبِح ومسحت بدمه أعتاب القلب، لكي يصير دم المسيح المسفوک على الصليب حيَاً وقداء للنفس، أمّا للمصريين أي الشياطين فيصير حزنًا وموتاً؛ فإنَّه حقًا قد صار دم الحروف الذي بلا عيب حزنًا لهم، أمّا للنفس فصار فرحاً وتحليلاً. ثمَّ بعد مسحة الدّم أمرَ الله بأنْ يأكلوا الحروف عند المساء مع فطير وأعشاب مُرّة، وتكون أحقاوهم مُنطقة وأخذيتهم مشدودة وعصيّهم في أيديهم. فما لم تصير النفس أولاً مستعدةً من كلِّ جهةٍ بالأعمال الصالحة، بكلِّ ما فيها من قوَّة، فلا يعطى لها أنْ تأكل من الحروف. أمّا أنْ يكون الحروف لذيداً والفتير حلواً بينما الأعشاب مُرّة ولاذعة، فلأنَّه بضيق شديدٍ ومرارة تأكل النفس من الحروف والفتير الطيِّب، إذ تُضيق عليها الخطيئة الملازمة لها.

.٤ : ٤٢ .(١)

(٢) الفعلان ٥٥٦٠ و ٥٥٧٠ الواردان هنا يعني زبديح، يُحرَّر، استُخدما بالتبادل في معرض الحديث عن ذبح حروف الفصح (انظر للفعل الأول: خر ١٢:٤٦ وانظر للثاني: خر ١٢:٤٢؛ مر ١٤:١٢؛ لو ٢٢:٧)، وكذا عن ذبح المسيح (انظر للأول: رو ٥:٥؛ ٩، ٦؛ ١٣:٤١٢، ٩؛ ٤٨ وانظر للثاني: ١ كور ٥:٢).

٩ - وهو يقول: «عِنْدَ الْمُسَاءِ تَأْكُلُونَهُ» (را: خر ١٢: ٦)، لأنّ وقت المساء هو زمانٌ ما بين النّور والظّلمة؛ هكذا النّفس أيضًا، وقد ذَنَت من هذا الفداء، تصير ما بين النّور والظّلمة، في حين تقف قدرةُ الله ولا تأذن للظّلمة بأن تأتي إلى النّفس وتبتلعها. وعلى غرار ما قاله موسى: ”هَذِهِ هِيَ لَيْلَةُ مَوْعِدِ اللَّهِ“^(١)، هكذا المسيح أيضًا، لماً أُعْطِيَ له السِّتْفُرُ في الجمع - كما هو مكتوب - دعاها «سَنَةُ الرَّبِّ الْمُقْبُولَة»^(٢) و«يَوْمُ الْقِدَاء»^(٣). فهناك: ليلة المحازاة؛ وهنا: يوم الفداء. ولا عَجَبٌ، فكلُّ تلك الأمور كانت مثالًا وظللاً للحقيقة، وكانت تسقى وترمز في سرٍّ، مشيرةً إلى الخلاص الحقيقى للنّفس المغلق عليها في الظّلمة والمُكَبَّلةُ حُفيَّةً «في الجَبَّ الأَسْفَل»^(٤) والمحبوسة خلف «أَبْوَابِ النُّخَاسِ»^(٥)، لا قدرة لها أن تُعْتق بدون فداء المسيح.

١٠ - فإنه هو يُخْرِج النّفس من مصر ومن العبوديَّة التي فيها، بينما تُقتل أبكار مصر عند الخروج؛ لأنّ جزءاً من قوَّة فرعون الحقيقى يسقط في ذلك الحين، فيستولي الحزنُ على المصريين إذ يُثْنُون آسفين على خلاص

(١) انظر: خر ٦: ٦ س.

(٢) لو ٤: ١٩.

(٣) أَف ٤: ٣٠.

(٤) مز ٨٧: ٤٧ مرا ٣: ٥٥.

(٥) مز ٦: ١٠٦.

أَسْرَاهُمْ. وَاللَّهُ أَيْضًا يَأْمُرُ بِأَنْ يَسْتَعِيرُوْا مِنَ الْمُصْرِيْنَ آنِيَةً ذَهَبٍ وَفَضَّةً وَعِنْدَمَا يَأْخُذُوْنَهَا يَخْرُجُوْنَ، لَأَنَّ النَّفْسَ - حَالَ خَرُوجِهَا مِنَ الظُّلْمَةِ - تَسْتَرُّدُ آنِيَةً الذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ، الَّتِي هِيَ أَفْكَارُهَا الْخَاصَّةُ الصَّالِحةُ، «مُصَفَّقًا بِالنَّارِ سَبْعَةً أَصْعَافٍ»^(۱)، وَالَّتِي بِهَا يُخْدِمُ اللَّهُ وَيُسْتَرِّيْعُ، لَأَنَّ الشَّيَاطِينَ «جِرَاهَا»^(۲) كَانُوا قَدْ أَمْسَكُوا بِأَفْكَارِهَا وَبَدَّدوْهَا وَشَتَّوْهَا. فَطُوْيُّ لِلنَّفْسِ الَّتِي افْتَدَيْتَ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَوَيْلٌ لِلنَّفْسِ الَّتِي لَا تَصْرُخُ وَتَنْتَهَى لِلْقَادِرِ أَنْ يَنْقَذَهَا مِنْ أُولَئِكَ الْمُسَعِّرِيْنَ الْأَفْظَاظِ الْقَسَاءِ.

۱۱ - فَارْتَحَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَمَا صَنَعُوا الْفَصْحَ، وَكَذَلِكَ النَّفْسُ تَتَقدَّمُ بَعْدَمَا تَنَالَ حِيَاةً الرُّوحِ الْقَدِيسِ وَتَتَذَوَّقُ الْخَرُوفَ وَتُمْسِحُ بِدَمِهِ وَتَأْكُلُ الْخَبَرَ الْحَقِيقِيَّ أَيِّ الْكَلْمَةِ الْحَيِّ. وَكَانَ يَتَقدَّمُ أُولَئِكَ عَمُودًا نَارٍ وَعَمُودًا سَحَابٍ^(۳)، أَيِّ إِنَّ الرُّوحَ الْقَدِيسَ حَارِسَهُمْ كَانَ يَغْضُبُهُمْ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا هُوَ يُدْفِئُ النَّفْسَ وَيَقُودُهَا بِقَهْمٍ. فَلَمَّا عَلِمَ فَرْعَوْنُ وَالْمُصْرِيُّونَ بِهُرُوبِ الشَّعَبِ وَفَقْدَانِهِمْ لَا سَتِيعَادُهُ، تَجَاسِرَ - حَتَّى بَعْدِ قَتْلِ الْأَبْكَارِ - وَسَعَى فِي إِثْرِهِ، فَشَدَّ مَرْكَبَاتِهِ بِسُرْعَةٍ وَمَعْهُ كُلُّ شَعْبٍ وَانْطَلَقَ نَحْوَهُمْ لِيَقْتَلُهُمْ. وَلَمَّا كَادُوا أَنْ يَدْرِكُوهُمْ

(۱) مز ۱۱: ۷۷. وَتَشْبِيهُ أَفْكَارِ النَّفْسِ بِالآنِيَةِ هُوَ مِنَ التَّشْبِيهَاتِ الْمَأْلُوفَةِ عِنْدَ الْقَدَّيْسِ أَنْبَا مَقَارَ، سَوَاءً فِي عَظَاتِهِ (عَظَة١١: ۳)، أَوْ فِي بِسْتَانِ الرُّهْبَانِ (قُول١٩٩)، أَوْ فِي فَضَائِلِ أَنْبَا مَقَارَ - فَقْرَة٦۹ (Amélineau, Histoire des Monastères de la Basse-Égypte - p.182).

(۲) امْتَدَادًا وَاسْتِكْمَالًا لِتَشْبِيهِ النَّفْسِ بِشَعْبِ إِسْرَائِيلِ الْخَارِجِ مِنَ مَصْرُ، وَالشَّيَاطِينِ بِالْجِرَاهِنِ الْمُصْرِيِّينَ الَّذِينَ أَخْدَتْ مِنْهُمْ آنِيَةَ الذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ قَبْلَ الْخَرُوجِ (انْظُرْ: خَر٣: ۲۲).

(۳) انْظُرْ: خَر١۳: ۲۱.

وقفت السّحابة في الوسط، تعوق هؤلاء وتطلّبهم بينما تنير لأولئك وتحرسهم^(١). ولئلاً أطيل الحديث باسطاً كلَّ التّاريخ، هلْمَ معِي بهذا المثل - بكلِّ ما فيه - إلى المرامي الروحية.

[ج] العدو يتعقب النفس، والرب ينقذها

١٢ - فحينما تهرب النّفس أوّلاً من المcriين، تتقدّم قوّة الله وتعينها وتقودها إلى الحقّ. وعندما يعلم فرعونُ الروحيُّ ملكُ ظلمة الخطيبة أنَّ النّفس تركته وفرَّت من مملكته آخذةً معها الأفكار التي كانت قبلًا في قبضته - إذ إنَّ هذا هو مقتناه - يظنُّ الخبيث ويجدوه الأمل أهًّا تعود إليه مرة أخرى. لكنَّ لمن يعلم أنَّ النّفس تهرب بالكلية من طغيانه، وأنَّ جزءاً من قوّته قد أبى بالفعل بقتل الأبكار وسرقة الأفكار، فإنه، بفروط وقاحته، يسع خلفها، خائفاً لغلاً بعدما تهرب النّفس تماماً لا يوجد من يكمل مشيّنته وعمله. فيتعقبها بإصرارٍ^(٢) بشدائٍ وتجارب وحروبٍ غير منظورة، فهنا ثمتَخن وهنا تُحرَّب وهنا تَظهر محبتُها للّذى أخرجها من مصر، لأنَّها شَرَّل لتمَخن وتحرب بكلِّ نوع.

(١) انظر: خر: ١٤: ١٩.

(٢) من الفعل καταδιώκω = to pursue eagerly, closely = διώκω = to pursue - يتعقب بجهد، بعناء، عن كثب (وليس مجرد خروجهم)، وهو الفعل المستخدم في وصف تعقب فرعون لبني إسرائيل إبان خروجهم (انظر: خر: ١٤: ٤، ٨، ٩، ٢٣، ٢٣ س).

١٣ - فإنّها تنظر قوّة العدو آتيةً عليها مُريدةً أن تُحيتها إلّا أنها لا تستطيع لأنّ الرّبّ واقفٌ بينها وبين أرواح الشّرِّ^(١)، لكنّها تنظر أيضًا أمامها بحرّ المراة والضيق واليأس؛ فلا هي تستطيع أن تعود أدراجها إلى الوراء إذ تبصر أعداءها متآهبين، ولا هي تستطيع أن تمضي قُدُّمًا إلى الأمام لأنّ «فرَعَ المَوْتِ»^(٢) وضيقاتٍ رهيبةً شئٌ تكتنفها تجعلها تبصر الموت. ففيأس النّفس من ذاتها ويكون لها في ذاتها «حُكْمُ المَوْتِ»^(٣)، لأجل حشد الشّرور المُحدِّق بها. وحينما يرى الله النّفس وقد سقطت في فَرع الموت، والعدو على أهبة استعداده لابتلاعها، حينئذٍ تحديدًا يهبها معونةً يسيرةً، إذ يطيل أناته على النّفس ويعتّن بها، أثبتت في الإيمان ويكون لها محبّةً من نحوه. فإنّ الله قد رسّم هذا الطريق «الذّي يُؤدي إلى الحياة»^(٤) لأنّ يلازمها شدّةً وضيقًّا وامتحانًّا كثيرًّا وتحاربُ مُرّةً جدًا، لكي تبلغ النّفس هنا أخيرًا الأرض الحقيقية - أرض «مَجْدِ أَوْلَادِ الله»^(٥). فعندما تيأس النّفس وتُقْنَط من ذاتها بسبب فداحة شدائدها والموت الماثل أمام عينيها، عندئذٍ «يَدِ قُويّةٍ وَذِرَاعٍ عَالِيَّةٍ»^(٦) وبواسطة إنارة الروح القدس، تُحرِّق النفس قوّة الظلمة

(١) حرّقًا: ”*Aἰγυπτίων πνευμάτων*“ - أرواح المصريين“، والمراد طبعًا: أرواح الشّرِّ.

(٢) مز ٥٤: ٥٥ س.

(٣) كو ٢: ٩ .

(٤) مت ٧: ١٤ .

(٥) رو ٨: ٢١ .

(٦) تث ٤: ٣٤ ؛ ٥: ١٥ س؛ ٦: ٦ س؛ ٧: ٨ س؛ مز ١٣٥: ١٢ س؛ إر ٣٩: ٢١ س.

وتحتازها، هاربةً من مواضع خفية، وعاشرةً بحر الظلمة والنار الأكلة.

١٤ - هذه هي أسرار النفس، الأسرار الصائرة حَقّاً في الإنسان الذي يسعى جاداً ليأتي إلى موعد الحياة، والذي يفتدى من مملكة الموت وينال العُربون من الله ويصير شريك الروح القدس. ثم إنَّ النفس لِمَا ثُنِّدَ من أعدائها وتَعْبُرُ البحَرَ الْمُرَّ بِقُوَّةِ الله وتبصر أمم عينيها أعداءها هالكين^(١)، أولئك الذين كانت مُسْتَعْبَدَةً لهم قبلاً، فإنهما «تَبَتَّهُجُ بِفَرَحٍ لَا يُنْطَقُ بِهِ وَجِيدٍ»^(٢)، ظافرةً بعزاء من الله وبراحة في الرَّبِّ. حينئذٍ يُشَدُّ الروحُ الذي نالته نشيداً جديداً لله بالدُّفِّ أي بالجسد، وبأوتار القيثار الروحية أي بأوتار النفس، وبالأفكار الأشد لطافة، وبعزف النعمة الإلهية، ويرسل إلى فوق تسابيح للمسيح المُحيي. فكما أنه بواسطة المزمار تُصدر النسمة صوتاً عند مرورها فيه، هكذا بواسطة القديسين ولا يُبْسِي الروح يكون الروح القدس مُسَيْخاً ومُرِّتاً ومُصَلِّياً لله في القلب النقي. فالمجد لمَن أنقذَ النَّفْسَ من عبوديَّةِ فرعون، وجعلها له عرشاً خاصاً وبيتها وهيكلاً وعروساً نقيةً، وقادها إلى ملَكوت الحياة الأبديَّة وهي بعد في هذا العالم!

(١) انظر: خر ١٤ : ٣٠.

(٢) ابط ١ : ٨.

[د] المسيح يُحَوِّل ماراتنا إلى حلاوة

١٥ - إِبَان النَّامُوسَ كَانَتْ تُقَدِّمَ حِيَوانَاتٍ غَيْرَ عَاكِلَةً ذِيَحَّةً، وَإِذَا لَمْ تُذْبَحْ فَمَا كَانَتْ تُحَسَّبُ التَّقْدِيمَاتِ مَقْبُولَةً؛ وَالآنَ أَيْضًا مَا لَمْ تُذْبَحْ الْخَطِيئَةَ فَلَا تَكُونُ التَّقْدِيمَةُ مَقْبُولَةً عِنْدَ اللَّهِ وَحْقِيقَيَّةً.

ثُمَّ إِنَّ الشَّعْبَ جَاءَ إِلَى "مَارَةَ"، حِيثُ كَانَ هُنَاكَ تَبَعَّ يَنْبَغِي مَاءً مَرَّاً لَا يَصْلَحُ لِلنَّشْرَبِ، فَأَمَرَ اللَّهُ بَأْنَ ثَلَقَ شَجَرَةً مَقْطُوْعَةً فِي المَاءِ الْمَرَّ، وَهَكَذَا لِمَا أَلْقَيْتَ الشَّجَرَةَ خَلِيَّ الْمَاءِ وَتَحَوَّلَ مِنْ مَارَةَ إِلَى صَالِحًا لِلنَّشْرَبِ وَنَافِعًا لِشَعْبِ اللَّهِ^(١)؛ عَلَى نَفْسِ الْمُنَوَّلِ أَيْضًا قَدْ بَاتَتِ النَّفْسُ مَرَّةً لِمَا جَرَعَتْ سُمَّ الْأَفْعَى وَشَابَهَتْ طَبِيعَتِهَا الْمَرَّةُ وَصَارَتْ خَاطِئَةً، هَذَا يُلْقِي اللَّهُ «شَجَرَةَ الْحَيَاةِ»^(٢) فِي تَبَعَّ القَلْبِ الْمَرَّ نَفْسِهِ، فَيَخْلُى وَيَتَحَوَّلُ مِنَ الْمَارَةِ وَقَنْجِ النَّفْسِ بِرُوحِ الْمَسِيحِ، وَهَكَذَا تَصِيرُ نَافِعَةً وَتَتَقَدِّمُ لِخَدْمَةِ سَيِّدِهَا. إِذْ تَغْدو رُوْحًا لَابْسَا جَسْدًا، فَالْمَجْدُ لِمَنْ يُحَوِّلْ مَارَاتِنَا إِلَى حَلاوةِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ وَعَذْوَبِتِهِ! وَوَيْلُ لِذَاكَ الَّذِي لَمْ يُلْقَ فِيهِ، أَيْ فِي قَلْبِهِ، «شَجَرَةَ الْحَيَاةِ»، فَإِنَّهُ يَقْبِعُ فِي مَارَاتِهِ إِلَى النِّهَايَةِ. فَلَأَنَّهُ لَمْ يَنْلِ «شَجَرَةَ الْحَيَاةِ»، لَا يَمْكُهُ أَنْ يَظْفَرَ بِأَيِّ تَحَوُّلٍ صَالِحٍ.

١٦ - فَعْصَا مُوسَى كَانَتْ تَحْمِلْ صُورَتَيْنِ، فَبَيْنَمَا كَانَتْ تَبْدُو لِلْأَعْدَاءِ

(١) انظر: خر ١٥: ٢٣ - ٢٥.

(٢) رو ٢: ٤٧ - ٤٨.

كحيةٌ تلangu وقتل، كانت للإسرائيليين عصاً يتشددون بها؛ هكذا أيضًا خشبة الصليب الحقيقة، التي هي المسيح، فهي موتٌ للأعداء أي لأرواح الشرّ، بينما لنفسنا عصاً وعَصْدٌ لا يُنال وحياةٌ تستند عليها نفوسنا. فإنَّ ما كان يجري قبلًا هو رمزٌ وظلالٌ لهذه الأمور الحقيقة، لأنَّ العبادة القديمة هي ظلٌّ وصورةٌ للعبادة الحاضرة. والختان، والخيمة، والتائب، والقسط، والمن، والكهنوت، والبخور، والغسلات، وبالإجمال كلُّ ما قد صار في إسرائيل وفي ناموس موسى أو في الأنبياء، إنَّما قد صار من أجل هذه النفس التي كُوئِتَت على صورة الله وسقطت تحت نير العبودية وتحت مملكة الظلمة والمراة.

١٧ - فإنَّه مع هذه النفس أراد الله أن تكون له شرِّكة، وإيَّاهَا خطبَ^(١) لنفسه عروسًا للملك، وإيَّاهَا يُطَهِّر من الدنس ويُعَسِّلها ويُجْنُوها من سُوادها وقباحتها، ويُحييها من مواتها ويُشفِّيها من كُسْرها، ويَهْبُتها سلامًا مصالحةً إيَّاهَا من بعد العداوة. فرغم كونها مخلوقةً، فقد خطبَت عروسًا لابن الملك، والله بقدرته الخاصةٍ يقبلها إليه ويُغَيِّرها قليلاً، إلى أن يُنْمِيَها إلى قامته الخاصة، فيمتدُّ بها ويُوسعُها إلى ثُوُّ لا حدود له ولا قياس، إلى أن تصير عروسًا بلا عيب فميبةً به. فإنَّه أولًا يلْدُحُها في نفسه وينميها بواسطة نفسه إلى أن تتألَّ قامة حِبه الكاملة، فحيث إنَّه عريضٌ كاملٌ فهو يأخذها عروسًا كاملةً إلى شرِّكة العروس المقدسة المستيكية فائقة التقاوِة، وحينذاك تَمْلك معه إلى الأبد التي لا نهاية لها، آمين.

(١) من الفعل *وَسَمِعَ* = يخطب، انظر: حاشية ٢ صفحة ٢٦٦ - العظة ١٢.

العظة الثامنة والأربعون

الاتكال الكامل على الله

[عن الإيمان الكامل بالله]



١ - لِمَّا أَرَادَ الرَّبُّ أَنْ يَقُودَ تَلَامِيذهُ إِلَى الْإِيمَانِ الْكَاملِ، قَالَ فِي الْإِنجِيلِ: «الْمُؤْمِنُ^(١) فِي الْقَلِيلِ مُؤْمِنٌ أَيْضًا فِي الْكَثِيرِ، وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِ فِي الْقَلِيلِ غَيْرُ مُؤْمِنٍ أَيْضًا فِي الْكَثِيرِ» (لو ١٦ : ١٠ - حَسْبُ النَّصْ). فَمَا هُوَ "الْقَلِيلُ" وَمَا هُوَ "الْكَثِيرُ"؟ "الْقَلِيلُ" هُوَ وَعْدُ هَذَا الدَّهْرِ الَّتِي تَعَهَّدَ الرَّبُّ بِأَنْ يَقْدِمَهَا لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، مُثْلِ الطَّعَامِ وَالثَّيَابِ وَبَقِيَّةِ أَسْبَابِ رَاحَةِ الْجَسَدِ، أَوِ الصِّحَّةِ وَمَا شَابَهُ، الْأَمْورُ الَّتِي سَبَقَ وَأَمَرَ أَنْ لَا تُعِيرُهَا اهْتِمَامًا بِالْكِلَيْةِ^(٢) بَلْ تَكَلَّ عَلَيْهِ بَشَقةٍ، لَأَنَّ الرَّبَّ يَصِيرُ مُتَكَفِّلًا بِكُلِّ شَيْءٍ لِلَّذِينَ يَلْتَجِئُونَ إِلَيْهِ؛ أَمَّا "الْكَثِيرُ" فَهُوَ عَطَايَا الدَّهْرِ الْأَبْدِيِّ غَيْرِ الْفَانِي الَّتِي تَعَهَّدَ بِأَنْ يَقْدِمَهَا لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَالَّذِينَ بِلَا انْقِطَاعٍ يَهْتَمُّونَ بِهَا وَيَسْأَلُونَهُ عَنْهَا. فَإِنَّهُ هَكُذا أَوْصَى قَائِلاً: «أَتَأْنُتُمْ فَاطَّلَبُوا فَقَطْ مَلْكُوتَهُ وَبِرَّهُ، وَهَذِهِ كُلُّهُ تُرَازُّ لَكُمْ» (مت ١ : ٣٣ - حَسْبُ النَّصِّ)، لَكِي مِنْ هَذِهِ الْأَمْورِ الصَّغِيرَةِ الزَّمِنِيَّةِ يُمْتَحَنَ كُلُّ وَاحِدٍ، أَيُؤْمِنُ بِاللهِ.

(١) πιστός = مُؤْمِنٌ، أَمِينٌ، وَسِيقَتْ هَذِهِ الْعَظَةُ بِتَرجِيعِ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ.

(٢) انْظُرْ: مت ٦ : ٢٥ - ٤٣٤؛ لو ١٢ : ٢٢ - ٣١.

لأنه وَعَدَ أَنْ يُقْدِمُهَا إِنْ كَنَّا لَا تُلْقِي بِالْأَلْأَلِ إِلَى مُثْلِ هَذِهِ الْأَمْوَارِ، وَنَقْصُرُ عَنِ ابْنَائِنَا فَقْطًا عَلَى الْأَمْوَارِ الْعَتِيدَةِ وَالْأَبْدِيَّةِ.

٢ - وَحِينَئِذٍ يَكُونُ ظَاهِرًا أَنَّ الْإِنْسَانَ يُؤْمِنُ فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْأَمْوَارِ غَيْرِ الْفَانِيَةِ وَيُطْلَبُ بِالْحَقِّ الْخَيْرَاتِ الْأَبْدِيَّةِ إِنْ كَانَ يَحْفَظُ إِيمَانَهُ سَالِمًا فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْأَمْوَارِ الْمَنْظُورَةِ^(١). فَيَنْبَغِي لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الَّذِينَ يَطْبِعُونَ كَلْمَةَ الْحَقِّ أَنْ يَمْتَحِنَ نَفْسَهُ وَيَفْحَصُهَا أَوْ أَنْ يَفْحَصَ وَيَمْتَحِنَ عَلَى يَدِ رِجَالٍ رُوحَانِيَّينَ، كَيْفَ آمَنَ وَأَعْطَى ذَاتَهُ اللَّهَ: هَلْ حَقًّا بِالْحَقِيقَةِ بِحَسْبِ كَلْمَتَهُ، أَمْ إِنَّهُ بِزَعْمِهِ الْبِرُّ وَالْإِيمَانِ يَتَوَهَّمُ فِي نَفْسِهِ الْإِيمَانَ. فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَمْتَحِنُ وَيُوَبَّغُ بِهَذَا: أَمْؤْمَنٌ هُوَ فِي الْقَلِيلِ، أَعْنِي الْأَمْوَارِ الرَّمْنِيَّةِ. أَمَّا كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكُ، فَاسْتَمْعُ: أَتَقُولُ إِنَّكَ تَوْمَنُ بِأَنَّكَ صَرَتْ أَهْلًا لِلْمَلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ، وَأَنَّكَ عَدَوْتَ بَنِيَّلَادَكَ الْفَوْقَانِيَّ ابْنَاءَ اللَّهِ وَوَارِثًا مَعَ الْمَسِيحِ^(٢)، وَأَنَّكَ تَمْلِكُ مَعَهُ إِلَى كُلِّ الدُّهُورِ، وَأَنَّكَ تَتَنَعَّمُ فِي نُورٍ لَا يُطَقَّ بِهِ عَبْرِ دَهْوِرٍ لَا نَهَايَةَ لَهَا وَلَا حَصْرٍ كَمَا اللَّهُ؟ دُونَ شَلَّةٍ سَتَقُولُ: ”نَعَمْ، فَإِنَّهُ لِأَجْلِ هَذَا السَّبَبِ قَدْ أُعْطِيَتُ ذَاتِي لِلرَّبِّ تَارِكًا الْعَالَمَ“.

٣ - فَامْتَحِنْ نَفْسَكَ إِذَا لَعَلَّا تَكُونَ بَعْدُ مَسْوِكًا مِنَ الْهَمُومِ الْأَرْضِيَّةِ

(١) وَرَدَتْ فِي PG: εἰρημένων = الْأَمْوَارِ السَّائِقَ ذَكْرَهَا، بَدْلًا مِنْ ”όρωμένων“ الْأَمْوَارِ الْمَنْظُورَةِ (PG 34, 809 A).

(٢) انْظُرْ: رو: ٨: ١٧.

(٣) انْظُرْ: ق٢: ٢: ١٢.

والقلق الزائد فيما يخص طعام الجسد ولباسه وبقية الاهتمامات وأسباب الرّاحّة، وكأنك بقدرتك الذاتيّة تُكفل نفسك وتعيّن بها، في حين أنك أمرت أن لا تكررّ البّة بتلك الأمور من جهة نفسك. لأنك إنْ كنت تؤمن بنيلك الأمور الحالدة والأبدية والباقيّة والفائض، فكم بالأحرى هذه الأمور العابرة والأرضيّة التي أعطاها الله حتّى للأشرار والوحوش والطّيور، ألا تؤمن أنَّ الرّب يقدّمها لك، لا سيّما وإنَّ قد أمر أيضًا بعدم الاهتمام البّة بهذه الأمور، قائلاً: «لَا تَهْتَمُوا بِمَا تَأْكُلُونَ أَوْ بِمَا تَشْرِبُونَ أَوْ بِمَا تَلْبِسُونَ، فَإِنَّ كُلَّهَا تَطْلُبُهَا الْأُمُّ» (مت ٦ : ٣١ ، ٣٢ - حسب النّصّ)؟ فإنْ كنت لا تزال مهتمًّا بهذه الأمور، ولم تتعهد بنفسك كليّة إلى كلمته، فاعلم أنك ما آمنتَ بعدَ بنيلك الخيرات الأبدية، أي ملوكوت السّماوات، حتّى وإنْ ظنتَ أنك تؤمن، ذلك لأنك وجدت في الأمور الصّغيرة الفانية غيرَ مؤمنٍ بعد. وقد قال أيضًا «كَمَا أَنَّ الْجَسَدَ أَكْرَمُ مِنَ الْبَيْسِ، هَكَذَا النَّفْسُ أَكْرَمُ مِنَ الْجَسَدِ»^(١)؛ أتؤمن إذاً أنَّ نفسك تقبل بواسطة المسيح شفاءً من جراحاتها الدهريّة المتعدّر شفاها عند البشر، أي أهواء الخطيئة - ذلك الشفاء الذي من أجله أتي الرّب هنا لكي يشفى الآن نفوس المؤمنين من الأهواء المستعصية ويُطهّرها من دنس برص الشرّ، وهو الطّيّب الوحيد الحقيقى والشافى؟

(١) انظر: مت ٦ : ٢٥.

٤ - ستقول دون شكٍ: ”أُؤمن، ففي هذا أنا قائِم وهذا هو انتظاري“ . فاعرف ذاتك إذاً وافحصها لئلا تكون آلامك الجسدية تسوقك إلى أطباء أرضيين، وكأنَّ المسيح الذي آمنت به غير قادر على مداواتك. فانظر كيف أنك تخدع ذاتك إذ تتوهم أنك تؤمن، مع أنك لم تؤمن بعد كما ينبغي بالحق. لأنك إنْ آمنت أنَّ جراح نفسك غير المائة - تلك الجروح الذهنية المتعذّر شفاؤها - وأهواء الشَّرِّ إنما تُشفى بواسطة المسيح، لكنَّك تؤمن بأنَّه قادر كذلك على شفاء آلام جسده الرَّمنيَّة وأسقامك، ولكنَّك تلُوذ به هو وحده متغاضياً عن الوسائل والعلاجات الطبيعية. لأنَّ الذي خلق النَّفس هو الذي صنع الجسد أيضاً، والذي يشفى تلك النَّفس غير المائة هو الذي يستطيع أن يداوي الجسد من آلامه الرَّمنيَّة وأسقامه.

٥ - لكنك بلا شك ستقول لي هذا: ”إنَّ الله قد أعطى الجسد أعشاب الأرض والأدوية لشفائه^(١) ، وبسبق فأعدَّ وسائل الأطباء من أجل آلام الجسد، راسماً أن يُداوى الجسد - كونه من الأرض - بمنتجات الأرض المتنوعة“ . أُوافقك أنا أيضاً أنَّ هذه الأمور هكذا هي، لكن انتبه وسوف تَعرِف كيف هذا، ولمن أُعطيت هذه الأمور ولمَن دبرها الله بمحسب جزيل محبّته للبشر غير المحدودة ولطفه. فإنه لِمَا سقط الإنسان من الوصيَّة التي

(١) انظر: سي: ٣٨: ٤.

كان قد أخذها، وأصبح تحت حكم الغضب، ونُفِيَ من تنعم الفردوس إلى هذا العالم كما إلى السُّبُّي والمذلَّة أو العمل في المناجم، وبات تحت سلطان الظُّلْمَة، وصار غَيْرَ مُؤْمِنٍ بسبب ضلال الأهواء، سقط أخِيرًا - هذا الذي كان قبلاً بلا لَمٍ ولا مرض - سقط تحت آلام الجسد وأسقامه، وواضح أنَّ جميع المولودين منه أيضًا قد سقطوا تحت الآلام عينها.

٦ - من ثُمَّ فقد دَبَّرَ اللَّهُ هذه الأمور للضعفاء وغير المؤمنين، إذ لم يشأ - بفرط لطفه - أن يهلك بالتمام جنس البشر الخاطئ، بل أعطى الأدوية لأناس العالم ولجميع الَّذِين هم من خارج^(١) لأجل إراحة الجسد ومداواته ورعايته، فآذن باستعمالها لأوائل الَّذِين ما استطاعوا بعدُ أن يكُلُّوا أمر نفوسهم كُلَّيَّةً إلى الله. أمَّا أنت أَيُّهَا الرَّاهِبُ الَّذِي تقدَّمتَ إلى المسيح، والَّذِي تروم أن تكون ابْنَةَ الله وتولَدَ من فوق من الرُّوح القدس، والَّذِي تنتظر مواعيدَ أسمى وأعظم من تلك الَّتِي كانت للإنسان الأوَّلَ غَيْرَ المتألم - أعني مَسَرَّةَ سُكْنِي الرَّبِّ - والَّذِي أصبحت غريباً عن العالم، فيتوجَّب عليك أن تقُنِي إيماناً جديداً وعجبياً ونَيَّةً وسيرةً تفوق كلَّ أنساب العالم. والمجد للأب والابن والروح القدس إلى الدُّهُور، آمين.

(١) أي غير المؤمنين (انظر: أكون ٥؛ ١٢، في ٣: ٧).

العظة التاسعة والأربعون

الغرابة عن العالم، وحلول الله في الإنسان

[لا يكفي الإنسان أن يترك عنه تنعم هذا العالم ما لم ينل غبطة العالم الآخر]

[١] فرح الروح القدس مقابل فرح العالم [ب] الله يُسْخَدُ الإنسـان مُسـكـنـاً له



[١] فرح الروح القدس مقابل فرح العالم

١ - إنْ كانَ أَحَدٌ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ذُوِّيهِ وَيَهْجُرُ هَذَا الْعَالَمَ وَيَتَرَكُ عَنْهُ
تَنْعُمُ الْعَالَمِ وَالْمَمْلَكَاتِ وَالْأَبْ وَالْأُمَّ مِنْ أَجْلِ الرَّبِّ، وَيَصْلَبُ نَفْسَهُ
وَيَصْبِرُ غَرِيبًا وَمُسْكِنًا وَمُغْوِزًا، وَلَكِنَّهُ عَوْضَ رَاحَةِ الْعَالَمِ لَا يَجِدُ رَاحَةً إِلَيْهَا
فِي ذَاتِهِ، وَعَوْضَ التَّنْعُمِ الزَّائِلِ لَا يَشْعُرُ بِتَنْعُمِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ فِي نَفْسِهِ
وَعَوْضَ الْقِيَابِ الَّتِي تَبَلَّى لَا يَكْتَسِي بِشَيْابِ نُورِ الْأَلَاهُوتِ فِي إِنْسـانـ

الْبَاطِنِ، وَعَوْضَ هَذِهِ الشَّرِكَةِ الْجَسَدَائِيَّةِ الزَّائِلَةِ لَا يَعْرِفُ، عَنْ يَقِينِ،
شَرِكَةَ (الْعَرِيسِ) السَّمَاوِيَّ فِي نَفْسِهِ، وَعَوْضَ فَرَحِ الْعَالَمِ الظَّاهِرِ لَا يَكُونُ
لَهُ فَرَحُ الرُّوحِ الْقَدِيسِ فِي الدَّاخِلِ، وَلَا يَنْالُ تَعْزِيَةَ الْبِعْمَةِ السَّمَاوِيَّةِ

والشَّيْء الإلهي في نفسه حين يَظُهُر له مجَدُ الرَّب بحسب المكتوب^(١)؛ وفي كَلِمَةٍ: إِنْ كَانَ لَا يَقْتَنِي الْآنَ فِي نَفْسِهِ، عِوْضَ هَذَا التَّمَتُّع الزَّائِل تَمَتُّعاً مُشْتَهِي لَا يَشُوْهِ فَسَادَ، فَهَذَا قَدْ صَار مِلْحًا بِلَا طَعْمٍ؛ هَذَا أَوَّلَى بِالشَّفَقة أَكْثَرَ مِنْ جَمِيع النَّاسِ، فَإِنَّهُ حُرْمَ مَمَّا هُنَا وَمَا نَعْمَ بِالْعَطَاءِيَّاتِ الإلهيَّةِ، فَلَمْ يَعْرِفْ الأَسْرَارِ الإلهيَّاتِ فِي إِنْسَانِهِ الْبَاطِنِ بِفَعْلِ الرُّوحِ الْقَدِيسِ.

٢ - لِأَنَّهُ مِنْ أَجْلِ هَذَا قَدْ تَغَرَّبَ الْإِنْسَانُ عَنِ الْعَالَمِ، لِكَيْ تَنْتَقِلَ نَفْسُهُ بِفَكْرِهِ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ وَدِهْرٍ آخَرَ بحسب الرَّسُول: «فَإِنَّ مَوْطِنَنَا لَنَحْنُ هُوَ فِي السَّمَاوَاتِ» (فِي ٣: ٢٠)، وَأَيْضًا: «إِنْ كُنَّا نَسْلُكُ عَلَى الْأَرْضِ، لَسْنَا حَسَبَ الْجَسَدِ لَخَارِبٌ» (كِو ١٠: ٣ - حَسْبُ النَّصّ). فَيَنْبَغِي إِذَا لَمَنْ يَهْجُرْ هَذَا الْعَالَمَ أَنْ يُؤْمِنَ بِثَبَاتِ أَنَّهُ لَا بَدَّ لَهُ أَنْ يَنْتَقِلَ بِفَكْرِهِ مِنْذَ الْآنِ إِلَى دِهْرٍ آخَرَ بِالرُّوحِ الْقَدِيسِ، وَهُنَاكَ يَسْتَوْطِنُ وَيَتَنَعَّمُ وَيَتَمَتَّعُ بِالْخَيْرَاتِ الرُّوحِيَّةِ وَيُولَدُ إِنْسَانُهُ الْبَاطِنُ مِنَ الرُّوحِ، كَمَا قَالَ الرَّبُّ: «الَّذِي يُؤْمِنُ بِي قَدْ انتَقَلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ» (قا: يو ٥: ٢٤). فَشَّيَّةٌ مَوْتٌ آخَرَ بِخَلَافِ الْمَوْتِ الظَّاهِرِ، وَحِيَاةٌ آخَرَى بِخَلَافِ الظَّاهِرَةِ، لِأَنَّ الْكِتَابَ يَقُولُ إِنَّ «الْمُتَتَعِّمَةَ قَدْ مَاتَتْ وَهِيَ حَيَّةٌ» (اتي ٥: ٦)، وَ«دَعُوا الْمَوْتَى يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ» (مت ٨: ٢٢؛ لو ٩: ٦٠ - حَسْبَ

(١) مز ١٦: ١٥ اس: «أَمَّا أَنَا فِيَابِرٍ أَظْهَرْ لِوَجْهِكَ، أَشْبَعْ جِينَما يَظْهُرْ بِمَجْدِكَ»؛ وقد وردت الآية في البيرورية عن العبرية هكذا: «أَمَّا أَنَا فِيَابِرٍ أَنْظَرْ وَجْهِكَ، أَشْبَعْ إِذَا اسْتَيْقَطَتْ بِشَبَهِكَ».

النَّصْ)، «لَاَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْوَاتُ سَيِّسَتْ حُكْمَنَكَ يَا رَبُّ، بَلْ نَحْنُ الْأَحْيَاءُ سَنَبَارِكُكَ» (مز ١١٣ : ٢٥، ٢٦ س).

٣ - فَكَمَا أَنَّ الشَّمْسَ حِينَما تَشْرُقُ عَلَى الْأَرْضِ تَكُونُ بِكَلِّهَا فِي الْأَرْضِ، لَكِنْ عِنْدَ غُرُوبِهَا تُلْمِلِمُ كُلَّ أَشْعَتِهَا ذَاهِبَةً إِلَى مَقْرِبِهَا؛ هَكُذا أَيْضًا النَّفْسُ الَّتِي لَمْ تُولِدْ ثَانِيَةً مِنْ فَوْقِ مِنْ الرُّوحِ الْقَدِيسِ، فَكُلُّهَا تَكُونُ فِي الْأَرْضِ بِأَفْكَارِهَا، وَبِذَهْنِهَا تَمْتَدُّ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى أَقْصَائِهَا؛ لَكِنْ إِنْ هِيَ حُسْبَيْتَ أَهْلًا لِلنَّيْلِ وَلَادَةِ الرُّوحِ السَّمَاوِيَّةِ وَشَرِيكَتِهِ، فَإِنَّهَا تَجْمَعُ كُلَّ أَفْكَارِهَا وَتَأْخُذُهَا مَعَهَا وَتَدْخُلُ إِلَى الرَّبِّ، إِلَى الْمَسْكِنِ الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ غَيْرِ الْمَصْنَوِعِ يَبْدِي، وَتَغْدوُ جَمِيعُ أَفْكَارِهَا سَمَاوِيَّةً نَقِيَّةً مَقْدَسَةً مَرْتَفَعَةً إِلَى أَجْوَاءِ إِلَهِيَّةٍ. لَاَنَّ النَّفْسَ مَتَى أُنْقِدَتْ مِنْ سَجْنِ الظُّلْمَةِ وَمِنْ رَئِيسِ الشَّرِّ وَمِنْ رُوحِ الْعَالَمِ، فَإِنَّهَا تَجْدِي أَفْكَارَهَا نَقِيَّةً وَإِلَهِيَّةً، لَاَنَّ اللَّهَ سُرَّ أَنْ يَجْعَلَ الْإِنْسَانَ «شَرِيكَ الطِّبِيعَةِ الإِلَهِيَّةِ»^(١).

[ب] اللَّهُ يَتَّخِذُ الْإِنْسَانَ مَسْكِنًا لَهُ

٤ - فَإِنْ كُنْتَ تَعْزِلُ كُلَّ أَمْوَالِ الْحَيَاةِ وَتَوَاظِبُ عَلَى صَلَاتِكَ، أَفْلَنْ تَعْتَبَ بِالْحَرَقِيِّ هَذَا الْعَنَاءُ مَلْوَءًا رَاحَةً، وَتَحْسَبَ هَذَا الضَّيْقَ وَالْعَبَرَ

(١) انظر: ٢ بط ١ : ٤.

اليسير مفعماً فرحاً وارتياحاً عظيماً جدًا؟ لأنَّه إنْ كان جسده ونفسه
 كلاماً يفنيان كلَّ ساعةٍ مدى عمرك كله في سبيل مثل هذه الخيرات،
 فماذا عساه يكون هذا إزاءها؟ فما لشفقة الله التي لا ينطق بها! إنَّه
 يهب ذاته مجاناً للمؤمنين به ليروه هو الإله في أمدٍ قصير، فيسكن الله
 في جسد الإنسان، ويكون الإنسان مسكناً صاحباً للرَّبِّ! فكما أنَّ الله
 خلق السماوات والأرض مسكوناً للإنسان، هكذا أيضاً خلق جسد الإنسان
 ونفسه بيته خاصاً له ليسكن ويستريح في الجسد كما في بيته الخاصّ،
 وتكون له النَّفس المحبوبة عروسًا جميلة مخلوقة على صورته، فإنَّ الرَّسول
 يقول: «لَا يَنْهَا حَطَبُكُمْ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ، لِأَقْدِمْ عَذْرَاءَ عَفِيفَةً لِلْمَسِيحِ»
 (كو ١١: ٢)، وأيضاً: «بَيْتُهُ نَحْنُ» (عب ٣: ٦). فكما أنَّ الرجل
 يكتنز في بيته باجتهاد جميع الخيرات، هكذا الرَّبُّ أيضاً في بيته - أي في
 النَّفس والجسد - يكتنز ويكتنز الغنى السماوي الذي للروح القدس. فلا
 الحكمة بحكمتهم ولا الفهماء بفهمهم استطاعوا أن يدركوا رقة النَّفس أو
 يتكلّموا عنها كما هي، بل فقط الذين بالروح القدس يُستعلن لهم إدراكيها
 وتكتشف لهم معرفتها التامة. لكنْ تأمل هنا وميز وافهم كيف ذلك،
 وانصت! هو الإله، وهي ليست إلهاً؛ هو ربُّ، وهي عبدة؛ هو خالق،
 وهي خلقة؛ هو صانع، وهي مصنوعة؛ فليس من شيءٍ مشتركٍ بين
 طبيعته وطبيعتها. لكنْ من أجل محبتِه وشفقته التي لا تُحَدُّ والتي لا ينطق

بها والتي لا تعقل، سر أن يسكن في صنعة يديه وخلائقه العاقلة وصنعيه الكريم الأثير، كما يقول الكتاب: «لِكَيْ نَكُونَ بَاكُورَةً مِنْ خَلَاتِهِ» (يع ١: ١٨)، لأجل حكمته والشِّرْكَة معه، لكي تكون مسكنه الخاصّ وعروسه الخاصة الكريمة النَّفِيَّة!

٥ - فإذا قد وضعت لنا مثل هذه الخيرات ووعدنا بمثل هذه الموعيد وصارت للرَّبِّ من نحونا مثل هذه المسرة، فلا همَلَنَّ، يا أولادي، ولا تباطأَنَّ عن السعي الحثيث صوب الحياة الأبديَّة، وعن تسليم ذاتنا بالتمام لرضاعة الرَّبِّ. فلتتضرع إذا إلى الرَّبِّ لكي يعتقنا بقوَّة لا هوَه من سجن ظلمة «أهْوَاءُ الْهُوَانِ»^(١)، ويتصِّف صورَتَه الخاصة وجُبْلَتَه و يجعلها تشرق علينا، ويصَّير النَّفْسَ صحيحةً نَّفِيَّةً، وهكذا نؤهَل لشِّرْكَةِ الرُّوح القدس، مُجَدِّين الآب والابن والروح القدس، إلى الدُّهُور، آمين.

(١) رو ١: ٢٦.

العظة الخمسون

كنز الروح في إماء النفس الخزفي

[الله هو الذي يمنع العجائب بواسطة قدسيه]



[٩] الله يعمل بواسطة قدسيه

١ - ثُرِيَ مَنْ الَّذِي أَغْلَقَ أَبْوَابَ السَّمَاوَاتِ؟ إِلَيْا أَمَّ اللَّهِ الَّذِي كَانَ فِيهِ
هُوَ الَّذِي أَمْرَى الْمَطَرَ؟ إِنِّي إِخَالَ أَنَّ ذَاكَ الْمُتَسْلِطَ عَلَى السَّمَاءِ هُوَ نَفْسُهِ
جَلَسَ فِي دَاخِلِ عَقْلِ إِلَيْا، وَبِوَاسْطَةِ لِسَانِهِ تَمَعَّنَتْ كَلْمَةُ اللَّهِ الْمَطَرَ أَنْ يَنْزَلَ
عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ تَكَلَّمَ مَرَّةً أُخْرَى فَانْفَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ وَانْهَلَّ
الْمَطَرُ^(١). بِالْمِثْلِ أَيْضًا مُوسَى قَدْ طَرَحَ عَصَاهُ فَصَارَتْ حَيَّةً، ثُمَّ تَكَلَّمَ مَرَّةً
أُخْرَى فَعَادَتْ عَصَاهُ^(٢)؛ وَأَخْذَ رَمَادًا مِنَ الْأَئْوَنِ وَذَرَاهُ فَصَارَ دَمَامَلُ^(٣)؛ وَأَمْرَ

(١) انظر: أمل ٤١: ٤١ - ٤٥.

(٢) انظر: خر ٤: ٣، ٤.

(٣) انظر: خر ٩: ٩.

أيضاً فصار البعض والضفادع^(١)؛ أعلَّ طبيعة البشر لها القدرة أن تصنع هذه الأمور؟ لقد تكلَّم إلى البحر فانشق^(٢)، وإلى النَّهر فتحوَّل إلى دم^(٣). فواضح أنَّ قوَّةً سماوِيَّةً كانت تسكن في عقل موسى وتعمل هذه الآيات بواسطته.

٢ - وداد داود كيف استطاع دون سلاح أن يجاهه مثل هذا العملاق في الحرب؟ فإنَّه لِمَا رَمَى الحجر بُجُah الفلسطيني، كانت يدُ الله تُصَوِّب الحجر بواسطة يدِ داود، وهذه القوَّة الإلهيَّة ذاتها هي الَّتي قَتَّلت الفلسطينيَّة جالبة النُّصرة^(٤)، لأنَّ داود ما كان ليستطيع هذا لضعف جسده. ويشوع بن نون عندما مضى إلى أريحا حاصرها سبعة أيام وهو لا يقوى بطبعته الخاصة أن يصنع شيئاً، لكنَّ لِمَا أَمْرَ الله سقطَت الأسوار من ذاتها^(٥). وحين دخل أرض الموعد قال له الرَّبُّ: "امض إلى الحرب"، فأجاهه يشوع: "حَتَّى هو الرَّبُّ إِلَيْيَ لَنْ أَمْضِي بِدُونِكَ". ومن هو الَّذِي أَمْرَ الشَّمْسَ أن تقف ساعتين أخريين وال Herb دائرة الرَّخْي^(٦)؟ هل طبيعته وحدَّها أم قوَّةً ملائمة

(١) انظر: خر: ٨، ١٧ .٦

(٢) انظر: خر: ١٤ : ٢١ .

(٣) انظر: خر: ٧ : ٢٠ .

(٤) انظر: ١ صم ١٧ : ٤٩ .

(٥) انظر: يش ٦ : ١ - ٢٠ .

(٦) انظر: يش ١٠ : ١٢ .

له؟ وموسى حينما واجه عماليق، كان إذا بسط يديه إلى السماء نحو الله يطأ عماليق، أما إذا حفظ يديه فكان عماليق يغلب^(١).

[ب] انسكاب الروح بفهيء المسيح

٣ - لكن حين تسمع أنت بهذه الأمور التي حدثت، فلا يذهب عقلك بعيداً، لأن تلك كانت رمزاً وظلاً للأمور الحقيقة. فلتتحقق إذا هذه الأمور على ذاتك، فحين تبسط يديك وأفكارك نحو السماء متغيّراً الالتصاق بالرب، يصير الشيطان تحت أفكارك. وكما أنه في أريحا قد سقطت الأسوار بقوة الله، كذلك الآن أيضاً أسوار الشر التي تعترض سبيل عقلك، ومدن الشيطان وأعداؤك، جميعها ثباد تماماً بقوة الله. وهكذا كانت قوّة الله في عهد الظلّ حاضرة مع الأبرار بلا انقطاع وصانعة عجائب ظاهرة، أمّا في داخلهم فكانت النعمة الإلهية تسكن فيهم. بالمثل أيضاً كان الروح القدس يعمل ويخدم في الأنبياء، في نفوسهم، لكي يتبنّوا ويتكلّموا حين كانت الحاجة تقتضي التكلّم إلى العالم بأمورٍ عظيمة، إذ لم يكونوا يتتكلّمون في كلّ حين بل من شاء الروح القدس الذي فيهم، غير أنَّ القوّة كانت دائمًا حاضرة معهم.

(١) انظر: خر ١٧: ١١.

٤ - فإنْ كانَ في عهد الظِّلِّ قد انسكبَ الرُّوحُ القدسُ بِهذا المقدارِ، فكُم بالحربيِّ في العهد الجديد، عهد الصَّلَبِ ومجيءِ المسيحِ، حيث تَحْقَقَ انسكابُ الرُّوحِ القدسِ والشُّكْرُ بِهِ، لأنَّه يقولُ: «سَأَنْسَكِبُ مِنْ رُوحِي عَلَى كُلِّ جَسَدٍ» (يوه ٣: ١٦؛ أع ٢: ١٧). وهذا هو ما قاله الرَّبُّ نفْسُهُ: «سَأَكُونُ مَعَكُمْ إِلَى النِّقْضَاءِ الدَّهْرِ» (مت ٢٨: ٢٠ - حسب النَّصِّ)، «لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَطْلُبُ يَجِدُ»^(١)، فإنَّه يقولُ: «إِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارًا تَعْرُفُونَ أَنْ تُعْطُوْا أَوْلَادَكُمْ عَطَايَا جَيْدَةً، فَكُمْ بِالْحَرَبِيِّ أَبْوَكُمُ السَّمَاءِ وَيُعْطِي الرُّوحَ الْقُدُّسَ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ» (لو ١١: ١٣ - حسب النَّصِّ) - يعطيه بقوَّةٍ ويقيِّنُ شديداً بحسب قولِ الرَّسُولِ^(٢). فمثل هذه الأمور إنما توجد لنا بقياسٍ وبنعيٍ وتصبٍ كثِيرٍ وصَبِرٍ ومحبةٍ من نحوه، بعدما تكون حواسُ النَّفْسِ قد تدرَّبتَ - كما قيلَ - بالخير وبالشرّ^(٣)، أي بـكайд الشِّرّ وفخاخه ومتلَّف هجماته وأشراكه، وبالمثل كذلك بالمواهب المتباينة والمعونات المختلفة الَّتي لفعل الرُّوحُ القدسُ وقوَّته. لأنَّ الَّذِي يعرُفُ فَعَّ الشِّرُّ الَّذِي يُنْجِسُ الإِنْسَانَ الْبَاطِنَ بِواسطَةِ الأَهْوَاءِ، ولا يعرُفُ في ذاتِه جَدَّ المعرفة معونةً روحَ الْحَقِّ الْقَدُّوسِ الَّتي ثَقَوْيَ ضعفَهُ وَجَحِّدَ نفْسَهُ في بمحاجةٍ

(١) انظر: مت ٧: ٤؛ لو ١١: ١٠.

(٢) انظر: أتس ١: ٥.

(٣) انظر: عب ٥: ١٤.

قلب، مثل هذا يسلك بلا تمييز، غير عالم بعد بتنوع تدبير نعمة الله وسلامه. لكن أيضًا الذي يتلقى المعونة من الرَّبِّ ويوجد في غبطةٍ روحيةٍ ومواهب سماويةٍ، إنْ هو ظنَّ أنه لم يَعُدْ يُؤْذَى بعد من الخطيئة، فإنه يخدع من حيث لا يدرِّي، إذ لا يُمْتَزِّ دهاء الشَّرِّ ولا يفهم مَوْعِدُ الطُّفُولة قليلاً وكماها في المسيح بمؤازرة الروح القدس الإلهي. فإنه في الوقت الذي فيه ينمو الإيمانُ ويأخذ في التَّرْقِي، يتداعى كلُّ حصنٍ للأفكار الشَّرِّيرة شيئاً فشيئاً حتى ينهدم تماماً^(١).

فينبغي إذا لکلِّ واحدٍ منا أنْ يفتَشِّ، هل وجَدَ الكنزَ في إماء الحَزَفِ هذا^(٢)، هل لَبِسَ أرجوانَ الرُّوح القدس، هل رأى المَلِكَ ونعم بالرَّاحَةِ مفترياً منه غايةُ الاقتراب، أم إنَّه لا يزال يتمشَّى في الدِّيارِ الْخَارِجِيَّةِ البعيدة. فإنَّ للنَّفْسِ أعضاءً كثيرةً وغَوْرًا عميقًا، وعندما دخلت الخطيئةُ أمسكت بأعضائها جميعًا وبراعي قلبها. فحين يطلب الإنسانُ، تأتي النِّعْمةُ إليه وتمسِّك رَبِّها بعضويَن للنَّفْسِ، فالذِّي لا خبرَة له حين ينال عزاءً من النِّعْمة يتوهَّم أنَّ النِّعْمة لِمَا أتته أمسكت بجميع أعضاء النَّفْسِ وأنَّ الخطيئة قد اقتُلَّت من أصولها، في حين أنَّ الجزء الأَكْبَر لا يزال ممسوِّكاً من الخطيئة

(١) انظر: ٢ كو ١٠ : ٤.

(٢) انظر: ٢ كو ٤ : ٧.

بينما جزءٌ واحدٌ فقط هو الذي تحت سلطان التّعمة، وهكذا فإنَّه يُسرق دون أن يدرِّي.

مع أَنَّه لا يزال لدينا الكثير والكثير عن هذه الأمور لنكتبه إلى نَيَّتكم المخلِّصة، إلَّا أَنَّا أعطيناكم بهذا القليل فرصةً كما لرجالٍ فهماء، لكي إذا ما عملتم وفحصتم قوَّةَ الكلام صرتم أوفَّرْ فهمًا في الرَّبَّ وزدتم في بساطة قلوبكم بنعمته وبقوَّةِ الحقِّ^(١)؛ حتَّى إذا ما تمسَّكتم بكلِّ حرصٍ بخلاصكم، وأنقذتم من كُلِّ عَبَثٍ وغُشٍّ للمقاوم، تؤهَّلوا لأن تجدهم بلا عترة ولا لَوْمٍ في يوم قضاء رِتَّا يسوع المسيح الذي له الحمد إلى الْدُّهُور، آمين.

(١) انظر: أم ٩: ٩ «أَعْطِ الْحَكِيمَ فُرْصَةً وسَيَكُونُ أَوْفَرْ حِكْمَةً». وهذه الحقيقة نجدها أيضًا في ختام رسائل القديس أنطونيوس (انظر الرسائل ٢: ٣؛ ٤: ٤).

ذاق أَنْبِيَا مقار حَبَّ الْمَسِيحِ فَأُمِيطَ لَهُ اللَّثَامُ عَنْ حَبَّ الْأَبِ
وَعَرَفَ أَنَّ هَذَا لَا يَمْكُنُ إِلَّا بِالرُّوحِ الْقَدِسِ، فَبَلَغَ
مِنْهُ الْعَجَبَ مَبْلَغَهُ وَانْتَهَى بِهِ إِلَى أَقْصَاهُ، فَكَانَ يُرَى فِي حَالَةٍ
دَهَشَ بِلَا انْقِطَاعٍ، وَكَانَ يَصْرُفُ وَقْتًا مَعَ اللَّهِ أَكْثَرَ جَدًّا مَمَّا
مَعَ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ تَحْتَ السَّمَاءِ